المدينة العتيقة

LA CITÉ ANTIQUE

مطبعة جرينبرج ٢٠ شارع عدلى باشا – القاهرة
Printed by IMPRIMERIE GRUNBERG — Cairo

فوستل دى كولانج
Fustel de Coulanges

المدينة العتيقة
LA CITÉ ANTIQUE

دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم

ترجمه
عباس بيومى بك
رئيس أمناء
المتحف المصرى

راجعه للوزارة
عبد الحميد الدواخلى
الأستاذ المساعد للأدب العربى
بجامعة فؤاد الأول



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

كلمة للمترجم

ولد المؤلف نوما دينى فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges (Numa - Denis) فى باريس سنة ١٨٣٠ وتوفى فى مارس سنة ١٨٨٩ . وبعد أن اشتغل مدرسا فى عدة مدارس ثانوية فى فرنسا نال شهادة الدكتورا فى سنة ١٨٥٨ وعين استاذا فى جامعة استراسبورج ثم فى جامعة باريس ثم مديرا لمدرسة النورمال وقد انتخب عضوا بالأكاديمية سنة ١٨٧٥ . وقد ألف هذا الكتاب فى سنة ١٨٦٤ بعنوان :

La Cité Antique, Étude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome.

وقد أرجع المؤلف كل أنظمة العنصر الآرى القديمة سواء لدى الهنود أو الإغريق أو الرومان إلى الدين . ولا شك أن كل مذهب من هذا القبيل لايخلو من شىء من المغالاة فى بعض التفاصيل إلا أن نظرية فوستيل دى كولانج كانت ولازالت صحيحة فى جوهرها بل إن الدراسات الحديثة قد عادت من جديد إلى الآراء التى عرضها المؤلف واعتنقتها بشغف كبير . وقد زاد فى قيمة هذا الكتاب ما امتاز به المؤلف من قوة فى التعبير مع سلامة الأسلوب .

ولعل الصعوبة الكبرى التى صادفتنا فى هذه الترجمة هى نقل أسماء الأعلام من أشخاص ومؤلفات إذ أن اللغات الحديثة تختلف فى تحريفها للأسماء الإغريقية واللاتينية ولهذا قد عملنا جهد الطاقة على إعادة هذه الأسماء إلى صورتها فى لغتها الأصلية عدا ما اشتهر منها كسقراط وأفلاطون وهيرودوت . وقد ترددنا فى ترجمة أسماء المراجع القديمة لكننا آثرنا هذه الترجمة لأن المؤلف كان يورد أسماء هذه المؤلفات تارة باللغة اللاتينية وتارة

باللغة الفرنسية ، وجمهور المثقفين فى مصر أكثر معرفة بالإنجليزية منه بالفرنسية ؛ وفى تعريب هذه الأسماء توحيد لها فضلا عما فيه من سهولة فى الطباعة . وربما وجد البعض أن ترجمة كلمة *Fastes* «مثلا» بأعياد لا تؤدى كل معانى الكلمة اللاتينية وعذرنا أننا لو حاولنا أن نحيط بكل معانيها لاستعملنا جملة طويلة فى حين أن الإيجاز واجب فى ذكر أسماء المراجع كما فضلنا أن نترك بعض الأسماء كما هى مثل الإنيد وساتورناليا و **odes** لخفتها فى النطق وجريها على ألسنة المشتغلين بالدراسات القديمة وعدم وجود فائدة كبيرة فى محاولة تعريبها . وفى هذه الحالات كنا نذكر الاسم بالإفرنجية فى المرات الأولى التى يرد فيها ذلك الاسم حتى لا يضل القارىء .

وإنا لنعتذر لحضرات القراء عن نقطة ضعف لا حيلة للمترجم فيها وهى عدم استعمال حروف الباء والجيم والفاء ذات النقط الثلاث فى الحواشى لمقابلة الحروف الإفرنجية V. J. P. لعدم وجودها بالمطبعة فى « البنط الصغير » مع ضرورتها لضبط أسماء الأعلام ولقد حاولنا ، فيما عدا الأسماء المألوفة ، أن نسد هذا النقص بذكر الاسم بالحروف الإفرنجية بجوار الكتابة العربية مرة على الأقل .

القاهرة فى ٢٥ مارس سنة ١٩٥٠

عباس بيومى

مقدمة

ضرورة دراسة أقدم عقائد القدماء لمعرفة أنظمتهم

نعتزم أن نبين هنا وفقاً لأي مبادئ، وطبقاً لأي القواعد كان يحكم المجتمع الإغريقي والمجتمع الروماني. ونجمع الرومان والإغريق في نفس الدراسة لأن هذين الشعبين، وهما فرعان لجنس واحد، كانا يتكلمان لغتين مشتقتين من لغة واحدة. ولهما أيضاً ذخيرة من الأنظمة المشتركة ومرا بسلسلة من الانقلابات المتشابهة.

وسنلتزم على الأخص أن نبين الفروق الأساسية والجوهرية التي تميز الشعوب القديمة عن الشعوب الحديثة تمييزاً كلياً. لأن طريقتنا في التربية التي تجعلنا نعيش منذ الطفولة بين الإغريق والرومان تعودنا أن نقارنهم بنا بدون انقطاع وأن نحكم على تاريخهم طبقاً لتاريخنا وأن نفسر ثوراتهم بثوراتنا. فإن ما تلقيناه عنهم وما خلفوه لنا يجعلنا نعتقد أنهم كانوا يشبهوننا. ويصعب علينا أن نعتبرهم شعوباً غريبة عنا. ونكاد دائماً نرى أنفسنا فيهم. ومن هنا وقعت أخطاء عدة. ولا نكاد نخلو من ضلال بشأن هذه الشعوب القديمة عند ما نرمقهم خلال آراء زماننا ووقائعه.

هذا والأغلاط في هذه المادة لا تخلو من خطر. فإن الفكرة التي كونها الناس عن بلاد الإغريق وروما كثيراً ما بلبلت أفكار أجيالنا. لقد أساء البعض ملاحظة أنظمة المدينة العتيقة فتوهموا أن يحيوها عندنا. فخدعوا أنفسهم في فهم الحرية عند الأقدمين وبهذا وحده تعرضت الحرية للخطر عند المحدثين. وقد

أظهرت الثمانون عاماً الأخيرة من عصرنا في وضوح (١) أن إحدى الصعوبات الكبيرة التي تعترض سير المجتمع الحديث هي ما اعتاده هذا المجتمع من وضع الآثار القديمة الإغريقية والرومانية نصب عينيه

ولمعرفة حقيقة هذه الشعوب الماضية تقتضي الحكمة أن ندرسها دون أن نفكر في أنفسنا، كما لو كانت غريبة عنا تماماً وبنفس عدم التحيز وحرية الفكر كما لو كنا ندرس الهند القديمة أو بلاد العرب

وإذا لاحظنا الإغريق والرومان على هذا النحو ظهروا لنا في صورة لا يمكن تقليدها على الإطلاق. فما من شيء يشبههم في العصر الحديث وما من شيء يمكن أن يشبههم في المستقبل. وسنحاول أن نرى على أية قواعد كانت تحكم هذه المجتمعات وسنرى بسهولة أنه لم يعد في قدرة هذه القواعد نفسها أن تسيطر على الإنسانية

أنى أتى هذا؟ ولماذا لم تعد ظروف حكومة البشر كما كانت عليه في الماضي؟ إن التغييرات الكبيرة التي تلوح من وقت لآخر في نظم المجتمعات لا يمكن أن تكون أثراً للمصادفة ولا للقوة وحدها. لا بد أن يكون السبب الذي يحدثها قوياً، وهذا السبب لا بد أن يكون مقيماً في الإنسان. فإذا كانت قوانين الاجتماع البشري لم تعد هي نفسها كما كانت في الماضي فذلك لأن شيئاً ما قد تغير في الإنسان. وإذا وقع أن جزءاً من كياننا يتغير من قرن إلى قرن، فذلك هو إدراكنا. فهو دائماً في حركة، ويكاد يكون دائماً في تقدم، وبسببه كانت أنظمتنا وقوانيننا عرضة للتبدل. ليس الإنسان اليوم يفكر كما كان يفكر منذ خمسة وعشرين قرناً، ولهذا السبب لم يعد يحكم نفسه اليوم كما كان يحكم وقتذاك

وتاريخ الإغريق والرومان دليل ومثل من أمثلة العلاقة الوثيقة القائمة دائماً بين آراء التصور الإنساني والحالة الاجتماعية لشعب من الشعوب. تأمل أنظمة الأقدمين دون أن تفكر في معتقداتهم تجدها غامضة، شاذة، غريبة، لا تفسر.

(١) وضع المؤلف هذا الكتاب في سنة ١٨٦٤ — المعرب

لماذا وجد الطارقة (patriciens) والسوقة (plébéiens)، الأولياء (patrons) والموالي (clients)، النبلاء (Eupatrides) والوضعاء (Thetes)، ومن أين أتت هذه الفوارق التي تولد مع الناس ولا تمحى، تلك التي حدثت بين هذه الطبقات؟ ماذا تعني هذه الأنظمة اللاقيدمونية التي تبدو لنا منافية للطبيعة كل هذه المنافاة؟ كيف تفسر هذه الغرائب الصحيحة في القانون الخاص القديم؟ لم حرم على الإنسان بيع أرضه في كورنته وثيبه (Thèbes)؟ ولم فرق في الميراث بين الأخ وأخته في أثينا وروما؟ وماذا كان يعني الفقهاء بكلمتي agnatio و gens؟ لماذا هذه الانقلابات في الشرع وهذه الانقلابات في السياسة؟ ما هذه الوطنية الغريبة التي كانت تقضي في بعض الأحيان على كل العواطف الطبيعية؟ وماذا كان يراد بهذه الحرية التي كانوا يتكلمون عنها دائماً؟ وكيف حدث أن أنظمة تبعد كل البعد عن كل ما نفهمه اليوم استطاعت أن تظل قائمة وأن تسيطر زمناً طويلاً؟ وما هو المبدأ الأعلى الذي جعلها تسيطر على نفوس الناس؟

ولكن لنضع المعتقدات إزاء هذه الأنظمة وهذه القوانين فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء، ويعرض تفسيرها من تلقاء نفسه. إذا ما رجعنا إلى العصور الأولى لهذا الجنس، أي إلى الزمن الذي أسس فيه أنظمته، ولاحظنا الفكرة التي كونها عن الكائن البشري، عن الحياة، وعن الموت، وعن الحياة الأخرى، وعن الجوهر الإلهي، فإننا نلاحظ صلة وثيقة بين هذه الآراء وبين قواعد القانون الخاص العتيقة، بين الشعائر المشتقة من هذه العقائد وبين الأنظمة السياسية

ونرى بمقارنة المعتقدات والقوانين أن ديناً قديماً كون الأسرة الإغريقية والرومانية وأقام الزواج والسلطة الأبوية وحدد درجات القرابة وقدس حق الملكية وحق الإرث. وهذا الدين ذاته بعد أن وسع الأسرة ومددها كون جماعة أكبر منها هي المدينة وسيطر عليها كما سيطر على الأسرة. ومن الدين جاءت كل الأنظمة عند الأقدمين كما جاء القانون الخاص. ومنه تلقت المدينة مبادئها وقواعدها وعاداتها ومناصب حكومتها. لكن العقائد القديمة

قد تبدلت مع الزمن أو زالت . وتبدل معها القانون الخاص والأنظمة السياسية وعندئذ تتابعت سلسلة الانقلابات وأحدثت التحولات الاجتماعية تتبع تحولات الإدراك العقلي بانتظام

لذا يجدر قبل كل شيء أن ندرس عقائد هذه الشعوب. وأقدم هذه العقائد هي التي تهمنا معرفتها أكثر من سواها . إذ أن الأنظمة والعقائد التي نجدها في الحقبات الزاهرة من تاريخ الإغريق والرومان ما هي إلا تطور للعقائد والأنظمة السالفة ويجب البحث عن أصولها في الماضي السحيق . إن الشعوب الإغريقية والإيطالية أقدم من رومولوس وهوميروس قدماً لا حد له . وإن العقائد قد تكونت والأنظمة أقيمت أو أعدت في عصر أقدم منهما ، في عصر عتيق لا تاريخ له

ولكن أي أمل لنا في الوصول إلى معرفة هذا الماضي السحيق ؟ من ذا الذي يخبرنا بما كان يفكر فيه الناس قبل الميلاد المسيحي بعشرة قرون أو خمسة عشر قرناً ؟ أمن المستطاع العثور على شيء بلغ هذا الحد من الشرود عن الإدراك والهروب منه ، كالعقائد والآراء ؟ إننا نعرف ما كان يفكر فيه آريو الشرق منذ خمسة وثلاثين قرناً ، نعرفه عن طريق أناشيد الفيدا (Védas) ، ومن المؤكد أنها عتيقة جداً . ومن طريق قوانين مانو وهي أقل قدماً لكن يمكن أن نميز فيها فقرات من عصر بعيد عنها بمدة . ولكن أين هي أناشيد الإغريق القديمة ؟ لقد كانت لهم كما كانت للإيطاليين أغان عتيقة وكتب مقدسة قديمة ولكن لم يصل إلينا شيء من ذلك كله . وأية ذكرى يمكن أن تبقى لنا عن تلك الأجيال التي لم تخلف لنا نصاً واحداً مكتوباً ؟

من حسن الحظ أن الماضي لا يموت إطلاقاً موتاً تاماً بالنسبة للإنسان . فقد يستطيع الإنسان أن ينساه لكنه يحتفظ به دائماً في نفسه . إذ أنه ، مثلما هو ذاته في كل عصر ، ما هو إلا حاصل الحقبات السالفة وملخص لها . فإذا ما هبط إلى قرارة روحه فإنه يستطيع أن يعثر فيها على هذه الحقبات المختلفة وأن يميزها عما خلفته فيه كل واحدة منها .

فلنلاحظ الإغريق في عصر بريكليس والرومان في عصر شيشرون ، إنهم يحملون في أنفسهم السمات الصحيحة والآثار المؤكدة لأبعد العصور . فإن معاصر شيشرون (أنكم حصلتم على رجل العامة) له حيال من الأساطير ، وهذه الأساطير تنحدر إليه من عصر عتيق جداً وفيها الشهادة على طريقة تفكير ذلك العهد . ويستخدم معاصر شيشرون لغة قديمة الأصول إلى أبعد الحدود وقد تشكلت هذه اللغة ، بحكم تعبيرها عن أفكار العصور القديمة . وأشكال هذه الأفكار وحفظت بطابعها تنتقل من قرن إلى قرن . فإن المعنى الملازم لأحد هذه الأصول يستطيع أن يكشف أحياناً عن رأي قديم أو عادة قديمة . تغيرت الأفكار وتحورت الذكريات ، لكن الألفاظ ظلت باقية شواهد لا تنزعزع على العقائد التي بادت . فمعاصر شيشرون يراعون شعائر في الأضاحي وفي الجنازات وفي حفلة الزواج . هذه الشعائر أقدم منه ، والدليل على ذلك أنها لم تعد تستجيب لعقائده . ولكن لنتأمل عن قرب الشعائر التي لا يزال يؤديها أو الصيغ التي لا يزال يتلوها فسنجد فيها عندئذ أثر ما كان يعتقده الناس قبله بخمسة عشر أو عشرين قرناً .

الكتاب الأول

العقائد العتيقة

الفصل الأول

عقائد عن الروح وعن الموت

لا تزال [illegible] الدين [illegible] حتى الأزمنة الأخيرة من تاريخ الإغريق والروما [illegible] مجموعة من [illegible] تأكيد [illegible] عصر سحيق جداً. ومنها نستطيع أن نعلم [illegible] التي كونها الإنسان [illegible] عن طبيعة ذاته وعن [illegible] عن سر الموت

مهما رجعنا في تاريخ الجنس الهندو أوروبي (١) الذي من فروعه الشعوب الإغريقية و[illegible] لم نفكر مطلقاً في أن كل شيء قد ينتهي [illegible] أقدم الأجيال قد اعتقدت، قبل أن يوجد الفلاسفة [illegible] في [illegible] أخرى بعد هذه الحياة ولم [illegible] الموت [illegible] بلا [illegible] للحياة

ولكن في أي مكان وعلى أية [illegible] الوجود الثاني؟ أكانوا يعتقدون أن الروح [illegible] بمجرد خلاصه من جسد ليحيي جسداً آخر؟ كلا [illegible] الاعتقاد بتناسخ الأرواح لم يستطع أن يتأصل في أذهان

[illegible] الأوروبية الحديثة [illegible] اللاتينية [illegible] الإغريقية [illegible] الهنود القدماء [illegible] السنسكريتية ولغات أخرى [illegible] لا تعرف إحداها عن الأخرى [illegible] لا يعرف [illegible] على [illegible] كانت تسمى [illegible] وقد [illegible] الجنس [illegible] الجنس [illegible] ثم أجيال [illegible] الأخرى [illegible]

الشعوب الإغريقية والإيطالية. كما أنه ليس أقدم رأى عند أريا الشرق(١) بل إن أناشيد الفيدا (٢) تتعارض معه. إنهم كانوا يعتقدون أن الروح كانت تصعد نحو السماء. هل هي صفة للنفس؟ كذلك كلا؟ إن الاعتقاد بأن الأرواح كانت تدخل في مقر سماوي يرجع في الغرب إلى عصر حديث نسبياً ولم يكن المقر السماوي ليعد إلا ثواباً لبعض عظماء الرجال وذوي الفضل على البشر. لم تكن الروح في أقدم عقائد الإيطاليين والإغريق تذهب إلى عالم غريب عن هذا العالم لكي تقضي فيه وجودها الثاني، بل كانت تبقى قريباً من الناس وتستمر تعيش تحت الأرض (٣). بل اعتقدوا دهراً طويلاً أن الروح كانت تبقى مرتبطة بالجسم في ذلك الوجود الثاني. ولدت معه فلا يفصلها الموت عنه، بل كانت تحبس معه في القبر معه.

مهما بعدت هذه الآراء من العقل فقد تعيب ... لها شواهد صحيحة. هذه الشواهد هي شعائر الدفن التي عاشت زمناً طويلاً بعد هذه العقائد البدائية لكن من المؤكد أنها ولدت معها ونستطيع أن نفهمها بها.

(١) أريا الشرق هم [illegible] أن أجداد الهنود ولدوا [illegible] ولنشر [illegible] أن موطنه في [illegible] إيران [illegible] أو [illegible] الأصلي [illegible] الذي أطلق عليه اسم آري [illegible] هذا المكان ولو أن بعضاً آخر من العلماء يجعل موطنهم الأصلي على [illegible] وقد انقسم العنصر منذ القرن الثلاثين أو العشرين قبل المسيح [illegible] الشعبة الشرقية (الهند وإيران) والشعبة الغربية (أوروبا [illegible] الغرب).

(٢) [illegible] الأناشيد [illegible] حتى خلفها العنصر الهندوأوري [illegible] الذي يدعى عار [illegible]. ويعتبر مرجعها [illegible] لأقدم حضارة [illegible] الجنس الهندوأوري [illegible].

(٣) شيشرون، التوسكلانية ١، ١٦.

Sub terra consevant reliquam vitam agi mortuorum

ويضيف شيشرون أن هذه العقيدة كانت من القوة بحيث أنه حتى عندما استقرت عادة إحراق الجثث ظل الناس يعتقدون أن الموتى يعيشون تحت الثرى — انظر أوريبيدس: الكستيس ١٦٣، وهيكابه في مواضع متفرقة.

ترينا شعائر الدفن بوضوح أنهم عندما كانوا يضعون جسماً في القبر كانوا يعتقدون في نفس الوقت أنهم يضعون فيه شيئاً حياً فإن فرجيليوس الذي يصف دائماً الاحتفالات الدينية بمنتهى الدقة والأمانة يختم روايته عن جنازة بوليدوروس بهذه الكلمات : إننا نحبس الروح في القبر . ونجد هذه العبارة موجودة في أوفيديوس وبلينيوس الأصغر . ولم يكن السبب في ذلك أنها كانت تعبر عن آراء هؤلاء الكتاب عن الروح ، بل إنها حفظت في اللغة منذ عهد متناه في القدم شاهدة على عقائد عتيقة وعامية (١)

كانت العادة عند نهاية الاحتفال الجنائزي أن تدعى روح الميت ثلاث مرات بالاسم الذي كان يحمله . وكانوا يتمنون له أن يعيش سعيداً تحت الثرى . ثلاث مرات يقولون له : كونى بخير ، ويضيفون قائلين : ليكن الثرى خفيفاً عليك (٢) . إلى هذا الحد كانوا يعتقدون أن الكائن سيستمر يعيش تحت هذه الأرض وأنه سيحتفظ بشعور الرضا والألم ، وكانوا يكتبون على قبر الإنسان أنه يستريح هناك . وقد بقى التعبير عن هذه العقائد وصل منقولاً من قرن إلى قرن حتى وصل إلينا ولا زلنا نستعمله [illegible] يوم أن كان أحد [illegible] يستريح في قبر [illegible] في زمن متقدم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن إنساناً

---

(١) Virgile, *En.*, III 67 *Animaque sepulcro condimus*. Ovide, *Fast.*, V, 451 *Tumulo fraternas condidit umbras*. Pline Ep., VII 27 *Manes rite conditi*.

يشير [illegible] وصف فرجيليوس في [illegible] ، فقد [illegible] أنه في حالة عدم إمكان العثور على جسد [illegible] أن [illegible] عادى فيه بأنصبه جميع شعائر الدفن [illegible] الروح في القبر [illegible] فرجيليوس : ٥٠٥ ؛ ١٢ ؛ ٢١٤ .

(٢) *Iliade* XXIII, 221. Euripide, *Alceste*, 479 *Kou̓φa σοι χθὼν ἐπάνωθεν πέσοι*. Pausanias, II, 7, 2, *Ave atque vale*, Catulle C. 10. Servius, *ad Aeneid.*, II, 640, III, 68, XI, 97. Ovide, *Fast.* IV, 852 *Métam.* X. 62 — *Sit tibi terra levis. tenuem et sine pondere terram* Juvenal, VII 207, Martial, I, 89; V, 35, IX, 30.

يعيش هناك وهم [illegible] أن [illegible] الأشياء التي كانوا يفترضون أنه يحتاج إليها من ملابس وأدوات وأسلحة (١). كانوا يريقون على قبره خمرا ليرووه من عطش ويضعون فيه أغذية ليشبعوه من جوع (٢) وكانوا يدعون حملا وعيدا اعتقاداً منهم بأن هذه [illegible] إذا ما حدث مع الميت [illegible] خدمته في القبر كما كانت تخدمه في حياته (٣). بعد أن استولى الإغريق على طروادة [illegible] العودة إلى بلادهم و[illegible] كل منهم سبيته الحميمة لكن أخيل (أشيل) وهو [illegible] الثرى يطلب أيضاً سبيته فأعطوه «بوليكسن» . polyxène (٤)

وقد احتفظ لنا بيت من شعر پنداروس بأثر عرف من أفكار هذه الأجيال القديمة فقد اضطر فريكسس Phryxos أن يهجر بلاد الإغريق ويهرب إلى بلاد خلشيس Cholchide (٥) ومات في تلك البلاد لكنه بالرغم من موته كان يريد العودة إلى بلاد الإغريق فتراءى لبلياس Pelias وأوصاه أن يذهب إلى خلشيس ليجلب روحه منها. ولا ريب أن هذه الروح كانت تحن على أرض الوطن

(١) أوريبيدس [illegible] ٤١٦ [illegible]
فرجيليوس : الإنيادة [illegible] بالسوق [illegible] توكيديدس [illegible] وقد حرم قانون صولون أن يدفن مع الميت أكثر من ثلاثة أثواب (بلوتارخوس صولون ٢١). ولا يزال لوقيانوس (Lucien) يتكلم عن هذه العادة [illegible] من الملابس و[illegible] أخرى أودعت مع الموتى كما لو كانوا سيستعملونها تحت الأرض [illegible] جنازة قيصر في عصر تسود فيه الخرافة [illegible] munera الملابس والأسلحة [illegible] قيصر [illegible] : حوليات ٣ ، ٣ .

(٢) أوريبيدس : إيفيجينيا في توريد [illegible] فرجيليوس : الإنيادة [illegible] ٧٩ - ٨٠
[illegible] ٢٢٥ .

(٣) [illegible] ٢٧ - ٢٨ [illegible] ٢٣ ، ٩٥ [illegible] ١٧٦ . فرجيليوس : الإنيادة [illegible] ٨٠ - ٨٤ [illegible] ١٩٧ [illegible] في بلاد [illegible] حرب [illegible] ٧ .

(٤) أوريبيدس : هكابه [illegible] ٦٣٧ - ٦٣٨

(٥) بلاد خولشيس منطقة بجوار البحر الأسود من الشرق — المعرب

وحتى في قبر الأسرة . . . . وهي مرتبطة بقايا الجثة لم يكن في استطاعتها أن تغادر خاشيس بلدها . (١)

من هذه العقيدة القديمة تفرعت الحاجة إلى الدفن . فلكي تستقر الروح في هذا المسكن السفلي الذي يوافقها في حياتها الأخرى ، كان لا بد أن يكون الجسم الذي بقيت مرتبطة به مغطى بالثرى . والروح التي لا قبر لها لا مقر لها . فهي روح هائمة وعبثاً كانت تتطلع للراحة التي لا بد أنها كانت تهواها بعد اضطرابات هذه الحياة ونصبها . فكان حتماً عليها أن تهيم دائماً في صورة شبح *Larva* دون أن تتوقف قط ودون أن تتلقى إطلاقاً القرابين والأغذية التي تحتاج إليها . وبما أنها كانت تعسة فسرعان ما تصبح شريرة فتعذب الأحياء وترسل عليهم الأمراض وتتلف محاصيلهم وتثير الذعر فيهم بظهورها بمظاهر مفزعة منذرة إياهم أن يمنحوا الدفن لجسدها ولها هي ذاتها . ومن هنا جاء الاعتقاد في الأشباح (٢) . فقد اقتنع جميع أهل الأزمنة القديمة أنه بدون الدفن تكون الروح تعسة . وبالدفن تصبح سعيدة إلى الأبد . فلم يكن قيامهم بالاحتفال الجنازي لإعلان الألم بل لراحة الميت وإسعاده (٣) .

ولنلاحظ جيداً أنه لم يكن يكفي أن يوضع الجسد في الأرض ، بل كان لا بد من مراعاة شعائر تقليدية ونطق بصيغ معروفة . وتوجد في بلاوتوس (Plaute) قصة شبح (٤) . إنها روح مجبرة على التجول لأن جسدها دفن دون مراعاة الشعائر . ويروى سويتونيوس (Suetone) أنه لما دفن كاليجولا دون القيام بالاحتفال الجنازي شيع عن ذلك أن روحه بقيت هائمة وأنها ظلت تظهر

---

(١) بنداروس : البيثيات ٤ : ٢٨٤ (طبعة Heyne) . أنظر شارح بنداروس .

(٢) شيشرون : الموضوعات التسكولانية ١ : ١٦ . أوريبيدس : الطروادیات ١٠٨٥ . هيرودوت ٥ : ٩٢ . فرجيليوس ٦ : ٣٧١ - ٣٧٩ . هوراسيوس Odes, 1,23; أوفيديوس Fast. V,483 ; بلينيوس : الرسائل ٧ : ٢٧ . سويتونيوس : كاليجولا ٥٩ . سرفيوس ad Aen. III, 63

(٣) الإلياذة ٢٢ : ٣٥٨ ؛ الأوديسه ١١ : ٧٣

(٤) بلاوتوس : الأشباح Mostellaria ٣ : ٢

للأحياء إلى اليوم الذى تقرر فيه أن يحرق جسده وأن يدفن طبقاً للعرف (١).
ويرى هذا المثال علاوة أن الرومان كانوا يسندون لشعائر الاحتفال الديني وللصيغه
وحيث إنه بدون هذه الشعائر كانت الأرواح تبقى هائمة وتتراءى للأحياء، فهى
إذن التى كانت تقرها فى قبورها وتحبسها فيها، وكما أنه كانت هناك صيغ
لها هذه الخاصية فقد كانت لدى الأقدمين صيغ أخرى لها الخاصية المضادة،
خاصية استحضار الأرواح وإخراجها مؤقتاً من مدافنها

ويمكن أن نرى لدى كتاب الأقدمين إلى أى مدى كان خوف الإنسان من
عدم مراعاة الشعائر نحوه بعد موته مصدر عذاب له. فقد كان ذلك مصدر
قلق مضن له(٢) فقد كانت خشية الموت أقل من خشية الحرمان من الدفن الذى
كان يعد فقداناً للراحة والسعادة الأبدية. فلا تأخذنا الدهشة إذن عندما
نرى الأثينيين يعدمون القواد الذين أهملوا دفن موتاهم بعد انتصار بحرى
ومن المحتمل أن هؤلاء القواد، وهم من تلاميذ الفلاسفة، كانوا يفرقون بين
الروح والجسد، وبما أنهم لا يعتقدون أن مصير أحدهما مرتبط بمصير الآخر
فقد بدا لهم أنه لا يهم الجثة كثيراً أن تتحلل فى الأرض أو فى الماء. فلم يعرضوا
أنفسهم للعاصفة من أجل إجراء لا جدوى منه كالتقاط الموتى ودفنهم. لكن

(١) Suétone, *Caligula*, 59 *Satis constat, priusquam id fieret, hortorum custodes umbris inquietatos … nullam noctem sine aliquo terrore transactam*

(٢) أنظر فى الإلياذة [illegible]) هكتور يلتمس من قاهره ألا يحرمه من الدفن: أتوسل إليك بركبتيك، بحياتك، بوالديك، ألا تترك جسمى للكلاب عند سفن الإغريق [illegible] لكى يؤدى لى الطرواديون والطرواديات [illegible] وكذلك فى سوفوكليس Sophocles تواجه أنتيجونه الموت كى لا تبقى أخاها بلا دفن. سوفوكليس أنتيجونه [illegible] هوراسيوس [illegible] 24-35 [illegible] أوفيديوس [illegible] وفى اللعنات أفظع ما يتمناه المرء لعدوه هو أن يموت بدون دفن (فرجيليوس، الإنيادة ٤، [illegible]).

الجمهور الذى بقى متمسكاً بالاعتقادات القديمة حتى فى أثينا اتهم قواده بالكفر وأعدمهم . فقد أغفلوا أن يدفنوا بعد نصرهم بحيث ضيعوا آلافاً من الأرواح بإهمالهم ، فجاء أقرب الموتى إلى المحكمة فى ملابس الحداد وهم يشكرون فى العذاب الطويل الذى سيلحق بهذه الأرواح وطالبوا بالانتقام من هؤلاء القواد (١)

كان القانون فى مدن القديمة يعاقب كبار المذنبين عقاباً اشتهر بفظاعته ، وهو الحرمان من الدفن (٢) فقد كانوا بذلك يعاقبون الروح ذاتها ويفرضون عليها عذاباً يكاد يكون سرمدياً

يجب أن نلاحظ أنه قد استقر عند القدماء رأى آخر عن إقامة الموتى فقد توهموا إقامتهم بعيداً جداً . ولكنه أوسع بكثير من القبر ، تعيش فيه الأرواح مجتمعة بعيدة عن أجسامها وفيه يوزع العقاب والثواب طبقاً للسيرة التى سار عليها الإنسان أثناء حياته . لكن شعائر الدفن كما وصفناها الآن تتعارض مع هذه العقائد معارضة واضحة وهى دليل قاطع على أنه فى العصر الذى أقيمت فيه هذه الشعائر لم يكونوا يعتقدون بعد لا فى أودية (التارتار Tartare) ولا فى حقول النعيم (الجنة) Champs Elysées وقد كان الرأى الأول لدى هذه الأجيال القديمة أن الكائن البشرى يعيش فى القبر وأن الروح لا تنفصل عن الجسد بل تبقى ثابتة فى ذلك الجزء من الثرى الذى كانت العظام مدفونة فيه . هذا ولم يكن على الإنسان حساب يؤديه عن حياته السابقة ومتى تم قد وضع فى القبر فلم يكن عليه أن ينتظر ثواباً ولا عقاباً . فكرة جافية بلا ريب لكنها طفولة فكرة الحياة الأخرى

لم يكن الكائن الذى يعيش تحت الثرى قد تخلص من بشريته بالقدر الذى يجعله

(١) أكسنوفون ، الهيلينيات ... ١ .

(٢) إيسخيلوس السبعة ضد طيبة ... سوفوكليس ... و أوريبيديس ، الفينيقيات ١٦٢٧ - ١٦٣٢ - أنظر ... 9 ... Lysias, Epitaph. ... كل المدن القديمة كانت تضيف إلى تعذيب كبار المجرمين الحرمان من الدفن .

في غير حاجة للغذاء. ولذلك كانوا يحملون وجبة من الطعام لكل قبر في أيام معينة من العام (١)

وقد أعطانا أوفيديوس وفرجيليوس وصفاً لهذه الحفلة التي بقيت عادتها محفوظة كما هي حتى عصرهما وإن كانت العقائد قد تغيرت. فيريانا أنهم كانوا يحيطون القبر بأكاليل ضخمة من الأعشاب والزهور وأنهم كانوا يضعون فيه كعكاً وفاكهة وملحاً وأنهم كانوا يريقون عليه لبناً وخمراً وفي بعض الأحيان دم ضحية (٢)

وإن الإنسان ليضل كثيراً إذا اعتقد أن هذه الوجبة الجنازية لم تكن إلا نوعاً من الذكرى، فإن الغذاء الذي تحضره الأسرة كان للميت حقيقة. وله وحده

---

(١) وهذا هو ما كان يسمى باللاتينية *inferias ferre, parentare, ferre solemnia.* Cicéron, *De legibus*, II, 21: *Majores nostri mortuis parentari voluerunt.* Lucrèce, III, 52: *Parentant et nigras mactant pecudes et Manibus divis inferias mittunt.* Virgile, *Én.*, VI, 380: *Tumulo solemnia mittent*; IX, 214: *Absenti ferat inferias decoretque sepulcro.* Ovide, *Amor.*, I, 13, 3: *Annua solemni caede parentat avis.*

هذه الشعائر التي كان يقوم بها [illegible] تسمى *Manium jura*. انظر سيسرون، القوانين ٢، ٩، ٢٢ [illegible] (Tertullien) ترتليانوس [illegible] باعتبارها لا تزال على عهده في كامل قوتها.

Defunctis parentant, quos escam desiderare praesumant (*De resurr. carnis*, 1); *Defunctos vocas securos, si quando extra portam cum obsoniis et matteis parentans ad busta recedis* (*De testim. animae* 4).

(٢)

Solemnes tum forte dapes et tristia dona
Libabat cineri Andromache manesque vocabat
Hectoreum ad tumulum
(Virgile, *Én.*, III, 301-303)

— Hic duo rite mero libans carchesia Baccho
Fundit humi, duo lacte novo, duo sanguine sacro
Purpureisque jacit flores ac talia fatur:
Salve, sancte parens, animaeque umbraeque paternae
(Virgile, *Én.*, V, 77-81)

Est honor et tumulis, animas placate paternas.
.... Et sparsae fruges parcaque mica salis
Inque mero mollita ceres violaeque solutae
(Ovide, *Fast.*, II, 535-542)

دون سواه والدليل على ذلك أن اللبن والخمر كانا يراقان على ثرى القبر وأن شقاً كان يحفر لإيصال الأغذية السائلة حتى مصجع الميت وأنهم إذا ضحوا بضحية فإن جميع لحمها كان يحرق حتى لا يحصل أي حي على نصيب منها . وأنهم كانوا يتلون صيغا مقدسة معينة يدعون الميت للطعام والشراب . وأنه إذا حضرت الأسرة بكاملها هذه الأكلة فإنهم لم تكن تمس هذه الأغذية إطلاقاً . وأخيراً عند العودة كانوا يضعون عدية كبرى تترك قليلا من اللبن وبعض الكعك في أوان ، ولقد كان من المنكر أن يمس أحد الأحياء هذه المؤونة الضئيلة المخصصة لحاجات الميت .

دامت هذه العقائد زمناً طويلا ولا زلنا نعثر على التعبير الذى يدل عليها قوياً لدى كبار كتاب الإغريق فتقول إيفيجينيا (Iphigénie) في أوريبيديس « أسكب على ثرى القبر اللبن والعسل والخمر إذ أنه بهذا يدخل السرور على الموتى » (١) ويقوم نيوبتوليموس Neoptolème ابن بيليوس Pelée تلقى هذا المشروب الذى يلذ للموتى . تعال واشرب هذا الدم » (٢) وتسكب إليكترا السوائل وتقول « لقد نفذ الشراب في الأرض فسمعه والدى » (٣) تأمل صلاة أورستيس لأبيه المتوفى « أى أبى إذا عشت فإنك ستحصل على مآدب حافلة ولكن إذا مت فإنك لن تحصل من الأغذية المتصاعدة دخانها والتى يتغذى منها الموتى » (٤) ويشهد لوكيانوس بأن هذه العادات كانت لا تزال باقية في عهده « يعتقد الناس أن الأرواح تأتى من أسفل نحو الأطعمة التى يحضرونها

(١) أوريبيديس : إيفيجينيا في الطوريد ١٥٧ - ١٦٣ .

(٢) أوريبيديس : هيكوبه ٥٣٦ : إليكترا ٥٠٥ وما بعدها .

(٣) إيسخيلوس : حاملات السوائل (Choéphores) ١٦٢ .

(٤) إيسخيلوس : حاملات السوائل ٤٨٢ - ٤٨٤ - يرمز إيسخيلوس لأتوسا Atossa في الفرس ... الإغريق ... وهى هذه الأطعمة التى تدخل السرور على الموتى اللبن والعسل الصافى وثمرة الكرمة ... ولنسكب هذه المشروبات التى تتسرب في الأرض وتى ... عند الأموات السعداء » (الفرس ٦١٠ — ٦٢٠) . وعندما كانت الضحايا تقدم لآلهة السماء كان الناس يأكلون لحمها لكن عندما كانت تقدم للموتى فإن اللحم كان يحرق بأكمله (بوسانياس ٢ : ١٠) .

لهم وأنهم يستمتعون بقتار اللحوم وأنهم يشربون خمر المراق على القبور.» (١) وكان يوجد عند الإغريق أمام كل قبر موضع مخصص لتضحية الضحايا وطهي لحمها (٢). وكذلك كان للقبر الروماني ما يسمى culina وهو يشبه مطبخاً من طراز خاص ومقصوراً فقط على استعمال الموتى (٣). ويروى بلوتارخوس أنه بعد معركة بلاتيا لما دفن المحاربون المتوفون في مكان القتال تعهد البلاتيون أن يقدموا لهم الوجبة الجنازية كل عام، وعلى هذا فقد كانوا يتوجهون يوم الذكرى في موكب كبير يقودهم رجال الدولة نحو الكثيب الذي يرقد تحته الموتى. فيقدمون لهم لبناً وخمراً وزيتاً وعطوراً ويضحون بضحية. وعندما كانت توضع الأغذية على القبر كان يرتل البلاتيون صيغة يدعون بها الموتى لتناول هذا الغداء. وما برح هذا الاحتفال يقام في عصر بلوتارخوس الذي استطاع أن يشهد حفلة ذكرى مرور ستمائة سنة (٤). وقد بين لوقيانوس الفكرة التي أوجبت كل هذه العادات فقد كتب: «يتغذى الموتى من الأطعمة التي نضعها على قبورهم ويشربون الخمر التي نسكبها فيها؛ فالميت الذي لا يقدم له شيء ما محكوم عليه بالجوع الأبدي.» (٥)

تلك عقائد بالغة في القدم وتبدو لنا على درجة كبيرة من الخطأ ومثيرة سخرية. ومع ذلك فقد كانت مسيطرة على الإنسان خلال عدد كبير من الأجيال. مسيطرة على النفوس. بل سنرى قريباً أنها سيطرت على الجماعات وأن معظم أنظمة القدماء العائلية والاجتماعية مستمدة من هذا المنبع

(١) [illegible] Ovide, *Fastes*, II, 566: *Posita pascitur umbra cibo.*

(٢) [illegible]

(٣) Festus, Vº *Culina*: *Culina vocatur locus in quo epulae in funere comburuntur.*

(٤) Plutarque, *Aristide*, 21: *Παρακαλεῖ τοὺς ἀποθανόντας ἐπὶ τὸ δεῖπνον καὶ τὴν αἱμακουρίαν.*

(٥) لوقيانوس: الحداد *(De Luctu)*، ٩.

الفصل الثانى

عبادة الموتى

لم تلبث هذه العقائد أن أصبحت في وقت مبكر قواعد للسلوك ، فقد أدركوا أنه ما دام الميت في حاجة لغذاء وشراب فإن الواجب يفرض على الأحياء قضاء هذه الحاجة ، فلم تترك العناية بتقديم أغذية الموتى لهوى الناس وعواطفهم المتقلبة ، بل أصبحت فرضاً لازماً . وبذلك نشأت حول الموت ديانة كاملة من المحتمل أن قواعدها قد زالت في زمن مبكر لكن شعائرها استمرت إلى أن انتصرت المسيحية .

كان الموتى في اعتقادهم كائنات مقدسة (١) . وقد خلع القدماء عليهم ما كانوا يجدونه أكثر الألقاب احتراماً ، فكانوا يسمونهم الطيبين والقديسين والسعداء (٢) وكانوا يكنون لهم كل التبجيل الذي يستطيع الإنسان أن يكنه للمعبود الذي يحبه ويخشاه . كان كل ميت في نظرهم إلهاً (٣)

(١) Plutarque, Solon, 21: Ὁσίους τοὺς μεθεστῶτας ἱεροὺς νομίζειν.

(٢) Χρηστοὺς μάκαρας أرسطو نقله بلوتارخوس في المسائل الرومانية ٥٢ والمسائل الإغريقية ٥ — *Μάκαρες χθόνιοι* إسخيلوس ، حاملات السوائل Choéph ٤٧٥ .

(٣) Euripide, Phénic. 1321: *Τοῖς θανοῦσι χρὴ τὸν οὐ τεθνηκότα τιμὰς διδόντα χθόνιον εὐσεβεῖν θεόν.* — Odyssée X, 526: *Ἐπὴν εὐχῇσι λίσῃ κλυτὰ ἔθνεα νεκρῶν.*
إسخيلوس ، حاملات السوائل ٤٦٩ ، ... السعداء ... تحت الثرى اسمعوا دعائي ، هلموا إلى عون أبنائكم واجعلوهم ينتصرون — وينادي إينياس Enée أباه أنشيز *Sancte parens, divinus parens* فرجيليوس الإنيادة ٥ : ٤٧ ، ٨٠ .
Plutarque, *Quest. rom.* 14: *Θεὸν γεγονέναι τὸν τεθνηκότα λέγουσι.* — Cornelius Nepos, *Fragm.*, XII: *Parentabis mihi et invocabis deum parentem.*

هذا النوع من الثانية لم يكن امتيازاً مقصوراً على عظماء الرجال. بيد أنه لم يكن هناك تمييز بين الأموات. يقول شيشرون [illegible] إن أسلافنا أحبوا الناس الذين غادروا هذه الحياة في عداد الآلهة (١). ولم يكن من الضروري أن يكون المرء من ذوي العظمة، فكان الميت يصبح إلهاً على قدم المساواة مع أهل الخير [illegible] في [illegible] وجود لآخر بكل عيوب البشر التي كانت تصيبه في الحياة الأولى (٢).

وكان يحب للإغريق أن يطلقوا على الموتى اسم الآلهة السفليين. في إحدى روايات إسخيلوس يدعو ابن أباه المتوفى هكذا: وأنت الذي هو إله تحت الأرض. ويقول يوريبيدس عند الكلام على الكستيس (Alceste) [illegible] من قبرها يقف المار ويقول: هذه هي الآن معبودة سعيدة (٣). وكان الرومان يطلقون على موتى اسم الآلهة مانس Manes. فيقول شيشرون: أعطوا الآلهة مانيس ما هو لهم، إنهم أناس هجروا الحياة، اعتبروهم كائنات إلهية (٤).

كانت القبور معابد هذه المعبودات. وقد كانت تكتب عليها هذه الكتابة المقدسة: إلى الآلهة مانيس ***Dis Manibus*** وبالإغريقية إلى الآلهة السفليين θεοῖς χθονίοις. هناك كان يعيش الإله مدفوناً ***Manesque sepulti*** كما يقول فرجيليوس (٥). وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما هي الحال أمام معابد الآلهة (٦).

(١) شيشرون، القوانين ٢، ٢٢.

(٢) القديس أغسطينوس، مدينة الله [illegible] ٩ [illegible]

(٣) Euripide, *Alceste*, 1015 [illegible]

(٤) شيشرون، القوانين ٢، ٩. Varron [illegible] في القديس أغسطينوس مدينة الله ٨، ٢٦.

(٥) فرجيليوس، الإنيادة ٤، ٣٤.

(٦) **Euripide**, *Troyennes*, **96** *Τύμβους θ' ἱερὰ τῶν κεκμηκότων*, *Electre* 505-510—Virgile, *En.*, VI, 177: *Aramque sepulcri*, III, 63

وإنا لنجد عادة مثل هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين (١) والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الآريين القاطنين في الهند، وقد ورد ذكرها في أناشيد الريج فيدا Rig-Veda. ويتحدث كتاب قوانين منو عن هذه العادة ويعتبرها من أقدم العادات لدى الناس. وإنا نرى في هذا الكتاب أن فكرة تناسخ الأرواح قد مرت منذ ذلك الوقت فوق هذه العقيدة القديمة، بل نرى أن عبادة براهما قد استقرت قبل ذلك التاريخ. ومع هذا فإن ديانة أرواح الأسلاف لاتزال باقية حية تحت عبادة براهما وتحت مذهب التناسخ لا يقوى عليها بل وقد فرض على محرر قوانين مانو أن يحسب لها حساباً وأن يبقي فرائضها في الكتاب المقدس. وليس أقل ما يتفرد به هذا الكتاب الغريب من غرابة أنه حافظ على القواعد الخاصة بهذه العقائد العتيقة فيما يبدو واضحاً أنه حرر في عصر تسودت فيه عقائد مناقضة لها كل التناقض. وفي هذا دليل على أنه لا بد أن تكون هذه العقائد الإنسانية في حاجة لوقت طويل قبل تغيير شعائرها الخارجية وتغيير بين جميع وقت طويل. وحتى في يومنا هذا، بعد هذا العدد من الحروب والانقلابات، ما فتىء الهنود يقدمون قرابينهم للأسلاف. فهذه الآراء وهذه الشعائر هي أقدم ما في الجنس الهندوأوروبي وهي أيضاً أثبت ما فيه.

Stant Manibus arae, III, 305. *Et geminas causam lacrimis sacraverat aras.* V, 48: *Divini ossa parentis condidimus terra maestasque sacravimus aras.*

يقول النحوي نونيوس مارسيلوس Nonius Marcellus إن القبر كان يسمى عند القدماء معبداً، ويقول أيضاً أن فرجيل يستعمل كلمة *Templum* ليدل على القبر أو الضريح الذي أقامته ديدو لزوجها (الإنيد ٤ : ٤٥٧) -

Plutarque, *Quest. rom.*, 14: *ἐπὶ τῶν τάφων ἐπιστρέφοντες καθάπερ θεῶν ἱερὰ τιμῶντες τὰ τῶν πατέρων μνήματα.*

وقد فسروا كلمة ara بحجر منصوب على القبر (سيرفيوس، تعليق ٥٠). وهذه الكلمة مستعملة في الكتابات الجنازية Orelli, nos. 4521, 4522, 4826

(١) Varron, *De lingua lat.*, V, 74

هذا النوع من شأنه لم يكن امتيازاً مقصوراً على عظماء الرجال . إذ أنه لم يكن هناك تمييز بين الأموات يقول شيشرون [illegible] أراد أسلافنا أن يعتبر الناس الذين غادروا هذه الحياة في عداد الآلهة (١) . [illegible] لم يكن من الضروري أن يكون المرء من ذوي الفضيلة . فكان الخبيث يصبح إلهاً على قدم المساواة مع أهل الخير وإن اختلفا في ذلك [illegible] الآخر بكل ميول الشر التي كانت تصيبه في الحياة الأولى (٢)

وكان يطيب للإغريق أن يطلقوا على موتى اسم آلهة [illegible] في إحدى روايات إيسخولوس يدعو ابن أباه المتوفى هكذا : أنت الذي هو الآن تحت الأرض ويقول أوريبيدس عند الكلام على ألكستيس (Alceste) : «إذا مررت من قبرها فقف عنده وقل : هذه هي الآن معبودة سعيدة» (٣) . وكان الرومان يطلقون على موتى اسم آلهة مانيس Manes فيقول شيشرون : «أعطوا الآلهة مانيس ما هو حق لهم ، إنهم أناس هجروا الحياة ، اعتبروهم كائنات إلهية .» (٤)

كانت القبور معابد هذه المعبودات ولهذا كانت تكتب عليها هذه الكتابة المقدسة : إلى الآلهة مانيس Dis Manibus وبالإغريقية : إلى الآلهة السفليين θεοῖς χθονίοις . هناك كان يعيش الإله مدفوناً Manesque sepulti كما يقول فرجيليوس (٥) . وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما هي الحال أمام معابد الآلهة (٦)

(١) شيشرون ، القوانين ، ٢ ، ٢٢

(٢) القديس أغسطينوس ، مدينة الله ، [illegible]

(٣) Euripide, Alceste, 1015: Νῦν δ' ἐστὶ μάκαιρα δαίμων, χαῖρ', ὦ [illegible] εὖ δὲ δοίης.

(٤) شيشرون ، القوانين ، ٢ ، ٩ ، Varron في القديس أغسطينوس ، مدينة الله ، ٨ ، ٢٦

(٥) فرجيليوس ، الإنياذة ، [illegible]

(٦) Euripide, Troyennes, 96: Τύμβους θ' ἱερὰ τῶν κεκμηκότων. Electre, 505-510. Virgile, En., VI, 177: Aramque sepulcri, III, 63

وإنا لنجد عبادة الموتى هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين (١) والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الآريا القاطنين في الهند وورد ذكرها في أناشيد ريج فيدا Rig-Veda. ويتحدث كتاب قوانين مانو عن هذه العبادة باعتبارها من أقدم العادات لدى الناس. وإنا لنرى في هذا الكتاب أن فكرة تناسخ الأرواح قد مرت منذ ذلك الوقت فوق هذه العقيدة القديمة. بل نرى أن عبادة براهما قد استقرت قبل ذلك التاريخ ومع هذا فإن عبادة أرواح الأسلاف لا تزال باقية حية تحت عبادة براهما وتحت مذهب التناسخ لا يقوى عليها البلى وقد فرضت على محرر قوانين مانو أن يحسب لها حساباً وأن يقبل فرائضها في الكتاب المقدس. وليس أقل ما ينفرد به هذا الكتاب البالغ حد الغرابة أنه حافظ على القواعد الخاصة بهذه العقائد العتيقة بينما نرى واضحاً أنه حرر في عصر تغلبت فيه عقائد مناقضة لها كل التناقض. وفي هذا دليل على أنه لابد لكي تتبدل العقائد الإنسانية من حقبة من الوقت طويل فإن تغيير الشعائر الخارجية والقوانين يحتاج لوقت أطول. وحتى في يومنا هذا بعد هذا العصر من القرون والانقلابات ما فتئ الهنود يقدمون قرابينهم للأسلاف. وهذه الأفكار وهذه الشعائر هي أقدم ما في الجنس الهندوأوروبي وهي أيضاً أثبت ما فيه.

Stant Manibus arae, III, 305: *Et germinas, causam lacrimis, sacraverat aras*, V, 48: *Ibi nos ossa parentis condidimus terra maestasque sacravimus aras*

يقول سرفيوس تعليقاً على ... Nonius Marcellus ... أن القبر كان يسمى عند الأقدمين معبداً ... Templum ... على القبر
والضريح ... (طبعة ... ٤٥٧).

Plutarque *Quest. rom.*, 14: Ἐπὶ τῶν τάφων ἐπιστρέφονται, καθάπερ θεῶν ἱερὰ τιμῶντες τὰ τῶν πατέρων μνήματα

وقد سموا ... *ara* الحجر المنصوب على ... سوتونيوس: نيرون ٥٠)
وهذه الكلمة مستعملة في الكتابات الجنازية Orelli, nos. 4521, 4522, 4826

(١) Varron, *De lingua lat.* V, 74

دعه يعد إلى هذه البلاد، اسمع دعائي يا أبي، تقبل سخائي وأنت تتلقى ما أقدمه من السوائل المهراقة. ولا تقتصر هذه الآلهة القوية على منح المتع المادية إذ أن إلكترا تضيف: «هب لي نفساً أعف من قلب أمي ويدين أطهر من يديها» (١) وكذلك يطلب الهندي من الأرواح أن يزيد عدد الصالحين في أسرته وأن يكثر لديه ما يعطيه.

هذه الأرواح البشرية التي ألّهها الموت هي ما تسميه الإغريق بالجن (démons) أو الأبطال (heros) (٢) وما يطلق عليه اللاتينيون اسم لاريس، مانيس، جيني Lares, Mânes, genies يقول أبوليوس Apulée (٣)، عند أسلاف أن المانيس إذا كانت شريرة يجب أن تسمى لارڤ *larvae*، ويسمونها لاريس (مفردها لار) إذا كانت خيرة وعطوفة (٤). ونقرأ في مكان آخر والجني

(١) اسخيلوس، حاملات السوائل ١٢٢ - ١٤٥.

(٢) من المحتمل أن يكون المعنى الأصلي لكلمة ἥρως هو متوفى. في بعض الأحيان كانت لغة النقوش، وهي لغة العامة، كما أنها هي التي بقي فيها المعنى القديم للكلمات أكثر مما بقي في غيرها، تستعمل كلمة ἥρως بالمعنى الساذج الذي نعطيه لكلمة متوفى:
ἥρως χρηστέ, χαῖρε, Boeckh *Corp. inscr.* nos 1629, 1723, 1781, 1782, 1784, 1786, 1789, 3398. Ph. Lebas *Monum. de Morée*, p. 205 أنظر ثيوغنيس طبعة ولكر البيت ٥١٣، وبوسانياس ٦-٦، ٩. وكان لدى الثيبيين مصطلح قديم معناه يموت ἥρωα γίνεσθαι (Aristote, fragments, ed. Heitz, t. IV, P. 260. Cf. Plutarque, *Proverb. quibus Alex. usi sunt*, c. 47) وكان يطلق الإغريق على روح الميت اسم δαίμων أيضاً، أوريبيدس: ألكستيس ١٠٠٤ وشرحه (δαίμονα Λαερτίου إسخيلوس الفرس ٦٢٠) δαίμων ἀνθρώπου (بوسانياس ٦ : ٦).

(٣) *Manes Virginiae* (تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨) *Manes conjugis* (فرجيليوس ٦ : ١١٩) و *Patris Anchisae Manes* (شرحه ١٠ : ٥٣٤) و *Manes Hectoris* (شرحه ٣ : ٣٠٣) و *Dis Manibus Martialis Dis Manibus Acutiae* (أوريلي رقم ٤٤٤٠، ٤٤٤١، ٤٤٤٧، ٤٤٥٩ الخ.) و *Valerii deos manes* (تيتوس ليفيوس ٣ : ١٩).

(٤) Apulée *De deo Socratis*. Servius *ad Aeneid.* III, 63.

واللار ما هو إلا كائن واحد . هكذا كان يعتقد أسلافنا » (١) . وفي شيشرون « إن هؤلاء الذين يسميهم الإغريق دايمون نسميهم نحن لاريس.» (٢)

ويبدو أن ديانة الموتى هذه هي أقدم ديانة . فقد عبد الإنسان الموتى قبل أن يتصور يندرا Indra أو زوس Zeus ويعبدهم، وخص منهم ووجه إليهم صلواته ، ويصح أن العاطفة الدينية بدأت من هنا . ومن الجائز أنه عندما رأى الموت شعر لأول مرة بفكرة ما فوق الطبيعة وأراد أن يأمل وراء ما يراه لقد كان الموت أول الأسرار، وهو الذي وضع الإنسان في طريق الأسرار الأخرى ورفع فكره من المرئي إلى الخفي ، ومن العارض إلى الخالد ، ومن البشري إلى الإلهي .

---

(١) Censorinus *De die natali*, 3

(٢) Ciceron, *Timée*, 11. – ترجم ديونيسيوس الهاليكارناسي *Lar familiaris* بعبارة ἥρως κατ' οἰκίαν (تاريخ الرومان القديم *Antiq. rom.* ٤ : ٢) .

الفصل الثالث

النار المقدسة

يحوي بيت الإغريقي أو الروماني مذبحاً، وكان لا بد أن يوجد على هذا المذبح قليل من الرماد وفحم متقد (١). [illegible] كان [illegible] مقدساً على رب كل بيت أن يبقي ناره [illegible] الويل للبيت الذي تخمد ناره. ففي كل مساء كانوا يغطون الفحم بالرماد لكي يحول دون احتراقه احتراقاً كاملاً، وعند قيامهم من النوم كان أول ما يعنون به هو إحياء هذه النار وتغذيتها ببعض الغصون. ولا تنقطع النار عن التوهج على المذبح إلا عند ما تفنى الأسرة كلها [illegible] عند الأقدمين (٢).

ومن [illegible] على [illegible] إلى عقيدة [illegible] [illegible] كانت [illegible] أن [illegible] في هذا الأمر

(١) [illegible] المذبح [illegible] *focus* [illegible] Vesta ara focus [illegible]
In primis [illegible] Vesta [illegible] est ara et foci solent haberi (Nonius Marcellus, éd. Quicherat, p. 53

(٢) الأناشيد [illegible] الأناشيد الأورفية [illegible] ٦٧٩ ؛ اسخيلوس : أغاممنون [illegible] ؛ أوريبيدس [illegible] ٥٩٩ ؛ [illegible] ١٣٦ ؛ [illegible] ٥٩٠ [illegible] ١٤٣ ؛ سيسرون [illegible] *pro domo* 40 [illegible] هوراس *Epod.*, II 43 ؛ أوفيديوس : فن الغرام A.A. [illegible] ؛ [illegible] الإنيادة [illegible] .

وتلك التي كان يستعاد بعد رحماً (١). وتقول الديانة كذلك إنه لا بد أن تبقى هذه النار طاهرة على الدوام (٢). والمقصود بذلك طبقاً للمعنى الحرفي أنه يجب ألا يلقى في هذه النار أي شيء قذر، وطبقاً للمعنى المجازي أنه يجب ألا يرتكب أي إثم في حضرتها. وكان في السنة يوم، هو عند الرومان أول مارس، يجب فيه على كل أسرة أن تطفئ نارها المقدسة وأن توقد أخرى فوراً (٣). ولكي للحصول على النار الجديدة كانت هناك شعائر لا بد من مراعاتها بتحرج. فيجب على الأخص الاحتراز من استعمال حصاة وقدحها بالحديد. وكانت الوسائل الوحيدة المسموح بها هي تركيز حرارة أشعة الشمس على نقطة ما أو حك قطعتين من الخشب من نوع معين حكاً سريعاً لتخرج منهما الشرارة (٤). وتدل هذه القواعد المختلفة دلالة كافية على أنه في رأي الأقدمين لم يكن الأمر متعلقاً بإحداث عنصر نافع ومقبول أو المحافظة عليه فحسب، بل إن هؤلاء القوم كانوا يرون شيئاً آخر في النار التي كانت تشتعل فوق مذابحهم.

لقد كانت هذه النار شيئاً إلهياً. فكانوا يعبدونها ويؤدون لها شعائر حقة وكانوا يقربون لها كل ما كانوا يعتقدون أنه يمكن أن يكون مقبولاً عند إله من الآلهة زهوراً وفواكه وبخوراً وخمراً (٥). وكانوا يلتمسون حمايتها. وكانوا يعتقدون أنها قوية، ويوجهون لها أدعية حماسية لكي يحصلوا منها على تلك الأغراض الأبدية للرغبات البشرية: الصحة، الثروة، السعادة. وإحدى هذه

(١) فرجيليوس ٧، ٧١ Castis taedis، فستوس تحت لفظ Felicis؛ بلوتارخوس، نوما ٩.

(٢) أوريبيدس، هرقل الهائج ٧١٥، كاتون، الفلاحة ١٤٣، أوفيديوس Faste., III, 698

(٣) Marcobe. Saturn., I, 12

(٤) بلوتارخوس: نوما ٩؛ فستوس طبعة مولر ص ١٠٦

(٥) Ovide. A.A. I, [illegible] Dentur in antiquos thura merumque focos.

بلاوتوس: الأسرى ٢: ٣٩-٤٠؛ المركاتور ٥، ١، ٥؛ تيبولوس ١: ٣، ٣٤؛ هوراسيوس Odes ٢: ٢٣، ١-٤. كاتون: الفلاحة ١٤٣، بلاوتوس Aulularia المدخل.

الدعوات التي احتفظت لنا بها مجموعة الأناشيد الأورفية تجري على هذا النحو «اجعلنا دائماً في حالة يسر ، دائماً سعداء ، أيها الموقد ، أنت يا من هو خالد وجميل وفتى على الدوام ، أنت الذي تغذي ، أنت الغني ، تقبل بقلب راض قرابيننا وهب لنا بدلا منها السعادة والصحة التي ما أحلاها» (١) وهكذا كانوا يرون في الموقد إلهاً خيِّراً يقوم على حياة الإنسان ، إلهاً ثرياً يغذيه بهباته ، إلهاً قوياً يحمي البيت والأسرة . وعند ما يواجههم خطر كانوا يبحثون عن ملاذ بالقرب منه . ولما اقتحم العدو قصر برياموس جذبت هيكابه الشيخ إلى جوار الموقد وقالت له : «إن أسلحتك لن تستطيع عنك دفاعاً ، ولكن هذا الموقد يحمينا جميعاً .» (٢)

انظر إلى ألكستيس وهي توشك أن تموت مضحية حياتها لتنقذ زوجها ، إنها تقترب من الموقد وتدعوه بهذه العبارات : «أيها المعبود ، إنه هذه لهي آخر مرة أجثو فيها أمامك وأوجه لك دعواتي ، لأني سأهبط إلى حيث يوجد الموتى . فاسهر على أطفالي الذين لن يكون لهم أم ، وامنح ابني زوجة رقيقة وابنتي زوجاً نبيلا ، واجعلهم لا يموتون مثلي قبل الأوان بل يعيشون حياة طويلة بين أحضان السعادة» (٣) إن الموقد هو الذي يمد الأسرة بالثراء ويصفه بلاوتوس في إحدى ملاهيه وهو يسبغ عليه مقدار العبادة التي تؤدى له (٤). ويسميه الإغريق إله الثراء κτήσιος (٥) فكان الوالد يدعوه لأولاده ويطلب

(١) الأناشيد الأورفية ٨٤.

(٢) فرجيليوس ، الإنياذة ٢ ، ٥٢٣ . هوراتيوس ، الأغاني [illegible] . اوفيديوس : الحوليات [illegible] ، ٨ ، ٢٢ .

(٣) أوربيدس ، ألكستيس ١٦٢ — ١٦٨ .

(٤) بلاوتوس *Aulularia* المدخل .

(٥) Eustathe, *in Odyss.*, p. 175 & 1814 . Ἑστία κτησία والإله Ζεὺς κτήσιος الذي كثيراً ما يذكر [illegible] يسمى به الموقد

منه أن يهبهم الصحة والوفرة في الثراء (١) وإذا نزل بالمرء مكروه لام موقده ووجه له العتاب وإذا أصابه خير قدم له الحمد والثناء فالجندي الذي عاد من الحرب يشكره لأنه أنقذه من المهالك يمثل لنا أيسخيلوس أغممنون عائداً من طروادة سعيداً مجللاً بالمجد لكنه لا يقدم الشكر لجوبيتر ولا يظهر اغتباطه واعترافه بالجميل في معبد بل يقدم أضحية الشكر للموقد الذي في منزله (٢) ولا يخرج المرء من منزله قط دون أن يصلي لموقده . وعند عودته . قبل أن يرى زوجه ويقبل أولاده ، لا بد من أن ينحني أمام الموقد ويدعوه (٣)

صار الموقد إذن هو العناية الإلهية للأسرة وكانت عبادته جد بسيطة فالقاعدة الأولى هي أن تكون على المذبح كمية من الفحم المتوهج على الدوام فإذا خمدت النار فمعناه أن إلهاً لم يعد له وجود . وفي بعض ساعات من النهار كانوا يضعون على الموقد أعشاباً جافة وخشباً . وعندئذ يتجلى الإله في شكل لهيب وهاج (٤) ، وكانوا يقدمون له الأضاحي . وجوهر كل أضحية هو الإبقاء على هذه النار المقدسة وإحياؤها ، أي تغذية جسم الإله وتنميته ولهذا السبب كانوا يعطونها الخشب قبل كل شيء . وهنا أيضاً كانوا بعد ذلك يسكبون على المذبح خمر بلاد الإغريق الحارة والزيت والبخور ودهن الضحايا . وكان الإله يتلقى هذه القرابين ويلتهمها ويقوم على المذبح

---

(١) Isee, De Cironis hered., 16: Ηὔχετο ἡμῖν ὑγίειαν διδόναι καὶ κτῆσιν ἀγαθήν

(٢) أسخيلوس : أغاممنون ٨٥١ - ٨٥٣ .

(٣) كاتون : الفلاحة ٢ . أوريبيدس . هراكليس هائج ٥٢٣ .

(٤) Virgile, *En.*, I, 704: *flammis adolere Penates.*

Virgile, *Georg.*, IV, 383-385:

راضياً متهللاً ويرمي ضوء أشعته على عبدته (١) تلك كانت اللحظة التي تدعى فيها فتخرج نشيد الدعاء من قلب الإنسان

كان العشاء هو العمل الديني الذي يقوم به عابدو ... وكان يرأسه الإله فهو الذي أنضج الخبز وأعد الأغذية (٢) لذا كان عليهم أن يصلوا له في بدء الأكلة وفي نهايتها. وقبل الأكل كانوا يضعون على المذبح باكورة الغذاء وقبل الشرب كانوا يريقون الخمر ذلك هو نصيب الإله. ولم يشك أحد بذلك في أنه حاضر وأنه يأكل ويشرب، وفي الواقع ألم يكونوا يرون اللهب يكبر كما لو كان يتغذى من الأطعمة المقدمة؟ وبذلك كان الغداء قسمة بين الإنسان والإله كان حفلاً مقدساً بواسطته يتصل كل منهما بالآخر (٣)

عقائد عتيقة اختفت من الأذهان مع مرور الزمن لكنها خلفت عادات وشعائر وعيناً لعهود طويلة عاشت رغماً عنها ولم يستطع حتى غير المؤمنين بها أن يتخلصوا منها

(١) Ter liquido ardentem perfudit nectare vestam
Ter flamma ad summum tecti subiecta reluxit

وهكذا يفسر سرفيوس هذين البيتين

Id est, in ignem vinum purissimum fudit post quod quia magis flamma convaluit bonum omen ostendit

(٢) Ovide, *Fast.*, VI, 315.

(٣) Plutarque, *Quest. rom.* 64 [illegible]. Id. *Sympos.* VII, 4,7 [illegible]. Id. *ibid.* VII, 4,4 [illegible]. Ovide, *Fastes*, VI, 300: *Et mensae credere adesse deos.* VI, 630: *In ornatum fundere vina focum.* II, 634: *Nutriat incinctos mixta patella Lares.*

أنظر بلاوتوس *Aulularia* [illegible] هوراسيوس *Odes* [illegible] ; *De Fort. Rom.*, 10 وأفلوطرخوس [illegible] وازن نشيد هوميري [illegible] على هسيودس ٤٤.

Servius in *Aeneida* I, 730: *Apud Romanos cena edita, silentium fieri solebat quoad ea quae de cena libata fuerant ad focum ferrentur et igni darentur ac puer deos propitios nuntiasset.*

في زمان هوراسيوس وأوفيديوس وجوفينال يتعشون أمام مواقدهم ويريقون السوائل ويصبون (١)

لم تكن عبادة النار المقدسة هذه مقصورة على أهلي بلاد الإغريق وإيطاليا فإنا نعثر عليها في الشرق إذ نراها في قوانين مانو . في الصورة التي وصلت إلينا منها . ديانة براهما مستقرة تمام الاستقرار بل وتميل إلى الهبوط . لكن هذه القوانين احتفظت بآثار وبقايا من ديانة أقدم منها هي ديانة الموقد التي أخرتها عبادة براهما إلى المرتبة الثانية لكنها لم تستطع أن تقضي عليها وعند البرهمي موقده الذي يجب عليه رعايته ليلا ونهارا . في كل صباح وكل مساء يعطيه غذاءه من الحطب . ولكن ، كما هو الأمر عند الإغريق ، لا يمكن أن يكون الحطب إلا من أنواع من الأشجار بعينها . وكما أن الإغريق والإيطاليين يقدمون له خمر ، فإن الهندي يسكب له شراب الخمر الذي يلقب باسم soma والأكل أيضاً عمل ديني وشعائره موصوفة بدقة وتخرج في قوانين مانو فيوجهون للموقد أدعية كما كانوا يفعلون في بلاد الإغريق ويقدمون له باكورة الأكلة الأرز والزبدة والعسل وفيها فإنه يجب على البرهمي ألا يأكل أرزا من المحصول الجديد قبل تقديم سواكيره للموقد لأن النار المقدسة شرهة للحبوب ، وإذا لم تكرم فإنها تأتي على وجود البرهمي المهمل . وكان الهنود كالإغريق والرومان يتوهمون الآلهة شرهة لا للتبجيل والاحترام فحسب بل للشراب والغذاء كذلك فكان يعتقد الإنسان أنه ملزم بإشباع جوعهم وعطشهم إذا ما أراد أن يتجنب غضبهم

ومعبود النار عند [illegible] كثيراً ما كان يسمى عند الهنود Agni أغني . ويحوي الريج فيدا (Rig-Veda) عدداً كبيراً من الأناشيد الموجهة إليه يقولون في إحداها يا أغني أنت حياة [illegible] أنت حامي الإنسان [illegible] رب الأسرة الذي يدعوك [illegible] أغني . أنت

(١) Ante larem proprium vescor vernasque procaces Pasco libatis dapibus (Horace, Sat., II, 6,66 — Ovide, Fastes, II, 631-633. — Juvenal, XII, 89-90. — Pétrone, Satir., c. 60

مدافع كيس وأب . لك ندين بالحماية نحو أسرتك ، وبذلك تكون نار الموقد كما في بلاد الإغريق قوة حامية يطلب إليها الإنسان السعة . واجعل الأرض كريمة دائماً خوانا ، ويصيب منها الصحة ، واجعلني أتمتع بالضوء زمناً طويلاً وأصل إلى الشيخوخة كي تصل الشمس إلى مغربها ، من يلتمس منها الحكمة وأي أعمى ، إنك تهدي إلى الصراط السوي من كان في طريق الضلال اغفر لنا إن أخطأنا أو كنا قد سرنا بعيداً عنك . كانت نار الموقد هذه كما كانت في بلاد الإغريق طاهرة طهرة جوهرية فكان من المحرم بتاتاً على الرجل أن يلقي فيها أي شيء قذر أو أن يدفئ فيها قدميه (١) وكما كان يحدث في بلاد الإغريق لم يكن يستطيع الرجل المذنب أن يقترب من موقده قبل أن يتطهر من ذنبه

وإنه لدليل كبير على قدم هذه العقائد وهذه الشعائر أن نجدها في آن واحد لدى أهل شواطئ البحر المتوسط وأهل شبه الجزيرة الهندية على السواء . من المؤكد أن الإغريق لم يستعيروا هذه الديانة من الهنود ولا الهنود من الإغريق بل إن الإغريق والإيطاليين والهنود ينتمون إلى جنس واحد وقد عاش أسلافهم معاً في آسيا الوسطى في فترة سحيقة جداً ، وهناك أولاً حملوا هذه العقائد وأقاموا هذه الشعائر فيجب إذن أن نرجع نشأتها إلى تلك الحقبة البعيدة الغامضة التي لم يكن فيها إغريق ولا إيطاليون ولا هنود والتي لم يكن فيها إلا الآريا وعندما انفصلت القبائل بعضها عن بعض استصحب بعض منها هذه العبادة إلى ضفاف نهر الغانج والبعض الآخر إلى شواطئ البحر المتوسط . ثم إن بعض هذه القبائل المنفصلة ، والتي لم تعد بينها أية صلة ، عبد براهما وبعضها عبد زوس والبعض الآخر جانوس . اتخذت كل جماعة منهم آلهتها ، لكنها احتفظت جميعاً ، كتراث قديم ، بالديانة الأولى التي تصورتها ومارستها في المهد المشترك بين جنسها

---

(١) نص الفرائض في الديانة الرومانية :

Pedem in focum non imponere. Varron dans Nonius, p. 479, éd. Quicherat, p. 557

إذا لم يكن وجود هذه العادة لدى جميع الشعوب الهندوأوروبية دليلاً كافياً على تواترها في القدم فربما نجد أدلة أخرى في شعائر الإغريق والرومان الدينية، ففي جميع الأضاحي، حتى ما كان يقدم منها تمجيداً لزوس وأثينا، كان يوجه الدعاء الأول للموقد دائماً (١). فكل صلاة لإله أياً كان يجب أن تبدأ وأن تنتهي بصلاة للموقد (٢). وفي أولمبيا كانت أول تضحية يقدمها الإغريق مجتمعين للموقد، والثانية لزوس (٣). كذلك في روما كانت أول عبادة دائماً تلك التي لم تكن سوى الموقد (٤). ويقول أوفيديوس عن هذه المعبودة إنها تحتل المكان الأول في شعائر الإنسان الدينية. لذلك نقرأ في أناشيد الريج فيدا: قبل جميع الآلهة الآخرين يجب دعوة أغني؛ سنتلفظ باسمه المبجل قبل أسماء جميع الخالدين الآخرين. أي أغني! مهما يكن الإله الذي نكرمه بضحيتنا، يبقى دائماً نحوه ضحية المحرقة. من المؤكد إذن أنه في روما في زمن أوفيديوس وفي الهند في زمن البرهمانيين كانت نار الموقد تتقدم على كل الآلهة الآخرين. وليس ذلك لأن جوبيتر وبرهما لم يتبوآ في ديانة الناس أهمية أكبر من تلك بكثير بل لأنهم كانوا يتذكرون أن نار الموقد أقدم بكثير من هؤلاء الآلهة. وكانت قد تحددت لها المكانة الأولى في العبادة منذ عدد من القرون وعجزت الآلهة الأحدث والأكبر منها عن نزعها من يدها.

وقد تغيرت رموز هذه الديانة حسب العصور. فعندما تعودت شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا أن تتصور آلهتها كأشخاص، وأعطت لكل واحد منهم اسماً علماً وشكلاً آدمياً، خضعت عبادة الموقد القديمة للقانون المشترك الذي فرضه الإدراك الإنساني في تلك الحقبة على كل ديانة. فاعتبروا مذبح

(١) Porphyre, *De abstin.*, II, p. 106; Plutarque, *De frigido*, 8.

(٢) الأناشيد الهومرية ٢٩، ٣؛ وكذلك ٣، ٣٣. أفلاطون: كراتيل (Cratyle، ٤، ٨، Hésychius, ἀφ' ἑστίας. ديودوروس ٦، ٢؛ أرسطوفانيس، الطيور ٨٦٥.

(٣) بوسانياس ٥، ١٤.

(٤) شيشرون، طبيعة الآلهة ٢، ٢٧. أوفيديوس، *Fast.*, ٦، ٣٠٤.

النار المقدسة شخصاً وسموه هستيا *Hestia* وفستا Vesta وكان الاسم هو نفسه في اللاتينية والإغريقية فضلاً عن أنه لم يكن شيئاً آخر غير الكلمة التي كانت تدل على المذبح في اللغة المشتركة الأولى . وبطريقة مألوفة جعلوا من الاسم العام علماً وتكونت أسطورة رويداً رويداً فتصوروا هذه المعبودة في شكل امرأة لأن الكلمة التي كانت تدل على المذبح كانت مؤنثة بل إنهم ذهبوا إلى حد تمثيل هذه الإلهة بتماثيل ولكنهم لم يستطيعوا قط أن يمحوا أثر العقيدة البدائية التي تقضي بأن هذه المعبودة كانت نار المذبح فقط وحتى أوڤيدوس ذاته كان مضطراً إلى أن يوافق على أن ڤستا لم تكن شيئاً غير لهب متأجج (١)

وإذا قربنا عبادة النار المقدسة هذه من عبادة الموتى التي تكلمنا عنها من قبل نلمس بينهما صلة وثيقة .

ونلاحظ أولاً أن هذه النار التي كانت تؤجج على الموقد لم تكن في ذهن الناس هي النار الطبيعية المادية . فما كانوا يرونه فيها لم يكن العنصر الطبيعي المحض الذي يسخن أو يحرق والذي يحول الأجسام ويصهر المعادن ويجعل من نفسه الأداة القوية للصناعة البشرية . فنار الموقد من صفة مغايرة تماماً . إنها نار طاهرة لا يمكن إحداثها إلا بمعونة شعائر معينة ولا يمكن تغذيتها إلا بأنواع معينة من الخشب . إنها نار عفيفة يجب أن يقصى الاتصال الجنسي بعيداً عن حضرتها (٢) لم يكونوا يطلبون منها الثروة والصحة فحسب بل يدعونها أيضاً لينالوا منها طهارة القلب والاعتدال في الشهوات والحكمة . إذ تقول أنشودة أورفية « اجعلينا أغنياء ومزدهرين ، واجعلينا أيضاً حكماء أعفاء » . فنار الموقد إذن تشبه كائناً معنوياً . حقاً إنها تلمع وتدفئ ، وإنها تنضج الطعام المقدس ، ولكنها في نفس الوقت لها فكر وضمير . إنها تدرك الواجبات وتحرص على أن تؤدى . حتى ليكاد يقال إنها إنسان ، فلها من الإنسان طبيعته المزدوجة : جسمياً ، تلمع وتتحرك

(١) أوڤيدوس : الأعياد Fast ٦ : ٢٩١ .

(٢) هسيودوس : الأعمال والأيام ٦٧٨ – ٦٨٠ . بلوتارخوس : تعليقات على هسيودوس ، مقطع ٤٨

وتعيش وتخلب السمة وتحضر الغداء وتغذى الجسم . ومعنوياً تبعث عواطف وإحساسات تسمح للإنسان الطهارة وتأمر بالشيء الجميل والحسن وتغذى الروح . ويمكن القول إنها تقوم على الحياة البشرية في سلسلة مظاهرها المزدوجة فهي منبع الثراء والصحة والفضيلة في آن واحد . إنها حقاً إله الطبيعة البشرية وفيما بعد ، عندما دفع برهما وزوس هذه العبادة إلى الصف الثاني ، بقيت نار الموقد أقرب شيء للإنسان في الصف الإلهي . فكانت وسيطته لدى آلهة الطبيعة المادية ، وهي التي تكفلت بحمل صلاة الإنسان وقربانه إلى السماء وجلب العطفات الإلهية للإنسان . ثم بعد ذلك عندما حذفوا من أسطورة النار المقدسة صفة العظمة أصبحت نفس الإلهة فستا ... لم تكن تمثل في العالم خصوبة ولا قوة بل كانت هي النظام . لم تكن النظام الدقيق العقلي ، الخاضع للقانون الذي لا مفر منه ananké والذي لوحظ في وقت مبكر بين ظواهر الطبيعة المادية . بل كانت النظام الخلقي . فقد تصوروها على شكل روح عامة تنظم حركات العوالم المختلفة ، كما تضع الروح البشرية النظام بين أعضائنا

وهكذا تتراءى لنا فكرة الأجيال البدائية . إن جوهر هذه العبادة خارج عن الطبيعة المادية ومستقر في هذا العالم الصغير الخفي ألا وهو الإنسان .

يعيدنا ذلك إلى عبادة الموتى . فهما متساويتان في القدم وكانتا مرتبطتين برباط وثيق حيث أن عقيدة كل منهم لم تجعل منهما سوى ديانة واحدة . فالموقد والموتى (الديمون) والأبطال (هيرو) والآلهة اللاريس كل ذلك كان مختلطاً بعضه ببعض . نرى من فقرتين من بلاوتوس وكولوميلا Columelle ، أنهم كانوا يستعملون في اللغة العادية كلمتي موقد أو لار من غير فرق بينهما . كما نرى من سيسرون أنهم لم يكونوا يميزون الموقد من البيناتس (Penates) ولا البيناتس من الآلهة لاريس (٢) فنقرأ في سرفيوس Servius ... يقصدون بالمواقد الآلهة

---

(١) سيبيوس ... هوراسيوس Odes ٤ : ١١ : ٦ . أوفيديوس : الحريات ... كان الإغريق يسمون آلهتهم المنزلية أو الموقدية بكلمة ἐφέστιοι أو ἑστιοῦχοι

(٢) Plaute, *Aulul.*, II, 7, 16: *In foco nostro Lari.* Columelle, XI, 1, 19: *Larem focumque familiarum.* Ciceron, *Pro domo*, 41. *Pro Quintio*, 27, 28.

لاريس ولذلك استطاع ڤرجيليوس أن يضع أحيانا لفظ موقد بدلا من پناتس وأحياناً پناتس بدلا من موقد بلا فارق بينهما (١). وفي مرة أخرى يدعو إيناس نفس هؤلاء الآلهة ويسميهم پناتس، لاريس، فستا في آن واحد (٢).

هذا وقد رأينا أن أولئك الذين يسميهم القدماء لاريس أو هيروس لم يكونوا سوى أرواح الموتى الذين كان ينسب إليهم الإنسان سلطة إلهية فوق سلطة البشر وكانت ذكرى كل من هؤلاء الموتى المقدسين مرتبطة دائماً بالموقد ولم يكن من المستطاع عند عبادة أحدهما أن ينسى الآخر بل كان يجمع بينهما في احترام الناس وفي صلواتهم. فعندما تتكلم الذرية عن الموقد كانت تتذكر في الغالب اسم السلف. يقول أورستيس مثلا: «دعوني أتعدى هذا المكان وأتقدم نحو موقد پيلوپس العتيق لكي تسمعني كلماتي» (٣). وكذلك إيناس عندما كان يتكلم عن الموقد الذي كان يشعله عبر البحار كان يطلق عليه اسم لار أساراكوس (Lare d'Assaracus) كما لو كان يرى في هذا الموقد روح سلفه.

يقول النحوي سرڤيوس الذي كان على علم كبير بالتاريخ القديم للإغريق والرومان (وقد كانوا يدرسونه في أيامه أكثر مما كانوا يفعلون في زمن شيشرون) إنها لعادة قديمة جداً أن يدفن الموتى في المنازل ويضيف «وفي المنازل أيضاً كانوا يمجدون اللاريس والپناتس تبعاً لهذه العادة» (٤). تقرر هذه الجملة بوضوح صلة عتيقة بين عبادة الموتى وبين الموقد. وبناء عليه نستطيع أن نظن أن الموقد المنزلي لم يكن في الأصل إلا رمزاً لعبادة الموتى وأنه تحت حجر الموقد هذا كان يرقد أحد الأسلاف وأن النار إنما كانت توقد فيه لتمجيده وأنه كان يلوح أن هذه النار كانت تعمل على بث الحياة فيه أو أنها تمثل روحه الساهرة دائماً.

ومع ذلك إلا فرض من الفروض تنقصه الأدلة عليه. لكن المؤكد أن عبادة الموتى والموقد كانت موجودة لدى أقدم الأجيال من الجنس الذي خرج منه

(١) Servius, in Aen., III, 134

(٢) ڤرجيليوس، الإنياذة، ٢، ٢٩٧؛ ٩، ٢٥٨-٢٥٥؛ ٥، ٧٤٤.

(٣) أوريبيدس، أورستس، ١٤٢٠-١٤٢٢.

(٤) Servius, in Aen., V, 64; VI, 152

انظر أفلاطون، مينوس ص ٣١٥: Ἔθαπτον ἐν τῇ οἰκίᾳ τοὺς ἀποθανόντας.

الإغريق والرومان ، وهي ديانة لا تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية ولكن من الإنسان ذاته ، وكان موضع عبادتها هو الكائن الخفي لدينا أي القوة المعنوية والمفكرة التي تحرك جسمنا وتحكمه .

لم يكن سلطان هذه الديانة على الروح متساوياً على الدوام فقد تضاءل رويداً لكنه لم يختف تماماً . وحيث أنها كانت معاصرة للعصور الأولى للجنس الآرى فقد تغلغلت في أعماق هذا النوع وأخذت هذا الجنس حيث أن ديانته الوهبية المنبثقة لم تكن كافية لاستئصال شأفتها ولكن لا بد من مسحه

وسنرى قريباً أى أثر قوى كان لهذه الديانة على أنظمة القدماء المدنية ولاحظ أنه هو الذى تصوروها وأقاموها وفق الحقيقة التى كان هذا العصر يبحث فيها عن أنظمته وقد حددت الطريق الذى سارت فيه الشعوب منذ ذلك الوقت

الفصل الرابع

الديانة المنزلية

يجب ألا نتصور هذه الديانة القديمة على نمط تلك التي نشأت فيما بعد في الجماعات الأكثر منها تقدماً. فمنذ عدد من القرون لم يعد الجنس البشري يتقبل مذهباً دينياً إلا بشرطين: أحدهما أن ينادي المذهب بإله واحد، والآخر أن يتجه المذهب لجميع الناس وأن يكون في متناول الجميع دون أن يقصي أية طبقة أو أي جنس بصفة مطلقة. لكن ديانة الأزمنة الأولى لم تكن تحقق أي شرط من هذين الشرطين. فإنها لم تكن تقدم لعبادة البشر إلهاً واحداً، وفوق هذا لم تكن آلهتها تقبل العبادة من جميع الناس. لم يتقدموا كآلهة للجنس البشري بل لم يكونوا يشبهون براهما الذي كان على الأقل إلهاً لطبقة كبيرة بأسرها، ولا زوس بانهيلينيوس Zeus Panhellenien الذي كان إله أمة بأكملها. ففي هذه الديانة البدائية لم يكن في استطاعة أي إله أن يكون معبوداً لغير أسرة واحدة. فكانت الديانة منزلية محضة.

لا بد من إيضاح هذه النقطة الهامة، إذ لا يمكن بدون ذلك أن نفهم الصلة الوثيقة جداً التي قامت بين هذه العقائد وبين تكوين الأسرة الإغريقية والرومانية.

لم تكن عبادة الموتى تشبه بأي وجه كان عبادة المسيحيين للقديسين. فإن إحدى قواعدها الأولى كانت تقضي بأنه لا يمكن لأية أسرة أن تؤديها إلا للموتى الذين ينتسبون إليها عن طريق الدم. ولا يمكن تبعاً لهذه الديانة أن يقوم بالشعيرة إلا أقرب الأقربين للمتوفى. أما عن الأكلة الجنازية التي كانت تتجدد فيما بعد في فترات معينة فإن الأسرة وحدها هي التي كان لها حق الاشتراك فيها. وكل غريب كان يقصى عنها بعنف (1). فكانوا يعتقدون أن الميت لا يقبل

(1) يحرم قانون صولون [illegible] على بعث شخص من غير الأقرباء (بلوتارخوس، صولون 21). ولم يكن يسمح للنساء بمصاحبة الميت إلا بدرجة بنات العم ἐντὸς ἀνεψιαδῶν (Demosthène, *In Macartatum*, 61-63). Cf. Ciceron, *De legibus*, II, 26. Varron, *L. L.*, VI, 13: *ferunt epulas ad sepulcrum quibus jus ibi parentare*. Gaius, II, 5,6: *Si modo mortui funus ad nos pertineat*.

القربان إلا من أيدي أهله ولا يقبل عبادة إلا من ذريته. وحضور رجل من غير الأسرة كان يقلق راحة الأرواح لذلك كان يحرم القانون على الغريب أن يقترب من أحد القبور (١)، وكان لمسه مدنساً ما تقدم، ولو سهواً، عملاً غير صالح يتحتم على الغريب أن يسترضي الميت من أجله وأن يتطهر هو ذاته. والكلمة التي كان يطلقها الأقدمون على عبادة الموتى تعد معبرة في حد ذاتها. فكان الإغريق يقولون Πατριάζειν (٢) واللاتينيون يقولون parentare إذ لم يكن أحد يوجه الصلاة والقربان إلا إلى آبائه (٣). فعبادة الموتى كانت في الحقيقة عبادة الأسلاف (٤). وبالرغم من استهزاء لوقيانوس بآراء العامة فإنه يفسرها لنا بوضوح عندما يقول: «إن الميت الذي لم يترك ولداً لا يتلقى قرباناً وهو معرض لجوع أبدي» (٥).

وفي الهند كما في بلاد الإغريق لا يمكن أن تقدم قربان الميت إلا من هؤلاء الذين تحدروا منه. فكان قانون الهنود كالقانون الأثيني يحرم أن يقبل أجنبي في الأكلة الجنائزية حتى ولو كان صديقاً. كان من المحتم أن تقدم هذه الوجبات من قبل ذرية الميت لا من غيرهم وكان يظن أن الأرواح في مقرها كانت تتفوه

(١) قانون صولون في بلوتارخوس، صولون، ٢١: Οὐκ ἐῶσιν ἐπὶ ἀλλοτρίου μνήματα βαδίζειν
Cicéron, De legibus, II, 26: Pittacus omnino accedere quemquam vetat in funus aliorum

(٢) بوليدوكيس (بولكس) ٣، ...

(٣) ولذا نقرأ في إيسايوس (Isée)، ميراث ميكلس، ٤٦: «إذا لم يكن لميكليس أبناء فإن القرابين الجنائزية لن تقدم له ولن يكون هناك أحد يحمل القربان السنوي إلى قبره». ونرى مرات أخرى من هذا الخطيب أن الابن هو الذي يجب أن يحمل المشروبات إلى القبر. ميراث فيلكتيمون، ٥١ و ٦٥، وميراث أبولودوروس ٣٠.

(٤) في الأصل على الأقل، لأنه فيما بعد أصبح للمدن أبطال (هيروي) المحليون والقوميون كما سنرى فيما بعد. وسنرى أيضاً أن التبني كان يخلق قرابة مصطنعة ويعطي الحق في تكريم سلسلة من الأسلاف.

(٥) لوقيانوس: الحداد De Luctu.

بهذه الأمنية : ألا ليته يولد من سلالتنا أبناء على التوالي يقدمون لنا على مر الزمان الأرز المسلوق في اللبن والعسل والزبد المصفى (١) .

ويتضح من هذا أنه كان واجباً على الابن في بلاد الإغريق وفي روما كما في الهند أن يقدم سنوياً وأن يقسم قرابين لروح والده وأرواح جميع أجداده(٢) والتقصير في هذا الواجب هو أخطر وزر يمكن ارتكابه ما دام قطع العبادة من شأنه أن يسقط سلسلة من الموتى ويقضي على سعادتهم . مثل هذا الإهمال لم يكن سوى قتل حقيقي للأب يتكرر عدداً من المرات بقدر ما للأسرة من من أسلاف .

أما إذا كانت الأضاحي تقدم دائماً طبقاً للشعائر ، والأطعمة تحمل إلى القبر في الأيام المحددة فإن السلف يصبح إلهاً حامياً . إنه عدو لكل من لم ينحدر من صلبه ، يصدهم بعيداً عن قبره ويصيبهم بالأمراض إذا ما اقتربوا منه ، إلا أنه رحيم بذويه معين لهم .

فكانت هناك تبادل خدمات دائم بين الأحياء والموتى من كل أسرة . كان السلف يتلقى من ذريته سلسلة من الولائم الجنائزية وهي المتع الوحيدة التي كان يستطيع الحصول عليها في حياته الثانية ؛ ويتلقى الخلف من السلف العون والقوة اللذين كان يحتاج إليهما في هذه الحياة . فلم يكن في استطاعة الحي أن يستغني عن الميت ولا الميت عن الحي . ومن هنا قام رباط وثيق بين جميع الأجيال من أبناء الأسرة الواحدة وجعل منها هيئة متماسكة إلى الأبد .

وكان لكل أسرة قبرها حتى يجيء أمواتها ليرقدوا فيه الواحد بعد الآخر دائماً معاً . فإن جميع الذين تربطهم سوياً رابطة الدم يجب أن يدفنوا فيه ، ولا

(١) قوانين مانو ٣ : ١٣٨ ؛ ٣ : ٢٧٤ .

(٢) وهو ما تسميه اللغة الإغريقية *Ποιεῖν τὰ νομιζόμενα* [illegible] ضد [illegible]رخوس ، ٤ ؛ دينارخوس [illegible] ضد أرسطوغيتون [illegible] . أنظر ([illegible]رخوس ، كالون)
Ἀρ[illegible] τοῖς [illegible] Ἐναγίζειν
لنظر دينارخوس يتهم أرسطوغيتون بأنه لم يقدم الضحية السنوية لوالده الذي مات في إرتريا (Erétrie) دينارخوس ؛ ضد أرسطوغيتون ١٨ .

يمكن أن يدفن فيه أي رجل من أسرة أخرى (١). وهناك تقام الحفلات وأعياد الذكرى. وتعتقد كل أسرة أنها ترى هناك أسلافها المقدسين. وفي الزمن المتناهي في القدم، كان القبر في ممتلكات الأسرة ذاتها. وسط المسكن غير بعيد عن الباب. وذلك (كما يقول أحد القدماء)، كي يلقى الأبناء آباءهم كل مرة

(١) العادة القديمة، عادة قبر الأسرة مشهود بها بالثبت وقد كانت الكلمات تتردد بلا انقطاع Τάφος πατρῷος, μνῆμα πατρῷον, μνῆμα τῶν προγόνων عند الغربين كالأتينيين. tumulus patrius, monumentum gentis عند اللاتينيين Démosthène, *In Eubulidem*, 28. Τὰ πατρῷα μνήματα [illegible] [illegible] وكان قانون صولون يحرم أن يدفن في القبر رجل من أسرة أخرى. شيشرون القوانين ٢ ، ٢٦ ne alienum inferat [illegible] ويصف ديموستينس [illegible] قبراً يدفنون فيه كل أولئك الذين ينحدرون من بوسيلوس Bouselos يسمونه قبر آل بوسيلوس، وهو موضع [illegible] حائط منيعاً [illegible] وقبر آل [illegible] Lakiades [illegible] (μνήματα Κιμώνια [illegible] كرونيكيليوس [illegible] Marcellinus [illegible] وهناك حكاية قديمة [illegible] أنهم كانوا يعتقدون أنه من الضروري أن يدفن كل [illegible] قبر أسرته يروي [illegible] اللاقيدمونيين Lacedemoniens وهم يوشكون أن يدخلوا معركة مع [illegible] على [illegible] علامة خاصة تحمل اسمه واسم أبيه [illegible] وينقله إلى قبر آبائه، هذه [illegible] من الأخلاق القديمة [illegible] ويسمع [illegible] عند ما يقول [illegible] الكلام عن [illegible] الذين على وشك الهلاك أنهم سينقلون إلى قبور آبائهم [illegible] Τάφος ἐς πατρῷον [illegible] ٥ ؛ ٤ ، ٩) -

وكتب شيشرون أيضاً مقابر عائلية Cicéron, De off., I, 17

Sanguinis conjunctio: eadem habere monumenta majorum, iisdem uti sacris, sepulcra habere communia.

كان من المحرم كما في بلاد الإغريق أن يدفن فيه رجل من أسرة أخرى Cicéron, *De legib.*, II, 22. *Mortuum extra gentem inferri fas negant*

أنظر أوفيديوس الحوليات ٢ ، ٣ ; ٤٥ ؛ [illegible] ٢ ، ٩ ؛ سويتونيوس ; تيبيريوس ١ ؛ طيبريوس ١ ؛ سيرون ، المسائل سومكلاية ، ٧ ؛ التعمت ، ٧ ٤٧ ; ١٢ ، ٥

يدخلون فيها المسكن أو يخرجون منه وحتى يوجهوا الدعوات إليهم في كل مرة (١)

وهكذا يرقد السلف بين ذويه: إنه خفي لكنه حاضر على الدوام؛ إنه لا يزال عضواً في الأسرة وربّاً لها. ويعتقده حيناً مستبداً ومقدساً. فإنه كان يهتم بكل ما تركه على الأرض، يعرف حاجته ويدعم ضعفه. أما ذلك الذي لم يزل يعيش ولا يزال يعمل، ذلك الذي لم يسوف بعد وجوده كما يقول القدماء، فله بجواره نصحاء وأعوان [illegible] الأولى تأوّه. فإذا أحاطت به المصاعب لجأ إلى حكمتهم القديمة. وإذا [illegible] في أحزانه. والتمس منهم العون وقت الخطر، وإذا ارتكب وزراً طلب منهم المغفرة.

حقاً إنه يصعب علينا اليوم كثيراً أن ندرك أن الرجل يستطيع أن يعبد أباه أو سلفه. [illegible] مقدساً للذين [illegible] لعقيدة [illegible] يصعب علينا [illegible] تصور عقائد [illegible] ولكن لنتحقق أنه لم يكن لدى الأقدمين فكرة أخرى [illegible] بعض من الناس [illegible] كان [illegible] كانت حياً فكانوا يعدونه [illegible] ولا [illegible] شعور [illegible] وقوياً جداً [illegible] يبدو [illegible] جوهري [illegible] وحدث في أصل جماعات [illegible] تعريب إذ [illegible] (Sex hes [illegible] ولدى شعوب [illegible] (٢)

كما كان من [illegible] جوهرية [illegible] التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً [illegible] بكل أسرة فهي تمثل الأسلاف(٣)

(١) أوريبيدس، هيلينا [illegible]

(٢) [illegible] atrium فهل كانت هذه الصور مجرد صور أم أوثان؟

(٣) Focus patrius، Zona margini [illegible] وكذلك في الهند فإن المعبود الذي ما زال يدعى أحياناً كأنه إله منزلي.

وكانت هي لعبادة آلهة أسرة من الأسر وليس هناك شيء مشترك بينها وبين نار الأسرة المجاورة التي كانت تعد بدورها عبادة إلهية أخرى. فكل موقد يحمي ذويه.

كل هذه الديانة كانت مكنونة داخل نطاق المنزل. فلم تكن العبادة علنية بل على العكس كانت جميع الاحتفالات تجرى في وسط الأسرة دون سواها (١). فلم يكن الموقد يوضع في خارج المنزل إطلاقاً بل ولا على مقربة من الباب الخارجي حيث يستطيع الغريب أن يشاهده تماماً. وكان الإغريق يضعونه دائماً داخل نطاق (٢) يحميه من مس غير المأذون لهم بل حتى من النظر إليه. وكان الرومان يخفونه وسط منازلهم. كل هذه الآلهة (موقد، لارس، مانيس) كانوا يسمونها الآلهة المستترة أو الآلهة الداخلية (٣). فقد كانت السرية لازمة لكل شعائر هذه الديانة *Sacrificia occulta* كما يقول سيسرون (٤). وإذا لمح أجنبي إحدى هذه الحفلات فإنها تضطرب وتتلوث بمجرد هذه النظرة وحدها.

لم يكن لتلك الديانة المنزلية قواعد موحدة ولا شعائر مشتركة فقد كان لكل أسرة استقلالها التام وما كان لأية سلطة خارجية الحق في تنظيم عبادتها وعقيدتها. لم يكن هناك كاهن غير الأب، وبوصفه كاهناً لم يكن يعرف أية رئاسة أخرى فوق رئاسته. نعم قد كان في مستطاع حبر روما أو أرخون أثينا أن يتأكد من أن رب الأسرة يقوم بكل شعائره الدينية ولكنه لم يكن له الحق في أن يملي عليه أقل تغيير فيها. القاعدة المطلقة هي *Suo quisque ritu sacrificium faciat* (٥).

---

(١) إيسايوس: ميراث كيرون ١٥ — ١٨

(٢) كان يسمى هذا السور ἕρκος

(٣) *Θεοὶ μύχιοι, dii Penates*. Cicéron, *De nat. Deor.*, II, 27: *Penates, quod penitus insident*. Servius, *in Aen.*, III, 12: *Penates ideo appellantur quod in penetralibus aedium coli solebant*.

(٤) Cicéron, *De Arusp. resp.*, 17.

(٥) فارون: اللسان اللاتيني ٧: ٨٨.

وقد كان لكل أسرة احتفالاتها الخاصة بها وأعيادها الخاصة وصيغ أدعيتها وأناشيدها (١) . والولد، وهو العضو الأوحد لديانتها، وحبرها الأوحد. كانت له وحده سلطة تعليمها ولم يكن يستطيع تعليمها إلا لابنه . وكانت الشعائر وعبارات الدعاء والأغاني ، التي كانت جزءاً جوهرياً من هذه الديانة المنزلية، ميراثاً وملكاً مقدساً لم تكن الأسرة تشرك أحداً فيه بل قد كان محرماً عليها الكشف عنه للأجانب . كذلك كان في الهند يقول البرهمي : « إنني القوي على أعدائي بالأغاني التي تلقيتها عن أسرتي والتي علمنيها أبي ولدي (٢) » .

وهكذا لم تكن الديانة مستقرة في المعابد بل في المنازل . فكان لكل واحد آلهته ، ولم يكن كل إله يحمي غير أسرة واحدة . ولم يكن إلها إلا في منزل واحد . ولا يمكن في حدود المعقول أن نفترض أن ديانة بهذه الصفة قد أوحى بها أناس خيال قوي لواحد منهم أو عبث بهم طائفة من الكهنة بل إنها ولدت من تلقاء نفسها في الروح البشرية . فكانت الأسرة مهدها . وكل أسرة صنعت آلهتها لنفسها .

مثل هذه الديانة لا تستطيع أن تنتشر إلا عن طريق التوالد . فعندما يمنح الأب الحياة لابنه يمنحه في نفس الوقت عقيدته وعبادته والحق في رعاية الموقد وتقديم الأكلة الجنازية وترتيل صيغ الدعاء . فالتوالد يقيم صلة سرية بين الطفل الذي يولد للحياة وبين جميع آلهة الأسرة . هؤلاء الآلهة هم أسرته ذاتها Θεοὶ ἐγγενεῖς وهي ذاتها Θεοὶ σύναιμοι (٣) . وإذن فقد كان للطفل يحمل

(١) هيرودوس [illegible] ؛ [illegible] ماكروبيوس [illegible] ؛ شيشرون [illegible] القوانين ٢ ، [illegible] : Ritus familiae patrumque servare

(٢) ريج فيدا ترجمة لانجلوا Langlois الجزء الأول صفحة [illegible] كما نجد في [illegible] مانو شعائر خاصة بكل أسرة ٨ ، [illegible]

(٣) ديونوسيوس [illegible] Θεοὶ [illegible] Θεοὶ في [illegible] سوفوكليس [illegible] ؛ [illegible] أفلاطون Θεοὶ ὁμόγνιοι [illegible] صفحة ٧٢٩ De penatus [illegible]
أوفيديوس : الأعياد ٢ ، ٦٣١ .

معه عند مولده لحق في عبادتهم وتقديم الأضحية لهم. كما أنه يجب أن يعد سورد بين آلهة الأسرة هؤلاء عندما يأخذه الموت هو نفسه فيما بعد.

لكن يجب ملاحظة هذه الخصيصة وهي أن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر إلا من ذكر إلى ذكر ولا ريب أن العلة في ذلك هي ما كان يعتقده الناس في التوالد(١). فقد كانت عقيدة العصور الأولى كما نجدها في الفيدا أو كما نرى من آثارها في جميع الشرع الإغريقي الروماني هي أن القدرة على الإنسال كانت مستقرة في الوالد دون سواه. فالوالد دون سواه هو الذي يحوز جوهر الحياة المكنون وينقل قبس الحياة. وقد نتج عن هذه الفكرة القديمة أن القاعدة هي أن العبادة المنزلية كانت تنتقل دائمًا من ذكر إلى ذكر وأن المرأة لم تكن تساهم فيها إلا عن طريق أبيها أو زوجها وعلى الجملة. لم تكن المرأة بعد وفاتها تمس النصيب الذي كان للرجل في عبادته وفي حفلات الغداء الجنزي. وقد نتجت عن ذلك نتائج أخرى جد خطيرة في القانون الخاص وفي تكوين الأسرة مما سنعرض له فيما بعد.

(٤) [illegible] (Milakchara ترجمة أوريان (Orianne) ص ٣٠٩.

الـكتاب الثاني
الأسرة

الفصل الأول

كانت الديانة هى المبدأ الأساسى للأسرة القديمة

إذا ما انتقلنا بالفكر بين وسط هذه الأجيال القديمة من الناس فإننا نجد فى كل منزل مذبحاً وحوله نرى الأسرة مجتمعة . فتجتمع كل صباح لتوجه للموقد أدعيتها الأولى وكل مساء لتدعوه مرة أخيرة . وفى أثناء النهار تجتمع أيضاً بالقرب منه للغداء الذى يوزع بعد الصلاة وإراقة السوائل والذى تتناوله الأسرة فى خشوع ، وفى كل هذه الأعمال الدينية ترتل الأسرة أناشيد خلفها لها آباؤها .

وفى خارج المنزل وعلى مقربة منه فى الحقل نجد قبراً . ذلك هو المسكن الثانى لهذه الأسرة . هناك ترقد معاً عدة أجيال من الأسلاف لم يفرق الموت بينهم بل ظلوا مجتمعين فى ذلك الوجود الثانى واستمروا يؤلفون أسرة لا انفصام لها .

ولا توجد بين الأحياء والأموات من الأسرة من مسافة غير هذه الخطوات المعدودة التى تفصل البيت عن القبر . وفى أيام معينة تحددها لكل واحد ديانته المنزلية يجتمع الأحياء حول الأسلاف ويحملون إليهم الغداء الجنازى ويسكبون لهم اللبن والخمر ويضعون الحلوى والفواكه أو يحرقون لهم لحوم الأضاحى . وفى مقابل هذه القرابين يلتمسون منهم الحماية ، ويدعونهم آلهتهم ويطلبون منهم أن يجعلوا الحقل خصباً والبيت زاهراً والقلوب عامرة بالفضائل

لم يكن أساس الأسرة القديمة هو المولد دون سواه . والدليل على ذلك أن الأخت لم تكن فى الأسرة فى مقام الأخ ، ذلك لأن الابن المحرر أو البنت المتزوجة لم تكن تعد إطلاقاً جزءاً منها . وفى النهاية توجد عدة نصوص هامة فى القوانين الإغريقية والرومانية ستتاح لنا فيها بعد فرصة فحصها .

كذلك لم يكن أساس الأسرة هو العطف الطبيعي، لأن القانون الإغريقي والقانون الروماني لا يعبآن بهذه العاطفة أبداً. فهي تستطيع أن توجد في قرارة القلوب لكنها ليست شيئاً مذكوراً في الشرع. وفي استطاعة الأب أن يدلل ابنته لكنه لا يستطيع أن يخلف لها ميراثه. فإن قوانين التوارث، وهي أشد القوانين صدقاً في الشهادة على الأفكار التي تصورها الناس عن الأسرة، تتناقض تناقضاً صريحاً مع نظام المولد أو مع العطف الطبيعي على السواء (١).

وعندما لاحظ مؤرخو الشريعة الرومانية بحق أن أساس الأسرة الرومانية لم يكن الولادة ولا العطف، ظنوا أن هذا الأساس لا بد وأن يكون موجوداً في السلطة الأبوية أو الزوجية، فجعلوا من هذه السلطة نوعاً من النظام الأول. لكنهم لم يفسروا كيف نشأت هذه السلطة، اللهم إلا أن يكون ذلك عن طريق تفوق قوة الزوج على الزوجة وقــوة الأب على الأبناء. لكنه من الخطأ أن نضع القوة هكذا كأصل للتشريع. وسنرى فيما بعد أن السلطة الأبوية أو الزوجية لم تكن سبباً رئيسياً بل كانت هي ذاتها نتيجة لسواها، فهي مشتقة من الديانة. والديانة هي التي أقامتها، فهي لم تكن هي إذن الأساس الذي قامت عليه الأسرة.

إن ما كان يجمع أعضاء الأسرة العتيقة هو شيء أقوى من المولد ومن العاطفة ومن القوة الجسمانية، ألا وهو ديانة الموقد والأسلاف. تلك التي جعلت من الأسرة هيئة متماسكة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى. فالأسرة العتيقة هي رابطة دينية أكثر منها رابطة طبيعية. ولذا سنرى فيما بعد أن المرأة لم تكن تحسب منها على وجه الحقيقة إلا إذا أدخلتها مراسم الزواج المقدسة في العبادة. وأن الابن لم يكن يعد منها إذا تخلى عن العبادة أو إذا تحرر. بينما على العكس يصبح المتبنى ابناً حقيقياً فيها لأنه إذا لم يكن تجمعه رابطة الدم فإنه سيكون له شيء خير منه وهو الشركة في العبادة. وسنرى أن الموصى له إذا رفض أن يتخذ عبادة هذه الأسرة فإنه لا يحصل على الميراث. وفي الختام أن القرابة وحق الإرث

(١) مفهوم أننا نتكلم هنا عن أقدم الشرائع وسنرى فيما بعد أن هذه القوانين القديمة قد عدلت.

لم يكون ينظام طبقاً للمولد بل تبعاً للحقوق المساهمة في العبادة كما أقامتها الديانة .
ومما لا ريب فيه أن الديانة لم تكن هي التي خلقت الأسرة ولكن من المؤكد أنها هي التي منحتها قواعدها . ومن هنا نتج أن الأسرة القديمة كانت تتكون تكويناً مختلفاً كل الاختلاف عما كانت تتكون عليه لو أن العواطف الطبيعية كانت وحدها المؤسسة لها .

وكانت اللغة الإغريقية القديمة تستعمل كلمة ذات دلالة واضحة تطلقها على الأسرة . فكانوا يقولون *ἐπίστιον* ومعناها الحرفي « المجاور للموقد » . فالأسرة كانت مجموعة من الأشخاص تسمح لهم الديانة أن يوجهوا أدعيتهم لنفس الموقد وأن يقدموا الأكلة الجنازية لنفس الأسلاف (١)

(١) لكي يقول هيرودوت (٥:٧٣) ٧٠٠ أسرة يستعمل التعبير *ἑπτακόσια ἐπίστια* وفي مكان آخر (١، ١٧٦) لكي يعبر عن ٨٠ أسرة يقول *ὀγδώκοντα ἑστίαι*. نفس التعبير في بلوتارخوس : روملوس ٩ .

الفصل الثانى

الزواج

كان أول نظام أقامته الديانة المنزلية على الأرجح هو الزواج

تجدر ملاحظة أن هذه الديانة ، ديانة الموقد والأسلاف ، التى كانت تنتقل من ذكر إلى ذكر ، لم تكن مقصورة على الرجل وحده بل كان للمرأة نصيبها من العبادة . فقد كانت وهى عذراء تحضر شعائر أبيها الدينية . وإذا ما تزوجت حضرت شعائر زوجها

وبهذا نحس من فورنا بالطابع الجوهرى للرباط الزوجى لدى القدماء أسرتان تعيشان جنباً إلى جنب ، ولكن لكل منهما آلهة مختلفة . فى إحداهما تساهم فتاة منذ طفولتها فى ديانة أبيها وتدعو موقده وتقدم له كل يوم سوائل وتحيطه فى أيام الأعياد بزهور وأكاليل من الزهر وتلتمس حمايته وتشكره على آلائه هذا الموقد الأبوى هو إلهها . فإذا ما طلبها شاب من الأسرة المجاورة زوجاً له فإن الأمر يصبح بالنسبة لها شيئاً آخر غير مجرد الانتقال من منزل إلى منزل آخر ، إنها تهجر الموقد الأبوى لتدعو منذ الآن موقد الزوج . فهو تغيير للدين وقيام بشعائر أخرى وتلاوة صلوات أخرى . فالمرأة هى إذن تترك إله طفولتها لتضع نفسها تحت سلطان إله لا تعرفه ولا أمل لها أن تبقى مخلصة لأحدهما بينما هى تكرّم الآخر . إذ أن فى هذه الديانة مبدأ لا يتغير وهو أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يدعو موقدين ولا سلسلتين من الأجداد . وفى ذلك يقول أحد القدماء « بعد الزواج لا يبقى للزوجة أية علاقة بديانة آبائها المنزلية . إنها تضحى لموقد الزوج » (١)

فالزواج إذن عمل خطير بالنسبة للفتاة وليس أقل خطورة بالنسبة للزوج إذ أن تلك الديانة تقتضى أن يولد الشخص بجوار الموقد لكى يكون له الحق فى

(١) ديكيارك Dicearque ، مقتبس فى مصنفات إتيين البيزنطى تحت لفظ Πάτρα

التضحية له ، وها هو ذا يهم بإدخال أجنبية بالقرب من موقده ، وبرفقه سيقوم باحتفالات ديانته الخاصة . ويكشف لها عن الشعائر والصيغ التي هي تراث أسرته وما من شيء لديه أثمن من هذا التراث فإن هذه الآلهة وهذه الشعائر والأناشيد التي تلقاها عن آبائه هي التي تحميه في الحياة وهي التي تعده بالثراء والسعادة والفضيلة . لكنه بدلا من أن يحتفظ لنفسه بهذه السلطة الواقية له ، كما يحتفظ الهمجي بصنمه أو بتميمته ، فإنه سيسمح لامرأة أن تقتسمها معه

وهكذا عندما ننفذ في أفكار هؤلاء الناس القدماء نرى مقدار أهمية الارتباط الزوجي عندهم وكم كان تدخل الديانة لازما له . ألم يكن من الضروري إذن أن تلقن الفتاة في احتفال مقدس الديانة التي توشك أن تتبعها منذ الآن ، ولكي تصبح كاهنة هذا الموقد الذي لم يكن يربطها به مولدها ألم يكن يلزمها نوع من التنصيب الديني أو التبني ؟

كان الزواج هو الاحتفال المقدس الذي يحدث منه هذه الآثار العظيمة . وقد اعتاد الكتاب اللاتينيون والإغريق أن يطلقوا على الزواج كلمات تدل على عمل ديني (١) . فيقول بوليدوكيس Pollux الذي كان يعيش في عهد الأنطونيين ، ولكن كانت في حيازته مجموعة كاملة من الأدب القديم لم تعد لدينا الآن ، إنهم في الأزمنة القديمة بدلا من أن يطلقوا على الزواج اسمه الخاص γάμος كانوا يطلقون عليه كلمة τέλος فقط ومعناها الاحتفال المقدس (٢) كما لو كان الزواج في تلك الأزمنة القديمة قد أصبح الاحتفال الذي فاق سواه قداسة .

هذا وإن الديانة التي كان يتم الزواج بمقتضاها لم تكن ديانة جوبيتر وجونون وغيرهما من الآلهة الآخرين . ولم يكن الزواج في معبد بل كان في المنزل وكان الإله المنزلي هو الذي يشرف عليه . والحق أنه عندما تغلبت ديانة آلهة

(١) θύειν γάμον, sacrum nuptiale

(٢) بوليدوكيس ٣ ; ٣ ; ٣٨ .

السماء لم يستطع الناس أن يمتنعوا عن التوسل إليهم أيضاً في صلوات الزواج . بل لقد تعودوا أن يدعوا هؤلاء إلى المعبد وأن يقدموا لهؤلاء الآلهة قرابين يسمونها مقدمات الزواج (١) . لكن الجزء الرئيسي الجوهري من الاحتفال كان يتم دائماً أمام الموقد المنزلي .

يمكن القول إن حفلة الزواج كان يتكون عند الإغريق من ثلاثة فصول يحدث الأول منها أمام موقد والد الزوجة ἐγγύησις والثالث عند موقد الزوج τέλος والثاني هو الانتقال من أحدهما إلى الآخر πομπή

١ — في المنزل الأبوي وبحضور طالب الزواج يقدم الوالد ضحية وهو محاط عادة بأسرته . وعند انتهاء التضحية يعلن وهو يتلو صيغة مخصصة لذلك أنه يعطي ابنته للشاب . وهذا الإعلان لازم كل اللزوم للزواج . إذ أن الفتاة لا يمكن أن تذهب توا بعد ذلك لعبادة موقد الزوج إلا إذا فصلها والدها مقدماً من الموقد الأبوي . فلكي تدخل في ديانتها الجديدة يجب أن تتخلص من كل رابطة ومن كل صلة بديانتها الأولى (٢)

٢ — تنقل الفتاة إلى منزل الزوج . والزوج في بعض الأحيان هو الذي يقودها بنفسه (٣) . وفي بعض المدن كان عبء قيادة الفتاة يقع على أحد أولئك الرجال الذين كانت لهم عند الإغريق صفة كهنوتية والذين كانوا يسمونهم المنادين (hérauts) (٤) وكانت الفتاة في العادة توضع فوق مركبة (٥) وتغطى وجهها بنقاب وتحمل تاجاً على رأسها . والتاج كما سنرى في كثير من المناسبات كان يستعمل في جميع احتفالات العبادة . وترتدي ثوباً أبيض . وكان لبياض هو لون

(١) Προτέλεια γάμων. Pollux, III, 38.

(٢) هيرودوت [illegible] بعض الكتاب [illegible] يعطي [illegible] Ἐ[illegible] δίκαιος [illegible] من أحد [illegible] كان يسمى [illegible] [illegible]

(٣) بوسانياس [illegible]

(٤) بلوتارخوس — مسائل إغريقية ٢٧ .

(٥) Plutarque, Quest. rom. 29. Photius, Lex. [illegible] Παρθένον [illegible] [illegible] τοῦ γαμοῦντος.

للابس في جميع الشعائر الدينية . ويتقدمونه وهم يحملون شعلة ، تلك هي الشعلة الزوجية (١) وعلى طول سير الموكب يرتلون حولها نشيداً دينياً يتكرر فيه الرد *ὦ Ὑμήν, ὦ Ὑμέναιε* وكانوا يسمون هذا النشيد الهيمنايوس hyménée وقد كان لهذا النشيد المقدس من الأهمية ما جعلهم يطلقون اسمه على الاحتفال بأكمله (٢) .

ولم تكن الفتاة تدخل منزلها الجديد من تلقاء نفسها بل يجب أن يختطفها زوجها وأن يمثل معها عملية الاختطاف وأن تصرخ هي بضع صرخات وأن تتظاهر النساء اللواتي يصحبنها بالدفاع عنها . ما معنى هذه الشعيرة الدينية ؟ هل هي رمز على حياء الفتاة ؟ إن ذلك قليل الاحتمال ، لأن ساعة الحياء لم تأت بعد ، وإن الذي سيعمل أولا في هذا المنزل ما هو إلا حفلة دينية . ألم يكن الأولى بالقصد أنهم أرادوا أن يبينوا أن المرأة التي ستضحي في هذا الموقد ليس لها أي حق من تلقاء ذاتها وأنها لا تقترب منه بدافع من إرادتها وأنه لا بد من أن يقدمها إليه رب المكان والإله الذي يستمده من سلطته ؟ ومهما يكن من أمر فإن الزوج كان يرفعها بين ذراعيه بعد معركة صورية ، ويتخطى بها الباب مع الاحتراز التام من أن تمس قدماه عتبة الدار (٣) .

وهذا الذي سبق ما هو إلا إعداد للحفلة ومقدمة لها . أما الحفل المقدس فسيبدأ في المنزل

(١) الإلياذة ١٨ ، ٤٩٢ . هسيودوس : الدرع ٢٧٥ . أوريبيدس : إيفيجينيا في أوليس ٧٣٢ ، الفينيقيات ٣٤٤ ، هيلينا ٧٢٢ ، ١٧٢٥ . بولوكس (بوليكس) ٣ ، ٤١ . لوقيانوس ، أثيون Action .

(٢) الإلياذة ١٨ : ٤٩٥ . هسيودوس : الدرع ٢٨٠ . أرسطوفانيس : الطيور ، بوليدونس ١٧٢٠ ؛ السلم ١٣٣٢ . بوليدوكيس ٣ : ٣٧ ؛ ٤ : ٨٠ . فوتيوس : خزانة الكتب C. 239

(٣) Plutarque, *Lycurgue*, 15: *Ἐγάμουν δι' ἁρπαγῆς*. Denys d'Halicarnasse *Οὐκ ἐφ' ὕβρει τῆς ἁρπαγῆς ἀλλ' ἐπὶ γάμῳ γενομένης, ἑλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον τὸ ἔθος καὶ τρόπον ἐπιφανέστατον καθ' ὃν συνάπτονται γάμοι ταῖς γυναιξὶν ἐπιφανέστατον*

٣ — يقربون من الموقد وتوضع الزوجة في حضرة المعبود المنزلي ويذرون عليها ماء النار وتمس النار المقدسة (١) وتتالى الأدعية ثم يقتسم الزوجان كعكة وخبزاً وبعض الفاكهة (٢)

وهذا النوع من الزوجية [illegible] متى بدأ وينتهي بزواله السوائل والدعاء، هذا الاقتسام للغذاء أمام الموقد يربط بين الزوجين برباط ديني ويصلهما بالآلهة المنزليين (٣)

والزواج الروماني كثير الشبه بالزواج الإغريقي ويشمل مثله ثلاث مراحل التسليم *traditio* ، الزفاف *deductio in domum* واقتسام الدقيق *Confarreatio*

١ — تصدر الفتاة الموقد الأبوي وحيث أنها لم تكن مرتبطة بهذا الموقد بمقتضى حق خالص لها بل عن طريق رب الأسرة فقط فإنه ما من شيء يستطيع أن يفصلها عنه إلا بواسطة الأب نفسه فالتسليم *traditio* إجراء لا مفر منه (٤)

٢ — تقاد الفتاة إلى منزل الزوج وكما هي الحال في بلاد الإغريق تكون ملثمة

(١) *Ignem undamque jugalem* [illegible] Valer. Flaccus, *Argonaut.* VIII, 245

(٢) بلوتارخوس : صولون ، ٢٠ ؛ عن الزواج [illegible] عند المقدونيين
Quinte-Curce VIII, 16: *Jussit afferri patrio more panem; hoc erat apud Macedones sanctissimum coeuntium pignus; quem divisum gladio uterque libabat*

(٣) ومن هنا هذا الاصطلاح الذي استعمله الإغريق [illegible]
من [illegible] *Τοῖς* [illegible]
وهذا التعبير الآخر من بلوتارخوس (حياة نيسيوس ١٠)
[illegible]
[illegible] *θεούς*
[illegible] (*Amatorius*, 4

(٤) من [illegible] tradition [illegible] sponsio في القانون الروماني
[illegible] (Servius Sulpicius) في
أولوس جيليوس Aulu-Gelle [illegible] ٤ ، انظر
Plaute, *Aulularia*, II, 2, 41-49; II, 3, 4; *Trinummus*, V, 4; Cicéron, *Ad Atticum*, I, 3.

وتحمل تاجاً وتسير الموكب شعلة الزوجية (١) . ويرتلون حولها نشيداً دينياً قديماً وربما تكون عبارات هذا النشيد قد تغيرت مع الزمن لكي تتفق مع تطورات العقائد واللغة لكن لفظاً مقدساً من هذا النشيد بقي دائماً دون أن يلحق به تغيير وهو لفظ *Talassie* ، لفظ لم يكن الرومان في زمن هوراسيوس يفهمون معناه أكثر مما كان الإغريق يفهمون معنى كلمة [illegible] ويحتمل أنه كان بقية مقدسة لصيغة عتيقة ([illegible] (٢)

يقف الموكب أمام منزل الزوج وهناك يقدمون للفتاة النار والماء . فالنار هي رمز المعبود المنزلي والماء هو ماء النار الذي تستخدمه الأسرة في كل الأعمال الدينية (٣) . ولكي تدخل الفتاة المنزل [illegible] (٤) كما كانوا يفعلون في بلاد الإغريق . ويجب على الزوج أن يرفعها بين ذراعيه وأن يحملها فوق العتبة دون أن تمس قدماها

٣ — تقاد الزوجة بعد ذلك أمام الموقد حيث يوجد [illegible] وحيث توضع جميع آلهة المنزليين وصور الأسلاف حول النار المقدسة ويقدم الزوجان قرباناً كما في بلاد الإغريق ويرتلان الصلوات ويتناولان بعض الحلوى ويأكلان معاً كعكة من خالص الدقيق *panis farreus* (٥)

(١) أوفيديوس : الأعياد ٢ : ٥٥٨ — ٥٦٠ .

(٢) بلوتارخوس : رومولوس ١٥ .

(٣) فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٦١ ، بلوتارخوس : مسائل رومانية ١ . سرفيوس على الإنيادة ٤ : ١٦٧ .

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٢٩ ، [illegible] ، ماكروبيوس ، كاتولوس [illegible] ، فستوس [illegible] *rapi* .

(٥) Plin. Hist. nat. XVIII, 3, 10: *In sacris nihil religiosius confarreationis vinculo erat, novaeque nuptae farreum praeferebant.* Denys d'Halicarn. II, 25: [illegible]

— فستوس : [illegible] ؛ موقد [illegible] ٢٢٩ — ٢٣٦ . سرفيوس على الإنيادة ٤ : [illegible] ؛ ad Georg., I, 31 ؛ غايوس ١ : ١١٠ — ١١٢ . [illegible] ، الفيجست ٢٣ : ٢ : ١ . وعند الأتروسك أيضاً كان يتم الزواج بضحية (فارون ، الفلاحة ٢ : ٤) [illegible] ، ترجمة أوريان (Orianne) ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٣٩ .

وهذه الكعكة التي تؤكل بعد تلاوة الصلوات ، بحضرة معبودات الأسرة وعلى مشهد منهم ، هي التي جعل [illegible] التقديس بين الزوج والزوجة (١) فهما يرتبطان [illegible] واحدة ويصبحان [illegible] نفس الآلهة ونفس الشعائر ونفس الصلوات ونفس الأعياد التي [illegible] ومن هنا هذا التعريف القديم للزواج الذي حفظه لنا الفقهاء : Nuptiae sunt divini juris et humani communicatio. وهذا التعريف الآخر : Uxor socia humanae rei atque divinae (٢) ذلك بأن المرأة أصبحت شريكة الزوج في ديانته ، تلك المرأة التي أدخلها الآلهة أنفسهم في البيت كما يقول أفلاطون.

والمرأة التي تزوجت بهذه الطريقة [illegible] موتى أيضاً ، لكنها لا تعبد الآلهة الخاصة بأسلافها هي ، [illegible] حق في ذلك فإن الزواج قد فصلها تماماً من أسرة أبيها وقطع صلاتها الدينية معها . وإنما تعبد القرابين لأسلاف زوجها [illegible] كما تقول الفقهاء ، وليس في استطاعة إنسان ينتمي إلى أسرتين [illegible] لأسرة زوجها [illegible] عرفت هذه القاعدة في قانون الميراث.

لابد أن يكون لهذا الزواج المقدس [illegible] للمرأة إذ أن أحدهما لا يسير بدون الآخر وقد عرفت هذه الديانة للإنسان أن الارتباط الزوجي شيء آخر غير الصلة الجنسية والعاطفة الطارئة وربطت بين زوجين برباط قوي مستمد من عقيدة واحدة وعبادة واحدة ، فضلاً عن أن حفلة الزواج كانت جد رائعة وكثيراً ما تحدث من الآثار الخطيرة

(١) [illegible] الزواج [illegible] يستعمل عند الرومان [illegible] أن الزواج المقدس يبدو [illegible] معها.

(٢) [illegible] مجموعة قوانين جستينيان ٩ [illegible] ٣٢ [illegible] ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ ، ٢٥ Κοινωνὸς χρημάτων καὶ ἱερῶν

ـه لا ندهش معه من أن نرى هؤلاء الناس يعتقدون أنه غير مسموح ولا مستطاع إقامة هذه الخدمة إلا لامرأة واحدة في كل منزل . إنه لا يمكن لمثل هذه الديانة أن تسمح بتعدد الزوجات .

بل إننا ندرك أن مثل هذا الارتباط لم يكن قابلاً للحل وأن الطلاق يكاد يكون مستحيلاً (١) . كان القانون الروماني يسمح بسهولة بحل الزواج الذي تم بطريق الشراء coemptio أو المتعة usus . لكن حل الزواج الديني كان شديد الصعوبة . فكان لابد لذلك من حفلة مقدسة جديدة ، لأن الدين وحده يستطيع أن يفرق ما جمعه الدين . فلا يستطيع أن يمحو أثر الـ confarreatio إلا الـ diffarreatio . فيظهر الزوجان اللذان يريدان الانفصال أمام الموقد المشترك للمرة الأخيرة ويحضرهما كاهن وشهود . وتقدم للزوجين ، كما حدث في يوم الزواج ، كعكة من خلاصة الدقيق (٢) . لكن من المحتمل أنهما بدلاً من اقتسامها كانا يدفعانها عنهما ، ثم إنهما بدلاً من الصلوات كانا يتلوان صيغاً غريبة لها طابع قاس ، تنطوي على البغض ، مخيفة (٣) . وهي نوع من الملاعنة تتنازل بها المرأة عن عبادة الزوج وآلهته . ومنذ ذلك يصبح الرباط الديني مفصوماً . وبانقطاع المشتركة في العبادة تنقطع كل مشتركة أخرى من تلقاء نفسها ويصبح الزواج منحلاً

(١) على أنه في الأصل بحسب ديونيسيوس هاليكارناسي ٢ ، ٢٥ ، صريحة إنه ما من شيء كان يستطيع أن يحل مثل هذا الزواج
يبدو أن الحق في الطلاق على إطلاقه لم يعرف إلا متأخراً في قانون أثينا

(٢) فستوس تحت لفظ Diffarreatio ، بولوكس ٣ ، 'Αποπομπή وتقرأ في إحدى الكتابات (أوريل رقم ٢٦٤٨)

Sacerdos confarreationum et diffarreationum

(٣) بلوتارخوس ، مسائل رومانية ، ٥٠ . Φρικώδη, ἀλλόκοτα, σκυθρωπά

الفصل الثالث

استمرار الأسرة . العزوبة محرمة . الطلاق فى حالة العقم

عدم المساواة بين الابن والبنت

إن معتقدات خاصة بالموتى ، وعبادة التى كانت تقدم لهم ، هى التى كونت الأسرة القديمة ومنحتها معظم قواعدها

وقد رأينا آنفاً أن الإنسان كان يعد بعد الموت كائناً سعيداً إلهياً ولكن بشرط أن يقدم له الأحياء الأكلة الجنازية دائماً . فإذا حدث أن انقطعت القرابين فإن فى ذلك مصيراً سيئاً يسقط به إلى مرتبة شيطان تعس شرير ذلك أن هذه الأجيال القديمة لم تكن قد فكرت فى الثواب والعقاب فى الفترة التى شدت تصور فيها الحياة الأخرى كانوا يعتقدون أن سعادة الميت لم تكن موقوفة على السلوك الذى سلكه فى حياته بل على ما تسلكه سلالته نحوه لذا كان كل واحد ينتظر من ذريته سلسلة الأكلات الجنازية التى من شأنها أن تضمن لروحه الراحة والسعادة

كانت هذه الفكرة هى المبدأ الأساسى للتشريع المنزلى عند القدماء . فاشتقت منه أولاً هذه القاعدة وهى أن على كل أسرة أن تبقى إلى الأبد فقد كان الموتى فى حاجة إلى ألا تنقرض سلالتهم ولم يكن لهم فى القبر الذى يعيشون فيه موضوع قلق سواه وكانت فكرتهم الوحيدة كى كل منهم وجدان أن يكون هناك على الدوام رجل من دمهم يحضر القرابين إلى القبر لذلك كان يعتقد هندى أن هؤلاء الموتى كانوا يكررون بلا انقطاع ليته يولد دائماً فى سلالتنا أبناء يحضرون لنا الأرز واللبن والعسل وكان الهندى يقول أيضاً إن انقراض أسرة يؤدى إلى

القضاء على ديانة بيت الأسرة . والأسلاف المحرومون من قربان الكعك يهوون إلى مقر التعساء» (١)

فكر الناس طويلا في الهند وفي بلاد الإغريق مثل هذا التفكير . وإذا كانوا لم يخلفوا لنا في كتبهم تعبيراً واضحاً عن عقائدهم كالذي نجده في كتب الشرق القديمة فإن قوانينهم على الأقل لا زالت باقية تشهد على عقائدهم العتيقة . ففي أثينا كان القانون يكلف رجل الدولة الأول أن يسهر على ألا تنقرض أسرة ما (٢) وكذلك كان القانون الروماني منتبهاً إلى عدم سقوط أية عبادة منزلية (٣) وإننا لنقرأ في خطبة لخطيب أثيني : «ما من رجل يعلم أنه سوف يموت ويبلغ قلة اهتمامه بذاته حد الرغبة في ترك أسرته بلا ذرية ، إذ أنه لن يكون هنالك أحد يؤدي له بعده واجبه للموتى» (٤) فكانت هنالك إذن مصلحة قوية في ترك بنين بعده لاقتناعه بأن الأمر متعلق بخلوده السعيد . بل لقد كان ذلك واجباً نحو الأسلاف ما دامت سعادتهم كانت لا تدوم إلا بقدر ما تدوم الأسرة . لذلك كانت قوانين مانو تسمي الابن الأكبر «المولود للقيام بالواجب» .

ونحن نلمس هنا صفة من أخص صفات الأسرة القديمة بالملاحظة . فإن الديانة التي كونت هذه الأسرة كانت تفرض حتماً عدم فنائها . إن أسرة تنطفئ هي عبادة تموت . ولا بد أن نتصور هذه الأسرات في الحقبة التي لم تكن العقائد قد تغيرت فيها : لكل واحدة منها ديانة وآلهة ، وديعة ثمينة لا بد أن تسهر عليها . وإن أكبر مصيبة تخشاها ورعها هي انقطاع سلالتها فإن ديانتها تختفي عندئذ من الأرض ويطفأ موقدها وتهوى كل سلسلة موتاها في النسيان والشقاء الأبدي . لقد كانت أكبر مصلحة للحياة البشرية هي في استمرار الذرية لكي تستمر العبادة .

(١) باغافاد - جيتا (Bhagavad-Gita) ، ١ : ٤
(٢) إيسيوس ، ميراث أبولودوروس ، ٣٠ ؛ ديموستينيس ، ضد ماكرتاتوس ، ٧٥ .
(٣) Cicéron, *De legibus*, II, 19: Perpetua sunt sacra. Denys, IX, 22:
Ἵνα μὴ ἱερὰ ἐκλειφθῇ πατρῷα
(٤) إيسيوس ، ٧ ، ميراث أبولودوروس ، ٣٠ — Cf. Stobée, *Serm.*, LXVII, 25:
Εἰ γὰρ ἐκλείποι τὸ γένος, οὐκ ἂν τοῖς θεοῖς θύοι

وطبقاً لهذه الآراء كان لا بد أن تكون العزوبة إثماً خطيراً ومصيبة معاً. إثماً لأن الأعزب كان يعرض سعادة أرواح أسرته للخطر. ومصيبة لأنه لن يتلقى هو ذاته أية عبادة بعد موته ولن يعرف «ما يبهج الأرواح». وفي ذلك نوع من اللعنة له ولأسلافه معاً.

من الممكن أن نعتقد أن هذه العقائد الدينية ظلت زمناً طويلاً كافية في غيبة القوانين لمنع العزوبة. لكنه يبدو زيادة على ذلك أن القوانين قد نصت، بمجرد ما وجدت، على أن العزوبة شيء رديء، معاقب عليه. يقول ديونيسيوس الهاليكرناسي الذي فتش في حوليات روما القديمة إنه رأى فيها قانوناً قديماً يجبر الشبان على الزواج (١). وتحوي رسالة شيشرون في القوانين، وهي الرسالة التي تنقل دائماً تقريباً القوانين الرومانية القديمة في شكل فلسفي، على قانون يحرم العزوبة (٢). وفي اسبرطة كانت شريعة ليكورج تعاقب الرجل الذي لا يتزوج عقاباً شديداً (٣). ونعرف من عدة قصص أنه حين لم تحرم العزوبة عن طريق القوانين كانت لا تزال محرمة عن طريق الأخلاق. وأخيراً يبدو من فقرة من بوليدوكيس أن القانون في كثير من المدن الإغريقية كان يعاقب على العزوبة باعتبارها جناية (٤). كان ذلك مطابقاً للعقائد. فلم يكن الإنسان ملكاً لنفسه بل كان ملكاً للأسرة. كان عضواً في مجموعة متعاقبة وكان لا بد ألا تنتهي المجموعة عنده. لم يولد من باب المصادفة، وقد أدخلوه في الحياة لكي يواصل عبادة ما، وكان عليه ألا يغادر الحياة دون أن يتأكد أن هذه العبادة ستستمر بعده.

(١) ديونيسيوس الهاليكرناسي ٩، ٢٢.

(٢) شيشرون: القوانين ٣: ٢.

(٣) بلوتارخوس: ليكورج ١٥؛ حكم apophthegmes اللاكيدمونيين. انظر حياة لساندروس ٣٠. 'Αγαμίου δίκη

(٤) بوليدوكيس ٣: ٤٨.

لكنه لم يكن يكفى أن يخلف أباً بل لا بد أن يكون الابن ، الذى عليه أن يواصل الديانة المنزلية ، ثمرة زواج دينى . أما النغل ، الابن غير الشرعى ، الذى كان الإغريق يسمونه *νόθος* واللاتينيون spurius فلم يكن باستطاعته أن يقوم بالدور الذى تعينه الديانة للابن . والواقع أن صلة الدم لم تكن لتنشئ الأسرة من تلقاء ذاتها بل كان لا بد من رباط العبادة أيضاً . هذا ولم يكن فى استطاعة الابن المولود من امرأة لم يشركها احتفال الزواج فى عبادة الزوج أن يساهم هو ذاته فى العبادة (١) . فلم يكن له الحق فى تقديم الأكلة الجنازية ولم تكن الأسرة لتستمر عن طريقه . وسنرى فيما بعد أنه لم يكن له الحق فى الميراث لنفس السبب .

وإذن فقد كان الزواج إلزامياً ولم يكن يهدف للذة ولم يكن غرضه الأساسى اتحاد كائنين يوافق كل منهما الآخر ويريدان المشاركة فى مسرات الحياة ومتاعبها بل كان أثر الزواج فى نظر الديانة والقوانين هو ربط كائنين فى نفس الديانة المنزلية لكى يولد منهما ثالث جدير بأن يستمر فى هذه العبادة من بعده . ويتبين ذلك جداً من الصيغة المقدسة التى كانت تتلى فى عقد الزواج . كان الرومان يقولون *Ducere uxorem liberorum quaerendorum causa* (٢) ويقول الإغريق *παίδων ἐπ' ἀρότῳ γνησίων* (٣)

ما دام الزواج لم يعقد إلا لاستمرار الأسرة فإنه يبدو من العدل إمكان فصمه إذا كانت المرأة عاقراً . فكان الطلاق فى مثل هذه الحالة شرعياً دائماً عند القدماء ومن الجائز أنه كان إجبارياً . ففى الهند كانت تحتم الديانة أن

(١) إيسايوس ٥ ، ميراث فيلوكتيمون ٧٤ ، ديموستينيس : ضد مكارتاتوس ، ٥

(٢) يعنى يتخذ زوجة طلباً لتربية العقب .

(٣) ميناندريوس : القطعة ١٨٥ ، ديموستينيس : ضد نايرا (Neaera) ١٢٢ ، لوكيانوس : تيمون ١ ، إيسخيلوس : أغاممنون ١٢٠٧ .

يستبدل بالمرأة العاقر سواها في نهاية ثماني سنوات (١). أما أن هذا الواجب كان كذلك في بلاد الإغريق فهو شيء لا يثبته أي نص صريح بيد أن هيرودوت يذكر ملكين من ملوك إسبرطة أجبرا على تطليق زوجيهما لأنهما كانتا عاقرين (٢). أما فيما يختص بروما، فإن قصة كرفيليوس روغا (Carvilius Ruga

الذي كان طلاقه أول طلاق ذكرته الحوليات الرومانية، معروفة بما فيه الكفاية. يقول أولوس جيليوس « انفصل كارفيليوس روغا، وهو رجل من أسرة كبيرة، عن زوجته بالطلاق لأنه لم يكن في استطاعته أن ينجب أولاداً منها. كان يحبها حباً ودوداً. ولم يكن له إلا أن يثني عليها على سلوكها. لكنه ضحى بحبه في سبيل ديانة القسم لأنه أقسم (في صيغة الزواج) أن يتخذ زوجة يكون له منها أطفال » (٣).

كانت الديانة تقول إن الأسرة يجب ألا تنقرض. وعلى كل عاطفة وكل حق طبيعي أن يخضع أمام هذه القاعدة المطلقة. فإذا كان زواج ما عقيماً من ناحية الزوج فلا بد مع ذلك من استمرار الأسرة. وكان لا بد حينئذ أن يحل محل الزوج أخ له أو قريب. وكان لزاماً على المرأة أن تستسلم لهذا الرجل والطفل الذي يولد من ذلك كان يعتبر ابن الزوج ويستمر في عبادته. تلك كانت القواعد المرعية عند الهندوس القدماء ونجدها مرة أخرى في قوانين أثينا وإسبرطة (٤). إلى هذا الحد بلغ سلطان هذه الديانة، إلى هذا الحد تقدم الواجب الديني على جميع الواجبات الأخرى.

ومن باب أولى كانت تلك الشرائع القديمة تفرض زواج الأرملة بأدنى أقارب زوجها إذا لم يكن لها أولاد. والولد الذي يولد يشهر بأنه ابن المتوفى (٥).

(١) قوانين مانو ٩ : ٨١

(٢) هيرودوت ٥ : ٣٩ ، ٦ : ٦١

(٣) أولوس جيليوس ٤ : ٣ . فاليريوس مكسيموس ٢ : ١ ، ٤ . ديونيسيوس ٢ : ٢٥

(٤) بلوتارخوس، صولون ٢٠ . هكذا يجب أن نفهم ما يقوله اكسينوفون وبلوتارخوس عن إسبرطة، اكسينوفون، جمهورية لاكيدمونيا ١ . بلوتارخوس، ليكورغ ١٥ . انظر قوانين مانو ٩ : ١٢١ .

(٥) قوانين مانو ٩ ، ٥٩ ، ١٤٦ . وكذلك عند العبرانيين، سفر تثنية التشريع ٢٥

لم يكن مولد البنت يقوم بالغرض من الزواج. والواقع أن البنت لا تستطيع أن تستمر في العبادة إذ أنها منذ اليوم الذي تتزوج فيه تتنازل عن أسرة أبيها وعن عبادته وتنتمي إلى أسرة زوجها وديانته. على أن الأسرة، كالديانة، لم تكن لتستمر إلا بطريق الذكور. وهذه حقيقة رئيسية سنرى عواقبها فيما بعد

فالابن إذن هو الذي كان منتظراً وكان لازماً. إنه هو الذي كانت تتطلبه الأسرة والأسلاف والموقد. وكما كانت تقول قوانين الهنود القديمة «به يسدد الأب دينه نحو أرواح أسلافه ويضمن لنفسه الخلود». ولم يكن هذا الولد أقل مقداراً في نظر الإغريق، إذ أنه هو الذي سيحمل الأضحية فيما بعد ويقدم الأكلة الجنازية ويحفظ بعبادته على الديانة المنزلية. لذلك كان يسمى الابن في مؤلفات ايسخيلوس القديم منقذ الموقد الأبوي (١)

كان يعلن عن دخول هذا الابن في الأسرة بإجراء ديني. كان لا بد أولاً أن يتقبله الأب. ويجب على هذا الأخير باعتباره رب الموقد وحارسه مدى الحياة وممثل الأسلاف، أن يقرر ما إذا كان المولود الجديد من الأسرة أو ليس منها. إذ أن المولد لم يكن إلا الرباط الطبيعي أما إعلان الوالد فكان الرباط الخلقي والديني. كان هذا الإجراء إجبارياً كذلك سواء في روما أو في بلاد الإغريق أو في الهند

وكان لا بد للابن من نوع من التنصيب كما رأينا بالنسبة للمرأة. وكان يحدث ذلك بعد المولد بفترة وجيزة، اليوم التاسع في روما، والعاشر في بلاد الإغريق، والعاشر أو الثاني عشر في الهند (٢). في ذلك اليوم يجمع الوالد الأسرة ويدعو الشهود ويضحي لموقده ويقدم الطفل للآلهة المنزلية. فكانت تحمله

(١) ايسخيلوس: حاملات القرابين ٢٦٤ [illegible] ٢٦٢ [illegible] وكذلك في اوريبيديس (العيفيجينيا [illegible]) يصف لابوس [illegible] أن [illegible] كوراً
Παιδων ἄρσεν οἰκοινιαν

(٢) أرسطوفانس: الطيور ٩٢٢ . . ديموستينيس In Boeot. de dote, 28 . ماكروبيوس: ساتورناليا ١، ١٦ . قوانين مانو ٢ : ٣٠ .

امرأة بين ذراعيها وتطوف به وهي تجري حول النار المقدسة عدة مرات (١) وكان الغرض المزدوج من هذا الاحتفال هو أولا تطهير الطفل (٢) أي أن ينتزع عنه الدنس الذي كان يظن القدماء أنه قد لحقه بمجرد عملية الحمل، ثم تلقينه عبادة المنزل. وبدءاً من تلك اللحظة يصبح الطفل مقبولا في هذا النوع من الجمعية المقدسة والملة الصغيرة التي كانوا يسمونها الأسرة. إذ أصبح حائزاً دينها ويقيم شعائرها وأهلا لتلاوة أدعيتها، كما يكرم أسلافها ولا بد من أن يصبح هو ذاته، فيما بعد، سلفاً مكرماً.

(١) أفلاطون تياتيتوس (Théétète) . ليسياس استشهد به هاربوكراتيون تحت لفظ Ἀμφιδρόμια.

(٢) Puer lustratur . ماكروبيوس ساتورنال ١ ، ١٦.

الفصل الرابع

التبنى والتحرير

كان واجب الإبقاء على العبادة المنزلية هو مبدأ شريعة التبنى عند الأقدمين فإن نفس الديانة التى كانت تجبر الإنسان على الزواج، والتى كانت تقرر الطلاق فى حالة العقم، والتى كانت تقيم مقام الزوج أحد أقربائه فى حالة العجز الجنسى أو الموت المبكر، كانت كذلك تقدم للأسرة وسيلة أخيرة لتجنب شقاء الانقراض الذى كانوا يخشونه أشد خشية. تلك الوسيلة هى حق التبنى.

من لم تهبه الطبيعة ابناً يستطيع أن يتبنى ولداً كيلا تنقطع الاحتفالات الجنازية، هكذا يتكلم مشرع الهنود القديم (١). ولدينا دفاع غريب من خطيب أثينى فى قضية كانوا ينازعون فيها ابن متبنى فى شرعية تبنيه. يرينا المدافع أولاً لأى سبب كانوا يتبنون ابناً فيقول «لم يرد منكليس (Menecles) أن يموت من غير أطفال، فكان متمسكاً بأن يترك من بعده واحداً ليدفنه وليقوم له فيما بعد بالاحتفالات للعبادة الجنازية». ويبين بعد ذلك ما سوف يحدث إذا ألغت المحكمة تبنيه، لا ما سيحدث له هو ذاته، بل ما يحدث لذلك الذى تبناه، مات منكليس لكن مصلحة منكليس هى التى فى خطر. «فإذا ما أبطلتم تبنى فإنكم تكونون قد جعلتم منكليس يموت دون أن يخلف ابناً من بعده وبالتالى لن يضحى أحد تكريماً له ولن يقدم له أحد الأكلات الجنازية وعلى الجملة فسيصبح من غير عبادة» (٢).

---

(١) قوانين مانو ٩، ١٠.

(٢) إيسايوس: ميراث منكليس ١٠ : ٤٦، وروى نفس الخطيب فى الدفاع عن ميراث استفيلوس Astyphilos, C 7 وهلاّ يتبنى ابناً قبل موته لكي ἐπὶ τοὺς βωμοὺς τοὺς πατρῴους βαδιεῖται καὶ τελευτήσαντι αὐτῷ καὶ τοῖς ἐκείνου προγόνοις τὰ νομιζόμενα ποιήσει.

فالتبنى معناه إذن السهر على دوام العبادة المنزلية وعلى سلامة الموقد واستمرار القرابين الجنازية . لم يكن هناك سبب للتبنى إلا ضرورة توقى انقراض العبادة . وقد نتج عن ذلك أنه لم يكن مسموحاً به إلا لمن لا ولد له وقانون الهنود صريح فى هذا الشأن (١) . وقانون أثينا ليس أقل صراحة ، وكل دفاع ديموستينيس ضد ليوخارس Leochares دليل على ذلك (٢) . ليس لدينا نص واضح يثبت أن الأمر كان كذلك فى القانون الرومانى القديم . نعرف أنه كان فى استطاعة بعض الرجال فى زمن غايوس أن يكون له أبناء بالطبيعة وأبناء بالتبنى . لكنه يبدو أن هذا الوضع لم يكن مسموحاً به فى القانون فى عصر شيشرون إذ أن الخطيب فى إحدى مرافعاته يتكلم هكذا : « ما هو القانون الذى ينظم التبنى ؟ أليس من اللازم أن يكون المتبنى فى سن لم تعد تسمح له بالحصول على أطفال ، وأن يحاول أن يكون له أطفال قبل التبنى ؟ فالتبنى معناه أن يطلب الإنسان إلى الديانة وإلى القانون ما عجز عن الحصول عليه من الطبيعة (٣) » يهاجم شيشرون تبنى كلوديوس معتمداً على أن الرجل الذى تبناه له ابن من قبل وينادى بأن هذا التبنى ضد الشريعة الدينية .

عندما يتبنى الإنسان ولداً يجب عليه قبل كل شىء أن يلقنه عبادته ، وأن يدخله فى ديانته المنزلية وأن يقربه من آلهته المنزلية (بناتس) (٤) . لذلك كان يحتفل بالتبنى باحتفال مقدس يلوح أنه كان شبيهاً ببعض الشبه بالاحتفال

(١) قوانين مانو ٩ ، ١٦٨ ، ١٧٤ . داتاكا – شاندريكا Dattaca-sandrica ترجمة أوريان ص ٢٦٠ .

(٢) انظر أيضاً إيسايوس ، ميراث منكليس ١١ — ١٤ .

(٣) شيشرون ، من أجل منزله ١٣ ، ١٤ . قارن بما يقوله أولوس جيليوس خصوص الـ adrogatio الذى كان عبارة عن تبنى رجل homo sui juris أى رجل له حقوقه الذاتية *arrogationes non temere nec inexplorate committuntur, nam comitia arbitris pontificibus praebentur, aetasque ejus qui arrogare vult an liberis gignendis idonea sit consideratur* (Aulu-Gelle V, 19).

(٤) *Ἐπὶ τὰ ἱερὰ ἄγειν*, Isée, *De apollod. her.* 1. *Venire in sacra*, Ciceron, *Pro domo*, 14. *In penates adsciscere*, Tacite, *Hist.* I, 15.

الذي كان يشهد به مولد الابن. وبذلك كان المولود الجديد يقسم لدى الموقد ويشترك في الديانة . فالآلهة والأشياء المقدسة والشعائر والأدعية . كل ذلك يصبح مشتركاً بينه وبين أبيه بالتبني فيقولون إنه انتقل إلى عبادة أسرته الجديدة in sacra transiit (١) .

وبهذا الإجراء ذاته كان يتنازل عن عبادة الأسرة القديمة (٢) . والواقع أننا رأينا أنه طبقاً لهذه العقائد القديمة لم يكن في استطاعة رجل أن يضحي لموقدين ولا أن يمجد سلسلتين من الأسلاف إذ بقبوله في بيت جديد يصبح بيت أبيه غريباً عنه . إنه لم يعد هناك شيء مشترك بينه وبين الموقد الذي رآه يولد ولم يعد يستطيع أن يقدم الأكلة الجنازية لأسلافه هو . فقد انقطعت صلة المولد وتغلبت الصلة الجديدة المستمدة من العادة (٣) . أصبح الرجل غريباً عن أسرته القديمة بحيث أنه إذا مات لا يكلف والده الطبيعي بحمل جنازته ولا السير أمام موكب دفنه . ولا يستطيع الابن المتبنى أن يعود إلى أسرته القديمة . وقد يسمح له القانون بذلك ، على أكثر تقدير ، إذا كان له ابن وخلفه مكانه في الأسرة المتبنية إذ كانوا يعتبرون أنه من دوام بقاء هذه الأسرة قد أصبح بذلك مضموناً فله حق استطاعة الخروج منها لكنه في هذه الحالة يقطع كل صلة مع ابنه الذي من دمه (٤) .

ويقابل التبني التحرر كمتمم له . لكي يستطيع ابن أن يدخل في أسرة جديدة كان لابد له بحكم الضرورة أن يستطيع الخروج من أسرته القديمة أي أن

(١) فاليريوس مكسيموس ٧ : ٧ ، شيشرون : من أجل منزله ١٣ : *Est heres sacrorum*

(٢) *Amissis sacris paternis*. Ciceron. *Pro domo*

(٣) Tite-Live, XLV 40 *Duo filii quos duobus aliis datis in adoptionem, solos sacrorum heredes retinuerat domi*

(٤) إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٤٥ ، ميراث أرسطارخوس ١١ ، ديموستينيس : ضد ليوخاريس ٦٨ ، سيمون السمعه ١٥ ، هربوكراتيون طبعة بكر Bekker ص ١٤٠ ، تراث فوبي ماتو ٩ : ١٤٢

يكون قد تحرر من ديانته (١). كان الأثر الأساسي للتحرير هو التنازل عن عبادة الأسرة التي ولد فيها. وكان الرومان يطلقون على هذه العملية اسماً ذا دلالة: *sacrorum detestatio* (٢) وعندئذ لا يعد الابن المحرر عضواً في الأسرة لا من ناحية الديانة ولا من ناحية القانون.

(١) *Consuetudo apud antiquos fuit ut qui in familiam transiret prius se abdicaret ab ea in qua natus fuerat.* Servius, *ad Aen.* II, 150

(٢) أولوس جيليوس ٥-١٠، ٢٧. قارن ما كان يسميه الإغريق ἀποκήρυξις أفلاطون: القوانين ١١ ص ٩٢٨ : Ὑπὸ κήρυκος ἐναντίον ἁπάντων ἀπειπεῖν υἱὸν κατὰ νόμον μηκέτι εἶναι

انظر لوقيانوس ٩، ٢: الابن المطرود من المدينة، بوليدوكس ٤٤؛ ٩٣، هسيخيوس (Hēsychius) تحت لفظ Ἀποκηρυκτός

الفصل الخامس

القرابة - ما كان يسميه الرومان أغناسيو Agnatio (العصبية)

قال أفلاطون إن القرابة هي المشاركة في نفس الآلهة المنزلية (١). ويقول بلوتارخوس أيضاً إن الأخوين هما رجلان اللذان يجب عليهما أن يقدما نفس الأضحية وتكون لهما نفس الآلهة الموروثة عن الآباء ويقتسما نفس القبر (٢). وعندما يريد ديموستينيس أن يثبت أن شخصين قريبان يبين أنهما يمارسان نفس العبادة ويقدمان الأكلة الجنازية لنفس القبر. والواقع أن الديانة المنزلية هي التي تنشئ القرابة. يستطيع رجلان أن يقولا إنهما قريبان إذا كانت لهما نفس الآلهة ونفس الموقد ونفس الأكلة الجنازية.

هذا وقد لاحظنا فيما سبق أن حق تقديم الأضاحي للموقد لم يكن ينتقل إلا من ذكر إلى ذكر وكذلك عبادة الموتى لم تكن تؤدى إلا للأصول حسب الذكور. ونتج عن هذه القاعدة الدينية أنه لا يمكن أن تكون القرابة عن طريق النساء فقد كان في رأي هذه الأجيال القديمة أن المرأة لا تنقل الوجود ولا العبادة. بل كان الابن يتلقى كل شيء عن والده. هذا ولم يكن من المستطاع أن ينتمي الشخص إلى أسرتين وأن يدعو موقدين. فلم يكن للابن إذن من ديانة غير ديانة الأب، أو أسرة غير أسرته (٣). كيف يمكن أن تكون له أسرة من ناحية الأم؟ إن أمه نفسها قد تنازلت، منذ اليوم الذي تمت فيه شعائر الزواج المقدسة، عن أسرتها الأصلية بصفة قاطعة. ومنذ ذلك الوقت وهي تقدم الأكلة الجنازية إلى أسلاف الزوج كما لو كانت قد أصبحت بنتهم ولم تعد تقدمها لأسلافها هي

(١) أفلاطون: القوانين، ص ٧٢٩. Συγγένεια ὁμογνίων θεῶν κοινωνία

(٢) بلوتارخوس: الحب.

(٣) Patris non matris familiam sequitur. دايجست: السفر ٥٠، الباب ١٦، الفقرة ١٩٦.

لأنها لم تعد تعتبر منحدرة منهم إنها لم تعد تحتفظ بصلة دينية ولا بصلة شرعية مع الأسرة التي ولدت فيها . وبالأولى ، لم يكن هناك شيء مشترك بين ابنها وبين هذه الأسرة

لم يكن عبادة الموتى المنزلية هي مبدأ القرابة بل كان هذا المبدأ قائماً على العبادة . ونرى هذا واضحاً في الهند . هناك يقدم رئيس الأسرة الأكلة الجنازية مرتين في الشهر فيقدم كعكة لروح والده وأخرى لجده لأبيه وثالثة لجد والده . ولا يقدم إطلاقاً لمن ينحدر منهم عن طريق النساء . ثم يصعد في سلسلة النسب . ولكن دائماً في نفس الاتجاه . فيقدم قرباناً لأجداده الرابع والخامس والسادس غير أن قربانه لهؤلاء أخف مما كان عليه سابقاً فهو مجرد إراقة الماء ويضع حبات من الأرز [illegible] هي الأكلة الجنازية ولا تعد القرابة إلا من واقع استمرار هذه الشعائر فإذا استطعنا رجلان ، يقوم كل منهما بالأكلات الجنازية على حدة . عندما يصعد كل منهما في سلسلة أسلافه الستة ، وجدا منهم مشتركاً بينهما فهذان الرجلان قريبان . ويسميان ساماتوداكاس *samanodacas* إذا كان السلف المشترك بينهما من أولئك الذين لا يقدم لهم غير إراقة الماء وسابينداس *sapindas* إذا كان يقدم لهم الكعك(١) فإذا حسبنا طبقاً لعاداتنا ، فإن القرابة بين السابينداس تصل إلى الطبقة السابعة وبين الساماتوداكاس إلى الرابعة عشرة (٢) ويعرف القرابة في هذه الحال أو تلك من تقديم القربان لنفس السلف وهكذا نرى أنه لا يمكن في هذا النظام قبول القرابة عن طريق النساء

وكذلك كان في الغرب . وقد كثر النقاش فيما كان يقصده الفقهاء الرومانيون بكلمة أغناسيو *agnatio* ولكن المعضلة تصبح هينة الحل إذا ما قاربنا الأغناسيو *agnatio* بالديانة المنزلية . فما دامت الديانة لا تنتقل إلا من ذكر

(١) قوانين مانو ، [illegible] ترجمة لوازلور ص ٢١٣ .

(٢) يتضح التعريف بالنصوص التي في المادة ٣٣٨ من القانون المدني الفرنسي وتعنيها كذلك في احتوائها بحسب الطبقات بالاحتساب من أحد الأقرباء حتى الأصل المشترك ودون أن يحتسب هذا الأخير وابتداء من هذا الأصل إلى القريب الآخر فيكون الأخوان في الطبقة الثانية ، والعم وابن الأخ في الطبقة الثالثة ، وأبناء العم الأولون في الرابعة وهكذا بالترتيب .

إلى ذكر فإنه لن يستطيع رجلان ، باقرار جميع الفقهاء القدماء ، أن يكونا أغناسيين فيما بينهما إلا إذا وجدا وهما يصعدان في عمود النسب ذكراً عن ذكر ، أسلافاً مشتركين بينهم (١) . فالقاعدة إذن فيما يختص بالأغناسيو هي نفس القاعدة الخاصة بالعصبة وكانت هناك صلة واضحة بين الموضوعين ولم تكن الأغناسيو شيئاً سوى القرابة كما أقرت الديانة في الأصل (٢) .

ولكي نجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً يجدر أن نرسم جدولاً لأسرة رومانية

لوقيوس قورنيليوس سقيبيو (مات حوالى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد)

بوبليوس قورنيليوس سقيبيو		غنيوس قورنيليوس سقيبيو	
بوبليوس قورنيليوس سقيبيو أفريقانوس	لوقيوس قورنيليوس سقيبيو	بوبليوس قورنيليوس سقيبيو نازيقا	
بوبليوس قورنيليوس سقيبيو	قورنيليا زوجة سمبرونيوس غراقخوس	لوقيوس قورنيليوس سقيبيو آسياتيقوس	بوبليوس قورنيليوس سقيبيو نازيقا قورقولوم
بوبليوس قورنيليوس سقيبيو إيميليانوس (ولد في أسرة إيميليا ودخل بطريق التبني في أسرة قورنيليا)	تيبريوس وغايوس غراقخوس	لوقيوس قورنيليوس سقيبيو آسياتيقوس	بوبليوس قورنيليوس سقيبيو نازيقا سيرابيو

---

(١) Gaius I, 156. *Sunt autem agnati per virilis sexus personas cognatione juncti, veluti frater ex eodem patre natus, fratris filius neposve ex eo, item patruus et patrui filius et nepos ex eo.* Id. III, 10. Ulpien, XXVI. *Institutes de Justinien*, III, 2.

(٢) القرابة عن طريق الذكور *agnatio* هي العصبة في اللغة العربية ويقال عن الرجل عاصب وجمعها عصبة . أما ما يسمى *cognatio* فهي قرابة طبيعية قرابة الدم ويستعمل عند الأعاجم في تعريب بدلا من الألفاظ اللاتينية العرب .

في هذا الجدول أربعة أشخاص يمثلون الجيل الخامس الذي كان يعيش حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد . فهل كانوا جميعاً أقارب فيما بينهم . كانوا كذلك طبقاً لآرائنا الحديثة . لكنهم لم يكونوا جميعاً أقرباء في رأى الرومان فلنبحث إذن فيما إذا كانت صلتهم صلة القرابة المدنية أي فيما إذا كانوا يقربون القريبين لنفس الأسلاف . لنفرض أن سقيبيو أسيانيقوس الثالث الذي بقى وحده من فرعه يقدم الأكلة الخيرية في اليوم المعين ، فإذا صعد عمود النسب من ذكر إلى ذكر وجد أن سلفه الثالث هو بوبليوس سقيبيو . وكذلك سقيبيو إميليانوس بينما يقدم ضحية يجد في سلسلة أسلافه نفس بوبليوس سقيبيو هذا . فيكون سقيبيو أسيانيقوس وسقيبيو إميليانوس قريبين فيما بينهما . ولو كانا عند الهنود لسموهما *sapindas*

ومن ناحية أخرى . السلف الرابع لسقيبيو سيرابيو هو بوبليوس قورنيليوس سقيبيو وهو أيضاً السلف الرابع لسقيبيو إميليوس فهما إذن قريبان فيما بينهما ولو كانا عند الهنود لسموهما *samanodacas* . وفي لغة روما الشرعية والدينية هؤلاء السقيبيو يسمون أعصبين (عصبة) فالأولاد أعاصيان (عاصبان) فيما بينهما للدرجة السادسة . و يثبت أعاصي (عاصب) معهما في الدرجة الثامنة

وليس الأمر كذلك فيما يختص بطيبريوس غراقحوس فإن هذا الرجل الذي يعد طبقاً لعاداتنا الحديثة أقرب الأقربين لسقيبيو إميليانوس لم يكن حتى من أقربائه الأبعدين في الدرجة . والواقع أنه لا يهم طيبريوس إلا قليلا أن يكون ابن قورنيليا ابنة آل سقيبيو ، فلا هو ولا قورنيليا ذاتها ينتمي إلى هذه الأسرة عن طريق الدين . فليس له أسلاف غير آل سمبرونيوس . فسقيبيو إميليانوس وطيبريوس غراقحوس ليسا عاصبين أذن . لأن صلة الدم لا تكفي لإقرار هذه القرابة إذ لا بد من صلة العبادة

ومن هذا نفهم لماذا كان الأخوال لأب عاصبين في نظر القانون الروماني ولم يكن كذلك الأخوال لأم . بل لا يقول أحد أن التناسل عن طريق الذكور كان هو المبدأ الثابت الذي تأسست عليه القرابة . فإن التعرف الحقيقي على العصبة لم يكن عن طريق التولد بل عن طريق العبادة . والواقع أن الابن الذي فصله التحرر

عن العدة لا يعود عاصباً مع أبيه ، والغريب الذى تبنوه أى قلوه فى العادة يصبح عصباً مع من تبناه ومع أسرته كلها . إلى هذه القدر كان صحيحاً أن الديانة هى التى تعين القرابة .

لا ريب أنه جاء على الهند وبلاد الإغريق ، كما جاء على روما ، زمن لم تكن فيه القرابة عن طريق العدة هى القرابة الوحيدة المقبولة . فيه كلما ضعفت هذه الديانة القديمة كلما ارتفع صوت الدم وأصبحت القرابة عن طريق الدم معترفاً بها ، وكان الرومان يسمون كوغناسيو cognatio هذا النوع من القرابة الذى كان مستقلا تمام الاستقلال عن قواعد الديانة المنزلية . عندما نقرأ الفقهاء منذ سيسرون إلى جوستينيانوس نرى طريقتى القرابة تتنافسان وتتنازعان ميدان الشريعة . ولكن فى زمن الوحات الإثنى عشرة كانت القرابة الوحيدة المعروفة هى الأغناسيو (العصبية) وهى دون سواها التى تمنح الحق فى الميراث . وسنرى فيما بعد أنه كان كذلك عند الإغريق

الفصل السادس

حق التملك

ها هو ذا نظام من نظم القدماء يجب ألا نتصوره طبقاً لما نراه حولنا فقد أسس القدماء حق التملك على مبادئ لم يعد معمولاً بها في الأجيال الحاضرة ونتج عن ذلك أن القوانين التي حموه بها كانت تختلف اختلافاً محسوساً عما لدينا

من المعروف أن هناك أجناساً لم تصل قط إلى إقامة الملكية الخاصة لديها وأخرى وصلت إلى ذلك مع مضي الزمن وبعناء . والواقع أنه ليس بالأمر الهين أن نعرف ما إذا كان في استطاعة الفرد عند نشأة المجتمع أن يتملك الأرض وأن يقيم صلة قوية بين شخصه وبين جزء من الأرض حيث يستطيع أن يقول : هذه الأرض لي . هذه الأرض تشبه جزءاً مني . فالتتار يتصورون حق التملك حينما يتصل بالقطعان ثم لا يفهمونه عندما يتعلق بالأرض وعند قدماء الجرمان . تبعاً لبعض المؤلفين . لم تكن الأرض ملكاً لأحد في كل عام كانت تمنح القبيلة لكل واحد من أعضائها نصيباً يزرعه ويبدلون الأنصبة في العام التالي فكان الجرماني مالكاً للمحصول ولم يكن مالكاً للأرض ولا يزال الأمر كذلك لدى جزء من الجنس السامي ولدى بعض شعوب الصقلبية (السلافية)

وعلى عكس ذلك شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا فقد عرفت التملك الفردي ومارسته دائماً منذ أقدم العصور ولم تبق أية ذكرى تاريخية عن عصر كانت الأرض فيه مشاعاً (١) كما أننا لا نرى شيئاً يشبه تلك القسمة السنوية للحقول التي أشير

(١) أبدى بعض المؤرخين رأياً مفاده أن التملك في روما كان في بدايته عاماً ولم يصبح خاصاً إلا في حكم نوما . ومصدر هذا الخطأ تفسير خاطئ لثلاثة نصوص في بلوتارخوس (نوما ١٦) وشيشرون (الجمهورية ٢ : ١٤) وديونيسوس (٢ : ٧٤) والواقع أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة يقولون إن نوما وزع بعض الأراضي على مواطنيه لكنهم يقولون بوضوح تام إنه لم يوزع سوى [illegible] بالنسبة للأراضي التي أضافتها فتوحات سلفه [illegible] الأرض [illegible] agri quos bello Romulus ceperat أما الـ ager Romanus أي الأرض التي [illegible] روما [illegible] أسبال (استرابون ٥ : ٣ : ٢) فكانت ملكاً خاصاً منذ نشأة المدينة . انظر ديونيسيوس ٢ : ٧ ؛ فارون [illegible] ملاحظة [illegible] فيستوس ماركيلوس طبعة Quicherat ص ٦١

إليها عند الحرمان . بل إن هناك حدثاً جديراً بالملاحظة فبينما الأجناس التي لا تمنح الفرد تملك الأرض تمنحه على الأقل تملك ثمار عمله أي محصوله كان الأمر على العكس عند الإغريق. ففي بعض المدن كان يفرض على المواطنين أن يجمعوا محصولهم أو على الأقل الجزء الأكبر منه مشاعاً ويتحتم عليهم أن يستهلكوه بالمشاركة (١) . لم يكن الفرد إذن سيداً مطلقاً على القمح الذي حصده لكنه في نفس الوقت ، وفي هذا تناقض جد جدير بالملاحظة ، كان له التملك المطلق على الأرض كانت الأرض ملكاً له أكثر من المحصول ويلوح أن فكرة حق التملك قد سلكت لدى الإغريق مسلكاً مضاداً كل التضاد للمسلك الذي يبدو طبيعياً فإن هذا الحق لم يطبق أولا على المحصول ثم على الأرض بعد ذلك بل اتبع في ذلك الترتيب العكسي

هناك ثلاثة أشياء نجدها ، منذ أقدم العصور ، مؤسسة وثيقة القرار في هذه المجتمعات الإغريقية والإيطالية الديانة المنزلية والأسرة وحق التملك ثلاثة أشياء كان بينها منذ البدء علاقة بينة ويبدو أنها كانت غير قابلة للانفصال

كانت فكرة الملكية الخاصة في جوهر الديانة . فكان لكل أسرة موقدها وأسلافها ولا يمكن سواها أن يعبد هذه الآلهة . وهي أيضاً لا تحمي سواها فقد كانت ملكاً لها .

هذا وكان الناس في العصور القديمة يرون بين هذه الآلهة وبين الأرض صلة خفية فلنأخذ الموقد أولا : هذا المذبح هو رمز الحياة المستقرة واسمه وحده يدل على ذلك (٢) ويجب أن يوضع على الأرض . ومتى وضع لا يمكن أن ينقل من موضعه فإن إله الأسرة يريد أن يكون له مسكن ثابت . فمن الناحية

---

(١) وهكذا كان كل واحد في الريطيين كريت يعطي للأكلات المشتركة عشر محصول أرضه أثينايوس Athenee ٤ : ١٤٣ . وكذلك في إسبرطة كان على كل فرد أن يقدم من ماله الخاص كمية معينة من الدقيق والخمر والتمر لنفقات المائدة المشتركة (أرسطو : سياسة ٢ : ٧ طبعة ديدو ص ٥١٥ ؛ بلوتارخوس : ليكورج ١٢ ؛ ديكايارخوس Dicearque في أثينايوس ٤ : ١٩) .

(٢) Εστία, ἵστημι, stare . أنظر بلوتارخوس De primo frigido 21 ماكروبيوس ١ : ٢٣ أوفيديوس : الأعياد ٦ : ٢٩٩

المادية كان يصعب نقل حجر حتى يزحزح فوقه. أما من الناحية الدينية فإن نقله أصعب من ذلك بكثير وليس مسموحاً به للإنسان إلا إذا اضطرته الحاجة القاسية، إذا طرده عدو أو إذا لم تستطع الأرض أن تغذيه. عندما يوضع الموقد فإنه يوضع مع الاعتقاد والرجاء بأنه سيبقى دائماً في نفس هذا المكان. فيقيم الإله هناك لا ليوم ولا لمدى حياة رجل فحسب بل لكل الزمن الذي تبقى فيه هذه الأسرة وما بقي أحد لكي يحافظ على لهيبه بالتضحية. وهكذا يتملك الموقد الأرض. إنه يجعل هذه البقعة من الأرض له. إنها ملك له.

والأسرة التي تبقى على الدوام مجتمعة حول مذبحها بحكم الواجب وبحكم الدين تتشبث بالأرض كالمذبح ذاته. وهكذا فكرة المسكن المستقر تجيء طبيعياً فالأسرة مرتبطة بالموقد والموقد مرتبط بالأرض وبذلك تستقر صلة وثيقة بين الأرض وبين الأسرة. هناك يجب أن يكون مسكنها الدائم الذي لن تفكر في تركه إلا إذا أجبرتها على ذلك قوة عليا فهي كالموقد تحتل هذا المكان على الدوام إن هذا المكان لها. إنه ملكها وليس ملك الرجل بمفرده بل الأسرة يجب أن يأتي أعضاؤها المختلفون الواحد تلو الآخر يولدون ويموتون في هذا المكان.

لنتتبع آراء القدماء. إن موقدين يمثلان آلهة متباينة لا تتحد ولا تختلط أبداً وإن ذلك لمن الحقيقة حتى أن الزواج بين أسرتين لا يقيم تحالفاً بين آلهتهما. يجب أن يكون الموقد منعزلاً أي منفصلاً انفصالاً بيناً عن كل ما عداه. يجب ألا يقترب منه الأجنبي في اللحظة التي تقام فيها احتفالات العبادة بل ألا يقع نظره عليه. لذلك يسمون هؤلاء الآلهة بالآلهة الخفية μυχιοι أو الآلهة الداخلية penates. ولكي تنفذ هذه القاعدة الدينية تنفيذاً حسناً يجب أن يكون هناك سور حول الموقد على مسافة معينة. وليس مهماً أن يكون حاجزاً من الشجيرات أو حاجزاً من الخشب أو حائطاً من حجر مهما يكن فإنه يبين الحد الذي يفصل منطقة موقد عن منطقة موقد آخر. هذا السور

يعد مقدساً (١) . ومن الإثم أن يتخطاه أحد . وإن الإله يسهر عليه ويضعه تحت حراسته . ولذا ينعتون هذا الإله ἑρκεῖος (٢) هذا السور الذي ترسمه الديانة وتحميه هو أضمن رمز لحق التملك وأدل دليل على حق لا يرد

ولننتقل إلى العصور الأولى للجنس الآرى . الحرم المقدس الذى يسميه الأغريق ἕρκος هو الحوز الممتد إلى حد ما الذى فيه بيت الأسرة وقطعانها والحقل الصغير الذى تزرعه . وفى الوسط يقوم الموقد الحامى ولنهبط إلى العصور التالية وصلت شعوب إلى بلاد الإغريق وإيطاليا وبنت مدناً وتقربت المساكن متلاصقة ولا يزال السور المقدس موجوداً لكنه على نسب أقل فيقتصر فى كثير من الأحيان على حائط صغير أو على حفرة أو على خط مشقوق أو على مجرد نطاق من الأرض يبلغ عرضه بضعة أقدام . وفى جميع الأحوال لا يجوز لمسكنين أن يتماسا فالحائط المشترك يعتبر شيئاً مستحيلا إذ لا يمكن أن يكون نفس الجدار مشتركاً بين منزلين لأنه فى هذه الحال يختفى سور الآلهة المنزلية المقدس فى روما يحدد القانون عرض المسافة الحرة التى يجب أن تفصل دائماً بين منزلين بقدمين ونصف ، وهذه المسافة مخصصة « لإله السور » (٣)

(١) Ἕρκος ἱερόν Sophocle, *Trachin.* 606

(٢) فى العصر الذى كادت فيه الأسرة تختفى ، وهى ديانة زوس ، أن تمحو فيه هذه العبادة والذى جمعوا فيه بين زوس وبين معبود الموقد عد الإله الجديد بنفسه صفة ἑρκεῖος . ولا يقلل هذا من صحة أن الحامى الحقيقى للسور فى الأصل كان هو الإله المنزلى . يشهد بذلك ديونيسيوس هاليكارناسى ، ١ ، ٦٧ ، عندما يقول إن الـ θεοὶ ἑρκεῖοι هم بذاتهم الـ Penates . ويمكن ذلك من مقارنة فقرة من بوسانياس (٤ ، ١٧ ، ٧) وفقرة من أوريبيدس (الطرواديات ، ١٧) وفقرة من فرجيليوس (الإنيادة ٢ ، ٥١٤) فهذه الفقرات الثلاث تشير إلى نفس حقيقة وترى أن Ζεὺς ἑρκεῖος ما هو إلا الموقد المنزلى .

(٣) فستوس ، تحت لفظ *Ambitus* ، فارون ، عن اللغة اللاتينية ٥ : ٢٢ ، سرفيوس ، تعليقات على الإنيادة ٢ : ٤٦٩ .

نتج عن هذه القواعد الدينية القديمة أن الحياة فى المشاع لم تستطع أن تستقر قط . فإن مسكن العشيرة المشتركة (phalanstere) لم يعرف فيهم قط . وحتى فيثاغورس لم ينجح فى إقامة أنظمة كانت تقاومها ديانة الناس الباطنية كما أننا لا نجد فى أية فترة من حياة القدماء شيئاً يشبه معيشة الخلطة فى القرية التى كانت عامة فى فرنسا فى القرن الثانى عشر . وما دام لكل أسرة آلهتها وعبادتها فلابد أنه كان لها أيضاً مكانها الخاص على الأرض ومسكنها المنعزل أى مسكنها .

كان الإغريق يقولون إن الموقد علم الإنسان أن يبنى المنازل (١) . والواقع أن الرجل الذى أثبتت ديانته فى مكان ما يعتقد أنه يتحتم عليه ألا يبرحه قط وسرعان ما فكر فى إقامة بناء ثابت فى ذلك المكان . فالخيمة توافق العربى أما الأسرة التى لها موقد منزلى فلا بد لها من مسكن باق . وسرعان ما حل المنزل المبنى من الحجر محل الكوخ المبنى من القصب أو الخشب . إنهم لم يبنوا للحياة وحدها فحسب بل للأسرة التى كان لا بد أن تتعاقب أجيالها فى نفس المسكن .

كان المنزل دائماً بداخل السور المقدس . فعند الإغريق كانوا يقسمون المربع الذى يحيط به هذا السور إلى قسمين : فالقسم الأول هو الفناء ، والمنزل يحتل القسم الثانى . وبذلك يكون الموقد الموضوع فى وسط الحيز الذى يحيطه السور شاملاً للجميع ، فى نهاية الفناء وبالقرب من مدخل المنزل . أما فى روما فكان الترتيب مختلفاً لكن المبدأ هو بذاته فقد بقى الموقد موضوعاً وسط حيز السور لكن المبانى تقوم حوله من الجهات الأربع بحيث يكون محصوراً وسط فناء صغير .

ويتبين فى وضوح الفكرة التى أوحت بهذه الطريقة فى البناء . فقد قامت الجدران حول الموقد لتعزله وتحميه . ويمكن القول كما كان الإغريق يقولون : إن الديانة علمت بناء المنازل .

(١) ديودوروس ٥ ، ٦٨ . روى هذا التقليد أوستاس (Eustathe) الذى يقول إن المنزل خرج من الموقد (أوستاس : تعليقات على الأوديسة ؛ : الكتاب ٨ ، ١٨ : البيت ١٠٦) .

للأسرة في هذا المعبد هي المهيمنة والمالكة ومعبودها المنزلي هو الذي يصون حقها، والمعبد يقدسه حضور الآلهة الأبدى. إنه المعبد الذي يحفظهم. يقول شيشرون: وأى شيء أكثر قداسة من مسكن الإنسان. إن فيه المذبح. وهناك تتوهج النار المقدسة. وفيه الأقداس والديانة (١). ومحظور إلى هذا المعبد بقصد سوء من الرجس. فقد كان المسكن مصوناً لا يمس. وفى إشارة رومانية أن الإله المنزلي كان يصد اللص ويبعد العدو (٢).

ولننتقل إلى شيء آخر كان كذلك موضوعاً للعبادة وهو القبر لكي نرى أن نفس الآراء كانت تلازمه. فقد كانت للقبر أهمية عظيمة في ديانة القدماء. إذ من ناحية كان عليهم أن يؤدوا عبادة للسلف ومن ناحية أخرى كان يجب أن تقوم الحفلة الرئيسية في هذه العبادة. أى الأكلة الجنازية. في نفس المكان الذي يرقد فيه الأسلاف (٣). لذلك كان للأسرة قبر مشترك لا بد أن يأتي أعضاؤها ليرقدوا فيه الواحد تلو الآخر. وكانت القاعدة فيما يختص بهذا القبر هي نفس القاعدة التي تراعى فيما يختص بالموقد. فلم يكن مسموحاً جمع بين أسرتين في نفس المدفن كما أنه لم يكن مسموحاً الجمع بين موقدين منزليين في بيت واحد. وكان من الإثم دفن ميت خارج قبر أسرته أو وضع جثمان غريب في ذلك القبر (٤). فقد كانت الديانة المنزلية تعزل كل أسرة عن جميع الأسرات الأخرى سواء في الحياة أو في الممات وتقضي بشدة على كل مظهر من مظاهر المشاركة. فكما أنه

(١) شيشرون، بر دومو، ٤١.

(٢) أوفيديوس، الأعياد [illegible].

(٣) لذلك كانت القاعدة المتبعة، على الأقل عندما كانوا يعتقدون أن الأكلة الجنازية غذاء للميت. أنظر أوريبيدس، الطرواديات ٣٨١، ٣٨٩.

(٤) شيشرون، عن القوانين [illegible] جايوس، القواعد Instit [illegible] [illegible] فإن الخلط كان يجري بين [illegible] ويدفنون في قبر مشترك [illegible] خارجون عن القاعدة، التي تفرض أن يدفن كل شخص في قبر أسرته [illegible] الجثة [illegible] لأحد الأفراد.

لايجوز أن تتجاور المدن فإنه لا يجوز أن تتماس القبور فكان لكل واحد منها ، كما كان للمنازل ، نوع من السور العازل .

إلى أي حد كانت صفة الملك الخاص واضحة في كل ذلك فالموتى آلهة تتبع أسرة بالذات وحدها ولأسرة وحدها الحق في دعوتهم هؤلاء الموتى قد تملكوا الأرض وهم يعيشون تحت هذا الكثيب الصغير وما من أحد يستطيع أن يفكر في الاختلاط بهم إلا إذا كان من الأسرة هذه وليس لأحد الحق في أن يجردهم من ملكية الأرض التي يشغلونها فالقبر عند القدماء لا يمكن أن يهدم ولا أن ينقل (١) ويحرم ذلك أشد القوانين قسوة فها هو ذا إذن جزء من الأرض يصبح باسم الدين ملكاً خالداً لكل أسرة . لقد تملكت الأسرة هذه الأرض بوضع موتاها فيها واستقرت هنالك إلى الأبد : وفي استطاعة الفرع الحي من هذه الأسرة أن يقول من الناحية الشرعية إن هذه الأرض لي . إنها له بحيث لا يمكن فصلها عنه ولا حق له في التنازل عنها فالأرض التي يرقد فيها الموتى لا يمكن التنازل عنها ولا وضع اليد عليها بحكم القانون الروماني أنه إذا باعت أسرة الحقل الذي به قبرها فإنها تبقى مالكة هذا القبر على الأقل ، وتحتفظ إلى الأبد بالحق في اجتياز الحقل لكي تقوم باحتفالات عبادتها (٢)

ولم تكن العادة القديمة أن تدفن الموتى في جبانات أو على حافتي طريق بل في حقل كل أسرة . يشهد بهذه العادة ، التي كانت متبعة في العصور القديمة ، قانون لصولون وعدة فقرات من بلوتارخوس (٣) . نرى في دفاع لديموستينيس أنه في عصره أيضاً كانت كل أسرة تدفن موتاها في حقلها وعندما كانوا يشترون ملكاً في أتيكا كانوا يجدون فيه مدفن أجداده الأقدمين (٤) وفي

(١) سيكيولوس ضد سيرولوس ٥ . قال لا بد بنقل القبر . في روما نص تصريح من الأحبار . بلوتارخوس : رمانس ، ٧٣

(٢) شيشرون : القوانين ٢ ، ٢٤ . شيشرون ١٨ ، أسباب ١ ، ٦ .

(٣) قانون صولون ـ جايوس في الديجست ١٠ ، ١ ، ١٣ . بلوتارخوس . أرستيديس ١ : صولون ٩ . ماركيللينوس حياة توكيديديس فقرة ١٧ .

(٤) ديموستينيس . ضد كاليكليس ٣ ، ١٤ . وقد وصف ديموستينيس في مكان آخر قبر البوسيليين Buselides . تعرف عن كل شيء ، الامتداد وسور حسب العادات القديمة حيث يرقد معاً جميع الذين تحدروا من بوسيلوس (ديموستينيس ، ضد ماكرتاتوس ٧٩)

إيطاليا يشهد بهذه العادة دائماً قانون الألواح الاثنتي عشرة ونصوص اثنين من الفقهاء وعبارة سيقولوس فلاكوس Siculus Flaccus «كانت هناك في القديم طريقتان لوضع القبر فكان يضعه بعضهم على حدود الحقل والبعض الآخر في حوالي منتصفه» (١).

ومن هذه العادة ندرك أن فكرة التملك قد امتدت بسهولة من الكثيب الصغير الذي كانت ترقد فيه الموتى إلى الحقل الذي يحيط بهذا الكثيب. ونستطيع أن نقرأ في كتاب كاتون الأكبر صيغة كان يتوسل بها الأكار الإيطالي للأرواح لكي تسهر على حقله وتحرسه من اللصوص وتجعله ينتج محصولاً طيباً. وهكذا كانت أرواح الموتى تمد أثر حمايتها إلى أطراف الأرض المسور عليها، ومع الحماية حق التملك وهي التي كانت تجعل الأسرة المسيطر وحدها على هذا الحقل وهكذا أنشأ القبر الرابطة التي لا تنفصم بين الأسرة والأرض، ألا وهو التملك.

الديانة هي التي أوجدت حق التملك لدى معظم الشعوب البدائية. ففي التوراة يقول الله لإبراهيم «أنا الرب الذي أخرجتك من أور الكلدانيين لكي أعطيك هذه الأرض»، ولموسى «سأدخلكم في الأرض التي أقسمت أن أعطيها لإبراهيم وسأعطيها لكم ميراثاً». فالله، وهو المالك الأصلي بحق الخلق، يفوض للإنسان حق تملك جزء من الأرض (٢). ولقد كان هناك شيء مماثل لذلك لدى الشعوب الإغريقية والإيطالية القديمة. حقاً إنها لم تكن ديانة جوبيتر التي أسست هذا الحق وقد يكون ذلك لأنها لم تكن قد وجدت

(١) سيقولوس فلاكوس طبعة [illegible]) ص ٤٠٤. أنظر القطع الإضافية (طبعة جيز ص ١٤٧) بومبونيوس في المختصر السفر ٤٧ الباب ١٢، ٥. بولس في المختصر ٨، ٤٤. المختصر ١٩، ١، ٥٣: si vendidisti fundum in quo sepulcrum haberes؛ [illegible] ١١، ٧، ٢ [illegible] ٤٦ و٤.

(٢) نفس الإشارة عند الأتروسك.

Cum Jupiter terram Etruriae sibi vindicavit constituit jussitque metiri campos signarique agros. *Auctores rei agrariae* في القطعة التي عنوانها *Idem Vegoiae Arrunti* طبعة لاخمان Lachmann ص ٣٥٠.

بعد ... إن الآلهة التي منحت كل أسرة حقها على الأرض هي الآلهة المنزلية والموقد والناس ... الدين التي كانت لها السلطان على أرواحهم أولا هي الديانة التي كونت الملكية عندهم .

ومن الواضح وضوحاً بيناً أن التملك الخاص كان نظاماً لا تستطيع الديانة المنزلية أن تستغني عنه . كانت هذه الديانة تفرض عزل المسكن وعزل المدفن أيضاً . وإذن فقد كانت المشتركة الجماعية في المعيشة مستحيلة . وكانت نفس الديانة تأمر بأن يكون الموقد ثابتاً في الأرض وألا يهجر القبر أو ينقل . احذف التملك يصبح الموقد لا مستقر له وتختلط الأسرات ويترك الموتى لا عبادة لهم . فقد تملكت الأسرة الأرض عن طريق الموقد الذي لا يتزحزح والمدفن ... وأنه ... القول إن الأرض قد تشربت ديانة الموقد والأسلاف وتشبعت بها . وإذن فقد كان ... في العصور القديمة مكلفاً على معضلات تتجاوز الحد في ... وحل ... من غير جهد . وبدون أدنى تردد ، وبفضل عقائده ... بل فكرة حق [illegible] ، هذا الحق الذي تخرج منه كل حضارة ، إذ ... يصبح ... الأرض ويصبح هو ذاته أخص ...

لم تكن القوانين هي التي ضمنت حق التملك أولا وإنما كانت هي الديانة ... كل ملك تحت إشراف معبودات منزلية كانت تسهر عليه (١) . وكان يجب أن يحاط كل حقل بسور ... فاصلا واضحاً عن أملاك الأسرات الأخرى كما رأينا فيما يختص بالمنزل ... هذا السور لم يكن حائطاً من الحجر بل كان شريطاً من الأرض ... عرضه بضعة أقدام كان يجب أن يبقى من غير زرع وألا يمسه المحراث . هذه ... كانت مقدسة ... ... أمام ... قائمة توضع ... (٢) ... للمديانة ... وفي أيام معينة من الشهر

(١) *Lares agri custodes*. Tibulle, I. 1, 23. *Religio Larum posita in* [illegible] *fundi villaeque conspectu*. Ciceron, *De legib* II, 11.

(٢) [illegible]

أو السنة كان رب الأسرة يطوف بحقله متتبعاً هذا الخط. كان يدفع أمامه الضحية ويغني الأناشيد ويقدم القرابين (١). كان يعتقد أنه قد أيقظ بهذا الاحتفال عطف آلهته على حقله وعلى منزله وأبرز، على الأخص، حقه في التملك بالطواف بعبادته المنزلية حول حقله. فالطريق الذي سارت فيه الأضاحي ورتلت فيه الصلوات هو حد الملك الذي لا تمس حرمته.

كانوا يضعون على طول هذا الخط، وعلى مسافات، بعضاً من الأحجار الكبيرة أو بعضاً من جذوع الأشجار يسمونها تخوم *termes*. وفي الاستطاعة أن نتبين ماهية هذه التخوم وماهي الأفكار التي كانت تتعلق بها، من الطريقة التي كانت تقوى الناس تضعها بها في الأرض. يقول سيكولوس فلاكوس: هذا ما كان يفعله أسلافنا. كانوا يبدأون بحفر حفرة صغيرة ويوقفون التخم على الحافة ويتوجونه بقلائد من العشب والزهر. ثم يقدمون قرباناً وعندما يذبحون الأضحية يجعلون دمها يسيل في الحفرة ويلقون فيها فحماً مشتعلاً (من المحتمل أنهم كانوا يوقدونه من النار المقدسة في موقد) وحبوباً وكعكاً وفاكهة وقليلاً من الخمر والعسل وعندما يحترق كل ذلك في الحفرة يغرسون الحجر أو قطعة الخشب في الرماد وهو لا يزال ساخناً (٢). ونرى بوضوح أن الغرض من هذا الاحتفال هو جعل التخم كما لو كان ممثلاً مقدساً للعبادة المنزلية. ولكي تستمر هذه الصفة ملازمة له كانوا يجددون العملية المقدسة في كل عام بسكب السوائل عليه وتلاوة الأدعية. إن وضع التخم في الأرض هو بمثابة أن الديانة المنزلية قد غرست في الأرض لكي تبين أن هذه الأرض أصبحت ملكاً للأسرة إلى الأبد. وقد استطاع الشعر على اعتبار التخم فيما بعد، إلهاً متميزاً عن غيره وله كيانه.

ويبدو أن استعمال التخوم أو الحدود المقدسة للحقول كان عاماً في الجنس الهندو أوروبي. فقد كان موجوداً عند الهنود في زمن سحيق في القدم وكانت

(١) كاتون: الفلاحة، ١٤١. *Script. rei agrar.* طبعة غيز Goez ص ٣٠٨ ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢: ٧٤. أوفيديوس: الأعياد ٢: ٦٣٩. استرابون ٥: ٣

(٢) Siculus Flaccus, *De conditione agrorum*, edit. Lachmann, 141; edit. Goez, p. 5

بين حفلات التحديد المقدسة عندهم وبين تلك التي وصفها سيقولوس في إيطاليا مشابه كبيرة (١) وقبل روما عبد التخم عند السابيين (٢) ونجده أيضاً عند الأتروسك. وكانت الإغريق أيضاً تخوم مقدسة يسمونها ὅροι, θεοὶ ὅροι (٣)

وعندما يوضع التخم طبقاً للشعائر لا تستطيع أية سلطة في العالم أن تنقله من مكانه بل لا بد أن يبقى في نفس المكان على حسب الأبد. وهذا المبدأ الديني كانوا يعبرون عنه في روما بالأسطورة التالية: عندما أراد جوبيتر أن يتخذ لنفسه مكاناً على جبل الكابيتول ليحد فيه معبداً لم يستطع أن يجرده من التخم (حد) من مسكنه. وهذه الرواية تري إلى أي حد كان التخم مقدساً. إذ أن التخم الذي لا يمكن أن يزحزح لا يدل على شيء إلا على مسكنة التي لا تمس سوء.

والواقع أن التخم كان يحمي حد حقل ويسهر عليه ولم يكن يستطيع أحد أن يقترب منه كل الاقتراب إذ عندئذ، كما يقول أوفيديوس، يشعر الإله بصدمة سكة المحراث أو الفأس ويصيح: قف هذا حقلي وذاك حقلك. (٤) ويكفي لكي يتعدى مرء على حقل أسرة كان لا بد له من قلب التخم أو نقله. وهذا التخم إله والخطيئة عظيمة والعقاب شديد. يقول القانون الروماني القديم: إذا ما مس الإنسان التخم بسكة محراثه فإن الرجل وثيرانه يكونون للآلهة السفليين نذراً (٥) ومعنى ذلك أنه كان يضحى بالرجل والثيران عقاباً لهم. وكان القانون الأتروسكي يقول وهو يتكلم باسم الدين: حكم الآلهة على من يمس التخم أو ينقله [illegible] بزوال بيته ويتعرض [illegible]. ومن ينقل أرضه قفاراً

(١) [illegible]
[illegible] p. [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible] ὅροι [illegible] terminus [illegible] Ἰσοι [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) Festus, V° Terminus, ed. Muller, p. 368: Qui terminum exarasset, et ipsum et boves sacros esse.

ويبيد البرد و يصدأ ويرى فقط محصوله . وأعضاء جسم المذنب تغطيها القروح وتتآكل حتى تتساقط (١) .

بقى لدينا نص القانون الأثيني عن نفس الموضوع ولم يبق لدينا منه سوى ثلاث كلمات معناها « لا تتجاوز الحد » لكن يبدو أن أفلاطون يكمل فكرة المشرع عندما يقول « يجب أن يكون أول قوانينا هو : يجب ألا يمس أحد الحد الذي يفصل بين حقله وحقل جاره إذ لا بد من بقائه ثابتاً . يجب ألا يحرك أحد ولو جرحة الحجر الصغير الذي يفصل بين الصداقة والعداوة ، ذلك الحجر الذي أقسم الإنسان أن يتركه في مكانه » (٢) .

من جميع هذه المعتقدات ومن مجموعة هذه العادات والقوانين ينتج جلياً أن الديانة المنزلية هي التي علمت الإنسان أن يتملك الأرض وهي التي ضمنت له حقه عليها .

ولا يصعب علينا أن نفهم أن حق الملكية وقد فهموه هكذا على هذا الوضع وأقاموه عليه ، كان أكمل في أثره وأكثر إطلاقاً مما يمكن أن يكون عليه في مجتمعاتنا الحديثة التي تقوم فيها على مبادئ أخرى . كانت الملكية ملازمة للديانة المنزلية إلى حد أنه لم يكن في استطاعة الأسرة أن تتخلى عن مسكنها ولا أن تتخلى عن دينها . فكان المنزل أو الحقل ثابتاً معها ولم يكن في استطاعتها أن تتعدى أو تتنازل عنهما . لم يدع أفلاطون في رسمه عن القوانين أن يقدم جديداً عندما حرم على المالك أن يبيع حقله ولكن يبدو أنه كان يذكر قانوناً قديماً . كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الملك لم يكن قابلاً للانتقال في الأزمنة القديمة . ومن المعروف معرفة واضحة أنه كان محرماً في إسبرطة بصفة قطعية أن يبيع الإنسان أرضه (٣) وكان نفس التحريم مكتوباً في قوانين لوكر Locres ولوكاديا (Leucade) (٤) . وكان

(١) Script. rei agrar. edit. Goez, p. 258; ed. Lachmann, p. 351.
(٢) أفلاطون ، القوانين ، ٨ ص ٨٤٢ .
(٣) أرسطو : السياسة ، ٢ ، ٦ ، ١٠ صفحة ديدو ص ... هيراكليدس البنطي : قطع من التواريخ الإغريقية صفحة ديدو ص ... بلوتارخوس : الأنظمة اللاكونية ٢٢ .
(٤) أرسطو ، السياسة ٢ ، ٤ ، ٤ .

فيلون الكورنثي من مشرعي القرن السابع بأمر بأن يبقى عدد الأسرات والأملاك لا يلحقه تغيير (١). وهذا أمر لا يمكن مراعاته إلا إذا كان محرماً على كل أسرة أن تبيع أرضها أو حتى أن تقسمها. أما قانون صولون وهو متأخر عن قانون فيلون الكورنثي بسبعة أجيال أو ثمانية فلم يعد يحرم على الإنسان أن يبيع ملكه لكنه كان يفرض على البائع عقاباً صارماً ألا وهو فقدان حقوق المواطنين (٢). وأخيراً يخبرنا أرسطو بصفة عامة أن التشريعات القديمة في كثير من المدن كانت تحرم بيع الأرض (٣).

ومثل هذه القوانين يجب ألا تدهشنا. فإذا أسستم الملكية على حق العمل وعندئذ يستطيع الإنسان أن يتنازل عنه. ثم أسستموها على الديانة فإنه لن يستطيع ذلك: إن رابطة أقوى من إرادة الإنسان تجمع بينه وبين الأرض. فضلا عن أن هذا الحقل الذي يحتوي على القبر الذي يعيش فيه الأسلاف المؤلهون والذي يجب على الأسرة أن تقوم فيه بعبادة أبدية. هذا الحقل ليس ملكاً للفرد وحده بل للأسرة [illegible] ليس الفرد الذي يعيش الآن هو الذي ملك حقه في هذه الأرض

(١) أرسطو، السياسة، [illegible]. يمكن هذا القانون من حسب المشرع القديم يرى في التساوي في الثروة [illegible] أن الأملاك لم تكن متساوية بين كل [illegible] في [illegible] كان عدد الأملاك ثابتاً [illegible]

(٢) كان يعاقب الرجل الذي تصرف في ملكه الموروث ὁ τὰ πατρῷα κατεδηδοκώς بعقوبة التجريد من الحقوق ἀτιμία. أسخينس (Eschine) ضد تيمارخوس، ٣٠؛ ديوجينيس لايرتيوس (Laerce)، صولون، ١، ٥٥. وليس من المؤكد أن هذا القانون لم يكن مرعياً في عصر أسخينوس لكنه كان قائماً من حيث الشكل كأثر من القواعد القديمة. وكانت هناك دعوى δίκη κατεδηδοκέναι τὰ πατρῷα
(Bekker, *Anecdota* p. 199 et 310)

(٣) Aristote, *Polit.* VI, 2, 5: Ἦν τό γ' ἀρχαῖον ἐν πολλαῖς πόλεσι νενομοθετημένον μὴ πωλεῖν ἐξεῖναι τοὺς ἀρχαίους (alias πρώτους) κλήρους

ب لأنه الدين هو الذي فعل ذلك ، لأن الأرض في نظر الأولين وديعة ، بل ملك لأولئك الذين ماتوا وللذين سيولدون . بل متصلة أوثق اتصال بهذه الأسرة ولم يكن في استطاعة أن تنفصل عنها ، فإن فصل الواحدة عن الأخرى معناه تغيير العادة وإغضاب الدين ، كما أن ذلك عند الهنود كان مؤسساً على العادة وكان بدوره غير قابل للتنازل (١) .

إننا لا نعرف القانون الروماني إلا ابتداء من ألواح الإثنى عشرة . ومن الواضح أن بيع الملك كان مسموحاً به في تلك العصور . ولكن هناك أسباباً تدعو إلى الاعتقاد بأن الأرض في الزمن الأول لروما ، وفي إيطاليا قبل وجود روما ، لم تكن قابلة للبيع ، وذلك كما كانت عليه الحال في بلاد الإغريق ولو أنه لم يبق أي شاهد على هذا القانون القديم ، إلا أننا نستطيع على الأقل أن نميز أوجه التيسير التي أدخلت عليه شيئاً فشيئاً في قانون ألواح الإثنى عشرة بعد ما تركت للقبر ميزة عدم التنازل عنه وحرمة الحقل (٢) ثم سمحوا فيما بعد بتقسيم الملك إذا كان هناك عدة أخوة ولكن على شرط القيام بحفلات دينية جديدة ، فإن الديانة وحدها هي التي تستطيع أن تقسم ما قررت الديانة فيما سبق أنه غير قابل للقسمة . وأخيراً سمحوا ببيع الملك ولكن كان لا بد لذلك من إجراءات ذات صبغة دينية ، لم يكن من المستطاع أن يقع البيع إلا في حضور الـ *libripens* (٢) ومع القيام بجميع شعائر الـ *mancipatio* (٣) الرمزية وبرى شيء مثله

(١) هيما كعدا بوجه أريانة من ... حسب هذه القاعدة ... ملك عند ... بعض البراهمية .

(٢) ... وهو من ... في ... صورية ويظهر بأنه ... الذي ... ثمن الشيء المبيع تمثيلا صورياً . معرب

(٣) هو وضع شخص يده على الشيء بحضور خمسة شهود ليحصل على حق ملك على ذلك الشيء وفي ... بضرب الميزان ... بقطعة من ... وهو من الإجراءات الرمزية في القانون الروماني ... معرب

ولذلك في بلاد الإغريق كان بيع منزل أو عقار يصحبه قربان للآلهة (١)
ويلوح أن كل نقل للملكية كان لا بد أن يكون مسموحاً به من الدين

إذا لم يكن في استطاعة المرء أن يتجرد عن أرضه أو لم يكن يستطيعه إلا بصعوبة فمن باب أولى لم يكن يستطاع أن يجرد منها بالرغم منه . فكان نزع الملكية بسبب المنفعة العامة مجهولاً عند الأقدمين . ولم تكن المصادرة معمولاً بها إلا كنتيجة لحكم بالنفي (٢)، أي عندما يجرد الإنسان من صفته كمواطن فلا يستطيع أن يزاول أي حق على أرض المدينة . وكذلك نزع الملكية من أجل الديون فإننا لا نصادفه قط في الشرائع القديمة للمدن (٣). حقاً إن قانون الألواح الإثنى عشرة لا يترفق بالمدين ومع ذلك لم يكن يسمح بمصادرة ملكه لمصلحة الدائن . فجسم الرجل هو الذي يضمن دينه وليست أرضه ، إذ إن الأرض لا تنفصل عن الأسرة . فكان أسهل أن يسترق الإنسان من أن ينزع منه حق الملك الذي كان يتبع أسرته أكثر مما كان يتبعه ، كان المدين يوضع في يد دائنه والأرض تتبعه في عبوديته بطريقة ما . والسيد الذي كان يستغل

(١) نقلة عن ثيوفراستوس رواها ستوبايوس Stobee Serm. 42

(٢) ألغيت هذه القاعدة في عصر أحدث كما سنرى فيما بعد .

(٣) كان قانون الإليين Eleens يحرم رهن الأرض (أرسطو ، السياسة ٦ ، ٢ ، ٥) . وكان الرهن مجهولاً في القانون القديم في روما . وما يقال عن الرهن في القانون الأثيني قبل صولون مستند على كلمة أسيء فهمها لبلوتارخوس فهو خطأ . فإن المصطلح ὅρος الذي يدل فيما بعد على الحد ، حتى كان يدل في عصر صولون على التخم المقدس الذي كان شارة على حق الملك . أنظر أدناه الكتاب الرابع الفصل السادس . ولم يظهر الرهن في التشريع الأثيني إلا فيما بعد ، وفي صورة البيع الوفائي بشرط الشراء من جديد فقط

قوى الرجل الجسمانية لمصلحته كان يتمتع كذلك بنوع لأرض لكنه لا يصبح مالكاً لها . إلى هذا الحد كان حق تملك فوق كل شيء مصاناً لا يمس بسوء (١)

(١) [illegible] Si volet suo vinito [illegible] لا يزال المدين محتفظاً لنفسه ببعض الشيء بعد أن كان يصبح عبداً . [illegible] ، إذا كان له [illegible] و[illegible] المعروفة في القانون الروماني باسم mancipation avec fiducie والمعروفة باسم pignus [illegible] من الدعوى [illegible] actio servienne [illegible] على أن [illegible] من [illegible] ، [illegible] الإلزام [illegible] على [illegible] وقد [illegible] ذلك بالأمر [illegible] . [illegible] كان [illegible] . [illegible] الـ preteur على حق بيع مال المدين [illegible] bona [illegible] dominium [illegible] المدين الشيء بملكه عن طريق [illegible] .

[illegible] mancipation avec fiducie هو أن [illegible] على شيء [illegible] الـ mancipatio [illegible] المشترى برد الشيء [illegible] pignus هو أن [illegible] الشيء دون الملكية [illegible] دعوى من الدعاوى [illegible] لأطيان العقارية من حصول على إيجار أطيانه [illegible] الرهن على منقولات [illegible] إذا [illegible] هذه المنقولات قد [illegible] له من [illegible] على سبيل الرهن . المعرب

الفصل السابع

حق الإرث

١ – طبيعة حق الإرث عند الأقدمين والمبدأ الذى قام عليه

حيث إن حق الملك قد أنشىء لتقوم عبادة متوارثة فلم يكن من الجائز أن يندثر هذا الحق بعد الحياة القصيرة التى يحياها الفرد . فإن الإنسان يموت وتبقى العبادة . إذ يجب ألا ينطفىء الموقد أو يهجر القبر . وما دامت الديانة المنزلية قائمة فإنه يجب أن يستمر معها حق الملك

هناك شيئان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فى عقائد الأقدمين كما هى فى قوانينهم ألا وهما عبادة الأسرة وملك الأسرة . لذلك كانت فى القانون الإغريقى ، كما فى القانون الرومانى ، قاعدة لا استثناء فيها وهى أنه لا يمكن الحصول على الملك بدون العبادة ولا القيام بالعبادة بدون الملك . يقول شيشرون : « تفرض الديانة أن تكون ممتلكات كل أسرة غير قابلة للانفصال عن عبادتها وأن تكون العبادة بالقرابين من نصيب من يعود إليه الميراث دائماً » (١) أما فى أثينا فها هى ذى العبارات التى يستعملها صاحب الدعوى مطالباً بميراث : « تدبروا جيداً أيها القضاة وقولوا أيهما يجب أن يرث أملاك فيلوكتيمون Philoctémon وأن يقدم

(١) شيشرون : القوانين ، ٢ : ١٩ – ٢٠ . وقد بلغ من أهمية الأشياء المقدسة sacra أن كتب الفقيه غايوس هذه الفقرة الغريبة :

Quare autem tam improba possessio et usucapio concessa sit, illa ratio est quod voluerunt veteres maturius hereditates adiri, ut essent qui sacra facerent, quorum illis temporibus summa observatio fuit (Gaius, II, 55). Festus, v° *Everriator* (éd. Müller, p. 77) : *Everriator vocatur qui, accepta hereditate, justa facere defuncto debet. Si non fecerit, suo capite luat.*

القرابين على قبره، أهو حصى أم أنا؟ (١). فهل يمكن القول بطريقة أوضح من هذه بأن العناية بالعبادة لا يمكن أن تنفصل عن الميراث. وكذلك الحال في الهند: «إن كان الشخص الذي يرث فهو مكلف بتقديم القرابين للقبر.» (٢)

من هذا المبدأ جاءت كل قواعد حق الإرث عند القدماء. والقاعدة الأولى أنه ما دامت الديانة المنزلية وراثية، كما رأينا، من ذكر إلى ذكر فإن الملك يكون كذلك أيضاً. وكما أن الابن هو الذي يستمر في العبادة طبيعياً وإلزامياً فهو الذي يرث الأموال أيضاً. ومن هنا وجدت قاعدة الوراثة. وهي ليست نتيجة مجرد اتفاق تم بين الناس بل مشتقة من عقائدهم ومن دياناتهم، مما له أكبر سلطان على أرواحهم. فليست إرادة الأب الشخصية هي التي تجعل الابن يرث. لم يكن الولد في حاجة لأن يوصي له. كان الابن يرث بمقتضى حقه المطلق أو كما يقول الفقيه *ipso jure heres exsistit* بل إنه وارث لزاماً *heres necessarius* (٣) وليس له أن يقبل الميراث أو يرفضه. فقد كان الاستمرار في الملك كالاستمرار في العبادة التزاماً بقدر ما كان حقاً. وسواء أراد أم لم يرد فإن التركة مفروضة عليه مهما كانت حالتها. مفروضة عليه حتى بأعبائها وديونها. فإن الميراث بعد تصفية التركة (sous bénéfice d'inventaire) وحق التخلي عن التركة لم يكن مسموحاً بهما للابن في القانون الإغريقي ولم يدخلا في القانون الروماني إلا في زمن متأخر جداً.

تسمي اللغة القانونية في روما الابن *heres suus* كأنما يقال *heres sui ipsius*. والواقع أنه لا يرث إلا من نفسه نفسه فليس بين الأب وبينه هبة أو وصية أو انتقال ملكية بل مجرد استمرار *parentis continuatur dominium*.

---

(١) إيسايوس ٦، ٥١. يطلق أفلاطون على الوارث *διάδοχος θεῶν* (القوانين ٥ ص ٧٤٠).

(٢) قوانين مانو ٩: ١٨٦.

(٣) دايجست: الكتاب ٣٨ الباب ١٦: ١٤.

بل كان الابن في حياة الوالد شريكاً في ملك الحقل و[illegible]
vivo quoque patre dominus existimatur (1)

ولكي تكون فكرة صحيحة عن التوريث عند القدماء يجب ألا نتصور ثروة تنتقل من يد إلى أخرى. فالثروة ثابتة كالموقد أو القبر المرتبطة بهما. إن الإنسان هو الذي يزول. إن الإنسان هو الذي يمضي، كلما تعاقبت أجيال الأسرة، في ساعة معينة لكي يستمر في العبادة ويعنى بالملك.

٢ — يرث الابن ولا ترث البنت

[illegible] الأول وهو [illegible] القوانين [illegible] [illegible] وهي [illegible] معروفة [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مزوجة [illegible] ولا ترث في [illegible] [illegible] [illegible] الإخوة وأبناؤهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] القوانين جميعاً بسبب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بالعبادة [illegible] من العقائد ومن [illegible] في كتب [illegible] على [illegible]

القاعدة في العبادة أنها تنتقل من ذكر إلى ذكر، والقاعدة في الميراث أنه يتبع العبادة. والبنت ليست أهلاً للاستمرار في ديانة أبويها، لأنها متى تزوجت تنازلت عن عبادة الأب لتتخذ عبادة الزوج. فليس لها إذن أي حق في الميراث. وإذا حدث أن والداً ترك أملاكه لابنته فإن هذه الثروة تصبح منفصلة عن العبادة، وهو أمر غير معقول. بل إنها لا تستطيع حتى أن تقوم بالواجب الأول للوارث وهو الاستمرار في سلسلة الأكلات الجنازية، حيث إنها تقدم قرابينها إلى أسلاف زوجها. وقد حرمت عليها ديانتها أن ترث أباها.

ذلك هو المبدأ العتيق، وقد فرض نفسه على مشرعي الهنود وعلى مشرعي الإغريق والرومان سواء بسواء. كانت الشعوب الثلاثة نفس القوانين، لا لأن بعضها قد استعارها من البعض الآخر، بل لأنها استمدت [illegible] من نفس العقائد

(1) القواعد (Institutes) ٣، ١، ٣ [illegible]

يقول فلوبو [illegible] لتقتسم الإخوة بعد موت والدهم الميراث فيما بينهم، ويضيف الشارع أنه يوصي للإخوة أن يقتسموا تركة لأخواتهم [illegible] يكفي إقامة الدليل على أنه لم يكن لهن أي حق في التركة لأبويه

والأمر كذلك في أثينا، فكثيراً ما سنحت الفرصة لخطباء أثينا في مرافعاتهم لكي يدللوا على أن البنات لم يكن يرثن (١) وديموستينيس هو [illegible] [illegible] هذه القاعدة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] شقيقة كانت لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] معروفة [illegible] معرفة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حق [illegible] في الإرث. [illegible] غايوس وقواعد جوستينيانوس (Institutes) تذكر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانت لا [illegible] [illegible] سلطة الأب حين وفاته (٢)، وهي لا تكون تحت سلطته إذا كانت قد تزوجت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أنه كان في [illegible] [illegible] [illegible] أن [illegible] [illegible] في الميراث [illegible] من [illegible] [illegible] لم تكن [illegible] [illegible] بمجرد أن أخرجها الـ confarreatio من الأسرة لأبويه [illegible] بأسرة الزوج [illegible] [illegible] [illegible] لا يجرمها وهي [illegible] الزوجة من نصيبها في الميراث. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانت تستطيع من [illegible] [illegible] أن تكون وريثة حقاً [illegible] ويجب ألا نغفل أن تلك [illegible] كانت

(١) [illegible] عن أن البائنة لم تكن في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]. ويرى [illegible] أيضاً (In Baeotum, de dote, 22-24) أن البنات لا ترث. وأخيراً يرى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إخوة.

(٢) غايوس ٢: [illegible] وقواعد (Institutes) جوستينيانوس ٢ : ١٩ : ٢.

موضوعة تحت وصاية أخيها أو عصبتها وأنها كانت تبقى كذلك طول حياتها وأن الوصاية في القانون القديم إنما أقيمت لمصلحة الأملاك لا لمصلحة البنت وأن الغرض منها كان المحافظة على الأملاك في الأسرة (١) . وأخيراً أنه لم يكن في استطاعة البنت في أية سن أن تتزوج أو أن تغير شرائط حياتها بدون إذن الوصي عليها تسمح هذه الحقائق الموثوق بها بالاعتقاد بأنه كانت هناك، إن لم تكن في القوانين فعلى الأقل من الناحية العملية ووفقاً للعادات ، مجموعة من الصعوبات تحول دون أن تكون البنت مالكة لنصيبها من الميراث ملكاً تاماً كما كان ملك الابن لنصيبه . وليس لدينا دليل على أن البنت كانت محرومة من الميراث لكننا على ثقة من أنها لم تكن ترث والدها وهي متزوجة، ولم تكن تستطيع وهي غير متزوجة أن تتصرف فيما ورثته قط . فإن كانت ترث ، فإنها ما كانت تفعل ذلك إلا مؤقتاً وبشروط، ويكاد يكون إرثها هو مجرد حق الانتفاع بالمال . ولم يكن لها الحق في أن توصي أو تتنازل عنه بدون إذن من ذلك الأخ أو من أولئك العصبة الذين كان لهم أن يرثوا أملاكها بعد موتها والذين كانوا حفظة عليها في حياتها (٢)

وهناك ملحوظة أخرى جديرة بأن نعتبرها ، تذكرها فقرة لجوستنيان بعنوان القدم ، الذي لم يعد معمولاً به حينئذ، لكنه لم يكن قد نسي ، وهو المبدأ الذي يأمر بانتقال الإرث إلى الذكور دائماً (٣) . ولا ريب أن [illegible] ذكريات هذه القاعدة [illegible] المرأة في قانون فوكونيا [illegible] لم يكن لتستطيع أن ترث [illegible] إطلاقاً وكلما صعدنا من عصر جوستنيان نحو العصور القديمة كلما اقتربنا من قاعدة تحرم الإرث على النساء . وفي عصر شيشرون لا يستطيع الأب إذا رزق [illegible] وابنة أن يوصي لابنته إلا بثلث ماله . وإذا لم يكن له إلا بنت وحيدة فإنها لم تكن تستطيع أن ترث غير نصف ماله . ويجب أن نلاحظ أنه لكي تحصل هذه البنت على ثلث ماله أو نصفه كان لا بد أن يكون والدها قد أوصى لها بوصية

(١) وقد أخذ المسيو جيد Gide في التدليل على ذلك في كتابه : *Etude sur la condition de la femme, p. 114*

(٢) جايوس ١ : ١٩٢ .

(٣) النظم ٣ : ٢ : ٣ *Ita jura constitui ut plerumque hereditates ad masculos confluerent*

لصالحها فليس للبنت شيء عن طريق الشرع (١) وأخيراً قبل سيسرون بقرن ونصف عندما أراد كاتون أن يحيي العادة القديمة عمل على إصدار القانون فوكونيا (Voconia) الذي كان يحرم أولا ، إقامة امرأة وارثة حتى لو كانت وحيدة ، متزوجة أو غير متزوجة ، ثانياً ، أن يوصى للنساء بأكثر من نصف الميراث (٢) ولم يعمل القانون فوكونيا سوى أن جدد قوانين أقدم منه إذ لا يمكن الظن بأن معاصري آل سقيبيو كانوا يقبلون هذا القانون لو لم يعتمد على مبادىء عتيقة كانت لا تزال محترمة فكان القصد منه إقامة ما عبره الزمن . هذا وأغرب ما في هذا القانون فوكونيا أنه لا ينص على شيء ما بخصوص الميراث الطبيعي (Ab intestat) لكن سكوتنا كهذا لا يمكن أن يدل على أن البنت كانت في هذه الحال وارثة شرعية . إذ ليس معقولا أن يحرم القانون على البنت أن ترث أباها بوصية لو أنها كانت في الأصل وارثة شرعاً بدون وصية . بل الأولى أن يدل هذا السكوت على أنه لم يكن لدى الشارع شيء يقوله عن الإرث الطبيعي (Ab intestat) إذ أن القواعد القديمة فيما يختص بهذه النقطة قد حوفظ عليها خيراً مما حوفظ على سواها

لذلك . ولو أننا لا نستطيع أن نؤكد أن البنت كانت محرومة من الميراث حرماناً بيّناً إلا أنه من المؤكد على الأقل أن القانون الروماني العتيق وكذلك القانون الإغريقي كانا يعطيان للبنت مركزاً أقل بكثير من مركز الابن . وكان ذلك هو النتيجة الطبيعية التي لا مفر منها للمبادىء التي نقشت بديانة في جميع الأذهان

حقاً إن الناس قد وجدوا منذ مدة مبكرة حيلة يوفقون بها بين القاعدة الدينية التي كانت تحرم على البنت أن ترث وبين الشعور الطبيعي الذي يرى

(١) سيسرون : الجمهورية ٣ : ٧ .

(٢) سيسرون : ضد فريس (Verres) ٢ : ١ : ٤٢ *Ne quis heredem virginem faceret* Id., 43 *Si plus legarit quam ad heredes perveniat, non licet* انظر تيتوس ليفيوس ، الموجز ٤١ ؛ غايوس ٢ : ٢٢٦ و ٢٧٤ ، القديس أوغسطينوس : مدينة الله ٣ : ٢١

إلى تكبيه من [illegible] أبيا . وقد [illegible] على الأخص في القانون الإغريقي

كان التشريع [illegible] يشكل واضح إلى أن يتزوج [illegible] على الأقل [illegible] محرومة من الميراث [illegible] مثلا كان القانون [illegible] يتزوج [illegible] الأخ واحدة على شرط ألا يكون موجودين من [illegible] وكان الأخ [illegible] في الزوج من [illegible] [illegible]

[illegible] واحدة فقد كان في [illegible] [illegible] أن [illegible] ورثة [illegible] الوارث بعد(٢) [illegible] كان ملزماً بزواج [illegible]

[illegible] *De Fabula* [illegible]

[illegible]

[illegible] *De Pyrrhi hereditate* ٣٨

[illegible] الأثيكي القديم مسيطراً تماماً في القرن الرابع [illegible] واضحاً منه في مرافعة إيسايوس : ميراث قيرون . موضوع القضية هو الآتي : مات قيرون (Ciron) ولم يترك [illegible] [illegible] مرافعة [illegible] [illegible] أي حق . لكن مؤلف الـ ὑπόθεσις الموضوع في رأس [illegible] عطر له هذا المحامي الماهر جداً كان يدافع [illegible] كانت تتفق مع الإنصاف الطبيعي لكنها مناقضة [illegible]

محتمه (١) ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك [illegible] قد تصادف أن تكون هذه البنت متزوجة من قبل فإنه يتحتم عليها أن تترك زوجها وتتزوج وارث أبيها (٢). ومن الجائز أن يكون الوارث متزوجاً هو أيضاً من قبل فيجب عليه أن يطلق زوجته ليتزوج من قريبته (٣). [illegible] نرى هنا [illegible] تشكر شرع [illegible] العصبة [illegible] ينسجم مع الديانة (٤)

وقد أدت [illegible] ضرورة [illegible] متحدة مع رغبة في إنقاذ مصالح البنت الوحيدة [illegible] يحدد جهة أخرى وفي هذه النقطة يلتقي الشرع الهندي والشرع الأثيني لقد [illegible] عجيباً فقرأ في قوانين مانو [illegible] يستطيع أن يكتف [illegible] تعصيبه بأن يتصبح [illegible] [illegible] تكريماً له [illegible] على [illegible] روح [illegible] عصبة [illegible] هذه العصبة [illegible] هذه البنت [illegible] لا أخ لها مزينة بالجواهر والولد الذي يولد منها يكون ابني ويختص [illegible] (٥). وكذلك كانت العادة في أثينا إذ يستطيع

[illegible] إيساتيوس [illegible] ٧٥ – ٧٢ [illegible] إيساتيوس [illegible]

[illegible] ديموستنيس [illegible] على بنت وحيدة [illegible] [illegible] [illegible] لكلمة [illegible] من جوهرها هو [illegible] حدود الشرع الصحيحة [illegible] [illegible] [illegible] إليه في [illegible] ديموستنيس [illegible] إيساتيوس ٣ [illegible] ٤٢ [illegible] [illegible] عثر عليه في [illegible] هيرودوت [illegible] وأرسطو [illegible] نوري (Thurel) [illegible]

(٢) إيساتيوس [illegible]

(٣) ديموستنيس [illegible] أوسيوس [illegible]

(٤) [illegible] هذه الالتزامات [illegible] في عصر إيساتيوس وديموستنيس كان أقرب الأقربين [illegible] أن [illegible] بالوارثة الوحيدة على شرط أن [illegible] بعد [illegible] ديموستنيس [illegible]

(٥) إيساتيوس [illegible]

[illegible] قوانين [illegible] Vasishta [illegible] فاسيشتا [illegible] ١٣٦ [illegible] ١٧ [illegible] ١٣

الأب أن يديم سلالته عن طريق ابنته بتعديها زوج على هذا الشرط الخاص والولد الذي يولد من مثل هذا الزواج يعتبر ابناً لأب المرأة ويتبع عبادته ويشهد حفلاته الدينية ويحمي قبره بعد ذلك (١). كان هذا الولد في الشرع الهندي يرث جده كما لو كان ابنه. وكذلك كان الأمر تماماً في أثينا. فعندما يزوج والد ابنته الوحيدة بالطريقة التي رويناها فإن وارثه لا يكون ابنته ولا صهره بل ابن البنت (٢). وبمجرد أن يبلغ هذا الأخير سن الرشد يتملك ميراث جده لأمه بالرغم من أن أباه وأمه لا يزالان على قيد الحياة (٣).

هذا التساهل الغريب من جانب الديانة والقانون يؤيد القاعدة التي بيناها من قبل. فإن البنت لم تكن أهلاً لأن ترث ولكن تيسيراً طبيعياً جداً لصرامة هذا المبدأ أدى إلى اعتبار البنت الوحيدة كوسيط يمكن للأسرة من الاستمرار عن طريقه. إنها لم تكن ترث لكن العبادة والميراث كانا ينتقلان عن طريقها.

٣ — توارث الحواشي

إذا مات رجل من غير عقب وأريد معرفة الوارث لأمواله فإنه كان يكفي البحث عمن يجب أن يستمر في عبادته.

كانت الديانة المنزلية تنتقل بطريق الدم من الذكور إلى الذكور. فكان التسلسل في عمود النسب بالذكر هو الذي يقرر دون سواه العصبة الدينية بين رجلين. تلك العصبة التي تسمح لأحدهما بالاستمرار في عبادة الآخر ومن كانوا يسمونه القرابة لم تكن، كما رأينا أعلاه، سوى التعبير عن هذه الصلة. كانوا أقرباء لأنه كانت لهم نفس العبادة ونفس الموقد في الأصل ونفس الأسلاف. ولكنهم لم يكونوا أقرباء لأنهم خرجوا من بطن أم واحدة

(١) إيسايوس، ميراث كيرون، [illegible]

(٢) كانوا يسمونه حفيد البنت وكانوا يطلقون عليه الاسم الخاص Θυγατριδοῦς

(٣) إيسايوس، ميراث كيرون، [illegible]؛ ميراث أريستارخوس، [illegible]؛ ديموسثينيس: قضية [illegible]

فإن الديانة لم تكن تسمح بالقرابة عن طريق النساء ولم تكن تعترف بأية صلة بين أبناء أختين أو أبناء أخت وأخ ولم يكونوا ينتمون لنفس الديانة المنزلية ولا لنفس الأسرة .

كانت هذه المبادئ تنظم ترتيب التوارث . فإذا فقد رجل ابنه وابنته ولم يترك وراءه غير أحفاد فإن الذي يرث هو ابن ابنه وليس ابن ابنته . وعند انعدام الذرية كان يرثه أخوه لا أخته . وعند انعدام الأخوة وأبناء الأخوة كان لابد من الصعود في سلسلة أجداد المتوفى في عمود النسب المذكر دائماً ، إلى أن يعثروا على فرع يخرج من الأسرة عن طريق الذكور ثم ينحدرون في ذلك الفرع من ذكر إلى ذكر إلى أن يجدوا رجلاً حياً . ذلك هو الوارث .

كانت هذه القواعد مرعية عند الهنود والإغريق والرومان على السواء . ففي الهند كان الميراث يتبع أقرب سبنده وعند انعدام السبندا يتبع السماندوكا (١) . وقد رأينا أن القرابة التي تعبر عنها هاتان الكلمتان هي القرابة الدينية أو القرابة عن طريق الذكور وكانت تقابل العصبية (الأغناسيو) الرومانية .

وها هو ذا الآن قانون أثينا : إذا مات رجل من غير عقب فإن الوارث هو أخ المتوفى ما دام له أخ من أبيه فإذا لم يوجد فابن الأخ . إذ أن الإرث ينتقل دائماً للذكور ولذرية الذكور (٢) وكانوا في زمان ديموستينيس لا يزالون يذكرون هذا القانون القديم ولو أنه كان قد لحقه التعديل وابتدأوا في ذلك العصر يقبلون القرابة عن طريق النساء .

وكانت الألواح الإثنا عشرة تقرر كذلك أنه إذا مات رجل دون وارث تلقائي heritier sien فإن الميراث يتبع أقرب عاصب له . وقد رأينا أنه لا يمكن لأي انسان أن يكون عاصباً عن طريق النساء . فكان القانون الروماني القديم يحدد أيضاً أن ابن الأخ يرث، العم *patruus* أي أخ الأب ولا يرث الخال *avunculus*

(١) قوانين مانو ٩ : ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ديموستينيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ ، ضد ليوخاريس . إيسايوس ٧ ، ٢٠ .

أي أخ لأم (١) [illegible] عدد من [illegible] لأسرة سقبيو لاحظنا أن سقبيو [illegible] مات دون ذرية فلا يمكن أن ينتقل ميراثه [illegible] ولا [illegible] [illegible] التي [illegible] خديجة من عمته [illegible] سقبيو أسيانيقوس [illegible] في شرح [illegible] قرب [illegible]

ثم [illegible] شرع في عهد جوستنيانوس [illegible] لعدمة فكانت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لاثني عشرة [illegible] كان يؤثر للورثة [illegible] وبحرم من الميراث أولئك الذين لا يرتبطون [illegible] الأعلى [illegible] (٢) شرح [illegible] إذ أنه لم يكن [illegible] شرح منطق [illegible] الحدود إذ أن [illegible] هي أن لا [illegible] مرتبط [illegible] وقد كان نفضي على [illegible] أو [illegible] الذين لم تكن [illegible] بالأسر [illegible] في [illegible]

٤ — أثر التحرير والتبني

[illegible] التحرير [illegible] كان [illegible] تبديلاً في [illegible] فالولد [illegible] من [illegible] أسرة أخرى [illegible] أبداً كان [illegible] من [illegible] فالابن [illegible] التحرير من [illegible] كان [illegible] (٣) وعلى العكس [illegible] الأخرى [illegible] كان [illegible] في [illegible] ويرث [illegible] شرع [illegible] الذي [illegible] أكبر [illegible]

وحيث أنه كان [illegible] أن [illegible] فإنه لم يكن [illegible] أحد [illegible] ولذا كان لأن [illegible]

(١) [illegible] Inst Iutes [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible] أسيلوس ٣٣ .

الذي كان يرث من الأسرة نفسها . لا يرث من أسرته الطبيعية . وقد كان الشرع الأثيني صريحاً جداً في هذا الموضوع فكثيراً ما نرى من خطب الخطباء الأثينيين رجالاً تبنتهم أسرة ويريدون أن يرثوا من الأسرة التي ولدوا فيها ولكن القانون كان يحول دون ذلك لأن المتبنى لا يستطيع أن يرث من أسرته الأصلية إلا إذا عاد إليها ولا يستطيع أن يعود إليها إلا إذا تنازل عن الأسرة المتبنية ولا يستطيع الخروج من هذه الأسرة إلا بشرطين أحدهما أن يترك ميراث هذه الأسرة ، والآخر ألا تنقطع بخروجه منها العبادة المنزلية التي تبقى مستمرة فيها ، ولهذا يجب أن يترك في هذه الأسرة ابناً يحل محله (١) . وهذا الابن يقوم بالعبادة ويضع يده على الأملاك . وحينئذ يستطيع المولود أن يعود إلى الأسرة التي ولد فيها وأن يرث منها . ولكن هذا الأب وهذا الابن لا يستطيعان أن يتوارثا لأنهما ليسا من نفس الأسرة ، فهما ليسا قريبين .

ونرى من هذا فكرة الشارع القديم عندما قرر هذه القاعدة البالغة في الدقة . لم يكن يمكن الجمع بين ميراثين لشخص واحد لأنه ليس في مقدوره [illegible] أن يخدم ديانتين منزليتين .

٥ - لم تكن الوصية معروفة في الأصل

كان حق الوصية أي تصرف المرء في أملاكه بعد موته لكي تنتقل إلى غير ورثته الطبيعيين يتعارض مع العقائد الدينية التي كانت أساس حق الملكية وحق الإرث [illegible] في [illegible] للوصية [illegible] كانت الملكية [illegible] ولم يكن ثمة [illegible] للفرد بل للأسرة لأن الإنسان لم يحصل عليها بحق العمل بل عن طريق العبادة المنزلية ، وتنتقل مرتبطة بالأسرة [illegible] من الميت إلى الحي لا بحسب إرادة الميت واختياره بل بمقتضى قواعد [illegible] التي قررتها الديانة .

(١) هاربو قراتيون ؛ تحت كلمة "Oτι οἱ ποιητοί" — ديموستين ضد ليوخاريس ، ٦٦ — ٦٨ .

لم يكن التشريع الهندى القديم يعرف الوصية وكان التشريع الأثيني لغاية صولون يحرمها (١) ولم يسمح بها صولون ذاته إلا لمن لم يخلف عقباً (٢) وقد كانت الوصية محرمة أو مجهولة زمناً طويلاً في اسبرطه ولم يصرح بها إلا بعد حرب بيلوبونيز (٣) وكانوا يذكرون عصراً كان فيه الأمر كذلك في كورنثه وثيبه (٤) ومن المؤكد أن حق المرء في الوصية بأملاكه طوع هواه لم يكن معترفاً به في بدء الأمر كحق طبيعي، بل كان المبدأ الثابت في العصور القديمة أن كل ملك يجب أن يبقى في الأسرة التي ربطته الديانة بها

يصور أفلاطون فكرة المشرعين القدماء تصويراً واضحاً في رسالته عن القوانين. وهي في جزئها الأكبر تعليق على القوانين الأثينية. فيفرض أن رجلا يطالب وهو على سرير الموت بحقه في التوصية ويصيح: أيتها الآلهة: أليس من القسوة كل القسوة ألا أستطيع التصرف في ملكي كما أريد، ولمصلحة من أشاء، تاركاً نصيباً أوفى لهذا ونصيباً أقل لذلك طبقاً لما أبدوه نحوى من مودة؟ لكن المشرع يجيب هذا الرجل: أنت الذي لا تستطيع أن تعد نفسك بأكثر من يوم، أنت الذي لا تفعل أكثر من أن تعبر الحياة الدنيا، هل لك أنت أن تقرر مثل هذه المسائل؟ لست أنت سيداً على أملاكك ولا على نفسك، إنك أنت وأموالك ملك لأسرتك أي لأسلافك وذريتك (٥)

التشريع القديم في روما غامض جداً بالنسبة لنا. وقد كان كذلك بالنسبة لشيشرون. إن ما نعرفه عنه لا يرقى إلى ما وراء الألواح الاثنى عشرة ومن المؤكد أنه لم يكن التشريع القديم في روما. هذا ولم يبق لنا منه إلا بعض بقايا يصرح هذا القانون بالوصية، إلا أن القطعة الخاصة بهذا الموضوع قصيرة جداً ومن الواضح أنها ناقصة جداً حيث لا نستطيع أن نزعم أننا

---

(١) بلوتارخوس: صولون ٢١.

(٢) إيسيوس: ميراث بيرهوس ٦٨. ديموستينيس: قضية اسطفانوس ٢: ١٤

(٣) بلوتارخوس: أجيس ٥.

(٤) أرسطو: السياسة ٢: ٣: ٤.

(٥) أفلاطون: القوانين ١١.

نعرف الترتيبات الحقيقية التى رتب المشرع فى هذا الموضوع ونحن لاندرى ما هى التحفظات ولا ما هى الشروط التى استطاع أن يضعها عندما منح الحق فى الوصية (١) . وليس لدينا قبل الألواح الإثنى عشرة أى نص قانونى يحرم الوصية أو يسمح بها لكن اللغة تحتفظ بذكرى زمن لم تكن الوصية معروفة فيه إذ أنها تسمى الابن وارثاً من نفسه ذاته وضرورياً (٢) . وهذه الصيغة التى لايزال يستعملها غايوس وجوستنيانوس . مع أنها لم تكن على وفاق مع تشريع زمنهم ، لاريب فى أنها آتية من عصر بعيد لم يكن فى الإمكان أن يحرم الابن فيه من ميراث أو أن يرفضه . لم تكن للوالد إذن حرية التصرف فى ثروته ، ولم تكن الوصية مجهولة جهلاً مطلقاً إن كانت صعبة جداً . فكان لا بد لذلك من إجراءات عظيمة . أولاً ، لم تكن سرية ممنوحة للموصى فى حياته لأن الرجل الذى يحرم أسرته من الميراث ويتعدى القانون الذى أقامته الديانة يجب أن يفعل ذلك بصفة علنية وفى وضح النهار . وأن يتحمل فى حياته كل بغضاء من تلاوة عملا كهذا . ولم يكن ذلك كل شىء . فقد كان لا بد أن تلقى إرادة الموصى موافقة السلطة العليا أى الشعب مجتمعاً فى ندوات (curies) تحت رئاسة الحبر (٣) . وعلينا ألا نعتقد أن ذلك لم يكن سوى إجراء أجوف وعلى الأخص فى العصور الأولى . هذه الحشود (comices) المجتمعة فى ندوات

(١) Uti legassit, ita jus esto . لو لم يكن لدينا من قانون صولون إلا الألفاظ Dimittenti [illegible] de rebus لما شككنا لحظة أن الوصية كان مسموحاً بها فى جميع الأحوال لكنه لم يكن كذلك [illegible]

(٢) المصطلح اللاتينى [illegible] heres suus ويعنى من [illegible] يفهمه [illegible] الأصل خلاف المصطلح heres ejus الذى يدل على من يرثه سواه [illegible]

(٣) [illegible] عاليوس [illegible] أولوس جيليوس [illegible]

(٤) لا ريب أن الوصية calatis comitiis [illegible] وهى [illegible] معروفة فى عصر شيشرون (الخطيب [illegible] ٥٣) .

كانت أخص الاجتماعات في المدينة الرومانية [illegible] وأنه رأى صعباً أن نقول إنهم كانوا يدعون الشعب [illegible] لكي يحضر قراءة وصية كمجرد شاهد. ويمكن الاعتقاد بأن الشعب كان يصوت بل إن ذلك كان ضرورياً كل الضرورة [illegible] قانون عام يرتب نظام التوريث بطريقة دقيقة [illegible] كان لابد من قانون آخر: ذلك [illegible] هو وصية [illegible] لم يكن حق الوصية معترفاً به تماماً للإنسان. ولم يكن مستطيعاً أن يعترف به [illegible] في مجتمع تحت سيطرة ديانة قديمة [illegible] هذه العصور القديمة [illegible] [illegible] لم يكن [illegible] [illegible]

٩ — عدم قسمة الميراث في الزمن القديم

يجب أن نعود إلى [illegible] [illegible] التي نذكرها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المكتوب [illegible] [illegible] كانت تتحكم [illegible] [illegible] العصور [illegible]

[illegible] في تلك العصور [illegible] [illegible] وكان [illegible] [illegible] [illegible] ولا يمكن [illegible] وذلك هو عدم قسمة [illegible]

كان [illegible] الأكبر [illegible] [illegible] الأكبر [illegible] هو الأخ [illegible] [illegible] الأكبر [illegible] [illegible] [illegible] الأكلات [illegible] وهو [illegible] [illegible] الأدعية [illegible] الابن [illegible] الأكبر هو الوارث [illegible] [illegible] وهو رئيس [illegible] [illegible] من هذه [illegible]

قواعد التشريع: الابن الأكبر فقط يرث الأموال. كذلك يقول نص قديم أوجده آخر محرر لقوانين مانو في مدونته: «يستحوذ الابن الأكبر على الميراث كاملة، ويعيش الإخوة الآخرون تحت سلطته كما كانوا يعيشون تحت سلطة والدهم. يسدد الابن الأكبر الدين للأسلاف؛ وإذن يجب أن يكون له كل شيء» (١)

جاء القانون الإغريقي من نفس العقائد الدينية التي جاء منها التشريع الهندي، فليس من المستغرب إذن أن نجد فيه أيضاً في بدء حق البكورة. ففي إسبرطه كانت الأنصبة تلك المقررة في بدء عهد قائمة منقسمة ولم يكن للابن الأصغر أي نصيب. وكذلك كان في كثير من التشريعات القديمة التي درسها أرسطو؛ إذ أنه يعلمنا أن تشريع ثيبة كان يقرر عن عمد وجعل أن يبقى عدد الأنصبة من الأرض ثابتاً. وكان ذلك يقضي حتماً بعدم الانقسام بين الإخوة. كما أن قانوناً قديماً في كورنثة كان يريد أن يبقى عدد الأسرات بلا تغيير مما لا يمكن حصوله إلا إذا حال حق البكورة دون تفريق الأسرات في كل جيل (٢)

أما عند الأثينيين فيجب ألا نتوقع أن نجد هذا النظام القديم نافذاً في عصر ديموستينيس. لكن لما كان لا يزال يوجد في هذا العصر هو ما كان يسمى امتياز الابن الأكبر (٣) وفحواه أنه يتمتع وحده بالمحافظة على البيت الأبوي خارج القسمة، وهي ميزة مادية من ناحية مادية، وأعظم منها من الناحية الدينية؛ إذ أن البيت الأبوي كان يحوي موقد الأسرة القديم. فبينما كان الابن الأصغر في عهد ديموستينيس يجب أن يوقد موقداً جديداً، كان الأكبر وهو الوارث الحقيقي يحتفظ بالموقد الأبوي وقبر الأسلاف. وكان هو وحده أيضاً يحتفظ باسم الأسرة (٤). تلك بقايا عصر كان هو فيه صاحب الميراث الوحيد

(١) قوانين مانو ٩، ١٠٥ — ١٠٧، ١٢٦. تعتبر هذه القاعدة القديمة كما يعتقد بعد نهاية عتيقة ويوجد في مجموعة قوانين مانو دعم لقصة نعرفه بين البوذيين بعدئذ.

(٢) أرسطو، السياسة ٢، ٩، ٧؛ ٢، ٣، ٤؛ ٢، ٤، ٤.

(٣) Πρεσβεία ديموستينيس، أبادوج ضد بويوتوس ٣٤ — فيكو، Πρεσβεῖον في عصر ديموستينيس لم تعد الكلمة تعني شيئاً سوى الحق في تقديم حصة من بعد القسمة بين الإخوة.

(٤) ديموستينيس، Demosthene In Boeotum de nomine

ويمكن أن نلاحظ أن الإجحاف الذي يلحقه حق البكورة فضلاً عن أنه لم يثر الدهشة في الأذهان التي كان للديانة عليها سلطان كبير، فإنه كان يلطفه الكثير من عادات القدماء. فأحياناً كانت تتبنى الابن الأصغر أسرة أخرى يرث منها وأحياناً يتزوج ابنة وحيدة، وأخيراً كان يتلقى بعض الأحيان نصيب الأرض من كان لأسرة انقرضت. وإذا عدمت كل هذه الوسائل أرسل الأبناء الصغار في إحدى المستعمرات.

أما فيما يختص بروما فإننا لا نجد فيها أي قانون يتعلق بحق البكورة. ولكن يجب ألا نستخلص من هذا أنه كان مجهولاً في إيطاليا العتيقة. في الخاطر أنه اختفى وأمحت ذكراه ولم يسمح بالاعتقاد بأنه كان نافذاً فيما وراء الزمن المعروف لنا. إنه لا يمكن بدونه تفسير وجود العصبية gens الرومانية والسابينية. كيف كانت أسرة تستطيع الوصول إلى أن تشمل عدة آلاف من الأفراد الأحرار، كالأسرة كلوديا، أو عدة مئات من المحاربين كلهم من الأشراف كالأسرة فابيا، إذا لم يحفظ حق البكورة على وحدتها خلال سلسلة طويلة من الأجيال، ولم يزد عددها من قرن إلى قرن بوقوفه حائلاً دون تفرقها. إن حق البكورة القديم هذا يدل على وجوده بعواقبه، أو كما نقول بأعماله.

فقط يجب أن نفهم أن حق البكورة لم يكن معناه سلب صغار الأسرة لمصلحة الابن الأكبر. وتفسر مجموعة قوانين مانو معناه عندما تقول: «ليحب الأخ الأكبر إخوته الصغار عطف الأب لأبنائه، وعلى هؤلاء بدورهم أن يحترموه كوالد». وفي فكر العصور القديمة كان حق البكورة يتضمن دائماً الحياة المشتركة، فهو لم يكن في جوهره إلا تمتع جميع الإخوة بالأملاك تمتعاً مشتركاً بزعامة الأخ الأكبر، فكان يمثل عدم قسمة الميراث كما كان يمثل عدم قسمة الأسرة. ومن هذه الناحية نستطيع أن نعتقد أنه كان نافذاً في أقدم شرع لروما أو على الأقل في عاداتها، وأنه كان مصدر العصبية (gens) الرومانية (١).

(١) تحتفظ اللغة اللاتينية القديمة ببقية من عدم القسمة هذا تستحق الإشارة إليها مهما كانت ضعيفة. فكانوا يطلقون كلمة sors على نصيب من الأرض، ملك الأسرة. فيقول فستوس: sors patrimonium significat. فكانت كلمة consortes تطلق إذن على من كانوا ذوي شركة في نصيب من الأرض ويعيشون على نفس الملك. وكانت اللغة القديمة تطلق هذه الكلمة على الإخوة بل وعلى الأقارب من درجة بعيدة، وهي شهادة من زمن كان الأقارب والأسرة فيه غير قابلين للقسمة. (فستوس تحت لفظ sors. شيشرون: ضد فرس، ٢ : ٣ : ٢٣. تيتوس ليفيوس ٤١ : ٢٧. فلليوس Velleius ١ : ١٠. لوكريس (Lucrèce) ٣ : ٧٧٢ ؛ ٦ : ١٢٨

الفصل الثامن

السلطة فى الأسرة

١ — مبدأ السلطة الأبوية عند القدماء وطبيعتها

لم تتلق الأسرة قوانينها عن المدينة. فلو كانت المدينة هى التى أقامت القانون الخاص لكان من المحتمل أن تضعه بطريقة تختلف اختلافاً كلياً عما رأيناه، ولنظمت حق الملكية وحق الإرث طبقاً لمبادىء أخرى. إذ أنه لم يكن من مصلحتها أن تكون الأرض غير قابلة للتنازل، والميراث غير قابل للقسمة. فالقانون الذى يسمح للوالد أن يبيع ابنه، بل أن يقتله، وهو قانون نجده فى بلاد الإغريق كما نجده فى روما، لم يكن من خلقه المدينة بل كان الأولى أن تقول للوالد: «إن حياة زوجتك وطفلك وحريتهما ليستا ملكاً لك، وأن أحميهما حتى منك أنت، فلست أنت الذى تحاكمهما والذى تقتلهما إذا ما زلا، وسأكون أنا قاضيهما الوحيد». فإذا كانت المدينة لا تتكلم على هذا النحو فى الظاهر فإنها لم تكن تستطيع ذلك لأن القانون الخاص كان موجوداً قبلها وعندما أخذت تدون قوانينها وجدت هذا الشرع قائماً من قبل حياً، ممتدة جذوره فى العادات، يشد أزره اتفاق عام، فقبلته إذ لم تكن تستطيع غير هذا. ولم تجرؤ على تعديله إلا مع الزمن الطويل. لم يكن الشرع القديم من عمل مشرع بل بالعكس كان مفروضاً على الشارع. لقد ولد فى الأسرة. خرج من تلقاء نفسه وتكون بأكمله من المبادىء العتيقة التى كونتها. لقد انبثق من العقائد الدينية، التى كانت مقبولة من الجميع فى العصر البدائى لهذه الشعوب، والتى كان لها السلطان على عقول الناس وإرادتهم.

تتكون الأسرة من أب وأم وأطفال وأرقاء. ولا بد أن يكون لهذه المجموعة نظامها مهما كانت صغيرة. فمن إذن السلطة الأولى؟ أللوالد؟ كلا. ففى كل منزل شىء هو فوق الوالد ذاته، ألا وهو الديانة المنزلية، ألا وهو ذلك الإله

الذى [illegible] Focus domesticus [illegible]
Lar familiar Pater (١) [illegible] أخرى
الاعتقاد الكائن فى النفس [illegible] . [illegible] هو [illegible] عن
سواها ، وهى التى [illegible] فى الأسرة

الأب هو الأول بجوار الموقد . فهو الذى يوقده و[illegible] وهو [illegible] الأعظم
وهو الذى يشغل أعلا الوظائف فى جميع الأعمال [illegible] فهو الذى [illegible]
الأضحية [illegible] صيغة [illegible]
تستمر الأسرة والعبادة وهو وحده الذى يمثل سلسلة [illegible] كلها [illegible]
[illegible] لعبادة [illegible] . ويكاد يستطيع أن يقول كما يقول [illegible]
[illegible] الموت [illegible] كثناً [illegible] .

لم تضع الديانة المرأة فى مرتبة تماثل هذا السمو . حقاً [illegible] فى الأعمال
[illegible] من الموقد [illegible]
إياها [illegible] من زوجها [illegible] وهى لا [illegible] الأسلاف [illegible]
لم [illegible] لا تتبع
عادة [illegible] . فهى فى [illegible] من زوجها

[illegible] على [illegible]
فهى لا تستطيع أبداً أن تكون [illegible] موقد ، ولا تكون رئيسة [illegible]
تعطى فى [illegible] mater [illegible] زوجها (٢)
وحيث أنه [illegible]
[illegible] فى [illegible] ولا [illegible] على [illegible]
[illegible] على الإطلاق [illegible] شخص حر [illegible] شخص حر .
وفى جميع أعمال [illegible] لا بد فيها من رئيس . وفى جميع [illegible]
المدنية لا بد فيها من وصى

(١) [illegible] Di Penates [illegible] Lar Pater [illegible] Mercat [illegible]
[illegible] Lar [illegible] Lar Personna [illegible] Lar Tolumnius [illegible]

(٢) Festus, ed. Muller p. 125 Materfamiliae non ante dicebatur [illegible] quam [illegible] eius [illegible] dictus est [illegible] Nec [illegible] hoc nomine appellari potest

يقول قانون مانو «تعتمد المرأة في طفولتها على أبيها وفي شبابها على زوجها وعندما يموت زوجها تعتمد على أبنائها، وإذا لم يكن لها بنون فعلى أقرب أقرباء زوجها، إذ أنه لا بد ألا تحكم نفسها مطلقاً وفق هواها» (١). وتقول القوانين الإغريقية والرومانية نفس القول. تخضع لأبيها وهي بنت. وإذا مات الأب خضعت لأخوتها ولعصبتها agnats (٢) وتكون وهي متزوجة تحت وصاية زوجها. وإذا مات الزوج لا تعود لأسرتها الأصلية بل إن زوجها لنفسه قد تنازلت عنها إلى الأبد (٣) فتبقى الأرملة خاضعة لولاية عصبة زوجها أي لأبنائها إن كان لها بنون (٤) أو لأقرب أقربائه إذا عدم الأبناء (٥) ولزوجها من السلطة عليها ما يمكنه من تعيين وصي عليها قبل موته بل من أن يختار لها زوجاً آخر (٦).

ويحكي [illegible] سلطة الزوج على المرأة كان لهم تعبير قديم جداً احتفظ به فقهاؤهم [illegible] هو لفظ manus وليس من الميسير الكشف عن معناه الأصلي، وقد حمل الشراح منه تعبيراً عن القوة المادية كما لو كانت المرأة موضوعة تحت يد الزوج الحقيقية. وهناك شبهة كبيرة في فهم كهذا [illegible] سلطة الرجل على المرأة لم تكن ناشئة مطلقاً عن زيادة قوة الرجل، بل كانت مشتقة كشكل القانون الخاص من العقائد الدينية التي كانت تضع الرجل فوق المرأة. ومما يدل على ذلك أن المرأة التي لم تتزوج زواجاً مقدساً [illegible] والتي لم تشترك معه [illegible] في العبادة لم تكن خاضعة لسلطة الزوج (١). فقد كان الزواج هو

(١) قوانين مانو [illegible] ٤٨.

(٢) ديموستينيس [illegible] In Boeotum [illegible] [illegible] إيزيه [illegible] ديموستينيس [illegible] قصبة التاج [illegible]

(٣) [illegible] في حالة الطلاق. ديموستينيس [illegible] [illegible]

(٤) ديموستينيس [illegible] [illegible]

(٥) [illegible] ٣٥٣.

(٦) [illegible] ٢٧٩.

(٧) ديموستينيس [illegible]

(٨) [illegible] (topica) [illegible]

[illegible] كان يمنحها الزوج القدسي.

الذي يعلق خضوع المرأة وكرامتها في آن واحد. إن هذا الحد كان صحيحاً أن الأسرة لم تكن تنشأ من حق الأقوى !

ولننتقل إلى الطفل. هنا تتحدث الطبيعة عن نفسها بصوت مرتفع، فهي تريد أن يكون للطفل حارس، مرشد، وأستاذ. والديانة على وفاق مع الطبيعة إذ تقول إن الوالد هو الذي سيكون رئيس العبادة. وعلى الابن فقط أن يعاونه في مهمته المقدسة. لكن الطبيعة لا تتطلب هذا الخضوع إلا لعدد معين من السنين. أما الديانة فإنها تتطلب أكثر من ذلك. تمنح الطبيعة للابن سنا للرشد لكن الديانة لا تمنحه شيئاً من ذلك. فطبقاً للمبادئ العتيقة كان الموقد غير قابل للقسمة والملك غير قابل لها كذلك. ولا ينفصل الإخوة عند موت الوالد، ومن باب أولى لا يمكن أن ينفصلوا عنه أثناء حياته. كانت صرامة الشرع القديم تبقي الأبناء مرتبطين بموقد أبيهم وبناء عليه خاضعين لسلطانه، وما دام حياً فإنهم قاصرون.

ونحن ندرك أن هذه القاعدة ما كانت لتستطيع أن تستمر إلا مدة بقيت الديانة المنزلية في عنفوان قوتها. وهذا الخضوع الذي لا نهاية له من جانب الابن للأب قد اختفى مبكراً في أثينا. أما في روما فإن القاعدة قد حوفظ عليها محافظة المتحرج فلم يستطع الابن مطلقاً أن يقوم على موقد خاص في حياة أبيه. ولكن كان دائماً تحت سلطة أبيه حتى وإن تزوج، حتى وإن أنجب أبناء (١)

عندما يعبر غايوس عن السلطة الأبوية *Jus proprium est civium Romanorum* يجب أن نفهم أنه في زمن غايوس لم يكن الشرع الروماني يعترف بهذه السلطة إلا عند المواطن الروماني. وليس معنى ذلك أنها لم تكن موجودة قبل ذلك في مكان آخر أو أنه لم يكن معترفاً بها في شرع المدن الأخرى. وسيتضح ذلك مما سنقوله عن المركز القانوني للرعايا تحت حكم روما. وكان الوالد في الشرع الأثيني السابق على صولون يستطيع أن يبيع أبناءه (بلوتارخوس، صولون ١٣).

هذا وقد كان الأمر في السلطة الأبوية كما كان في السلطة الزوجية . فكان مصدرها وشرط وجودها هو العبادة المنزلية فالابن المولود من عشيرة لم يكن تحت سلطة الأب . ولم يكن بين الأب وبينه مشاركة في الديانة . فلم يكن هناك إذن ما يمنح لأحدهما السلطة ويفرض على الآخر الطاعة . والأبوة وحدها لا تعطي أي حق للأب

وبفضل الديانة المنزلية كانت الأسرة هيئة صغيرة منظمة ، جماعة صغيرة لها رئيسها وحكومتها وليس في مجتمعنا الحديث شيء ما يستطيع أن يعطينا فكرة عن هذه السلطة الأبوية . فإن الوالد في ذلك الزمن العتيق لم يكن يقتصر على أن يكون الرجل القوي الذي يحمي ، والذي بيده السلطة لكي يجعل نفسه مطاعاً ، بل كان الكاهن ووارث الموقد والمتمم لأجداده وأرومة سلالته . ومستودع الشعائر الخفية للعبادة والصيغ السرية للدعاء . كانت الديانة مستقرة كلها فيه

ونفس الاسم الذي يطلق عليه ، pater ، يحمل في ذاته معلومات غريبة . واللفظ هو بذاته في اللغات الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية . ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن هذا اللفظ يرجع إلى عصر كان أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود لا يزالون يعيشون فيه معاً في آسيا الوسطى . فماذا كان معناه ؟ وأية فكرة كان يثيرها عندئذ في ذهن الناس ؟ من الممكن أن نعرف ذلك إذ أنه احتفظ بهذا المعنى الأول في صيغ اللغة الدينية وفي صيغ اللغة القضائية . فعندما كان القدماء يدعون جوبيتر ويسمونه pater hominum Deorumque لم يكونوا يريدون أن يقولوا إن جوبيتر كان والد الآلهة والناس إذ أنهم لم يعتبروه كذلك أبداً ، بل على العكس كانوا يعتقدون أن الجنس البشري كان موجوداً قبله . وكان يطلق نفس اللقب على نبتون وأبولون وباكخوس وفولكان وبلوتون ومن المؤكد أن الناس لم يكونوا يعتبرونهم آباء لهم (١) . وكذلك كان يطلق لقب mater على

(١) Aulu-Gelle, V, 12. Jupiter. . . . Sic et Neptunuspater conjuncte dictus est et Saturnuspater et Marspater. Lactance, Instit. IV, 3. Jupiter a precantibus pater vocatur et Saturnus et Janus et Liber et cæteri. وكان بلوتون يسمى Dis Pater (الدوق ؟) فالمالك [illegible] صيغة الدعاء [illegible] وكان يستعمل نفس لفظ الأب لتيبر في الدعاء Tiberine Pater te Sancte precor (بتيبر جيوس [illegible]) وسمي فرجيليوس لأنه فولكان Pater Lemnius إله لمنوس .

صبيرقا وديانا وقت اللواتي اشتهرن بأنهن بقين عذارى . وكذلك في اللغة القضائية كان يمكن أن يعطى لقب *pater* أو *paterfamilias* لرجل ليس له أولاد وليس متزوجاً بل وفي سن لا تسمح بالزواج (١) إذن لم تكن فكرة الأبوة مرتبطة بهذا اللفظ وكان في اللغة القديمة لفظ آخر يدل على الأب دلالة صحيحة وهو قديم مثل لفظ *pater* ويمكن أن يوجد لدى المثل في لغات الإغريق *γεννητήρ* والرومان *genitor* والهنود *ganitar* وكان لكلمة *[illegible]* معنى آخر يطبق في اللغة الدينية على جميع الآلهة وفي لغة القانون على كل رجل لا يتبع أي شخص آخر وله سلطة على أسرة وعلى ملك *paterfamilias* ويرى شعراؤهم أنهم كانوا يستعملونه لجميع من كانوا يريدون تكريمهم وكان العبد والمولى يطلقه على سيده وكان مرادفاً لألفاظ *rex, ἄναξ, βασιλεύς* ولم يكن يتضمن معنى الأبوة بل يتضمن معنى القوة والسيادة والرتبة الرفيعة

إن إطلاق لفظ كهذا على والد الأسرة بحيث استطاع أن يصبح بالتدريج أكثر أسمائه شيوعاً هو بلا شك حدث ذو دلالة هامة وسيبدو خطيراً لمن يريد أن يعرف الأنظمة القديمة ويكون تاريخ هذا اللفظ كافياً ليعطي فكرة عن السلطة التي باشرها الأب في الأسرة زمناً طويلاً وعن الشعور المنطوي على التوقير الذي لازمه كحبر أعظم وكسلطان.

٢ — تعداد الحقوق التي كانت تتكون منها سلطة الأبوة

كانت القوانين الإغريقية والرومانية تعترف للأب بهذه السلطة التي لا حد لها والتي حسبت الديانة عليه من قبل ويمكن إدراج حقوق محددة جداً والمتشعبة جداً التي منحته إياها في ثلاث فئات بحسب ما إذا اعتبرنا رب الأسرة رئيساً دينياً أو صاحب ملك أو قاضياً

١ — الأب هو الرئيس الأعلى للديانة المنزلية وهو الذي ينظم كل حفلات العبادة كما يبدو له أو على الأصح كما رأى والده يقوم بها وليس في

(١) [illegible] في المختصر *Patres familiarum sunt qui sunt [illegible] potestatis, sive puberes, sive impuberes*

لأسرة من ينازعه في سيادته الكهنوتية . ولا تستطيع مدينة ما ولا أحبارها أن يغيروا شيئاً ما في عبادته . وباعتباره كاهناً للموقد لا يعترف بأي رئيس .

وهو المسؤول باعتباره رئيساً دينياً عن دوام العبادة وبالتالي عن دوام الأسرة وهو الذي يتعلق به دون سواه كل ما يتصل بهذا الدوام . الذي يعد أول ما يعنى به وأول واجب مفروض عليه . ومن هنا حدثت سلسلة بأسرها من الحقوق .

حق الاعتراف بالطفل عند مولده أو إنكاره . هذا حق تعطيه القوانين الإغريقية للأب (١) كما تعطيه له القوانين الرومانية . وبالرغم مما فيه من همجية فإنه لا يناقض المبادئ التي تقوم عليها الأسرة . فإن المولد لا يكفي للدخول في الدائرة المقدسة للأسرة حتى ولو كان حقيقياً من النزاع . بل لابد من قبول الرئيس وتلقين العبادة . فطالما أن الطفل لم يشترك في العبادة بعد فإنه لا يعد شيئاً بالنسبة للوالد .

حق طلاق زوجته ، سواء في حالة عقمها ، إذ يجب ألا تنقرض الأسرة ، أو في حالة زنا ، إذ لابد أن تكون الأسرة والذرية نقية من كل فساد .

حق تزويج ابنته أي نقل سلطته إلى آخر عن سلطته التي له عليها ، وحق تزويج الابن لأن زواج الابن يهم دوام الأسرة .

حق التحرير ، أي إقصاء ابن عن الأسرة وعن العبادة . وحق التبني ، أي إدخال أجنبي حول الموقد المنزلي .

حق تعيين وصي لزوجته ولأولاده بعد موته .

ولابد من ملاحظة أن جميع هذه الحقوق كانت من حق الوالد وحده دون جميع أعضاء الأسرة الآخرين . ولم تكن للمرأة حق في الطلاق ، على الأقل في العصور القديمة . ولم تكن تستطيع حتى وهي أرملة أن تحرر أو تتبنى . ولم تكن إطلاقاً وصية حتى على أبنائها . وفي حالة الطلاق كان الأولاد يبقون مع الوالد حتى البنات منهم . ولم يكن أبناؤها تحت سلطتها إطلاقاً . وعند زواج ابنتها لم تكن موافقتها مطلوبة . (٢)

(١) هيرودوت ، [illegible] ، ٢٦ . بلوتارخوس ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible]

(٢) ديموستينيس : ضد أونيتوريس ، ٤ و ٣ ، ٤ . إيزيوس ، [illegible] ، ٥٥ . أوسيبيوس [illegible] ، القواعد [illegible] ، مختصر الكتاب الأول [illegible]

٢ — رأينا فيما سبق أنهم لم يكونوا يتصورون التملك في الأصل كحق فردي بل كحق للأسرة. فكانت الثروة تتبع الأسلاف والذرية كما يقول أفلاطون صراحة وكما يقول جميع الشارعين القدماء ضمناً. ولم يكن هذا الملك يقتسم بحكم طبيعته نفسها. فلم يكن تستطيع أن يوجد في كل أسرة غير مالك واحد، وهو الأسرة ذاتها، وغير منتفع واحد بالدور إلا وهو الوالد. وهذا المبدأ يفسر عدة نظم في الشرع القديم

حيث أن الملك غير قابل للقسمة ويقوم بأكمله على الوالد فلا المرأة ولا الولد يمكنان شيئاً خاصاً بهما. فقد كان نظام البائنة عندئذ مجهولاً ولا يمكن العمل به. فكانت بائنة المرأة ملكاً للزوج من غير تحفظ وله على أملاك البائنة حقوق المالك لا حقوق المدير فحسب. وكل ما تستطيع المرأة أن تحصل عليه أثناء الزواج يسقط في يد الزوج بل إنه لا تسترد بائنتها عندما تصبح أرملة (١)

وكان الابن في نفس الحالة التي كانت عليها المرأة فلم يكن يملك شيئاً وأية هبة يعطيها لم تكن نافذة بسبب أنه لم يكن لديه شيء خاص به. ولم يكن يستطيع أن يكتسب شيئاً. فكانت ثمر عمله وأرباح تجارته لأبيه. فإذا ما أوصى له أجنبي بشيء فإن أباه هو الذي يتلقى الشيء الموصى به وليس هو. وهذا يفسر نص القانون الروماني الذي يحرم كل عقد بيع بين الأب والابن. فلو أن الولد باع لأبيه لكان بائعاً لنفسه ما دام الولد لا يكتسب إلا لأبيه (٢)

نرى في الشرع الروماني ويوجد أيضاً في قوانين أثينا، أن الوالد كان يستطيع أن يبيع ابنه (٣) ذلك لأن الأب كان يستطيع أن يتصرف في جميع

(١) غايوس ٢ : ٩٨ — كل هذه القواعد من الشرع الأقدم قد غيرها الشرع البريتوري. وكذلك في أثينا في عصر إيسايوس وديموستنيس كانت تعاد البائنة في حالة انحلال الزواج. ولا نقصد أن نتكلم في هذا الفصل إلا عن الشرع الأقدم.

(٢) شيشرون: القوانين ١ : ٢٠ . غايوس ٢ : ٨٧ — ديجست: الكتاب ١٨ الباب ١ : ٢

(٣) بلوتارخوس، صولون ١٣ — ديونيسيوس الهاليكارنسي ٢ : ٢٦ غايوس ١ : ١١٧ ، ١٣٢ ، ٢ : ٧٩ — أولبيانوس ١٠ ، ١ — تيتوس ليفيوس ٤١ ، ٨ — فستوس عن لفظ Deminutus

الملك الذى كان فى الأسرة وأن الولد ذاته كان يمكن اعتباره ملكاً مادام عمله وذراعاه مورد دخل . فكان للوالد الخيار فى أن يحتفظ لنفسه بهذه الأداة من أدوات العمل أو أن يتنازل عنها لسواه . ونشأ عن هذا هو ما كان يسمونه بيع الابن . والنصوص التى جاءتنا من الشرع الرومانى لاتدل دلالة واضحة على طبيعة هذا العقد من عقود البيع ولا التحفظات التى كان يمكن أن يحتويها ويبدو مؤكداً أن الابن الذى يباع هكذا لم يكن يصبح تماماً عبداً للمشترى ، بل كان فى استطاعة الوالد أن يشترط بيع الابن له من جديد . وحينئذ كان يحتفظ بسلطته عليه . وبعد أن يسترده يستطيع أن يبيعه مرة أخرى (١) وقد سمح قانون اللوحات الإثنى عشر بهذه العملية ثلاث مرات . لكنه أعلن أنه بعد هذا البيع ثلاثاً يتحرر الابن فى النهاية من سلطة الأبوية (٢) ويمكن أن نحكم من ذلك كم كانت سلطة الأب مطلقة فى الشرع العتيق (٣)

٣ — نعلم من بلوتارخوس أن النساء فى روما لم يكن يستطعن الظهور فى ساحة العدل ولو كشاهدات (٤) ونقرأ فى فقه [illegible] ويجب أن نعلم أنه لا يمكن فى التقاضى التداعى عن شىء . فالأشخاص الذين هم تحت السلطة أى المرأة والابن و[illegible] [illegible] ما دام هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يكون لهم شىء ما خاصاً بهم فقد نستنتج من ذلك أنهم لا يستطيعون كذلك أن يطالبوا بشىء ما بطريق التقاضى فإذا ارتكب ابنك الخاضع لسلطتك جناية فإن القضية ترفع عليك والجريمة التى يرتكبها الابن [illegible] لا ينشأ عنها أى

(١) Gaius I. 134: *Quem pater ea lege vendidit ut sibi remancipetur, tunc pater potestatem propriam reservare sibi videtur*

(٢) *Si pater filium ter venumdedit, filius a patre liber esto* [illegible]
Ulpian., *fragm.*, X, 1

(٣) إذا ارتكب الابن جريمة [illegible] سلطة الأب أن يتخلص من مسؤوليته بتسليمه لتعويض الشخص المجنى عليه
Gaius 1. 140, *Quem pater ex noxali causa mancipio dedit, velut quia furti nomine damnatus est et eum mancipio actori dedit . . . hunc actor pro pecunia habet*

وفى هذه الحالة يفقد الوالد سلطته [illegible] (Gaius ١٣٤ [illegible]
الخطيب [illegible]

(٤) بلوتارخوس : بوبليكولا (Publicola).

تقاضيا (١) . من كل هذا يتضح بوضوح أن المرأة والولد لايستطيعان أن يكونا مدعيين أو مدعى عليهما ولا متهمين ولا شاهدين فمن بين جميع الأسرة لا يستطيع أن يظهر أمام محكمة المدينة سوى الوالد . لأن العدالة العامة غير موجودة إلا له . ولذلك كان مسئولا عن الجنايات التي يرتكبها ذووه .

وإذا كانت العدالة بالنسبة للولد والزوجة غير موجودة في المدينة فذلك إلا لأنها كانت في المنزل . وقاضيهم هو رئيس الأسرة . وهو جالس كما لو كان في محكمة تقتضي سلطته الزوجية أو الأبوية ، باسم الأسرة وعلى مرأى من الآلهة المنزلية (٢) .

يروي تيتوس ليفيوس أن مجلس الشيوخ عندما أراد أن يستأصل حفلات باكخوس Bacchanales من روما قرر عقوبة الموت على من ساهموا فيها وقد نفذ المرسوم بسهولة في الوطنيين ولكن فيما يخص النساء ، ولم يكن أقل الجميع حصة . عرضت صعوبة خطيرة : فالنساء لم يكنّ خاضعات لقضاء المدينة ، والأسرة فقط هي صاحبة الحق في محاكمتهن . وقد احترم مجلس الشيوخ هذا المبدأ القديم وترك للأزواج والآباء عبء الحكم على النساء بالإعدام (٣) .

وهذا الحق في القضاء الذي كان يباشره رئيس الأسرة في منزله كان كاملا وغير قابل للاستئناف . فكان يستطيع أن يحكم بالإعدام كما كان يفعل القاضي في المدينة وليس لأية سلطة أن تعدل في قراراته . يقول كاتون الأكبر : « الزوج هو قاضي زوجته وليس لسلطته حد فهو يستطيع ما يريد . فإذا ارتكبت خطأ عاقبها ، وإذا شربت خمراً حكم عليها ، وإذا اتصلت برجل آخر قتلها » وكذلك كان الشرع فيما يختص بالأبناء . يذكر فاليريوس مكسيموس شخصاً يدعى اتيليوس Atilius قتل ابنه الذي ثبت ارتكابه ويعرف الجميع ذلك

(١) غايوس ، ٢ ، ٩٦ ؛ ٤ ، ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) حالة وقت عرض فيه العذاب على محكمة يباشر الوالد فيها الأسرة وأقدمها محكمة بروتسه ؛ تاسيتوس : الحوليات ، ١٣ ، ٣٢ ؛ الشعر ٣ ، الباب ١٤ .
، ٩ ، الآلهة لعوبص ٩ .
(٣) تيتوس ليفيوس ٣٩ ، ١٨ .

الوالد الذي قتل ابنه شريك كاتيلينا . » (١)

والحوادث التي من هذا القبيل متعددة في تاريخ روما وإنه ليكفي صاحبه أن نعتقد أنه كان للوالد الحق المطلق في قتل زوجته وأولاده. فقد كان قاضيهم وإذا حكم عليهم بالموت فما ذلك إلا مقتضى حقه في القضاء (٢) وحيث أن والد الأسرة كان هو وحيد الخاضع لقضاء المدينة فإنه لم يكن يستطيع المرأة ولا الابن أن يجد قاضياً سواه. إذ كان هو في أسرته القاضي الوحيد.

هذا ولا بد من ملاحظة أن سلطة الأبوة لم تكن سلطة تحكمية كي تكون سلطة مستمدة من حق الأقوى بل كان مصدرها في العقائد التي كانت في قرارة النفوس وكانت هذه العقائد [illegible] حدوداً [illegible]. فكان للوالد [illegible] في إقصاء الابن من أسرته لكنه كان يعلم حق العلم أنه إن فعل ذلك تعرضت الأسرة لخطر الانقراض وتعرضت أرواح أجداده للعدم: لأن [illegible] في [illegible] أن [illegible] كان من حقه أن يتبنى الأجنبي لكن الديانة كانت تحرم عليه أن يفعل ذلك إذا كان له ابن. كان الوالد هو مالك الأموال الوحيد لكنه لم يكن من حقه، في البدء على الأقل، أن يتخلى عنها. كان يستطيع أن يطلق زوجته لكنه لكي يفعل ذلك كان يتحتم عليه أن يجرؤ على قطع رباط ديني [illegible] وهكذا كانت الديانة تفرض على الوالد التزامات بقدر ما كان لها عليه من حقوق.

ظلت الأسرة محتفظة على هذا النحو [illegible] وبقيت [illegible] تحتوي عليها النفوس كافية. [illegible] جماعية. [illegible] تكويناً منتظماً [illegible] وحكومة [illegible] القانون [illegible]

(١) [illegible] في أولوس جيليوس [illegible] ٢٣ [illegible]
(٢) [illegible]. وكذلك كان يسمح القانون الإغريقي للزوج أن يقتل زوجته الزانية (Schol. ad Horat., Sat. II, 7, 62)
ويسمح للوالد أن يبيع [illegible] ٢٣ .
المقصود هنا أولوس فولفيوس Fulvius وهو ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ [illegible] قبض عليه أبوه وهو ذاهب ليضم [illegible] (المعرب)

الفصل التاسع

الأخلاق العتيقة في الأسرة

لا يقتصر التاريخ على دراسة الأحداث المادية والأنظمة، فهدف دراسته الحقيقي هو النفس البشرية، وعليه أن يتطلع إلى معرفة ما كانت تؤمن به هذه النفس وتفكر فيه وتشعر به في مختلف عصور حياة الجنس البشري.

وقد عرضنا في أول هذا الكتاب عقائد قديمة كونها الإنسان عن مصيره بعد الموت. ثم قلنا كيف أنتجت هذه العقائد أنظمة منزلية والقانون الخاص. بقي أن نبحث في أثر هذه العقائد في الأخلاق في الجماعات البدائية. ومن غير أن نزعم أن هذه الديانة القديمة قد خلقت الإحساسات الخلقية في قلب الإنسان يمكن أن نعتقد على الأقل أنها اشتركت معها في تقويتها، وأعطتها سلطة أكبر ووطدت سلطانها على سلوك الإنسان ووجهتها في وجهة. وفي بعض الأحيان أيضاً ضللتها.

كانت ديانة هذه العصور الأولى منزلية خاصة، وكذلك كانت الأخلاق. فلم تكن الديانة تقول للرجل وهي تشير إلى رجل آخر: هذا هو أخوك. بل كانت تقول له: هذا أجنبي. إنه لا يستطيع أن يساهم في إجراءات موقدك الديني، ولا يستطيع أن يقترب من قبر أسرتك. إن له آلهة أخرى غير آلهتك ولا يستطيع أن يرتبط بك بصلاة مشتركة. إن آلهتك ترفض عبادته وتعتبره عدواً لها، فهو عدو لك أيضاً.

في ديانة الموقد هذه لا يدعو الرجل المعبود لصالح قوم آخرين قط، فلا يدعوه إلا لنفسه أو لذويه. وقد بقي مثل إغريقي كذكرى وكعلامة لهذه العزلة القديمة من جانب الإنسان في الصلاة، فكانوا في عصر بلوتارخوس يقولون للرجل

لأنك أنت تضحي للموقد (١) . يقصدون بذلك : أنت تبتعد عن مواطنيك وليس لك أصدقاء وليس يشاطرك شيء عندك . أنت لا تعيش إلا لنفسك ودونك . كان هذا المثل علامة على زمن كانت فيه كل ديانة حول الموقد ولم يكن أفق الأخلاق والعاطفة يتجاوز دائرة الأسرة الضيقة

ومن الطبيعي أنه كان للفكرة الخلقية ابتداؤها ومراحل تقدمها كما كان للفكرة الدينية . فكان إله الأجيال الأولى من هذا الجنس صغيراً جداً ثم جعله الناس أكبر شيئاً فشيئاً . كذلك الأخلاق كانت في البدء جد ضيقة وناقصة نقصاً كبيراً ثم اتسعت اتساعاً غير محسوس إلى أن وصلت ، من تقدم إلى تقدم ، إلى إعلان واجب المحبة نحو جميع الناس . كانت نقطة ابتدائها هي الأسرة فإن الواجبات قد ظهرت لأنظار الناس لأول مرة تحت فعل عقائد الديانة المنزلية .

ولنتصور ديانة الموقد والقبر هذه وهي في عنفوان شبابها . يرى الإنسان المعبود على مقربة منه ، وهو ، كالضمير ذاته ، يشهد أتفه أعماله . كان هذا الكائن المستضعف واقعاً تحت أنظار شاهد لا يفارقه . فهو لا يشعر إطلاقاً بأنه وحيد فإن له بجواره ، في منزله وفي حقله ، حماة يعينونه على مشاق الحياة ، وقضاة يجازونه على السيء من أعماله . يقول الرومان : « إن اللاريس *Lares* آلهة يخشى جانبها مكلفة بعقاب بني البشر والسهر على كل ما يجري بداخل المنزل » – ويقولون أيضاً : « البيناتيس *Penates* هم الآلهة الذين يجعلوننا نعيش . يغذون أجسامنا ، وينظمون أرواحنا . » (٢)

وكانوا يحبون أن يسموا الموقد بالعفيف (٣) وكانوا يعتقدون أنه كان يأمر الناس بالعفة ويجب ألا يرتكب بمشهد منه أي دنس سواء كانت دنسة مادية أو معنوية .

ويبدو أن الأفكار الأولى عن الخطيئة والعقاب والتكفير إنما جاءت من هنا ، فالرجل الذي يشعر بأنه مذنب لا يستطيع أن يقترب من موقده بعد ذلك . فإن

Παροιμία· τῇ ἑστίᾳ θύουσιν ἐφ' ὧν οὐκ ἔστι μεταδοῦναι οὐδὲ ἐξενεγκεῖν. (١)
Ἑστίᾳ θύεις Pseudo-Plutarch. édit. Duebner, V 167
Eustathe, *in Odyss.*, VII, 247.

(٢) بلوتارخوس : المسائل الرومانية ، ٥١ . ماكروبيوس : ساتورناليا ٣ ، ٤ .
(٣) *Ἁγνοῖς ἑστίας βάθροις* أوريبيدس : هراكليس المحنق ...

إله يصفح عنه. فلن يسمح لسافك دم بتقديم قربان ولا بإراقة سوائل ولا صلاة ولا أكلة مقدسة. لقد كان الإله من الصرامة بحيث لا يقبل أي عذر. إنه لا يميز بين قتل غير متعمد وبين جريمة مع الإصرار. وعند اليد الملوثة بالدم لن تستطيع أن تمس الأشياء المقدسة (١). ولكي يستطيع الإنسان أن يعود إلى عبادته ويسترد إلهه كان لا بد له من التطهر حتى يكفر به على الأقل (٢). إن هذه الديانة تعرف الرحمة. وهذا شعور ينبع لدى بعض النفوس. ومهما كانت صفة وحشية فإنها كانت تعرف كيف تعزل الإنسان عن حدثه ذاته.

وإذا كانت تجهل واجبات الإحسان جهلا مطلقاً فإنها كانت ترسم للإنسان على الأقل واجباته نحو الأسرة بوضوح يدعو إلى الإعجاب. كانت تجعل الزواج إلزامياً. فإن العزوبة جريمة في نظر ديانة تجعل من دوام الأسرة أول الواجبات وأكثرها قداسة. ولكن الزواج الذي تفرضه كان لا يمكن أن يتم إلا تحت رعاية المعبودات المنزلية. ذلك هو الزواج الديني بين الزوج والزوجة القران المقدس لدى الإغريق والرومان، وعلى الإنسان ألا يعتقد أنه مسموح له بعد شعائر وأن يجعل من الزواج مجرد عقد رضي الطرفين كي كل الأمر في أن حر عهد الجنسين الإغريقي والروماني. فإن هذه الديانة تحرم عليه ذلك. وإذا تجاسر على فعله عاقبته عليه، إذ أن الولد الذي قد يولد من مثل هذا القران يعتبر نغلا، أي كائناً لا مكان له بجوار الموقد. ولا حق له في القيام بأي عمل مقدس. إنه لا يستطيع أن يصلي (٣).

وتسهر نفس هذه الديانة على طهارة الأسرة فأكبر جريمة يمكن أن ترتكب في نظرها هي جريمة الزنا. إذ أن القاعدة الأولى في هذه الديانة هي أن الموقد ينتقل

(١) هيرودوت ١، ٣٥. فرجيليوس: الإنيدة ٢، ٧١٩. ديونيسيوس؛ بوسانياس ٢

(٢) هيرودوت ١، ٣٥. أيسخيلوس: حاملات القرابين ٩٦. وقد وصف أبولونيوس الرودسي الاحتفال Apollonius de Rhode IV 704 (?)

(٣) إيسايوس: ميراث فيلوكتيمون ٤٧. ديموستينيس ضد ماكارتاتوس ٥١
Νόθοι δὲ μὴ εἶναι ἀγχιστείαν μήθ' ἱερῶν μήθ' ὁσίων
وكانت ديانة تحصر المساهمة في الحرم على الـ νόθος أن يقوم بالشعائر لكاهن
انظر Ross, *Inscr. gr.*, III, 52

من الأب إلى الابن ، والزنا يدخل الاضطراب في نظام المولد . والقاعدة الأخرى أن القبر لا يحوي غير أعضاء الأسرة . وابن الزنا يعد غريباً يدفن في القبر إنه اعتداء على كل مبادئ الديانة . فالعبادة دنست والموقد أصبح نجساً وكل قربان أصبح إثماً ، بل هناك ما هو أدهى من ذلك . يحطم الزنا سلسلة الذرية . فالأسرة قد انقرضت حتى دون أن يعلم الأحياء بذلك . ولم تعد هناك سعادة إلهية للأسلاف لذا يقول الهندي « في هذه الحياة وفي الأخرى يبيد ابن الزنا القرابين المقدمة للأرواح » (١) .

تلك إذن هي العلة في أن قوانين الإغريق وروما كانت تعطي للوالد الحق في إنكار الطفل الوليد . وتلك هي العلة أيضاً في أنها كانت في هذه الدرجة من الصرامة وهذه الدرجة من القسوة على الزنا . ففي أثينا كان يسمح للزوج بقتل المذنب . وفي روما كان الزوج باعتباره قاضي الزوجة يحكم عليها بالإعدام . وكانت هذه الديانة من الشدة بحيث لم يكن للإنسان حتى الحق في العفو التام بل كان مضطراً أن يطلق زوجته على الأقل (٢) .

هذه هي إذن القوانين الأولى للأخلاق المنزلية قد وجدت ووضع لها جزاؤها ها هي ذي . علاوة على العاطفة الطبيعية . ديانة آمرة تقول للرجل والمرأة إنهما ربطا إلى الأبد . وإنه تنشأ من هذا الرباط واجبات دقيقة يجلب نسيانها أخطر العواقب في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى . ومن هنا أتت جدية الارتباط الزوجي عند القدماء وقداسته . والطهارة التي احتفظت بها الأسرة زمناً طويلاً

(١) قوانين مانو ٣ : ١٧٥ .

(٢) ديموستنيس . ضد نايرا ٨٦ . من المحتمل أنه إذا كانت هذه الأخلاق الدينية تحرم الزنا فإنها لم تكن تنهى عن زواج المحرمات . فكانت الديانة تسمح بذلك . كان التحريم خاصاً بالزواج على عكس ما يجب . فكان من المعقول أن يتزوج الإنسان بأخته (كورنيليوس نيبوس . الاستهلال prooemium ، كيمون ١ c. ، سويتونيوس ، مينيكيوس فيلكس Minucius Felix ، أوكتافيوس ٣٠) . لكن الزواج من امرأة بعينها أخرى كان محرماً من حيث المبدأ .

تفرض هذه الأخلاق الدينية واجبات أخرى فتفرض على الزوجة أن عليها أن تطيع . وللزوج إن له أن يأمر . وتعلم الإثنين أن يحترم كل منهما الآخر للزوجة حقوقها لأن لها مكانها بجوار الموقد . فهي المكلفة بالسهر على ألا ينطفئ ، وهي على الأخص التي يجب عليها أن تكون منتبهة إلى بقائه طاهراً . وهي تدعوه وتقدم له القرابين(١) . فلها إذن كهانتها . وحيث لا توجد الزوجة تكون العبادة المنزلية ناقصة وغير وافية . فلها مصيبة كبرى للإغريقي أن يكون له موقد محروم من الزوجة(٢) . وعند الرومان كان حضور الزوجة في القربان واجباً إلى حد أن الكاهن كان يفقد كهونته إذا ما أصبح أرملا(٣) .

ونحن لا نعتقد بأن الأسرة كانت مدينة لهذه المساهمة في الكهونة المنزلية بتلك المكانة التي لم تنقطع عن احتلالها في مجتمعي الإغريق والرومان . ومن هنا جاء أن المرأة كانت تحمل في الأسرة نفس الألقاب التي كان يحملها زوجها . فعند اللاتين pater familias ، mater familias ، وعند الإغريق [illegible] ، وعند الهنود grihapati ، grihapatni . ومن هنا جاءت أيضاً هذه الصيغة التي كانت تتلوها المرأة في الزواج الروماني Ubi tu Caius, ego Caia . وهي صيغة تعني بأنه إذا لم تكن في المنزل مساوية في السلطة فقد كانت فيه على الأقل مساوية في الكرامة(٤) .

(١) Caton, De re rust. 143: Rem divinam faciat ... Focum purum habeat. Macr. Sat. I, 15 in fine: Nupta in domo mariti rem facit divinam.
قارن ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٢ .

(٢) كسينوفون : حكومة لاقدمونيا ... [illegible]

(٣) بلوتارخوس : مسائل رومانية ... انظر ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٢ .

(٤) لذلك يخطئ الإنسان كثيراً إذ يتكلم عن خضوع المرأة الرومانية المعروفة in manu mariti فإن كلمة manus لا تتضمن بالضرورة فكرة القوة [illegible] ، وتنطبق على سلطة الوالد على البنت أو سلطة الأخ على الأخت كما تنطبق على سلطة الزوج على المرأة . تيتوس ليفيوس ٣٤ : ٢ Feminas in manu esse parentum, fratrum, virorum ؛ [illegible] كروبوس ١ : ٥ ، هدية العقرة ؛ وعند ديونيسيوس الهاليكارناسي Nupta in domo viri DOMINIUM adipiscitur ٢ : ٢٥) عن مركز المرأة [illegible] في كل شيء كما سيده في المنزل .

أما الابن فقد رأيناه خاضعاً لسلطة والد يستطيع أن يبيعه وأن يحكم عليه بالإعدام. لكن هذا الابن له دوره في العبادة أيضاً. فله وظيفة يقوم بها في الاحتفالات الدينية. وحضوره في بعض الأيام من الضرورة بحيث كان الروماني الذي لا ابن له مضطراً أن يتبنى بصفة صورية. ولتلك الأيام، إنما للقيام بالشعائر (١). انظر أية رابطة قوية تقيمها الديانة بين الأب والابن! كانوا يعتقدون في حياة أخرى في القبر. حياة سعيدة وهادئة إذا ما قدمت الأكلات الجنازية بانتظام. وهكذا كان الوالد مقتنعاً بأن مصيره بعد هذه الحياة يتوقف على عناية ابنه بقبره. وكان الابن مقتنعاً من ناحيته أن أباه المتوفى سيصبح يوماً ما إلهاً وأنه سيضرع إليه.

ويمكن أن نحزر كل ما كانت هذه العقائد تضعه في الأسرة من الاحترام والعطف المتبادل. كان القدماء يطلقون على فضائل المنزلية اسم البر (*pietas*) فكان من البر طاعة الابن لأبيه وحبه لأمه *pietas ergu parentes* وكان من البر كذلك ملازمة الأب لابنه وعطف الأم *pietas ergu liberos*. كان كل شيء في الأسرة مقدساً. فشعور بالواجب والمودة الطبيعية والفكرة الدينية. كل ذلك كان يمتزج بعضه ببعض ولا يكون إلا شيئاً واحداً. ونعبر عنه بكلمة واحدة

وقد يبدو غريباً جداً أن يعد حب المنزل بين الفضائل. لكنه كان واحدة منها عند القدماء. كان هذا الإحساس عميقاً وقوياً في نفوسهم. تأملوا أنخيسيس (Anchise) الذي يرى طروادة وهي تحترق ومع ذلك لا يريد أن يغادر مسكنه القديم. تأملوا أوديسيوس (Ulysse). الذي تعرض عليه جميع الكنوز بل الخلود وهو لا يريد إلا أن يرى لهيب موقده من جديد. ولنتقدم إلى شيشرون، فليس الذي يتكلم هنا شاعراً بل رجلا من رجال الدولة: «هنا دياني، هنا أرومتي. هنا آثار آبائي. لا أدرى أي سحر هنا يتمشى في قلبي وحواسي» (٢). يجب أن نعود بفكرنا إلى أقدم الأجيال لكي ندرك إلى أي حد كانت حادة وقوية هذه المشاعر.

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٠ ، ٢٢ .
(٢) شيشرون ـ القوانين ٢ ، ١ ؛ من أجل المنزل ، ٤١ .

التي كانت قد صنعت في زمن [illegible] فالشعور عندنا بما هو إلا مسكن، إلا ملجأ، نهجره ونتركه من غير كبير عناء. وإذا تمسكنا به فما ذلك إلا بقوة العادات والذكريات. فعندنا أن الديانة ليست هناك، إنما إله الكون، نجده في كل مكان. لكنه كان غير ذلك عند القدماء. فإنهم كانوا يجدون داخل منازلهم معبودهم الرئيسي وملاذهم الذي كان يحميهم فرداً فرداً ويسمع دعاءهم ويستجيب إلى توسلاتهم. أما خارج منزله فلا يشعر المرء بأن له إلهاً. وكان إله الجار إلهاً عدواً. فكان الإنسان وقتذاك يحب منزله كما يحب المرء اليوم كنيسته (١)

وهكذا لم تكن عقائد العصور الأولى بمعزل عن تطور الأخلاق في هذا الجزء من الإنسانية. فقد كانت هذه الآلهة تفرض الطهارة وتحرم سفك الدماء. فإذا كانت فكرة العدالة لم تولد من هذه العقيدة فهي على الأقل قد استمدت قوة منها. كانت هذه الآلهة ملكاً مشتركاً لجميع أعضاء أسرة بعينها. وهكذا جعلت الأسرة نفسها متحدة برباط قوي وتعلم كل أعضائها أن يتحابوا وأن يحترم بعضهم بعضاً. كانت هذه الآلهة تعيش داخل كل منزل. فكان الإنسان يحب منزله، مسكنه الثابت الدائم، الذي تلقاه عن أجداده وحفظه لأبنائه كقدس من الأقداس.

كانت الأخلاق العتيقة التي نظمتها هذه العقائد تجهل الإحسان، لكنها علمت الفضائل المنزلية على الأقل. كانت عزلة الأسرة عند هذا الجنس ابتداء الأخلاق. هنا ظهرت الواجبات واضحة محددة ملزمة، لكنها محصورة في دائرة محدودة. ويجب أن نتذكر، فيما يلي من هذا الكتاب، صفة التضييق هذه في الأخلاق الأولى، إذ أن المجتمع المدني الذي تأسس فيما بعد على نفس المبادئ اكتسى بنفس الطابع، وكثير من سمات حياته في السياسة القديمة تجد تفسيرها هنا (٢)

(١) من هنا قدسية المسكن الذي أحسه القدماء دائماً، لا يمكن لأحد أن يعتدي عليه. ديموستينيس ضد أندروتيون ٥٢؛ ضد إيفرغوس Evergos [illegible]

(٢) هل هناك حاجة للقول بأننا حاولنا في هذا الفصل أن نضع يدنا على أقدم أخلاق الشعوب التي أصبحت فيما بعد الإغريق والرومان؟ وهل هناك حاجة لكي نضيف أن هذه الأخلاق قد تغيرت فيما بعد مع الزمن على الأخص عند الإغريق؟ إذ نجد منذ الأوديسة عواطف جديدة وأخلاقاً أخرى؛ سنبينها فيما يلو من هذا الكتاب.

الفصل العاشر

الفصيلة (Gens) فى روما وفى بلاد الإغريق

نجد عند فقهاء الرومان وكتاب الإغريق آثاراً من نظام عتيق يبدو أنه كان فى شدة عنفوانه فى العصر الأول من المجتمعات الإغريقية واللاتينية. لكنه ضعف رويداً رويداً ولم يترك غير شذرات لا يكاد يدركها الحس فى عصره الأخير من تاريخها. نريد أن نتكلم عما كان اللاتينيون يسمونه *gens* والإغريق γένος.

كثيراً ما جادلوا فى طبيعة الفصيلة «*gens*» وتكوينها. وقد لا يخلو من الفائدة أن نتكلم أولا عن الأصل فى صعوبة هذه المعضلة.

كانت الفصيلة «*gens*»، كما سنرى فيما بعد، تكوِّن هيئة قائمة على نظام متشبع بروح الشراف (الأرستقراطية)، وبفضل نظامها الداخلى استطاع البطارقة «patriciens» فى روما والأشراف «Eupatrides» فى أثينا أن يبقوا على امتيازاتهم زمناً طويلا. وبمجرد أن نصبت الحرب الشعبى لم يتهاونوا فى محاربة هذا النظام القديم بكل قواه. ولو أنه استطاع أن يقضى عليه قضاء تاما لكان من المحتمل ألا نبقى لنا منه أقل ذكرى. لكنه كان شديد الحيوية ومتأصلا فى الأخلاق بدرجة هذه فلم يكن ليزول بالمرة دفعة واحدة فاكتفوا بتعديله. فنزعوا منه ما كان ميزته الجوهرية، ولم يتركوا منه إلا أشكاله الخارجية التى لم تكن تضايق النظام الجديد فى شىء. وهكذا تصور السوقة فى روما أن يكونوا فصائل «*gentes*» تقليداً للبطارقة. أما فى أثينا فقد حاولوا أن يقلبوا الفصائل γένη رأساً على عقب وأن يدعوها معاً ويستبدلوا بها الأحياء «demes» التى أقاموها على نمطها. وسنفسر هذه الأحداث عندما نتكلم عن الثورات. ويكفى أن نلاحظ هنا أن من شأن هذا التعديل العميق، الذى أدخلته حكومة العامة (الديمقراطية) فى نظام الفصيلة أن يضلل من يريد أن يعرف التكوين الأصلى. إذ أن كل المعلومات التى وصلت

إلى عهد ترجع إلى العصر الذي كانت قد تحولت فيه. فهي لا ريب إلا ما تركته الثورات باقياً منها.

نفرض أنه في نحو عشرين قرناً قد اختفت كل معرفة بالعصور الوسطى وأنه لم تبق أية وثيقة عن سني ثورة ١٧٨٩. ومع هذا أراد مؤرخ من ذلك العصر أن يكون لنفسه فكرة عن الأنظمة السابقة فإن الوثائق الوحيدة التي تحت يده ستريه أشراف القرن التاسع عشر، أعني شيئاً مختلفاً اختلافاً حسيا عن نظام الإقطاعيات. لكنه سيتذكر أن ثورة كبيرة وقعت في الفترة بينهما. وسيستنتج من ذلك حتى أنه لا بد أن هذا النظام قد تغير ككل الأنظمة الأخرى. وهذه الطبقة من الأشراف، التي تربطها به نصوصه، لن تكون في نظره إلا ظلاً، أو صورة متغيرة جداً لطبقة أخرى من الأشراف كانت أقوى منها قوة لا تعادلها. ثم إذا هو فحص بانتباه البقايا الضئيلة من هذا الأثر العتيق (بعض تعبيرات باقية في اللغة، وبعض مصطلحات مرقت من القانون، وبعض ذكريات غامضة أو حسرات عقيمة) فربما استطاع أن يحزر شيئاً من نظام الإقطاعيات وأن يكون لنفسه فكرة عن القرون الوسطى لا تبعد كثيراً عن الحقيقة. حقاً إن الصعوبة ستكون كبيرة. وهي ليست أقل بالنسبة لمؤرخ اليوم الذي يريد أن يعرف الفصيلة القديمة إذ ليست لديه عنها معلومات أخرى غير تلك التي ترجع إلى زمن لم تكن فيه إلا ظلاً لما كانت عليه.

سنبدأ بتحليل كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن الفصيلة، أي ما بقي منها في العصر الذي كانت قد تغيرت فيه. وبمساعدة هذه البقايا سنحاول أن نستشف النظام الحقيقي للفصيلة gens العتيقة.

١ — ما نعلمه عن الفصيلة gens من الكتاب الأقدمين

إذا فتحنا التاريخ الروماني في عصر الحروب البونية وجدنا ثلاثة أشخاص يسمون كلوديوس بولخر Claudius Pulcher وكلوديوس نيرو Claudius Nero وكلوديوس كنثو Claudius Centho ويشمل الثلاثة جميعاً في فصيلة gens واحدة هي الفصيلة كلوديا gens Claudia

يقدم ديموستينيس في إحدى مرافعاته سبعة شهود يشهدون بأنهم من γένος واحدة وهي عصبة البريتيين (Brytides) والجدير بالملاحظة أن هؤلاء الأشخاص السبعة المذكورين كأعضاء من نفس العصبة، كانوا مقيدين في ستة أحياء مختلفة (demes) وفي هذا دليل على أن العصبية لا تعادل الحي بالضبط، ولم تكن مثله مجرد قسم إداري (١).

هذا هو إذاً الحدث الأول قد ثبت منه: كانت هناك عصائب (Gentes) في روما وفي أثينا. ويمكن أن نذكر أسماء خاصة بعدد كبير من المدن الأخرى من بلاد الإغريق وإيطاليا، وأن نستنتج من هذين التعريفين ترجيح أن هذا النظام كان عاماً عند هذه الشعوب القديمة.

كان لكل عصبة عبادة خاصة. في بلاد الإغريق كانوا يعرفون أعضاء العصبة الواحدة (Gens) من أنهم كانوا يقدمون القرابين معاً منذ عصر بعيد جداً (٢). ويذكر بلوتارخوس مكاناً لدى كل عصبة فيه لليكوميديين (Lycomedes) أضحيتهم، ويتكلم إسخينيس عن مذبح لبوتيس (Butad) (٣).

وفي روما أيضاً كان لكل عصبة إجراءات دينية تقوم بها، وتحدد دينها الخاصة بيوم وسكب وشعائر (٤). هذه هي أولاء الغاليون محصورون بالكابيتوليوم وها هو ذا أحد أفراد أسرة فابيوس يخرج منه ويخترق خطوط الأعداء مرتدياً الملابس الدينية ويحمل في يده الأشياء المقدسة، ويذهب ليقدم القربان على مذبح عصبته الواقع على الكويريناليس. وفي الحرب النوبية الثانية كان فابيوس آخر، وهو الملقب بترس روما، يضايق وجه هنيبعل؛ ومن المؤكد أن الجمهورية كانت في شديد الحاجة إلى عدم تركه جيشها، ومع ذلك فقد تركه في يد مينوكيوس

(١) ديموستينيس ضد نيارا، ٦١. أنظر هوميروس، بيستو لس، إسخينيس، Hesychius. Boeckh, Corp. inscr. II, 385, Ross, Demi Attici, 24 قصة السفارة ١٤٧ وشراك سمى العصبة عند الإغريق πάτρα غير خارجي في موضع معرفة.

(٢) Harpocration Γεννῆται ... Hésychius. Γεννῆται, οἱ τοῦ αὐτοῦ γένους μετέχοντες, καὶ ἀπὸ θεν ἀπ' ἀρχῆς ἔχοντες κοινὰ ἱερά

(٣) بلوتارخوس، تيموكليس. إسخينيس: قصة السفارة 147 (De falsa legat., 147)

(٤) Cicéron, De Arusp. resp., 15. ديونيسيوس الهاليكارناسي ١١، ١٤. فستوس تحت لفظ propudi طبعة ميلر ٢٣٨

(Minucius) الأعوج؛ ذلك لأن عند تقديم القربان عند فصيلته قد حدث وكان لا بد له مع الإسراع إليه دوما ليقوم بالعمل المقدس (١).

وكان لا مفر من أن تستمر هذه العادة من جيل إلى جيل، وكان من الواجب أن يترك المرء أبناء من بعده لكي يستمروا فيها. ترك كلوديوس وهو خصم شخصي لشيشرون فصيلته لكي يدخل في أسرة سوقية فقال له شيشرون: «لقد تركت ديانة فصيلة كلوديا تتعرض بسبب سوء تصرفك» (٢).

ولم يكن ثمة فصيلة Dii gentiles يشعرون سواها أو يريدون أن يدعوهم غيرها. وما من غريب يستطيع أن يشترك في حفلاتها الدينية. فكانوا يعتقدون أنه إذا حصل أجنبي على جزء من الأضحية بل إذا حضر القربان فقط فإن آلهة الفصيلة تغضب وتصبح جميع أعضاء الفصيلة تحت وزر إثم خطير.

ولكن كان لكل فصيلة عبادتها وأعيادها الدينية. فقد كان لها أيضاً قبرها المشترك. فقد جاء في مرافعة لديموستينيس: «فدفن هذا الرجل أبناءه وضمهم في قبر آبائه، في هذا القبر المشترك بين جميع أهل فصيلته». ويدل سياق المرافعة على أنه ما من أجنبي يمكن أن يدفن في هذا القبر. وفي خطبة أخرى يتكلم نفس الخطيب عن القبر الذي تدفن فيه فصيلة البوسيليين (Buselides) أعضاءها والذي تقدم فيه كل عام قرباناً جنائزياً. فمكان الدفن هذا حقل على شيء من السعة يحيط به سور حسب عادة قديمة (٣).

وكذلك كانت الحال عند الرومان، فيتكلم فيليوس (Velleius) عن قبر الفصيلة كوينكتيليا gens Quinctilia ويخبرنا سويتونيوس بأن قبر فصيلة كلوديا gens Claudia كان على سفح أكمة الكابيتوليوم (٤).

يعتبر شرع روما القديم أن أعضاء الفصيلة أهل لأن يرث بعضهم بعضاً. وتقضي الألواح الاثنا عشرة بأنه في حالة عدم وجود أبناء ولا عصبة agnats يصبح

(١) [illegible] ٥، [illegible] ٨؛ فاليريوس ماكسيموس ١، ١، ١١.
[illegible] ٩٠؛ [illegible] ٤، ٢؛ ماكروبيوس ٣، ٥.
(٢) شيشرون، من أجل بيته [illegible].
(٣) ديموستينيس، ضد ماكارتاتوس ٧٩؛ ضد إيوبوليديس ٢٨.
(٤) سويتونيوس، تيبيريوس ١؛ فيليوس Velleius ٢، ١١٩.

عضو العصبة (gentilis) وارثاً طبيعياً. فعضو العصبة في هذا الشرع هو أقرب من القريب عن طريق الدم (cognat) أي أقرب من الأقرباء عن طريق النساء (١).

ما من شيء أكثر ارتباطاً بعضه ببعض من أعضاء العصبة. فهم متحدون في القيام ببعض الاحتفالات المقدسة ويتعاونون في كل مطالب الحياة. فالعصبة بأكملها ضامنة لدين الفرد من أعضائها، تفتدي الأسير وتدفع غرامة المحكوم عليه. وإذا أصبح أحد دونها من أصحاب المناصب تكتتب لدفع النفقات التي يتطلبها منصبه (٢).

يصحب المتهم كل أعضاء عصبته إلى المحكمة. وتلك علامة على التضامن الذي يقيمه القانون بين الرجل والهيئة التي ينتمي إليها. وإنه لعمل مناف للديانة أن يقاضي المرء رجلا من عصبته، أو أن يشهد عليه. كان رجل يدعى كلوديوس شخصية هائلة وخصما شخصياً لأبيوس كلوديوس (Appius Claudius) أحد أعضاء مجلس العشرة (decemvir). فلما حوكم هذا الأخير وهدد بالموت تقدم كلوديوس ليدافع عنه واستعطف الشعب له، بيد أنه لم يفته التنبيه إلى أنه إذ كان قد قام بهذا المسعى فإن ذلك لم يكن من باب المحبة بل من باب الواجب (٣).

إذا لم يكن لعضو من العصبة الحق في استدعاء عضو آخر أمام قضاء المدينة فما ذلك إلا لأنه كان له قضاء آخر في العصبة ذاتها. فقد كان لكل واحدة منها عميد هو قاضيها وكاهنها وقائدها الحربي معاً (٤). ونحن نعرف أنه عندما جاءت أسرة كلوديوس السابينية لتقيم في روما كان الثلاثة آلاف شخص الذين كانت تتكون منهم يطيعون رئيساً واحداً. ونرى فيما بعد، عندما تكفل آل فابيوس بالقيام بالحرب وحدهم ضد سكان فييس (Veii)، أنه كان لهذه العصبة رئيس

(١) غايوس ٣ : ١٧ ، ديجست ٣ : ٢ : ١.

(٢) تيتوس ليفيوس ٥ ، ٣٢ ، ديونيسيوس الهاليكارناسي القطعة ١٣ ، ٥ ، أبيانوس : هانيبال ٢٨.

(٣) تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨ ، ديونيسيوس الهاليكارناسي ١١ : ١٤.

(٤) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٧.

يتكلم باسمها أمام مجلس الشيوخ ويقودها لملاقاة العدو (١)

وفى بلاد الإغريق أيضاً كان لكل عصبة عميد . تشهد بذلك النقوش المكتوبة ، وترينا أن هذا العميد كان يحمل بصفة عامة لقب زعيم «archonte» (٢) وأخيراً كان للعصبة محاكمها فى روما كما فى بلاد الإغريق وكانت تصدر مراسيم يتحتم على أعضائها الخضوع لها وتحترمها المدينة ذاتها (٣)

تلك كانت مجموعة العادات والقوانين التى لا نزال نجدها بالمدة فى العصور التى كانت العصبية قد ضعفت فيها وتكاد أن تستبدل بطبيعتها طبيعة أخرى . تلك هى بقايا هذا النظام العتيق (٤)

٢ - مناقشة بعض الآراء التى أبديت لتفسير العصبة gens الرومانية

اقترحت عدة مذاهب فى هذا الموضوع المعروض لمجادلات العلماء منذ زمن طويل . يقول البعض إن العصبة ما هى إلا تماثل فى الأسماء . ويعتقد آخرون أن العصبة ما هى إلا تعبير عن علاقة بين أسرة لها الولاية وأسرة أخرى مولية لها . وكل من هذين الرأيين يتضمن جزءاً من الحقيقة لكن ما من واحد منهما يقابل كل سلسلة الوقائع والقوانين والعادات التى عددناها آنفاً

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسى ٩ : ٥

(٢) Boeckh, Corp. inscr., nos 397, 399. Ross, Demi Attici, 24.

(٣) تيتوس ليفيوس ج ٢ ، سويتونيوس ، طيبريوس Ross, Demi Attici, 24

(٤) حاول شيشرون أن يعرف العصبة Gentiles sunt qui inter se eodem nomine sunt, qui ab ingenuis oriundi sunt, quorum majorum nemo servitutem servivit (Cic., Topiques 6). هذا التعريف ناقص ، فهو يشير إلى بعض علامات خارجية أكثر مما يشير إلى صفات جوهرية . ويبدو أنه كان لشيشرون ، الذى كان من طبقة العامة ، آراء مبهمة جداً عن العصبة فى العصور العتيقة . فقول (Tusculanes, I, 16) إن الملك سرفيوس تليوس كان gentilis معه : meo regnante gentili ؛ وأن شخصاً يدعى فروكنوس (Varrucinus) يكاد يكون gentilis مع فريس (Verrès) (ضد فريس ٢ : ٧٧) .

وفي نظرية أخرى تدل كلمة عصبية على نوع من القرابة المصطنعة. فالعصبية هي مجموع سياسي من عدة أسرات كانت في الأصل غريبة بعضها عن بعض ولما كانت صلة الدم مفقودة فقد أقامت المدينة بينها اتحاداً وهمياً وقرابة مصطنعاً عينياً

وأول اعتراض على هذه النظرية هو أنه إذا لم يكن للعصبية سوى اجتماع مصطنع فكيف نفسر أنه كان لأعضائها حق التوارث فيما بينهم. ولماذا يفضل عضو العصبية (gentilis) على القريب عن طريق الدم (cognatus)؟ لقد رأينا فيما سبق من قواعد الإرث أية صلة وثيقة وضرورية كانت تقيمها الديانة بين حق الإرث وبين القرابة عن طريق الذكور. فهل يجوز الظن بأن القانون القديم كان يبتعد عن هذا المبدأ إلى حد أن يمنح التركة لأعضاء العصبة لو أن هؤلاء كانوا غرباء بعضهم عن بعض

أبرز مميزات العصبية، والمحقق منه أكثر من سواه، هو أن للعصبية عبادة في ذاتها كما كان للأسرة عبادتها. فإذا بحثنا عما هو الإله الذي كانت تعبده كل وحدة منها لاحظنا أنه دائماً سلف مؤله، وأن المذبح الذي كانت تحمل إليه القرابين ما هو إلا قبر. ففي أثينا يعبد الإيمولبيون (Eumolpides) يومولبوس (Eumolpos) أرومة جنسهم، ويعبد الفيتاليون (Phytalides) فيتالوس (Phytalus)، والبوتيون بوتس (Butès)، والبوسيليون بوسيلوس (Busélos)، واللاكيديون (Lakiades) لاكيوس (Lakios)، والأميناندريون (Amynandrides) كيكروبس (Cecrops) (١). وفي روما يتحدر آل كلوديوس من كلوسوس (Clausus)، ويعبد الكيكيليون (Caecilius) البطل كيكولوس (Caeculus) باعتباره رأس جنسهم، والكالبورنيون (Calpurnius) من يدعى كالبوس (Calpus)، واليوليون (Julius) شخصاً يدعى يولوس (Julus)، والكليليون (Cloelius) من يدعى كليلوس (Cloelus) (٢)

(١) ديموستينيس، ضد ماكارتاتوس ٧٩. بوسانياس ١ : ٣٧. نقش الأميناندريين القسم روس Ross ص ٢٤.

(٢) فستوس تحت الألفاظ : *Caeculus, Calpurnii, Cloelia*

حقاً إنه مسموح لنا أن نعتقد أن الكثير من سلاسل الأنساب هذه قد اختلقت فيما بعد . لكنه يجب الاعتراف بأن هذه الخدعة ما كانت تجد مبرراً لو لم تكن العادة ثابتة لدى العصبة [illegible] أن تعترف بسلف مشترك وأن تؤدى له العبادة . فإن الكذب يسعى دائماً لتقليد الحقيقة .

هذا ولم يكن ارتكاب خدعة هيناً كما يبدو لنا . فإن هذه العادة لم تكن صيغة جوفاء للتفاخر . فقد كانت هناك قاعدة من أكثر قواعد الديانة صرامة تحتم ألا يعبد كسلف إلا أولئك الذين ينحدر المرء منهم حقيقة . وكان تقديم هذه العبادة لأجنبي إثماً خطيراً . فإذا عبدت العصبة سلفاً مشتركاً في ذلك فلأنها كانت تعتقد بإخلاص أنها منحدرة منه . أما تقليد القبر وترتيب الأعياد والأكلات الجنازية فمعناه إدخال الكذب في أقدس ما لديهم والاستهزاء بالدين . مثل هذا الاختلاق كان ممكناً في عصر قيصر عندما أصبحت ديانة الأسرات القديمة لا تحرك ساكناً في أحد . لكن إذا انتقلنا إلى الزمن الذي كانت هذه العقائد قوية فيه فإننا لا نستطيع أن نتصور أن عدة أسرات قد اتحدت في مخادعة واحدة وقالت لنفسها : سنتظاهر بأن لنا سلفاً واحداً ونقيم له قبراً ونقدم له أكلات جنازية وتعبده ذريتنا في جميع العصور التالية . مثل هذه الفكرة لم يكن يجوز أن تعرض للأذهان أو كان يجب أن يقصوها كفكرة خاطئة .

في المعضلات الصعبة التي كثيراً ما يجود بها التاريخ يحسن أن نلتمس في مصطلحات اللغة كل المعلومات التي تستطيع أن تعطيها . فقد يفسر اللفظ كنه المنظمة التي كان يطلق عليها . ولفظ *gens* هو بالضبط نفس *genus* إلى درجة أنه كان من المستطاع سحب الواحد بدل الآخر وأن يقال *gens Fabia* و *genus Fabium* (١) وكلاهما يقابل الفعل *gignere* والاسم *genitor* [illegible] وكل هذه الكلمات تحمل في ذاتها فكرة البنوة . كما أن الإغريق كانوا يطلقون على أعضاء عصبة معينة لفظ ὁμογάλακτες ومعناه يرضعون من نفس اللبن (٢) . فلنقارن جميع هذه الألفاظ [illegible]

(١) تيتوس ليفيوس [illegible] ٤٠ : *Genus Fabium*

(٢) Philochore, dans les *Fragm. hist. graec.*, t. I, p. 399 : [illegible] οἱ ἐκ τοῦ αὐτοῦ τῶν τριάκοντα γενῶν, [illegible] ὁμογάλακτας [illegible]. Pollux VIII, 11 : Οἱ μετέχοντες τοῦ γένους γεννῆται καὶ ὁμογάλακτες.

التى تعودنا أن نترجمها بكلمة أسرة فى اللاتينية *familia* وفى الإغريقية *οἶκος* ، لا هذه ولا تلك تحمل فى ذاتها معنى التناسل أو القرابة فإن معنى *familia* الحقيقى هو الملك ، فهى تدل على الحقل والمنزل والمال والأقرباء ، ولهذا تقول الألواح الاثنا عشر عند الكلام عن الوارث *familiam nancitor* يأخذ التركة . أما *οἶκος* فمن الواضح أنه لا تعرض فى الذهن أية فكرة غير فكرة الملك أو المنزل ومع ذلك فإن هذه الألفاظ هى التى نترجمها عادة بكلمة أسرة . فهل من المقبول أن ألفاظاً معناها المنزل والمسكن أو الملك قد استطاعت أن تستعمل فى كثير من الأحيان للدلالة على الأسرة [illegible] كلمات أخرى معناها الدلالة ونبوة ومولد وأبوة لم يكن تدل بطلاقاً إلا على جمع مصطنع ؟ من المحتوم به أن ذلك لا يتفق مع وضوح [illegible] القديمة ودقتها . ولا ريب أن الإغريق والرومان كانوا يعلقون على ألفاظ *gens* و *γένος* فكرة أصل مشترك ، ويجوز أن تكون هذه الفكرة [illegible] [illegible] [illegible] العصبية [illegible] [illegible] [illegible] ما بقيت تكون [illegible] عنها .

فالمذهب الذى يمثل العصبة كجمع مصطنع يجد ضده أولاً : التشريع القديم الذى يعطى أعضاء العصبة *gentiles* حق الإرث . ثانياً : العقائد الدينية التى لا نرى مشاركة فى العبادة إلا حيث توجد مشاركة فى المولد . ثالثاً : مصطلحات اللغة التى [illegible] [illegible] فى العصبة أصلاً مشتركاً . وفى هذا المذهب عيب آخر وهو افتراضه أن الجماعات البشرية قد استطاعت أن تبدأ كنتيجة لاتفاق أو حيلة ، وهو ما لا يستطيع العلم التاريخى أن يقبله كشىء صحيح .

٣ — العصبة *gens* هى الأسرة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأصلى ووحدتها .

كل شىء يعرض العصبة علينا كما لو كانت جمعاً [illegible] [illegible] [illegible] فستظهر لنا مرة أخرى أسماء العصائل فى بلاد الإغريق كما فى روما موضوعة فى الصيغة المستعملة [illegible] لأسماء الأبوة كلوديوس *Claudii* ، ما معناه بنو كلوسوس (*Clausus*) ، بوتيديس أى بنو [illegible] .

[illegible] أولئك الذين يعتقدون أنهم يرون فى العصبة جمعاً مصطنعاً من نقطة [illegible] فهم يظنون أن العصبة تشمل دائماً عدة أسر لها أسماء مختلفة ويؤثرون

لنمثل بالعصبة قورنيليا (Cornélia) التي كانت تشمل في الحقيقة آل سقيبيو (Scipio) وآل لنتولوس (Lentulus) وآل قوسوس (Cossus) وآل سيلا Sylla. ولكن الأمر أبعد من أن يكون كذلك دائماً إذ يبدو أنه لم يكن للعصبة مرقيا Marcia غير فرع واحد على الدوام ولا نرى إلا فرعاً واحداً فقط في العصبة لوكريتيا (gens Lucretia) والعصبة كوينتليا (gens Quintilia) زمن طويل ومن الصعب جداً بكل تأكيد أن نقول ما هي الأسرات التي كونت عصبة فابيا (gens Fabia) وإذ من الحق أن جميع آل فابيوس المعروفين في التاريخ كانوا ينتسبون لعصبة واحدة، وفي البدء كانوا يحملون جميعاً نفس اللقب فبولانوس (Vibulanus) ثم استبدلوا به جميعاً لقب امبوستوس (Ambustus) ثم استبدلوا به فيما بعد لقب ماكسيموس (Maximus)، أو دورسو (Dorso).

من المعروف أن العادة في روما هي أن يحمل كل بطريق ثلاثة أسماء. فكان أحدهم مثلا يسمى بوبليوس قورنيليوس سقيبيو (Publius Cornelius Scipio). وليس من العبث أن نبحث أي هذه الأسماء الثلاثة كان يعتبر الاسم الحقيقي. لم يكن بوبليوس سوى اسم وضع في المقدمة praenomen، وسقيبيو اسم مضاف cognomen، والاسم الحقيقي nomen هو قورنيليوس. وهذا الاسم هو في نفس الوقت اسم العصبة gens بأكملها. ولو لم يكن لدينا غير هذا البيان الوحيد عن العصبة العتيقة لكان كافياً لكي نؤكد أنه كان هناك أشخاص باسم قورنيليوس قبل أن يوجد أشخاص اسمهم سقيبيو، وليس كما يقال أحياناً أن أسرة سقيبيو انضمت لأسرات أخرى لكي تكون العصبة قورنيليا.

والواقع أننا نرى من التاريخ أن العصبة قورنيليا ظلت زمناً طويلاً غير مقسمة وأن كل أعضائها كانوا يحملون اللقب (cognomen) مالوجينيس (Maluginensis) واللقب قوسوس (Cossos). وفي عصر الدكتاتور كاميلوس Camille فقط اتخذ أحد فروعها لقب سقيبيو، وبعد ذلك بقليل اتخذ فرع آخر لقب روفوس (Rufus) الذي استبدل به

في بعد لقب سيلا Sylla وقد يظهر لنتولوس (Lentulus) إلا في زمن الحروب السامنية وآل كيثيجوس (Cethegus) إلا في الحرب البونية الثانية وكذلك كان الحال في العصبية كلوديا فظل آل كلوديوس متحدين زمناً طويلا في أسرة واحدة ويحملون جميعاً لقب سابينوس Sabinus أو ريجيلنسيس (Regillensis) علامة على أصلهم. ويمكن أن نتتبعهم خلال سبعة أجيال دون أن نلمس فروعاً في هذه الأسرة الكبيرة العدد ولكننا في الجيل الثامن فقط، أي في عصر الحرب البونية الأولى، نرى ثلاثة فروع ينفصل بعضها عن بعضها وتتخذ ثلاثة ألقاب تصبح وراثية فيها أولئك هم آل كلوديوس بولخر (Claudius Pulcher) الذين استمروا خلال قرنين من الزمان، وآل كلوديوس كنتو (Claudius Centho) الذين لم يلبثوا أن انقرضوا. وآل كلوديوس نيرو (Claudius Nero) الذين استمروا إلى زمن الإمبراطورية.

يتبين من كل هذا أن العصبية لم تكن تجمع أسرات بل كانت هي الأسرة ذاتها وكان في استطاعتها على السواء ألا تحوي غير سلسلة نسب واحدة أو أن تجمع عدة فروع فما هي إلا أسرة واحدة على الدوام.

هذا ومن السهل أن نتبين تكوين العصبية العتيقة وطبيعتها إذا ما رجعنا إلى العقائد القديمة والأنظمة القديمة التي لاحظناها أعلاه بل إن الإنسان ليعترف أن العصبية مشتقة اشتقاقاً طبيعياً من الديانة المنزلية ومن القانون الخاص في الأزمنة القديمة وقد سبق وعرفنا تقرير هذه الديانة تمجيد السلف، أي الرجل الذي كان أول من دفن في القبر، مجيداً أبدياً كربه. واجتماع الذرية كل عام بجوار المكان المقدس الذي يرقد فيه ليقدموا له الأكلة الجنازية. هذا الموقد المشتعل على الدوام، هذا القبر الذي يمجد دواماً بالعبادة. ذلك هو المركز الذي تأتي جميع الأجيال لتعيش حوله والذي به تبقى كل فروع الأسرة، مهما كان عددها، مجتمعة في شرذمة واحدة ثم إذا نظرنا إلى القانون الخاص في تلك العصور القديمة رأينا، فيما عن ملاحظة ما كانت عليه السلطة في الأسرة القديمة، أن الابن لم يكن ينفصل عن الوالد. ولاحظنا، عند دراسة قواعد التوارث

الميراث . أن الإخوة الصغار لم يكونوا ينفصلون عن الأخ الأكبر ففصل مبدأ المشتركة في الملك فالموقد والقبر والميراث . كل ذلك كان غير قابل للقسمة في الأصل . وكذلك كانت الأسرة بالتبعية ، لم يكن لزمن ليفرقها . تلك الأسرة غير القابلة للقسمة ، والتي كانت تمتد على مدى العصور محتفظة بعبادتها واسمها من قرن إلى قرن . تلك هي العصبة العتيقة كانت العصبة هي الأسرة ، لكنها الأسرة التي احتفظت بالوحدة التي تأمرها بها ديانتها ، والتي بلغت كل كل التطور الذي سمح له القانون الخاص القديم بالوقوع (١)

إذا ما فهمت هذه الحقيقة فإن كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن العصبة يصبح واضحاً . ولن يكون في ذلك التضامن الوثيق الذي لاحظناه بين أعضائها من غرابة ما يدعو إلى العجب فهم أقرباء من حيث المولد ، والعبادة التي

(١) لا حاجة إلى العودة إلى ما قلناه أعلاه (الكتاب الثاني فصل الخامس) عن العصبة (agnatio) ونستطيع أن نرى أن العصوبة والعضوية للعصبة (gentilitas) تصدران عن نفس المبدأ ، وهو قرابة من نفس النسب ، والعبرة من [illegible] الوصايا الإثني عشرة التي تمنح الميراث من نصيب أعضاء العصبة عند انعدام العصبة قد حيرت الفقهاء ومعلقيهم يظنون أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذين النوعين من القرابة ولكن هذا الفارق لا نرى في أي نص مكان . لا [illegible] (agnatus) كما [illegible] عضو في العصبة (gentilis) عن طريق القرابة الذكرية والروابط الدينية ولم يكن بين الاثنين فارق إلا في الدرجة وقد أصبح [illegible] الأعضاء [illegible] الأسرة التي انفصلت عن فروع العصبة الواحدة بعضها عن بعض . [illegible] العاصب عضواً في الفرع وعضو العصبة عضو في العصبة وعندئذ نفرق بين مصطلحي عضو العصبة و [illegible] الذي كان بين العصبة (gens) والأسرة (familia) . يقول أولبيانوس (أولبيانوس ، في [illegible] . الكتاب [illegible] الفقرة ١٩٥) : [illegible] familiam dicimus omnium agnatorum [illegible] [illegible] أو أن يكون عضو عصبة [illegible] أن يكون [illegible] من غير أن يكون عاصباً . و [illegible] الوصايا الإثني عشرة يعطي الإرث عند عدم العصبة إلى من لم يكونوا إلا أعضاء عصبة [illegible] أي لأولئك الذين كانوا من نفس العصبة التي [illegible] دون أن يكونوا من فرعه أو أسرته . [illegible] في [illegible] العصبة [illegible] . من هنا [illegible] رابطة قانونية بين العصبة وبين [illegible] . وهذه الرابطة [illegible] gentilitas [illegible] يفسرون مثلاً (الخطيب ، [illegible]) jus gentilitatis على [illegible] بين العصبة [illegible] وبذلك دل [illegible] على شيء [illegible] ألا [illegible]

يشتركون في القيام بنفس حفلاً بل أتت إليهم من أسلافهم . وفي أنهم من أسرة واحدة فلهم قبر مدفناً مشتركاً . ولنفس السبب يعلن قانون الألواح الاثنى عشرة أنهم أهل لأن يتوارثوا فيما بينهم . ومع أنه كان لهم جميعاً في الأصل ميراث واحد غير قابل للقسمة فقد كانت العادة بل الضرورة تقضي أن تكفل العصبية بأكملها دين أي واحد من أعضائها وأن تدفع فدية الأسير أو غرامة المحكوم عليه . كل هذه القواعد قد قامت من تلقاء نفسها عندما كانت العصبية لا تزال محتفظة بوحدتها فلما تفرقت العصبية لم تستطع هذه القواعد أن تختفي تماماً وقد بقيت من هذه الوحدة العتيقة المقدسة بين أفراد هذه الأسرة سمات لا تزول ، في القربان السنوي الذي كان يجمع أعضاءها المشتتين ، وفي التشريع الذي كان يعترف لهم بحق الإرث ، وفي الأخلاق التي كانت توصيهم بالتعاون فيما بينهم .

كان من الطبيعي أن يتسمى أعضاء العصبة الواحدة بنفس الاسم وهو أيضاً ما حدث فاستعمال الاسم الأبوي للأسرة يرجع إلى هذه الفترة السحيقة ويرتبط بشكل ظاهر بهذه الديانة القديمة . فكانت كل عصبية تتداول اسم السلف من جيل إلى جيل وتبقي عليه بنفس العناية التي تبقي بها على عبادته . فما يسميه الرومان nomen، أي الاسم بالمعنى الصحيح ، هو اسم السلف الذي كان على كل الذرية وعلى كل أعضاء العصبية أن يتسموا به . ثم جاء يوم استقل فيه كل فرع من بعض النواحي وميَّز فرديته باتخاذه لقباً cognomen . هذا وما كان على كل شخص أن يتميز بتسمية خاصة فقد أصبح لكل واحد اسمه المضاف cognomen مثل غايوس (Caius) وكوينتوس (Quintus) . لكن الاسم الحقيقي هو اسم العصبة . وهو الذي كانوا يتسمون به بصفة رسمية . وهذا الاسم كان مقدساً . وهو الذي كان يرتقي إلى أول سلف معروف ولذا كان لا بد أن يبقى ما بقيت الأسرة وآلهتها . وكذلك كانت الحال في بلاد الإغريق فالرومان والإغريق متشابهون في هذه النقطة أيضاً . فقد كان لكل إغريقي ، على الأقل إذا انتمى إلى أسرة قديمة وذات نشأة منتظمة ، ثلاثة أسماء ، مثله في هذا مثل البطريق في روما كان أحد هذه الأسماء خاصاً به . والآخر اسم أبيه . ومع أن هذين الاسمين

كانا يتحملان عادة في بعض الأحيان مجموع (أي كانا يكونان) اللقب (cognomen) الوراثي الذي كان يطلق في روما على أحد فروع العصبة ، وأخيراً الاسم الثالث وهو اسم العصبة بأكملها . وبذلك كانوا يقولون كيمون بن ملتيادس اللاكيادي *Κιμών Μιλτιάδου Λακιάδης* وكان اللاكياديون يؤلفون عصبة *γένος* كما كان الكورنيليون يؤلفون عصبة *gens* . وكذلك كان البوتيون **Butades** والفيليون **Phylacides** والبريتيون **Brytides** والأميناندريون **Amynandrides** وهلم جرا . ويمكن ملاحظة أن پندروس لا يفتأ يذكر اسم العصبة التي ينتمون إليها . وكان ينتهي هذا الاسم في العادة عند الإغريق بالمقطع *ιδης* و *αδης* وبذلك كانت بصيغة الجمع . وكذلك كان اسم العصبة عند الرومان ينتهي بالمقطع ius على الدوام . ولا يمنع هذا من أنه كان الاسم الحقيقي . في اللغة اليومية كان يمكن أن يشار إلى شخص باسمه الفردي ولكن في اللغة الرسمية السياسية ، أو الدينية ، كان لا بد من إعطاء الشخص تسمية كاملة وبنحو على الأخص ، ألا ينسى اسم العصبة *γένος* (١) . ومما هو جدير بالملاحظة أن تاريخ الأسماء عند القدماء قد سلك مسلكاً يختلف اختلافاً كبيراً عن مسلكه في المجتمعات المسيحية كان الاسم الحقيقي في القرون الوسطى لغاية القرن الثاني عشر هو اسم المعمودية أو الاسم الفردي ولم تأت أسماء العائلات إلا فيما بعد بعصرها أسماء أرض أو ألقاب . ولقد كان الأمر على العكس تماماً عند القدماء . وهذا الاختلاف إذا ما تنبهنا إليه يعود إلى اختلاف الديانتين . ففي عصر الديانة لمربية القديمة كانت الأسرة هي الهيئة الحقيقية والكائن الحقيقي الذي لم يكن الفرد إلا عضواً منه لا يمكن انفصاله . لذا كان اسم الأسرة هو الأول من حيث التاريخ والأول من حيث الأهمية . وعلى العكس كانت الديانة الجديدة تعترف للفرد بحياة خاصة وحرية تامة واستقلال شخصي محض ولم تكن تستنكف قط من عزله عن الأسرة لذلك كان اسم المعمودية هو الاسم الأول وبقي الاسم الوحيد زمناً مديداً .

---

(١) هذا إن حكم العامة (الديموقراطية) قد أحل اسم الحي محل اسم العصبة *γένος* وقد كان ذلك نوعاً من التعديل للقاعدة العتيقة والاستحواذ عليها .

٤ – امتداد الأسرة : الرق والولاء

إن ما رأيناه من الأسرة ، ومن ديانتها المنزلية ، ومن الآلهة الذين اصطنعتهم ومن القوانين التي منحتهم لنفسها ، وحق البكورة الذي قامت على أساسه ، ووحدتها ، وتطورها من عصر إلى عصر إلى أن كونت العشيرة gens ، وقضائها ، وكهونتها وحكومتها الداخلية ، كل ذلك يوجه أذهاننا بالرغم منا ، نحو فترة أولى كانت الأسرة فيها مستقلة عن كل سلطة عليا ولم تكن المدينة قد وجدت فيها.

فلنتأمل هذه الديانة المنزلية ، هذه الآلهة التي لم تكن تنتمي إلا لأسرة واحدة ولم تكن تقوم بدور العناية الإلهية إلا في داخل منزل ، وهذه العبادة التي كانت سرية ، هذه الديانة التي لم تكن ترغب في الانتشار ، وهذه الأخلاق العتيقة التي كانت تفرض عزلة الأسرات : إنه من الجلي أن عقائد من هذا القبيل لا يمكن أن تنشأ في أذهان الناس إلا في فترة لم تكن المجتمعات الكبيرة قد تكونت فيها بعد. وإذا كانت العاطفة الدينية قد قنعت فيها بتصور للإلهيات بمثل هذا المبلغ من الضيق فما ذلك إلا لأن المجتمع الإنساني كان عندئذ متناسباً معها في الضيق. فالزمن الذي لم يكن الإنسان يعتقد فيه إلا في الآلهة المنزليين هو أيضاً الزمن الذي لم تكن توجد فيه غير الأسرات. ومن الحق لبيّن أن هذه العقائد كانت تستطيع أن تبقى بعد أن تكونت المدن والأمم . ولزمن مديد ، لأن الإنسان لا يتحرر بسهولة من الآراء التي تسلطت عليه يوماً من الأيام . وإذن فقد استطاعت هذه العقائد أن تستمر ولو أنها كانت عندئذ مناقضة للحالة الاجتماعية وفي الواقع ، أي شيء أكثر تناقضاً من أن يعيش الناس في مجتمع مدني بينما لكل أسرة آلهتها الخاصة ؟ إلا إنه من الواضح أن هذا التناقض لم يكن موجوداً على الدوام وإن هذه العقائد كانت تطابق حالة الناس الاجتماعية مطابقة دقيقة في الوقت الذي استقرت فيه في الأذهان وبلغت فيه من القوة ما يجعلها ديانة . هذه والحالة الاجتماعية الوحيدة التي يمكن أن تتفق معها هي تلك التي كانت تعيش فيها الأسرة مستقلة منعزلة .

هذه هي الحال التي يكون الجنس الآري قد عاش فيها زمناً طويلاً. تشهد بذلك أناشيد الفيدا فيما يختص بالفرع الذي أنتج الهنود، وتشهد به العقائد القديمة والقانون الخاص القديم عند أولئك الذين أصبحوا فيما بعد الإغريق والرومان.

إذا قارنا الأنظمة السياسية للآريين الشرقيين مع أنظمة الآريين الغربيين فإننا لا نكاد نجد أي تشابه. أما إذا قارنا الأنظمة المنزلية لهذه الشعوب المختلفة فإننا نرى أن الأسرة كانت مكونة وفقاً لنفس المبادئ في بلاد الإغريق وفي الهند على السواء. هذا وقد كانت هذه المبادئ، كما لاحظنا أعلاه، فريدة في طبيعتها بحيث لا نستطيع الظن بأن هذه المشابهة كانت وليدة المصادفة. وأخيراً لا تقتصر الحالة على تشابه هذه الأنظمة فحسب بل يجب أن تكون الألفاظ التي تدل عليها هي نفسها في اللغات المختلفة التي كان يتكلمها هذا الجنس من نهر الكانج إلى نهر التيبر. ويمكن أن نستخلص من ذلك خلاصتين: إحداهما أن نشأة الأنظمة المنزلية في هذا الجنس كانت سابقة على العهد الذي انفصلت فيه فروعه المختلفة، والأخرى أن نشأة الأنظمة السياسية كانت على العكس متأخرة عن هذا الانفصال. فقد حددت الأولى منذ الزمن الذي كان الجنس لا يزال يعيش فيه في مهده القديم في آسيا الوسطى، وتكونت الثانية رويداً رويداً في الأقاليم المختلفة التي هاجر إليها.

يمكن إذن أن نرى أن فترة طويلة لم يعرف الناس فيها أي نظام للمجتمع غير الأسرة. وفي ذلك الوقت نشأت الديانة المنزلية التي لم يكن في الاستطاعة أن توجد في مجتمع قائم على نظام آخر، بل التي لا بد أنها كانت عقبة في طريق التطور الاجتماعي زمناً طويلاً. وفي ذلك الوقت أيضاً تكوّن القانون الخاص القديم الذي وجد نفسه فيما بعد غير متفق مع مصالح مجتمع على شيء من السعة لكنه كان منسجماً كل الانسجام مع الحالة الاجتماعية التي ولد فيها.

لنضع أنفسنا فكرياً وسط هذه الأجيال العتيقة التي لم تستطع ذكراها أن تبيد إبادة تامة، وتركت التي خلفتها عقائدها وقوانينها للأجيال القادمة. كان لكل أسرة ديانتها وآلهتها وكهنوتها. وكانت عزلة الديانة قانونها. وكانت

عدة أسرية. لم تكن الأسرات يختلط بعضها ببعض حتى في الموت أو في الوجود الذي يعقب الموت. كانت كل من تلك الأسر تعيش على حدة في قبرها الذي يمضي عنه الأحياء. وكان لكل أسرة منزلها أي نصيبها من الأرض الذي يربطها به دينها ارتباطاً لا انفصام له. وآلهة التخوم (Termes) تحرس سوره، وأرواحها تسهر عليه. وكان عزل مسكنيه مرامياً إلى حد أنه لم يكن في الإمكان أن يكون للمسكنين حدود مشتركة بل يجب أن يترك بينهما نطاق من الأرض يكون محايداً ويبقى معصوماً من الاعتداء. وأخيراً كان لكل أسرة رئيسها كما يكون للأمة ملكها. ولها قوانينها التي لا ريب في أنها لم تكن مكتوبة لكن العقيدة الدينية كانت تنقشها في قلب كل رجل. ولها قضاؤها الداخلي الذي ليس فوقه قضاء يمكن الاستئناف أمامه. كانت الأسرة تملك في ذاتها كل ما يحتاج إليه الإنسان حتماً لحياته المادية أو لحياته المعنوية فلا حاجة بها لشيء من الخارج. هي دولة منظمة ومجتمع يكفي نفسه.

لكن أسرة العصور الغابرة هذه لم تكن محدودة بالسعة التي عليها الأسرة الحديثة. فإن الأسرة تنمو وتصغر في المجتمعات الكبيرة. لكنها، عند انعدام أية جماعة أخرى، تمتد وتتطور وتتفرع دون أن تنقسم. ويبقى الكثير من الفروع الصغرى مجتمعاً حول الفرع الأكبر بالقرب من الموقد الواحد والقبر المشترك.

وهناك عنصر آخر يدخل أيضاً في تكوين هذه الأسرة العتيقة. فإن الحاجة المتبادلة، حاجة الفقير للغني وحاجة الغني للفقير قد خلقت الخدم. ويكون الخدم والعبيد، في هذا النوع من الأنظمة الأبوية، سيان. وإن الإنسان يدرك، في الحقيقة، أن مبدأ الخدمة الحرة المبنية على الرضاء والتي تستطيع أن تنقطع عن هوى الخادم لا يمكن أن تتفق مع حالة اجتماعية تعيش فيها الأسرة منعزلة. فضلا عن أن الديانة المنزلية لا تسمح بقبول أجنبي في الأسرة. فلا بد إذن من أن يصبح الخادم بطريقة ما عضواً في هذه الأسرة متمماً للأسرة. وهو ما يمكن الوصول إليه بنوع من تلقين العبادة المنزلية للوافد الجديد.

وقد بقيت عادة غريبة دامت زمناً طويلاً في البيوت الأثينية كيف كان يلحق العبد في الأسرة. كانوا يجعلونه يقترب من الموقد. ويضعونه في حضرة المعبود

المنزل ، ويسكبون ماء النار على رأسه . ويقتسم مع الأسرة بعض الكعك والفواكه (١) . وفي هذا الاحتفال ما يشبه حفلات الزواج أو احتفال التبني ولا ريب أنه كان يعني أن الوافد الجديد الذي كان غريباً بالأمس قد أصبح من الآن عضواً في الأسرة ومتديناً بديانتها . لذلك كان العبد يشهد الأدعية ويشترك في الأعياد (٢) . فالموقد يحميه وديانة الآلهة اللارس أصبحت له كما هي لسيده (٣) . ولهذا كان من الواجب دفن العبد في مدفن الأسرة

لكن بمجرد حصول الخادم على العبادة والحق في الدعاء كان يفقد حريته فقد كانت الديانة غلاً يقيده . وكان يرتبط بالأسرة طول حياته وحتى على مدى الزمن الذي يتلو الموت .

كان في استطاعة سيده أن يخرجه من الخدمة الوضيعة ويعامله كرجل حر لكن الخادم لم يكن ليترك الأسرة لذلك . ولما لم يكن في مقدوره ما دام مرتبطاً بها برباط العبادة أن ينفصل عنها دون أن يرتكب إثماً فقد كان يستمر ، تحت اسم العتيق أو المولى ، في الاعتراف بسلطة الرئيس أو ... ولا تنقطع التزاماته نحوه ، فإنه لا يتزوج إلا بموافقة السيد ، والأطفال الذين

(١) ديموستينيس ، قصة ... ج ١ ، ٧٤ . وأرسطوفانس ، بلوتوس Plutus ، ٧٦٨ ، يشير هذان الكاتبان إشارة جلية إلى احتفال ما لكنهما لا يصفانه . ويضيف شارح أرسطوفانس بعض تفاصيل . انظر واسخيلوس كيف يستقبل كليتمنسترا (Clytemnestre) أمة جديدة : « ادخلي هنا المنزل ما دام زيوس يريد أن تشتركي في إراقة ماء ... مع عبيد الآخرين بجوار موقدي » (اسخيلوس : أغاممنون ١٠٣٥ - ١٠٣٨).

(٢) . أرسطو . سياسة ... . أنه يجب القيام بالقرابين والأعياد للعبيد ... Ferias in famulis habento ، القوانين ٢ ، ٨ ... و ... يجعل العبيد يعملون في أيام الأعياد (شيشرون ، القوانين ٢ ، ١٢) .

(٣) شيشرون ، القوانين ٢ ، ١١ ، Neque ea, quae a majoribus prodita est cum dominis tum famulis religio Larum, repudianda est بل كان في استطاعة العبد أن يقوم بالعبادة الدينية باسم سيده (كاتون ، الزراعة ٨٣) .

يولدون فيه يستمرون في الطاعة (١).

وهكذا كان يتكون في باطن الأسرة الكبيرة عدد معين من الأسرات الصغيرة الموالية أو التابعة. وكان الرومان ينسبون نظام الولاء إلى رومولوس كما لو كان في الإمكان أن يكون نظام من هذا القبيل من عمل رجل واحد. نظام الولاء أقدم من رومولوس، فضلاً عن أنه كان موجوداً في كل مكان في بلاد الإغريق وفي إيطاليا أيضاً (٢). وليست المدن هي التي أقامته ونظمته بل على العكس سنرى فيما بعد أنها انقصته شيئاً فشيئاً ودمرته. فإن نظام الولاء من أنظمة القانون المنزلي، وقد وجد في الأسرات قبل أن توجد المدن.

يجب ألا نحكم على نظام الولاء في الأزمنة القديمة من خلال الموالي الذين نراهم في زمن هوراسيوس. من الواضح أنه أتى على المولى دهر طويل كان فيه خادماً ملحقاً بالولي. لكن كان هناك شيء عديدة تحفظ له كرامته. فقد كان له نصيب في العبادة، وكان مشتركاً في ديانة الأسرة. كان له نصيب في الموقد ونصيب في الأعياد ونصيب في الأشياء المقدسة sacra التي كانت لوليه. وفي روما كان يتخذ اسم الأسرة علامة على هذه المشاركة الدينية. فكان يعتبر عضواً فيها عن طريق التبني. ومن هنا رباط وثيق وتبادل في الواجبات بين الولي والمولى. أصغوا إلى القانون الروماني القديم: إذا أخل الولي أدنى إخلال بمولاه فعليه اللعنة (sacer esto

(١) عن الترتيبات المتعلقة في القانون الروماني انظر Digeste, XXXVII, 14, *De jure patronatus*, XII, 15 *De obsequiis parentibus et patronis praestandis*, XIII, 1, *De operis libertorum*. كان التشريع الإغريقي فيما يختص بالعتق والولاء أكثر تبكيراً في التبدل من التشريع الروماني. لذلك لم يبق لنا إلا القليل جداً من النصوص عن حالته القديمة. فهذه الطبقات من أساس ديني. انظر ليسياس Lysias في هاربوكراسيون (Harpocration) تحت كلمة *Ἀποστασίου*، وكريسيبوس (Chrysippe) في أثينايوس (Athénée) ٦، ٩٣؛ وفقرة غريبة في أفلاطون: القوانين ١١ ص ٩١٥. يتبين من ذلك أنه كان على المعتق دائماً واجبات نحو سيده السابق.

(٢) عن الولاء عند السابينيين انظر تيتوس ليفيوس ٢، ١٦؛ ديونيسيوس ٥، ٤٠. وعند الأتروسك: ديونيسيوس ٩، ٥. وعند الإغريق *Ἔθος ἑλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον* ديونيسيوس ٢، ٩).

وليت» (١) كان على الولى أن يحمى مولاه بكل الوسائل وكل القوى التى تحت تصرفه بدعته كحاكم، وبرمحه كمحارب، وبقانونه كقاص. وفيما بعد عندما أصبح قضاء المدينة يستدعى المولى أمامه كان على الولى أن يدافع عنه. كان عليه أن يكشف له عن صيغ القانون الخفية التى تجعله يكسب قضيته (٢) كان فى استطاعة المرء أن يشهد أمام القضاء على قريبه عن طريق الدم (cognatus) لكنه لا يستطيع ذلك مع المولى (٣) وقد استمروا بعد ذلك يعتبرون الواجبات نحو المولى أعلى بكثير من الواجبات نحو أقارب الدم (٤) لماذا؟ ذلك لأن قريب الدم كان مرتبطاً عن طريق النساء فقط فلم يكن قريباً ولم يكن له نصيب فى ديانة الأسرة. والمولى على العكس من ذلك، كانت له مشاركة فى العبادة فكان على الرغم من كل صفته صاحب القرابة الحقيقية التى تتكون حسب تعبير أفلاطون من عبادة نفس الآلهة المنزلية.

الولاء رباط مقدس كونته الديانة وما من شىء يستطيع أن يفصمه. وبمجرد ما يصير المرء مولى للأسرة فإنه لا يستطيع أن يخلص نفسه منه لأن ولاء تلك الأزمنة الأولى لم يكن صلة اختيارية وعابرة بين رجلين، بل صلة وراثية فالإنسان مولى بحكم الواجب من أب إلى ابن (٥)

(١) قانون الألواح الإثنى عشر، انظر سرفيوس ad Aen. VI, 609 انظر فرجيليوس Aut fraus innexa clienti. عن واجبات الأولى، انظر ديونيسيوس ٢:

(٢) Clienti promere jura هوراسيوس رسائل ٢، ١، ١٠٤، شيشرون الخطيب ٣ : ٣٣

(٣) Caton dans Aulu-Gelle, V, 3; XXI, 1. *Adversus cognatos pro cliente testatur; testimonium adversus clientem nemo dicit.*

(٤) Aulu-Gelle, XX, 1. *clientem tuendum esse contra cognatos*

(٥) فى رأينا أن هذه الحقيقة تبرز بروزاً تاماً من روايتين عند بلوتارخ: إحداهما تقصها بلوتارخوس والأخرى تقصها شيشرون عندما دعى هرينيوس C. Herennius ليشهد ضد ماريوس احتج بأنه مناقض للقواعد العتيقة أن يشهد الولى على مولاه. ولما ظهرت عليهم الدهشة بوصفه ماريوس مولى وهو الذى كان فيما مضى عريفاً للشعب (tribun) أضاف بأن الحقيقة أن ماريوس وأسرته كانت منذ أقدم الأزمنة موالى

نرى من كل ذلك أنه كان فى استطاعة الأسرة ، فى أقدم الأزمنة ، بفرعها الأكبر وفروعها الصغرى وخدمها ومواليها ، أن تكون مجموعة من الرجال كثيرى العدد . وعلى مر الزمن ، كانت تصل الأسرة إلى تكوين جماعة على جانب كبير من الاتساع ولها رئيسها الوراثى ، وذلك بفضل ديانتها التى كانت تحفظ وحدتها وبفضل قانونها الخاص الذى جعلها غير قابلة للقسمة وبفضل قوانين الولاء التى تمسك عملاءها . ويبدو أن الجنس الآرى كان يتكون ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، من عدد لا حد له من جماعات من هذا القبيل . وهذه الآلاف من المجموعات الصغيرة كانت تعيش منعزلة لا يربط بعضها ببعض إلا القليل من الصلات ، وليس بعضها أبداً فى حاجة إلى البعض الآخر إذ لا يربط بينها أى رابطة دينى أو سياسى ، ولكل منها ملكها وحكومتها الداخلية وآلهتها

لأسرة هرينيوس . وقد نبق القضاء بعد ، لكن ماريوس الذى لم يكن ينوى أن يتنزل إلى هذا الوضع أجاب أنه قد تحرر من الولاء منذ اليوم الذى انتخب فيه لأحد المناصب ؛ ويضيف بلوتارك أن ذلك لم يكن صحيحاً بالمرة فليس كل منصب يحرر من عبء الولاء وليس هناك غير المناصب الدولية magistratures curules التى لها هذه الميزة . (بلوتارخوس : حياة ماريوس ٥) . فكان الولاء إذن ، فيما عدا هذا الاستثناء الوحيد ، إجبارياً ووراثياً ؛ نسى ماريوس ذلك ، لكن آل هرينيوس كانوا يتذكرون .

يذكر سويتون قضية تقاضى فيها فى وقت ما آل كلوديوس وآل ماركيلوس Marcellus ، اعتمد الأولون على الشرع لعدم وادعوا باعتبارهم رؤساء للعصبية كلوديا (gens Claudia أن آل ماركيلوس كانوا موالى لهم ، ولا جدوى من أن هؤلاء كانوا منذ قرون فى الصف الأول فى الدولة . فقد انتصر آل كلوديوس فى الدفاع بأن رابطة الولاء لا يمكن أن تكون قد انفصمت . — يسمح لنا هذان الحدثان اللذان قدمناهما من النسيان بأن نحكم على ما كان عليه الولاء فى العصور الأولى .



الكتاب الثالث

المدينة



الفصل الأول

الأخوية (Phratrie) والندوة (Curie) القبيلة (Tribu)

لم نقدم للآن أي تاريخ ولا نزال عاجزين عن تقديم أي تاريخ . فإنه أيسر لنا في تاريخ هذه المجتمعات العتيقة أن نسم تطور توالي الآراء والأنظمة من أن نسمها بتوالي السنين

لقد جعلتنا دراسة القواعد القديمة في القانون الخاص نستشف ما وراء الأزمنة التي نسميها تاريخية ، فترة من قرون كانت فيها الأسرة هي الصورة الوحيدة للمجتمع ، وعندئذ كانت تستطيع الأسرة أن تضم في نطاقها الواسع عدة آلاف من سكانات البشرية . لكن الجماعة البشرية في هذه الحدود كانت لا تزال مفرطة في الضيق ، مفرطة في الضيق بالنسبة للحاجات المادية إذ كان من العسير على هذه الأسرة أن تكون تكفي نفسها في مواجهة كل فرص الحياة ، مفرطة في الضيق بالنسبة للحاجات المعنوية التي تتطلبها طبيعتنا فقد رأينا كم كان إدراك الإلهيات في هذا العالم الصغير غير كاف وكم كانت الأخلاق غير كاملة

وصغر هذا الدين البدائي كان يتمشى مع ضآلة الفكرة التي كونوها لأنفسهم عن المعبود ، فكان لكل أسرة آلهة ولم يكن الإنسان ليتصور أو ليعبد إلا آلهة منزلية ، لكنه لم يكن ليقنع زمناً طويلاً بهذه الآلهة التي هي دون ما يستطيع أن يصل إليه إدراكه بكثير . وإذا كان لا بد له من قرون كثيرة أخرى لكي يصل إلى تصور الله ذاتاً واحدة لا كفء لها ولا نهاية فقد كان عليه أن يقترب من هذا المثل الأعلى اقتراباً غير محسوس في تدرجه ، وذلك بتوسيع إدراكه من عصر إلى عصر وإبعاده تدريجياً للأفق الذي يفصل حده

في معزة ما بين لذات الآلهة وأشياء هذه الحياة الدنيا.

وإذن فقد كانت الفكرة الدينية والجماعة البشرية تكبر في وقت واحد.

كانت الديانة المنزلية تحرم أن تختلط أسرتان وأن تمتزجا معاً. ولكن كان من الجائز أن تجتمع عدة أسرات، دون أن تضحي بدياناتها الخاصة، لكي تحتفل على الأقل بعبادة أخرى مشتركة فيما بينها وهذا هو ما حدث. فقد كوّن عدد معين من الأسرات مجموعة تسميها اللغة الإغريقية أخوية phratrie واللغة اللاتينية ندوة curie (١) فهل كانت هناك صلة مولد بين الأسرات التي تنتمي لنفس المجموعة؟ من المستحيل أن نؤكد ذلك. أما الموثوق به فهو أن هذا التجمع الجديد لم يتم إلا بتوسيع الفكرة الدينية إلى حد ما. ففي اللحظة التي اتحدت فيها هذه الأسرات تصورت معبوداً أعلى من معبوداتها المنزلية ومشتركاً فيما بينها جميعاً ويسهر على المجموع بأكمله، وأقاموا له مذبحاً. وأوقدوا ناراً مقدسة. ونظموا

(١) هذا النص في شأن الأخوية نص يوضح في قطعة غريبة من ديكئارخوس (Dicéarque dans Fragm. hist. gr. ed. Didot t. II p. 238) فبعد أن يتكلم عن عبادة الأسرة التي لم يكن يصل من أسرة لأخرى حتى بالزواج أضاف:
Ἑτέρα τις ἐτέθη ἱερῶν κοινωνικὴ σύνοδος ἣν φρατρίαν ὠνόμαζον
ويشار إلى الأخوية في هوميروس باعتبارها نظاماً سائداً عند الإغريق، الإلياذة ٢، ٣٦٢:
Κρῖν᾽ ἄνδρας κατὰ φῦλα κατὰ φρήτρας, Ἀγαμέμνον ὡς
φρήτρη φρήτρηφιν ἀρήγῃ, φῦλα δὲ φύλοις
بويدوكس ٣: ٥٢ Φρατρίαι ... ديموستين ضد ماكارتاتوس ١٤
... ἦσαν ὠνομασμέναι καὶ ἐν ἑκάστῃ γένη τριάκοντα
إيسايوس: ميراث منوكليون ١... كانت هناك أخويات في أثينا وفي ... بنداروس البرزيات (Isthm) ٦، ٨، وفي كورنثة (شرحه) الأولمبيات ١٣، ١٢٧) وتساليا (شرحه البرزيات ٤: ٨٥) وفي نيابوليس (استرابون: ٥ ص ٢٤٦) وفي اقريطيس (كريت) (Boeckh, Corp. inscr. n. 2555)
ويظن بعض المؤرخين أن ... الأخويات في أثينا كان المفضان أخوية وقد يعتبران مترادفين ويترجم ديونيسوس الهاليكارناسي (٢: ٨٥) وديون كاسيوس (القطعة ١٤) الواحد بالآخر.

عادة (١)

لم تكن هناك ندوة ولا أخوية إلا وكان لها مذبحها وإلهها الحارس لها. وكانت الأعمال الدينية فيها من نفس طبيعة الأعمال الدينية في الأسرة وتتكون في جوهرها من أكلة مشتركة. وكان الغذاء يحضر على المذبح ذاته ولذا كان مقدساً وكانوا يأكلونه وهم يتلون بعض الأدعية وكان المعبود حاضراً يتلقى نصيبه من الأغذية والأشربة (٢)

بقيت أكلات الندوة الدينية مدة طويلة في روما فقد ذكرها سيسرون ووصفها أوفيديوس (٣) وفي عصر أغسطس كانت لا تزال تحتفظ بكل أشكالها العتيقة. يقول مؤرخ من ذلك العصر رأيت في هذه الأماكن المقدسة الغذاء وهو يوضع أمام الإله. كانت الموائد من خشب حسب عادة الأسلاف والآنية من الفخار. وكانت الأغذية خبز وكعكاً و[illegible] وبعض فاكهة ورأيتهم يريقون السوائل ولم تكن من أقداح من الذهب أو الفضة بل من أوان من الفخار. وقد أعجبت بأهل هذه الأيام الذين ظلوا مخلصين إلى هذا الحد لشعائر آبائهم وعاداتهم (٤) وأثيناً في أيام الأعياد مثل الأباتوريا (Apaturies) والثارغيليا (Thargelies). كانت كل أخوية تجتمع حول مذبحها، وتذبح ضحية وتطهى على النار ويوزع لحمها على جميع أعضاء

(١) يذكر ديموستينيس (نقلاً عن بولوكس ٤ [illegible] واستيفانوس البيزنطي [illegible]) مذبح الأخوية والضحية التي تذبح عليه. ويذكر كراتينوس (Cratinus في أثينايوس [illegible] ص ٤٩٠) على الإله الذي يرعى الأخوية Ζεὺς φράτριος. بولوكس [illegible] θεοὶ φράτριοι. Τὸ ἱερὸν [illegible] φράτορες, φρατρίαν ἐκαλεῖτο [illegible] τοῖς φράτορσι.

(٢) φρατριακὰ δεῖπνα أثينايوس [illegible] Curiales mensae ديونيسيوس ص ٦٤)

(٣) سيسرون خطب [illegible] Dies curiae [illegible] أوفيديوس الأعياد ٦، ٥، ٣. ديونيسيوس ٢ : ٦٥

(٤) ديونيسيوس ٢ : ٢٣ مهما يكن قد أدخل بعض تغييرات. ولم تعد أكلات الندوة سوى حفلات [illegible] للكهنة [illegible] يحضروا [illegible] الأدعية [illegible] المشتركة.
Plaute, *Aululaire* v. 69 et 137

الأخوية . وكانوا يحرصون حرصاً كبيراً على ألا يدخلوا أى أجنبى فيها (١)

هنالك عادات دامت حتى الأزمنة المتأخرة من التاريخ الإغريقى وتلقى شعاعاً على طبيعة الأخوية القديمة . ومنها نرى أنه لكى يكون الإنسان عضواً فى أخوية فى عصر ديموستينيس ، كان لا بد أن يكون مولوداً من زواج شرعى فى إحدى الأسرات التى تتكون منها الأخوية . إذ أن ديانة الأخوية كديانة الأسرة لم تكن تنتقل إلا عن طريق الدم . فكان الأثينى الصغير يقدمه والده للأخوية ويحلف أنه ابنه . وكان يتم القبول بشكل دينى . فكانت الأخوية تذبح ضحية وتطهى لحمها على المذبح . وكان يحضر جميع الأعضاء . فإذا رفضوا قبول الوافد الجديد ، عندما يحق لهم الشك فى شرعية مولده ، وقد كان ذلك من حقهم ، كان عليهم أن يرفعوا اللحم من على المذبح . فإذا لم يفعلوا ، وقسموا لحم الضحية مع القادم بعد طهيه ، يصبح الشاب مقبولاً ويصبح عضواً فى الجماعة لا رجوع فى ذلك (٢) . وما يفسر هذه العادات أن القدماء كانوا يعتقدون أن كل غذاء جهز على مذبح ويقتسمه عدة أشخاص يقيم فيما بينهم رابطة لا تنفصم عراها واتحاداً مقدساً لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة (٣)

(١) يصف إيسايوس (ميراث بولودوروس ١٥ - ١٧) إحدى هذه الأكلات ويتكلم فى سكان آخر (ميراث أستيفوس ٣٣) عن رجل حرج من أخويته كنتيجة لتبنيه فأصبح يعتبر غريباً عنها ، وكان يتقدم عبثاً فى كل أكلة مقدسة فلا يعطونه أى نصيب من لحوم الضحية . أنظر أيضاً إيسايوس (القضية ...) ... ديموستين ... ص ... وعن رجل ... أخويته ... لن أثينى يستطيع أن ...

(٢) ديموستينيس ... ماكارتاتوس ... إيسايوس ، ميراث فيلوكتيمون ... ولا بد أن ... كان يحدث دائماً نفس ... التى ... وبقوم مقامها .

(٣) ... ولبس من موضوعنا أن ... ويعتبر ... كبير فيه فارحل الذى ... ويمكن ... عربياً فقد أصبح (ὁμοτράπεζος) هوموتراپيزوس ... (ὁμόσπονδος) ... أبيكتيتوس ... الإوتيمى ... توكيديدس ... مشاركة دينية مع مضيفه ولهذا يقول إيسخيلوس ... إلى أهل ... Communem vocate Deum ... (قرحيبوس

كان لكل أخوية أو عشيرة رئيس، كوريون (Curion) أو فراترياركوس (Phratriarque)، وظيفته الأساسية أن يترأس القرابين. وربما كانت اختصاصاته في الأصل أكثر سعة من ذلك. وكانت للأخوية مجامعها ومناقشاتها وتستطيع أن تصدر قرارات (١). وفيها، كما كان في الأسرة، إله وعبادة وكهنوت وقضاء وحكومة. لقد كانت مجتمعاً صغيراً على نمط الأسرة تماماً.

وقد استمرت الجماعة تكبر طبيعياً. وعلى نفس هذا النمط تجمعت عدة أخويات وكونت قبيلة. وقد كان لهذه الجماعة الجديدة ديانتها أيضاً فكان في كل قبيلة مذبح ومعبود يحميها (٢).

وكان إله القبيلة في العادة من نفس طبيعة إله الأخوية وإله الأسرة. فقد كان رجلاً مؤلهاً. ومنه كانت تستمد القبيلة اسمها ولذا كان يسميه الإغريق البطل المسمى باسمه (heros eponyme). وكان له يوم عيد سنوي. وكان الجزء الأساسي من الاحتفال الديني أكلة تشترك فيها القبيلة بأكملها (٣).

الإلياذة ٧، ٥، ٢٧١). — نرى هنا مثلاً يوجد دائماً في العصور البشرية من سيادة حكمة للمنطق الابتدائية المرتبة. بعض ملاحظي الإنسان يصعد، تكون هذه نسبة ذاتية يجعل الأعمى الذي يمس عيب مرة يزداد قدسية بمجرد أن يمس. الموت يصبح محتماً عليه أن يكف عن أن يكون أعمى، معنى هذا أن الذي كان يعيشه بالأمس ينطفئ أن يكون اليوم ولن لأبد عضواً في الأسرة.

(١) عن الكوريون curio وما تم تسميته magister curiae انظر ديونيسيوس ٢، ٢٤؛ فارون، اللغة اللاتينية ٥، ٨٣؛ فستوس ص ٤٩. وقد ذكر فراترياركوس في ديموستينيس ضد يوبوليدس ٢٣. والمناقشة والتصويت مذكوران في ديموستينيس ضد ماكارتاتوس ٨٢. وتحتوي عدة كتابات على قرارات أصدرتها الأخويات. انظر Corpus inscr. attic. t. II ed. Kohler nos 598, 599, 600

(٢) Φυλῶν θεῶν ἱερά. (Pollux, VIII, 110)

(٣) Φυλετικὰ δεῖπνα، أثنايوس ٥، ٢؛ بوسانياس ١، ٢؛ ديموستينيس ؛ In Boeot., de nom. عن قتل كثيرين كان تقدمة على صلات بالأخويات وبعض نن γένη. انظر بوسانياس ٨، ٩، ١٠؛ وهربوكراتيون عن كلمة Ἐπιθέτου عن أرسطو وعدد القبائل قديمة، وعددها ثلاث أو أربع، كانت مشتركة بين جميع المدن الإغريقية دورية أو يونانية. الإلياذة ٢، ٦٦٨؛ الأوديسة ١٩، ١٧٧؛ هيرودوت ٤، ١٦١؛ انظر [illegible]. Otf. Müller, Dorier, t. II, p. 75 ويجب اعتبار ين

كان للقبيلة كما كان للأخوية مجمع، وكانت تصدر قرارات يجب على كل أعضائها أن يخضعوا لها، وكانت لها محكمة ولها حق محاكمة أعضائها. وكان لها رئيس φυλοβασιλεύς أو tribunus (١) نرى كما سبق [illegible] من أهمية القبيلة أنها كانت في الأصل تكون مجتمعاً مستقلاً. ولكن لم تكن هناك أية سلطة جماعية فوقها (٢).

بين عائلات المدينة في الأزمنة الأولى [illegible] هي مجرد أقسام محددة في الأزمنة متأخرة [illegible] وأدى [illegible] بالأخويات والعشائر (γένη)

(١) بولندو كبس ٨ [illegible]

Οἱ φυλοβασιλεῖς [illegible] [illegible] Photius [illegible].

(٢) لم يبق من التنظيم السياسي والديني للقبائل الثلاث الأصلية في روما إلا آثارا قليلة للوثائق ولكن المعلوم هو أنها كانت مكونة من عائلات وعشائر وكان لكل واحدة منها تريبون (tribunus) [illegible] (Ramnes, Tities, Luceres) [illegible] فضلا عن أن هذه القبائل كانت [illegible] إلا أنه [illegible] على [illegible] استقلالها [illegible] على [illegible] أيضاً على [illegible].

الفصل الثانى

عقائد دينية جديدة

آلهة الطبيعة المادية

قبل الانتقال من تكوين العناصر إلى نشأة المدن يجدر بنا أن نذكر عنصراً هاماً من عناصر الحياة الذهنية فى هذه الشعوب العتيقة

عندما نبحث فى أقدم عقائد هذه الشعوب نجد ديانة موضوعها الأسلاف ورمزها الأساسى الموقد وهى التى كونت الأسرة وأقامت القوانين الأولى لكنه كان هناك فى جميع فروعه ديانة أخرى ، وهى التى كانت شخصياتها الرئيسية زوس (Zeus) وهيرا (Hera) وأثينا (Athena)(١) وجونون (Junon) ، ديانة الأولمبوس الإغريقى والكابيتول الرومانى

وكانت الأولى من هاتين الديانتين تستمد آلهتها من النفس البشرية والثانية تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية . إذا كان الإحساس بالقوة الحية وبالشعور الذى يحمله الإنسان فى نفسه قد أوحى له بفكرة الأولى عن الإلهيات فإن رؤية هذه اللانهاية التى تحيط به وتسحقه قد وجهت شعوره الدينى مسلكاً آخر

كان الإنسان فى العصور الأولى فى مواجهة الطبيعة بلا انقطاع ولم تكن عادات الحياة المتحضرة قد ضربت بينهما ستاراً حاجزاً فكان ذلك الجمال يسحر بصره وتملك العظمة لبه . كان يستمتع بالضوء ويفزع من الليل ، وعندما يرى عودة ضياء السموات المقدس (٢) كان يشعر بالعرفان بالجميل

(١) الاسم الذى يطلق على بلدة أثينا فى اللغة الإغريقية هى أثيناى وقد تعودنا أن نسميها بالعربية أثينا [illegible] الإغريقية [illegible] فى اللغة العربية باسم المدينة [illegible] أثينا وهو [illegible] الإغريقية واحتفظنا للبلدة باسمها الدارج على ألسنتنا أثينا ـ المعرب .

(٢) صوفوكليس ، [illegible] ، صفحة ٨٧ . وكثيراً ما نعثر على نفس الفكرة

كانت حياته فى يد الطبيعة فكان ينتظر السحاب الخصب الذى يتوقف عليه محصوله ويخشى العاصفة التى تستطيع أن تحطم عمله وأمل عام بأكمله . كان يشعر فى كل لحظة بضعفه وبقوة ما يحيط به قوة لا تقهر . كان يحس على الدوام بفزع من السحاب والغيم ويتضرع نحو هذه الطبيعة الجبارة .

لم ينته به هذا الشعور إلى إدراك إله واحد يسير الكون . إذ لم تكن لديه عندئذ فكرة الكون . لم يكن يعلم أن الأرض والشمس والكواكب أجزاء من مجموع واحد، ولم ترد على ذهنه فكرة أنه يمكن أن يهيمن عليها كائن واحد . فعندما ألقى الإنسان أول نظرة على العالم الخارجى تصوره على شكل جمهورية مشوشة تتحارب فيها قوى متعددة . ولما كان حكمه على الأشياء الخارجية على حسب حاله هو . وكان يشعر فى نفسه أنه شخص حر . فقد رأى كذلك فى كل جزء من الطبيعة، فى الأرض، وفى الشجرة، وفى السحابة، وفى ماء النهر، وفى الشمس، أشخاصاً يشبهون شخصيته . فنسب إليهم الفكر والإرادة واختيار الأفعال . ولما كان يشعر بأنهم أقوياء وأنه خاضع لسلطانهم فقد عرف ضعفه أمامهم، وتضرع إليهم، وعبدهم، وجعل منهم آلهة .

وهكذا عرضت الفكرة الدينية على عقل البشر فى شكلين مختلفين . فمن ناحية نسب الإنسان لنفسه إلهه الخاص، الإله الحارس، رب الأسرة الذى يستمد من روحه ويشعر أنه مقدس من ذاته ومن ناحية أخرى طبق فكرته عن الشىء الإلهى على الأشياء الخارجية فى كل ما تأمل من وجهها وخشى العوامل الطبيعية التى كانت المهيمنة على سعادته وحياته .

نتج عن هذين النوعين من العقائد ديانتان ظلتا مستمرتين ما دام المجتمعان الإغريقى والرومانى . لم تحارب إحداهما الأخرى بل عاشتا فى شىء من حسن التفاهم وتقاسمتا السيطرة على الإنسان . ولكنهما لم تمتزج إحداهما بالأخرى . لقد كانتا مع ذلك تعاليم منفصلة كل الانفصال ، وفى بعضها متناقضة ، واحتفالات وشعائر مختلفة اختلافاً مطلقاً . فلم يكن هناك شىء ما قط مشتركاً بين عبادة آلهة الأوليمبوس وعبادة الأبطال والأرواح . أما أى هاتين الديانتين كانت الأولى فى تاريخ البشر فهو شىء لا نستطيع أن نقوله . بل لن نستطيع

أن نجزم بأن إحداهما كانت سابقة الأخرى. إنما نؤكد أن إحداهما وهي عبادة الموتى، بعد أن ثبتت في عصر بعيد جداً، بقيت راسخة على الدوام في شعائرها بينما كانت قواعد مذهبها تزول شيئاً فشيئاً. أما الأخرى، وهي عبادة الطبيعة المادية، فقد كانت أكثر ميلا للتقدم وتطورت بحرية خلال العصور بينما كانت تغير أساطيرها ومذاهبها شيئاً فشيئاً وتزيد بلا انقطاع في سيطرتها على الإنسان.

٢ • الصلة بين هذه الديانة وتطور المجتمع الإنساني

يمكن الاعتقاد بأن العناصر الأولى لديانة الطبيعة هذه عتيقة جداً وربما كانت تضاهي عبادة الأسلاف في القدم. ولكن بما أنها كانت تمثل أفكاراً أعم وأسمى من هذه، فقد كان لا بد لها من وقت أطول لكي تثبت في صورة مذهب واضح (١). ومن المحقق أنها لم توجد في العالم في يوم واحد وأنها لم تخرج تامة الخلق من عقل رجل واحد بل ولدت في لحظات مختلفة بأثر من قوى الطبيعة فتصورها كل عقل على طريقته وقد كانت هناك وجوه شبه بين جميع هذه الآلهة التي خرجت من أذهان مختلفة لأن الأفكار كانت تتكون في الإنسان على طريقة تجري على وتيرة واحدة تقريباً. ولكن كان هناك تنوع كبير أيضاً بما أن كل عقلية كانت تصنع آلهتها. فنتج عن ذلك أن بقيت هذه الديانة مشوشة مدة طويلة وأن كانت آلهتها لا عداد لها.

بيد أن العناصر التي كان يمكن تأليهها لم تكن كثيرة العدد. فالشمس التي

(١) أمن الضروري أن نذكر بين الروايات المأثورة عند الإغريق وشعوب إيطاليا والتي كانت تجعل من ديانة جوبيتر ديانة حديثة نسبياً؟ فقد احتفظت بلاد الإغريق وإيطاليا بذكرى زمن كانت فيه المجتمعات البشرية موجودة من قبل ولم تكن هذه الديانة قد تكونت فيه بعد. أوفيديوس، الأعياد، ٢، ٢٨٩؛ فرجيليوس: Georg. I. 126؛ أسخيلوس Eumenides؛ بوسانياس ٨، ٨. هنالك ظواهر على أن البتريس (Pitris) عند الهنود سابقون على الديفاس (Dévas).

تخصب الأرض التي تغذى والسحب التي تعمم مرة وتمسك مرة أخرى تلك كانت القوى الرئيسية التي كان في الاستطاعة اتخاذ آلهة منها . غير أن كل واحد من هذه العناصر ولدت منه آلاف من الآلهة . ذلك لأن الناس قد عرفوا نفس العنصر الطبيعي في مظاهر مختلفة فخلعوا عليه أسماء مختلفة . فالشمس مثلا سميت هنا هيراكليس (المجيد) وهناك فويبوس (Phoebus) (الساطع) وفي مكان آخر أبولون (Apollon) (طارد الشر أو طارد السوء) . وهذا يسميها الكائن العلى (هيبريون Hyperion) والآخر يسميها (ألكسيكاكوس Alexicacos) ومع مرور الزمن لم تتبين المجموعات من الناس أن أصحاب هذه الأسماء مختلفة عن الكوكب الساطع أنها تعنى نفس الإله

ولو فرض أن كل رجل لم يكن يعبد إلا عددا محدودا جدا من المعبودات ، فلا شك أنه لو وحده لم يكن يبدو عليه أنه نسى الآخر . وفي الحق أنه كان في الإمكان أن تتشابه الأسماء . فمن جائز أن كثيرا من الناس قد أطلقوا على آلهتهم اسم أبولون أو اسم هيراكليس . هذه الألفاظ كانت تسمى في لغة الإغريق سوى ولم يكن غير نعوت تدل على صفات إلهة مختلفة أو بأخرى من أكثر صفاتها ... لكنه لم يكن في استطاعة مجموعات مختلفة من البشر أن تعتقد أن هذه الأسماء لم يكن يقصد بها إلا إله واحد فكانوا يعدون إذن آلهة مختلفة من إله جوبيتر وكانت هناك جماعة من الإغريق تعرف وتدين وتجعل من أن تشابه فيما بينها . وحيث أن كل واحدة من هذه التصورات قد كونت جماعة ... على حدة وكانت في حاجة مكانا فقد حدث أن غابت هذه الآلهة منفصلة بعضها عن بعض لآخر زمنا طويلا وأن كان لكل واحد منها شخصية خاصة وعبادة (١)

(١) ولقد حدث في كثير من الأحوال أن هذه أسماء ... تمثل نفس المعبود أو نفس فكرة من أفكار الدين فإنه كثيرا ما ... أن نفس الاسم كان يعني معبودات مختلفة جدا . فقد كان ثمة بوسيدون هيبيوس وبوسيدون فيتالميوس وبوسيدون إرخثيوس وبوسيدون إيجي وبوسيدون هيسكومن Poseidon Hippios, Poseidon Phytalmios, Poseidon Erechthée, Poseidon Aegéen, Poseidon Hescomen آلهة مختلفة لم تكن لها نفس الصفات ولا نفس العبادة.

وحيث أن أول ظهور لهذه العقائد كان في عصر لا يزال الناس يعيشون فيه طبقاً لنظام الأسرة ، فقد كانت هذه الآلهة الجديدة صنو المعبودات المنزلية كما كان للجن (ديمون) وللأبطال وللاريس . فقد اتخذت كل أسرة آلهة لذاتها واحتفظت بها كل منها لنفسها باعتبار هذه الآلهة حماة لها لا تريد أن يشركها الأغراب فيما تدره عليها من نعم . وهي فكرة كثيراً ما تظهر في أناشيد الفيدا ولا ريب أنها كانت ماثلة في ذهن الإغريق أيضاً لأنها تركت آثاراً واضحة في ديانتهم . فكلما خلقت أسرة بخيالها شخصية في أحد العوامل الطبيعية كانت تشركه في موقدها وتعده بين آلهتها المنزلية (بناتس) وتضيف له بضع كلمات في صيغة دعائها . ولهذا السبب كثيراً ما تقابل عند القدماء تعبيرات كهذه : الآلهة الجالسة بجوار موقدي ، جوبيتر موقدي ، أبولون آبائي (1) تقول تكميسا (Tecmesse) لابن أياس (أجاكس Ajax) : استحلفك باسم جوبيتر الجالس بجوار موقدك . وتقول ميديه Medée الساحرة في أوريبيدس : أحلف بهيكاتي Hecate ، ربتي وسيدتي التي أخشاها والتي تسكن معبد موقدي . وعندما يصف فرجيليوس أقدم ما في ديانة روما نرى هيراكليس مشتركاً مع موقد إيفاندروس Evandre الذي يعبد هيراكليس كمعبود منزلي .

من هنا أتت الآلاف من العبادات المحلية التي لم تستطع الوحدة أن تستقر بينها ومن هنا هذه الانفصالات بين الآلهة التي ملأت عهد تعدد الآلهة وهي تمثل منازعات الأسرات والنواحي والمدن . ومن هنا أخيراً هذا الجمهور الذي لا حصر له من الآلهة والآلهات الذي لا نعرف منه حتماً غير الجزء الأصغر . إذ أن كثيراً منها قد هلك دون أن يترك حتى اسمه ، لأن الأسرات التي كانت تعبدها قد انقرضت أو أن المدن التي خصتها بعبادة قد دمرت .

كان لا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن تخرج هذه الآلهة من أحضان الأسرات

(1) Ἑστιοῦχοι [illegible] ὁ ἐμὸς Ζεύς أوريبيدس هركليه ٣٤٥ أوريبيدس : ميديه ٣٩٥ . سوفوكليس : أياس (Ajax) ٤٩٢ . فرجيليوس ٨ ، ٥٤٣ هيرودوت ١ ، ٤٤ .

التي تصورتها والتي كانت تعتبرها ميراثاً لها. بل إن كثيراً منها لم تتخلص إطلاقاً من هذا النوع من الصفة المنزلية. فقد بقيت ديميتر التي كانت تعبد في إليوسيس Demeter d'Eleusis معبودة خاصة لأسرة يومولبوس (Eumolpides)؛ وأثينا التي كانت تعبد في ربة أثينا كانت تابعة لأسرة بوتس (Butades). وكان لآل پوتيتوس (Potitii) في روما هيراكليس ولآل نوتيوس (Nautii) ميرفا (١) وهنالك شبهة كبيرة في أن عبادة فينوس بقيت زمناً طويلة محصورة في أسرة يوليوس وأنه لم يكن لهذه الإلهة عبادة عامة في روما

وقد حدث مع طول الزمن أن نال معبود إحدى الأسرات سلطاناً كبيراً على خيال الناس وبدا قوياً [illegible] فرغبت مدينة بأكملها أن تتخذه لنفسها وأن تؤدي له عبادة عامة تنال بركاته. وهو ما حدث لديميتر معبودة آل إيومولبوس وأثينا معبودة آل بوتس وهراكليس معبود آل پوتيتوس ولكن عندما [illegible] أسرة أن تقتسم إلهها هكذا فإنها كانت تحتفظ على الأقل بكهنوته. ويمكن أن نلاحظ أن كهنوت أي إله ظل وراثياً زمناً طويلاً ولم يستطع الخروج من أسرة معينة (٢) [illegible] لأنه ذاته ممسكاً هذه الأسرة ولم يكن يخطر على [illegible] أن يريد أن يخدمه سواها

لقد حق لنا إذن أن نقول إن هذه [illegible] كانت في البدء على وفاق مع حالة الناس الاجتماعية وكانت كل أسرة [illegible] زمناً طويلاً محبوسة

(١) Tite Live, IX, 29: *Potitia gens cujus fanubare fuerat sacerdotium Herculis*.

ديونيسيوس [illegible] وبالمثل آل أوريليوس Aurelii كانت عبادتهم المنزلية هي عبادة [illegible] *Aurelium* [illegible] طبعة [illegible] ص ٤٣

(٢) هيرودوت [illegible] ٤٤ [illegible] الميروجياب [illegible]، أكسينوفون [illegible] أفلاطون [illegible] ص ٥٩، المائدة ص ٤٠، بلوتارخوس [illegible] ليكورغ c. 11، فيلوخوروس [illegible] ؛ ٤٣٧؛ ٥؛ ١٩؛ ١٧ [illegible]

(٣) [illegible] — هاربوقراسيون [illegible] Ἐτεοβουτάδαι، الألقاب [illegible] *Eteobutadae* [illegible] *De devinatione* ٤ [illegible] ص ٤٢ [illegible] ٤ ص ٣٤، ١٦٣ [illegible] ٥٤، ٢

في هذا الأفق الضيق. لكنها كانت أكثر ملاءمة من عبادة موتى تنعدم الجماعة المقفلة إذ أن الأسلاف والأبطال والأرواح (manes) كانت آلهة لا يمكن أن يعبدها بحكم جوهرها ذاته إلا نفر قليل من الناس. وكانت تقيم إلى الأبد حدوداً بين الأسرات لا يمكن تخطيها. أما ديانة آلهة الطبيعة فكانت أوسع نطاقاً. فلم يكن هناك أي قانون صارم يحول دون انتشار أية واحدة من هذه العبادات. ولم يكن في الطبيعة الباطنية لهذه الآلهة ألا تعبدها إلا أسرة واحدة وأن تقصي الأجنبي عنها. وفي النهاية كان على الناس أن يصلوا تدريجياً إلى إدراك أن جوبيتر الخاص بأسرة ما كان في جوهر الأمر نفس الكائن أو نفس الفكرة التي تتصور في جوبيتر آخر. وهو أمر لم يكونوا يستطيعون اعتقاده أبداً في اثنين من اللارس أو الأسلاف أو المواقد.

ولنضف إلى ذلك أنه كان لهذه الديانة الجديدة ناحية أخلاقية أخرى. فهي لم تكن تقتصر على تصوير الإنسان وحاجات الأسرة فكان جوبيتر إله الضيافة ومن طرفه يأتي الأجانب والمتوسلون «والمعدمون المتجولون»، أولئك الذين كان يجب أن يعاملوا «كإخوة». وكانت جميع هذه الآلهة كثيراً ما تتخذ الصورة البشرية وتتراءى للناس. وكان ذلك أحياناً لتحضر معاركهم وتساهم في قتالهم، وفي الغالب أيضاً لتوصيهم بالوفاق وتعلمهم التعاون فيما بينهم.

وكلما تطورت هذه الديانة الثانية اتسع المجتمع بنفس القدر. هذا ومن الحق أن هذه الديانة التي كانت ضعيفة في أول الأمر قد اتسعت فيما بعد اتساعاً عظيماً. فقد كانت في الأصل تنشأ أن تكون في ظل الأسرات تحت حماية الموقد المقدس. فهناك حصل الإله الجديد على مكان صغير، صومعة cella ضيقة بمرأى من الموقد المبجل وبجواره لكي يصيب الإله نصيباً من احترام الناس للموقد. فلما ازدادت سلطة الإله على النفوس رغب شيئاً فشيئاً عن هذا النوع من الوصاية. وهجر الموقد المقدس. وأصبح له منزل لشخصه وقرابين خاصة. هذا وقد بني هذا المسكن (ναός من ναίω يسكن) على صورة المعبد الأصلي فكان كما كان أولاً، صومعة cella أمام موقد. لكن الصومعة اتسعت وتجملت وأصبحت معبداً. وبقي الموقد في مدخل بيت الإله. لكنه بدا بجواره

أصغر حجماً وكان هو الأساس والأصل لكنه لم يعد إلا شيئاً ملحقاً . لم يصبح هو الإله بعد ذلك ونزل إلى مرتبة المذبح للإله والآلة للقربان . لقد صار مكاناً لحرق لحم الأضحية وعمل القربان مع دعاء الإنسان إلى ذلك المعبود ذى الجلال الذى يقيم صنمه فى المعبد .

وعندما نرى هذه المعابد تقام وتفتح أبوابها لجمهور العابدين يمكن أن نطمئن إلى أن الإدراك البشرى وإلى أن المجتمع قد تقدما منذ زمن بعيد

الفصل الثالث

المدينة تتكون

تكونت القبيلة، كما تكونت الأسرة والأخوية، لكي تكون هيئة مستقلة إذ أنه كانت لها عبادة خاصة يقصى عنها الأجنبي. وبعد ما تكونت لم يعد في استطاعة أية أسرة جديدة أن تقبل فيها. وكذلك لم يكن في استطاعة قبيلتين أن تندمجا في قبيلة واحدة لأن ديانتيهما تعترضان في ذلك. ولكن كي تحدث عدة أخويات في قبيلة واحدة فإن عدة قبائل قد استطاعت أن تتحد فيما بينها على شرط أن تحترم ديانة كل منها. واليوم الذي وجد فيه هذا الحلف وجدت فيه المدينة.

ومما هو قليل الأهمية أن نبحث عن السبب الذي دعا عدة قبائل مجاورة للاتحاد. فأحيانا يكون الاتحاد اختياريا، وأحيانا تفرضه قوة عليا من جانب قبيلة أو إرادة قوية من جانب رجل. أما المؤكد فهو أن رباط الجماعة القديمة كان هو الديانة أيضاً، إذ أنه لم يكن يفوت القبائل التي تجمعت لتكوين مدينة ما أن توقد ناراً مقدسة وأن تتخذ ديانة مشتركة.

وهكذا لم يتسع المجتمع البشري في هذا الجنس على شكل دائرة تتسع شيئاً فشيئاً وتدرك الأقرب فالأقرب. بل كانت على العكس جماعات صغيرة تكونت قبل ذلك بزمن طويل وانضم بعضها لبعض. فتكونت الأخوية من عدة أسرات وتكونت القبيلة من عدة أخويات وتكونت المدينة من عدة قبائل. فضلاً عن أن الأسرة والأخوية والقبيلة والمدينة ما هي إلا مجتمعات تتشابه فيما بينها تشابهاً دقيقاً وولدت إحداها من الأخرى عن طريق سلسلة من المحالفات.

بل يجدر أن نلاحظ أنه عندما كانت تنضم هذه المجموعات المختلفة بعضها لبعض لم تكن تفقد الواحدة منها شخصيتها أو استقلالها. وبالرغم من أن عدة

أسرات قد اتحدت في أخوية فإن كل واحدة منها بقيت مكونة كما كانت في مدة عزلتها ، لم يتغير فيها شيء . لا عبادتها ولا كهونتها ولا حق ملكيتها ولا قضاؤها الداخلي . ثم اتحدت بعض الفوات فيما بعد لكن كل منها قد حافظت على عبادتها واجتماعاتها وأعيادها ورئيسها . ومن القبيلة انتقلوا إلى المدينة لكن القبائل لم تنحل بذلك واستمرت كل واحدة منها تؤلف هيئة كما لو كانت المدينة غير موجودة تقريباً . وفي الديانة بقيت جمهرة من العبادات الصغيرة قامت فوقها عبادة مشتركة . وفي السياسة استمرت جمهرة من الحكومات الصغيرة في وظائفها وقامت فوقها حكومة مشتركة

كانت المدينة حلفاً . ولذلك ظلت عدة قرون على الأقل مضطرة إلى احترام الاستقلال الديني والمدني للقبائل والفوات والأسرات ، ولم يكن لها في البدء حق التدخل في الشؤون الخاصة بأية واحدة من هذه الهيئات الصغيرة ، لم يكن لها شأن في داخل أسرة ما ولم تكن قاضياً فيما يجري فيها بل تركت للأب الحق أو الواجب في محاكمة زوجه وابنه ومولاه . ولهذا السبب استطاع القانون الخاص الذي ثبت في عصر عزلة الأسرات أن يبقى في المدن ولم يعدل إلا في وقت متأخر جداً

هذه الطريقة في نشأة المدن القديمة تشهد بها عادات دامت زمناً طويلا جداً فإنه إذا تأملنا جيش المدينة في العصور الأولى وجدنا أنه كان موزعاً على قبائل وفوات وأسرات (١) ، بحيث يكون جار المحارب في القتال هو ذات الشخص الذي يريق معه السوائل في زمن السلم ويقدم القرابين على نفس المذبح ، كما يقول أحد القدماء (٢) وإذا تأملنا الشعب

(١) هوميروس : الإلياذة ٢ : ٣٦٢ . فارون اللغة ٥ : ٨٩ . بقيت العادة في أثينا أن يرتب العساكر حسب القبائل والأحياء demes ؛ هيرودوت ٦ : ١١١ ؛ إيسايوس : ميراث مكلس ٤٢ ؛ ليسياس : الدفاع عن مانتيثيوس ١٥ .
(٢) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٣ .

مجتمعاً في القرون الأولى لروما فإنه كان يصوت مجتمعاً في ندوات أو مصاطب (١) وإذا ما تأملنا العبادة رأينا في روما ستاً من سادنات النار (فستالس Vestales) اثنتين لكل قبيلة. وفي أثينا يقوم الأرخون (archontes) بمعظم القرابين باسم المدينة بأكملها. لكن لا تزال باقية بعض الاحتفالات الدينية التي يجب أن يشترك رؤساء القبائل في تقديمها (٢)

وبذلك لم تكن المدينة تجمعاً من الأفراد، وإنما كانت حلفاً من عدة مجموعات كانت قد تكونت قبلها وتركتها باقية. ونرى في خطباء الأثينيين أن كل أثيني كان عضواً في أربع جماعات متباينة، فهو عضو في أسرة وفي أخوية وفي قبيلة وفي مدينة، إنه لا يدخل في الأربعة جميعاً في وقت واحد وفي يوم واحد كي يفعل الفرنسي الذي ينتمي منذ مولده إلى أسرة وقرية ومديرية ووطن. فإن الأخوية والقبيلة لم تكن أقساماً إدارية. كان يدخل الإنسان في هذه الجماعات الأربع في فترات مختلفة وكأنه يرقى من الواحدة إلى الأخرى. فيقبل الطفل أولاً في الأسرة بطريق الاحتفال الديني الذي يقام بعد مولده بعشرة أيام. وبعد ذلك ببضع سنوات يدخل في الأخوية باحتفال آخر سبق أن وصفناه. وأخيراً في سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة يتقدم ليقبل في المدينة. وفي ذلك اليوم، على مشهد من المذبح وأمام أضحية يتصاعد دخان من لحمها، ينطق بقسم يتعهد فيه، مع العهود التي يقطعها على نفسه، أن يحترم ديانة المدينة على الدوام (٣) وابتداء من ذلك اليوم يكون على علم بالعبادة العامة ويصبح مواطناً (٤) فلنلاحظ هذا الشاب الأثيني وهو يرقى درجة فدرجة، من عبادة إلى عبادة، وعندئذ تكون لدينا صورة للمراحل التي مرت بها الجماعة البشرية فيما مضى فالمسلك الذي يحتم على هذا الشاب أن يتبعه هو الذي اتبعه المجتمع في البداية

(١) أولوس جليوس ١٥ : ٢٧

(٢) بولديوكس ٨ : ١١١ .

(٣) بولدوكس ٨ : ١٠٥ . ἀμυνῶ ὑπὲρ ἱερῶν καὶ ὁσίων ... καὶ ἱερὰ τὰ πάτρια τιμήσω

(٤) إيسيوس ميراث قيرون ١٩ ؛ الدفاع عن أوفيليتوس Pro Euphileto ٣ ، ديموستينيس ضد أوبوليديس ٤٦ . تشير ضرورة القيد في أخوية قبل أن يكون الإنسان عضواً في المدينة ، في الأزمنة العتيقة على الأقل ، من قانون ذكره ديناركوس (Dinarque, *Oratores attici* coll. Didot, t. II, p. 462, fr. 82)

هناك مثلاً يجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً . فقد بقي لنا من الآثار والذكريات عن العصور القديمة في أتيكا ما يكفي لكي نستطيع أن نرى شيئاً من الجلاء، كيف تكونت المدينة الأثينية . يقول بلوتارخوس : كانت أتيكا مقسمة في الأصل إلى أسرات (١) . وقد استمرت بعض هذه الأسرات التي هي من عصر لدنى كالإيمولبيين Eumolpides والككروبيين Cecropides، والجفيريين Gephyreens والفيتاليين Phytalides، واللاكياديين Lakiades، قائمة حتى العصور التالية ولم تكن المدينة الأثينية موجودة عندئذ بل كانت كل أسرة، تحيط بها فروعها الصغرى ومواليها ، تحتل ناحية وتعيش فيها مستقلة استقلالاً مطلقاً وكان لكل منها ديانتها الخاصة . فالإيمولبيون المقيمون في إليسيس Eleusis يعبدون ديميتر . والككروبيون الذين كانوا يسكنون الصخرة التي وجدت عليها أثينا فيما بعد كانت معبوداتهم الخاصة بوسيدون وأثينايا (Athéné). وبجوارها على أكمة الأريوباجوس الصغيرة كان الإله الحامي هو آريس (Ares)، وفي ماراثون هرقليس . وفي براسيس Prasies كان يعبد اسم أبولون، وكان هناك أبولون آخر في فليس Phlyes ، والديوسقوريان Dioscures في كيفاليا Cephalie وهكذا كان الحال في جميع المقاطعات الأخرى (٢)

ولما كان لكل أسرة إلهها ومعبدها فقد كان لها زعيمها أيضاً . ويروي بوسانياس أنه كان يوجد في البلاد الصغيرة ثورات عنيفة استمرت مع ... ، وقد عمت هذه الآثار أنه كان لكل قرية ملك قبل الوقت الذي حكم فيه ككروبس في أثينا (٣) . ألم تكن هذه ذكرى عصر بعيد كان فيه لكل واحدة من هذه الأسرات الأبوية الكبيرة الشبيهة بالعشائر الكلتية رئيسها الوراثي الذي كان في نفس الوقت كاهناً وقاضياً ؟ كانت هناك إذن مجتمعات صغيرة حوالى مائة تعيش منعزلة في البلاد لا تعرف فيما بينها رباطاً دينياً ولا

(١) Κατὰ γένη بلوتارخوس : تيسيوس ٢٤ ، شرحه ١٣

(٢) بوسانياس ١ : ١٥ ، ١ : ٣١ ، ١ : ٣٧ ، ٢ : ١٨

(٣) بوسانياس ١ : ٣١ : Τῶν ἐν τοῖς δήμοις φασὶ πολλοὺς ὡς καὶ πρὸ τῆς ἀρχῆς τῆς Κέκροπος ἐβασιλεύοντο

ربطاً متيناً . لكل منها معبده وكثيراً ما حارب بعضها بعضاً . وأخيراً كانت منفصلة الواحدة عن الأخرى إلى حد أن التزاوج فيما بينها لم يكن يسمح به دائماً (١)

ولكن الحاجة أو العواطف قد قربت بينها فاتحدت تدريجياً في مجموعات صغيرة من أربع أو ست . وهكذا نجد في النصوص أن البلاد الأربع في سهل ماراثون قد تجمعت لتعبد معاً أبولون دلفي Apollon Delphinien وتجمع ، من ناحية أخرى ، أهالي پيرايوس (لپيريه Pirée) وفاليروس Phalère وبلدتين أخريين متجاورتين ليبنوا معاً معبداً لهراكليس (٢) . وقد قضى زمن اختزلت فيه هذه المائة من الدويلات الصغيرة إلى حوالى اثنى عشر اتحاداً . وقد نسبت الأسطورة إلى جهود ككروبس هذا التغيير الذي انتقل به شعب أتيكا من حالة الأسرة الأبوية إلى مجتمع أكثر اتساعاً بقليل . وما يجب أن نفهمه من هذا هو أن ذلك التغيير لم يتم إلا في الفترة التي وضعوا فيها حكم ذلك الشخص أي حوالى القرن السادس عشر قبل الميلاد . فضلاً عن أننا نرى أن ككروبس هذا لم يكن يحكم إلا واحدة من المجموعات الاثنى عشرة وهي التي أصبحت أثينا فيما بعد . وكانت الإحدى عشرة الأخرى مستقلة تماماً . وكان لكل واحدة منها إلهها الحامي ، ومذبحها ونارها المقدسة ورئيسها (٣)

وقد مضت عدة أجيال حصلت خلالها مجموعة الككروبيين «Cécropides» تدريجياً على أهمية أكبر من تلك . وقد بقي لنا من هذه الحقبة ذكرى نضال دموي قاموا به ضد الإلويسيين في ليبسيس [illegible] وكانت نتيجته أن خضع

(١) بلوتارخوس : ثيسيوس ٣

(٢) بلوتارخوس : ثيسيوس ١٤ ؛ بولوكس ٦ ، ١٠٥ ؛ اسطفان البيزنطي Ἐχελίδαι

(٣) Philochore, cité par Strabon, IX, p. 609: *Κέκροπα πρῶτον εἰς δώδεκα πόλεις συνοικίσαι τὸ πλῆθος.* Thucydide, II, 15: *Ἐπὶ Κέκροπος ἐς Θησέα ἀεὶ ἡ Ἀττικὴ κατὰ πόλεις ᾠκεῖτο πρυτανεῖά τε ἔχουσα καὶ ἄρχοντας ... αὐτοὶ ἕκαστοι ἐπολίτευον καὶ ἐβουλεύοντο, καί τινες καὶ ἐπολέμησάν ποτε αὐτῶν.* — Cf. Pollux, VIII, 111.

هؤلاء لم يحتفظ واحد منها إلا وهو احتفاظهم بكهنوت معبودهم الوطني(١)
ويمكن الاعتقاد بأنه كانت هناك حروب أخرى لم تحفظ ذكراها . وقد
حصلت صخرة الككروبيين ، التي تطورت فيها عادة أثينا شيئاً فشيئاً ،
والتي انتهت بأن اتخذت اسم إلهة رئيسية ، على السيادة على الإحدى عشرة دولة الأخرى
عندئذ ظهر ثيسيوس (Thesée) وريث الككروبيين وتتفق كل الآثار في
القول بأنه جمع المجموعات الاثنتي عشرة في مدينة واحدة . والواقع أنه جمع
في حلفهم يتحدون في جميع أتيكا عبادة أثينا بولياس (أثينا المدنية) بحيث
اشترك كل الأقاليم منذ ذلك في الاحتفال بقربان البانثينيا Panathénées . أما قبل
عهده فقد كان لكل قرية نارها المقدسة وبيت نارها (بريتانيون Prytanée) وقد
أراد أن يكون بيت نار أثينا هو مركز الديني لكل أتيكا (٢) وعندئذ تأسست
الوحدة الأثينية ، في الناحية الدينية ، احتفظت كل ناحية بعباداتها القديمة
لكنها اتخذت جميعاً عبادة مشتركة ؛ ومن الناحية السياسية ، احتفظت كل
واحدة برؤسائها وقضاتها وحقها في الاجتماع . ولكن فوق هذه الحكومات
المحلية وجدت حكومة المدينة المركزية (٣)

(١) بوسانياس ١ : ٣٨

Thucydide, II, 15 : Ὁ Θησεὺς καταλύσας τῶν ἄλλων πόλεων τά τε βουλευτήρια καὶ τὰς ἀρχάς, ἓν βουλευτήριον ἀποδείξας καὶ πρυτανεῖον... Plutarque, *Thésée*, 24 : Ἓν ποιήσας ἁπάσι κοινὸν πρυτανεῖον, καὶ Παναθήναια θυσίαν ἐποίησε κοινήν. Ἔθυσε δὲ καὶ Μετοίκια ἣν ἔτι καὶ νῦν θύουσι. Cf. Pausanias, VIII 2, 1

(٢) يقول بلوتارخوس وثوكيديدس إن ثيسيوس (Thésée) جعل بيت نار البريتانيون
الأصلي وألغى ما سواه أخرى وعلى كل حال فهو إلى كل ما حاول ذلك فإنه لم يمح
إذ أن الأرباب عند العادات القديمة وملوك العشائر بقيت بعده بزمن كبير ؛
ديموستينس ؛ ضد ثيوكرينس ، بوليدوكس ٨ : Boeckh, *Corp. inscr.* 82, 85
(٣) — وقد ترك كاتب أسطورة يون (Ion) التي يرجع لها العدد كبيراً من المؤرخين
المحدثين قد أعطاها أهمية أكبر مما يلزم بتقديمها كمظهر لغزو أجنبي في أتيكا . لكن
هذا الغزو لا تشير إليه أية وثيقة . ولو أن يونيي البيلوبونيز سيطروا على أتيكا لم يكن
من الممكن أن تحافظ الأثينية محافظة شديدة على أسمائهم آل ككروبس وآل

يبدو لنا أن حقيقتين جليتين على حد سواء تبرزان من هذه الذكريات والأثريات الدقيقة التي حرصت أثنا عليها حرص المتحرجين. الأولى، أن المدينة كانت جمعاً من مجموعات تكونت قبلها. والأخرى، أن المجتمع لم يتطور إلا متدرجاً مع اتساع الديانة. وليس في الاستطاعة البت فيما إذا كان التقدم الديني هو الذي جلب التقدم الاجتماعي. ما تحقق هو أن الاثنين قد حدثا في وقت واحد وفي اتفاق عجيب.

ولا بد من التفكير في الصعوبة الزائدة التي كانت تعانيها الشعوب البدائية في تأسيس مجتمعات منظمة. فليس من أهين إقامة الرباط الاجتماعي بين هذه الكائنات البشرية الكثيرة التباين والحرية والتقلب. ولا بد أن يعطى لهم قواعد مشتركة، وإنشاء القيادة، وجعلهم يقبلون الطاعة، وإخضاع الشهوة للعقل، والعقل الفردي للعقل العام. كل ذلك كان يتطلب شيئاً أشد من القوة المادية، شيئاً أكثر حرمة من المنفعة وأكثر ضماناً من نظرية فلسفية وأكثر رسوخاً من مجرد اتفاق شيئاً هو أيضاً في قرارة القلوب جميعاً ويقيم فيها بسلطان عظيم.

ذلك الشيء هو العقيدة. وما من شيء أقوى سلطاناً على النفس منها. فالعقيدة من صنع فكرنا، لكننا لسنا أحراراً في تعديلها كما نهوى. إنها من خلقنا لكننا لا نعرف ذلك. إنها من البشر ونحن نؤمن بأنها إلهية. إنها أثر من آثار قوتنا غير أنها أقوى منا. إنها فينا ولا تتركنا. إنها تحدثنا في كل لحظة. فإن قالت لنا أطيعوا أطعنا. وإن رسمت لنا واجبات خضعنا. إن الإنسان يستطيع أن يقهر الطبيعة لكنه مستعبد لفكره.

أوطيفرون بين لا عمروا اسم الأيونيين سبب ر هيرودوت : ٣٠٤ . ويمكن الرد أيضاً على أولئك الذين يعتقدون في غزو أيوني ويضيفون أن طبقة الأشراف السب Eupatrides أتت من هذا ... معظم الأسر الأثينية الكبيرة ترجع إلى عصر سابق بكثير للعصر الذي يعينون فيه وصول يون في أتيكا. هل معنى هذا أن الأثينيين ليسوا يونيين في سوادهم الأعظم؟ من المؤكد أنهم ينتمون لذلك الفرع من الجنس الإغريقي. يخبرنا استرابون أن أتيكا كانت تسمى في أقدم العصور يونيا وأيونس. ولكن من الخطأ أن نجعل من ابن أكسوثوس Xuthus في بعض الأساطير أو يوريبيدس، أرومة هؤلاء الأيونيين فهم أقدم من يون قطعاً، وربما كان اسمهم أقدم بكثير من اسم الهيلينيين. ومن الخطأ جعل كل الأسر من سلالة يون هذا وجعل هذه الطبقة من أناس كشعب دخيل قهر بالغزو شعباً مغلوباً فإن هذا الرأي معه لا يستند على أي دليل قديم.

كانت العقيدة القديمة تأمر الإنسان أن يمجد أسلافه، فعبادة السلف هي التي جمعت الأسرة حول المذبح. ومن هنا جاءت الديانة الأولى، والصلوات الأولى، والفكرة الأولى عن الواجب، والأخلاق الأولى. ومن هنا أيضاً قامت الملكية وثبت نظام الإرث. ومن هنا أخيراً جاء كل القانون الخاص وكل قواعد التنظيم المنزلي. ثم كبرت العقيدة والجماعة في آن واحد. وكلما شعر الناس بأن لهم آلهة مشتركة اتحدوا في جماعات أوسع. ونفس هذه القواعد التي وجدت واستقرت في الأسرة طبقت على الأخوية والقبيلة والمدينة على التوالي.

ولنلق نظرة شاملة على الطريق الذي قطعه الناس. عاشت الأسرة في البدء منعزلة ولم يعرف الإنسان إلا آلهته المنزلية *Θεοὶ πατρῷοι, dii gentiles*. ثم تكونت الأخوية بآلهتها *Θεὸς φράτριος, Juno curialis* فوق الأسرة ثم أتت القبيلة وإله القبيلة *Θεὸς φύλιος*. وأخيراً وصلوا إلى المدينة وتصوروا إلهاً تشمل رعايته المدينة كلها *Θεοὶ πολιεῖς, penates publici*. درجات بعضها فوق بعض. درجات من العقائد ودرجات من الجماعات. كانت الفكرة الدينية عند القدماء هي النسمة الملهمة والمنظمة للمجتمع.

تروي أساطير الهنود والإغريق والرومان أن الآلهة كشفوا للإنسان عن القوانين الاجتماعية. وهناك حقيقة تحت هذه الصورة الأسطورية. فإن القوانين الاجتماعية كانت من عمل الآلهة. لكن هذه الآلهة القوية الرحيمة لم تكن غير عقائد الناس.

تلك كانت طريقة نشأة الدولة عند القدماء. وكانت هذه الدراسة ضرورية لكي نقف بعد قليل على طبيعة المدينة وأنظمتها. ولكن لا بد هنا من تحفظ: فإنه إذا كانت المدن الأولى قد تكونت من تحالف من المجتمعات الصغيرة التي تكونت من قبل، فليس معنى هذا أن كل المدن المعروفة لنا قد تكونت بنفس الطريقة. إذ أنه بمجرد أن وجد النظام البلدي لم تعد هناك ضرورة لأن يأتنفوا نفس الطريق الطويل العسير لكل مدينة جديدة. بل كان يحدث في كثير من الأحيان أن يتبعوا نظاماً عكسياً. فعندما كان يخرج رئيس من مدينة تكونت

من قبل ويذهب لتأسيس مدينة أخرى لم يكن يستصحب في العادة إلا عدداً قليلاً من مواطنيه ويضم إليهم كثيراً من الناس الآخرين الذين يأتون من أماكن متعددة بل من المحتمل أنهم كانوا منتسبين إلى أجناس متعددة. ولم يكن يفوت هذا الرئيس مطلقاً أن ينشئ الدولة الجديدة على صورة المدينة التي غادرها وبناء عليه كان يقسم شعبه إلى قبائل وأخويات. وكان يكون لكل واحدة من هذه الجماعات الصغيرة موقد وقرابين وأعياد [illegible] كل وحدة منها كانت تتصور بطلاً قديماً تكرمه بعبادة ما. ثم وصلت مع الزمن إلى الاعتقاد بأنها من نسله.

هذا وكثيراً ما كان يحدث أن يعيش أهل بعض البلاد بلا قوانين أو نظام إما لأن النظام الاجتماعي لم ينجح في الاستقرار كما في أركاديا أو لأن ثورات عنيفة مفاجئة قد أفسدته وحطمته كما في قرينه (Cyrène) وثوري (Thurii). فإذا ما حاول مشرع أن يضع نظاماً لهؤلاء الناس فإنه لم يكن يفته أن يبدأ بتوزيعهم في قبائل وأخويات كما لو لم يكن هناك صورة أخرى للمجتمع غير هذه. وكان يقيم في كل واحد من هذه المجموعات بطلاً يُسمى به (éponyme)، ويقر قرابين، ويفتتح الأعياد من هذا الشأن [illegible] دائماً عندما كانوا يريدون تأسيس جماعة منظمة (١). وهكذا فعل أفلاطون نفسه عندما تخيل مدينة نموذجية

(١) هيرودوت ج ٤ [illegible] انظر أفلاطون، القوانين ٥ ; ٧٣٨ ; ٦ : ٧٧١. وهكذا كان [illegible] أصبح ليكورغ مديراً لإسبرطة وحددها [illegible] أي شيء عمله هو أنه بنى معبداً. والثاني أنه قسم المواطنين إلى [illegible] أو [illegible]، ثم [illegible] أتت بعد ذلك (بلوتارخوس : ليكورغ ٦)

الفصل الرابع

البلدة

لم يكن لفظا مدينة وبلدة مترادفين عند القدماء. فالمدينة كانت مجمعاً دينياً وسياسياً بين الأسرات والقبائل. وكانت البلدة مكان الاجتماع ومقر الجماعة وعلى الأخص مكانها المقدس.

ويجدر بنا ألا نتصور المدينة القديمة كما نتصور المدن التي نراها تقوم في أيامنا. تبنى بضعة بيوت فإذا هي قرية، ويزداد عدد البيوت تدريجياً فإذا هي بلدة، وينتهي إذا لزم الأمر بإحاطتها بخندق وسور. لكن البلدة عند القدماء لم تكن تتكون مع مرور الزمن عن طريق الازدياد البطيء في عدد الناس والمباني. بل كانوا يؤسسون البلدة دفعة واحدة، تؤسس كلها في يوم واحد.

لكن كان لا بد من وجود المدينة أولا، وكان ذلك هو العمل الأشق والأطول. فإذا ما اتفقت الأسرات، والأخويات والقبائل على الاتحاد وعلى أن يكون لها نفس العبادة فإنهم كانوا يؤسسون البلدة فوراً لكي تكون مقدساً لهذه العبادة المشتركة. ولذا كان تأسيس مدينة ما عملا دينياً على الدوام.

سنتخذ من روما ذاتها مثلا أول بالرغم مما هو مألوف من عدم تصديق هذا التاريخ القديم. كثيراً ما رددوا أن رومولوس كان رئيساً لعصابة من المغامرين وأنه كون لنفسه شعباً باستدعائه الصعاليك واللصوص إليه وأن جميع هؤلاء الناس الذين جمعهم من غير اختيار سوى مصادفة بضعة أكواخ ليحصروا فيها عيشهم. لكن الكتاب الأقدمين يقدمون لنا الوقائع بطريقة تختلف عن ذلك كل الاختلاف. ويلوح لي أنه إذا أريد معرفة الزمن العتيق فإنه يجب أن تكون القاعدة الأولى هي الاعتماد على الشواهد التي تأتينا

منه حقاً إن هؤلاء الكتاب يتكلمون عن ملجأ أى عن حائط مقدس قبل فيه رومولوس كل أولئك الذين تقدموا إليه وهو فى هذا قد اتبع المثل الذى أعطاه به الكثيرون من مؤسسى المدن (١) لكن هذا الملجأ لم يكن البلدة بل إنه لم يفتح إلا بعد أن أسست البلدة وتم بناؤها (٢) فكان ذلك ملحقاً مضافاً إلى روما ولم يكن روما نفسها بل إنه لم يكن جزءاً من بلدة رومولوس إذ أنه كان واقعاً على أكمة الكابيتوليوم بينما كانت البلدة تحتل هضبة البلاتيوم (Palatin) (٣) ومن المهم تمييز العنصر المزدوج فى أهالى روما تمييزاً جيداً ففى الملجأ كان المغامرون الذين لا بيت لهم ولا مكان وعلى البلاتيوم القوم الذين أتوا من ألبا (Albe) أى الذين كانوا منظمين فى مجتمع من قبل وهم موزعون على فصائل (gentes) وبطون (curiae) ولهم عادات منزلية وقوانين أما الملجأ فلم يكن إلا كمحلة أو ضاحية كانت الأكواخ تبنى فيها مصادفة وعلى غير قاعدة . وعلى البلاتيوم كانت تقوم مدينة دينية مقدسة

(١) Tite Live, I 8 Vetere consilio condentium urbes

(٢) تيتوس ليفيوس ١ ، ٨ . بعد أن روى تيتوس ليفيوس تأسيس البلدة على البلاتيوم وبعد أن تكلم عن أنظمتها الأولى أضاف Deinde asylum aperit

(٣) كانت البلدة (urbs) تحتل البلاتيوم وهو ما يثبته بصفة قاطعة ديونيسيوس ٢ : ٦٩ ؛ بلوتارخوس روموليوس ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١ ، ٧ ، ٣٣ ؛ فارون ؛ اللسان اللاتينى ٥ ، ٣٤ ؛ فستوس عند كلمة Quadrata ص ٢٥٨ ؛ أولوس جيليوس ١٣ : ١٤ . ويعطى تاسيتوس (Tacite) ؛ الحوليات ١٢ ، ٢٤ خط هذا السور الأول الذى لم يكن الكابيتوليوم (كابيتول) محصوراً به وبالعكس كان الملجأ (asylum) واقعاً على سفح الكابيتوليوم تيتوس ليفيوس ١ ، ٨ ؛ سترابون ٥ ، ٣ ، ٢ ؛ ديونيسيوس التواريخ ٢ ، ١٧ ؛ ديونيسيوس ٢ ، ١٥ فضلاً عن أنه كان مجرد Lucus (غابة مقدسة) أو ἱερὸν ἄσυλον (ملجأ مقدس) كما كان يوجد فى كل مكان فى إيطاليا وفى بلاد الاغريق .

أما عن الطريقة التي أسست بها هذه المدينة فمن المهم تقديم بعض المعلومات. فنجد منها في ديونيسيوس الهاليكارناسي الذي كان يستمدها من مؤلفين أقدم منه، ونجد منها في بلوتارخوس وفي شعر أوفيديوس عن الأعياد (Fastes)، وفي تاسيتوس، وفي كاتون الأكبر الذي تصفح الحوليات القديمة، وفي كاتبين آخرين يجب أن يحتلا في نفوسنا ثقة خاصة وهما العالم فارون (Varron) والعالم فريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) الذي احتفظ لنا فستوس بجزء من مؤلفاته. وكان هذان العالمان على معرفة كبيرة بآثار روما القديمة. كلاهما محب للحقيقة، وغير مصدّق لكل ما يقال. وعارف بقواعد النقد التاريخي معرفة لا بأس بها. نقل إلينا هؤلاء الكتاب جميعاً ذكرى الاحتفال الديني الذي تم به تأسيس روما. ولا يحق لنا أن نرفض مثل هذا العدد من الشهادات.

ليس من النادر أن نصادف لدى القدماء وقائع تثير فينا العجب. فهل في ذلك ما يبرر نعتها بأنها خرافات. وعلى الأخص إذا كانت هذه الوقائع، التي تبتعد كثيراً عن الأفكار الحديثة، تتفق تماماً مع آراء الأقدمين. لقد رأينا في حياتهم الخاصة ديانة تنظم كل أعمالهم. ثم رأينا أن هذه الديانة قد نظمتهم في مجتمع. فأي عجب بعد هذا في أن يكون تأسيس مدينة عملا مقدساً كذلك، وأن يقوم روموس نفسه بهذه الشعائر التي كانت تراعى في كل مكان؟

أول ما كان يهتم به المؤسس هو اختيار موضع المدينة الجديدة. لكن هذا الاختيار، وهو شيء خطير اعتقدوا أن مصير الشعب موقوف عليه، كان متروكاً دائماً لتقرره الآلهة. فلو أن روموس كان إغريقياً لاستشار وحي دلفي (Delphes)، ولو كان سمنياً (Samnite) لتتبع الحيوان المقدس، مثل الذئب أو الطائر الصرد (pivert). أما وهو لاتيني وجار قريب للأتروسك، على علم بالعيافة (زجر الطير) (١) فقد طلب من الآلهة أن يكشفوا له عن إرادتهم بطيران

(١) شيشرون، في الكهانة، ١، ... بلوتارخوس، كاميلوس ... بلينيوس ١٤، ٢ ... ٨، ٢

الطيور ، فدلته الآلهة على البلاتيوم .

وجاء يوم وضع الأساس فبدأ بتقديم قربان . ثم قام هؤلاء أصحابه يحيطون به ، يوقدون ناراً من الحطب وكل واحد منهم يقفز خلال اللهب الخفيف (١) . وتفسير هذه الشعيرة أنه يجب أن يكون الشعب طاهراً لأجل العمل الذى سيتم وكان القدماء يعتقدون أنهم يتطهرون من كل دنس جسمانى أو خلقى بقفزهم خلال اللهب المقدس

وعندما أُعِدَّ هذا الاحتفال الافتتاحى تمهيداً لعملية التأسيس العظيمة يحفر رومولوس حفرة صغيرة مستديرة الشكل ويلقى فيها كتلة من الثرى الذى أتى به من مدينة ألبا (٢) ثم يقترب كل واحد من أصحابه فى دوره ويلقى مثله قليلا من الثرى الذى أحضره من الإقليم الذى أتى منه وهذه الشعيرة الدينية جديرة بالملاحظة وتكشف لنا عند هؤلاء الناس عن فكرة من المهم أن نشير إليها فقبل مجيئهم على البلاتيوم كانوا يقطنون ألبا أو بلاداً أخرى مجاورة لها . هنالك كان موقدهم وهنالك عاش آباؤهم ودفنوا والديانة تحرم ترك الإنسان للأرض التى ثبت فيها موقده والتى يرقد فيها أسلافه الإلهيون فكان لا بد إذن للتخلص من كل إثم أن يعمد كل واحد من هؤلاء الناس إلى حيلة وأن يحمل معه فى صورة رمزية مدرة من الثرى من تلك الأرض المقدسة التى دفن فيها أسلافه والتى ترتبط بها أرواحهم ولم يكن الرجل يستطيع أن ينتقل إلى جهة أخرى إلا إذا أخذ معه أرضه وآلهته وكان لا بد أن تتم هذه الشعيرة الدينية لكى يستطيع أن يقول وهو يشير إلى المكان الجديد الذى اتخذه إن هذه أيضاً أرض آبائى terra patrum patria هى وطنى إذ أن هنا أرواح أسرتى

كانت الحفرة التى ألقى فيها كل واحد منهم بقبس من الثرى تسمى موندوس Mundus ، وهذه الكلمة كانت تدل فى اللغة الدينية القديمة على إقليم الأرواح

(١) ديونيسيوس ١ ، ٨٨ .
(٢) بلوتارخوس رومولوس . ديون كاسيوس شذرة ١٢ . أوفيديوس الأعياد ٤ ، ٨٢ . فستوس تحت لفظ Quadrata

بصفة خاصة (١) . ومن هذا المكان ذاته كانت أرواح الأموات تخرج ، كما تقول الأثارة . ثلاث مرات في العام متطلعة لرؤية الضوء لحظة ما (٢) . ألسنا نرى بعد ذلك في هذه الأثارة الفكرة الحقيقية هؤلاء القدماء ؟ لقد اعتقدوا بوضعهم مدرة من ثرى وطنهم القديم في الحفرة أنهم حصروا فيها أرواح أسلافهم أيضاً ولكن هذه الأرواح مجتمعة هنا أن تتلقى عبادة دائمة وأن تسهر على سلامة ذريتها وقد وضع روملوس في نفس هذا المكان مذبحاً وأوقد ناراً . فكان ذلك موقد المدينة (٣)

وحول هذا الموقد كان يجب أن تقوم البلدة كما يقوم المنزل حول الموقد المنزلي وقد خط روملوس شقاً يبين السور وهنا أيضاً تحدد الشعائر أصغر التفاصيل يجب أن يستعمل المؤسس سكة (٤) من النحاس ويجر محراثه ثور أبيض وبقرة بيضاء وقد قبض روملوس نفسه على مقبض المحراث وهو مقنع الرأس مرتدياً الملابس الكهنوتية . ووجه المحراث وهو ينشد الأدعية ومشى أصحابه خلفه في صمت ديني وكلما رفعت السكة كتلة من الثرى ألقوا بها بعناية . داخل السور لكيلا تكون أية ذرة من هذه الأرض المقدسة في

Plutarque, *Romulus* 11 *Καλοῦσι δὲ τὸν βόθρον τοῦτον μοῦνδον* ;

sacratum diis manibus. Servius, *ad Aen.* III 134: *Aras Inferorum (vocant) mundos*

(٢) بل نستعير التعبير mundus patet على هذه الأيام الثلاثة التي كانت الأرواح تخرج فيها من مساكنها .

Varron dans Macrobe *Saturn.*, I, 16: *Mundus cum patet, Deorum tristium atque inferum quasi janua patet*. Festus, éd. Muller p. 156: *Mundum ter in anno patere putabant ... clausum omni tempore praeter hos tres dies quos religiosos judicaverunt quod his diebus ea quae occulta religionis deorum manium essent in lucem adducerentur*

Ovide, *Fastes* IV, 822: *Fossa repletur humo plenaeque imponitur ara Et novus accenso fungitur igne focus*

وقد بنى الموقد من بعد . وعندما اندمجت البلدان الثلاثة ي على البالاتيوم والكابيتوليوم والكويرينال في بلدة واحدة وضع الموقد المشترك أو المعبد فوق أرض محايدة بين التلال الثلاثة

(٤) السكة هي حديدة المحراث . ـــ المعرب .

ناحية الأجنبي (١)

وهذا السور الذي رسمته الديانة مصون لا يُمس. وليس لأجنبي ولا لمواطن أن يتخطاه. والقفز فوق هذا الشق الصغير عمل غير صالح. كانت الأثارة الرومانية تقول إن أخا رومولوس قد ارتكب هذه الخطيئة ودفع حياته ثمناً لها (٢).

وقد كان الشق مقطوعاً في بعض المواضع لكي يكون للدخول إلى البلدة والخروج منها متسعاً. وللوصول إلى ذلك كان رومولوس يرفع السكة ويحملها. تلك الفرجات تسمى portae، تلك هي أبواب البلدة (٣).

وعلى الشق المقدس أو وراءه بقليل يقوم السور فيما بعد. وهو مقدس أيضاً (٤). ليس لأحد أن يمسه بغير إذن من الأحبار حتى لإصلاحه. وعلى

(١) بلوتارخوس، رومولوس، ١١؛ ديونيسيوس الهاليكارناسي، ١، ٨٨؛ أوفيديوس: الأعياد ٤، ٨٢٠ وما بعدها.

Varron, *De ling. lat.*, V, 143: *Oppida condebant in Latio, Etrusco ritu, junctis bobus, tauro et vacca interiore, aratro circumagebant sulcum; hoc faciebant religionis causa, die auspicato. Terram unde exculpserant, fossam vocabant, et introrsum jactam murum.* Festus, éd. Muller, p. 375: *Urvat ... ab eo sulco qui fit in urbe condenda sulco aratri.* وهذه العادة معروفة ومألوفة حتى إن فرجيليوس عندما وصف تأسيس بلدة بدأ بوصف هذا العمل:

Interea Aeneas urbem designat aratro (V, 755).

(٢) Plutarque, *Quest. rom.*, 27: [illegible] *δοκεῖ Ῥωμύλος ἀποκτεῖναι τὸν ἀδελφὸν ὡς ἄβατον καὶ ἱερὸν τόπον ἐπιχειροῦντα διαπηδᾶν καὶ ποιεῖν βέβηλον.*

(٣) Caton, cité par Servius: *Urbem designat aratro: quem Cato in Originibus dicit morem fuisse; conditores enim civitatis taurum in dextra, vaccam intrinsecus jungebant, et incincti ritu Gabino, id est, togae parte caput velati, parte succincti, tenebant stivam incurvam, ut glebae omnes intrinsecus caderent, et ita sulco ducto loca murorum designabant, aratrum suspendentes circa loca portarum* (Servius, *Ad Aen.*, V, 755).

(٤) Cicéron, *De nat. deorum*, III, 40: *muri urbis quos vos, pontifices, sanctos esse dicitis diligentiusque urbem religione quam moenibus cingitis.* Gaius, II, 8: *sanctae quoque res velut muri et portae, quodammodo divini juris sunt.* Digeste, I, 8, 8: *muros esse sanctos.* Ibid. 11: *Si quis violaverit muros, capite punitur.*

خارج هذا السور تركوا بجانبه حرماً من بعض الجهات ويسمونه *pomoerium*، ولا يسمح بمرور المحراث فيه ولا إقامة أي مبنى عليه (١)

هكذا كان الاحتفال بتأسيس روما وفقاً لجمهرة من الشواهد القديمة وإذا سألنا كيف أمكن الاحتفاظ بذكراه حتى وصلت إلى الكتاب الذين نقلوها إلينا فجوابه أن هذا الاحتفال كان يعود به إلى ذاكرة الشعب في كل عام احتفال تذكاري يسمونه يوم ميلاد روما (٢). وكان يحتفل بهذا العيد في كل زمن تقدم من عام إلى عام، ولا يزال الشعب الروماني يحتفل به في اليوم في نفس التاريخ الذي كان يحتفل به فيه، يوم الحادي والعشرين من شهر أبريل، وهكذا ظل الناس مخلصين لعاداتهم القديمة خلال تقلباتهم التي لا تنقطع

وليس من المعقول أن يكون رومولوس كان أول من تصور مثل هذه الشعائر على العكس، من المؤكد أن كثيراً من المدن قد شيدت على نفس النمط قبل روما. يقول فارون إن هذه الشعائر كانت شائعة بين اللاتين والأتروريين وغيرهما

Varron, V, 143: *Postea qui fiebat orbis, urbis principium; ... postmoerium dictum, quo urbana auspicia finiuntur. Cippi pomoerii stant circum ... Romam.* Tite-Live, I, 44: *Pomoerium ... locus quem in condendis urbibus quondam Etrusci certis terminis inaugurato consecrabant, ut neque interiore parte aedificia moenibus continuarentur ... et extrinsecus puri aliquid ab humano cultu pateret soli ... Neque habitari neque arari fas est.*

أعطى أولوس جيليوس (١٣ : ١٤) التعريف الذي وجده في كتب المتخيرين augures :
Pomoerium est locus intra agrum effatum per totius urbis circuitum pone muros regionibus certis determinatus, qui facit finem urbani auspicii.

(٢) Plutarque, Romulus, 12: Καὶ τὴν ἡμέραν ταύτην ἑορτάζουσι Ῥωμαῖοι, γενέθλιον τῆς πατρίδος ὀνομάζοντες.
Pline, *Hist. nat.*, XVIII, 66, 247: *XI Kalendas maias urbis Romae natalis.* Cf. *Corpus inscript. lat.*, t. I, p. 340-341: *Natalis urbis Romae.*

كاتون الأكبر ، الذى رجع إلى حوليات جميع الشعوب الإيطالية لكى يكتب كتابه عن الأصول (origines) ، أن جميع مؤسسى المدن استعملوا شعائر مماثلة. وكانت عند الأتروسك كتب للطقوس قيدت فيها شعائر كمنفذه الاحتفالات (١)

كان الإغريق يعتقدون كالإيطاليين أن المعبود هو الذى يجب أن يختار موضع المدينة وأن يكشف عنه . لذلك كانوا يستشيرون وحى دلفوى (Delphes) عندما كانوا يريدون تأسيس مستعمرة (٢) . ويذكر هيرودوت أنه كان من الإثم أو الخطأ أن تجرأ دوريوس (Doriée) الإسبرطى على بناء مدينة ، دون استشارة الوحى ودون القيام بأى احتفال من الاحتفالات المنصوص عنها ، ولم يدهش المؤرخ الورع من أن مدينة بنيت دون مراعاة القواعد لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام (٣) . وعندما ذكر ثوقيديديس اليوم الذى أسست فيه اسبرطه ذكر الأناشيد الورعة والقرابين التى قدمت فى ذلك اليوم (٤) . ويخبرنا نفس المؤرخ أنه كان للأثينيين شعائر خاصة وأنهم لم يؤسسوا مستعمرة قط دون السير على مقتضاها (٥) . ويمكن أن نرى فى هزلية لأرسطوفانيس صورة على شىء من الدقة للاحتفال المألوف فى مثل هذه الحالة . حين كان الشاعر يصف ما مثل التأسيس المضحك لمدينة الطيور كان يفكر حتماً فى العادات المرعية فى تأسيس بلاد الآدميين ، هذا وضع على المسرح كاهناً يوقد موقداً وهو يدعو الآلهة ، وشاعراً ينشد الأناشيد ، وعرافاً يجيب بنبوءة الوحى

(١) كاتون فى سرفيوس ، ٥ ، ٧٥ ، فارون ، اللسان اللاتينى ٥ : ١٤٣ .
فستوس تحت كلمة Rituales ص ٢٨٥

Rituales nominantur Etruscorum libri in quibus praescriptum est quo ritu condantur urbes, arae, aedes sacrentur, qua sanctitate muri.

(٢) هيرودوت ٤ ، ١٥٦ ؛ ديودوروس ١٢ ، ١٢ ؛ بوسانياس ٧ ، ٢ ؛ أثينيوس ٨ ، ٦٢ .

(٣) هيرودوت ٥ ، ٤٢ .

(٤) ثوقيديديس ٥ ، ١٦ .

(٥) ثوقيديديس ٣ ، ٢٤ .

تجول بوسانياس في بلاد الإغريق حوالي عصر هادريانوس وعندما وصل إلى إقليم مسينه(١) حمل الكهنة برووبلة تأسيس مسينه ونقل إلينا روايتهم(٢) لم يكن الحادث قديماً جداً فقد وقع في عهد إبامينونداس (Epaminondas). وكان المسينيون قد طردوا من بلادهم قبل ذلك بثلاثة قرون . ومنذ ذلك الوقت وهم يعيشون متفرقين بين الإغريق الآخرين دون أن يكون لهم وطن . لكنهم حافظوا في عناية شديدة على عاداتهم القومية وعلى دينهم وقد أراد الثيبيون أن يردوهم إلى البيلوبونيز لكي يقيموا عدواً في جنب إسبرطة . لكن أصعب [illegible] في الأمر [illegible] [illegible] ولم [illegible] إبامينونداس [illegible] قوماً [illegible] [illegible] أن [illegible] [illegible] [illegible] الشعب بالعودة إلى وطنه [illegible] [illegible] بعض الرؤى الخارقة للعادة على أن آلهة [illegible] القومية التي [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] وقد عادت مائلة إليهم وعندئذ عقد ذلك الشعب [illegible] على عزمه على العودة إلى البيلوبونيز في إثر جيش ثيبي كان عليهم أن يعرفوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إذ لم يكن هناك مجال للتفكير في العودة إلى [illegible] [illegible] [illegible] لقديمة لأن [illegible] [illegible] ولم تكن [illegible] [illegible] [illegible] لاختيار [illegible] [illegible] [illegible] ألا وهي [illegible] [illegible] [illegible] إذ أن [illegible] [illegible] [illegible] من حرب إسبرطة والحق [illegible] كانت [illegible] الآلهة وسائل أخرى لإعلان إرادتهم فقد رأى كاهن مسيني رؤيا ظهر له فيها واحد من آلهة أمته وقف [illegible] على جبل إيثومي (Ithome) وأنه يدعو الشعب إلى [illegible] به وهكذا [illegible] موضع [illegible] [illegible] [illegible] معرفة [illegible] اللازمة للتأسيس [illegible] المسينيين كانوا قد نسوها . [illegible] يكن في استطاعتهم أن يتبعوا [illegible] [illegible] ولا [illegible] أي شعب آخر ولم يكونوا يدرون كيف [illegible] [illegible] وفي وقت [illegible] [illegible] رؤيا مسيني آخر أمرته الآلهة بالانتقال على جبل إيثومي والبحث عن شجرة [illegible] [illegible] [illegible] شجرة [illegible] (…rte) [illegible] وحفر الأرض في ذلك الموضع [illegible] وكشف جرة

(١) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الإغريق وهي [illegible] [illegible] [illegible] في جزيرة [illegible]

(٢) بوسانياس [illegible]

وبداخل الحفرة صفائح من القصدير منقوش عليها كل شعائر الاحتفال المقدس . فمسح الكهنة صورتها فوراً وكتبوها في أسفارهم . ولم يفتهم أن يعتقدوا أن ملكاً قديماً من ملوك السبينيين وضع الحفرة في ذلك المكان قبل غزو البلاد

فلما استحوذوا على الشعائر بدأ وضع الأساس . فقدم الكهنة في الأول قرباناً ودعوا آلهة سبينه القدماء وهم الديوسقوران وجوبيتر لإيثوى والأبطال القدماء والأسلاف المعروفون المحدودون . والظاهر أن جهة البلاد هؤلاء كانوا قد غادروها طبقاً لعقائد الأقدمين في اليوم الذي أصبح فيه العدو سيداً على البلاد . فاستحلفوهم أن يعودوا . وسوء عزائم من شأنه أن يحرمهم على سكنى البلدة الجديدة بالمشاركة مع المواطنين . وقد كان ذلك هو المهم . فإن حمل الآلهة يستقرون معهم هو أكثر ما كان يتطلع إليه هؤلاء الناس ويمكن الاعتقاد بأنه لم يكن للاحتفال الديني هدف آخر . فكما أن أصحاب رومولوس حفروا حفرة واعتقدوا أنهم أودعوها أرواح أسلافهم كذلك كان معاصرو إپامينونداس يدعون إليهم أبطالهم وأسلافهم الإلهيين وآلهة الإقليم . واعتقدوا أنهم بهذه العزائم والشعائر يربطونهم بالأرض التي سيحتلونها هم أنفسهم ويحبسونهم في السور الذي سيحفرونه . لذلك كانوا يقولون لهم « تعالوا معنا أيتها الكائنات الإلهية واسكنوا معنا في هذه المدينة » . وقضوا يومهم الأول في هذه القرابين وهذه الأدعية . وفي اليوم التالي حفروا السور بينما كان الشعب ينشد الأناشيد الدينية

وإن الإنسان ليدهش أولاً عندما يرى في مؤلفين القدماء أنه ما من مدينة مهما كانت قديمة لا تدعي معرفة اسم مؤسسها وتاريخ تأسيسها . ذلك لأن البلدة لم تكن تستطيع أن تنسى ذكرى الاحتفال المقدس الذي عين مولدها . إذ أنها كانت تحتفل بذكراه كل عام بقربان . فكانت أثينا تحتفل بيوم مولدها . وكذلك كانت روما (١)

(١) Plutarque, *Thésée*, 24 : Ἔθυσε τὰ μετοίκια, ἣν ἔτι καὶ νῦν θύουσι.
يلاحظ سيرفيوس (الحاشية على سكستوس ...) أنه كان من المعتاد في برنديزي في اليوم الذي كان يحتفل فيه باسم يوم مولدها ; *Idem dies natalis coloniae Brundisinae*

كثيراً ما كان يحدث أن تستعمر جماعة أو عرق في بلدة مبنية من قبل ، فلم يكن عليهم أن يبنوا بيوتاً إذ ما من شيء يحول دون سكناهم بيوت المغلوبين لكن كان عليهم أن يقوموا بحفلة التأسيس أي أن يضعوا موقدهم هم وأن يثبتوا آلهتهم القوميين في مقرهم الجديد . وهذا نقرأ في توكيديدس وفي هيرودوت أن الدوريين أسسوا اسبرطة والايونيين ميليتوس (Milet) مع أن هاتين المدينتين وجدتا قبل هذين الشعبين كانتا قديمتين جداً في ذلك الحين

نرى أن هذه العادات توضح ماذا كانت المدينة في فكر القدماء . كان يحوطها سور مقدس ، وتمتد حول مذبح . وبذلك كانت تعد المسكن الديني الذي يتلقى آلهة المدينة وأبطالها على حد [illegible] . قال تيتوس ليفيوس عن روما « ليس في هذه البلدة مكان لم يتشبع بالدين ولا يشغله معبود ما [illegible] الآلهة يسكنونه » وما قاله تيتوس ليفيوس عن روما كان يستطيع كل إنسان أن يقوله عن مدينته لأنه إذ كانت قد أسست طبقاً لشعائرها تكون قد تلقت بداخل سورها آلهة حماة كانوا قد غرسوا في أرضها ولن يفارقوها أبداً . كانت كل مدينة مقدساً وكل مدينة كان يمكن أن تدعى مقدسة (١)

كما أن الآلهة كانت ملازمة للمدينة إلى الأبد فقد كان من الواجب على الشعب أيضاً ألا يترك المكان الذي استقرت فيه آلهته . فقد كان هناك في هذا الصدد تعهد مشترك ونوع من العقد بين الآلهة والناس . [illegible] (tribuns) يوماً أن روما [illegible] خربها الغاليون [illegible] كومة من خرائب وأنه على بعد خمسة أميال [illegible] كانت توجد مدينة كاملة [illegible] جميلة ذات موقع حسن . [illegible] [illegible] والاستيلاء في فييس [illegible] لكن كاميلوس [illegible] قائلاً [illegible]

(١) Ἱερὴ Ἴλιος ، Ἱεραὶ Ἀθῆναι أرسطوفانيس : الفرسان [illegible] ، Λακεδαίμονι δίῃ ثيوغنيس : البيت ٨٣٧ . ويقول ثيوغنيس عند الكلام على ميغارا Ἱερὰν πόλιν بوسانياس [illegible] Ἱερὰ τῆς Ἀθηνᾶς ἐστιν ἡ πόλις

أسست صنعاً للدين ، وإن الآلهة أنفسهم عينوا موضعها ويستقرون فيها مع ذلك ، وبالرغم من أنها كلها خرائب فإنها لا تزال مسكن آلهتنا القومية . فبقى الرومان في روما .

فقد كان هناك شيء مقدس وإلهي يلازم طبيعة هذه المدائن التي أقامتها الآلهة (١) والتي استمروا يملأونها بحضورهم . وإنا نعرف أن الأثارات الرومانية كانت تعد روما بالخلود ، وكان لكل مدينة أثارات شبيهة بهذه . فقد كانوا يبنون جميع البلدان لكي تكون خالدة .

---

(١) Ἀθῆναι θεόδμητοι, Troja Neptunia . انظر وغيس البيت ٥٥٧ (طبعة ولكر Welcker)

الفصل الخامس

عبادة المؤسس: أسطورة إينياس (Enee

المؤسس هو الرجل الذى يقوم بالعمل [illegible] الذى بدونها لا يمكن أن توجد البلدة . فهو الذى كان يضع موقد [illegible] يجب أن تشتعل عليه النار المقدسة إلى الأبد . وهو الذى كان يدعو الآلهة بدعواته وشعائره ويثبتها فى [illegible] الجديدة إلى الأبد .

وإن [illegible] الاحترام [illegible] أنه كان يلازم هذا الرجل المقدس فى حياته كان يرى الناس فيه مؤلف العبادة و[illegible] المدينة ؛ وبعد مماته كان يصبح سلفاً مشتركاً لكل الأجيال [illegible] بعده ، فكان بالنسبة للمدينة كما كان السلف الأول [illegible] للأسرة [illegible] [illegible] كى تدوم نار الموقد [illegible] وكانوا [illegible] [illegible] . [illegible] المدينة [illegible] [illegible] وكانت [illegible] على قبره [illegible] والأعياد كل عام (١)

[illegible] أن رومولوس [illegible] [illegible] فقد [illegible] الشيوخ [illegible] لكنهم لم يستطيعوا أن يحرموه من العبادة التى كانت

(١) [illegible] [illegible] ، ١٤٣ - ١٤٥ .
يطلق [illegible] على مؤسس [illegible] (Hyporchemes fr 1) [illegible]
إنشاء [illegible] للمؤسس [illegible] هيرودوت و[illegible]

Herodore VI 38 [illegible]
Diodore de Sicile, XI, 78 [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التى أنشأت لأراتوس [illegible]

من حقه باعتباره مؤسساً (١) وكذلك كانت كل مدينة تعد من أسسها فقد كانت في ثيبة معابد لكيكروبس وثيسيوس اللذين كانا يعتبران مؤسسي أثينا الواحد بعد الآخر وكانت أبديرا Abdere تعد القرابين لمؤسسها تيمسيوس Timésios وكذلك ثيرا (Thera لثيراس Theras وتنسوس لتنيس (Ténès) وديلوس لأنيوس (Anios وقرينة لباتوس (Battos وميلتوس لنيليوس (Nelée) وأمفيبوليس لهاغنون Hagnon (٢) وفي عهد بيسيستراتوس ذهب شخص يدعى ملتيادس ليؤسس مستعمرة في شبه جزيرة خرسونيس Chersonese في تراقيا فأنشأت له هذه المستعمرة عبادة بعد موته بصفة كونه مؤسسها، ومن أشهر هيرون (Hiéron) طاغية سيراقوسه [illegible] بعد [illegible] مؤسسها (٣)

[illegible] من شيء كان [illegible] مدينة [illegible] ذكرى تأسيسها [illegible] الإغريق في [illegible] من الميلاد [illegible] كل [illegible] عن [illegible] مؤسسها [illegible] الأحداث في حياته [illegible] من المستطاع أن يخرج هذا الاسم وهذه الأحداث من [illegible] كان [illegible] وكانت [illegible] ذكر [illegible] الأحداث [illegible]

وقد [illegible] مدن كثيرة من [illegible] الإغريقية [illegible]

(١) بلوتارخوس [illegible] ديونيسوس [illegible] T [illegible] P [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] جمهورية [illegible]

[illegible]

[illegible] Ennius [illegible]

Simul inter
Sese sic memorant: O Romule, Romule die,
Qualem te patriae custodem Di genuerunt!
O pater, o genitor, o sanguem Dis oriundum,
Tu produxisti nos intra luminis oras,

(٢) هيرودوت [illegible]
[illegible] بلوتارخوس [illegible] الإغريقية
٢٨ [illegible]

(٣) هيرودوت [illegible] ٣٨ [illegible]
[illegible]
Sabini etiam regem suum primum Sangum retulerunt in Deos

ب ١٣/١٤

تأسيس بلدة . فقد تغنى فيلوخوروس (Philochore) بتأسيس سلامين ، وأيون بتأسيس خيوس ، وكريتون بتأسيس سيراقوسة وزوبيروس بتأسيس ميليتوس ؛ وقد ألف أبولونيوس وهرموجنس وهيلانيكوس وديوقليس قصائد أو روايات عن نفس الموضوع . وقد لا تكون هناك بلدة واحدة لم تكن لها قصيدتها أو على الأقل نشيدها عن تلك العملية المقدسة التى أنشأتها .

ومن بين كل هذه القصائد القديمة ، التى كان موضوعها التأسيس المقدس لبلدة من البلاد ، قصيدة واحدة ممتدة . لأنه إذا كان موضوعها قد جعلها عزيزة على مدينة فإن جوها قد جعلها عزيزة على جميع الشعوب وجميع القرون . من المعروف أن إينياس Enée أسس لافينيوم (Lavinium) التى خرج منها أهالى ألب والرومان ، وبذلك كان يعتبر أول مؤسس لروما وقد تكونت موضوعات مجموعة من الأساطير والذكريات التى نجدها مدونة من قبل فى أبيات الشعر القديم لنيفيوس Naevius وفى تواريخ كاتون الأكبر . وقد سيطر فرجيليوس على هذا الموضوع وكتب القصيدة القومية للمدينة الرومانية .

ووصول إينياس أو بالحرى انتقال آلهة طروادة إلى إيطاليا هو موضوع الإنيادة Enéide . وتغنى القصيدة بهذا الرجل الذى جاب البحار لكى يؤسس بلدة ويحمل آلهته إلى اللاتيوم

dum conderet urbem
Inferretque Deos Latio (١)

يجب ألا نحكم على إينياس من واقع آراء الحديثة . يشكو الإنسان فى بعض الأحيان من أنه لا يجد فى إينياس جرأة ولا اندفاعاً ولا حماساً . ويتعب من صفة البر التى تتكرر بلا انقطاع . ويدهش من رؤية هذا المحارب يستشير آلهته المنزلية (بيناتس) بعناية أشد . ويدعو فى كل مناسبة معبوداً ما . ويرفع ذراعه نحو السماء حين يجب القتال . ويترك الوحى يدفعه فوق جميع البحار ويسكب الدمع عند رؤية الخطر . كما أنه لا يجوز للإنسان أن يلومه على فتوره

(١) تعريبها : حتى أن يؤسس بلدته وينقل آلهته إلى اللاتيوم . (فرجيليوس . الإنيادة ، ، ٥ ، ٦) . معرب

عن ديدون ، وتحدثه نفسه بأنها هنا تقف بأنه لا يحركه شيء .

Nullis ille movetur
Fletibus, aut voces ullas tractabilis audit (١)

ذلك لأن الأمر هنا ليس أمر محارب أو بطل رواية وإنما أراد الشاعر أن يرينا كاهناً . فإينياس هو رئيس عائلة ، ورجل مقدس ، المؤسس الإلهي الذي رسالته هي انقاذ پناتس المدينة .

Sum pius Aeneas raptos qui ex hoste Penates
Classe veho mecum. . (٢)

وصفته العامة يجب أن تكون البر . وهذا البعث الذي يبعثه به شاعره أعنى الأحبار هو الذي يبين به أحسن من سواه وعصبيته يجب أن تكون بعدم شخصية بعداً بارداً سمياً لا يجعله بشراً بل يجعله آلة في يد الآلهة تسدد تبحث فيه عن الشهوات إنه لا حق له فيها ويجب عليه أن يدفعها إلى أعمق منه

Multa gemens multoque animum labefactus amore,
Jussa tamen Divum insequitur. (٣)

كان إينياس في هوميروس شخصية مقدسة وكاهناً عظيم . كان الشعب يمجده كمثيل للآلهة ، وكان جوبيتر يؤثره على هكتور . وهو في فرجيليوس حارس آلهة طروادة ومقدساتها ، ظهر له هكتور في رؤيا أثناء الليلة التي قضى فيها على طروادة ووقف به واستودعه طروادة آلهتها ، ابحث عن مدينة أخرى . وفي نفس الوقت سلمه الأشياء المقدسة والنار الخالدة ونار الموقد التي يجب ألا تخمد . لم يكن هذا حلم رؤية وصفها هوى شاعر ، إنه ينعكس الأساس الذي تقوم عليه القصيدة كلها . إذ بهذا الحلم أصبح إينياس مستودع آلهة المدينة وكشف له عن رسالته المقدسة

(١) تعريبها : ما من عبرة تحركه ولا من كلمة تسترقه (فرجيليوس : الإنيدة ٤ : ٤٣٨ – ٤٣٩) – المعرب .

(٢) تعريبها : أنا إينياس البر الذي يحمل معه في سفينته الپناتس التي استخلصها من العدو (فرجيليوس : الإنيدة ١ : ٣٧٨ – ٣٧٩) المعرب

(٣) تعريبها : كان كثير الأنين ، وقد عصف بنفسه حب شديد ، إلا أنه كان يتبع أوامر الآلهة (فرجيليوس : الإنيدة ٤ : ٣٤٤ – ٣٩٥) . المعرب

فمنك بله حروده سكن مدة حرو ده م ميف ، ونقص يسس لم يعوء موقد ولا ترب مآخذ عدد . مد فرس لديه و لأنه مع بيس وحسب شحر وكشف عن دمم يسمح هـ وقوف هد

Considere Teucros

Errantes ... deos agitataque numina Trojae (1)

سحث يسس لأد . نه عن مقر شب مهم كي صد

D s ... (2)

سكن حس ... ت ... لا موقف عن ... هو ... يسس سكه ... نوحي فهو لا ... مقسه ظرعه وهد ... لأن وجهه

... (3)

كب ... موقف ... وفرعه مع ديدوت ... سكن ... لأنه ... نوحي ... معوم دقعة دكة ... رعبته في ... عراده

حب لا ... حنيق ... سكن يسس ... حروفة هدد لأنه ... ممصوع لانيب هو ... لأنه ... معوم ... كي حسن ... سوقهم

... (4)

١ ...

... فقد ...

٢ ... لأنه ...

٣ ... الغرب .

٤ ... ترجيبوس : لأنسيد ، ... — ... غرب

ويشكون أن تشغلهم مصلحة أو أن يصيبهم حب امرأة لكنهم يتصبرون على كل شيء ويصبون إلى هدفهم [illegible]

Fata viam invenient.

هذا ما كان لا بد له من أن يوقظ اهتمام الرومان [illegible] في هذه القصيدة كانوا يرون [illegible] وموسمهم وبلادهم وأنظمتهم وعقائدهم ومن صور [illegible] ولا هذه الفكرة وحدة [illegible] الرومانية (١)

[illegible]

الفصل السادس

آلهـــة المدينة

يجب ألا ننسى أن رباط المجتمع بأكمله في العصور القديمة هو العبادة ، فكما أن الموقد المنزلي كان يجمع حوله أعضاء الأسرة فكذلك المدينة كانت مجتمع أولئك الذين كانوا يتعبدون نفس الآلهة الحامية والذين كانوا يقومون بالعمل الديني لدى نفس الموقد .

وموقد المدينة هذا كان محصوراً داخل سور مبنى كان يسميه الإغريق برتانيون Prytanée (1) ويسميه الرومان معبد فستا (2)

(1) كان يسمى لدى الإغريق [illegible] الذي يحوي الموقد 'Εστία .. οὕτω δ' ἂν κυριώτατα καλοίης τὴν ἐν πρυτανείῳ, ἐφ' ἧς τὸ πῦρ τὸ ἄσβεστον ἀνάπτεται Pausanias, V,15,5: ἐν αὐτῷ τῷ πρυτανείῳ, οἴκημα ἔνθα ἡ Εστία ويقول ديونيسيوس الهاليكارناسي (2 : 23) أنه كان يوجد في بيت النار عند الإغريق موقد الأعضاء المشترك .

النار ἀσβεστος ἐν ταῖς ἑλληνικαῖς πρυτανείοις ἑστία κοινὴ τῶν φρατριῶν شارح بنداروس (النشيدات Neméennes ، [illegible]) ، [illegible] ثوكيديدس 2 : 15 ، كان هناك بيت نار في كل بلدة إغريقية ؛ في أثينا (ثوكيديدس [illegible] ، بوسانياس [illegible]) وفي سيقيون Sicyone هيرودوت 5 : 67) وفي ميجارا (بوسانياس 2 : 35) ؛ وفي إليس (بوسانياس [illegible]) وفي سيتوس ، هيرودوت [illegible]) وعند الآخيين (Achéens) في [illegible] (Phthiotes) هيرودوت [illegible]) وفي رودس بوليبيوس [illegible]) وفي [illegible] بوسانياس 8 : 9) وفي ثاسوس أثينايوس [illegible]) وفي [illegible] (Milyen) (أثينايوس [illegible] 24) وفي سيزيكا (تيتوس ليفيوس 41 : [illegible]) وفي [illegible] (أثينايوس 4 : 32) ؛ وفي سيراكوسه (شيشرون ؛ ضد فيريس De signis [illegible]) وحتى في [illegible] التي كان يقطنها بعض الإغريق (ديودوروس [illegible]) . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسي إنه لم يكن من الممكن في نظرهم أن يؤسسوا مدينة دون أن يقيموا الموقد المشترك أولا ([illegible]) وكانت في أسبرطة كاهنة تحمل لقب ἑστία πόλεως Boeckh, Corp. inscr. gr. t. I, p. 610

(2) لم يكن معبد فستا في روما إلا موقدا لمدينة القدس .

Cicéron De legibus II, 8 Virgines Vestales custodiunto ignem foci publici sempiternum Ibid II, 12 Vesta quasi focus urbis Ovide Fastes, VI, 291 Nec tu aliud Vestam quam vivam intellige flammam

لم يكن في البلدة شيء أقدس من هذا المذبح الذي كان يعنى فيه بالنار مقدسة دائماً. حقاً إن هذا المعتقد الكبير قد ضعف في وقت مبكر في بلاد الإغريق إذ أن الخيال الإغريقي قد انساق به معابد أكثر جمالاً وأساطير أكثر خصباً وتماثيل أكثر بهاء. لكنه لم يضعف قط في روما. فإن الرومان لم ينفكوا عن الاعتقاد بأن مصير المدينة مرتبط بهذا الموقد الذي كان يمثل آلهتها (١) وبأن الاحترام الذي كانوا يحيطونه للفستاليس على أهمية كهنوتية (٢). فإذا أتى قنصل إحداهن في طريقه كان يحني حزمه fasceaux أمامها (٣)

يقابل ذلك أنه إذا تركت إحداهن النار تنطفئ أو دنست العبادة بارتكاب ما ينافي واجب العفة كانت المدينة تعتقد أنها أصبحت مهددة بفقد آلهتها فتنتقم من الفستاليس بوأدها وهي لا تزال حية (٤)

(١) Tite Live, XXVI, 27: *Conditum in penetrali fatale pignus romani imperii.* Ciceron, *Philippiques*, XI, 10: *Quo salvo salvi sumus futuri.*

(٢) كان الحجب يحنون أمام أرباب منصب العشائر في روما حزماً من العصي وكان كل حاجب يحمل واحدة وإذا كانوا خارج روما كانوا يحملون مع الحزمة فأساً. وعدد الحزم هو بنسبة المنصب. وكان للقنصل اثنا عشر حاجباً يسيرون أمامه بحزمه.

(٣) *Virgines sanctae* هوراسيوس *Odes* ١، ٢، ٢٧ *sanctissimum sacerdotum* (سيسرون، من أجل الجيب ٢٠) انظر سيسرون الدفاع عن فونتيوس ٢٠.

(٤) تيتوس ليفيوس ٢٨، ١١؛ فستوس ص ١٠٦ *Ignis Vestae si quando interstinctus esset, virgines verberibus afficiebantur a pontifice*

لم يكن يستطاع إيقاد النار من جديد إلا بطريقة عتيقة ودينية. فستوس، شرحه: *Mos erat tabulam felicis materiae tamdiu terebrare quousque ignem cribro aeneo virgo in aedem ferret*

كاد معبد فستا أن يحترق ذات يوم باندلاع نار شبت في المنازل المجاورة فروّعت روما إذ شعرت أن مستقبلها في خطر. فلما انقضى الخطر حث مجلس الشيوخ القناصل على البحث عن مدبري الحريق وسرعان ما اتهم القنصل بعض أهالي كابو capoue الذين كانوا عندئذ في روما لا لأنه كان لديه أي دليل على إدانتهم بل لأنه قدّر هكذا: «هدد حريق موقدنا وليس من الممكن أن يوقد هذا الحريق الذي كان يؤدي إلى خصم عظمتنا ووقف مصائرنا، إلا بيد أشد أعدائنا قسوة وليس لنا أعداء أشد من أهالي كابوا. تلك المدينة التي هي في الوقت الحاضر حليفة هانيبال، والتي تتطلع إلى أن تكون في مكاننا عاصمة لإيطاليا. فهؤلاء الناس إذن هم الذين أرادوا أن يقضوا على معبد فستا، موقدنا الخالد، رهن عظمتنا المقبلة وضمانها» (١). وهكذا كان يعتقد أحد القناصل تحت سيطرة ديانته أن أعداء روما لم يجدوا وسيلة للتغلب عليها أضمن من إبادة موقدها. تلك هي عقائد الأقدمين. كان الموقد العام هو موقد المدينة [illegible] هو [illegible] أشد [illegible] وهو الذي يحفظ عليها

كما أن عبادة الموقد المنزلي كانت سرية وأن للأسرة وحدها كانت صلاحية الحق في المشاركة فيها كذلك كانت عبادة موقد المدينة محجوبة عن الغرباء. فما من أحد يستطيع أن يشهد القربان منهم إلا إذا كان مواطناً. فمجرد نظرة من الأجنبي كانت تدنس العمل الديني (٢).

كان لكل مدينة آلهة لا يسمونها إلا هي. وفي العادة كانت هذه الآلهة من نفس طبيعة آلهة ديانة الأسرات الأولى. وكانوا يسمونهم كما كانوا يسمون هؤلاء: لارس، بيناتس، جن genius، شياطين demons، أبطال (٣).

(١) تيتوس ليفيوس ٢٦، ٢٧.

(٢) Ἱερὰ ἀπόρρητα, ἱερὰ ἀθέατα [illegible] بلوتارخوس [illegible] ديونيسيوس [illegible] فرجيليوس [illegible] ٨ ٤ بوسانياس [illegible] أسخولوس [illegible]

(٣) Penates publici (تيتوس ليفيوس ٣: ١٧) Lares publici (بلينيوس؛ [illegible] Et vigilant nostra semper in urbe Lares [illegible] (أوفيديوس، الأعياد ٢: ٦١٦). شيشرون: الدفاع عن سكستيوس ٢٠: Te patrii testor et vos Penates patriique dii ماكروبيوس ساتورناليا [illegible] De diis Romanorum propriis, id est, Penatibus
Servius, ad Aen., II 351: Genio urbis Romae

وما هي، تحت ستار هذه الأسماء، إلا أرواح بشرية أنهى الموت حياتها. فقد رأينا أن الإنسان في الجنس الهندوأوروبي كان يعتقد أولا في القوة الخفية الخالدة التي يحس بها في نفسه. هؤلاء الجن وهؤلاء الأبطال هم في أغلب الأحوال أسلاف الشعب (١). وكان يدفن الجسد إما في المدينة نفسها وإما في الأرض المحيطة بها، وحيث أن الروح لم تكن تغادر الجسم كما بيناه آنفاً فقد نتج عن ذلك أن هؤلاء الأموات المؤلهين كانوا مرتبطين بالأرض التي دفنت فيها عظامهم. وكانوا يسهرون على المدينة من أعماق قبورهم، كانوا حماة البلاد وكانوا إلى حد ما رؤساءها وسادتها. وعند هذا التعبير، رؤساء البلاد، يطلق على الموتى في وحي وجهته لبثيا (Pythie) إلى صولون: «مجّد بالعبادة رؤساء البلاد، الموتى الذين يسكنون تحت الثرى (٢)». وقد أتت هذه الآراء من السلطة الفائقة التي كانت تنسبها الأجيال الأولى للروح البشرية بعد الموت، وكان يصبح إلهاً للمدينة كل رجل أدى لها خدمة جليلة من مؤسسها إلى من أحرز لها نصراً أو أدخل تحسيناً على قوانينها (٣). بل لم يكن من الضروري أن يكون رجلا عظيماً أو محسناً، بل يكفي أن يؤثر على عقلية معاصريه تأثيراً قوياً وأن يجعل نفسه موضوعاً لإثارة شعبية لكي يصبح بطلا أي ميتاً قوياً ترجى حمايته ويخشى غضبه. وقد استمر الطيبيون عشرة قرون وهم يقدمون القرابين

(١) Plutarque, Aristide, 11. Οἱ μὲν γὰρ ἥρωες, οἷς ἐκέλευε θύειν, ἀρχηγέται Πλαταιέων ἦσαν. Sophocle, Antigone, 199. Γῆν πατρῴαν καὶ θεοὺς τοὺς ἐγγενεῖς. تسمى هذه الآلهة δαίμονες ἐγχώριοι. قارن عند اللاتينيين الـ dii indigetes، فرجيليوس [illegible]؛ أوفيد، [illegible].

(٢) Plutarque, Solon, 9. Ἀρχηγοὺς χώρας θυσίαις ἥρωας ἐνοίκους ἱλάσω, οἳ φθίμενοι δέρκονται ἐς ἥλιον δύνοντα. تصبح هذه الألفاظ الأخيرة إشارة إلى عادة الأثينيين في دفن موتاهم بتوجيههم نحو الغرب (بلوتارخوس : صولون ١٠).

(٣) كان ليكورج Lycurgue في إسبرطة معبد وتقدم له القرابين والأعياد، هيرودوت ١ : ٦٥؛ بلوتارخوس، ليكورج ٣١؛ plate في سيرته ٨، ٥. كان ثيسيوس إلهاً في أثينا وكان أرجوسيس يكرم بعده عند المسينيين بوسانياس ٤ : ٣٢؛ والإيا كيديين (Eacides) في إيجينا (Egine) هيرودوت ٥، ٨٠؛ ويمكن أن نرى في بوسانياس عدد الأبطال المحليين الذين كانت تمجدهم كل مدينة.

لإتيوكليوس (Etéocles) وپولينيكوس (Polynice) (١) وكانت سكان أكنث (Acanthe) يؤدون عبادة لأحد ... خشايرشا (Xerxes) (٢)
وكان هيپوليتوس يمجد كإله في ترزن (Trézène) (٣)، وكان پرهوس (Pyrrhus) بن أخيلوس (Achille) ... في دلفي (Delphes) الأشياء ... فيها ودفن بها (٤) وكانت كروتون (Crotone) تؤدي عبادة لأحد الأبطال ... واحد فيها أنه كان في حياته أجمل رجل في بلده (٥) وكانت ... يوريسثيوس (Eurysthée) ... أحد ... كان من أرجوس، ويفسر ... يوريپيديس ... هذه العبادة ... على مسرح يوريسثيوس ... وهو يقول للأثينيين ... في أنك ... تكون عضواً ... وسأكون في باطن الأرض صيفاً حامياً لبلدكم (٦) ... أوديپوس (أوديب) في قولونوس (Colone) على ... كريون (Creon) وثيسيوس (Thésée) أي ثيه ... على ... أن يموت وأن يكون ... أوديپوس ... الأسطورة ... وعين هو ... المكان الذي يريد أن يدفن فيه ... أكون ... وإن ميت ... قطعاً لا ... لإقليم (٧) ... عنكم ... خصومكم . وسأكون لكم سوراً أقوى من ملايين من ... (٨) إن جثماني الراقد تحت الثرى سيشرب من دم ... الثيبيين . » (٩)

(١) بوسانياس ٩ : ١٨ .
(٢) هيرودوت ٧ : ١١٧ .
(٣) ديودوروس ٤ : ٦٢
(٤) بوسانياس ١٠ : ٢٣ ؛ بندارוס : النميات Néméennes ٧ : ٥٠ وما بعدها.
(٥) هيرودوت ٥ : ٤٧ .
(٦) أوريپيديس : هراكليس (Héraclides) ١٠ : ٣٢ .
(٧) سوفوكليس : أوديپوس في قولونوس ٩٢٧ .
(٨) شرحه ٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٥ .
(٩) شرحه ٦٢ ... ٩٢٢ ... في أنه ... الذي كانت ترقد فيه عظام أوديپوس و ... Ἐρεῖον ... كان يلقى فيه التكريم ... (بوسانياس ١ : ٣٠ ، ١٢٦) ... بأنه كان للثيبيين أسطورة أخرى عن أوديپوس .

كان الموتى ، أيا كانوا ، حماة للبلاد على شرط أن تقدم لهم العبادة . وطلب الميغاريون ذات يوم من وحى دلفوى كيف تكون مدينتهم سعيدة . فأجاب الإله إنها ستكون كذلك لو اهتموا دائماً بالمداولة مع أكبر عدد . ففهموا أن الإله إنما يعنى بهذه الألفاظ الموتى الذين هم فى الواقع أكثر عدداً من الأحياء وبناء عليه بنوا غرفة مجلسهم فى ذات المكان الذى كان فيه مدفن أبطالهم (١) لقد كان حظاً كبيراً لمدينة ما أن يكون لها موتى على شىء من المكانة . فكانت مانتينه (Mantinée) تتكلم بشغف عن رفات أركس (Arcas) ، وثيبة عن رفات غيريون (Géryon) ومسينه عن رفات أرستومينيس (٢) ولكى يحصلوا على هذه الرفات الثمينة كانوا فى بعض الأحيان يستعملون الخدع . ويذكر هيرودوت بأية خدعة استخلص الإسبرطيون رفات أورستيس (٣) والحق أن هذه الرفات ، التى كانت تلازمها روح البطل ، جلبت النصر للاسبرطيين فوراً . وعندما حصلت أثينا على السلطة كان أول ما استعملتها فيه هو نزع رفات ثيسيوس التى كانت قد دفنت فى جزيرة سكيروس (Scyros) ووضعتها فى معبدها فى المدينة كى تزيد فى عدد حماتها من الآلهة .

علاوة على هؤلاء الأبطال وأولئك الموتى كان للناس آلهة من جنس آخر أمثال جوبيتر وجونون Junon ومنرفا . جذبت بطبيعتها أفكار الناس إليها . ولكننا رأينا أن هذه الآلهة فى حضيض الإدراك البشرى ظلت زمناً طويلاً تتصف بصفات المعبودات المنزلية أو العائلية . ولم يتصوروا فى البدء هذه الآلهة ساهرة على الجنس البشرى بأكمله بل اعتقدوا أن كلا منها كان ينتمى إلى أسرة أو مدينة خاصة .

ولهذا كان من المألوف أن يكون لكل مدينة ، بغض النظر عن أبطالها ،

(١) بوسانياس ١ ، ٤٣ . ويعثر على أسطورة مشابهة وعلى نفس العادة فى مدينة تارنت (Tarente) الإغريقية (بولبيوس ٨ : ٣٠) .

(٢) بوسانياس ٤ : ٣٢ ؛ ٨ : ٩ ، ٨ ، ٣٦ .

(٣) هيرودوت ١ ، ٦٧ - ٦٨ ، بوسانياس ٣ : ٣ .

جوبيتر أو ميرفا أو أي معبود آخر شركة مع آلهتها المنزلية (بناتس) الأولى ومع موتاها. وكان في بلاد الإغريق وإيطاليا جمهرة من معبودات المدينة (Poliades) فكان يمكن تسميتها [illegible] (١)

وقد بقيت أسماء الكثير من المعبودات وقد كان من المعتقد أن احتفظوا بذكر لإله ساتراپيس (Satrapes) الذي كان ينتمي إلى بلدة إيليس Elis ولآلهة دندمينه (Dindymene) في ثيبة، والإلهة سوتيرا Soteira في إيجيوم (Aegium) وبريتومارتيس Britomartis في جزيرة قريطش وهيبلايا (Hyblaea) في هيبلا Hybla. أما أسماء ونيس وأثينا وهيرا وجوبيتر ومينرفا فهي معروفة أكثر من سواها ونعلم أنها كثيراً ما كانت تطلق على هذه المعبودات المحلية. ولكن ليحذر من يستنتج أن مدينتين كانتا تعبدان نفس الإله لأنهما كانتا تطلقان نفس الاسم على إلهيهما. فقد كانت هناك إلهة تدعى أثينا في أثينا وكانت هناك أخرى في سبرطة وكانتا إلهتين (٢). وقد عبد عدد كبير من المدن جوبيتر إلهاً لها فكان هناك من الآلهة جوبيتر بقدر ما كان من مدن. وترى في أسطورة حرب طروادة إلهة تدعى پالاس Pallas تحمي طروادة وتحمي عدوها (٣) فهل يقال إن نفس المعبود هو الذي كان يظهر في الجيشين؟ كلا. إذ

(١) [illegible] Πολιοῦχοι (٤٠:٩ [illegible]
(أيسخيلوس [illegible] ἀστυνόμοι (٢٠٧ [illegible]
(أيسخيلوس [illegible]
Vitruve, I, 7: Quorum deorum in tutela civitas videtur esse
Macrobe, III, 9. Constat omnes urbes in alicujus dei esse tutela
Hesychius Πολιοῦχοι, οἱ τὴν πόλιν σώζοντες καὶ οἱ ἄρχοντες τῆς
Di patrii quorum semper [illegible] ويعبر وجيليوس عن نفس الفكرة
sub numine Troja est [illegible] أرسطوفانيس [illegible]
Τίς [illegible]) بحاجة كل مدينة إلى اليقاء بأعضاء قسمها معبود مدينة
Τὰ δὲ θεοὶ πόλιν χοῦ ἔχουσι - كانت هذه المعبودات تسكن الإقليم وتمسكه.
θεοὶ ὅσοι τὴν χώραν ἔχουσι τὴν Ἀττικήν [illegible] ديكوستينيس [illegible]
[illegible] أرسطيديس [illegible] Θεοὶ οἱ τὴν Πελοπόννησον ἔχουσι . ليكورج
Ἀθηνᾶν τὴν χώραν εἰληχυῖαν [illegible] أبولونيس

(٢) ثوسيديدس [illegible]
(٣) الإلياذة [illegible]

لم تكن العبادة [illegible] لأنهم [illegible] في مكان في [illegible] وجد (١)
كان [illegible] من [illegible] أرغوس وساموس معبودة [illegible] تدعى [illegible] ولم تكون
[illegible] واحدة [illegible] في كل من [illegible] أوصاف [illegible] وكانت
في روما معبودة تدعى جونون (Junon) وعلى بعد خمسة [illegible] كان [illegible]
(Juno) آلهة أخرى [illegible] حيث [illegible] الكابيتول
[illegible]
[illegible]
وهو [illegible] في [illegible] ونصبها في روما في
روما [illegible] جونون [illegible]
[illegible]
Preneste [illegible] (٢)

لم تكن [illegible] معبودة [illegible] لأحد
ولم تكن [illegible]
[illegible] أرغوس [illegible] الدخول في معبد هيرا في
أرغوس [illegible]
أن [illegible]
جونون [illegible] جونون [illegible] في
[illegible] Lanuvium [illegible] (٤)

(١) [illegible] Δόξαν τὸ [illegible] [illegible]
[illegible] Tegee [illegible]
[illegible]

(٢) [illegible] أرغوس [illegible]
[illegible] (Jupiter Capitolin) وجوبيتر الرعد
Jupiter Tonnant [illegible]

(٣) هيرودوت [illegible] أخرى تدعى
هيرا [illegible] لا [illegible] حتى في
الدخول إلى معبد أثينا [illegible] أرغوس.

(٤) [illegible]

لا بد من الاعتراف بأن القدماء، إذا استثنينا بعض النادرين من صفوة الأذكياء، لم يتصوروا الله قط ذاتاً واحدة تهيمن بعملها على الكون، فكان لكل واحد من آلهتهم التي لا تحصى نطاقه الصغير، فهذا أسرة، وذلك قبيلة، وللآخر مدينة. وكان ذلك هو العالم الذي يكفي لآلاء كل واحد منهم. أما إله الجنس البشري فإن بعض الفلاسفة قد استطاع أن يتصوره تخميناً، وربما استطاعت أسرار إليوسيس Eleusis أن تجعله يتراءى لأذكى من لقنوها. لكن العامة لم تعتقد فيه مطلقاً. وقد ظل الإنسان دهراً طويلاً لا يفهم الذات الإلهية إلا كقوة تحميه هو بالذات، ويريد كل رجل وكل مجموعة من الناس أن تكون له إلهه. واليوم لا نزال نرى عند سلالة هؤلاء الإغريق فلاحين جفاة يدعون القديسين بحرارة، لكن يحدث شك في أن تكون لديهم فكرة عن الله، يريد كل منهم أن تكون له من بين هؤلاء القديسين حام خاص به، ومعين مقصور عليه. وفي نابولي لكل حي سيدة (مادونا: السيدة العذراء) فالمتشرد lazzarone يركع أمام سيدة شارعه ويقذف في حق سيدة الشارع المجاور له. وليس من النادر أن نرى اثنين من الحمالين facchini يتشاجران، ويتضاربان بالمدى، من أجل مواهب سيدتيهما. تلك أمور استثنائية اليوم، لا نراها إلا عند بعض الشعوب وفي بعض الطبقات، لكنها كانت القاعدة عند القدماء.

كان لكل مدينة هيئة كهنة لا تتبع أية سلطة أجنبية، فلم تكن هناك أية رابطة بين كهنة مدينتين ولا أية صلة ولا أي تبادل في التعليم أو الشعائر. فإذا ما انتقل من مدينة إلى أخرى وجد هناك آلهة أخرى وتعاليم أخرى واحتفالات أخرى. كانت للقدماء كتب صلوات، لكن كتب هذه لم تكن تشبه كتب مدينة أخرى. كان لكل مدينة مجموعة صلواتها وسننها وكانت تحتفظ بها في سرية شديدة. وكانت تعتقد أنها تضر بدينها ومصيرها لو تركت الغرباء يرونها. وهكذا كانت الديانة محلية محضة، مدنية محضة، على أن نأخذ هذه

الكلمة الأخيرة للعقل. فقديمًا في حصة كل مدينة على حدة (١)
لم يكن الإنسان يعرف سوى آلهة مدينته ولم يكن يمجد غيرها أو يحترم سواها فكان يمكن وحده أن يقول ما يقوله أحد أبطال أرغوس في مأساة لأيسخيلوس «إني لا أخشى آلهة بلادكم ولست مدينًا لهم بشيء» (٢).

كانت كل مدينة تنتظر الخلاص من آلهتها. كانوا يدعونهم لدى الخطر ويقولون لها «يا آلهة هذه المدينة لا تهجروا بيوتنا ومواقدنا. وأنت التي تسكن أرضنا منذ زمن بعيد. هل تخونها؟ وأنتم جميعًا، يا حفظة أرضنا، لا تسلموها للأعداء» (٣). ما كان الناس يقيمون لهم عبادة لكي يعصموا أنفسهم حريتهم. كانت هذه الآلهة بهم مغرمين فكانوا يعدونها عليهم ولكن شرط أن يسهروا على سلامة مدينتهم. ويجب ألا ننسى أن فكرة العبادة. كانت مقصورة على عصبية الإله في كل مدينة تكن ما يريد خونة حلوى وكعك وخمر وعطور وملابس وحلى ورقص وموسيقى وفي مقابل ذلك كانوا يعدونه بالنعم والخيرات. فكان يقول خريسيس (Chryses) لإله في الإلياذة «منذ زمن طويل وأنا أحرق لك ثيرانًا سمانًا، واليوم تقبل دعوتي وأرسل سهامك على أعدائي». وفي مكان آخر تدعوا نساء طروادة إلههن وتقدمن له ثوبًا جميلاً ويعدنه بذبح عشرة بقرة وإذ أنقذت إليون Ilion (٤)، فكان هناك عقد دائم بين هذه الآلهة وهؤلاء الناس. لم تكن تتوى هؤلاء مجانًا ولم تكن أولئك يعطون بلا مقابل. يتحدث الثيبيون في أيسخيلوس عن آلهتهم للمدينة ويقولون: «كونوا حماتنا، فمصالحنا مشتركة. وإذا ازدهرت المدينة تحتفل آلهتها. ليعرفوا أنكم تحبون شعبنا، فكروا في العبادة التي يؤديها هذا الشعب لكم وتذكروا القرابين

(١) لم يكن هناك عبادة مشتركة في عدة مدن إلا في حالة الحلف. وسنتكلم عن ذلك فيما بعد.
(٢) أيسخيلوس: المتضرعات ٨٥٨.
(٣) أيسخيلوس: السبعة، الأبيات ٦٩ - ٧٣، ٥٠ ، ٩١ ، ١٣٩ ، ٦٨ - ١٧ .
(٤) الإلياذة ١ : ٣٧ وما بعدها؛ ٦ : ٩٣ - ٩٦ .

المعجزة المقدمة بمكة (١) فقد عبر الأقدمون عن هذه الفكرة مائة مرة :
يقول ثيوغنيس إن أبولون قد ميغار من عدوان [illegible] لكي تقدم له
[illegible] الذبائح السمينة كل عام » (٢)

ومن هنا جاء أنه من مدينة كانت تسمع للأجنبي بتقديم قرابين لآلهتها
المدنية، ولا حتى بمجرد مشاهدتها (٣) فكلا نعتبر الآلهة إلا على كائن من
الضروري ألا تتلقى عبادة إلا منهم وحيث أن الآلهة لم تكن تعبد إلا [illegible]
فقد كان دائماً عليهم [illegible] عن [illegible] التي كانت عزيزة
عليهم ، أن تحمي هذه المدن وأن تمنحها [illegible]

[illegible] أن هذه الآلهة كانت تعيش [illegible] من أجل مدنها [illegible]
[illegible] كيف كانت [illegible] ليحمي [illegible] لكي تخلص مدنها فريسة
عن [illegible] كل واحد من هذه الآلهة مشغولاً بمصلحة
مدينته كي [illegible] في [illegible] كان هؤلاء الآلهة [illegible]
[illegible] كانت مواطنيهم من [illegible] كانت تمشي وسطهم تلقاء
[illegible] الآلهة
التي [illegible] (٤) ولكن الإيغيبيون
[illegible] يطلبون [illegible] يمنحهم [illegible] قومهم.
[illegible] Eacides [illegible] Tyndarides
في جميع [illegible] (٥) [illegible] كل الآلهة [illegible]

(١) أسخيلوس [illegible] ٨١٠
(٢) ثيوغنيس طبعة ويلكر Welcker [illegible] طبعة بوسوناد
(Boissonade) البيت ٧٧٧ .
(٣) [illegible] أنه لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن هذه [illegible]
كثيراً مع الزمن [illegible]
لكن هذه الحكايات ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً .
(٤) أوريبيدس [illegible]
(٥) هيرودوت ٥ ، ٦٥ [illegible] ٨

فإذا جاء العدو فما ذلك إلا لأنهم قد نسوا جميعاً واجباتهم . وعلى العكس ، إذا انهزموا حملوا الآلهة مسؤولية الهزيمة . فكانوا يلومونهم على سوء قيامهم بواجبهم كمدافعين عن البلدة ؛ بل كانوا يلجئون في بعض الأحيان إلى هدم مذابحهم وقذف معابدهم بالأحجار (١)

وإذا غلبت بلدة كانوا يعتقدون أن آلهتها قد غلبت معها (٢) وإذا سقطت بلدة فإن آلهتها أنفسهم كانوا يؤسرون

على أن الآراء فيما يختص بالنقطة الأخيرة غير متأكدة وقد اختلفت فيها . فقد اقتنع الكثيرون بأنه لم يكن ممكناً الاستيلاء على مدينة كان يمكن أن يوجد بها آلهة مقيمة فيها . فإذا سقطت فما ذلك إلا لأنهم هجروها من قبل . عندما رأى إينياس (Enée) أن الإغريق قد استولوا على طروادة صاح بأن الآلهة المدينة قد رحلت متخلية عن معابدها ومذابحها (٣) وفي أيسخيلوس تعبر مجموعة المنشدين الطيبيين عن نفس العقيدة عندما تستحلف الآلهة عند قرب العدو ألا يهجروا البلدة (٤)

[illegible] كان لا بد للاستيلاء على مدينة من إخراج الآلهة منها وكان لهذا الغرض يستعمل الرومان صيغة معينة كانت في كتب شعائرهم وقد حفظها لنا ماكروبيوس [illegible] أيها الإله العظيم الذي في حمايته هذه المدينة ، أدعوك . وأتوسل إليك وأستعطفك أن تترك هذه البلدة وهذا الشعب ، وأن تهجر هذه المعابد وهذه الأماكن المقدسة ، وبعد أن تبتعد عنها ، أن تأتي إلى روما عندي وعند ذويّ ، فتكون بلدنا ومعابدنا وأماكننا المقدسة أكثر قبولاً وأعز

(١) سويتونيوس ؛ [illegible] De vita [illegible] [illegible]

(٢) فرجيليوس : الإنيادة ١ : ٦٨ ؛ Victosque Penates

(٣) فرجيليوس : الإنيادة ٢ : ٣٥١ ،

Excessere omnes, adytis arisque relictis,
Dî, quibus imperium hoc steterat

(٤) أيسخيلوس [illegible] (Etéocle) يقولون : إنه عند الاستيلاء على مدينة [illegible] الآلهة . مجموعة المنشدين [illegible] الآلهة [illegible] [illegible] [illegible] .

حدثا في رعايتك [illegible] فإني سأنشئ معبداً تكريماً لك (١) .
وقد كان القدماء مقتنعين أن هناك صيغاً بلغت من قوة الفعل والسلطان أنها لو نطقت بالضبط ، ودون أن يغير منها لفظ واحد ، فإن الإله لا يستطيع أن يقاوم طلب الناس ، ولأنه الذي يدعى على هذه الصورة ينتقل إلى العدو وتسقط المدينة (٢) .

ونجد في بلاد الإغريق نفس الآراء . ووجدت مشابهة لذلك . وحتى في عهد ثوكيديديس لم يكن [illegible] لكي يستحوذوا بالاستيلاء عليها (٣) . وفي كثير من الأحيان بدلا من استعمال صيغة لاجتذاب الإله كان يفضل الإغريق أن ينتزعوا تمثاله خلسة . ويعلم الجميع أسطورة أوديسيوس وهو يختلس تمثال پالاس ربة الطرواديين . وفي عصر آخر أراد سكان إيجينا Egine أن يحرزوا [illegible] فانتزعوا تماثيل حاميين لهذه المدينة ونقلوها عندهم (٤) .

(١) ماكروبيوس ، ساتورنال ٣ ، ٩ ؛ بلينيوس ، التاريخ الطبيعي ٢٨ ، ٤ ؛ ١٨ :
"In oppugnationibus ante omnia solitum a Romanis sacerdotibus evocari deum in cujus tutela id oppidum esset promittique illi eumdem aut ampliorem apud Romanos cultum."

(٢) على هذا [illegible] *καταδέσμοι* أو *Katadesmoi* ؛ انظر أفلاطون ، القوانين ١١ ، ص ٩٣٣ ؛ أوريبيديس [illegible] من ألفاظها لم يكن مفهوماً بل لم يكن يعد من اللغة الإغريقية ؛ انظر هيسيخيوس Hesychius عن كلمة *Ἐφέσια* . [illegible] يعتقدون أنه كان باستطاعتهم أن يلزموا الآلهة وأن [illegible] ويعبر فرجيليوس في هذه الأبيات .

Junonis magnae primum prece numen adora
Junoni cane vota libens, dominamque potentem
Supplicibus supera donis (*En.* III, 427-440).

معنى الدعاء *preces* ، والوعود *vota* والقرابين (*dona*) ؛ فتلك هي الأسلحة الثلاثة التي بها يمكن التغلب (*superare*) على حسن نية الربة .

(٣) ثوكيديديس ٢ ، ٧٤ .

(٤) هيرودوت ٥ ، ٨٣ .

يروي هيرودوت أن الأثينيين أرادوا محاربة أهالي إيجينا. لكن المحاولة كانت مليئة بالأخطار إذ أنه كان لإيجينا بطل حام ذو قوة عظيمة ووفاء فذ ألا وهو إياكوس (Eacus). فبعد أن فكر الأثينيون تفكيراً ناضجاً أخروا تنفيذ غرضهم ثلاثين عاماً. وفي نفس الوقت أقاموا في بلادهم محلاً لإياكوس هذا بالذات وخصصوا له عبادة. وكانوا على اعتقاد أنه إذا دامت هذه العبادة ثلاثين عاماً بلا انقطاع فإن الإله لن يتبع الإيجينيين بل الأثينيين. إذ أنه كان يبدو لهم أنه لا يمكن له أن يتقبل الأضحية السمينة مثل هذا الحين الطويل دون أن يصنع صنيعة أولئك الذين كانوا يقدمونها له. وإذن، سيجبر إياكوس في النهاية على ترك مصالح الإيجينيين ومنح النصر للأثينيين(١).

وفي بلوتارخوس نقرأ هذه القصة الأخرى: أراد صولون أن تكون أثينا سيدة جزيرة سلامين الصغيرة التي كانت عندئذ تابعة لميغاري. فاستشار الوحي فأجابه: «إذا أردت الاستيلاء على الجزيرة فيجب أن تحصل أولاً على عطف الأبطال الذين يحمونها والذين يسكنون فيها». فأطاع صولون، وباسم أثينا قدم قرابين لبطلي سلامين الرئيسيين. فلم يقاوم هذان البطلان الهبات المهداة إليهما وانتقلا إلى جانب أثينا. ولما حرمت الجزيرة من الحماة استولوا عليها(٢).

وإذا حاول المحاصرون في زمن الحرب أن يستولوا على معبودات البلدة فإن المحاصرين من ناحيتهم كانوا يعملون جهد الطاقة على الاحتفاظ بها. ففي بعض الأحيان كانوا يربطون الإله بسلاسل لتمنعه من الفرار. وفي أحيان أخرى كانوا يخفونه عن جميع الأعين حتى لا يستطيع العدو أن يجده، أو يعارضون الصيغة (العزيمة) التي يحاول العدو أن يغوي بها الإله بعزيمة أخرى من خاصتها أنها تحجزه. وقد تصور الرومان وسيلة لاحت لهم أكثر ضماناً: فكانوا يكتمون اسم أعظم حماتهم وأقواهم. وكانوا يظنون أنه ما دام الأعداء لا يستطيعون أن يدعوا هذا الإله باسمه فإنه لن ينتقل إلى جانبهم

(١) هيرودوت ٥ ، ٨٩ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ٩ .

قط وأن [illegible] (١)

ومن هنا نرى أن فكرة الوحدة كانت عند [illegible] من الآلهة [illegible] فقد ظلوا حينا طويلا لا يتصورون الإله على أنه سلطة عامة [illegible] فكل أسرة دينها [illegible] ولكل مدينة دينها القومية . وكانت [illegible] كمملكة صغيرة لها [illegible] وقواعد دينها وعباداتها [illegible] لكنها كانت عقائد شعب هو أكثر شعوب الدنيا [illegible] على هذا الشعب ، وعلى الشعب الروماني . [illegible] من [illegible] أكثر [illegible] و[illegible] قد صدر عن هذه [illegible] .

(١) Pline. Hist. nat. XXVIII, 4, 18. *Constat ideo occultatum in cujus dei tutela Roma esset, ne qui hostium evocarent.* — Macrobe, Sat. III, 9. *Ipsius urbis nomen etiam doctissimis ignotum est, caventibus Romanis ne, quod saepe adversus urbes hostium fecisse se noverant, idem ipsi hostili evocatione paterentur, si tutelae suae nomen divulgaretur.* — Servius, ad Aen. II, 351. *Romani celatum esse voluerunt in cujus dei tutela Roma sit, ne suis nominibus dii Romani appellarentur, ne exaugurari possint.*

الفصل السابع

ديانة المدينة

الأكلات العامة

رأينا أعلاه أن أهم احتفالات العبادة المنزلية هو أكلة كانوا يدعونها قرباناً. وإن جميع الظواهر لتوحي بأن أكلاً تجري على مذبح كان أول صورة جمعها الإنسان على شكل ديني. وكانت هذه الأكلة، التي كان يدعى إليها الآلهة، وفي كل عضو نصيبه منها، كافية لسد حاجته إلى الاتصال بالمعبود.

وكذلك كان الاحتفال الرئيسي لعبادة المدينة هو أكلة من هذا النوع. وكان الناس يقومون بها كل المواطنين مجتمعين تمجيداً للمعبودات الحامية. وكانت عادة هذه الأكلات العامة شاملة في بلاد الإغريق. وكانوا يعتقدون أن سلامة المدينة متوقفة على القيام بها (١).

ويمدنا الأوديسة بوصف إحدى هذه الأكلات المقدسة. فقد مدت تسع موائد طويلة لشعب بيلوس (Pylos) وجلس إلى كل واحدة منها خمسمائة مواطن وضحى كل جمع بتسعة ثيران تحيةً للآلهة. وهذه الأكلة التي كانت تسمى أكلة الآلهة تبدأ وتنتهي بالقرابين والأدعية (٢). كما تشير أقدم الآثار الأثينية إلى العادة القديمة في الأكل جماعة. فيروى أن أورستيس قاتل أمه وصل إلى أثينا في ذات اللحظة التي كانت المدينة تهم فيها بالقيام بالعمل المقدس مجتمعة حول مليكها (٣). كما نعثر على هذه الأكلات العامة في عصر إكسينوفون، ففي أيام معينة من السنة كانت تضحي المدينة بعدة ضحايا، ويقتسم

---

(١) Σωτηρία τῆς πόλεως σύνδειπνα أثينايوس ٥، ٢. يذكر بولوكس ١، ٣٤، الـ δημοθοινία أو الـ πανθοινία بين الأعياد الدينية.

(٢) الأوديسة ٣، ٥ - ٩، ٤٣ - ٥٠، ٣٣٩ - ٣٤١.

(٣) أثينايوس ١٠، ٤٩، نقلاً عن فانوديموس (Phanodeme).

الشعب لحومها (١). وكانت بعض هذه العادات موجودة في كل مكان (٢)

ومن بين هذه المآدب العظيمة التي كان يجتمع فيها كل المواطنين، والتي ما كانت تحدث إلا في الأعياد العظيمة، كانت تنص الديانة على أن تكون هناك أكلة مقدسة كل يوم. ولهذا الغرض كان يجب على بعض الرجال الذين تختارهم المدينة أن يأكلوا معاً باسمها داخل حرم بيت النار (البريتانيون) على مرأى من الموقد والآلهة الحماة. وكان الإغريق معتقدين أنه إذا قدر لهذه الأكلة أن تحذف يوماً واحداً فإن المدينة تصبح مهددة بفقدان عطف آلهتها عليها (٣)

وفي أثينا كانت القرعة تعين الرجال الذين كان عليهم أن يشتركوا في الأكلة المشتركة. وكان القانون يعاقب الذين يرفضون القيام بهذا الواجب عقاباً شديداً (٤). والمواطنون الذين يجلسون إلى المائدة المقدسة كانت تخلع عليهم مؤقتاً صفة كهنوتية، وكانوا يدعون پاراسيتس parasites وهذه الكلمة قد بدأت لقباً مقدساً وإن كانت قد أصبحت فيما بعد كلمة تدل على الازدراء (٥)

(١) Xenophon, Resp. Athen., 3: Θύουσιν δημοσίᾳ ἡ πόλις ἱερεῖα πολλά· ἔστι δὲ ὁ δῆμος ὁ εὐωχούμενος καὶ διαλαγχάνων τὰ ἱερεῖα. انظر شرح أرسطوفانس «السحاب» ٣٨٦، [illegible] بلوتارخوس [illegible] وإسوقراط (Areopagiticus, 29) [illegible] ἑστιάσεις [illegible] في أثينا.

(٢) Athénée V, 2: Οἱ νομοθέται τά τε φυλετικὰ δεῖπνα καὶ δημοτικὰ θοίνας [illegible] τὰ δημοτικὰ προσέταξαν καὶ τὰ φρατρικά [illegible] في أرغوس [illegible] (أثينايوس [illegible]) وبعض النصوص للأكلات المقدسة في [illegible] والتي كانت تتبع فيها [illegible] Ἡ πόλις καθ' ἑκάστην ἡμέραν θύει [illegible] καὶ δημοσίᾳ ἑστιάσεις ποιεῖται [illegible] يشير إلى هذه العادة في ٢٠ ؛ ٢٥. [illegible] (Nemeennes [illegible] (Tenedos) [illegible]

(٣) Athénée V, 2: Συνδειπνοῦσιν ἑκάστης ἡμέρας οἱ περὶ πρυτανεῖον συνηγμένοι καὶ σωτήρια τῶν πόλεων σύνδειπνα.

(٤) انظر مرسوماً كراتينوس [illegible] Ὃς ἂν μὴ θέλῃ παρασιτεῖν, εἰσαγέτω εἰς τὸ δικαστήριον.

(٥) Plutarque, Solon, 24: Ἴδιον δὲ τοῦ Σόλωνος καὶ τὸ περὶ τῆς ἐν δημοσίῳ σιτήσεως, ὅπερ αὐτὸς παρασιτεῖν κέκληκε. — Athénée, VI, 26: Τὸ τοῦ παρασίτου ὄνομα πάλαι ἦν σεμνὸν καὶ ἱερόν. Ἐν τοῖς παλαιοῖς νόμοις αἱ πλεῖσται τῶν πόλεων ἔτι καὶ τήμερον ταῖς ἐντιμοτάταις ἀρχαῖς συγκαταλέγουσι παρασίτους. [illegible] بولوكس ٦ ؛ ٣٥.

وفى زمن ديموستينس حتى الأرستقراطيين كل مدينة بيت النار كانوا لا يزالون مرغمين بالأكل معاً فى بيت النار. فقد كانت فى جميع البلدان قاعات معدة للأكلات المشتركة (١).

وعندما نرى كيف كانت تجرى الأمور فى هذه الأكلات، نتعرف جيداً على احتفال دينى. فكان على رأس كل من المتآكلين تاج. والواقع أنها كانت عادة قديمة أن يتوج الإنسان بورق الشجر والزهور كلما قام بعمل عظيم من أعمال الديانة. وكانوا يقولون «بقدر ما يزين الإنسان بالزهور بقدر ما يضمن رضاء الآلهة عنه. ولكنك إذا قدمت القربان دون أن يكون لك تاج فإنهم يتولون عنك»(٢). وكانوا يقولون أيضاً «التاج رسول بشائر الخير يرسله الدعاء أمامه نحو الآلهة»(٣). ولنفس السبب كان المدعوون يلبسون أردية بيضاء. فقد كان البياض هو اللون المقدس عند القدماء، وبه يكون المرء مرضياً للآلهة (٤).

كانت تبدأ الأكلة بالدعاء وإراقة السوائل، لا مبدل لذلك، وتنشد الأناشيد(٥). وكان كتاب الشعائر فى كل مدينة ينص على لون الأطعمة ونوع الخمر التى يجب تقديمها. وكان الخروج فى أى شىء عن العادة التى اتبعها الأسلاف، كتقديم صنف جديد أو تغيير نغمة الأناشيد المقدسة، يعد كفراً خطيراً تؤاخذ به المدينة بأكملها أمام الآلهة. بل كانت الديانة تذهب إلى حد تعيين صنعة الأوانى التى يجب استخدامها سواء لطهى الأطعمة أو لخدمة المائدة. ففى بلدة ما، كان لا بد من وضع الخبز فى سلال من النحاس. وفى بلدة أخرى

(١) ديموستينس، خطبة التاج ٥٣. أرسطو: السياسة ٧، ١ : ١٩، بوليموكيس ٨ : ١٥٥، بوسانياس ٥ : ١٥.
(٢) قطعة من سافو فى أثينيوس ١٥ : ١٦.
(٣) قطعة من خايريمون Chaeremon فى أثينيوس ١٥ : ١٩.
(٤) أفلاطون: القوانين ١٢ : ٩٥٦. شيشرون: عن القوانين ٢ : ١٨. فرجيليوس ٥ : ٧٠، ٧٧٤، ٧ : ١٣٥؛ ٨ : ٢٧٤. وكذلك عند الهنود كان لا بد فى الأعياد الدينية من لبس تاج وارتداء أردية بيضاء، قوانين مانو ٤ : ٦٦، ٧٢.
(٥) هرمياس فى أثينيوس (٤ : ٣٢)، *Τοῦ ἱεροκήρυκος τὰς πατρίους εὐχὰς καταλέγοντος συνσπένδοντες*

كان يجب ألا تستعمل إلا أوانٍ من الفخار . وكانت أشكال الخبز دائماً ثابتة لا تتبدل (١) ولم تفت قواعد [illegible] خدمة شديدة معمولاً بها أبداً . وحافظت الأكلات المقدسة على طابعها الأول فقد تغير كل شيء [illegible] العقائد والأخلاق والحياة الاجتماعية . ولم تتغير هذه الأكلات تغيراً ما فقد كان الإغريق على الدوام محافظين أدق محافظة على ديانتهم القومية

ومن الحق أن نضيف أنه بعد أن يرضي المتكئون الديانة بأكلهم الأطعمة المنصوص عليها كانوا يستطيعون أن يتناولوا فوراً أكلة أخرى أشهى وأكثر ملاءمة لذوقهم وهذه كانت عادة إسبرطة إلى حد ما (٢)

كانت عادة الأكلات المقدسة معروفة في إيطاليا بمقدار ما كانت معروفة في بلاد الإغريق يقول أرسطو إنها عادة كانت موجودة في القدم عند الشعوب المسماة أونوتريون (Oenotriens) وعند الأوسك (Osques) والأورون (Ausones) (٣) وقد دون فرجيليوس ذكرها مرتين في ملحمة الإنيادة (Enéide) [illegible] لاتينوس (Latinus) الشيخ [illegible] (Enée) في مسكنه بل في معبد ، قدسته ديانة الأسلاف . وهناك كانت تقام الولائم المقدسة بعد تضحية الأضاحي ، وهناك كان يجلس كل رؤساء الأسر معاً إلى موائد طويلة . وفيما بعد عندما وصل إينياس عند إيفاندروس (Evandre) وجده يحتفل بقربان [illegible] في وسط شعبه والجميع متوجون بالزهور ، وكلهم جالسون في نفس المائدة ينشدون نشيداً في مدح إله المدينة (٤)

استمرت هذه العادة في روما [illegible] فقد كانت هناك دائماً قاعة يأكل فيها ممثلو المدينة جماعة ، وفي بعض الأحيان كان مجلس الشيوخ يقوم بأكلة مقدسة في الكابيتول (٥) وفي الأعياد العامة كانت تمد موائد في الشوارع ويجلس

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) فرجيليوس [illegible]
(٥) [illegible] ديونيسيوس [illegible] جيليوس [illegible] ٥٩

الشعب بأكمله مكانه فيها . وفي الأصل كان الأحبار يترأسون هذه الأكلات ، وفي بعد كانوا يوكلون هذه المهمة إلى كهنة متخصصين يسمونهم إبولونيس (epulones) (١) .

تمثل هذه العادات القديمة بفكرة عن الرباط الوثيق الذي كان يربط بين أعضاء المدينة . فقد كانت الجماعة البشرية دينية . وكان رمزها أكلة يأكلونها جماعة .

يجب أن نتصور هذه الجماعات الصغيرة البدائية مجتمعة بأكملها ، أو على الأقل رؤساء الأسر فيها ، إلى مائدة واحدة . وقد ارتدى كل منهم رداء أبيض ووضع على رأسه تاجاً . وكلهم يريقون سوائل معاً ، ويرتلون نفس الصلاة ، وينشدون نفس الأناشيد ، ويأكلون نفس الغذاء المجهز على نفس المذبح ، والأسلاف حضور بينهم ، والآلهة يشاطرونهم الأكل . ومن هنا جاء الاتحاد الوثيق (صلة القرابة) بين أعضاء المدينة ، فإذا قامت حرب تذكر الناس ، حسب تعبير أحد القدماء ، أنه يجب ألا يتخلى المرء عن رفيقه في الصف ، فهذا الذي قدم معه نفس القرابين وأراق معه نفس السوائل وشاطره الأكلات المقدسة » (٢) .

والواقع أن هؤلاء الرجال مرتبطون بشيء أقوى من المنفعة ، ومن الاتفاق ، ومن العادة . كانوا مرتبطين بمشاركة مقدسة في الأكل تمت في ورع على مشهد من آلهة المدينة .

Cicéron, *De oratore*, III, 19: *Pontifices veteres propter sacrificiorum multitudinem tres viros epulones esse voluerunt* [illegible] *ut illud ludorum epulare sacrificium facerent*.

وكان يطلق لفظ epulum [illegible] على الأكلات التي تقدم لتمجيد الآلهة .

Festus, ed. Muller, p. 78: *Epulones* [illegible] *datum his nomen quod epulas indicendi Jovi ceterisque diis potestatem haberent*. Voyez Tite Live, XXV, 2; XXVII, 36; XXIX, 38; XXXIII, 42; XXXIX, 46, *in quo toto foro strata triclinia*.

Cicéron, *Pro Murena*, 36: *Cum epulum populo romano daret*.

Denys, II, 23: Μὴ καταλιπεῖν τὸν παραστάτην ᾧ συνέσπεισε (٢) καὶ συνέθυσε καὶ κοινῶν ἱερῶν μετέσχε [illegible] على الأكلات

لإسترضاء [illegible]

٢ — الأعياد والتقويم

في كل دين وفي كل مجتمع أراد الناس أن يكرموا آلهتهم بالأعياد فتقرر أن تكون هناك أيام لا تسود على روحه فيها غير العاطفة الدينية، دون أن تشغله الأفكار والأعمال الدنيوية. فجعل للآلهة نصيباً في عدد الأيام التي قدر له أن يحياها.

تنسب كل مدينة تقتضي شعائر كان أثرها في رأي القدماء أنها تثبت الآلهة القوميين في حقولهم وكان لا بد من تجديد فضائل هذه الشعائر كل عام بحفل ديني جديد، وكانوا يسمون هذا العيد يوم المولد، وعلى جميع المواطنين أن يحتفلوا به.

كان كل ما هو مقدس مصدراً لعيد فكان هناك عيد لسور المدينة (amburbalia) وعيد لحدود المقاطعة (ambarvalia). وفي تلك الأيام كان يؤلف المواطنون موكباً كبيراً مرتدين أرديتهم البيضاء ومتوجين بأوراق الشجر، ويطوفون حول المدينة أو المقاطعة وهم يرتلون الأدعية. وفي المقدمة يسير الكهنة يقودون الأضحية التي كان يضحى بها في نهاية الاحتفال (١).

أتى بعد ذلك عيد المؤسس. ثم أصبح لكل بطل من أبطال المدينة ولكل روح من هذه الأرواح التي كان الناس يدعونها كحامية كان ينصب عيدها. فكان لروميلوس عيده، ولسرفيوس توليوس وللكثيرين سواهم، حتى لمرضعة روميلوس ولأم إيفاندروس. وكذلك كان في أثينا عيد ككروبس وعيد إرختيوس وعيد ثيسيوس. وكانت تحتفل بكل واحد من أبطال الإقليم وهم ثيسيوس وأوريستيوس Eurysthée وأندروجيه Androgée وجمهرة أخرى

(١) فستوس، تحت كلمة Amburbiales؛ [illegible] ماكروبيوس، ساتورناليا
(٢) ووصف العيد في تيبولوس، الكتاب الثاني، élégie 1.

وكانت هناك أيضاً أعياد الحقول ، وعيد الحرث وعيد البذر وعيد الازدهار وعيد قطف العنب. وكان كل عمل في حياة المزارع في بلاد الإغريق وكذلك في إيطاليا مصحوباً بالقرابين وكانوا يقومون بالأعمال وهم يرتلون الأناشيد المقدسة. في روما كان الكهنة يعينون ، كل عام ، اليوم الذي يجب فيه قطف العنب واليوم الذي يستطيعون فيه أن يشربوا الخمر الجديد . كانت الديانة تنظم كل شيء ، والديانة هي التي تأمر بتشذيب الكروم لأنها كانت تقول للناس : إنه خطيئة أن تريقوا للآلهة خمر كرمة لم تشذب (١).

وكان لكل مدينة عيد لكل واحد من المعبودات التي اتخذتها حامية لها وهي كثيرة في أغلب الأحيان . فكلما أدخلت في المدينة عبادة معبود جديد كان لا بد من إيجاد يوم في السنة مخصص له . ومما تتميز به هذه الأعياد الدينية تحريم العمل (٢) وفرض المرح والجهر بالغناء والألعاب . وتضيف الديانة : حاذروا أن يؤذي بعضكم بعضاً (٣).

ولم يكن التقويم شيئاً آخر غير تتابع الأعياد الدينية ، لذلك كان الكهنة هم الذين يضعونه . وقد ظل في روما زمناً طويلاً دون أن يدونوه كتابة .

(١) Plutarque, *Numa*, 14 [illegible]. — Varron, *L. L.* VI, 16: *Aliquot locis vindemiae primum ab sacerdotibus publice fiebant, ut Romae etiam nunc; nam flamen dialis auspicatur vindemiam et, ut jussit vinum legere, agna Jovi facit.* — Pline, XVIII, 2: *Nec degustabant nova vina ante quam sacerdotes primitias libassent.*

عن الأعياد التي كان لا بد أن [illegible] *Georgiques* [illegible] ١، ٣٤٠ — ٣٥٠.

(٢) أفلاطون ، القوانين ، ٢ ص ٥٨٤ . ديموستينيس : ضد ميدياس ١٠.
Demosthène, *in Timocratem*, 29: [illegible]. — Cicéron, *De legibus*, II, 12: *Feriarum ratio in liberis requietem habet litium et jurgiorum, in servis operum et laborum.* — Macrobe, I, 16: *Affirmabant sacerdotes pollui ferias si opus aliquod fieret.*

(٣) [illegible] كريتوس :
In feriis olim cuiquam inferre piaculare est [illegible]
انظر سيسرون القوانين ٢ ، ١٢ : *requietem jurgiorum*

وكان الحبر [illegible] قرباناً ويدعو الشعب في أول يوم من شهر ويخبرهم بالأعياد التي تقع خلال الشهر. وكانوا يسمون هذه الدعوى كالاتيو (Calatio) ومنها أتى اسم كالينداي Calendae التي كانوا يطلقونه على ذلك اليوم (١).

لم يكن التقويم منظماً على أسس حركات القمر ولا على الحركات الظاهرية للشمس ولم يكن [illegible] إلا [illegible] وهي [illegible] لا يعرفها إلا الكهنة وحدهم. وكانت [illegible] أخرى [illegible] وتمكن تكوين فكرة عن [illegible] أن شهر [illegible] اثنين وعشرين يوماً [illegible] ستة وثلاثين يوماً (٢).

[illegible] في شيء [illegible] أخرى [illegible] لم يكن [illegible] وكانت الأعياد مختلفة [illegible] ولم يكن [illegible] أخرى ولم يكن [illegible] الأسماء [illegible] على طريقة [illegible] على طريقة [illegible] اسم كل شهر [illegible] ولم يكن الأعياد [illegible] لم [illegible] ولا على حساب سلسلة سنواتها [illegible]

٣ — [illegible]

من أهم [illegible] (٣) [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) Censorinus, *De die natali* 22

(٣) كانوا يسمون هذه العملية *lustratio* أو [illegible] [illegible] *lustrare* [illegible] *populum lustraret* [illegible] *Post quinquennium unaquaeque civitas lustrabatur*

في [illegible] كل [illegible] (١). أما في روما فلم يكونوا يقومون [illegible] كل أربعة أعوام [illegible] على [illegible] كل [illegible] على أن من فضائل هذا الاحتفال [illegible] في [illegible] كان الأذن [illegible] في الديانة و القيام الدقيق بفرائض [illegible] اقتراف اهمال أو نسيان أو خطأ. ولم [illegible] وقوعه تحت سوط غضب إله ما أو حفيظته فكان [illegible] وكان رجل [illegible] كل [illegible] كان [illegible] (٢) [illegible] حول [illegible] ومجموع هذه الحيوانات [illegible] ويتبع الموكب بعض الكهنة والمضحين [illegible] والضحية (٣) [illegible]

Diogene Laerce, Socrate, 23 [illegible] (١)
[illegible] ... πολίτας τῆς πόλεως ἐν τοῖς Θαργηλίοις, ἕνα μὲν [illegible]
[illegible]
[illegible]

(٢) [illegible] ٢ : ١٨٩ [illegible]

(٣) Tite-Live, I, 44. Suovetaurilibus lustravit. Denys d' Halic., (r. IV, 22. Κελεύσας [illegible]
[illegible]
[illegible] lustrum [illegible]
[illegible] III, 2, 9. Lustrale [illegible]
Cf. ibid. VIII, 183.

[illegible]
[illegible] sacrifi[illegible]
[illegible] pro[illegible]
[illegible]

تكون كل نجاسة قد محيت وكل نقصان في العادة قد صحح وأصبحت المدينة في سلام مع آلهتها

وكان لا بد من شيئين بالنسبة لعمل من هذا القبيل وبهذه الأهمية: أحدهما الاتصال أى أحسن بين المواطنين وهو أمر كان من شأنه إذا وقع أن يدخل الاضطراب في الاحتفال وينقصه . والآخر أن يكون جميع المواطنين حاضرين وبدون ذلك يبقى في المدينة بعض الدنس . فكان لا بد إذن من أن يسبق هذا الاحتفال الديني تعداد للمواطنين . فكانوا يحصونهم في روما وفي أثينا بعناية متناهية . ومن المحتمل أن رجال المدينة كان يذكر عددهم في صيغة الدعاء كما أنه كان يدون فيما بعد في التقرير الذي كان يحرره الرقيب عن الاحتفال

وكان فقدان حق المواطن هو عقاب الرجل الذي لم يسجل اسمه . وهذه القسوة لها ما يفسرها . فالرجل الذي لم يساهم في العمل الديني ، الذي لم يطهر الذي لم يتل من أجله الدعاء ولم تضح له الأضحية . هذا الرجل لم يكن في استطاعته أن يكون عضواً في المدينة بعد ذلك . لأنه لم يعد موضعاً أمام الآلهة التي شهدت الاحتفال ( )

gabantur (Valere Maxime, IV, 1, 10

وقد دامت هذه العادات إلى عصر الامبراطورية Vopiscus, *Aurélien*, 20

Lustrata urbe, cantata carmina ويرجح أن سيرفيوس تيليوس

(؛ : ٤٤) كان يعتقد ان سرفيوس هو الذي أنشأ هذا الاسار لكنه

عدم قدم روما ولم يعثر على دليل أن شعار *lustratio* سلاميوم أى بعد روميلوس

الأول . Varron, *De ling lat* IV, 34 *Februatur populus id est lupercis nudis lustratur antiquum oppidum Palatinum gregibus humanis cinctum.*

وربما كان سرفيوس توليوس (Servius Tullius) هو أول من وقع الشار الأول على البلدة التي زاد فيها وهو على الأخص الذي أنشأ التعداد الذي كان يصحب الشار لكنه لم يكن فقط معه .

(١) كان يمكن جلده بالسوط وبيعه كرقيق . ديونيسيوس ٤ ، ١٥ ، ٥ : ٧٥ ؛ سيسرون : الدفاع عن كيكينا (Caecina) ٣٤ ، قال عن مواطنين الغائبين عن روما أن ديو والقيود تنته لأى عذر أن يعفيهم من هذا الواجب . تلك كانت القاعدة في الأصل ، ولا تضعف إلا في القرنين الأخيرين من الجمهورية . فليوس (Velleius) ٢ : ٧ ، ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٤ : ٢٧ ؛ أولوس جليوس ٥ : ١٩

ويمكن أن نحكم على أهمية هذا الاحتفال من السلطة الهائلة التي كانت لرجل الدولة المترئس عليه . قبل أن يشرع الرقيب في التضحية كان يصف الشعب طبقاً لنظام معين : هنا الشيوخ ، وهناك الفرسان ، وفي مكان آخر القبائل ، وباعتباره سيداً مطلقاً في ذلك اليوم كان يعين مكان كل رجل في الفئات المختلفة . وعندما يصطف الجميع طبقاً لتعليماته كان يقوم بالعمل المقدس . وينتج من ذلك أنه ابتداء من ذلك اليوم إلى التطهير القادم كان يختص كل رجل في المدينة بالمرتبة التي عينها له الرقيب في الاحتفال ، فيكون شيخاً إذا عد في ذلك اليوم بين الشيوخ ، وفارساً إذا وضع بين الفرسان . وإذا كان مجرد مواطن فإنه كان ينتمي إلى القبيلة التي وضع بين صفوفها في ذلك اليوم . بل إذا رفض الرقيب قبوله في الاحتفال فإنه لا يكون مواطناً بعد ذلك . وهكذا كان المكان الذي شغله كل فرد في هذا الإجراء الديني ، والذي رآه الآلهة فيه ، هو المكان الذي يحتفظ به في المدينة مدة أربعة أعوام . ومن هنا كانت سلطة الرقباء العظيمة .

لم يكن يشهد هذا الاحتفال إلا المواطنون ، ولكن نساءهم وأطفالهم وأرقاءهم وأموالهم ، منقولة أو غير منقولة ، كانت تطهره بطريقة ما في شخص رئيس الأسرة . ولهذا السبب كان يتعين على كل فرد أن يعطي للرقيب قبل التضحية تعداد الأشخاص والأشياء المتعلقة به (١) .

وكان التطهير ينفذ في عهد أغسطس بمنتهى الدقة وبنفس الشعائر التي كان ينفذ بها في أقدم الأزمنة . وكان الأحبار لا يزالون يعتبرونه عملا دينياً ، وكان رجال الدولة يرون فيه ، على الأقل ، وسيلة سياسية هامة .

(١) سيسرون ، القوانين ٣ : ٣ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣ : ١٥ ؛ ديونيسيوس ٤ : ١٥ ، ٥ : ٧٥ ؛ بولوكس ؛ الفانتين ١ : ٩٣ ؛ بلوتارخوس ، كاتون الأكبر ١٦ .

٤- الديانة في المجمع، في مجلس الشيوخ، في المحكمة، في الجيش، النصر

لم يكن هناك عمل واحد من أعمال الحياة العامة لا يستحضرون الآلهة فيه. وحيث أنه كانت تتسلط على الإنسان فكرة أن الآلهة طورا يكونون حماة ممتازة وطورا أعداء ألداء فإنه لم يكن يجرؤ إطلاقاً على إتيان عمل ما دون أن يكون واثقاً من أنهم راضون عنه.

لم يكن الشعب يجتمع في المجمع إلا في الأيام التي تسمح بها الديانة فهم بذلك كانوا يتذكرون أن المدينة [illegible] في يوم معين. فلا يرتابون في أن الآلهة كانت في ذلك اليوم غائبة أو ساخطة. ثم لا ريب في أنه لا بد أن تكون [illegible] كل عام في نفس اليوم لأسباب خافية على البشر (١). وبذا يكون ذلك اليوم [illegible] إلى الأبد. فلا يجتمعون فيه ولا يتقاضون، بل كانت حياة العامة موقوفة فيه.

وفي روما كان لا بد قبل دخول الجلسة من التأكد من أن الآلهة راضية. وكان [illegible] يبدأ بصلاة [illegible] ويكرر [illegible] (٣)

وكان الأمر كذلك عند الأثينيين. [illegible] دائماً بعمل ديني. كان الكهنة [illegible] قرباناً، ثم يرسمون دائرة كبيرة [illegible] على الأرض

(١) عن هذه الفكرة من أفكار [illegible] Cassius Hemina في ماكروبيوس ١، ١٦.

(٢) عن أيام [illegible] انظر هسيودوس: الأعمال والأيام [illegible] وما بعده [illegible] ἡμέραι ἀποφράδες [illegible] انظر هيرودوت ٦، ١٠٦.
Plutarque, *De defectu oracul.*, 14; *De εἰ apud Delphos*, 20

(٣) شيشرون [illegible]
[illegible] ديونيسيوس الهاليكارناسي [illegible]
ليفيوس [illegible] *longum carmen [illegible]*

وبعد حل هذه الدائرة المقدسة يجتمع المواطنون (١) وقبل أن يتكلم أي خطيب كان يتلى دعاء أمام الشعب الصامت (٢) وكانوا يستشيرون الاستخارات أيضاً وإذا تجلت في السماء آية ما ذات طابع منحوس فإن المجلس كان يتفرق فوراً (٣) .

وكان للمنبر مكاناً مقدساً لا يصعد عليه الخطيب إلا وعلى رأسه تاج (٤) وقد قضت العادة زمناً طويلاً أن يبدأ خطابه بدعاء الآلهة

وفي روما كان المكان الذي يجتمع فيه مجلس الشيوخ هو أحد المعابد دائماً . وإذا عقدت جلسة في مكان آخر غير مقدس فإن القرارات التي تتخذ يلحقها البطلان إذ أن الآلهة لم يكونوا حاضرين (٥) وقبل كل مداولة يقدم الرئيس قرباناً ويتلو دعاء وكان في القاعة مذبح يريق عليه كل شيخ

(١) Eschine, *In Timarchum*, 23: *Ἐπειδὰν τὸ καθάρσιον περιενεχθῇ καὶ ὁ κῆρυξ τὰς πατρίους εὐχὰς εἴπῃ*. Id. *In Ctesiph.*, 2-6. Pollux, VIII 104 *Περιστίαρχοι ἐκάθαιρον χοιριδίοις τὴν ἐκκλησίαν*. ومن هنا كلمة أرسطوفانيس *Ἐντὸς τοῦ καθάρματος* (Aristophane *Acharn.* 44) للدلالة على مكان الاجتماع الطرد بالرجس عند أرسطوفانيس .

(٢) يذكر ديموستينيس هذا الدعاء دون أن يذكر صيغته (السفارة ٧٠) ويمكن تكوين فكرة عنها من الصورة التي يعرضها لها أرسطوفانيس في *Thesmophoriazousae*, v. 295-350

(٣) Aristophane *Acharnéens* 171 *Διοσημία 'στί*

(٤) Idem *Thesmoph.* 381 et Scholiaste *Στέφανον ἔθος ἦν τοῖς λέγουσι στεφανοῦσθαι πρῶτον* وكان ذلك هو العرف القديم .

Cicéron. *In Vatinium* 10 *In Rostris, in illo augurato templo*, ويقول سرفيوس *Ad Aen.* ١١ ، ٣٠١ إن كل خطبة عند القدماء كانت تبدأ بدعاء ويذكر على سبيل البرهان ما كان يبدأ به خطب كاتون والأخوين غراكوس

(٥) Varron, dans Aulu-Gelle XIV, 7: *Nisi in loco per augures constituto quod templum appellaretur, senatusconsultum factum fuisset, justum id non esse* Cf Servius *ad Aen.*, I, 446, VII 153 *Nisi in augusto loco consilium senatus habere non poterat*. Cf Cicéron, *Ad diversos*, X, 12

السوائل عند دخوله ويدعو الآلهة (١).

وكان مجلس شيوخ أثينا يشبه من هذه الناحية مجلس شيوخ روما فكانت القاعة تحوى كذلك مذبحاً وموقداً. وكانوا يقومون بعمل ديني عند ابتداء كل جلسة فكان كل شيخ عند دخوله يقترب من المذبح ويتلو دعاء (٢).

وكانوا لا يجلسون للقضاء في المدينة، في روما كما في أثينا، إلا في الأيام التي تبين الديانة أنها من أيام السعود. وفي أثينا كانت تعقد جلسة المحكمة حول مذبح وتبدأ بقربان (٣)؛ وفي عصر هوميروس كان القضاة يجتمعون في دائرة مقدسة.

يقول فستوس إن في كتب شعائر الأتروسك ما تعرف به الكيفية التي يجب أن تتبع في تأسيس مدينة، أو تقديس معبد، أو توزيع الأصوات والقبائل في المجمع، أو صف جيش في المعركة. كل هذه الأشياء كانت مبينة في كتب الشعائر لأن كل هذه الأشياء كانت تمس الديانة.

وكان للديانة من السيطرة في الحرب بقدر ما كان لها في السلم على الأقل. وكانت في البلدان الإيطالية فرق من الكهنة تسمى فسيالس fetiales ترأس، كالمنادين (hérauts) عند الإغريق، جميع الاحتفالات المقدسة التي تنجم عن علاقات دولية. وكان فسيالس (fetialis) يعلن الحرب وهو يتلو صيغة مقدسة بعد أن يكون قد غطى رأسه بقناع من الصوف، طبقاً للشعائر، وهو يستشهد بالآلهة (٤).

(١) Varron dans Aulu-Gelle, *ibid.*: *Immolare hostiam prius auspicarique debere qui senatum habiturus esset*؛ سويتونيوس: أغسطس ٣٥؛ ديون كاسيوس ٥٤، ٣٠.

(٢) Andocide, *De suo reditu*, 15; *De mysteriis*, 44; Antiphon, *super choreuta*, 45.
ليكورج ضد ليوقراطس ٢٢؛ ديموستينيس ضد ميدياس ٥٢؛ ديودوروس ١٤، ٤. إكسينوفون، الهيلينيات ٢، ٣، ٥٢.

(٣) إسخيلوس، أورستيا ٨٩٦؛ الإلياذة ١٨، ٥٠٤.

(٤) يمكن رؤية شعائر إعلان الحرب في تيتوس ليفيوس ١، ٣٢.

وفى نفس الوقت يقدم القنصل قرباناً وهو مرتد الملابس الكهنوتية ، ويفتح فى احتفالٍ معبد أقدم معبود فى إيطاليا وأكثرهم تبجيلا معبد جانوس (١) وقبل القيام بمعركة يجتمع الجيش ، ويتلو القائد أدعية ويقدم قرباناً وكذلك كان الحال بالضبط فى أثينا وفى إسبرطه (٢)

وكان الجيش أثناء المعركة يمثل صورة المدينة ، وكانت دياناتها تلاحقه فكان الإغريق يحملون معهم تماثيل معبوداتهم . وكان كل جيش إغريقى أو رومانى يحمل معه موقداً ويغذى ناره المقدسة ليل نهار (٣) وكان يرافق الجيش الرومانى المتكهنون والمستخيرون بالدجاج (Pullarii) . وكان لكل جيش إغريقى متنبىء .

ديونيسيوس ٢ : ٧٢ ؛ بلوتوس ٢٢ : ٢ : ٥ ؛ سرفيوس، Ad Aen. ٩ : ٥٢ ، ١٠ ، ١٤ . – ويؤكد ديونيسيوس (١ : ٢١) وتيتوس ليفيوس (١ : ٣٢) أن هذا النظام كان شائعاً بين كثير من المدن الإيطالية . – وفى بلاد الإغريق أيضاً كانت تعلن الحرب عن يد منادٍ κῆρυξ ، ثوكيديديس ١ ، ٢٩ ؛ بوسانياس ٤ : ٥ ، ٨ ؛ بولودوكس ٤ : ٩١ .

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ١٩ ، وهناك وصف معبود ومعبد ملاحظ فى فرجيليوس ٧ : ٦٠١ – ٦١٧ .

(٢) Denys, IX 57 : Ὁ ὕπατος εὐχὰς ποιησάμενος τοῖς θεοῖς καὶ καθήραντες τὸν στρατὸν ἐξῆγεν ἐπὶ τοὺς πολεμίους اكسينوفون ، الهيلينيات ٣ : ٤ ، ٣ ؛ ٤ : ٧ ، ٢ ؛ ٥ ، ٦ ، ٥ ؛ هيرون ؛ اكسينوفون (جمهورية اللاقدمونيين ١٣ ، ٤) فقد كان الملك يقدم ذبيحة حتى قبل الخروج من المدينة ، قبل تجاوز الحدود ، وأى كان عدد مرات بعد كل صباح قبل أن يقضى أى أمر بالسير . عند قيام أجمعون كان يقدم الأثينيون قرباناً ، وكذلك الرومان . قارن ثوكيديديس ٦ : ٣٢ وتيتوس ليفيوس ٢٩ : ٢٧ .

(٣) هيرودوت ٩ : ١٩ ؛ و اكسينوفون (جمهورية اللاقدمونيين) وبلوتارخوس (ليكورج ٢٢) . وعلى رأس كل جيش إغريقى يمشى رجل يلقب حامل النار (πυρφόρος) وهو يحمل النار المقدسة ، اكسينوفون (جمهورية اللاقدمونيين ١٣) ؛ هيرودوت ٨ : ٦ ؛ بولودوكس ١ : ٣٥ ؛ هيسيخيوس عن كلمة πυρφόρος . وكذلك كان يوجد دائماً موقد مشتعل فى كل معسكر رومانى (ديونيسيوس ٩ ، ٦) وكذلك كان الأتروسك يحملون موقداً فى جيوشهم (بلوتارخوس ، بوبليكولا ١٧) . وكذلك يتكلم تيتوس ليفيوس (٤١ ، ٢) عن رجل يلقب succensus ad sacrificium foculus [illegible] ذاته موقد أمام خيمته (Julius Obsequens, 116)

فتأمل جيشاً رومانياً وهو يعد نفسه للقتال. يحضر القائد ضحية ويهوي عليها بالفأس، فتسقط. ولا بد أن تدل أحشاؤها على رضاء الآلهة. فيفحصها عرّاف الأحشاء *Haruspex*، وإذا كانت العلامات تدل على القبول أعطى القائد إشارة القتال. وكانت أمهر الترتيبات وخير الأحوال ملاءمة عديمة الجدوى إذا لم تسمح الآلهة بالقتال. ومن أساس الفن الحربي عند الرومان ألا يجبر امرؤ على القتال برغم أنفه عندما تكون الآلهة غير راضية. ولهذا السبب كانوا يجعلون معسكرهم كل يوم شبه قلعة.

ولنتأمل الآن جيشاً إغريقياً ولنتخذ معركة بلاتايا (Platées) مثلاً لذلك. اصطف الإسبرطيون للمعركة وكل منهم في موضعه للقتال. على رأس كل واحد منهم تاج. ويصاحبهم الموسيقيون يعزفون الأناشيد الدينية؛ والملك يذبح الأضاحي خلف الصفوف نفسها. لكن الأحشاء لم تعط العلامات الموافقة فلا بد من إعادة القربان. فيضحي بضحيتين ثم بثلاث ثم بأربع على التوالي. وفي خلال ذلك يقترب فرسان الفرس ويرمون سهامهم ويقتلون عدداً كبيراً من الإسبرطيين. وبقي الإسبرطيون بلا حراك، والتروس موضوعة عند أقدامهم، حتى دون أن يتقوا أنفسهم من ضربات العدو. فهم ينتظرون إشارة الآلهة. وفي النهاية أظهرت الضحايا علامات موافقة من جانب الآلهة، وعندئذ رفع الإسبرطيون تروسهم وانتضوا سيوفهم وقاتلوا وكانوا هم المنتصرين (١).

وكانوا يقدمون قرباناً بعد كل نصر وذلك هو أصل موكب النصر (*triumphus*) المعروف جداً لدى الرومان والذي لم يكن مألوفاً بدرجة أقل منها عند الإغريق. وهذه العادة هي نتيجة الرأي الذي كان ينسب النصر لآلهة المدينة. فقبل معركة يوجه هؤلاء خطبة تشبه تلك التي نقرؤها في أيسخيلوس: أعدكم أيتها الآلهة الذين تسكنون أرضنا وتملكونها. أعدكم، إذا سعد سلاحنا وخلصت مدينتنا، أن أروي مذابحكم بدم الشياة وأضحي لكم بالثيران وأعرض في معابدكم المقدسة الغنائم التي كسبتها

(١) هيرودوت ٩ : ٦١ — ٦٢

رماحنا (١) ، ومقتضى هذا الوعد كان على المنتصر أن يقدم قرباناً ، وكان يثوب الجيش إلى معبده للقيام به ، ويتوجه إلى المعبد في موكب طويل وهو يغني نشيداً مقدساً Θρίαμβος (٢)

وفي روما يكاد الاحتفال أن يكون صورة من ذلك . كان يتوجه الجيش في موكب إلى معبد الإله الرئيسي ، ويسير الكهنة على رأس الموكب وهم يقودون الضحايا ، ويعقبهم القائد إلى المعبد ليضحي للآلهة بالأضحية وفي أثناء الطريق ، حمل كل جندي تاجاً كما يليق باحتفال مقدس ، وينشدون نشيداً كما في بلاد الإغريق . حقاً لقد جاء زمن لم يتعفف فيه الجند عن أن يستبدلوا بالنشيد أغاني المعسكر أو عبارات التندر على قائدهم . لكنهم حافظوا على الأقل على عادة تكرار النداء المقدس io triumphe بين وقت وآخر (٣) وهذا النداء المقدس هو الذي خلع اسمه على الاحتفال .

وهكذا كانت الديانة تتدخل في جميع الأعمال في زمن السلم وفي زمن الحرب . كانت حاضرة على الدوام ، محيطة بالإنسان ، فكان كل شيء تحت سيطرة ديانة المدينة : الروح ، والجسد ، الحياة الخاصة ، والحياة العامة ، الأكلات ، والأعياد ، والمجامع ، والمحاكم ، والحروب . كانت تنظم كل أعمال

(١) أيسخينوس : أوروسه ... ٢٥٢ - ٣٥ . أوريبيدس ، ... ٥٧٣

(٢) ديودوروس ٤ ، ٥ ، فوتيوس Θρίαμβος, ἐπίδειξις νίκης, πομπή

(٣) Tite-Live, XLV, 39: *Diis quoque non solum hominibus debetur triumphus ... consul proficiscens ad bellum vota in Capitolio nuncupat, victor perpetrato bello in Capitolio triumphans ad eosdem deos quibus vota nuncupavit merita dona populi romani traducit.*

تيتوس ليفيوس ٥ ، ٢٣ ؛ ١٠ ، ٧ . فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٦٨ ، بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٧ : ٥٦ ، ٣٣ ، ٧ : ٣٦ .

الإنسان يتصرف في جميع لحظات حياته ، ويعين كل عاداته . كانت تحكم الكائن البشري بسلطان مطلق بلغ من أمره أنه لم يبق أي شيء خارجاً عنها

وإنها لفكرة زائفة جداً عن الطبيعة البشرية أن نعتقد أن ديانة الأقدمين هذه كانت دجلا وإلى حد ما مهزلة تمثيلية . يزعم منتسكيو Montesquieu أن الرومان لم ينحتوا عقيدة إلا ليكبحوا جماح الشعب . لكن ما من دين كان ذلك أصله إطلاقاً . وكل ديانة انتهى بها الأمر إلى الاستناد إلى سبب منفعة عامة دون سواه لم يدم استنادها هذا زمناً طويلا ، ويقول منتسكيو أيضاً إن الرومان كانوا يخضعون الديانة للدولة ، والعكس هو الصحيح . إنه من المحال أن يقرأ الإنسان بضع صفحات من تيتوس ليفيوس دون أن تثير دهشته التبعية المطلقة التي كان فيها الناس حيال كهنتهم . لم يعرف الرومان ولا الإغريق هذه المنازعات المحزنة بين الكنيسة والدولة . وهي التي بلغت تلك الدرجة من الشيوع في مجتمعات أخرى . وما مرجع ذلك إلا أن الدولة في روما كانت خاضعة للديانة ، وكذلك كانت سبرطة وأثينا . ولم يكن السبب في ذلك أنه كانت هناك في أي وقت من الأوقات هيئة من الكهنة فرضت سيطرتها عنوة . إن الدولة القديمة لم تخضع للكهنوت فقط ، بل كانت خاضعة لديانتها هي ذاتها . فكانت هذه الدولة وهذه الديانة مختلطتين اختلاطاً تاماً حيث لم يكن التفكير في نزاع بينهما هو وحده المستحيل . بل كان التمييز بينهما مستحيلا أيضاً .

الفصل التاسع

الشعائر والحوليات

لم يكن من مميزات ديانة القدماء ولا من خصائصها أن ترفع الذكاء البشرى إلى إدراك المطلق، ولا أن تفتح للفكر البشري طريقاً ساطعاً يعتقد أنه يصل إلى الله فى نهايته. بل كانت هذه الديانة مجموعة مبهمة الارتباط من العقائد الصغيرة والسنن الضيقة والشعائر الدقيقة. لم يكن هناك داع للبحث عن معناها، ولم يكن هناك محل للتفكير ولا للاستنباط. لم يكن لفظ الديانة (religion) (١) المعنى الذى نعطيه له الآن. فنحن نقصد بهذه الكلمة مجموعة من التعاليم، ومذهباً عن الله، ورمزاً عن الأسرار التى فيه وحوله. وكانت نفس هذه الكلمة تعنى عند القدماء شعائر واحتفالات وأعمال عبادة ظاهرية. لم يكن المذهب إلا شيئاً ضئيلا. أما المهم فهى العبادات، وهى التى كانت لازمة. كانت الديانة رباطاً مادياً، وغلاً يستعبد به الإنسان. صنعها الإنسان لنفسه لكنه كان يحكم الإنسان. كان يخشاه فلا يجرؤ أن يعدله أو يناقشه أو يوجهه. كانت هناك آلهة وأبطال وأموات يطالبونه بعبادة مادية، وكان يسدد لهم ديونهم ليجعل منهم أصدقاء، بل أكثر من هذا لكيلا يتخذ منهم أعداء.

أما صداقتهم فلم يكن الإنسان يعتمد عليها إلا قليلا. فقد كانت آلهة حاسدة سريعة الغضب، لا مودة عندها ولا عطف، تطيب نفسها أن تحارب الإنسان (٢). لم تكن الآلهة تحب الإنسان، ولم يكن الإنسان يحب آلهته. كان يؤمن

(١) معنى الكلمة فى أصلها اللاتينى الرباط، الميثاق — المعرب

(٢) Plutarque, *De defectu oracular.* 14 : *Ἃ δρῶσιν ἄνθρωποι μηνίματα δαιμόνων ἀφοσιούμενοι καὶ πραΰνοντες οὓς ἀλάστορας καὶ παλαμναίους ὀνομάζουσι.*

بوجودها لكنه كان يشعر أحياناً ولو لم توجد حتى هذه المنزلية أو القومية كان وجلاً منها، يخاف أن تغدر به؛ وكان أكبر مخاوفه أن يحيق به غضب هذه الكائنات الحمية. فكان شغله طوال حياته أن يهدئ ثائرتها كما يقول الشاعر *pacem deorum quaerere*. لكن ما هي الوسيلة لإرضائها؟ وعلى الأخص ما هي الوسيلة التي بها يثق الإنسان أنه أرضاهم وأنهم قد أصبحوا في صفه؟ اعتقدوا أنهم وجدوها في استعمال صيغ معينة. فالصلاة الفلانية المركبة من من الألفاظ الفلانية قد أعقبها نجاح المطلوب فلا ريب في أن مرجع ذلك أن الإله قد استمع لها، وأنه كان لها أثر فيه، وأنها كانت قوية. أقوى منه ما دام لا يستطيع أن يقاومها. فحافظوا إذن على عبارات هذا الدعاء الخفية المقدسة. وبعد الأب، كررها الابن. وبمجرد ما عرفوا الكتابة قيدوها كتابة. فكان لكل أسرة، وعلى الأقل لكل أسرة دينية، كتاب كانت تحفظ فيه الصيغ التي استعملها الأسلاف ولبّت تراجعت الآلهة أمامها فكان ذلك سلاحاً استخدمه الإنسان ضد تقلب آلهته. لكن كان من المحتم ألا يتغير منه لفظ ولا مقطع وألا تتغير، على الأخص، النغمة التي كان يجب ترتيله عليها إذ لو حدث شيء من ذلك لفقد الدعاء قوته وبقيت الآلهة أحراراً (١)

لكن الصيغة لم تكن كافية بل كانت هناك أيضاً أعمال خارجية دقيقة التفاصيل وغير قابلة للتبديل منها. فكان لأقل حركة من حركات المضحي ولكل جزء من أجزاء ملبسه نظام معين محدد بوجه لا يتغير: كان يتحتم أن تكون برأس مقنعة

(١) عن الأناشيد القديمة التي استمر الإغريق على ترتيلها في الحفلات انظر بوسانياس ١ ؛ ١٨ ، ٧ ؛ ١٥ ، ٩ ؛ ١٢ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ . ويلاحظ شيشرون (القوانين ٢ ، ١٥) أن المدن الإغريقية كانت تسعى إلى المحافظة على النغم القديم *antiquum vocum servare modum* ويسمي أفلاطون (القوانين ٧ ص ٧٩٩ - ٨٠٠) على نهج القواعد القديمة عند ما يقضي على أن الأغاني والرقص تبقى بلا تبديل وعند الرومان كانت كتب الشعائر تحدد صيغ الأدعية. انظر فارون، اللسان اللاتيني، وكاتون في مواضع متفرقة

Quintilien, I, 11. *Saliorum carmina, vix sacerdotibus suis intellecta, mutari vetat religio et consecratis utendum est*

ولابد آخر أن تكون الرأس عارية، وثالث أن يرفع شقة الدثار (toge) على الكتف وفي بعض الأعمال يتحتم أن تكون القدمان حافيتين. وكانت هناك أدعية لامفعول لها إلا إذا دار الإنسان بعد تلاوتها حول نفسه من الشمال إلى اليمين. وجنس الضحية، ولون شعرها، وطريقة نحرها، وشكل المدية، ونوع الخشب الذي كان لابد من استعماله لشي اللحوم، كل ذلك كانت تنظمه ديانة كل أسرة وكل مدينة بشكل ثابت. وعبثاً كان أشد القلوب حماسة يقدم للآلهة أسمن الأضاحي، فإنه إذا ما أهمل شعيرة واحدة من شعائر التضحية التي لا حصر لها تصبح التضحية باطلة. إن أقل نقص كان يجعل من العمل المقدس عملاً دنساً. وكان أهون تغيير يثير الاضطراب والتشويش في ديانة الوطن ويحول الآلهة الحماة إلى أعداء له، بقدر ما كانوا حماة. ولهذا كانت أثينا قاسية على الكاهن الذي يغير شيئاً ما في الشعائر القديمة (١). ولهذا كان مجلس شيوخ روما يعزل القناصل والدكتاتورين الذين يرتكبون خطأ ما في تضحية.

كل هذه الصيغ والسنن خلفها الأسلاف الذين جربوا مفعولها. لم يكن هناك مجال للتجديد بل كان يجب الاعتماد على ما صنعه الأسلاف. وكانت أعلا مراتب التقوى أن يعملوا كما كانوا يعملون. لم يكن يهم إلا قليلاً أن تتغير العقيدة. فكانت تستطيع أن تتغير بحرية خلال العصور وأن تتخذ ألف شكل مختلف على هوى تفكير الحكماء أو خيال الشعب. لكن كان من الأهمية القصوى ألا تهوى الصيغ في النسيان وألا تتبدل الشعائر. لذلك كان لكل مدينة كتاب يحفظ فيه كل ذلك.

كان استعمال الكتب المقدسة عاماً لدى الإغريق ولدى الرومان ولدى

---

(١) ديموسثينيس ضد نيرا ١١٦ و ١١٧. — اقتبس فارون بعض العبارات من كتب الأقداس (libri sacrorum) التي كانت محفوظة في أثينا والتي كانت نصها عتيقة (اللسان اللاتيني ٥: ٩٧). — عن احترام الإغريق للشعائر القديمة أنظر بعض أمثلة غريبة في بوزانياس ... ٢٦، ٣١، ٣٥، ٣٩، ١٥٨. وقد أحس إيسوقراط (Areopagitique, 20-30) بخطر التغيير في الشعائر القديمة وفي كل مؤلفاته ضد نيايرا.

لأتروسك (١) وفي بعض الأحيان كانت الشعائر مكتوبة على ألواح من الخشب ، وفي بعض الأحيان على قماش . كانت أثينا تحفر شعائرها على ألواح من نحاس أو على ألواح من الحجر كلا تروب (٢) وكان للروم كتب أحبارهم ، وكتب مسجليهم وكتب احتفالاتهم ، ومجموعة دعواتهم (*Indigitamenta*) . وما من مدينة إلا وكانت لها مجموعة من الأناشيد القديمة في تمجيد آلهتها (٣) وعبثاً كانت تتغير اللغة متمشية مع الأخلاق والعقائد ، فقد كانت العبارات والنغم تبقى بلا تبديل وكانوا يستمرون على ترتيل هذه الأناشيد في الأعياد دون أن يفهموها

هذه الكتب وهذه الأناشيد كتبها الكهنة وحافظوا عليها بعناية كبيرة حتى لم يكونوا يطلعون الأجانب عليها أبداً . ومن كشف عن إحدى الشعائر والصيغ فقد خان ديانة المدينة وسلمها للأعداء . وزيادة في الحيطة كانوا يخفونها حتى عن المواطنين ولم يكن يستطيع العلم بها إلا الكهنة دون سواهم

في ذهن هذه الشعوب كان كل قديم محترماً ومقدساً فإذا أراد الروماني أن يقول إن شيئاً ما عزيز عليه كان يقول هذا عندي قديم . وكان عند الإغريق تعبير مماثل (٤) كانت المدن شديدة التمسك بتقاليدها إذ أنها كانت تجد في

(١) [illegible] ٤ ، ٢٧ ، [illegible] ؛ [illegible] على [illegible] *Colotes* ، ٧ ،
[illegible] ؛ [illegible] ٣ ، ٢٠ ، [illegible] ١ ، ٣ ، فارون ؛
اللسان اللاتيني ٦ ، ١٦ ، [illegible] (*Censorinus*) ١٧ ، [illegible] تحت كلمة *Rituales*
(٢) Pollux, VIII, 128 δέλτοι χαλκαῖ, αἷς ἦσαν πάλαι ἐντετυπωμένοι
οἱ νόμοι οἱ περὶ τῶν ἱερῶν καὶ τῶν πατρίων [illegible] أن من أهم معاني
كلمة νόμος معنى شعيرة ، أو قاعدة دينية Lysias, in Nicomachum [illegible] 299
θύειν τὰς θυσίας τὰς ἐκ τῶν κυρβέων καὶ τῶν στηλῶν κατὰ τὰς ἀναγραφάς.
(٣) [illegible] أثينايوس (١٤ ؛ ٨٠) [illegible] Elien
[illegible] أناشيد [illegible] ، [illegible] (٣ ، ١٤) أناشيد قرينة ؛
بلوتارخوس [illegible] ، أناشيد [illegible] (Bottieens) وتيتوس (حوليات ٤ ؛
٤٣) أناشيد الكهنة *Valium carmino* التي حافظ عليها الإغريقيون و [illegible] .
(٤) *πάτριόν ἐστιν ἡμῖν.* كثيراً ما تتردد هذه الكلمات عند ثوكيديديس
وعند خطباء الأتيكي .

الماضي كل بوعث ديانتها كما كانت تخلد كل قواعدها. كانوا في حاجة للادكار إذ أن كل عاداتهم كانت ترتكز على ذكريات وأثريات. لذلك كان التاريخ أكثر أهمية للقدماء منه لنا. فقد وجد قبل هيرودوت وثوسيديديس وأمثالهما بدهر طويل، وسواء كان مكتوباً أو غير مكتوب، مجرد أثارة أو كتاب، فهو معاصر لنشأة المدن. ما من بلدة مهما كانت صغيرة أو كبيرة إلا وضعت أكبر اهتمامها في الاحتفاظ بذكرى ما مر فيها. ولم يكن ذلك من الزهو بل من الديانة. لم تكن بلدة ما تعتقد أن لها حق في نسيان شيء مما، إذ كل شيء في تاريخها مرتبط بعبادتها.

والواقع أن التاريخ كان يبدأ بعملية التأسيس ويخبر عن اسم المؤسس المقدس ويستمر بأسطورة آلهة المدينة والأبطال الحماة. كان يعلمهم تاريخ كل عبادة وأصلها والعلة في وجودها ويفسر شعائرها الغامضة. كانوا يدونون فيه العجائب التي عملتها آلهة البلاد والتي بها أعلنت قوتها وطيبتها وغضبها. وكانوا يصفون فيه الاحتفالات التي بها أمكن للكهنة تحويل نذير شر أو هدأوا سخيمة الآلهة ويصفون فيه أي الأوبئة نزلت بالمدينة وبأية صيغة مقدسة عالجوها، وفي أي يوم قُدّس معبد ما، ولأية علة أنشئ قربان ما أو عيد ما. وكانوا يدونون فيه كل الحوادث التي يمكن أن تنسب إلى الدين، والانتصارات التي تدل على مساعدة الآلهة والتي كثيراً ما رأوا الآلهة تحارب فيها، والهزائم التي تدل على غضبها والتي من أجلها كان يتحتم إنشاء قربان للتكفير. كل ذلك كان مكتوباً لتعليم الذرية ولتقواها. كل هذا التاريخ كان الدليل المادي على وجود الآلهة القوميين. إن الحوادث التي يحويها هي الشكل الظاهر الذي تجلت فيه الآلهة من عصر إلى عصر. ومن بين هذه الوقائع عدد كبير نتجت عنه أعياد تذكارية، أي قرابين وأعياد وألعاب مقدسة. كان تاريخ المدينة يخبر المواطن بكل ما يجب أن يؤمن به وكل ما يجب أن يعبده.

لذلك كان الكهنة هم الذين يكتبون هذا التاريخ. فكانت لروما حوليات أحبارها. وكان للكهنة السبينيين، وللكهنة السامنيين، وللكهنة الأتروسك،

مثلاتها (١) وعند الإغريق نقف لها ذكرى كتب أثينا واسبرطه ودلفوى ودلكسوس وتارنت أو حولياتها المقدسة (٢). وعند ما جاب پوسانياس بلاد الإغريق في عهد هادريانوس روى له كهنة كل بلدة التواريخ الخالية بدقة؛ أنهم لم يخترعوها بل تعلموها في حولياتهم.

كان هذا النوع من التاريخ محبباً [illegible]. كان يبدأ بالتأسيس لأن ما هو سابق على هذا التاريخ لم يكن يهم المدينة في شيء ما، ولهذا كان الأقدمون على جهل تام بأصول شعوبهم [illegible] ولم يبق [illegible] إلا الحوادث التي وجدت المدينة نفسها مقحمة فيها، ولم يكن يهم [illegible] العالم [illegible] كان لكل مدينة تاريخها الخاص كما كانت لها ديانتها وتقويمها.

ويمكن الاعتقاد أن حوليات البلاد هذه كانت جافة جداً [illegible] لم تكن عملاً فنياً بل كانت عملاً دينياً. ثم جاء بعد ذلك [illegible] القصصيون أمثال هيرودوت، والمفكرون أمثال ثوقيديدس [illegible] خرج التاريخ من أيدي الكهنة وتبدل طبعه [illegible] هذه الحوليات [illegible] الرائعة [illegible] كنا نأسف على المحفوظات القديمة [illegible] كل ما كانت تعلمه [illegible] عن عقائد القدماء وحياتهم الدينية [illegible] هذه الوثائق التي لا تقدر بقيمة والتي [illegible]

(١) [illegible]

(٢) حوليات اسبرطه القديمة [illegible] ذكرها [illegible] IV (Colotès) وأثينيوس [illegible] monumenta sculpta aere prisco [illegible]
(تاسيتوس، نفس المرجع).

Denys d'Halic., *De Thucyd. hist.*, éd. Reiske, t. VI, p. 819: [illegible] κατὰ πόλεις εἴτ' ἐν ἱεροῖς εἴτ' ἐν [illegible] γραφαί [illegible] δημόσιαι τῶν πόλεων ἀναγραφαί [illegible] ايضاً [illegible]

أنها كانت محفوظة في الأسرار ولم تكن تخرج من المعابد . هذه الوثائق التي لم تكن تنسخ منها صور ، والتي لم تكن يعرفها غير الكهنة ، هلكت جميعاً ولم يبق لنا منها غير ذكرى خافتة

حقاً إن هذه الذكرى قيمة عظيمة بالنسبة لنا . وبدونها ربما كان يحق لنا أن نرفض كل ما ترويه بلاد الإغريق وروما عن تاريخها القديم . فإن جميع هذه الروايات ، التي تسمو إلى صيغة تشبه تحقق بدرجة كبيرة لاستعدادها على عادات وطرق التفكير والعقل ، كان يمكن اعتبارها من نسج خيال البشر . لكن هذه الذكرى التي بقيت لنا من المحفوظات القديمة تريد على الأقل الاحترام الخاشع لدى القدماء اتجاهها بمعنى أن حوادث كانت تودع في هذه المحفوظات . كان حدث شيء مهم . بعبارة أخرى لأنه في هذه الكتب المقدسة كانت كل صحيفة مخصصة للحادث الذي تدونه . وكان تغيير هذه الوثائق مستحيلا استحالة مادية . إذ أن الكهنة كانوا حفظة عليها وكان لديهم مصلحة عظيمة في بقائها من غير تبديل . ولم يكن سهلا على أحد أنه كان مستطيعاً أن يدرج من قصة وقائع مدسوسة بتحقيقه كانوا يعتقدون أن كل حادث آت من الآلهة ويكشف عن إرادتهم وتعد الأحداث القديمة تذكارات وقطعة من الأعمال المقدسة . كل حادث يقع في المدينة يصبح على صورة جزء من ديانة المستقبل . مع مثل هذه العقائد يدرك الإنسان جيداً أنه كان هناك أغلاط كثيرة غير مقصودة ناتجة عن الميل إلى التقديس والتعلق بالخوارق ولا تزال قدرة الآلهة القوميين . لكن الكذب المقصود لا يمكن تصوره . إذ أنه كان يكون إثماً وكان فيه اعتداء على قدسية الحوليات وتبديل للديانة . من ذلك نستطيع أن نعتقد أنه إذا لم يكن كل شيء في هذه الكتب المقدسة صحيحاً فإنه لم يكن فيها على الأقل شيء لا يعتقد الكاهن أنه صحيح . وإنه سبب قوي للثقة في نظر المؤرخ الذي يسعى إلى اختراق ظلمات تلك العصور القديمة أن يعلم أنه إذا كانت أمامه أغلاط فإنه ليس أمامه دجل بل إن هذه الأغلاط ذاتها تستطيع بما لها من ميزة المعاصرة للأحقاب القديمة التي يدرسها أن تكشف له على الأقل عن عقائد الناس الخاصة إذا لم تكشف عن تفاصيل الحوادث

وكانت هناك أيضاً حوار الحوليات . هذه الوثائق المكتوبة الصحيحة، أثارة شعوبية عديدة بين شعب المدينة وهي ليست أثارة مبهمة سلبية كأثاراتنا ، بل أثارة غزيرة على سيدان ولاتتغير صيغاً سوى الحيان، ولم يكونوا أحراراً في تبديلها إذ أنها كانت جزءاً من العبادة وكانت تتكون من روايات وأغاني تتكرر من عام إلى عام في أعياد الديانة . هذه الأناشيد المقدسة غير القابلة للتبديل كانت تثبت الذكريات وتحيي الأثارة على الدوام .

لا ريب أنه لا يمكن الاعتقاد بأن هذه الأثارة كانت في دقة الحوليات . بل كان من الجائز أن تكون الرغبة في مدح الآلهة أقوى من حب الحقيقة . بيد أنه كان يجب أن تكون على الأقل مثل الحوليات وأن تكون في العبادة على وفاق معها . إذ أن الكهنة الذين كانوا يحررون هذه الحوليات ويقرؤونها كانوا هم بذاتهم الذين يرأسون الأعياد التي كانت ترتل فيها هذه القصص القديمة

بعد وقت جاء زمن أسحب فيه هذه الحوليات . فنشرت روما بأن نشرت حولياتها ، وعرفت حوليات البلدان الإيطالية الأخرى . ولم يضعف كهنة البلدان الإغريقية عن رواية ما كانت تحويه حولياتهم ( ) فدرست هذه الآثار العتيقة وأحسن تقديرها وتكونت مدرسة من المطلعين من فرون Varron وفريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) إلى أولوس جيليوس Aulu-Gelle، وماكروبوس Macrobe فصبغ ضوءه على التاريخ القديم بأجمعه وصححوا

Cicero, De oratore, II, 12: Res omnes singulorum annorum ( ) mandabat litteris pontifex et proponebat domi ut potestas esset populo cognoscendi.

(١) انظر سرفيوس Ad Aen., I, 373 . أعلن ديونيسيوس أنه يعرف كتب رب المدينة وحولياتها (.. ; ٩٢) . — وكان في بلاد الإغريق منذ عهد قديم بعض القدماء كتّاب (logographes) رجعوا إلى حوليات البلدان المقدسة ونسخوها، انظر Denys, *De Thucyd. histor.*, c. , éd. Reiske, p. 819

بضع أغلاط كانت قد تسربت إلى الأثرة ورددها مؤرخو عشرة سابقة نعرف مثلا أن پورسنا (Porsenna) كان قد استولى على روما وأن الذهب قد دفع لغاليين. لقد بدأ عصر النقد التاريخي. وجدير بالملاحظة أن هذا النقد الذي كان يصعد إلى المصادر ويدرس الحوليات لم يجد فيها شيئاً يخوله الحق في رفض المجموع التاريخي لدى أمثال هيرودوت وتيتوس ليفيوس.

الفصل التاسع

حكومة المدينة. الملك

١ – سلطة الملك الدينية

يجب ألا نتصور مدينة تتشاور عند نشأتها في الحكومة التي ستعطيها لنفسها وتبحث وتناقش في قوانينها وتلائم بين أنظمتها. إن القوانين لم توجد والحكومات لم تقم بهذه الطريقة. فقد ولدت أنظمة المدينة السياسية مع المدينة ذاتها. وفي نفس اليوم الذي ولدت فيه؛ وكل عضو في المدينة كان يحملها في ذاته؛ إذ أنها كانت بذرة كامنة في معتقدات كل رجل وفي ديانته.

كانت تنص الديانة على أن يكون للموقد كاهن أعلى دائماً. ولم تكن تسمح بتقسيم السلطة الكهنوتية. فكان للموقد المنزلي كاهن أكبر هو أب الأسرة. وكان لموقد العدوة كاهن هو الكوريون أو رئيس الأخوية (فراترياركوس)؛ وكذلك كان لكل قبيلة رئيسها الديني الذي كان يسميه الإغريق ملك القبيلة؛ فكان من المحتم أن يكون للمدينة حبرها أيضاً.

وكان سادن الموقد العام هذا يسمى الملك. وفي بعض الأحيان كانوا يعطونه أسماء أخرى. ولما كان سادناً لبيت الدولة قبل كل شيء، فقد كان الإغريق يميلون إلى تسميته سادن بيت النار (Prytane) وفي بعض الأحيان كانوا يسمونه الأرخون (archonte) أيضاً. ويجب أن نرى تحت هذه الأسماء المختلفة، ملك، سادن بيت النار، أرخون، شخصاً هو على الأخص رئيس العبادة. كان يشرف على الموقد ويقدم القربان ويتلو الدعاء ويرأس الأكلات الدينية.

من الواضح أن ملوك إيطاليا وبلاد الإغريق القدماء كانوا كهنة بقدر ما كانوا ملوكاً. نقرأ في أرسطو: «إن العناية بالقرابين العامة للمدينة تابعة

لكهنة مخصوصين بل لأولئك الرجال الذين يتلقون وظيفتهم من الموقد والذين يسمونهم هنا ملوكاً وهنالك سدنة بيوت النار (بريتان) وفى مكان آخر أراخنة ويدين طبقاً لعادة المدينة» (١) . هكذا يتكلم أرسطو وهو الرجل الذى عرف أنظمة المدن الإغريقية أحسن من سواه تدل هذه الفقرة البالغة فى الدقة ، أولا على أن الألقاب الثلاثة ، ملك ، سادن بيت النار ، أرخون . ظلت زمناً طويلا مترادفة . وقد بلغ ذلك من الصحة أن مؤرخاً . هو خارون اللامبساكى Charon de Lampsaque ، كتب كتاباً عن ملوك لاقيديمون وعنونه «أراخنة اللاقيديمونيين وسدنة بيت نارهم » (٢) كما تدل على أن ذلك الشخص . الذى كان يسمى بأحد هذه الأسماء على السواء، وربما بالثلاثة جميعاً فى آن واحد ، كان كاهن المدينة وأن عبادة الموقد العام كانت مصدر وظيفته وسلطانه

هذه الصفة الكهونية فى الملكية الأولى بينها الكتاب القدماء بجلاء فى أيسخيلوس توجه بنات دناوس Danaüs الخطاب إلى ملك أرغوس بهذه العبارات « أنت السيد الأعلى لبيت النار وأنت الذى تسهر على موقد هذا الإقليم» (٣) وفى أوريبيديس يقول أورستيس قاتل أمه لمنلاوس (Ménelas) «بما من العدل وأنا ابن أغاممنون أن أملك فى أرغوس» . ويجيبه منلاوس «وهل أنت، أيها القاتل، فى حال تسمح لك أن تمس أوانى الماء الطاهر لأجل القرابين؟ هل أنت فى حال تخولك ذبح الأضاحى؟» (٤) وإذن فقد كانت وظيفة الملك

(١) أرسطو، السياسة ج ٣ ، ١٠ ؛ ديونيسيوس ... Denys d'Halic. II, 65
Τὰ καλούμενα πρυτανεῖα ἐστὶν ἱερὰ καὶ θεραπεύεται πρὸς τῶν ἐχόντων τὸ μέγιστον ἐν ταῖς πόλεσι κράτος

(٢) Suidas, V° *Χάρων*

(٣) أسخيلوس، المتضرعات ٣٦٩ ، ٣٧٠ (٣٥٠) نعرف أية صلة وثيقة كانت عند القدماء بين المسرح والديانة فكان التمثيل المسرحي احتفالاً من احتفالات العبادة ... وكان على شاعر المآسي على العموم أن يسطر إحدى أساطير المدينة المقدسة . ومن هنا لنا أن نجد فى شعر المآسي عدداً من الآثار القديمة بل من صيغ اللغة القديمة .

(٤) أوريبيدس : أورستيس ١٥٩٤ - ١٥٩٧ .

الأولى هي القصة [illegible] الاحتمالات [illegible] وتشجعه [illegible] من موت [illegible]
لأن [illegible] قد [illegible] يعد في حالة [illegible] تقدم القرابين ( ) [illegible]
لم تعد تستطيع أن يكون كاهناً فإنه لم يكن يستطيع أن يكون ملكاً

[illegible] هوميروس وفرجيليوس [illegible] على [illegible] بالاحتفالات المقدسة،
ونعرف من ديونيسيوس أن [illegible] كانوا يقومون بأنفسهم
[illegible] القرابين في [illegible] ، ومن إكسينوفون أن ملوك إسبرطة
كانوا [illegible] مدينة [illegible] (٢) وكان [illegible] Lucumons
لأتروسك [illegible] وقضاة حربيين وأحباراً في آن واحد (٣)

ولم يكن الأمر على غير ذلك فيما يختص بملوك روما ، [illegible] لأثرة
كهنة [illegible] رومولوس [illegible] في كل [illegible] في علم الاستخارة ، (٤)
والذي أسس المدينة حسب الشعائر المقدسة والثاني نوما (Numa) ويقول عنه
تيتوس ليفيوس [illegible] الكهنوتية [illegible]
[illegible] على خلفائه أن [illegible]
أن [illegible] فأنشأ الفلامين (flamines) (٥) لكي
يقوموا [illegible] هؤلاء عن روما ، [illegible] لم يكن للكهنوت
روماني إلا [illegible] من [illegible] الأولى (٦)

---

(١) [illegible] *Fragm. hist. graec.* t. III, p. 394

(٢) [illegible] ٧٤ ، ٨١ [illegible] جمهورية اللاقيديمونيين

(٣) [illegible] هيرودوت ٩ ، ٧٥ أرسطو ، السياسة ٣ ، ٩ ، ٢

Τα προς τους θεους αποδεδοται βασιλευσι

(٤) [illegible] ٧٥ [illegible] تيتوس ليفيوس ٥ [illegible]

(٥) شيشرون [illegible] ٣ ، [illegible] الجمهورية [illegible] ، [illegible] ١ ، ٧ ، ١٠

٣٨ . انظر أبيات إنيوس (Ennius) في شيشرون ([illegible] ٤٨ - لم يكن
القدماء يمثلون رومولوس مرتدياً رداء الحرب بل [illegible] ويده [illegible]
[illegible] *[illegible] pulcher trabeaque Quirinus*
(أوفيديوس : الأعياد [illegible] : ٣٧٥ ؛ وبلينيوس : التاريخ الطبيعي ٩ : ٣٩ ؛ ١٣٦) .

(٥) فلامن [illegible] *flamen* ومعناه الموقد [illegible] في النار أو اللهب . وكان
لكل إله فلامن وأكبرهم فلامين جوبيتر . — المعرب .

(٦) [illegible] ١ ، [illegible] *Ad Aen.* ٣ : ٢٦٨ :
Majorum haec erat [illegible] ut rex esset etiam sacerdos et pontifex.

كان هؤلاء الملوك الكهنة ينصّبون بمراسم دينية . كان يقاد الملك الجديد على قمة أكمة الكابيتوليوم ويجلس على مقعد من الحجر مولياً وجهه نحو الجنوب . وعلى شماله يجلس أحد المتكهنين وقد غطى رأسه بعصائب مقدسة وأمسك بيده عصا العرافة (١) ويرسم في اتجاه السماء بعض الخطوط ويتلو دعاء ويضع يده على رأس الملك ويتوسل للآلهة أن تبين بآية مرئية أن هذا الرئيس مرضي عنه منهم . ثم بمجرد ما تتضح موافقة الآلهة من البرق أو من طيران الطيور يستحوذ الملك الجديد على منصبه . وصف تيتوس ليفيوس هذا الاحتفال عند تنصيب نوما . ويذكر ديونيسيوس أنه كان يحدث لجميع الملوك ، وبعد الملوك للقناصل ، ويضيف أنه كان لا يزال مستعملا في زمانه (٢) مثل هذه العادة كان لها ما يبررها إذ أن الملك سيصبح رئيس الأعلى للديانة ، وعلى أدعيته وقرابينه ستتوقف سلامة المدينة . ولذلك كان لهم الحق في التأكد أولا من أن هذا الملك مقبول من الآلهة .

لم يطلعنا القدماء على الطريقة التي كان ينصب بها ملوك إسبرطة في وظائفهم لكنهم يخبروننا على الأقل أن حفلة دينية كانت تقام عندئذ (٣) . بل إننا نعرف من عادات قديمة دامت حتى نهاية تاريخ إسبرطة أن المدينة أرادت أن تستوثق من أن ملوكها كانت ترضى عنهم الآلهة . ولذلك كانت تسأل الآلهة أنفسهم طالبة إليهم « آية σημεῖον » وإليك ما كانت عليه هذه الآية كما ينقلها بلوتارخوس : « كل تسع سنوات يختار الإيفورات (Ephores) ليلة صافية جداً لكن لا قمر فيها ويجلسون صامتين وعيونهم شاخصة نحو السماء . فإذا ما رأوا نجماً يقطع السماء من أحد جانبيها إلى الآخر دلهم ذلك على أن ملوكهم اقترفوا

(١) عصا العرافة lituus ، عصا معقوفة من أحد طرفيها تمسك بها [illegible] السحر ويشير بها نحو السماء بطريقة خاصة . وهناك أيضاً عند الكهنوتي lituus وهو [illegible] أيضاً به خطوط [illegible] والعرافون والسحرة [illegible]

(٢) تيتوس ليفيوس ١ ، ١٨ . ديونيسيوس ٢ ، ٦ ؛ ٤ ، ٨٠ . [illegible] بلوتارخوس ، وهو [illegible] بلوتارخوس [illegible] [illegible] إليه أنه [illegible]

"Ἡ γε βασιλεία ταῖς πατρίοις ἱερουργίαις καθωσίωται πρὸς τὸ θεῖον

(٣) توكيديدس ٥ ، ١٦ ، في نهايتها .

خطيئة ما نحو الإله ؛ وعندئذ يوقفونهم عن الملك إلى أن يأتى وحى من دلفوى يرفعهم من سقطتهم »(١).

٢ — سلطة الملك السياسية

حيث أن السلطة فى الأسرة ملازمة للكهنوت وأن الوالد باعتباره رئيساً للعبادة المنزلية كان فى نفس الوقت قاضياً وسيداً. كذلك كان كاهن المدينة الأكبر هو أيضاً الرئيس السياسى. فالمذبح هو الذى يمنحه الوظيفة، حسب تعبير أرسطو (٢). وليس فى هذا الخلط بين الكهنوت والسلطان ما يثير العجب، فهو يكاد يوجد فى أصل كل المجتمعات، لأنه فى طفولة الشعب لم يكن يستطيع الحصول على الطاعة سوى الديانة وحدها، لأن طبيعتنا تحملنا على عدم الخضوع للسلطة ما لم تكن سلطة فكرة خلقية.

ونحن نعلم إلى أى حد كانت ديانة المدينة مختلطة بكل شىء. فكان الإنسان يشعر فى كل لحظة أنه يعتمد على الآلهة وأنه فى حاجة إلى هذا الكاهن الموضوع بينهم وبينه. وهذا الكاهن هو الذى كان يسهر على النار المقدسة، وعبادته اليومية هى التى تنقذ المدينة فى كل يوم كما يقول بنداروس (٣). وهو الذى يعرف صيغ الدعاء التى لا تقاومها الآلهة، وهو الذى يذبح الأضحية فى ساعة القتال ويجلب نجدة الآلهة. فكان من الطبيعى أن يقبل رجل لديه مثل هذه السلطة وأن يعترف به رئيساً. وقد نتج من اختلاط الديانة بالحكومة والعدل والحرب أن أصبح الكاهن فى نفس الوقت بحكم الضرورة رجل دولة وقاضياً ورئيساً حربياً. يقول أرسطو «لملوك أسبرطة ثلاثة اختصاصات: يقدمون القرابين ويتولون القيادة فى الحرب ويقومون بالقضاء» (٤). ويستعمل ديونيسيوس الهاليكارناسى نفس العبارات عند الكلام على ملوك روما.

(١) بلوتارخوس ، أجيس ١١.

(٢) Aristote. *Pol.*, VI, 5, 11 : Ἀπὸ τῆς κοινῆς ἑστίας ἔχουσι τὴν τιμήν

(٣) بنداروس ، النيمية *Néméennes* ٩ : ١ — ٥

(٤) أرسطو ، السياسة ٣ : ٩

كانت القواعد المتبعة [illegible] الملكية سهلة جداً ولم يكن ضرورياً أن يبحث عنها طويلاً فقد كانت مستمدة من نفس القواعد الدينية المقدسة [illegible] الذي وضع الموقد هو الملك الأول، وفي الأصل كانت الوراثة هي القاعدة [illegible] مثل هذه [illegible] وهكذا كان موقد أسرة أو موقد مدينة [illegible] كانت تنتقل على [illegible] مهمة [illegible] عليه من الوالد إلى الابن دائماً، وإذن فقد كان الكهنوت وراثياً [illegible] والسلطة معه (١)

وهناك حقيقة معروفة جداً [illegible] الإغريق [illegible] بطريقة قاطعة على أن الملكية كانت [illegible] الذي وضع موقد المدينة [illegible] نعرف أن أهالي المستعمرات [illegible] يكونوا شعباً [illegible] بل كانوا خليطاً من بلاجيين (Pelasges) و[illegible] (Abantes) وكادميين (Cadméens)، ومع ذلك فإن مواقد المدن الجديدة قد وضعها جميعاً أعضاء من أسرة كودروس [illegible] نتج عن ذلك أنه بدلاً من أن يكون [illegible] رؤساء من جنسهم [illegible] بيلاجيين [illegible] ونيليوس للأيونيين، فقد أعطوا جميعهم الملكية في بلدانهم إلى عشرة كودريين (٢). ومن المؤكد أن هؤلاء الأشخاص لم يحصلوا على سلطتهم بالعنف إذ أنهم كانوا الأسياد الوحيدين في هذه الجموع الكثيرة [illegible] فقد وضعوا [illegible] فقد كان من حقهم أن يشرفوا عليه [illegible] فقد كانت الملكية من نصيبهم دون نزاع وبقيت وراثية في أسرتهم [illegible] في أفريقيا [illegible] Battiades وبقيا طويلاً حائزين للرياسة [illegible] بروتيس (Protis) مرسيليا [illegible] بروتيون Protiades الكهنوت [illegible] من أسلاف [illegible] كبيرة.

(١) لم نتكلم هنا إلا عن [illegible] الأول [illegible] إلى [illegible] لم [illegible] هي [illegible] الملكية وراثية. ومرجع ذلك أن [illegible] حدث [illegible] إلى [illegible] في كل مكان.

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٢ – ١٤٨ ؛ بوسانياس ٧ ، ١ – ٥ .

فلم تكن القوة إذن هي التي خلقت الرؤساء والملوك في هذه المدن القديمة. وليس صحيحاً أن يقال إن أول من كان ملكاً فيها هو جندي سعيد الحظ. ولكن السلطة كانت مستمدة من عبادة الموقد كما قال أرسطو صراحة. فالديانة خلقت الملك في المدينة كما أنها هي التي خلقت رئيس الأسرة في البيت. كانت العقيدة الآمرة، التي لا تجادل، تقول إن كاهن الموقد الوراثي هو مستودع الأشياء المقدسة وحارس الآلهة. كيف يمكن التردد في طاعة مثل هذا الرجل؟ كان الملك ذاتاً مقدسة، *βασιλεῖς ἱεροί* كما يقول پنداروس. لم يكونوا يرون فيه إلهاً تماماً بل على الأقل «أقوى رجل في رفع غضب الآلهة» (١) الرجل الذي بدون معونته لا يؤثر أي دعاء ولا يقبل أي قربان.

استقرت هذه الملكية التي نصفها ديني ونصفها سياسي في جميع المدن منذ نشأتها دون جهد من جانب الملوك ودون مقاومة من جانب الرعايا. وإنا لا نرى في أصل الشعوب القديمة التذبذبات والمناضلات التي تميز مولد المجتمعات الحديثة العسير. ومعروف كم لزم من الزمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية للعثور مرة أخرى على قواعد مجتمع منظم. فقد رأت أوربا، خلال قرون، عدة مبادئ متناقضة تتنازع حكومة الشعوب. والشعوب ترفض في بعض الأحيان كل تنظيم اجتماعي. لا نرى مثل هذا الخطر في بلاد الإغريق القديمة ولا في إيطاليا القديمة، إن تاريخها لا يبدأ بالمنازعات. ولم تظهر الثورات إلا في النهاية. تكونت المجتمعات عند هذه الشعوب ببطء، مع طول الزمن، وعلى درجات، بالانتقال من الأسرة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى المدينة. ولكن من غير هزات ولا نضال. ظهر النظام الملكي بطريق طبيعي في الأسرة أولاً، وفي المدينة فيما بعد. لم يبتدعه مطمع البعض وإنما ولدته حاجة بدت في نظر الجميع. وكان، خلال قرون عديدة، هادئاً مبجلاً نافذاً. لم يكن الملوك في حاجة للقوة المادية؛ لم يكن لهم جيش ولا مالية لكن كانت تعضدهم عقائد ذات سلطان على النفس. فكانت سلطتهم مقدسة ومصونة.

(١) سوفوكليس، أوديبوس ملكاً ٣٤.

وفيما بعد قلبت ثورة . سنتحدث عنها في مكان آخر . نظام الملكي في جميع البلاد . لكنه عندما سقط لم يترك أية ضغينة في قلوب الناس . فلم يلحقه في يوم ما هنا الاحتقار المعروف بالشتيمة الذي يلازم عادة العظمة المهزومة . وبالرغم من سقوطه بقي احترامه مستمراً ويعتبرهم ملازماً بذكره . بل يرى في بلاد الإغريق شيء ليس معتاداً في التاريخ وهو أنه في البلدان التي لم تنقرض فيها الأسرة المالكة لم يقتصر الأمر على عدم طردها بل لم تنس الرجال الذين جردوها من سلطتها دوموا على تبجيلها . ففي إفسوس ومارسيليا وقيرينة ظلت الأسرة المالكة بعد جردها من سلطتها محاطة باحترام الشعوب بل احتفظت بلقب الملك وشاراته (١) .

أقامت شعوب اليونان حكماً جمهورياً . لكن لقب ملك كان أبعد من أن يكون سبة بل بقي لقباً مبجلاً . تعود البعض أن يقول إن هذا اللفظ كان كريهاً محتقراً ؛ إنه لخطأ غريب ، فقد كانوا يطلقونه على الآلهة في أدعيتهم وإذا لم يجرؤ المغتصبون في أي وقت على اتخاذ هذا اللقب فليس ذلك لأنه كان بغيضاً ، بل الأمثل لأنه كان مقدساً (٢) وفي بلاد الإغريق أعيدت الملكية مرات في المدن ، لكن السلاطين الجدد لم يعتقدوا قط أن لهم الحق في تسمية أنفسهم ملوكاً وقنعوا بأن يدعوا طغاة (tyrans)(٣). ولم يكن الفارق بين هذين الاسمين حاصلاً في الصفات الحسنة التي كانت في شخص السلطان. فإنهم لم يكونوا يسمون الأمير الصالح ملكاً ، ولا الطالح طاغية ، وإنما كانت الدلالة على الأخص هي التي تميز بينهم . كان الملوك الأولون يقومون بوظائف الكهانة ويستمدون سلطتهم من الموقد . أما الطغاة في الفترة المتأخرة فإنهم لم يكونوا سوى رؤساء سياسيين ولم يكونوا مدينين بسلطتهم إلا للقوة أو الاختيار .

Strabon XIV, 1, 3. *Καὶ ἔτι νῦν οἱ ἐκ τοῦ γένους (Ἀνδρόκλου) ὀνομάζονται βασιλεῖς, ἔχοντές τινας τιμάς, προεδρίαν ἐν ἀγῶσι καὶ πορφύραν ἐπίσημον τοῦ βασιλικοῦ γένους, σκίπωνα ἀντὶ σκήπτρου, καὶ τὰ ἱερὰ τῆς Δήμητρος.* أثينيوس ١٣ : ٢٦ ص ٥٧٦

Tite Live, III, 39. *Nec nominis (regii) homines tum pertaesum esse, quippe quo Jovem appellari fas sit, quod sacris etiam ut solemne retentum sit.* — *Sanctitas regum* (Suetone, *Julius* 6).

Ciceron, *De rep.* I, 33. *Cur enim regem appellem Jovis Optimi nomine, hominem dominandi cupidum aut populo oppresso* ***dominantem, non tyrannum potius?***

الفصل العاشر

رجل الدولة

لم ينقطع امتزاج السلطة السياسية بالكهنوت فى شخص واحد بانتهاء الملكية. فإن الثورة التى أقامت النظام الجمهورى لم تفصل الوظائف التى كان يبدو أن اختلاطها شىء طبيعى جداً، وكان هذا الاختلاط عندئذ هو القانون الأساسى للمجتمع البشرى. فكان رجل الدولة الذى حل محل الملك، على مثاله، كاهناً ورئيساً سياسياً فى آن واحد.

وفى بعض الأحيان كان يحتفظ هذا الحاكم السنوى باللقب المقدس ملك(١). وفى مكان آخر كان اسم سادن بيت النار (prytane) الذى احتفظ له به، يدل على وظيفته الرئيسية (٢). وفى مدن أخرى ساد لقب أرخون Archonte. ففى ثيبة مثلا كان رجل الدولة الأول يلقب بهذا اللقب. لكن ما يقوله بلوتارخوس عن هذه الوظيفة يريد أنها لا تختلف عن الكهنوت إلا قليلا. وكان يجب على هذا الأرخون أن يلبس تاجاً أثناء مدة ولايته (٣) كما يليق بالكاهن. وكانت الديانة تحرم عليه أن يترك شعره ينمو أو أن يحمل أى شىء من الحديد معه. وهى المحرمات تجعله شبيهاً إلى حد ما بالفلامين الرومانيين. وكان لمدينة پلاتيا أرخون كذلك. وكانت ديانة هذه المدينة تأمر بأن يرتدى اللباس الأبيض(٤). أى اللون المقدس طول مدة ولايته.

(١) فى ميغارا، وفى ساموثراكى. تيتوس ليفيوس ٤٢ : ٥ .
Boeckh, *Corp. inscr. gr.* n° 1052

(٢) بندروس : نيميات

(٣) بلوتارخوس ، مسائل رومانية ، ٤٠ .

(٤) بلوتارخوس ، أرستيديس ، ٢١ .

وكان الأراخنة الأثينيون يصعدون إلى ربوة المدينة (acropole) يوم استلامهم مقاليد وظيفتهم وعلى رأسهم تاج من الآس (myrte) ويقدمون قرباناً لمعبودة المدينة (١) وكذلك كان المألوف في مباشرة وظائفهم أن يضعوا تاجاً من ورق الشجر على رؤوسهم (٢) ومن المؤكد أن التاج الذي أصبح مع مضي الزمن رمزاً للسلطة، وبقي كذلك، لم يكن عندئذ سوى رمز ديني، علامة ظاهرة تصحب الدعاء والقربان (٣) والذي يُدعى الملك من بين الأراخنة كان رئيساً للديانة على وجه خصوص، لكن كان لكل واحد من أنداده وظيفة دينية يقوم بها، وقربان يقدمه للآلهة (٤)

كان عند الإغريق تعبير عام للدلالة على رجال الدولة، فكانوا يقولون oi en telei ومعناه الذين يقومون بالقربان (٥) وهو تعبير قديم يدل على الفكرة التي كانوا يتصورونها في جهة عن رجل الدولة. يقول پنداروس عن هذه الشخصيات إنهم يصونون سلامة المدينة بالقرابين التي يقدمونها للموقد.

وفي روما كان أول عمل للقنصل أن يقدم قرباناً في الفوروم (٦) فكان

---

(١) توقيديديس ٨، ٧٠. أبولودوروس: القطعة ٢١ (مجموعة ديدو ج ١ ص ٤٣٢).

(٢) ديموستينيس: ضد ميدياس ٣٣. أيسخينيس: ضد تيمارخوس ١٩.

(٣) كانوا يضعون التيجان في وجه التقديم وفي المواكب: بلوتارخوس: نيكياس ٣؛ فوكيون ٣٧. شيشرون: ضد فيريس ٤: ٥٠.

(٤) بوليديوكيس ٨، فصل ٩، الأرقام ٨٩، ٩٠. ليسياس De bn. proh. ديموستينيس ضد نيايرا ٧٤ — ٧٩. بيكورغ مجموعة ديدو ج ص ٢٦٣. بيتيباس ضد أندوكيديس ٤.

(٥) يستعمل التعبير Ta telē أو oi en telei للدلالة على رجال الدولة في اسبرطة كما هو مستعمل لأمثالهم في أثينا. توقيديديس ١، ٥٨؛ ٢، ١٠؛ ٣، ٣٦؛ ٤، ٦٥؛ ٦، ٨٨. إكسنوفون: الهيلينيات ٣، ٣٦؛ أغيسيلاس ٤، ١. هيرودوت ١، ١٣٣؛ ٣، ١٨. أيسخيلوس: الفرس ٤٠٢؛ أوريبيديس: الفينيقيات ٢٣٨.

(٦) الفوروم هو الساحة العامة لمدينة روما، كان يعقد فيها السوق وتعقد الاجتماعات والحفلات والمحاكم — المعرب.

يأتي بالأضحية في الميدان العام ، وعندما يقرر الحبر أنها لائقة للتقديم يضحيها القنصل بيده بينما يأمر المنادي الجمهور بالصمت الديني ويسمعهم لاعب المزمار الأغنية المقدسة (١) وبعد ذلك ببضعة أيام يتوجه القنصل إلى لافينيوم التي خرجت منها الپناتس الرومانية ويقدم قرباناً مرة أخرى .

عندما نفحص بشيء من الانتباه ، طابع رجل الدولة عند القدماء ، نرى إلى أي حد يبعث قلة الشبه بينه وبين رجل الدولة في المجتمعات الحديثة كل [illegible] كهنوت وقضاء وقيادة ممتزجة في شخصه . فقد كان يمثل المدينة التي هي جماعة دينية بقدر ما هي سياسية على الأقل . وكانت في يده الاستخارات والشعائر والأدعية وحماية الآلهة . فكان القنصل شيئاً أكثر من رجل ، لقد كان وسيطاً بين الإنسان والمعبود . وكان مصير [illegible] مرتبطاً بمصيره . إنه عناية روح حارسة للمدينة ، وموت القنصل يجلب النحس (funeste) للمدينة (٢) . ربما نتذكر تيتوس ليفيوس إلى أي حد كانت روما قلقة على مصير جيش كلوديوس نيرون [illegible] هذا القنصل جيشه وحرمه المساعدة [illegible] لأن الجيش وهو محروم من رئيسه محروم في نفس الوقت من حماية السماء . فقد ارتحلت بارتحال القنصل الاستخارات أي العبادة والآلهة (٣) .

وكانت المناصب الرومانية الأخرى ، التي تعتبر إلى حد ما كأعضاء انفصلت من القنصلية الواحد تلو الآخر ، تجمع مثلها بين اختصاصات كهنوتية واختصاصات سياسية . فكان يرى الرقيب في بعض الأيام وعلى رأسه تاج وهو يقدم قرباناً باسم المدينة ويهوي بيده على الضحية . وكان البريتورات preteurs والإيديليون المسمون بـ aediles curules (٤) يرأسون أعياداً دينية (٥) .

(١) [illegible]
[illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible] Castro [illegible]
(٤) [illegible] édile [illegible]
[illegible]
له عن منتخب السوقة (édile plébéien) - المعرب .
(٥) قارون : اللسان اللاتيني ٦ : ٥٤ . أثينايوس ١٤ : ٧٩ .

وما من أحد من رجال الدولة إلا وكان يقوم بعمل مقدس . إذ أنه كان في ذهن القدماء أن كل سلطة يجب أن تكون دينية من ناحية ما . وكان عرفاء السوقة (tribuns) هم وحدهم الذين لا يقومون بأى قربان وهذا لم يكونوا معدودين بين رجال الدولة الحقيقيين ؛ وسنرى فيما بعد أن سلطتهم كانت ذات طبيعة استثنائية محضة .

وتظهر الصفة الكهنوتية التي تلازم وظيفة رجل الدولة على الأخص في الطريقة التي كان ينتخب بها . ففي نظر القدماء لم يكن يبدو أن تصويت الناس كان كافياً لإقامة رئيس المدينة . فلما كانت الملكية الأولى قائمة كان يبدو طبيعياً أن يعين هذا الملك، الذي هو رئيس عبادة المولد، طبقاً للقانون الديني الذي ينص على أن يولد خلف تماماً في كل كهنوت . فقد كان يلوح لهم أن في المولد ما يكفي للكشف عن إرادة الآلهة . وعندما قضت الثورات على هذه الملكية في كل مكان بحث الناس ، فيما يلوح ، عن طريقة للاختيار لا ترفضها الآلهة لكي تحل محل المولد . فلم ير الأثينيون والكثير من الشعوب الإغريقية وسيلة أحسن من القرعة . ولكننا الآن نكوّن فكرة خاطئة عن هذه الطريقة التي جعلت موضوعاً للطعن في حكم العامة الأثيني . ولابد لذلك من التوغل في فكر القدماء . فإن القرعة لم تكن في نظرهم هي المصادفة ، بل كانت القرعة بمثابة إعلان للإرادة الإلهية . وكما أنهم كانوا يلجأون إليها في المعابد ليطلعوا على الأسرار العلوية فكذلك كانت المدينة تلجأ إليها لاختيار رجل الدولة فيها . وكانوا مقتنعين بأن الآلهة تختار الأمثل بإخراج اسمه من الوعاء . وقد عبر أفلاطون عن رأى القدماء عندما قال : « إننا نقول عن الرجل الذي تعينه القرعة أنه عزيز على المعبود ونجد من العدالة أن يتولى القيادة . وفي جميع مناصب الدولة التي تمس الأشياء المقدسة نعتمد فيها على القرعة تاركين للمعبود خيار من يطيب

له، وبذلك كانت تعتمد مدينة أن تتلقى رجال دولتها من الآلهة (١)
وفي الواقع أن الأمور كانت تجري [illegible] على هذا النحو تحت مصدر

(١) أفلاطون، القوانين [illegible] ص ٧٥٩، [illegible] أن [illegible] القرعة [illegible] من أنواع حكم العامة [illegible] [illegible] منتخب بالقرعة (κληρωτοὶ) [illegible] [illegible] χειροτονητοὶ [illegible] [illegible] ستيسمبروتوس (Stesimbrote) [illegible] كان [illegible] بالقرعة [illegible] ἐκ κυάμου [illegible] وقال [illegible] عن تشريع أثينا وعلى الأخص عن منصب الأرخون [illegible] طريق القرعة [illegible] أرستيدس [illegible] (Idomenee de Lympsaque) [illegible] [illegible] أن نفهم أن الأثينيين [illegible] أرستيدس [illegible] ويبين هيرودوت ([illegible]) أنه في زمن معركة ماراثون كان الأراخنة التسعة [illegible] (polémarque) [illegible] بالقرعة [illegible] وأخيراً بوسانياس [illegible] الأرخون [illegible] القرعة [illegible] أرستيدس [illegible] الأرخون [illegible] (Eupatrides) [illegible] (De Invalido) [illegible] ἀποδόκιμος 150 [illegible] قواعد القرعة [illegible] أن [illegible] (ἀρχαιρεσία) [illegible] بالأراخنة [illegible] حكم العامة عند ما تنتخب أثينا منصب القادة (stratèges) [illegible] في استعمال القرعة وأثر أن [illegible] [illegible] إلى عصر [illegible] حكم العامة.

مختلفة . فكان بحتم ألا يكون انتخاب القنصل بيد الناس ، بل أن يرى هذا الشعب أو هواه لم يكونوا قادرين على منح رجل ثوبه حقاً شرعياً . وإليك بيان كيف كان يختار القنصل [illegible] كان أحد رجال الدولة العاملين . أي رجل حائز من قبل للصفة اللازمة وللاستخارات ، يحدد من بين أيام العمل اليوم الذي يجب أن يعين فيه القنصل . وكان يسهر خلال الليلة السابقة لذلك اليوم في الهواء الطلق شخص ينظر إلى السماء وهو يلاحظ الآيات التي ترسلها الآلهة وفي نفس الوقت يتلو في ذهنه أسماء بعض المرشحين للمنصب فإذا كانت الإشارات موافقة فإن الآلهة تكون قد قبلت المرشحين . وفي اليوم التالي يجتمع الشعب في حقل مارس (champ de Mars) ويرأس الجلسة نفس الشخص الذي استخار الآلهة ويقف يصوت على أسماء المرشحين الذين تفاءل بهم الاستخارة وإذا وجد بين طالبي القنصلية واحد لم يوفق في الاستخارة فيجب عليه حذف اسمه ولا يصوت الشعب إلا على الأسماء التي يسميها هذا الرئيس (١) وإذا لم يسم الرئيس إلا مرشحين فإن الشعب يصوت لهما بحكم الضرورة وإذا سمى ثلاثة أشخاص اختار الشعب اثنين منهما . ولم يكن مسموحاً حتى مطلقاً في التصويت على أشخاص غير الذين عينهم الرئيس إذ أن الاستخارات لم تكن تعنيهم . وموافقة الآلهة لم تكن مضمونة . إلا لهؤلاء فقط (٢)

(١) ديونيسيوس [illegible] ؛ بلوتارخوس : ماركيوس ٥ ، تيتوس ليفيوس ٤ ، ٧

(٢) [illegible] في روما ، وهي التي سقطت من الاستعمال في القرون الأخيرة من الجمهورية فيلاحظ ديونيسيوس ٤ ، ٨٤ أن الشعب لا يصوت إلا على الأسماء التي يقترحها رئيس الجلسة [illegible] [illegible] [illegible] (centuria) [illegible]

Tite-Live III 21. *Consules edicunt ne quis L. Quinctium consulem faceret si quis fecisset se id suffragium non observaturos*

Tite-Live, VII 22 *Consules rationem ejus se habituros negabant*

هذه القاعدة [illegible] قبل الميلاد [illegible] الشعب في هذه [illegible] كبيراً حتى [illegible]

تفسر هذه الطريقة فى الانتخاب ، التى كانت متبعة فى القرون الأولى من الجمهورية ، بعض مظاهر التاريخ الرومانى التى قد تثير الدهشة لأول وهلة . فمثلا نرى فى كثير من الأحيان أن الشعب يكاد يجمع على تعيين رجلين فى منصب القنصلية إلا أنه لا يستطيع ذلك لأن الرئيس لم يكن قد استخار هذين الرجلين أو لأن الاستخارات لم تبد موافقة . وعلى العكس نرى الشعب مرارا يعين قناصل رجلين يبغضهم (١) ذلك لأن الرئيس لم يتل غير اسميهما فكان لا مفر من التصويت عليهما إذ أن التصويت لا يعبر عنه إلا بنعم أو بلا . ولا بد أن يكون فى كل تصويت اسمان ولا يمكن أن تكتب أسماء غير التى عينت . ويستطيع الشعب الذى يقدمون له مرشحين يبغضهم أن يدل على غضبه بالانسحاب دون تصويت ، لكنه كان يبقى دائما داخل المكان عدد كاف من المواطنين لتمثيل الانتخاب (٢) .

نرى هنا ما كانت عليه سلطة رئيس الانتخاب ولن ندهش بعدئذ للتعبير الشرعى «يخلق القناصل» (Creat consules) ، وهو تعبير لم يكن ينطبق على الشعب بل على رئيس الانتخاب . ومن المتوقع أنه كان أولى من الشعب أن يقال عنه أنه خالق

لم يبلغ القاضى شرعا أو القاصر أكثر من فضل على الذى كبر به . انظر Aulu-Gelle, VI, 9. Flavium pro tribu aedilem curulem renuntiaverunt, at aedilis qui comitia habebat negat accipere هنا رفض الرئيس ، [illegible] (édile) أن ينقل الأصوات إلى غيره . وفى مكان آخر أعلن القنصل بوركيوس Porcius أنه لا يقبل ترشيح فلان non accipere nomen eius تيتوس ليفيوس ٣٩ : ٣٩) . ويروى فاليريوس ماكسيموس ٣ : ٨ أنه عند افتتاح الجمعيات comices سأل الرئيس ج . بيزون (C. Pison) عما إذا كان يعين أصحاب لولوس باليكانوس (Lollius Palicanus) فى حالة ما إذا انتهت إليه أصوات الشعب ، فأجاب بيزون أنه لن يعلنه non renuntiabo ! وعندئذ أعطى الجمع أصواته لمرشح آخر ، نرى فى فيليوس Velleius ، ٢ ، ٩٢ ، أحد القناصل يحرم على مرشح أن يتقدم profiteri vetuit فلما أصر هذا الأخير برأيه أعلن القنصل أنه لا يعترف بالتصويت ، وقد كان إعلان الرئيس renuntiatio شيئا لا يمكن الاستغناء عنه وبدونه لا يمكن أن يكون هناك انتخاب .

(١) تيتوس ليفيوس ٣ ، ٤٠ ، ٤ ؛ ٤٣ ، ديونيسيوس ٨ ، ٨٧ .

(٢) نرى مثلين من ذلك فى ديونيسيوس ٨ : ٨٢ وتيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤ .

القاضى لأنه هو الذى يكشف عن إرادة الآلهة . وإذا لم يكن هو الذى يعين القاضى فذلك لأن الآلهة كانت تعينهم عن طريقه على الأقل . أما سلطة الشعب فينتهى مداها عند إقرار الانتخاب ، وعلى أكثر تقدير عند الاختيار من بين ثلاثة أسماء أو أربعة إذ يبدو أن الاستخارات كانت موافقة على ثلاثة مرشحين أو أربعة على السواء .

ومما لا ريب فيه أن هذا مسلك كان مفيداً جداً (للأرستوقراطية) الرومانية إلى أبعد حد . ولكن من الخطأ أن نرى فى هذا سوى خدعة تصورتها السراة . فإن هذه الخدعة لا يمكن إدراكها فى القرون التى كانوا يؤمنون فيها بهذه الديانة . بل إنه كان بعيداً عنا من الوجهة السياسية فى الأزمنة الأولى إذ أنه كان الطريقة الأساسية فى الانتخاب . ولم يكن من الجائز أن يعتبر مصيرهم وعقيدتها معتمدة على الرجل الواحد . والتفسير الوحيد الذى يمكن أن تفسر به هذه العادات ، أو على الأصح شعائر الانتخاب هذه ، هو أن جميع الناس كانوا يعتقدون بإخلاص أن اختيار رجل الدولة لم يكن للشعب بل للآلهة . فإن الرجل الذى سيتصرف فى ديانة المدينة ومصيرها يجب أن يكشف عنه صوت المعبود .

القاعدة الأولى لانتخاب رجل الدولة هى التى يعطيها شيشرون : « يعين طبقاً للشعائر (١) » . وإذا حدث بعد عدة شهور أن جاء أحد ينبئ مجلس الشيوخ أن إحدى الشعائر أهملت أو أسىء فهمها ، كان مجلس الشيوخ يأمر القضاة بعزل أنفسهم . وكانوا يطيعون . والأمثلة عديدة . وإذا كان مسموحاً أن نعتقد بالنسبة لاثنين أو ثلاثة منها أن مجلس الشيوخ قد رغب فى التخلص من قاض غير أهل أو متكبر فإنه ، على العكس ، لا نستطيع أن نفترض ذلك فى أغلب الأحوال ... [illegible]

(١) Ciceron, *De legibus*, III, 3: *Auspicia patrum sunto, ollique ex se produnto qui comitiatu creare consules rite possint.*
نعرف أن شيشرون فى القوانين (*De legibus*) لم يفعل أكثر من أن نقل قوانين روما وفسرها

حقاً إنه عندما كانت القرعة في أثينا أو الاستخارات في روما تعين الأرخون أو القنصل كان ذلك نوعاً من الاختبار تفحص بمقتضاه كفاءة المنتخب الجديد (١) لكن هذا سيرينا ماذا كانت تتمنى المدينة أن تراه في رجل الدولة فإنها لم تكن تسعى وراء أشجع رجل للحرب ولا أمهر ولا أعدل رجل في السلم بل وراء أكثرهم محبة من الآلهة. والواقع أن مجلس الشيوخ الأثيني كان يسأل المنتخب الجديد عما إذا كان له إله منزلي (٢)، عما إذا كان عضواً في أخوية، عما إذا كان له قبر عائلي، وعما إذا كان يقوم بكل واجباته نحو الموتى (٣). لماذا هذه الأسئلة؟ ذلك لأن من ليست له عبادة عائلية لا يجوز له أن يساهم في العبادة القومية ولا أن يكون أهلاً لتقديم القرابين باسم المدينة ومن أهمل عبادة موتاه كان معرضاً لغضبهم العنيف وتطارده أعداء غير مرئيين إنها لمخاطرة كبيرة من جانب المدينة أن تكل حظها لمثل هذا الرجل. كانت تريد أن يكون رجل الدولة الجديد من أسرة طاهرة حسب تعبير أفلاطون (٤) ذلك أنه إذا كان واحد من أسلافه قد اقترف عملاً من هذه الأعمال التي تسيء إلى الديانة فإن موقد الأسرة كان يبقى مدنساً إلى الأبد وكانت الوراثة تظل معرضة

(١) δοκιμασία أو ἀνάκρισις ἀρχόντων والأسئلة المختلفة التي كانت توضع في هذا الامتحان عددها دينارخوس ضد أرسطوغيتون ١٧ - ١٨ وبولوكس ٨ - ٨٥ - ٨٦، قارن ليكورج الفقرة ٤، وهربوقراسيون تحت لفظ Ἑρκεῖος

(٢) Εἰ φράτορες εἰσὶν αὐτῷ καὶ βωμοὶ Διὸς Ἑρκείου καὶ Ἀπόλλωνος πατρῴου (Dinarque dans Harpocration). Εἰ Ἀπόλλων ἐστὶν αὐτοῖς πατρῷος καὶ Ζεὺς ἑρκεῖος (Pollux, VIII 85).

(٣) Εἰ ἠρία πατρῷα ἐστί (دينارخوس ضد أرسطوغيتون ١٧ - ١٨) وكانوا يسألون الأرخون أيضاً عما إذا كان قد قام بكل الخدمات التي أمر بها، وعما إذا كان قد دفع كل الضرائب.

(٤) Platon *Lois* VI p. 759 *Ὡς ὅτι μάλιστα ἐκ τῶν καθαρευουσῶν οἰκήσεων*

ولأسباب شبيهة بهذه كانوا يقصون عن منصب الأرخون كل مصاب بعاهة أو مشوه (ليسياس، الدفاع عن العاجز ١٣) ذلك لأن العيب الجسماني كان يعد علامة على غضب الآلهة وعلى أن الرجل غير لائق بأن يعهد إليه بأي كهنوت وبالتالي غير لائق للقيام بأي منصب من مناصب الدولة.

من الآلهة . تلك هي أهم الأسئلة التي كانت توجه لمن سيكون رجل الدولة كان يبدو أنهم لا يهتمون بطبعه ولا بذكائه بل كانوا يهتمون على الأخص بأن يكون أهلا للقيام بالوظائف الكهنوتية وألا تتعرض ديانة المدينة لضرر على يديه .

ويبدو أن هذا النوع من الامتحان كان متبعاً في روما . حقاً إنه ليست لدينا أية معلومات عن الأسئلة التي كان على القنصل أن يجيب عليها . لكننا نعرف على الأقل أن هذا الامتحان كان يقوم به الأحبار . ونستطيع جيداً أن نعتقد أن موضوعه لم يكن غير أهلية رجل الدولة من الناحية الدينية (١) .

---

(١) ديونيسيوس ، ٢ ، ٧٣ : *Οἱ ποντίφικες... τὰς ἀρχὰς ἁπάσας ἐξετάζουσι* ليست بنا حاجة إلى التنبيه إلى أنه في العصور الأخيرة من الجمهورية لم يكن هذا الامتحان إلا إجراء أجوف ، ولكنه يعرض أنه كان معمولا به .

الفصل الحادى عشر

القانون

كان القانون، عند الإغريق وعند الرومان وكما كان عند الهنود، في أول الأمر جزءاً من الديانة، وكانت مجموعة قوانين المدينة هي مجموعة من الشعائر والفرائض الدينية والأدعية والنصوص الشرعية في آن واحد، وكانت قواعد حق الملكية وحق الإرث متفرقة بين قواعد خاصة بالقرابين وبتحديد قداسة الموتى.

وإن ما بقي لنا من أقدم قوانين روما، وهو ما كان يسمى بالقوانين الملكية، لينطق في كثير من الأحيان عن قداسة تضفي ما يبقى على علاقات الحياة المدنية. فكان أحدها يحرم على المرأة الخاطئة أن تقترب من المذبح. وآخر يحرم تقديم بعض ألوان السمك في الأكلات المقدسة. وثالث يبين أي الاحتفالات الدينية كان يجب على القائد المنتصر أن يقوم به عند دخوله المدينة. وكانت مجموعة قوانين الألواح الاثنتي عشرة، ولم نتحدث عنها، لا تزال تحوى فرائض مقتبسة من شعائر الدين القديمة. وكان تشريع الحبر مجموعة قوانين ودستوراً وكتاب شعائر في آن واحد. فكان يرتب الحوادث ويثبت الأضحية منظماً فيها كما كان شعائر الأعراس ومعاهدة الموت.

ويرى شيشرون في رسالته عن القوانين أن كل تشريع لم يكن كله ونبذ الحياة من كان في مجموعة قوانينه مقيداً بالشرع القديم، سواء في جوهره أو في شكله. وهذه هي ذي القوانين الأولى التي كتبها: لا تقترب أحد من الآلهة إلا بيدين طاهرتين. حافظوا على معابد الآباء ومستقر اللارس المنزليين. على الكهنة ألا يستعملوا في الأكلات المقدسة إلا الأطعمة المنصوص عليها؛

منذرة للآلهة المدنيين العادة بواجبهم ؛ من المؤكد أن الفيلسوف الروماني كان قليل الاهتمام بديانة اللاتين والمدنيين القديمة . لكنه رسم تشريعاً على صورة التشريع القديم وعن أنه مرغم بدمج قواعد العبادة فيه

من الحقائق المعترف بها في روما أنه من غير المستطاع أن يكون المرء حبراً صالحاً إذا كان لا يعرف القانون (١) ؛ وبالعكس أنه لم يكن من المستطاع أن يعرف القانون إذا كان لا يعرف الديانة . كان الأحبار هم الشارعين الوحيدين زمناً طويلاً . وحيث أنه لم يكن يكاد يوجد أي عمل من أعمال الحياة لا يرتبط بصلة ما بالديانة فقد نتج عن ذلك أن كل شيء تقريباً كان خاضعاً لقرارات هؤلاء الكهنة . وأنهم كانوا القضاة الوحيدين في عدد لا حد له من القضايا . فكانت ترفع إلى محاكمهم جميع القضايا الخاصة بالزواج والطلاق وحقوق الأطفال المدنية والدينية . وكانوا قضاة في [illegible] والمحرمات وكذلك في [illegible] . ولما كان [illegible] عمل مدني [illegible] لم يكن يقع إلا تحت [illegible] وكان عمل الوصية معناه قطع العبادة التي أوصى بها [illegible] الأملاك والعبادة العائلية ، لذا كان يجب في الأصل أن يحضر الحبر الوصية . ولما كانت [illegible] كل حدث تعيبه الديانة [illegible] كان من الواجب [illegible] في خصومه ، أن ترفع أمام الحبر أو أمام كهنة كانوا يسمونهم الإخوة الأرفاليين (٢) وذلك هو السبب في أن نفس الأشخاص كانوا أحباراً وفقهاء ، وإن الشرع والديانة كانا شيئاً واحداً (٣) .

(١) شيشرون : القوانين ٢ ، ١٩ :
Pontificem neminem bonum esse nisi qui jus civile cognoscit

(٢) شيشرون : الخطيب [illegible] ؛ *De Aruspic. resp.* [illegible] لأجل منزله ١٢ ، ١٤ . ديونيسيوس ٢ ، ٧٣ . [illegible] التاريخ ١ ، ٥ . ديون كاسيوس ٤٨ ، ٤٤ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ١٨ : ٢ . أولوس جيليوس ٧ ، ١٩ ، ٥ ، ٢٠ . بومبونيوس في الدايجست *De origine juris:*

(٣) ومن هنا جاء هذا التعريف العتيق الذي احتفظ به الفقهاء إلى عصر جوستينيان :
Jurisprudentia est rerum divinarum atque humanarum notitia.

كان للأرخون الأول وللملك في أثينا بعض الاختصاصات الكهنوتية التي كانت للحبر الروماني تقريباً. ذلك لأن الأرخون كان مكلفاً بالسهر على دوام العبادة المنزلية (١)، ولأنه كانت للملك الإدارة العليا للديانة المدنية على نمط حبر روما إلى حد ما. لذلك كان الأول يحكم في جميع المنازعات الخاصة بحق الأسرة والثاني في جميع الجرائم التي تمس الديانة (٢)

يتبين لنا بوضوح كيف كانت توجد القوانين القديمة. لم يخترعها رجل واحد. ومن المحتمل أن يكون صولون وليكورج ومينوس ونوما قد دونوا قوانين مدنهم المكتوبة، ولكنهم لم يشرعوها. فإذا كنا نقصد بالشارع رجلا يبتدع قانوناً بقوة عبقريته ويفرضه على الآخرين فإن هذا الشارع لم يوجد عند القدماء، فضلاً عن أن يكون القانون قد خرج من تصويت الشعب. ولم تظهر فكرة أن عدد الأصوات يستطيع أن يضع قانوناً إلا متأخرة جداً في المدن وبعد أن غيرتها ثورتان. وحتى ذلك الوقت كانت تبدو القوانين كشيء عتيق، غير قابل للتعديل، وله حرمة. فهي قديمة قدم المدينة. والمؤسس هو الذي وضعها في نفس الوقت الذي وضع فيه الموقد *moresque viris et moenia ponit*، وهو الذي أنشأها في نفس الوقت الذي أنشأ فيه الديانة. ومع ذلك، لا يمكن القول إنه تخيلها بنفسه. فمن هو إذن مؤلفها الحقيقي؟ عندما تكلمنا آنفاً عن تنظيم الأسرة وعن القوانين الإغريقية والرومانية التي كانت تنظم الملك والإرث والوصية والتبني لاحظنا كم كانت هذه القوانين مطابقة بالضبط لعقائد الأجيال القديمة. وعندما نضع هذه القوانين تجاه الإنصاف الطبيعي نجدها مناقضة له في كثير من الأحيان. ويبدو من الجلي أنهم لم يستمدوها من فكرة الحق المطلق والشعور بالعدل. ولكن لنضع هذه القوانين ذاتها تجاه عبادة الموتى والموقد ولنقارنها بمختلف عقائد هذه الديانة الأولى ولسوف نعرف عندئذ أنها متفقة جميعاً في ذلك كله اتفاقاً كاملاً.

(١) إيسايوس، ميراث أبولودوروس، ٣٠.

(٢) بولوكس، ٨، ٩٠. أندوكيدس، الأسرار (*De mysteriis*).

لم يكن للإنسان أن يتدبر ضميره ويقول: هذا عدل، وهذا ليس بعدل. فإن الشرع العتيق لم يوجد على هذا النحو. وإنما كان الإنسان يعتقد أن الموقد المقدس ينتقل، طبقاً للقانون الديني، من الأب إلى الابن، فنتج عن ذلك أن التُرب كان ملكاً وراثياً. كان الرجل الذي دفن أباه في حقله يعتقد أن روح الميت تملك هذا الحقل إلى الأبد وأنه يتطلب من ذريته عبادة دائمة. ونتج عن ذلك أن الحقل، وهو ملك الميت ومكان القرابين، قد أصبح ملك أسرة ولا يجوز النزول عنه. كانت الديانة تقول: يواصل الابن العبادة. وليست [illegible] فقال القانون مع الديانة: يرث الابن ولا ترث البنت. والابن لا الأخ يرث ولا يرث ابن الأخت. تلك هي الطريقة التي كان يعمل بها القانون. فقد عرض نفسه من تلقاء ذاته دون أن يلجأ المشرع إلى البحث عنه. كان النتيجة المباشرة الضرورية للعقيدة، كان هو الديانة ذاتها مطبقة على علاقات الناس فيما بينهم.

كان القدماء يقولون إن قوانينهم أتت من الآلهة، وقد كان الإقريطيون ينسبون قوانينهم لمينوس Minos بل لجوبتر، وكان اللاقدمونيون يعتقدون أن مشرعهم لم يكن ليكورغ بل أبولون. وكان الرومان يقولون إن نوما كتب تحت إملاء معبودة من أقوى معبودات إيطاليا القديمة، الآلهة إيجيري Egerie، وتلقى الأتروسك قوانينهم من إله يدعى تاجس (Tages). وهناك شيء من الحق في جميع هذه الأخبار. فإن الشارع الحقيقي عند الأقدمين لم يكن الإنسان بل العقيدة الدينية التي كان يحملها الإنسان في ذاته.

ظلت القوانين شيئاً مقدساً أمداً طويلاً. وحتى في الزمن الذي سمح فيه أن إرادة رجل أو أصوات شعب تستطيع أن تعمل قانوناً، كان لا بد أن تستشار الديانة أو أن تكون راضية. كانوا يعتقدون في روما أن جمع الأصوات لم يكن كافياً لكي يكون هناك قانون بل كان لا بد أن يقر الأحبار قرار الشعب وأن يشهد المستخبرون أن الآلهة تقبل القانون المقترح قبولاً حسناً (١)

(١) Denys, IX. 41 Τας φρατριαρχικας ψηφοφοριας ἔδει προβουλευσαμενης της βουλης και του πληθους κατα φρατριας τας ψηφους ἐπενεγκοντος και μετ᾽ ἀμφοτερα ταυτα των παρα του δαιμονιου σημειων και οἰωνων μηδεν ἐναντιωθεντων, τοτε κυριας εἶναι

كانت هذه القاعدة ملاحظة بدقة في القرن الأول من الجمهورية ثم أهملت فيما بعد أو وجدوا مخرجاً منها

أراد عرفاء السوقة، ذات يوم، أن يقروا علناً قانوناً، فقال لهم أحد الطارقة: وأي حق لكم في عمل قانون جديد أو مس القوانين القائمة؟ أنتم الذين ليس لكم حق الاستخارات، أنتم الذين لا تقومون في مجامعكم بأعمال دينية، أي نصيب لكم في الديانة وفي جميع الأشياء المقدسة التي يجب أن يحسب القانون واحداً منها؟ (١)

نرى من ذلك احترام القوانين والتمسك بها، وهو ما حافظ عليه القدماء زمناً طويلاً. لم يروا في القوانين عملاً بشرياً، فقد كان لها أصل مقدس. لم يكن من اللغو أن يقول أفلاطون إن إطاعة القوانين هي إطاعة الآلهة. إنه لم يكن إلا معبراً عن فكرة الإغريقية عند ما أظهر، في كريتون (Crit.)، سقراط وهو يهب حياته لأن القوانين تطلبها إليه. وقبل سقراط كتبوا على صخرة ثرموبيلاي (Thermopyles): أيها المار اذهب وقل لإسبرطة إننا متنا هنا امتثالاً لقوانينها. كان القانون عند القدماء مقدساً على الدوام، ففي زمن الملكية كان ملك الملوك، وفي زمن الجمهوريات كان ملك الشعوب، وكانت مخالفته إثماً كبيراً.

وكان القانون، من حيث المبدأ، غير قابل للتبديل ما دام أنه إلهي. ومما يلاحظ أنهم لم يلغوا قانوناً قط. كان من الميسور أن تسن قوانين جديدة، ولكن القديمة كانت تبقى دائماً مهما كان التناقض بين القديمة والحديثة. فقانون دراكون (Dracon) لم يلغه قانون صولون (٢). والقوانين الملكية لم تلغها

(١) Denys, X, 4: *Τίνος ὑμῖν μέτεστι τῶν ἱερῶν, ὧν ἓν τι καὶ νόμος ἦν.*
Cf. Tite-Live, III, 41: *Nec plebem nec tribunos legem ferre posse.*

(٢) Andocide, *De mysteriis*, 82: *Ἔδοξε τῷ δήμῳ, Τισάμενος εἶπε, πολιτεύεσθαι Ἀθηναίους κατὰ τὰ πάτρια, νόμοις δὲ χρῆσθαι τοῖς Σόλωνος, χρῆσθαι δὲ καὶ τοῖς Δράκοντος θεσμοῖς, οἷσπερ ἐχρώμεθα ἐν τῷ πρόσθεν χρόνῳ.* انظر دموستينيس ضد إفرغوس ٧١ ؛ ضد تيموكراطيس ٥٦ ؛ بوليدوكس ٩ ، ٦ ؛ أولوس جيليوس ١١ ، ١٨ : *Draconis leges quoniam videbantur acerbiores non decreto jussuque sed tacito illiteratoque Atheniensium consensu obliteratae sunt.*

الوحات الإثنا عشرة . والحجر الذى كان القانون منقوشاً عليه كان مصوناً لا يمس . وعلى أكثر تقدير كان يعتقد أقل الناس تأثماً أنه مسموح له أن يفسره . وهذا المبدأ هو السبب الرئيسي في الخلط الكبير الذى يلاحظ في التشريع القديم . فكانت القوانين متعارضة مختلفة العصور توجد مجتمعة فيه . ومن حقها جميعاً أن تحترم . نرى في مرافعة لإيسيوس رجلين يتنازعان ميراثاً . كل منهما يدعى أن قانوناً ما في صالحه . والقانونان متناقضان تناقضاً مطلقاً ومقدسان على السواء . وكذلك كانت مجموعة قوانين منو تحتفظ بالقانون القديم الذى كان يقرر حق البكورة ، ويكتب نحوه آخر يقضى على القسمة المتساوية بين الإخوة [illegible]

لم يكن القانون القديم حيثيات قط . ولماذا تكون له حيثيات ؟ إنه لم يكن ملزماً بإبداء الأسباب . إنه موجود لأن الآلهة هي التى قد عملته . إنه لا يناقش بل يفرض . إنه عمل من أعمال السلطة . ويطيعه الناس لأنهم يؤمنون به [illegible]

لم تكن القوانين مكتوبة خلال أجيال طويلة بل كانت تنتقل مع العقيدة وصيغة الطقوس من الأب إلى الابن . وكانت تؤدى مقدسة دائماً حول موقد الأسرة أو موقد المدينة

واليوم الذى بدأوا يقيدونها فيه بالكتابة دونوها في الكتب المقدسة ، في كتب الشعائر بين الأدعية والاحتفالات . ذكر فارون قانوناً قديماً لمدينة توسكولوم وأضاف أنه قرأه في الكتب المقدسة لهذه المدينة (١) . ويقول ديونيسيوس الهاليكارناسي ، الذى يرجع للمستندات الأصلية ، إنه قبل القوانين الذى كان مكتوباً في روما من عصر الرجال العشرة (Décemvirs) كان في الكتب المقدسة (٢) وقد خرج القانون . فيما بعد . من كتب الشعائر ، كتبوه على حدة لكن العادة استمرت على وضعه في معبد واحتفظ الكهنة بحراسته

(١) فارون : اللسان اللاتيني ٦ : [illegible]

(٢) Denys, X, 1 : Ἐν ἱεραῖς βίβλοις ἀποκείμενα

وسواء أكانت مكتوبة أو غير مكتوبة . فقد كانت هذه القوانين مصوغة فى قالب شعر موجز جداً يمكن مقارنتها من حيث الشكل بآيات كتب موسى أو فقرات (سلوكاس Çlocas) كتاب مانو . بل إن ظاهر الأمر يدل على أن كلمات القانون كانت منغمة (١). يقول أرسطو إنه قبل الزمن الذى كتبت فيه القوانين كانوا يرتلونها (٢) . وقد بقيت من ذلك ذكريات فى اللغة . كان الرومان يسمون القوانين *carmina* (منظومات) (٣) وكان الإغريق يطلقون عليها νόμοι (أغانى) (٤)

وهذه القوانين القديمة كانت نصوصاً لا تبدل فيها . وتغيير حرف منها أو نقل كلمة أو تبديل النغم إن هو إلا إتلاف القانون ذاته بإتلاف الصورة المقدسة التى نزل بها على الناس . فكان القانون كالدعاء الذى لم يكن يقبله المعبود إلا بشرط أن يتلى بالضبط ، والذى كان يصبح إلحاداً إذا تغيرت منه كلمة واحدة . [illegible] هو كل شىء فى الشرع القديم . ولا مجال للبحث عن معنى القانون أو روحه . لم يكن [illegible] مستمدة من المبدأ الخلقى [illegible] بل من [illegible] قوة فى الكلمات المقدسة التى كان يتألف منها

لم يكن [illegible] . [illegible] . وعلى الأخص فى روما . [illegible] على [illegible] هو [illegible] على [illegible] مثلاً كان على [illegible] *Dari spondes* وعلى الآخر أن يجيب *spondeo* . فإذا لم [illegible] هذه الألفاظ فلا عقد هناك [illegible] إذ أن [illegible] لم يكن مديناً بشىء [illegible] وفى هذا الشرع العتيق لم يكن

(١) [illegible]
(٢) أرسطو Probl. ١٩ : ٢٨
(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٢٦ ، *Lex horrendi carminis erat.*
(٤) νόμος يقسم : فاصلة ، وزن ، نغم ، أغنية ؛ انظر بلوتارخوس : عن الموسيقى ص ١١٣٣ ؛ [illegible] (طبعة هين Heyne) [illegible] شرح أرسطوطاليس [illegible] *Nomoi kalountai ai eis theous* [illegible]

الضمير ولا الشعور بالعدالة بل الصيغة المقدسة. فإذا ما نشبت هذه الصيغة بين رجلين فإنها كانت تقيم بينهما صلة شرعية. وحيث لا توجد الصيغة لا يوجد الشرع.

لن تدهشنا الصيغ الشاذة في الاجراءات الرومانية إذا ما تذكرنا أن الشرع العتيق كان دينياً، والقانون نصاً مقدساً، والعدالة مجموعة شعائر. كان المدعي يطالب بواسطة القانون (agit lege) كان يمسك الخصم بمنطوق القانون. لكن حذار: فلكي يكون القانون في صفه يجب عليه أن يعرف عباراته وأن ينطقها نطقاً مضبوطاً. فلو تلفظ بكلمة بدل أخرى لانعدم القانون وعجز عن الدفاع عنه. ويروي غايوس قصة رجل احتطب جاره كرومه، والواقعة ثابتة. فتلفظ بالقانون، لكن القانون كان يقول أشجاراً وقال هو كروماً. فأضاع قضيته (1).

لم يكن منطوق القانون كافياً بل كان لابد من أن تصحبه علامة خارجية، مثال شعائر الحفلة الدينية. كانوا يسمونها عقداً ويسمونها إجراءات المقاضاة. ولهذا السبب كان لابد من استعمال قطعة نحاس وميزان في كل بيع. ولكي يبيع الإنسان شيئاً ما لابد من مسكه بيده mancipatio. وإذا تنازعوا ملكاً كانوا يمثلون نزاعاً وهمياً manuum consertio. ومن هنا جاءت الإجراءات الشكلية في العتق والتحرير والدعوى القضائية وكل الأعمال الشبيهة في الإجراءات

حيث ان القانون كان جزءاً من الديانة فقد كان له نصيبه من صفة السرية التي كانت لجميع ديانة المدن فكانت صيغ القانون سراً مكتوماً كصيغ العبادة. كانت محجوبة عن الأجنبي بل محجوبة عن السوقي. ولم يكن ذلك لأن البطارقة حسبوا أنهم يستمدون قوة كبيرة من احتكار تملك القوانين بل لأن القانون بحكم أصله وطبيعته، قد لاح لهم زمناً طويلاً سراً لا يمكن أن يلقنه الإنسان إلا بعد أن يكون قد تلقن أولاً العبادة القومية والعبادة المنزلية.

(1) غايوس: القواعد ٤: ١١.

ثم إن الأصل الديني للشرع العتيق يفسر لنا صفة من أهم صفات هذا الشرع . كانت الديانة مدنية محضة أي خاصة بكل مدينة ، فلم يكن مستطاعاً أن يصدر عنها غير شرع مدني . لكن من المهم أن نبين معنى الذي كان لهذه الكلمة عند القدماء . فعندما يقولون إن الشرع كان مدنياً *jus civile*, *νόμοι πολιτικοί* لم يكونوا يقصدون أن لكل مدينة مجموعة قوانينها فحسب ، كما أن لكل دولة مجموعتها في أيامنا هذه ، بل كانوا يريدون أن يقولوا إنه لم تكن لقوانينهم قيمة ولا عمل إلا بين أعضاء المدينة الواحدة . لم يكن يكفي أن يسكن الإنسان مدينة لكي يخضع لقوانينها ويحتمي بها بل لا بد أن يكون من مواطنيها . لم يكن القانون موجوداً بالنسبة للعبد . ولم يكن موجوداً كذلك بالنسبة للأجنبي وسنرى فيما بعد أن الأجنبي المقيم في بلدة ما لم يكن يستطيع أن يكون مالكاً فيها أو وارثاً أو موصياً . ولا أن يعقد عقداً من أي نوع ولا أن يمثل أمام محاكم المواطنين العادية . فإذا حدث أن كان دائناً لمواطن في أثينا فإنه ما كان يستطيع أن يقاضيه لدفع دينه لأن القانون لم يكن يعترف بعقد صحيح من ناحيته

وكانت هذه الترتيبات من جانب القانون ذات طابع منطقي كامل . لأن القانون لم يولد من فكرة العدالة بل من الديانة ولم يكن يمكن تصوره خارجها فلكي توجد صلة حق بين رجلين كان لا بد أن تكون بينهما صلة دينية أي أن تكون لهما عبادة نفس الموقد ونفس القرابين : فإذا لم توجد هذه المشاركة الدينية بين رجلين فإنه لا يلوح في الإمكان أن توجد بينهما أية صلة شرعية ولم يكن للعبد أو للأجنبي نصيب في ديانة المدينة . كان الأجنبي والمواطن يستطيعان أن يعيشا جنباً لجنب سنوات طويلة دون أن يفكر أحد في إمكان إقامة صلة شرعية بينهما . فإن الشرع لم يكن إلا وجهاً من أوجه الدين . لا مشاركة في الدين ، فلا مشاركة في القانون

الفصل الثانى عشر

المواطن والأجنبى

كان يعرف المواطن من أن له نصيباً فى عبادة المدينة . ومن هذه المساهمة كان يستمد كل حقوقه المدنية والسياسية . ومن تنازل عن العبادة فقد تنازل عن الحقوق . وقد تكلمنا آنفاً عن الأكلات العامة التى كانت أهم احتفال بعبادة القومية . وفى اسبرطه كان من يتخلف عن الحضور فيه ، حتى ولو لم يكن ذلك بنتيجة خطأ من جانبه ، يحرم فوراً من حسابه بين المواطنين (١) . كانت كل مدينة تحتم أن يشترك كل أعضائها فى أعياد عبادتها (٢) . وفى روما كان لا بد من الحضور فى احتفال استار المقدس لكى يتمتع المرء بالحقوق السياسية (٣) . والرجل الذى لم يحضر أى الذى لم يشترك فى الدعاء العام والقربان لا يعود مواطناً حتى الدور المقبل .

إذا أريد تحديد المواطن فى الأزمنة القديمة بأهم خصائصه وجب القول أنه الرجل الذى حوز دين المدينة . وهو الذى يمجد نفس الآلهة الذين تمجدهم (٤) ، وهو الذى من أجله يقدم الأرخون أو صاحب بيت الدر

(١) أرسطو ، السياسة ٢ : ٦ : ٢١ (٢ : ٧)

(٢) Boeckh, *Corp. inscr.*, nº 3641 b, t. II, p. 1131 . وفى أثينا ، كان الرجل الذى عين للمشاركة فى الأكلات العامة ولم يقم بهذا الواجب يعاقب . انظر قانوناً ذكره أثينايوس ٦ : ٢٦ .

(٣) ديونيسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ . شيشرون : الدفاع عن كيكينا ٣٤ ؛ فيليوس Velleius ٢ : ١٥ . وكانوا يعبئون مشاة الجنود فى الحرب ؛ ومع ذلك كان لا بد أن يرسل الرقيب من يدون أسماءهم حتى إذا ما قيدوا فى سجل الاحتفال اعتبروا حضوراً .

(٤) οὓς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς νομίζων (Xénophon, *Memor.* I, 1).

القربان كل يوم (١) . والذي له حق الاقتراب من المذابح ، والذي يستطيع أن يمضي إلى داخل السور المقدس حيث تقوم المجامع ، والذي يشهد الأعياد والذي يتبع المواكب ويختلط في مجمع الأعياد (panégyries) ، والذي يجلس إلى الأكلات المقدسة ويتلقى نصيبه من الأضحية هذا هو المواطن يوم قيد في سجل المواطنين أن يمارس عبادة آلهة المدينة وأن يحرم من أجلهم (٢) . انظر مصطلحات اللغة : فالقبول بين المواطنين يعبر عنه في اللغة الإغريقية بالألفاظ μετεῖναι τῶν ἱερῶν المساهمة في المقدسات (٣)

وبعكس ذلك الأجنبي ، فهو الذي لا منفذ له إلى الديانة . والذي لا تحميه آلهة المدينة ، والذي ليس له حتى حق دعائهم . ذلك أن هؤلاء الآلهة القوميين لا يريدون تلقي الدعوات والقرابين إلا من المواطن ؛ إنهم يرفضون الأجنبي ؛ فدخول معابدهم محرم عليه وحضوره أثناء الاحتفال رجس . وقد بقي لنا شاهد على هذا الشعور القديم بالكراهية في شعيرة من أهم شعائر العبادة الرومانية : عندما يضحي الحبر في الهواء الطلق يجب أن يكون مقنع الرأس ، وذلك لأنه يجب ألا يتراءى وجه أجنبي للحبر أثناء الشعائر المقدسة في العمل الديني للآلهة القوميين ، فمن ذلك يختل الاستخارات (٤) . وشيء مقدس لدى

(١) عن القرابين التي كان يقدمها ... كل يوم باسم المدينة ، انظر أنتيفون : Super choreuta, 45 ;
Καὶ τὰ ἱερὰ τὰ πατρῷα ... [illegible] ... ἱερῶν ... معصعة
الكسندر في بوسانياس ... ٥ ، ١ – ٦ .

(٢) ... [illegible] ... ٤ ... μετεῖναι καὶ ἱερῶν καὶ ὁσίων ... انظر أيضاً إيسوقراط .
... الأعياد Panégyr ... ٣ ... ٥ .

(٤) فرجيليوس : الإليذة ٣ : ٤٠٦ . فستوس تحت لفظ Exesto :
Lictor in quibusdam sacris clamitabat hostis exesto.
يعرف أن *hostis* كان يطلق على الأجنبي (ماكروبيوس ١ ، ١٧ ؛ فارون : اللغة اللاتينية ٥ : ٣ ؛ بلاوتوس : صاحب الثياب الثلاثة (*trinummus*) ١ : ٢ : ٦٥) فمعنى فرجيليوس يعني عبارة *hostilis facies* وجه أجنبي .

يقع لسوء الحظ في يد أجنبي يفقد قداسته على الفور ولا يمكن أن يستعيد صفته الدينية إلا باحتفال تكفيري (١). وإذا انتزع العدو مدينة ثم حدث أن استردها المواطنون فإنه لا بد قبل كل شيء من تطهير المعابد وإطفاء جميع المواقد وتجديدها فإن ملامسة الأجنبي لها قد دنستها (٢).

وهكذا كانت الديانة تميز بين المواطن والأجنبي تمييزاً عميقاً غير قابل للمحو (٣). طالما كانت مسيطرة على الأرواح. نفس هذه الديانة فإنها كانت تحرم على الأجنبي حق المواطنة. في زمن هيرودوت لم تكن اسبرطة قد منحته لأحد سوى لاثنين منهم. ومع هذا فقد كان لا بد لذلك من أمر صريح من الوحي (٤). وكانت أثينا تمنحه أحياناً ولكن بأية طريقة! كان لا بد أولاً من تصويت الشعب مجتمعاً على قبول الأجنبي. ولم يكن ذلك يعد شيئاً. كان لا بد بعد تسعة أيام من تصويت ثان تصويتاً سرياً وأن يكون هناك ستة آلاف صوت موافق على الأقل. هذا الرقم يبدو ضخماً إذ تذكرنا أنه كان من النادر أن تجمع جمعية أثينية هذا العدد من المواطنين. وبعد ذلك كان في استطاعة أي فرد من الأثينيين أن يعترض بنوع من الفيتو وأن يهاجم المرسوم أمام المحاكم باعتباره مناقضاً للقوانين القديمة وأن يلغيه. حقاً إنه لم يكن هناك إجراء عام أحاطه المشرع بالصعوبات والاحتياطات بقدر ما أحاط الإجراء الذي يمنح الأجنبي لقب مواطن، وتكاد الإجراءات التي

(١) تيت ليف، الكتاب [illegible]، الباب [illegible]، ٣٦.

(٢) يمكن أن نرى مثلاً هذه العقيدة في قصص بلاد الإغريق في بلوتارخوس (أريستيديس، ٢٠) وفي قصص روما في تيت ليف (٥، [illegible]).

(٣) لقد تخففت فيما بعد هذه القواعد الشديدة للعصور الأولى وحصل الأجانب على حق دخول معابد المدينة وتقديم قرابين فيها. ومع هذا بقيت بعض الأعياد وبعض القرابين يقصى عنها الأجنبي دائماً. أنظر Boeckh, Corp. inscr. n° 101:

Πειραιεῦσι νόμιμον ἐστιν εἰσιέναι, ἄλλῳ δὲ μή

(٤) هيرودوت ٩، ٣٣-٣٥. بيد أن أرسطو يقول أن ملوك اسبرطة القدماء كانوا يميلون إلى منح حق المدينة بسهولة ٢، ٦، ١٢.

يجب القيام به أن يكون نفس ما يلزم لإعلان حرب أو من قبول جديد. من أين أتى وضع هذا القدر من العقبات في طريق الأجنبي الذي يريد أن يكون مواطناً؟ من المؤكد أنهم لم يكونوا يخشون أن يُميل صوته الميزان في المجامع السياسية. يخبرنا ديموستينيس عن الدافع الحقيقي وعن فكرة الأثينيين الحقيقية وذلك أنه يجب التفكير في الآلهة والاحتفاظ بالقرابين بطهارتها. إقصاء الأجنبي هو والسهر على الاحتفالات المقدسة. وقبول أجنبي بين المواطنين هو إعطاؤه نصيباً في الديانة وفي القرابين (١). ولم يكن يشعر الشعب في مثل هذه الأمور أن له كامل الحرية بل كان يعتريه تأثم ديني، إذ أنه كان يعلم أن الآلهة القوميين كانوا تواقين إلى إبعاد الأجنبي وأنه ربما أفسد حضور الطارىء الجديد القرابين. كان منح حق المدينة لأجنبي اعتداء حقيقياً على المبادىء الأساسية للعبادة القومية ولهذا كانت المدينة في البدء حذرة منه. ثم يجدر ملاحظة أن الرجل الذي يقبل مواطناً بهذا العناء لم يكن يستطيع أن يكون أرخوناً ولا كاهناً. كانت المدينة تسمح له حقاً بالمثول في عبادتها، أما رئاستها فقد كان فيه مجاوزة للحد.

ولم يكن أحد يستطيع أن يكون مواطناً في أثينا إذا كان مواطناً في مدينة أخرى (٢) إذ يستحيل من الناحية الدينية أن يكون عضواً في مدينتين في آن واحد، كما رأينا أنه يستحيل أن يكون عضواً في أسرتين. إذ ليس في استطاعة أحد أن يتبع ديانتين في آن واحد.

كانت المساهمة في العبادة تجر معها حيازة حقوق. ما دام المواطن يستطيع أن يشهد القربان الذي يسبق المجمع فقد كان يستطيع أن يصوت أيضاً. وما دام يستطيع أن يقدم القرابين باسم المدينة فقد كان يستطيع أن يكون [illegible] أو أرخوناً. وما دام متديناً بديانة المدينة فإنه كان يستطيع أن يستنجد بقانونها وأن يقوم بكل شعائر الإجراءات القضائية.

(١) ديموستينيس: ضد نيارا ٨٩، ٩١، ٩٢، ١١٣، ١١٤.

(٢) بلوتارخوس: صولون ٢٤. سيسرون: الدفاع عن كيكينا ٣٤

وعلى عكس ذلك ليس للأجنبي أي حق، إذ ليس له أي نصيب في الديانة، وإذا دخل نطاق المقدس الذي رسمه الكاهن للمجمع عوقب بالموت إذ لا وجود لقوانين المدينة فيما يختص به. فإذا ما ارتكب جريمة عومل كما يعامل العبد، وعوقب من غير إجراء قضائي لأنه لا حق له في عدالة المدينة (١) وعندما وصلوا إلى الشعور بالحاجة إلى عدالة للأجنبي، كان لا بد من إقامة محكمة خاصة. فكان لروما بريتور خاص للأجنبي (praetor peregrinus) وكان قاضي الأجانب في أثينا هو البوليمارخوس أي نفس رجل الدولة المكلف بمهام الحرب وجميع العلاقات مع العدو (٢).

لم يكن في استطاعة الأجنبي أن يكون مالكاً في روما أو في أثينا (٣) ولم يكن في استطاعته أن يتزوج، أو على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه، والأطفال المولودون من قران مواطن وأجنبية كانوا يعتبرون أنغالا (٤) ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن، أو على الأقل لم يكن القانون يعترف بقيمة ما لمثل هذا العقد. وفي الأصل لم يكن له حق المتاجرة (٥) وكان

(١) أرسطو: السياسة ٣، ١، ٣. أفلاطون: القوانين ٩.

(٢) ديموستينيس: ضد نايرا ٤٩. ليسياس: ضد بانكليون ٢، ٥، ١٣. بوليوكس ٨، ٩١. هاربوكراتيون تحت لفظ Πολέμαρχος

(٣) اكسنوفون، De vectigal. ٢، ٦. كان في استطاعة الأجنبي أن يحصل كخصوصية فردية على ما يسميه الشرع الإغريقي Ἔγκτησις والشرع الروماني jus commercii

(٤) ديموستينيس ضد نايرا ١٦. أرسطوفانس الطيور ١٠٥٢. أرسطو: السياسة ٣، ٣، ٥. بلوتارخوس بريكليس ٣٧. بوليدوكس ٣، ٢١. أثينيوس ١٣، ٣٨. تيتوس ليفيوس ٣٨، ٣٦ و ٤٣. غايوس ١، ٦٧. اسيانوس ٥، ٤ - ٩. بولوكس ٣، ٢. كان لا بد من قانون خاص تصدره مدينة لإعطاء سكان بلدة أخرى الـ ἐπιγαμία أو الـ connubium

(٥) اليانوس ٩، ٤. ديموستينيس: الدفاع عن فورميون ٦. ضد يوليديس ٣١.

القانون الروماني يحرم عليه أن يرث مواطناً بل يحرم على المواطن أن يرث منه(١). وقد توسعوا في هذا المبدأ إلى حد أنه إذا حصل غريب على حق المدينة الرومانية دون أن يحصل منه لدى ولد قبل تلك الفترة على نفس الحظوة، فإن الابن يصبح غريباً عن الوالد ولا يستطيع أن يرث منه(٢). فإن الفاصل بين المواطن والأجنبي كان أقوى من الرابط الطبيعي بين الأب والابن.

قد يبدو لأول وهلة أنهم حاولوا فهم مساوءة الأجنبي. لكن الأمر لم يكن كذلك بالعكس. كانت أثينا وروما تستقبلانه استقبالاً حسناً وتحميانه لأسباب تجارية أو سياسية. لكن عطفهم وحتى مصلحتهما لم يستطيعا إلغاء القوانين القديمة التي أقامتها الديانة. لم تكن هذه الديانة تسمح للأجنبي أن يصبح مالكاً. إذ أنه لم يكن يستطيع أن يكون له نصيب في الأرض الدينية للمدينة. ولم تكن تسمح للأجنبي أن يرث المواطن ولا للمواطن أن يرث الأجنبي. إذ أن كل نقل للأملاك كان يجر وراءه انتقالاً للعبادة. وكان يستحيل على المواطن أن يقوم بعبادة الأجنبي كما كان يستحيل على الأجنبي أن يقوم بعبادة المواطن.

كان من المستطاع استقبال الأجنبي والسهر عليه بل تقديره إذا كان ثرياً أو شريفاً. لكنه لم يكن من المستطاع إعطاؤه نصيباً في الديانة أو الشرع. كان يعامل العبد من بعض النواحي بأحسن مما كان يعامل به الأجنبي. إذ أن العبد، باعتباره عضواً في أسرة يشارك في عبادتها، كان مرتبطاً بالمدينة عن طريق سيده، فكانت الآلهة تحميه. لذلك كانت الديانة الرومانية تقول إن قبر العبد مقدس أما قبر الأجنبي فليس كذلك.(٣)

لكي يعد الأجنبي شيئاً ما في نظر القانون، لكي يستطيع المتاجرة والتعاقد والتمتع بما له في أمان، لكي يستطيع قضاء المدينة أن يحميه

(١) شيشرون: الدفاع عن أرخياس، ٥. غايوس ٣، ١١٠.

(٢) بوسانياس ٨: ٤٣.

(٣) ديجست، الكتاب ١١، الباب ٧: ٢، الكتاب ٤٧، الباب ١٢: ٤

حماية فعالة كان لا بد من أن يكون مولى مواطن. كانت روما وأثينا تريدان أن يتخذ كل أجنبي ولياً (١). فإذا ما وضع الأجنبي نفسه في الولاء وفي تبعية مواطن فإنه كان يرتبط بالمدينة عن طريق هذا الوسيط. ويساهم عندئذ في بعض فوائد الشرع المدني ويحصل على حماية المدينة.

كانت المدن القديمة تعاقب على معظم الأغلاط التي كانت ترتكب نحوها بتجريد المذنب من صفة المواطن. ويسمى هذا العقاب ἀτιμία (٢) ولم يكن للرجل الذي يضرب به هذا العقاب أن يتولى أي منصب ولا أن يكون عضواً في المحاكم ولا أن يتكلم في المجامع. وفي نفس الوقت كانت الديانة محرمة عليه. ويقول منطوق الحكم إنه لن يدخل في أي قدس من أقداس المدينة ولن يكون له الحق في لبس تاج من الزهور في الأيام التي يضع فيها المواطنون تيجاناً، وإنه لن يضع قدمه في النطاق الذي خطه ماء التطهير ودم الأضحية في الساحة العامة للمدينة agora (٣). إن آلهة المدينة لم تعد موجودة بالنسبة له.

(١) هاربوكراتيون تحت مادة Προστάτης. بولدوكس ٣: ٥٦. ليكورج: ضد ليوقراطيس ٢١. ارسطو: السياسة ٣، ١: ٣.

(٢) عن الـ ἀτιμία في أثينا انظر ايسخينيس: ضد تيمارخوس ٢١؛ أندوكيديس: الأسرار ٧٣ – ٨٠؛ بلوتارخوس: فوكيون ٢٦، ٣٣، ٣٤، ٣٧. – عن الـ ἀτιμία في إسبرطة: هيرودوت ٧، ٢٣١؛ ثوكيديديس ٥، ٣٤؛ بلوتارخوس: أجسيلاوس ٣٠. وكانت نفس العقوبة موجودة في روما، وكانوا يعبرون عنها بالمصطلحين infamia أو tribu movere؛ تيتوس ليفيوس ٢، ٢٤؛ ١٨؛ ٢٩؛ ٣٧، ٤٢، ٤٥؛ ١٥. شيشرون، الدفاع عن كلوينتيوس ٤٣؛ الخطيب ٢، ٦٧؛ فاليريوس ماكسيموس ٢، ٩، ٦؛ بسودو أسكونيوس، طبعة أورلي ص ١٠٣ (Ps. Asconius, ed. Orelli, p. 103)؛ دجست: الكتاب ٣، الباب ٢. وقد ترجم ديونيسيوس (١١: ٦٣) infames بكلمة ἄτιμοι وترجم ديون كاسيوس (٣٨: ١٣) tribu movere بكلمة ἀτιμάζειν.

(٣) Eschine, *In Timarchum*: *Μὴ ἐξέστω αὐτῷ ἱερωσύνην ἱεράσασθαι, μηδ᾽ εἰς τὰ δημοτελῆ ἱερὰ εἰσίτω, μηδ᾽ ἐν ταῖς κοιναῖς στεφανηφορίαις στεφανούσθω, μηδ᾽ ἐντὸς τῶν τῆς ἀγορᾶς περιρραντηρίων πορευέσθω.*
Lysias, *In Andocidem* 24: *Εἴργεσθαι τῆς ἀγορᾶς καὶ τῶν ἱερῶν*

وكان يفقد في نفس الوقت جميع الحقوق المدنية ، فلا يظهر أمام المحاكم حتى كشاهد . وإذا غبن لا يسمح له أن يشتكي ، ويمكن ضربه من غير عقاب (٤) فإن قوانين المدينة لا تحميه ، ولم يعد له حق في شراء ، ولا بيع ، ولا عقد من أي نوع (٥) لقد أصبح غريباً في البلدة وجرد من كل شيء دفعة واحدة . فإن الحقوق السياسية والدينية والحقوق المدنية كانت كلها مجموعة يتضمنها لقب مواطن وتفقد بفقده .

(٤) Plutarque, Agésilas 30 *Πατεῖ ὁ βουλόμενος αὐτούς* — Lysias, *In And.* 24 *Ὥστε μηδ' ἀδικουμένους ὑπὸ τῶν ἐχθρῶν δύνασθαι δίκην λαβεῖν.* — Démosthène, *In Midiam*, 92 *Ἀτιμία νόμων καὶ δικῶν καὶ πάντων στέρησις.* تبين الترجمة عند تيابر ، ٢٠٠ : ٨ ، أن الـ *ἄτιμος* لم يكن مسموحاً له حتى بالشهادة أمام المحاكم

(٥) لم يكن يستطيع في اسبرطة أن يشتري أو أن يبيع أو أن يعقد زواجاً وأن يزوج ابنته لمواطن . ثوقيديدس ٥ : ٣٤ وبلوتارخوس ، اغيسيلاوس ٣٠ .

الفصل الثالث عشر

الوطنية والنفى

—

كلمة الوطن عند القدماء معناها أرض الآباء (terra patria)، فوطن كل رجل هو الجزء من الأرض الذى قدسته ديانته المنزلية أو القومية. الأرض التى أودعت عظام أسلافه فيها وتشغلها أرواحهم. الوطن الصغير هو قطعة الأرض التى للأسرة بقبرها وموقدها، والوطن الكبير هو المدينة ببيت نارها وأبطالها، بسورها المقدس وبقعتها التى حددتها الديانة. كان الإغريق يقولون «أرض الوطن المقدسة»، ولم تكن تلك الكلمة عبثاً. فإن هذه الأرض كانت مقدسة للإنسان حقاً، إذ كانت تسكن فيها آلهته. فالدولة والمدينة والوطن لم تكن معنويات كما هى عند المحدثين، بل كانت تمثل فى الواقع مجموعة كاملة من المعبودات المحلية مع عبادة يومية وعقائد مسيطرة على الروح.

ومن هذا تفسر وطنية القدماء، تلك العاطفة العنيفة التى كانت عندهم الفضيلة العليا، والتى كانت تنتهى إليها جميع الفضائل الأخرى. فكان كل ما هو أعز على الإنسان من سواه يلتقى فى الوطن. فى الوطن كان يجد صالحه وأمنه وحقه وإيمانه وإلهه. فإذا فقده فقد كل شىء. لذلك كاد يصبح من المستحيل أن يكون الصالح الخاص غير متفق مع الصالح العام. يقول أفلاطون: إن الوطن هو الذى يلدنا ويطعمنا ويربينا. ويقول سوفوكليس: الوطن هو الذى يحفظنا.

مثل هذا الوطن لا يكون مجرد مسكن للإنسان. فليترك المرء أسواره المقدسة وليتخط الحدود المقدسة للمنطقة، فإنه لن يجد لنفسه ديانة ولا رابطة اجتماعية من أى نوع كان. فهو فى كل مكان، عدا وطنه، منبوذ من الحياة المنتظمة ومن الحق. وهو فى كل مكان آخر لا إله له ومنبوذ من الحياة المعنوية. فهناك فقط له كرامة الإنسان وواجباته. إنه لا يستطيع أن يكون إنساناً إلا هناك.

إن الوطن يمسك بالإنسان رباطاً يربطه برباط مقدس. ويجب أن يُحب كما تُحب الديانة وأن يخضع له كما يطاع الله. يجب أن يهب الإنسان نفسه كاملة وأن يضع فيه كل شيء وأن يبذل له كل شيء. يجب أن يحبه. مجيداً كان أو خاملاً. سعيداً أو تعساً. يجب أن يحب فيه آلهته وأن يحب أيضاً في صرامته. يتحتم ألا ينقص حب سقراط للوطن لأنه حكم عليه بغير حق. يجب أن يحب الوطن، كما يحب إبراهيم ربه. حباً يحمله على أن يضحي له بابنه. وعلى الأخص، يجب أن يعرف الإنسان كيف يموت من أجله. فإن الإغريقي والروماني لا يموت قط تفانياً لرجل ولا ثورة تشرف، لكن حياته دين للوطن لأنه إذا اعتُدي على الوطن فقد اعتدي على ديانته. إنه يحارب حقاً من أجل مذابحه ومواقده *pro aris et focis* (١) لأنه إذا استولى العدو على مدينته فإنه سيهدم مذابحه ويطفئ مواقده ويدنس مقابره ويحطم آلهته ويمحو عبادته. حب الوطن هو تقوى القدماء.

لا بد أن حيازة الوطن كانت ثمينة جداً فإن القدماء لم يتصوروا عقاباً أقسى من حرمان الإنسان من وطنه، فكان النفي هو العقاب المألوف على الجرائم الكبيرة.

لم يكن النفي قاصراً على تحريم الإقامة في المدينة والبعد عن أرض الوطن بل كان يتناول في نفس الوقت الحرمان من العبادة. إنه كان يتضمن ما يسميه المحدثون النفي من الجماعة (الحرمان من الكنيسة). فنفي رجل معناه طبقاً للصيغة المستعملة عند الرومان حرمانه من النار والماء (٢). ويجب أن نفهم من هذه النار نار القربان ومن هذا الماء ماء التطهير (٣). فكان النفي إذن يضع الإنسان خارج الديانة. وفي اسبرطة أيضاً عندما يحرم إنسان من حق المدينة كانت تحرم عليه النار (٤). أنطق شاعر أثينا شخصية من شخصياته بالصيغة المروعة التي تصب على المنفي

---

(١) وفي هذا المعنى قال ديموستين الأثينيون Ἀμύνειν περὶ τῶν ἱερῶν بوليدوكس ٨ : ٥ . ليكورغ : ضد ليوقراطس ٧٨ .

(٢) شيشرون : من أجل منزله ٣٠ . تيتوس ليفيوس ٢٥ ، ٤ . [illegible] ١٠ : ٣ .

(٣) فستوس صيغة بيلر ص ٢ .

(٤) هيرودوت ٧ : ٢٣١ .

وقد كان مطرود الحكم لحرب ولا يقرب إطلاقاً من المعابد. لا يكلمه مواطن ولا يتقبله أحد، لا يقبله إنسان في الصلوات ولا في القرابين ولا يقدم له أحد ماء النار (١). كل بيت يدنسه حضوره، والرجل الذي يتقبله يصبح نجساً بملامسته. يقول القانون: «من أكل أو شرب معه أو لمسه وجب عليه أن يتطهر» (٢).
وتحت تأثير هذا النفي من الجماعة لم يكن يستطيع المنفي أن يقوم بنصيب في أي احتفال ديني. إنه لم تعد له عبادة ولا أكلات مقدسة ولا صلوات لقد حرم إرثه في الديانة.

يجب أن نفكر تماماً في أن الله لم يكن عند القدماء موجوداً في كل مكان. وإذا كانت لديهم فكرة عن معبود للكون فإنه لم يكن، في اعتبارهم، المنعم عليهم، ولم يكن هو الذي يوجهون إليه أدعيتهم. وإن آلهة كل شخص هم الذين كانوا يسكنون منزله وقريته وبلدته. وعندما يترك المنفي وطنه يترك آلهته أيضاً. فلا يعود يرى في أي مكان ديانة تستطيع أن تعزيه وأن تحميه، ولا يعود يحس معها بسهر عليه. وقد نزعت منه سعادة الدعاء، وأصبح بعيداً عنه كل ما يستطيع أن يسد حاجته الروحية.

كانت الديانة هي النبع الذي تنساب منه الحقوق المدنية والسياسية، فكان المنفي يفقد كل ذلك بفقده الديانة الوطنية. وما دام قد أقصي عن ديانة المدينة فقد كان يرى نفسه وقد انتزعت منه في نفس الوقت عبادته المنزلية وكان عليه أن يطفئ موقده (٣). لم يعد له حق الملك،

(١) سوفوكليس: أوديبوس ... وكذلك كان الأمر في ἀτιμία التي كانت نوعاً من النفي الداخلي.

(٢) Platon, *Lois*, IX, p. 881. *Φευγέτω ἀειφυγίαν ἐξ ἄστεος καὶ πάντων ἱερῶν εἰργέσθω. Ἐὰν δέ τις τῷ τοιούτῳ συμφάγῃ ἢ συμπίῃ ἤ τινα ἄλλην κοινωνίαν κοινωνήσῃ, ἢ καὶ μόνον ἐντυγχάνων προσάπτηται, μήτε εἰς ἱερὸν ἔλθῃ μήτ᾽ εἰς ἀγορὰν πρότερον ἢ καθήρηται.*

(٣) أوفيديوس: الحزينات ١: ٣: ٤. *Extinctos focos*

فقد كانت أرضه وأملاكه تصادر لمنفعة الآلهة أو لمنفعة الدولة (١) . وحيث إنه لم تعد له عبادة فإنه لم تبق له أسرة . وكف عن أن يكون زوجاً وأباً . لم يعد أبناؤه في سلطته (٢) ولم تعد زوجته زوجته وتستطيع أن تتخذ زوجاً آخر على الفور (٣). تأمل ريغولوس Regulus ، إنه أسير العدو ، والقانون الروماني يعتبره مثيلاً للمنفي ، وبعد ما سأله مجلس الشيوخ رأيه رفض الإدلاء به إذ أن المنفي لم يعد عضواً في مجلس الشيوخ . وعندما اندفعت زوجته وأولاده نحوه دفع عن نفسه احتضانهم له لأن المنفي لم يعد له أطفال ولا زوجة

Fertur pudicae conjugis osculum
parvosque natos, *ut capitis minor,*
A se removisse.(٤)

وهكذا كان المنفي بفقده ديانة المدينة وحقوقها يفقد ديانة الأسرة وحقوقها لم يعد له موقد ولا زوجة ولا أطفال . وإذا ما مات لا يمكن دفنه في

---

(١) تيتوس ليفيوس ٣ ، ٥٨ ؛ ٢٥ ، ٤ ؛ ديونيسيوس ١٠ ، ٩٤ ؛ دموسثينيس : ضد ميدياس ٤٣ . ثوكيديديس ٥ ، ٦٠ ؛ [illegible] ؛ كسينوكليس ٥٥ . بوليدوكس وكانت تخفف هذه القاعدة في بعض الأحيان ، وتمكن في بعض الأحيان ترك الأملاك للمنفي أو تحويلها لأطفاله [illegible] ٩ ص ٨٧٧ هذا ويجب ألا نخلط في شيء [illegible] بين الأوستراكسموس والنفي فإن الأول لا يكون عن مصادرة .

(٢) قواعد جوستينيانوس ١ ، ١٢ ، ١ ؛ غايوس ١ ، ١٢٨ .
Cui aqua et igni interdicitur, procede, ac mortuo eo liberi desinunt in potestate esse
وكذلك لم يكن المنفي في سلطة أبيه (غايوس نفس المرجع) ؛ ذلك أن روابط الأسرة قد انفصمت فإن حقوق الميراث تنتفي .

(٣) انظر في ديونيسيوس ٨ ؛ ٤١ وداع كوريولانوس لزوجته : لم يعد بعد زوج ، ينبغي أن تجدي زوجاً آخر أسعد مني ، ويجب أن أبناءنا لم يعد لهم أب . ولم يمكن ذلك [illegible] من [illegible] الشرع [illegible]

(٤) هوراسيوس *Odes* ٣ ، ٥ . كلمة *capitio minor* يقصد بها *capitis deminutio* في الشرع الروماني ، وهو ما كان ينتج عن النفي . - انظر غايوس ١ ، ١٢٩ :
Si ab hostibus captus fuerit parens, pendet jus liberorum
servus hostium [illegible] كان ريغولوس الذي كان أسيراً [illegible] حسب تعبير غايوس [illegible] نفس المرجع وبالتالي لم تعد له حقوق المدينة ولا حقوق الأسرة . انظر أيضاً شيشرون : الواجبات *(De officiis,* ٣ ؛ ٢٧ .

ثرى المدينة ولا فى قبر أسلافه (١) . لقد أصبح أجنبياً .

وليس من العجب إذن أن الجمهوريات القديمة تكاد تسمح للمذنب دائماً بأن يفر من الموت بالهروب من الوطن . فإن النفي لم يكن يبدو لهم أخف وطأة من الموت (٢) . فقد كان الفقهاء الرومان يسمونه عقاباً بالإعدام .

(١) توقيديدس ، ١٣٨ .

(٢) تلك هي الفكرة التي يعبر عنها أوريبيدس : إلكترا ، ١٣١٥ ؛ الفينيقيات ٣٨٨ ؛ ويعبر عنها أفلاطون : كريتون ص ٥٢ .

الفصل الرابع عشر

روح البلديات

لقد استطاع ما رأيناه للآن عن الأنظمة القديمة، وعلى الأخص عن العقائد القديمة، أن يعطينا فكرة عن الفارق العميق الذي كان يميز مدينتين دائماً، مهما كانتا متجاورتين ومهما كانتا تكوّنان مجتمعين منفصلين تمام الانفصال؛ لقد كان بينهما شيء أكثر من المسافة التي تفصل اليوم مدينتين، وأكثر من الحدود التي تفصل دولتين. كانت الآلهة فيهما مختلفة وكذلك الاحتفالات والصلوات. كانت عبادة مدينة ما محرمة على الرجل من أهل المدينة المجاورة. كانوا يعتقدون أن آلهة بلدة ما تعرض عن تمجيد أولئك الذين لم يكونوا مواطنين لها وعن صلواتهم.

حقاً إن هذه المعتقدات القديمة قد تغيرت مع الزمن وأصبحت أكثر مرونة، لكنها كانت في عنفوان قوتها في العصر الذي تكونت فيه المجتمعات. وقد احتفظت هذه المجتمعات بهذا الطابع على الدوام.

يسهل علينا أن نتصور شيئين: أولاً أن هذه الديانة الخاصة بكل مدينة هي التي كونت المدينة تكويناً قوياً جداً يكاد لا يتزعزع. وإنه لعجيب حقاً أن يعيش هذا النظام الاجتماعي كل ذلك الزمن على الرغم من عيوبه وكل مقومات دماره؛ فضلاً عن أنه كان من أثر هذه الديانة أن جعلت إقامة أي شكل اجتماعي غير المدينة أمراً مستحيلاً لقرون طويلة.

كان من المحتم على كل مدينة بحكم ديانتها نفسها أن تكون مستقلة تماماً وكان من المحتم أن تكون لكل وحدة مجموعة قوانينها الخاصة ما دام لكل وحدة ديانتها ومن الديانة كان يصدر القانون. كان من المحتم أن يكون لكل واحدة سيادتها القضائية، ولا يمكن أن تكون هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة

المدينة. كان لكل منها أعيادها الدينية وتقويمها. لا يمكن أن تكون الشهور والسنة واحدة في بلدتين ما دامت مجموعة الأعمال الدينية مختلفة. وكان لكل من عملتها الخاصة والتي كانت في الأصل تحمل عادة رمزها الديني. وكان لكل مدينة أوزانها ومقاييسها. لم يكونوا يسمحون بوجود شيء مشترك بين مدينتين. كان خط فاصل بين مدينتين مختلفتين من العمق بحيث يعسر عليهم أن يتصوروا أن الزواج مسموح به بين سكان هاتين المدينتين. ومثل هذا الاقتران كان يبدو غريباً على الدوام وظل زمناً طويلاً يعتبر غير مشروع. كان تشريع روما وأثينا يعاف قبوله بشكل واضح. وفي كل مكان تقريباً كانوا يخلطون بين الأطفال المولودين من مثل هذا الزواج وبين النغول ويحرمونهم من حقوق المواطن. لكي يكون الزواج مشروعاً بين أهل بلدتين كان لا بد أن يكون بينهما اتفاق خاص (jus connubii, ἐπιγαμία) (٢)

كان لكل مدينة حول منطقتها خط من الحدود المقدسة. وكان هو أفق ديانتها القومية وآلهتها. ووراء هذه الحدود كانت تتحكم آلهة أخرى وتقام عبادة أخرى (٣)

(١) بوليدوكيس ٣، ٢١: Νόθος ὁ ἐκ ξένης ἢ παλλακίδος . حق قانون ذكره أثينايوس ١٣، ٣٨: ὃς ἂν μὴ ἐξ ἀστῆς γένηται νόθον εἶναι ؛ ديموستينس ضد نيرا ، بلوتارخوس ، بركليس ٣٧

(٢) ليسياس، De antiqua reip. forma 3 ؛ ديموستينس، من أجل التاج ٩١ ، إيسوقراط Plataic., 51 ؛ غايوس ١، ٦٧ ؛ أولبيانوس ٥، ٤ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣، ٣؛ ٣٨، ٣٦.

(٣) بلوتارخوس: ثسيوس ٢٥؛ أفلاطون: القوانين ٨ ص ٨٤٢ ، بوسانياس في مواضع متفرقة ، بوليدوكيس ، Boeckh Corp. inscript., t. II p. ... et 887 . كان حد ... التي تحدد الـ ager romanus لا يزال موجوداً في عصر استرابون ، وعلى كل واحد من هذه الأحجار كان الكهنة يقدمون قرباناً كل عام (استرابون ٥، ٣، ٢).

إن أبرز صفات تاريخ بلاد الإغريق ويصدق هذا قبل الفتح الروماني لهو التشتت المدفع فيه وروح العزلة لدى كل مدينة . لم تنجح بلاد الإغريق إطلاقاً في تكوين دولة واحدة ، ولم تستطع البلدان اللاتينية ولا المدن الأتروسكية ولا القبائل السمنية أن تكون هيئة مندمجة قط . لقد نسب انقسام الإغريق لدى بعض شعوبه إلى طبيعة بلادهم وقيل إن الجبال التي تتقاطع فيها تقيم بين الناس خطوطاً طبيعية فاصلة ؛ لكنه لم تكن هناك جبال بين تيبه وبلاتيه ، بين أرغوس وإسبرطة ، بين سيباريس وكروتون . ولم يكن هناك شيء منها بين بلدان اللاتيوم ولا بين المدن الاثنتي عشرة في إتروريا . لا مرية أنه كان للطبيعة بعض الأثر في تاريخ شعوب الإغريق لكن الدين كان ذا أثر أعظم سلطاناً. فقد كان بين أي مدينتين شيء أكثر من جبال منتصبة على الحدود ، ألا وهو سلسلة الحدود المقدسة ، ألا وهو خلاف العبادات ، ألا وهو الحاجز الذي أقامته كل مدينة بين الأجنبي وبين آلهتها . كانت تحرم على الأجنبي أن يدخل معابد معبوداتها المدنية ، وكانت تفرض على معبوداتها المدنية كراهية الأجنبي ومحاربته (١)

ولهذه العلة لم يستطع القدماء أن ينشئوا نظاماً اجتماعياً غير نظام المدينة ولم يتصوروا غيره حتى الإغريق والإيطاليون والرومان أنفسهم ربما طويلاً لا يفكرون في أنه في مستطاع عدة مدن أن تتحد وتعيش على قدم المساواة تحت حكومة واحدة . كان من الجائز أن يوجد حلف بين مدينتين ، أو شركة موقتة من أجل نفع حرب أو خطر مشترك ، لكنه لم يكن هناك اتحاد كامل قط . ذلك أن الديانة كانت تجعل من كل مدينة هيئة لا يمكن أن تندمج في أية هيئة أخرى كانت العزلة هي قانون المدينة

كيف كان يستطيع عدة مدن أن تندمج في دولة واحدة مع وجود العقائد والعادات الدينية التي [illegible] لم يكونوا يفهمون الارتباط البشري ولم يكن

(١) [illegible] في كتابه [illegible] لا يمكن [illegible] الإغريق [illegible] للعمل وقد ضعف هذا الإحساس [illegible] .

يبدو لهم قانونياً إلا بقدر ما يرتكز على الديانة . ومن المحتم أن يكون رمز هذا الارتباط أكلة مقدسة تؤكل جماعة . كان يستطيع بضعة آلاف من المواطنين أن يجتمعوا ، إذا حزب الأمر ، حول بيت نار (بريتانيون) واحد ، ويتلوا نفس الدعاء ويقتسموا الأطعمة المقدسة . لكن حاول أن تنشأ دولة واحدة من جميع بلاد الإغريق مع وجود هذه العادات . كيف يمكن القيام بالأكلات العامة وبكل الاحتفالات المقدسة التي يفرض على جميع المواطنين أن يشهدوها ؟ أين يكون بيت النار ؟ كيف يعمل التطواف السنوي للمواطنين جميعاً ؟ ماذا يصبح أمر الحدود المصونة التي كانت تعلّم بها في بادئ الأمر أرض المدينة ، والتي كانت تفصلها عن بقية الأرض إلى الأبد ؟ ماذا يكون أمر جميع العبادات المحلية والمعبودات المقدسة والأبطال الساكنين في كل ناحية ؟ كان لدى أثينا على أرضها البطل أوديبوس عدو ثيبة . فكيف يكون الجمع بين أثينا وثيبة في عبادة واحدة وفي حكومة واحدة ؟

عندما ضعفت هذه الخرافات (وهي لم تضعف في ذهن العامة إلا بعد زمن طويل) كان الوقت الذي يمكن فيه تشكيل جديد من أشكال الدولة قد فات ، كان الانقسام مقدساً بحكم التعود والمنفعة وبعض التنافس وذكرى المناضلات القديمة . لم يعد هناك مجال للعودة إلى الماضي

كانت كل مدينة شديدة التمسك باستقلالها الذاتي (autonomie) وكانت تطلق هذه الكلمة على مجموعة تشمل عبادتها وشرعها وحكومتها وكل استقلالها الديني والسياسي

ولقد كان أسهل جداً على مدينة من أن تخضع أخرى من أن تضمها . وكان في استطاعة الانتصار أن يجعل من جميع سكان مدينة التي يستولي عليها عدداً من العبيد لكنه لم يكن يستطيع أن يجعل منهم مواطنين للمنتصر لذلك كان إدماج مدينتين في دولة واحدة أي ضم الأهالي المغلوبين إلى الأهالي المنتصرين هو الشيء الوحيد الذي لا نراه قط عند القدماء ، وعدا استثناء يكاد يكون وحيداً

سنتكلم عنه فيما بعد إذ استولت اسبرطة على مسينيا (Messénia) فإن ذلك لم يكن ليجعل الاسبرطيين والمسينيين شعباً واحداً . فاسبرطة قد طردت المغلوبين أو استعبدتهم وغنمت أرضهم . وكذلك فعلت أثينا نحو سلامس وإيجين وميلوس .

كان إدخال المغلوبين في مدينة الغالبين فكرة لا تعرض لذهن أحد . كان للمدينة آلهة وأناشيد وأعياد وقوانين هي ميراث الآباء ، وكانت تحرص جداً من إعطاء جزء منها للمقهورين ولم يكن لها الحق في ذلك . أكان في استطاعة أثينا أن تسمح لأحد أهالي إيجينا (Egine) في معبد أثينيا المدينة ؟ وأن يقوم بعبادة تسيوس ؟ وأن يساهم في الأكلات المقدسة ؟ وأن يرعى الموقد العام بحراسة ساكن البلد ؟ كانت الديانة تحرم ذلك . وإذن لم يكن في استطاعة أهالي جزيرة إيجين المغلوبين أن يكونوا دولة واحدة مع أهالي أثينا . وحيث إنه لم تكن لهم نفس الآلهة فإنه لم يكن في استطاعة الإيجينيين والأثينيين أن تكون لهم نفس القوانين ولا نفس رجال الدولة .

لكن . ألم يكن في استطاعة أثينا ، ما دامت قد تركت البلدة المغلوبة قائمة أن ترسل على الأقل حكاماً يضعونهم ليحكموها . كلا لم يكن ذلك متفقاً مع مبادىء القدماء أن تحكم مدينة على يد شخص ليس من مواطنيها إذ أن رجل الدولة يجب أن يكون رئيساً دينياً وكانت وظيفته الرئيسية هي أن يقرب القرابين باسم المدينة فالأجنبي الذي لم يكن من حقه أن يقدم القربان لم يكن يستطيع إذن أن يكون حاكماً وحيث أنه لم تكن له أية وظيفة دينية فإنه لم تكن له في أعين الناس أية سلطة مشروعة . حاولت اسبرطة أن تضع ولاتها المسمين هرموستس (Harmostes) في المدن . لكن هؤلاء الناس لم يكونوا حكاماً ولم يكونوا يقضون بين الناس ، ولم يظهروا في المجتمع . وبما أنهم لم تكن لهم أية صلة منتظمة بالشعب فإنهم لم يستطيعوا أن يبقوا زمناً طويلاً .

نتج عن ذلك أنه كان على كل غالب أن يختار بين هدم المدينة المغلوبة أو احتلال أرضها ، أو تركها مستقلة ، ولم يكن هناك حل وسط . فإما أن تكف المدينة

عن الوجود وإما أن تكون دولة ذات سيادة. وما دامت لها عبادتها فلا بد أن تكون لها حكومتها ولا تفقد احداهما إلا بفقدان الأخرى؛ وعندئذ تنقطع عن الوجود.

هذا الاستقلال المطلق للمدينة القديمة لم ينقطع إلا عندما اختفت العقائد التي تأسست عليها اختفاء تاما. بعد أن تبدلت الأفكار ومرت عدة ثورات على هذه المجتمعات العتيقة. عندئذ استطاعوا أن يصلوا إلى إدراك دولة أكبر تهيمن عليها قواعد أخرى وإلى إقامة هذه الدولة. لكن كان لا بد لذلك من أن يكشف الناس عن مبادئ أخرى وعن رابطة اجتماعية أخرى غير ما كان متبعاً في تلك العصور القديمة.

الفصل الخامس عشر

العلاقات بين المدن ، الحرب ، السلم ، تحالف الآلهة

كان للديانة سلطان كبير على حياة المدينة الداخلية ، وكانت تتدخل بنفس السلطان في جميع العلاقات التي كانت بين المدن . وهو ما يمكن أن يرى من ملاحظة كيف كان يتحارب أهل هاتيك العصور القديمة ، وكيف كانوا يعقدون السلم ، وكيف كانوا يكونون المحالفات

مدينتان معنى ذلك مجموعتان دينيتان ليست لهما نفس الآلهة . فإذا كانتا في حرب فليس الرجال لا يحاربون وحدهم بل كانت الآلهة أيضاً تساهم في النضال . ولا يعتقدن أحد أن ذلك كان مجرد خيال شعري فقد كان عند القدماء عقيدة محددة جداً وعنيفة جداً ، وبمقتضاها كان كل جيش يستصحب آلهته معه . كانوا على ثقة بأن الآلهة كانت تحارب في المعمعة ، وكان الجنود يدافعون عنها وهي تدافع عن الجنود . وكان كل فرد يعتقد أنه وهو يحارب العدو يحارب أيضاً آلهة المدينة الأخرى ، فكان مسموحاً أن يقاتل هذه الآلهة الأجنبية وأن يسبيها وأن يصرعها . كان في الاستطاعة أن يأخذ أسيره

وبذلك كان للحرب مظهر غريب . يجب أن نتصور جيشين صغيرين يواجه كل منهما الآخر ، وفي وسط كل منهما أصنامه ومذبحه وأعلامه . وهي شارات مقدسة (١) . ولكل منهما وحيه الذي وعده بالنجاح واستحضاراته ومتكهنوه الذين يضمنون له النصر . وقبل المعركة ، يفكر كل جندي من الجيشين ويقول كما يقول ذلك الإغريقي في أوريبيدس : «الآلهة التي تحارب معنا أقوى من تلك التي مع أعدائنا»

(١) Ἐπὶ τὰς ἱερὰς ἐκπέμπετο σημείας — يوسيبوس ، ١٠ : ٩

يتلو كل جيش لعنة على جيش العدو ، من نوع اللعنة التي احتفظ لنا ماكروبوس بصيغتها : «أيتها الآلهة بثي الفزع والهلع والفشل بين أعدائنا ليحرم هؤلاء الرجال وكل من يسكن حقولهم ومدنهم من ضوء الشمس . لتكن هذه البلدة ، وحقولهم ورؤوسهم وأشخاصهم ملكاً لك»(١) وبعد أن يقال ذلك يتضاربون بحماسة بهذا التهافت الوحشي الذي توحيه فكرة أن الآلهة معهم وأنهم يحاربون آلهة غريبة لا رحمة بالعدو ، فالحرب ضروس ، والديانة تشرف على القتال وتحرض المقاتلين ، ولا مجال لأية قاعدة عليا تضعف شهوة القتل ، ومسموح بذبح الأسرى والإجهاز على الجرحى .

وحتى خارج ميدان القتال لم يكن لديهم فكرة عن واجب ما نحو العدو فلم يكن للأجنبي حق قط ومن باب أولى عندما يكونون في حرب معه إنهم ليسوا مرغمين أن يعترفوا بين العدل والظلم في معاملته . فعند موكيوس سكيفولا (Mucius Scaevola) وجميع الرومان أن خيانة العدو فعل جميل ؛ وكان القنصل ماركيوس (Marcius) يتباهى علناً بأنه خدع ملك مقدونيه ، وباع إميليوس باولوس (Paul Emile) مائة ألف إبيري بيع العبيد وكانوا قد استسلموا طواعية بين يديه (٢)

استولى فيبيداس (Phebidas) اللاقيدموني على قلعة الثيبيين في حومة سلم وقد سئل أغيسيلاوس عن مقصد هذا العمل من العدل فقال للملك : «تبصروا فقط ما إذا كان مفيداً ، فمجرد ما يكون عمل ما مفيد للوطن فإن القيام به يصبح جميلاً» . ذلك هو القانون الدولي عند المدن القديمة . وكان كليومينيس (Cleomene) وهو ملك آخر من ملوك اسبرطة يقول إن كل سوء تستطيع أن تلحقه بالعدو هو عدل دائماً في نظر الآلهة والناس (٣)

(١) ماكروبوس : ساتورناليا ٣ ، ٩ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٤٢ : ٤٧ ؛ ٤٥ : ٣٤ .

(٣) بلوتارخوس : أغيسيلاوس ٢٣ ، حكم (apophlegmes) اللاقيدمونيين ولم يشذ أرستيديس نفسه عن القاعدة فإنه كان يقول : من حق ... أن تعمل ... ... بين مدينة وأخرى ... [illegible] ... أرستيدس
C 25

كان للمنتصر أن يصنع بالمهزوم كما يشاء فما من قانون إلهي أو بشري يوقف انتقامه أو جشعه. واليوم الذي قررت فيه أثينا أن يباد جميع الميتيلينيين من غير تفريق في الجنس أو السن لم تكن تعتقد أنها تعدت حقها، وعندما رجعت في اليوم التالي عن قرارها وقنعت بإعدام ألف مواطن ومصادرة جميع الأراضي اعتقدت في نفسها الإنسانية والرحمة. وبعد الاستيلاء على بلاتيا ذبح الرجال وبيع النساء ولم يتهم أحد الغالبين بأنهم اعتدوا على حق (١).

إنهم لم يكونوا يحاربون الجنود فقط، بل كانوا يحاربون الأهلين جميعاً: الرجال والنساء والأطفال والعبيد. ولم يكونوا يحاربون الكائنات البشرية فحسب، بل كانوا يشنون الحرب على الحقول والمحصولات. كانوا يحرقون المنازل ويقطعون الأشجار، وفي معظم الأحوال كان محصول العدو نذراً للآلهة السفليين ولذلك كان يحرق (٢). كانوا يقضون على المواشي، بل إنهم كانوا يتلفون البذر الذي يمكن أن ينبت في العام التالي. كانت تستطيع الحرب الضارية وحدها أن تمحو مرة واحدة اسم شعب كامل وجنسه وأن تحول أقليماً خصباً إلى صحراء جرداء. وبمقتضى حق الحرب هذا مدت روما القفر حولها، فحملت من الأرض التي كان فيها الفولسك (Volsques) ثلاث وعشرون مدينة مستعمرات البونتين، واختفت الثلاث والخمسون مدينة التي كانت في اللاتيوم. وقد ظلوا زمناً طويلاً في سمنيوم يعرفون الأماكن التي مرت بها جيوش الرومان من القفر الذي تتركه حولها أكثر مما كانوا يعرفونها من بقايا معسكراتهم (٣).

وإذا لم يستأصل الغالب شأفة المغلوبين فقد كان من حقه أن يقضي على مدينتهم أي أن يحطم جمعهم الديني والسياسي، عندئذ تنقطع العبادة وتنسى

(١) ثوقيديديس ٣، ٥٠؛ ٣، ٦٨.

(٢) تيتوس ليفيوس ٦، ٣١؛ ٧، ٢٢. *Cum agris magis quam cum hominibus urendo populandoque gesserunt bella.*

(٣) تيتوس ليفيوس ٢، ٣٤؛ ١٠، ١٥. بلينيوس، التاريخ الطبيعي ٣٥، ١٢.

الآلهة (١) والقضاء على ديانة المدينة تختفي في نفس الوقت ديانة كل أسرة وتنطفئ المواقد. ومع العبادة تسقط القوانين والشرع المدني والأسرة والملك وكل ما كان يستند إلى الديانة (٢) ولنصغ إلى المغلوب الذي أنعم عليه بالحياة بعد أن يعترف إليه أنه يقول العبارة التالية : «إني أعطي شخصي وبلدي وأرضي والماء الذي يجري فيها وآلهة تخومي ومعابدي ومنقولاتي وكل الأشياء التي للآلهة كل ذلك أعطيه للشعب الروماني» (٣) وابتداء من تلك اللحظة تصبح الآلهة والمعابد والمنازل والأراضي والأشخاص للمنتصر. وسنتكلم فيما بعد عن مصير ذلك كله تحت سيادة روما.

لكي تعقد معاهدة سلم كان لا بد من عمل ديني. ونرى حتى في الإلياذة المنادين المقدسين لدى الجيوش يقربون خصيصة مواثيق الآلهة أعني الخراف والخمر، ونجد رئيس الجيش ابن الآلهة وهو واضع يده على رؤوس

(١) أوريبيدس، الطرواديات ٢٥-٢٦ : Νοσεῖ τὰ τῶν θεῶν οὐδὲ τιμᾶσθαι θέλει
وفي بعض الأحيان كان الغالب يأخذ الآلهة معه وفي أحيان أخرى ينذر لها في الأرض [illegible] يدعي الحق في موضعه عبادة آلهة الإقليم وأعيادها. روى تيتوس ليفيوس أن الرومان عندما استولوا على لانوفيوم ردوا [illegible] عبادتها [illegible] على أنهم [illegible] اشترطوا عند أن يكون من حقهم معبد جونون لانوفينا (Juno Lanuvina) (تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤).

(٢) كان المغلوبون يفقدون حق الملك على أراضيهم. ثوكيديدس ١ : ٩٨، ٣، ٥٠ ؛ ٣ : ٥٨ ؛ بلوتارخوس : بريكليس ١١.
Siculus Flaccus, *De cond. agror.*, dans les Gromatici, edit. Lachmann, p. 138 : *Bellis gestis victores populi terras omnes ex quibus victos ejecerant publicavere.* Siculus Flaccus, p. 136 : *Ut vero Romani omnium gentium potiti sunt, agros ex hoste captos in victorem populum partiti sunt.*
شيشرون : ضد فيرس ٢، ٣، ٦ ؛ [illegible] ؛ أبيانوس : الحروب الأهلية ١ : ٧. وتقضي هذا المبدأ كانت أرض الولايات (*solum provinciale*) ملكاً شرعياً للشعب الروماني. غايوس ٢، ٧ :
In provinciali solo dominium populi romani est

(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٣٨ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ٢٨ : ٣٤ ؛ بوليبيوس ٣٦ : ٢. توجد صيغة التسليم في بلاوتوس : أمفيتريون (البيت ٧١) :
Urbem, agrum, aras, focos seque uti dederent
والبيت ١٩١ :
deduntque se, divina humanaque omnia, urbem et liberos

الأضاحي ويقطع العهد على نفسه ثم يضحي بالخراف ويريق السوائل بينما يتلو الجيش هذا الدعاء: «أيتها الآلهة الخالدة كما ضُربت هذه الضحية بالحديد فلتحطمي كذلك رأس أول من يحنث بيمينه» (١) وقد دامت نفس الشعائر طيلة التاريخ الإغريقي وفي عهد ثوقيديديس كانت المعاهدة لا تزال تعقد بالقربان يتلو رؤساء الشعب صيغة الدعاء واضعين أيديهم على الضحية المذبوحة (٢) ويتعهدون للآلهة وكل شعب يدعو آلهته الخصوصيين (٣) ويتلو صيغة القسم الخاصة به (٤) وهذا الدعاء وهذا القسم أمام الآلهة هما اللذان يقيدان الطرفين المتعاقدين لا يقول الإغريق توقيع معاهدة، بل يقولون ذبح ضحية القسم ὅρκια τέμνειν أو إراقة السائل σπένδεσθαι وعندما يريد المؤرخ أن يسمي من نسميهم في اللغة الحديثة موقعي المعاهدة يقول ها هي ذي أسماء من أراقوا السوائل (٥)

إن فرجيليوس، وهو يصف أخلاق وشعائر الرومانيين بدقة بالغة، لا يبعد كثيراً عن هوميروس عندما يرينا كيف تعقد معاهدة، يوضع موقد بين الجيشين، ويقام مذبح للمعبودات المشتركة بينهما ويحضر الضحية كاهن يرتدي لباساً أبيض، ويريق الرئيسان السوائل، ويدعوان الآلهة، ويقسمان وعودهما، ثم تذبح الضحية وتوضع لحومها على لهيب المذبح (٦). وما أوضح تيتوس ليفيوس في هذه النقطة من قانون روما نفسه. فما من معاهدة يمكن أن تعقد بدون الكهنة الفتياليس وبدون أن تقام بالشعائر المقدسة؛ إذ أن المعاهدة ليست اتفاقاً، sponsio، كما هو الأمر بين الناس؛ وإنما تعقد المعاهدة بإلقاء دعاء precatio يطلب فيه أن يبطش الإله بالشعب الذي يخل بالشروط

(١) الإلياذة ٣ : ٢٩٥ – ٣٠.
(٢) ثوقيديديس ٥ : ٤٧ : Κατὰ ἱερῶν τελείων. انظر كسينوفون، أناباسيس ٢ : ٢، ٩ : Σφάξαντες ταῦρον καὶ κάπρον καὶ κριὸν, καὶ βάπτοντες ξίφος
(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧١.
(٤) شرحه ٥ : ٤٧ : Ὀμνύντων τὸν ἐπιχώριον ὅρκον ἕκαστοι
(٥) شرحه ٥ : ١٩.
(٦) فرجيليوس ١٢، الإنيادة ١٢ : ١١٨ – ... ١٢ : ١٧٠ – ١٧٤، ... ٥٠٢. انظر ٨ : ٦٤١. Et caesa jungebant foedera porca

التي ذكرت كما طعن الكاهن الفساليس الصحية» (١)

وهذا الاحتمال مدين بحلم وحده صمة القداسة والعصمة على الاتفاقات الدولية . يعرف الجميع قصة شعاب كوديوم Fourches Caudines، فإن حيثاً كاملا اتفق مع السامنيين بلسان قناصله وضباطه questeurs، وعرفاء السوقة ورؤساء الفرق المثبتة فيه ، لكنه لم تكن هناك أضاحي مذبوحة ولا أدعية متلوة ولا التزامات اتخذت تجاه الآلهة . لذلك اعتقد مجلس الشيوخ أنه على حق في القول بأنه ليست للاتفاق أية قيمة ولم يطرأ في ذهن أي حبر ولا أي بطريق أنهم ارتكبوا بالغائه عملا من أعمال الغدر .

إنها لفكرة ثابتة لدى القدماء أنه ليست على أي إنسان التزمات إلا تجاه آلهته الخصوصيين . ويجب أن نتذكر هذه الكلمة لإغريقي كانت مدينته تعبد البطل ألاباندوس (Alabandos) ، كان يوجه كلامه لرجل من بلدة أخرى كانت تعبد هيراكليس فقال «ألاباندوس إله وهراكليس ليس إلها»(٢) . مع مثل هذه الآراء كان من الضروري في معاهدة السلم أن تتخذ كل مدينة آلهتها الخاصة بها شهداء على أيمانها يقول البلاتيون للإسبرطيين «عقدنا معاهدة وأرقنا السوائل وأشهدتم آلهة آبائكم وأشهدنا بدورنا الآلهة الذين يقطنون إقليمنا» (٣) وكانوا يسعون جهدهم ليدعو إذا أمكن معبودات مشتركة بين البلدتين كانوا يحلفون بهذه الآلهة المرئية من الجميع ، بالشمس التي تضيء كل شيء والأرض المطعمة . لكن آلهة كل مدينة وأبطالها الحماة كانت أكثر تحريكاً لعواطف الإنسان وكان لا بد أن يتخذها المتعاقدون شاهدة إذا ما أريد أن تقيدهم الديانة قيداً حقيقياً .

وحيث أن الآلهة قد امتزجت خلال الحرب بالمحاربين فكان يجب أن تشملها المعاهدة أيضاً كانوا يشترطون أن تكون هناك محالفة بين الآلهة كما ستكون

(١) تيتوس ليفيوس ٩ : ٥ ويعطي نفس المؤرخ في مكان آخر (١ : ٢٤) وصفاً كاملا للاحتفال وحرفاً من الـ *precatio* ونجدها أيضاً في بوليبوس ٣ ، ٢٥ .
(٢) شيشرون : طبيعة الآلهة ٣ : ١٩ .
(٣) ثوقيديدس ٢ ، ٧١ .

بين أهل المدينتين. وللدلالة على هذه المحالفة بين الآلهة كان يحدث في بعض الأحيان أن يسمح أحد الشعبين للآخر بتبادل الحضور في أعيادهم المقدسة(١) وفي بعض الأحيان كان كل منهما يفتح معبده للآخر بالتبادل ويتبادلان الشعائر الدينية. شرعت روما أن يحمي معبود مدينة لانوفيوم من ذلك اليوم الرومانيين يصبح لهم حق دعائه والدخول إلى معبده (٢) وفي كثير من الأحيان كان يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين أن يقدم عبادة لمعبودات الآخر. وهكذا قدم الإليون Eleens، بعد أن تعاقدوا مع الأتوليين (Etoliens) قرباناً سنوياً لأبطال حلفائهم (٣) وفي بعض الأحيان أيضاً كانت تنص المعاهدات على أن تدرج كل منهما اسم الأخرى في أدعيتها (٤)

كثيراً ما كان يحدث على أثر محالفة ما أن تنشأ على التماثيل والأنواط، معبودات المدينتين وهي تتصافح. وهكذا كنت تجد أنواطاً نرى فيها أبولون إله ميليتوس وحش أزمير، وبالاس Pallas، إلهة السيديين (Sideens) وأرتميس إلهة برجي Perge، وأبولون إله هيرابوليس وأرتميس إلهة إفسوس، متحدين. ويرى فرجيليوس عند الكلام عن محالفة بين أهالي تراقيه وطرواده بينات الشعبين متحدين ومتشاركين (٥)

تتفق هذه العادات الغريبة اتفاقاً تاماً مع الفكرة التي تصورها القدماء عن الآلهة. ما دام لكل مدينة آلهتها فقد بدا طبيعياً أن يظهر هؤلاء الآلهة في المعارك وفي المعاهدات. لأن الحرب أو السلم بين مدينتين هي الحرب أو السلم بين ديانتين. وقد بقي القانون الدولي عند القدماء زمناً طويلاً مؤسساً على هذا

---

(١) شرحه ٥ ، ٢٣ . سوتاركوس : ثسيوس ٢٥ ، ٣٣ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤ .

(٣) بوسانياس ٥ : ١٥ ، ١٢ .

(٤) هكذا كانت أثينا تدعو خيوس ونعكس. انظر أرسطوفانيس (الطيور لبيت ٨٨٠ . وقطعة غريبة من ثيوبومبوس اقتبسها الشارح عند الكلام على هذا البيت .

(٥) فرجيليوس : الإنيد ٣ ، ١٥ : Socuque penates وانظر تيتوس ليفيوس ١ : ٤٥ : Deos consociatos.

المبدأ. عندما كانت الآلهة متعادية كانت هناك حرب لا هوادة فيها ولا قاعدة لها. وبمجرد ما تصادقت الآلهة ارتبط الناس فيما بينهم وأحسوا بشعور الواجبات المتبادلة. وإذا أمكن الظن أن لدى معبودات المدينة في المدينتين مبرراً ما لتحالفهما فإن ذلك يكفي لكي تتحالف المدينتان. كانت أول بلدة تعاقدت معها روما على الصداقة هي كيريه (Caere) في إتروريا. ويخبرنا تيتوس ليفيوس عن العلة في ذلك: أثناء نكبة الغزو الغالي وجدت الآلهة الرومانية ملجأ في كيريه. سكنت هذه البلدة وعبدت بها، وبهذا تكونت رابطة مقدسة من الضيافة بين الآلهة الرومانية والمدينة الأتروسكية (١). ومنذ ذلك الوقت والديانة لا تسمح بأن تكون البلدتان عدوتين، إنهما حليفتان إلى الأبد.

(١) تيتوس ليفيوس ٥ ، ٥٠ ؛ أولوس جليوس ١٦ : ١٣ .

الفصل السادس عشر

الأحلاف . المستعمرات

مما لا شك فيه أن الروح الإغريقي قد بذل جهداً كبيراً ليرتفع فوق مستوى نظام المدينة ، ففي وقت مبكر جداً اتحدت عدة مدن في نوع من التحالف . ولكن الدين احتل ، هنا أيضاً ، مكاناً كبيراً . كما أنه كان للمدينة موقدها في بيت النار فقد كان للمدن المجتمعة موقدها المشترك (١) . كان للمدينة أبطالها ومعبوداتها المدنية وأعيادها . كذلك كان للحلف معبده وإلهه واحتفالاته وأعياده التذكارية ومن مميزاته الأكلات الدينية والألعاب المقدسة .

كان لمجموعة المستعمرات الاثنتى عشرة اليونية في آسيا الصغرى معبدها المشترك الذى كان يسمى بانيونيوم (Panionium) (٢) وكان مقدساً لبوسيدون الهيليكونى (Poseidôn Heliconien) الذى كان يمجده هؤلاء الناس أنفسهم في البيلوبونيز قبل هجرتهم (٣) . كانوا يجتمعون كل عام في هذا المكان المقدس ليحتفلوا بالعيد المسمى بانيونيا (Panionia) ، وكانوا يقدمون قرباناً ويقتسمون الأطعمة المقدسة جماعة (٤) . وكان للمدن الدورية في آسيا معبدها المشترك في رأس تريوبيوم (Triopium) وكان هذا المعبد مهدياً إلى أبولون وبوسيدون وكانوا يحتفلون فيه في الأيام التذكارية بالألعاب التريوبية (٥)

(١) *Ἑστία κοινὴ τῶν Ἀρκάδων* بوسانياس ٨ : ٥٣ .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٣ .

(٣) استرابون ٨ : ٧ : ٢

(٤) Hérodote, I, 148: *Συλλεγόμενοι Ἴωνες ἄγεσκον ὁρτήν, τῇ ἔθεντο οὔνομα Πανιώνια.* Strabon, XIV, 1, 20 *Πανιώνια, κοινὴ πανήγυρις τῶν Ἰώνων συντελεῖται τῷ Ποσειδῶνι καὶ θυσία* — ديودوروس ١٥ : ٤٩ .

(٥) هيرودوت ١ : ١٤٤ . ارسيديس الملطى في Fragmenta hist. graec., éd. Didot, t. IV, p. 324

وفي تقارة لإغريقة كان مجموع المدن البيوتية (béotiennes) معبدها، معبد أثينايا إيتونيا Athenée Itonia (١) وأعيادها السنوية بمبيوتيا Pamboeotia وكان للمدن الأخيوية (achéennes) قربان مشتركة في إيجيوم (Aegium) وكانت تقدم عبادة لديميتر باناخيا (Déméter Panachaea) (٢)

يبدو أن كلمة أمفيكتيونية (amphictyonie) كانت مصطلحا عتيقا يدل على جمع عدة مدن. في العصور الأولى للإغريق كان هناك عدد لا بأس به من الأمفيكتيونيات. نعرف منها أمفيكتيونيات كالوريا (Calaurie)، وديلوس (Delos) وثرموبيلاى (Thermopyles) ودلفى. وكانت جزيرة كالوريا هي المركز الذي تتجمع فيه المدن هرميون Hermione وإبيدوروس (Epidaure) وبراسياى (Prasies) ونوبليا (Nauplie) وإيجينا (Egine) وأثينا وأرخومينوس (Orchomene). وكانت هذه المدن تقدم فيها قربانا لا تتصل بأية جهة أخرى (٣) وكذلك كان في ديلوس حيث كانت الجزر [illegible] ترسل [illegible] في لتقديم القرابين وعرض الموسيقى والألعاب [illegible] أبولون (٤)

ولم تكن أمفيكتيونيا ثرموبيلاى، وهي معروفة في التاريخ أكثر من السابقة، من نوع يختلف عنها، وقد تكونت في الأصل من مدن متجاورة (٥). وكان لها

(١) بوسانياس ٩ : ٣٤
(٢) شرحه ٧ : ٢٤.
(٣) استرابون ٨ : ٦ : ١٤، [illegible] تعبيرات مع الزمن، فأخذ أهالي أرجوس مكان [illegible] في الاحتفالات [illegible]، واللاقيدمونيون مكان [illegible].
Thucydide, III, 104 [illegible] ἐς τὴν Δῆλον [illegible] τῶν Ἰώνων καὶ περιοικίδων νησιωτῶν [illegible] [illegible] ἐποιεῖτο χοροὺς τε ἦγον αἱ πόλεις [illegible] أتت أثينا هذه الأمفيكتيونية من جديد في القرن الخامس، [illegible] كبيرا.
(٥) عدد أمفيكتيونيي [illegible] الشعوب التي كانت [illegible] ἔθνη μετέχοντα τοῦ ἱεροῦ وهي الثساليون Thessaliens والبيوتيون (Beotiens) والدوريون (Doriens) (الثلث الأربع) واليونيون (Ioniens) والبرهيبيون (Perrhebes) والمغنيسيون Magnetes والدولوبيون (Dolopes) واللوكريون (Locriens) والأويتيون (Oeteens) والفثيوتيون Phthiotes والماليون Maliens والفوكيون (Phoceens) وكانت [illegible] باعتبارها [illegible] للدوريين، وأثينا كجزء من الشعب اليوني. انظر بوسانياس ١٠ : ٨، ١ هاربوكراتيون تحت لفظ Ἀμφικτύονες

معبدها ، معبد ديميتر ، وقربانها وعيدها السنوي (١).

لم تكن هناك أمفكتيونيا ولا حلف من غير عبادة ، إذ أن نفس الفكرة التي هيمنت على تأسيس المدن أنشأت أيضاً، كما يقول أحد القدماء، القرابين المشتركة بين عدة مدن. ولقد كان الجوار والحاجة المتبادلة يقربان بينها فإنها كانت تحتفل بالأعياد الدينية وتجمع الأعياد (panegyries) جماعة ومن الأكلة المقدسة ومن الرقص سوياً معاً نشأت صلة صداقة (٢). وكانت المدن المتحالفة ترسل في الأيام التي عينتها الديانة بعض رجال تخلع عليهم مؤقتاً الصفة الكهنوتية وكانوا يسمونهم ثيوروى (theores) وبيلاغوروى (pylagores) وهييرومنيمونوى (hieromnémons). وكانت تذبح أمامهم الأضحية تمجيداً لإله الجماعة وتقسم اللحوم المطهية على المذبح بين ممثلي المدن. وكانت هذه الأكلة المشتركة المصحوبة بالأناشيد والأدعية والألعاب هي علامة الجماعة ورباطها.

إذ كانت وحدة الصفة الإغريقية قد تجلت بوضوح في ذهن الإغريق فإن ذلك كان دليلاً على الأخص عن طريق الآلهة التي كانت مشتركة بينهم وعن طريق الاحتفالات المقدسة التي كانوا يحتشدون فيها. فحول زيوس بانهيلينيوس (Zeus Panhéllenien) على نمط المعبودات المدنية. كانت الألعاب الأولمبية والبرزخية (isthmiques) والنيمية neméens والبيثية pythiques من الأيام الدينية الكبيرة التي قام فيها جميع الإغريق شيئاً فشيئاً. كانت كل مدينة ترسل إليها وفدها ليساهم في القربان (٣) وقد نشأت وطنية إغريقية زمناً طويلاً لا تعرف غير هذا الشكل الديني. وقد ذكر ثوقيديدس الآلهة المشتركة بين الإغريق مرات عديدة (٤) وعندما استحلف أرسطوفانيس مواطنيه أن ينسوا فتنهم [illegible]

(١) Strabon, IX, 5, 17 Δήμητρος ἱερὸν ἐν ᾧ θυσίαν ἐτέλουν οἱ Ἀμφικτύονες

(٢) شرحه ... (Meinese) أن هذه الفكرة ... ووجدها في ... ومن المؤكد ... أن يكون من سترابون. هذا وقد عثر على نص الفكرة ... ص ٣٥.

(٣) Platon, Lois, XII, p. 950 Θεωροὺς Πυθώδε τῷ Ἀπόλλωνι καὶ εἰς Ὀλυμπίαν τῷ Διὶ καὶ ἐς Νεμέαν καὶ ἐς Ἰσθμὸν χρὴ πέμπειν, κοινωνοῦντας θυσιῶν καὶ ἀγώνων τούτοις τοῖς θεοῖς

(٤) Τὰ ἱερὰ τὰ κοινὰ τῆς Ἑλλάδος (Thucyd., III, 58). Θεοὶ ὁμοβώμιοι καὶ κοινοὶ τῶν Ἑλλήνων (Id., III, 59, V, 18).

قال لهم «أنتم الذين ترون المذابح في أولمبيا وترموبيلاي ودلفوي بماء نثار واحد ، لا تمزقوا بلاد الإغريق بمنازعاتكم لكن اتحدوا ضد الأجانب» (١)

كانت هذه الأمفكتيونيات وهذه الأحلاف ضئيلة الأثر السياسي وإنها لغلطة كبيرة أن نتصور وفود (théories) ترموبيلاي وبانيونيوم وأولمبيا كمؤتمر أو مجلس شيوخ اتحادي . وإذا كان الأمر ينتهي في بعض الأحيان بهؤلاء الرحل إلى الاهتمام بمصالح الاتحادات المادية والسياسية فقد كان ذلك على سبيل الاستثناء وتحت سيطرة ظروف خاصة . بل إن هذه الأمفكتيونيات لم تكن لتحول دون محاربة أعضائها بعضهم بعضاً . ولم تكن اختصاصاتها منصبة على المداولة في المصالح بل تمجيد الآلهة والقيام بالاحتفالات والمحافظة على المدينة المقدسة ومن الأعياد . فإذا كانت الوفود تقيم بينها محكمة وتنزل عقاباً بإحدى البلدان لأحد فإنما يكون ذلك لأن هذا البلد أهمل بعض الواجبات الدينية أو لأنه اغتصب أرضاً ما مخصصة للمعبد (٢) .

كانت تسيطر في إيطاليا أنظمة مشابهة . فكانت لمدن اللاتيوم الأعياد اللاتينية (feries latines) وكان ممثلوها يجتمعون في كل عام في محراب جوبيتر لاتياريس (Jupiter Latiaris) على جبل ألبا (mont Albain) وكانوا يضحون بثور أبيض يقسم لحمه أجزاء بقدر من كان هناك من مدن متحالفة (٣) وكذلك كان للمدن الاثنتي عشرة في إتروريا معبدها المشترك وعيدها السنوي و[illegible] التي كان يرأسها كاهن كبير (٤) .

---

(١) أرسطوفانس : لسستراتا *Lysistrata* البيت ١١٣٠ وما بعده .

(٢) لم تهتم الأمفكتيونيات بالمصالح السياسية إلا فيما بعد وفي عهد فيليبوس المقدوني .

(٣) Denys, IV, 49 *Ἵνα συνερχόμενοι πανηγυρίζωσι καὶ ἑστιῶνται καὶ κοινῶν ἱερῶν μεταλαμβάνωσι.* Varron VI, 25 *Latinae feriae, a Latinis Populis quibus ex sacris carnem petere jus fuit cum Romanis.* Pline, *H. n.*, III, 9, 69 *Cum his carnem in monte Albano soliti accipere populi.* Cf. Tite-Live, XLI, 16. Denys, IV, 49 *Ἑνὸς ταύρου κοινῶς ὑπὸ πασῶν θυομένου, μέρος ἑκάστῃ τὸ τεταγμένον λαμβάνει.*

(٤) تيتوس ليفيوس ٥ ، ١ .

من المعروف أن الإغريق والرومان لم يكونوا يباشرون الاستعمار بنفس الطريقة التي يتبعها المحدثون . فلم تكن المستعمرة تابعة للدولة المستعمرة أو ملحقة بها ؛ بل كانت هي ذاتها دولة مستقلة . بيد أنه كان بين المستعمرة والأم رابطة من نوع خاص . ومرجع ذلك إلى الطريقة التي تأسست بها كل مستعمرة .

يجب ألا نعتقد، في الواقع ، أن المستعمرة كانت تتكون بالمصادفة وطبقاً لهوى عدد معين من المهاجرين . فلم يكن في استطاعة جيش من المغامرين أن يؤسس مدينة ما ، ولم يكن من حقه ، في اعتقاد القدماء ، أن ينظم نفسه في هيئة مدينة وكانت هناك قواعد لا بد من السير عليها . والشرط الأول هو ، قبل كل شيء ، حيازة النار المقدسة ، والثاني استصحاب شخص ذي أهلية للقيام بشعائر التأسيس . وكان المهاجرون يطلبون كل ذلك من الأم . كانوا يأخذون النار المقدسة من موقدها (١) . ويأخذون معهم مؤسساً يجب أن ينتمي إلى إحدى الأسرات المقدسة في المدينة (٢) وكان هذا الأخير يقوم بتأسيس المدينة الجديدة وفقاً لنفس الشعائر التي عملت فيما مضى للبلدة التي خرج منها (٣) . وكانت النار المقدسة تقيم بين المدينتين رابطة أبدية من الدين والقرابة . والبلدة التي قدمتها كانت تسمى المدينة الأم (٤) . والتي تسلمتها كانت بالنسبة لها في مركز البنت (٥) . وإذا كان لنفس البلدة مستعمرتان كانتا تسميان مدينتين أختين (٦) .

(١) *Etymologicum magnum* v° *Πρυτανεῖα* ، هيرودوت ١ : ١٣٩ .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٦ ؛ ثوقيديديس ١ : ٢٤ ؛ ٦ : ٣ – ٥ ؛ ديودوروس ٥ : ٥٣ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ؛ بلوتارخوس : تيمولييون .

(٣) ثوقيديديس ٣ : ٣٤ ؛ ٦ : ٤ ، ٧ ، فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ١٤٣ : *Coloniae nostrae item conditae ut Roma*

(٤) يسمى هيرودوت (٧ : ٥١ ؛ ٨ : ٢٢) الأثينيين آباء اليونيين .

(٥) عبر القدماء عن هذه الفكرة مراراً ، بوليبيوس ١٢ : ١٠ ؛ ديونيسيوس ٣ : ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٩ ؛ أفلاطون : القوانين ٦ ، ثوقيديديس ١ : ٣٨ .

(٦) بوليبيوس ٢٢ : ٧ : ١١ ، بلوتارخوس ، تيموليون ١٥ .

كانت عبادة المستعمرة هي ذات عبادة الأم (١) . وكان في استطاعتها أن يكون لها بعض آلهة خاصة ولكن كان يتحتم عليها أن تحتفظ بالمعبودات المدنية للمدينة التي جاءت منها وأن تمجدها . فكانت المدن اليونية الإثنتي عشرة في آسيا الصغرى تعتبر مستعمرات أثينية لا لأنها كانت مكونة من أثينيين بل لأنهم كانوا قد أخذوا معهم ناراً من بيت نار (بريتانيون) أثينا واستصحبوا مؤسسين أثينيين . وكانت تؤدي عبادة لمعبودات أثينا وتحتفل بأعيادها (٢) . وترسل لها كل عام قرابين ووفودا (théories) (٣) . وهكذا كانت تفعل مستعمرات كورنثه وناكسوس (٤) وكذلك كانت روما . باعتبارها مستعمرة لألب وعن طريق هذه مستعمرة للافينيوم . تقدم كل عام قرباناً على جبل ألبا وترسل أضاحي إلى لافينيوم حيث كانت آلهتها المربية (بناتس) (٥) . بل لقد كان العرف القديم عند الإغريق أن تتلقى المستعمرة من الأم الأحبار الذين كانوا يرأسون عبادتها ويسهرون على المحافظة على شعائرها (٦) .

ظلت هذه الروابط الدينية بين المستعمرات والأم قوية جداً حتى القرن الخامس قبل الميلاد . أما عن الرابطة السياسية فقد بقي القدماء زمناً طويلا دون أن يفكروا في إقامتها (٧) .

---

(١) توكيديدس ٦ : ٤ ؛ بوليبيوس ٩ : ٧ ؛ استرابون ٤ : ١ : ٤

(٢) هيرودوت ١ : ٤٧ ؛ ٧ : ٩٥

(٣) توكيديدس ١ : ٢٥ ؛ شرح أرسطوفانس : السحب ٣٨٥ ؛ إيسوقراط : مجامع الأعياد (*Panégyrique*) ٧ : ٣١ .

(٤) ديودوروس ١٢ : ٣٠ ؛ توكيديدس ٦ : ٣

(٥) فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ١٤٤ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٥٢ ؛ بلوتارخوس كوريولانوس ٢٨ .

(٦) شرح توكيديدس ١ : ٢٥ : *Ἔθος ἦν ἀρχιέρεας ἐκ μητροπόλεως λαμβάνειν*

(٧) لم تكن هذه الرابطة السياسية التي حاولتها بوركيرا بعض الشيء ، توكيديدس ١ : ٥٥ ، تكويناً حقيقياً إلا في الكليروخيات clérouchies الأثينية والمستعمرات الرومانية . وكلاهما من تاريخ حديث نسبياً وليس علينا أن نتكلم عنهما هنا .

الفصل السابع عشر

الرومانى ، الأثينى

إن هذه الديانة التى أسست مجتمعات وحكمتها أمداً طويلاً ، كونت كذلك النفس البشرية وأعطت للإنسان طبعه . وبفضل تعاليمها وسننها جعلت للرومانى والإغريقى طريقة خاصة فى التفكير والعمل وعادات معينة لم يستطع التخلص منها إلا بعد زمن طويل . كان يرى الإنسان آلهة فى كل مكان ، آلهة صغيرة ، آلهة سريعة الغضب سيئة النية . كانت تسحق الإنسان بالخوف الدائم من أن يكون بعض الآلهة ضده . ولم تكن تترك له أية حرية فى أعماله .

يجب أن نرى أى مكان كانت تشغل الديانة فى حياة الرومانى . فقد كان منزله بالنسبة له كالمعبد بالنسبة لنا . فيه كان يجد عبادته وآلهته . موقده إله ، والجدران والأبواب والعتبة آلهة ، وعلامات الحدود التى تحيط حقله آلهة كذلك . القبر مذبح وأسلافه كائنات إلهية .

كل عمل من أعماله اليومية شعيرة دينية . كل يوم ملك لدينه . يدعو موقده وآلهته المنزلية (بناتس) وأسلافه صباح مساء . ويقدم لهم بالدعاء عند خروجه من منزله وعند دخوله . كل أكلة عملية دينية يتقاسمها مع معبوداته المنزلية . الولادة ، وتلقى العمادة ، وارتداء دثار toge لأول مرة ، والزواج ، والأعياد التذكارية لجميع هذه الحوادث ، كل هذه أعمال احتفالية من أعمال عبادته .

يخرج من داره ولا يكاد يخطو خطوة دون أن يقابله شىء مقدس : إما مصلى وإما مكان نزلت به صاعقة ، إما مصلى وإما قبر . وأحياناً يتحتم عليه أن ينكمش وأن يتلو دعاء ، وأحياناً يجب أن يدير بصره وأن يغطى وجهه لكى يتجنب شيئاً مشؤوماً .

كل يوم يقرب قرباناً في منزله . وكل شهر في بدنته ، وعدة مرات كل عام في فصيلته (gens) أو في قبيلته . وفوق جميع هذه الآلهة يجب عليه عبادة آلهة المدينة . لقد كان في روما من الآلهة أكثر مما كان فيها من المواطنين .

يقدم بعض القرابين شكراً للآلهة . ويقدم أخرى أكثر عدداً لتهدئة سخطهم . وفي يوم من الأيام تظهر في موكب وهو يرقص على نغمة قديمة على صوت المزمار المقدس . وفي يوم آخر يقود مركبة ترقد فيها أصنام بعض المعبودات (١) . وفي مرة أخرى حفلة الاضطجاع (*lectisternium*)(٢) إذ توضع مائدة في أحد الشوارع محملة بالأطعمة وترقد فوق الآلهة على بعض الأسرة ويمر كل روماني وهو منحني وعلى رأسه تاج وفي يده غصن غار (٣) .

ولديه عيد للبذر ، وعيد للحصاد وعيد لتشذيب الكروم . وقبل أن يستوي القمح سنبلاً يكون قد قدم أكثر من عشرة قرابين ودعا عشرة من المعبودات الخاصة لنجاح محصوله . ولديه على الأخص أعياد للأموات كثيرة لأنه يخشاهم (٤) .

لا يخرج من داره قط دون أن ينظر إن كان هناك طائر مشئوم الطالع . وهناك ألفاظ لا يجرؤ على نطقها في حياته . وإن كان يرجو أملاً نقش أمنيته على لوحة يودعها عند أقدام تمثال إله ما (٥) .

(١) عن موكب الـ *tensae* انظر تيتوس ليفيوس ٥ ، ٤١ ؛ سويتونيوس ؛ فسباسيانوس ٥ ؛ فستوس طبعة ميلر Müller ص ٣٦٤ .

(٢) مركبة من كلمة *lectus* يعني سرير وكلمة *stern* يعني مد . — المعرب

(٣) تيتوس ليفيوس ٣٤ ، ٥٥ ؛ ٤٠ ، ٣٧ ؛ سويتونيوس ٣٢ ، ٢ ؛ ١٠ .

(٤) بلاوتوس ؛ أمفتريون ٢ ، ٢ ، ٤٥ . وصف أوفيديوس (الأعياد ٥ ، ٤٢٢ وما بعده) الشعائر التي تتبع في طرد الأشباح : يجب عند منتصف الليل النهوض حافي القدمين والطرقعة بالأصابع الوسطى على الإبهام ووضع فول أسود في الفم وقذفه على الأرض مع إدارة الرأس قائلاً : ها هو ما أعطيه ؛ بهذا الفول أفدي نفسي . فتلتقط الأرواح الفول وتنصرف راضية . تلك هي الشعيرة القديمة .

(٥) جوفيناليس ، الهجائية ١٠ ، ٥٥ . وهو ما نجد دليلاً عليه أيضاً في صفائح الرصاص التي عثر عليها السيد كارابانوس (Carapanos) في دودونا .

يستشير الآلهة فى كل آونة ويريد أن يعرف إرادتهم . ويجد كل ما يعزم عليه فى أحشاء الأضاحى وفى طيران الطيور وفى إرشادات الصاعقة (١) . يزعجه الإعلان عن مطر من الدم ، أو عن عجل يتكلم وترتعد لذلك فرائصه. ولا يستريح إلا عندما يصبح احتفال للتكفير لأمر بينه وبين الآلهة (٢) .

لا يخرج من بيته إلا بالقدم اليمنى ولا يقص شعره إلا عند تمام القمر ، ويحمل معه تمائم . وللوقاية من الحريق يغطى جدران منزله بكتابات سحرية إنه يعرف عزائم لتوقى المرض وأخرى للشفاء منه ، لكن يجب تكرارها سبعا وعشرين مرة وأن يبصق فى كل مرة بطريقة معينة (٣)

إنه لا يفكر فى مجلس الشيوخ إذا لم تعط الأضاحى علامات الموافقة على ذلك ويغادر مجمع الشعب إذا سمع صوت فأر وينثنى عن أشد خططه تصميماً إذا سمع فألا سيئاً أو قرع أذنه لفظ مشؤوم . إنه لجسور فى القتال لكن على شرط أن تضمن له الاستخارات الانتصارات

هذا الرومانى الذى نقدمه هنا ليس هو الرجل الضعيف الروح ، الذى يجعله البؤس والجهل فى الخرافة . وإنما نتكلم عن الطريق ، عن الرجل الشريف ، القوى ، الثرى . هذا الطريق قد يكون دوراً عاماً ودوراً رجل دولة أو قنصلا أو مزارعاً أو تاجراً . لكنه كاهن وفكره شاخص إلى الآلهة فى كل مكان

(١) شيشرون ، التكهن ١ ، ٢ :

Nihil publice sine auspiciis nec domi nec militiae gerebatur. Valère Maxime, II, 2, 1: *Apud antiquos, non solum publice, sed etiam privatim, nihil gerebatur sine auspicio prius sumpto*

(٢) تيتوس ليفيوس ٤٠ ، ١ ؛ ٢٧ ، ٤ ؛ ٢٨ ؛ ، وأخرى فى مواضع متفرقة

(٣) انظر فى نص صيغة أعطاها كاتون الفلاحة ، ١٦٠ ، وفارون الفلاحة ١ ، ٢ ، ١٠ ؛ ١ ، ٣٧ ، قارن بلينيوس ، التاريخ الطبيعى ٢٨ : ٢ - ٥ ، ٤ - ٢٣) . - يعاقب قانون الألواح الإثنى عشر الرجل الذى يسحر بعض الغلال فى حقل آخر بطريق السحر *qui fruges excantassit* . (بلينيوس ٢٨ ، ٢ ، ١٧ ؛ سرفيوس *ad Eclogas* ٨ : ٩٩ . قارن شيشرون : الجمهورية ٤ : ١٠ .

وعلى الدوام . يسيطر الخوف من الآلهة على كل شيء عنده . على الوطنية وحب المجد وحب الذهب مهما كانت هذه العواطف ذات سلطان على نفسه. قال هوراسيوس أصدق كلمة عن الروماني : إنه بخوفه من الآلهة أصبح سيد الأرض .

Dis te minorem quod geris, imperas

قيل إنها كانت ديانة سياسية . لكن هل في استطاعتنا أن نظن أن مجلس شيوخ مكوناً من ثلاثمائة عضو ، وأن هيئة من ثلاثة آلاف بطريق تكاتفت بمثل هذا الإجماع على خداع شعب جاهل ، وعلى ذلك قروناً دون أن يرتفع في وقت ما صوت واحد ، وسط هذا القدر الكبير من المنافسات والمنازعات والمكاشحات الشخصية ، يقول : إن هذا الكذب . لو أن بطريقاً واحداً خان سر رفاقته ، لو أنه جاء نحو السوقة الذين فرغ صبرهم من احتمال نير هذه الديانة وخلصهم فجأة من هذه الاستخارات وهذه الكهونات وحررهم منها أما كان يحصل هذا الرجل فوراً على تقدير يجعله سيد الدولة . أيعتقد أحد ، لو أن البطارقة لم يكونوا مؤمنين بالديانة التي كانوا يمارسونها ، أن هذه الشهوة لم تكن من القوة بحيث تحمل واحداً منهم على الأمر بكشف عن السر . إن الإنسان ليخدع نفسه عن الطبيعة البشرية خداعاً خطيراً لو ظن أن ديانة ما تستطيع أن تقوم على الملق وأن تستمد من الدجل . ولنتصفح في تيتوس ليفوس كم مرة ضايقت هذه الديانة البطارقة أنفسهم . كم مرة حيرت مجلس الشيوخ وعاقت عمله ثم نقل إن كانت هذه الديانة قد اخترعت لإراحة السياسيين . لقد كانوا في عصر شيشرون فقط يعتقدون أن الديانة نافعة للدولة ، لكن الديانة كانت قد ماتت في النفوس .

لنأخذ رومانياً من القرون الأولى ، ولنختر واحداً من أكبر المحاربين ، كاميلوس ، الذي كان دكتاتوراً خمس مرات والذي انتصر في أكثر من عشر مواقع . ربما كان يجب في الحقيقة أن نصوره كاهناً بقدر ما نصوره محارباً إنه ينتمي للفصيلة فوريا (*gens Furia*) واسمه لفظ يدل على وظيفة كهنوتية(1) .

(1) *camillus* باللاتينية معناه صبي الكاهن أي الصبي الذي يساعده في القيام بأعماله الدينية وعلى الأخص كاهن جوبيتر . ومن معانيها الصبي أي الغلام الصغير ويقصد المؤلف المعنى الأول . المعرب .

ألبسوه وهو طفل الرداء (prétexte) (١) الذي يدل على طفولته وتميمة (bulle) (٢) التي تبعد طوالع السوء . ثم وهو يشهد كل يوم احتفالات العبادة ، وقضى شبابه وهو يتعلم شعائر الدين . حقاً إن حرباً تأججت نيرانها وأن الكاهن أصبح جندياً ، وقد رؤى ، وهو مجروح في فخذه في معركة الفرسان ، ينزع السلاح من الجرح ويستمر في القتال ، وبعد عدة حملات رفع إلى مناصب الدولة ، وباعتباره من رجال الدولة قدم القرابين العامة . وتولى القضاء ، وتأمر على الجيش ، وجاء يوم فكروا فيه للدكتاتورية . في ذلك اليوم حتى رجل الدولة لم يهمل في ليلة صافية واستشار الآلهة ، وفكره ملازم لكاميلوس الذي كان يتلو اسمه بصوت خافت وعيناه شاخصتان نحو السماء تبحثان عن الآيات الغيبية . فلم ترسل الآلهة إلا آيات حسنة ؛ ذلك لأنها راضية عن كاميلوس . فعين دكتاتوراً

ها هو ذا رئيس الجيش يخرج من المدينة دون أن تفوته استشارة الاستخارات والتضحية بعدد كبير من الأضاحي . تحت إمرته الكثير من الضباط ويقدرهم تقريباً من الكهنة وحمر ومستخيرون بالطيور ومستخيرون بالأحشاء وعرافو الدجاج (pullaires) ومضحون victimaires وحامل الموقد

كان مكلفاً بوضع نهاية للحرب ضد فييس (Veii) التي كانوا يحاصرونها منذ تسع سنوات على غير جدوى . وفييس بلدة أتروسكية أي تكاد تكون بلدة مقدسة ؛ ويجب القتال بالورع أكثر منه بالشجاعة . وإذا كان الرومان قد ظلوا تسع سنوات مغلوبين على أمرهم فما ذلك إلا لأن الأتروسك أعرف منهم بالشعائر التي ترضى عنها الآلهة ، وبالعزائم السحرية التي تكسب عطفهم ، وفتحت روما من جانبها الكتب السيبيلية (livres Sibyllins) (٣) وبحثت فيها عن إرادة

(١) باللاتينية *praetexta* وهو اسم رداء أبيض عليه حاشية أرجوانية كان يلبسه كبار رجال الدولة كما كان يلبسه الأطفال من الأشراف حتى إذا بلغ السابعة عشرة وعندها يخلع هذا الرداء ويقدمه للآلهة المنزلية ويلبس الدثار (*toga*) . المعرب .

(٢) باللاتينية *bulla* أو *bulla aurea* ومعناها الفقاعة المستديرة وهي علبة يعلقها الصبي من رقبته وتتدلى على صدره ويلازمها دائماً وعند السابعة عشرة يخلع هذه العلبة ويهديها للآلهة المنزلية . المعرب .

(٣) الكتب السيبيلية نسبة إلى الكاهنة (Sibylla) التي كتبتها وهي كاهنة إيثرية وقد باعتها لأحد ملوك روما وهي منسوبة إلى [illegible] تذكر في بعض الروايات الإسلامية وهو كتاب به ما كان وما يكون من الأزل إلى آخر الدهور . المعرب .

الآلهة فتبين أن احتفالات اللاتينية (feries latines) دنسها عيب في الشكليات، فجددت القربان. بيد أنه ما زالت العمة للأتروسك فلم تثق إلا وسيلة واحدة هي اختطاف كاهن أتروسكي ومعرفة أسرار الآلهة منه. فقبضوا على كاهن من أهل فييس وأحضروه إلى مجلس الشيوخ فقال ولكي تتغلب روما يجب عليها أن تخفض مستوى بحيرة ألبا مع الاحتراز من جعل مائها يسيل في البحر فامتثلت روما وحفرت عدداً لا نهاية له من الخلجان والقنوات وتبدد ماء البحيرة في البرية.

وفي هذه اللحظة انتخب كاميلوس دكتاتوراً. فتوجه إلى الجيش على مقربة من فييس وهو واثق من النجاح، إذ أن جميع أنواع الوحي قد كشف عنها وكل أوامر الآلهة قد نفذت. فضلاً عن أنه قبل أن تغادر روما كان قد وعد الآلهة بأعياد وقرابين، ولضمان النصر لم يهمل الوسائل البشرية، فزاد في عدد الجيش ووثق النظام وأمر بحفر سرداب تحت الأرض يبعد منه إلى القلعة، وجاء يوم الهجوم، خرج كاميلوس من خيمته وعمل الاستخارة وضحى بالأضاحي وقد أحاط به الأحبار والكهنة، ودعى الآلهة وهو يرتدي ال*paludamentum*(١) وقيادته بأبولون، وبرادتك التي تلهمني أسير للاستيلاء على بلدة فييس وتدميرها، وأعدك وأنذر لك عشر الغنيمة إذا انتصرت». لكنه لا يكفي أن تكون الآلهة معه فللعدو أيضاً معبود قوي يحميه. فدعاه كاميلوس بهذا الدعاء: «جونون، أيتها المالكة التي تسكن الآن في فييس أتوسل إليك، تعالي معنا نحن المنتصرين، اتبعي إلى بلدتنا وتقبلي عبادتنا، ولتصبح بلدتنا بلدتك». ثم بعد تقديم القرابين والدعاء والأدعية وتلاوة العزائم، وبعد ما أصبح الرومان على يقين من أن الآلهة في صفهم وأنه لم يعد هناك إله واحد يدافع عن العدو، أعطى الأمر بالهجوم واستولى على البلدة.

ذلك هو كاميلوس، القائد الروماني، رجل يعرف كيف يحارب بإبداع

---

(١) هو العباءة الخاصة التي كان يلبسها القائد — المعرب

ويعرف، على الأخص، من يخضع للناس طاعته لكنه يؤمن إيماناً أصحاً بالآيات لمدينته ويقوم كل يوم بمناسك دينية. وهو مقتنع أن ما يسمو به أكثر من سواه ليست هي الشجاعة ولا النظام وإنما هو مطوق ببعض عزائم تتلى بدقة ضمن الشعائر. وهذه العزائم إذ وجهت للآلهة تحمل عليها وتكاد ترغمها دائماً على منحه النصر. وأسمى مكافأة مثل هذا القائد هي أن يسمح له مجلس الشيوخ بتقديم قربان النصر. وعندئذ يركب المركبة المقدسة التي تجرها أربعة خيول بيض وهي دائماً التي تجر تمثال جوبيتر يوم الموكب الكبير. ويرتدي رداء مقدساً هو ذاته الذي ترتديه الآلهة أيام الأعياد. وعلى رأسه تاج، وبيده اليمنى قابضة على غصن غار. واليسرى على صولجان من العاج وهي بالضبط الشارات والملبس لدى تمثال جوبيتر (١). وبهذه الجلالة التي تكاد تكون إلهية يطلع على مواطنيه ويذهب لتقديم نفسه لجلالة الحقيقية، جلالة أكبر الآلهة الرومانيين. فيتسلق منحدر الكابيتول وعندما يصل إلى معبد جوبيتر يضحي بالأضاحي.

لم تكن مخافة الآلهة خاصة بالرومان بل كانت تسيطر كذلك على قلب الإغريقي. فإن هذه الشعوب التي كونتها الديانة في مدنها، وعلمتها وربتها، قد حافظت زمناً طويلاً على سمة تربيتها الأولى. ونحن نعرف تأثم الإسبرطي الذي لم يكن يبدأ غزوة قط قبل أن يبلغ البدر تمامه (٢)، ولا ينفك يضحي

---

(١) Tite-Live, V, 23 *Curru albis equis juncto ... Jovis Solisque equis.* Id., X, 7 *Qui Jovis Optimi Maximi ornatu decoratus, curru aurato vectus in Capitolium.* Pline H.N., XXXIII, 7, 36 *Jovis simulacri faciem minio inlini solitum triumphantiumque corpora.* ديونيسيوس ٢: ٣٤؛ ٥: ٤٧؛ أبيانوس: الحروب البونية ٦٦. قارن جوفنال ١٠: ٣٨: *In tunica Jovis.*

(٢) هيرودوت ٦: ١٠٦: وعندما جاء الخبر بنزول الفرس إلى الشاطئ راق للإسبرطيين أن ينجدوا الأثينيين؛ لكنه تعذر عليهم أن ينجدوهم فوراً؛ ولم يريدوا أن ينقضوا القاعدة (τὸν νόμον القاعدة الدينية) وقالوا إنهم لن يبدؤوا الحملة إلا اليوم الذي يتم فيه البدر كماله. ولم يقل المؤرخ إنه كان مجرد تعلل. وعلينا أن نحكم على الناس وفقاً لأفكارهم لا أفكارنا.

بالأضاحي ليعرف ما إذا كان قد حان وقت القتال . ويتنحى عن أخطر الخطط تدبيراً وأكثرها لزوماً لأن نبوءة سيئة تزعجه . ويفترق الأثيني عن الروماني والإسبرطي بألف صفة من صفات الخلق والروح ، لكنه يماثلهم في مخافة الآلهة ، فلا يحتفل جيش أثيني في غزوة قبل اليوم السابع من الشهر ، وعند ما يهم أسطول بالإبحار يعنون كل العناية بإعادة تذهيب أصنام پلاس (Pallas)

يؤكد اكسينوفون أن للأثينيين من الأعياد الدينية أكثر مما لأي شعب إغريقي آخر (١) ويقول أرسطوفانيس(٢) «ما أكثر الأضاحي المقدمة للآلهة ! وما أكثر المعابد ! وما أكثر الأصنام ! وما أكثر المواكب المقدسة ! في كل لحظة من السنة نرى ولائم دينية وأضاحي متوجة» . ويقول أفلاطون «نحن الذين نقدم أكثر القرابين عدداً ونعمل للآلهة أكثر المواكب بهاء وقدسية»(٣) وتكتسي بلدة أثينا وضيعها بالمعابد والمحاريب . فمنها ما هو لعبادة المدينة ومنها ما هو لعبادة القبائل والأحياء demes ومنها ما هو لعبادة الأسرة . وكل بيت هو ذاته معبد ، ويكاد كل حقل أن يكون فيه قبر مقدس .

والأثيني الذي يتصورونه مفرطاً في التقلب والأهواء والتحلل في الفكر يشعر ، على العكس ، باحترام فريد للسنن القديمة والشعائر القديمة ، وديانته الرئيسية التي تنال من لدنه أشد أنواع الحماس الديني هي ديانة الأسلاف والأبطال ، إنه يعبد الموتى ويخشاهم ويرغمه أحد قوانينه بأن يقدم لهم كل عام بواكير محصوله ، ويحرم عليه قانون آخر أن يتلفظ بكلمة واحدة من شأنها أن تثير نقمتهم (٤) وكل ما يمس العصور العتيقة مقدس عند الأثيني ، وعنده

(١) اكسينوفون : الجمهورية الأثينية ٣ : ٢ . يقول سوفوكليس إن أثينا هي أتقى المدن «أوديبوس في كولونا ١٠٠٧» ويلاحظ بوسانياس (١ : ٢٤) أن الأثينيين كانوا أكثر تمسكاً من الشعوب الأخرى في عمق بعبادة الآلهة .

(٢) أرسطوفانيس : السحاب ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٣) أفلاطون : ألقيبيادس ٢ ص ١٤٨

(٤) بلوتارخوس : صولون ٢١

مجموعات قديمة دونت فيها شعائرها ولا يتحول عنها قط (١) ومن أدخل كاهن أول تجديد في العبادة فإنه يعاقب بالموت. وترعى أشد الشعائر غرابة من قرن إلى قرن. ففي يوم معين من السنة يقدم الأثيني قرباناً تمجيداً لأريادنه (Ariane) (٢)، وبما أنه يقال إن عشيقة ثيسيوس قد ماتت أثناء الوضع فمن المحتم تمثيل صيحات امرأة تعاني الوضع وحركاتها. ويحتفل بعيد سنوي آخر يسمى أوسخوفوريا (Oschophories) (٣) وهو تمثيلة تحكي صمت العودة ثيسيوس إلى أتيكا. فيتوجون صولجان المنادي لأن منادي ثيسيوس توج صولجانه، ويصيحون صيحة معينة يظنون أن المنادي صاحها، وينظم موكب يرتدي فيه كل فرد الرداء الذي كان يستعمل في عهد ثيسيوس. وهناك يوم آخر كان لا يفوت الأثيني أن يسلق فيه فولاً في قدر ذات شكل معين، وهي شعيرة يتوارى أصلها في زمن عتيق جداً ولم يعودوا يعرفون معناها، لكنهم كانوا يجددونها مع ذلك كل عام (٤).

وللأثيني كما للروماني أيام نحس، ففي تلك الأيام لا يقع زواج ولا يشرع في أي عمل ولا يجتمع مجلس ولا تعقد محاكم. وتخصص اليومان الثامن عشر والتاسع عشر من كل شهر للتطهير. وفي يوم البلينتريا (Plynteries) (٥).

(١) انظر ما يقوله إيسقراط Areopagitique 29-30 عن وفاء الأسلاف للشعائر القديمة. وانظر لسياس: ضد نيقوماخوس ١٩ : Ta ka tôn [illegible] thuein.
ويذكر ديموستينيس أيضاً السنن القديمة الذي يحتم أن تقدم القرابين طبقاً للشعائر القدماء دون أن يحذف منها شيء أو يجدد شيء (ضد نيايرا ٧٥).

(٢) هي في الأسطورة ابنة مينوس ملك جزيرة إقريطش وقد عشقت ثيسيوس وأعطته حبلاً مده في التيه الذي كان بناه أبوها ومنه عرف كيف يخرج من التيه بعد أن قتل الثور المفترس (minotaure) الذي كان يسكن فيه، وقد تركها في جزيرة ناكسوس وأصابها من ذلك حزن في الصحراء — المعرب.

(٣) مكونة من أوسخوس بمعنى غصن وفوريا بمعنى حمل وهو عيد كانوا يحملون فيه أغصان الكروم محملة بعناقيد العنب. — المعرب

(٤) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) ومعناه عيد الغسيل لأنهم كانوا يغسلون فيه أردية الأصنام — المعرب.

وهو أنحس الأيام جميعاً . يضعون الحجاب على صنم المعبودة للمدينة الكبرى(١) . وعلى عكس ذلك يوم البناثينيا Panathenea ، تحمل حجاب الإلهة في موكب عظيم ويحيط به جميع المواطنين بلا تفريق لسن أو مكانة . ويقدم الأثيني قرباناً من أجل المحاصيل ، وقرابين لعودة المطر وعودة الصحو . ويقدم قرابين لشفاء الأمراض وطرد المجاعة والطاعون .

ولأثينا مجموعات وحي القديم ، كما أن لروما كتب السيبيلية . وتطعم في بيت النار (بريتانيون) رجالاً بمثوبة مستقبل (٢) وفي شوارعها نقابل في كل خطوة متكهنين وكهنة ومفسري أحلام (٣) . ويعتقد الأثيني في الفأل فيوقفه العطاس أو طنين الأذن عما شرع فيه (٤) . ولا يبحر في سفينة قط دون أن يستشير الاستخارات (٥) ولا يفوته أن يستوحي طيران الطيور قبل أن يتزوج (٦) ويؤمن بالأقوال السحرية . وإذا مرض وضع تمائم حول عنقه (٧) . ويتفرق جمع الشعب إذا ما أكد أحدهم أنه ظهرت في السماء آية نحس (٨) وإذا اختل شرط لإعلان حرب مثلاً ، وجبت إعادته (٩)

لا يبدأ الأثيني خطبة دون أن يدعو لحظ السعيد أولا (١٠) . وعلى سمر

---

(١) Platon, *Lois*, VII, p 800 "Ἡμέραι μὴ καθαραὶ ἀλλ' ἀποφράδες"
بلوتوخوروس القطعة ٨٣ ، اكسينوفون : الهلينيات ١ : ٤ : ١٢ .

(٢) أرسطوفانيس : السلم ١٠٨٤ .

(٣) توكيديدس ٢ : ٨ . ويتكلم أفلاطون أيضاً عن متسولي الكهنة والمتكهنين الذين يحاصرون أبواب الأغنياء (السياسة ٢)

(٤) أرسطوفانيس وشرحه القطعة ٧٠٠ ، أوربيديس : يون ١١٨٩ .

(٥) أرسطوفانيس : الطيور ٥٩٦ .

(٦) أرسطوفانيس : الطيور ٧١٨ ، اكسينوفون : ذكريات ١ : ١ : ٣ «يعتقدون في الكهانة ويستشيرون الطيور والأصوات والعلامات وأحشاء الأضاحي» . ويؤكد الفيلسوف أن سقراط كان يعتقد في الفأل ويوصي بدراية الكهانة (شرحه ١ : ٤ : ٧ ، [illegible]) وكان هو نفسه يعتقد اعتقاداً كبيراً في الخرافة ؛ وكان يؤمن بالأحلام (الأناباسيس ٣ : ١ : ١١ - [illegible]) وكان يستخير أحشاء الأضاحي (شرحه ٤ : ٣) وكان يحيط به المتكهنون (شرحه ٥ : ٦ : ١٦ - ٤ : ٦ : ١٣) . أنظر في الأناباسيس ٣ : ٢ مشهد العطاس .

(٧) أمدنا بلوتارخوس بهذه النقطة التفصيلية أثناء كلامه عن بريكليس نفسه (بلوتارخوس : بريكليس ٣٧ ، نقلا عن ثيوفراسطوس) .

(٨) أرسطوفانيس : الأخارنيون (Acharniens) ١٧١ .

(٩) بلوتارخوس : كميليوس ٢٢ .

(١٠) أرسطوفانيس : الطيور ٤٣٦ .

يؤثر الخطيب أن يبدأ بدعاء للآلهة والأبطال الذين يسكنون الإقليم . ويقودون الشعب بتلاوة الوحي له . ولكي يقوى الخطباء آراءهم كانوا يكررون في كل لحظة : هكذا أمرت الآلهة (١) .

ينتمي نيقياس (Nicias) إلى أسرة كبيرة ثرية . وفي ريعان شبابه قاد وفادة (théorie) إلى مقدس ديلوس : أي أضاحي وفرقة لانشاد مدائح الإله أثناء القربان . وعندما عاد إلى أثينا كرم الآلهة بجزء من ثروته فأهدى تمثالا لأثينا وهيكلاً لديونيسوس وهو تارة هستياتور (hestiateur) (٢) ويتحمل تكاليف الأكلة المقدسة لقبيلته . وتارة مدير فرقة (chorege) ويقوم بمصاريف فرقة للأعياد الدينية . ولا يمضي يوما دون أن يقدم قربانا لإله ما . وله متكهن ملازم لبيته ولا يفارقه ، ويستشيره في الأمور العامة كي يستشيره في مصالحه الخاصة . وعندما عين قائداً قاد حملة ضد قورنثه . وبينما هو عائد منتصر إلى أثينا تبين له أن إثنين من جنوده بقيا من غير دفن على أرض العدو ، فتمسكته وسوسة دينية . وأوقف أسطوله وأرسل منادياً يطلب إلى القورنثيين الإذن بدفن الجثتين ، وبعد ذلك بوقت قصير تناقش الشعب الأثيني في غزوة صقلية . فصعد نيقياس المنبر وأعلن أن كهنته ومتكهنيه يعلنون عن آيات معارضة للغزوة . ومن الحق أنه كان عند ألقيبيادس متكهنون آخرون يرون وحياً على عكس ذلك المعنى . فتردد الشعب ، ثم وفد رجال جاؤوا من مصر . كانوا قد استشاروا الإله «آمون» الذي بدأ يشتهر جداً في ذلك الوقت ، وحضروا بهذا الوحي : سيصرع الأثينيون بهم على كل أهالي سيراقوسه . ومن ذلك ما صمم الشعب على الحرب (٣) .

قاد نيقياس الغزوة بالرغم منه . وقبل أن يسافر قدم قرباناً وفقاً للمألوف واستصحب معه ، كما كان يفعل كل قائد ، جيشاً من المتكهنين والمصحبين وأهل الاستخارات والمنادين . وحمل الأسطول موقده ، ولكل سفينة شارة تمثل إلها ما .

(١) نيكورج : ضد ليوقراطس ١ ، أرسطوفانيس الفرسان ٣٠٠٩٩٩٩٩ ١٧١٠ ، ١١٧٩٤ .

(٢) الهستياتور هو المضيف أو الداعي إلى وليمة . وكان يطلق في أثينا على المواطن المكلف بتنظيم الأكلة المشتركة لقبيلته . (المعرب) .

(٣) بلوتارخوس : نيقياس ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٣ .

لكن نيقياس ضئيل الأمل . لم ينبىء بنصيحة عدد كاف من المعجزات . فقد أتلف بعض العربان تمثالا لبلاس ، وتهشم وحل على مذبح ؛ وكان السفر في أيام البلينتيريا Plyntéries المنحوسة يعلم نيقياس علم اليقين أن هذه الحرب ستكون قاضية عليه وعلى بلاده . حتى كان يرى طوب هذه الحملة جاثماً محزناً على الدوام ؛ يكاد لا يجرؤ قط على بعض إشراف لقتال وهو الذي عرف بأنه جندي مقدام وقائد ماهر كل المهارة .

ليس في الاستطاعة الاستيلاء على سيراقوسه ، وبعد خسائر فادحة كان لا بد من تقرير العودة إلى أثينا . أعد نيقياس أسطوله للعودة وكان البحر لا يزال حراً لكن طرأ خسوف القمر فاستشار متكهنه وأجاب المتكهن أن النبوءة مضادة وأنه لا بد من الانتظار تسعة أيام ثلاث مرات . أطاع نيقياس ، وبقي كل ذلك الوقت بلا عمل ، وهو يقدم لشيء الكثير من القرابين ليهدىء غضب الآلهة . وفي خلال ذلك الوقت أوصد الأعداء مرفأ ودمروا أسطوله . لم يبق إلا التقهقر براً ، وهو أمر مستحيل ولم ينج من أيدي السيراقوسيين لا هو ولا أحد من جنوده

ماذا قال الأثينيون عندما وصلهم خبر النكبة ؟ كانوا يعرفون شجاعة نيقياس الشخصية وثباته العجيب ، ولم ينكروا أيضاً في تأنيبه على اتباعه أوامر الديانة ولم يجدوا إلا شيئاً واحداً يلومونه عليه وهو أنه استصحب متكهناً جاهلا إذ أن المتكهن أخطأ فيما ينبىء عنه خسوف القمر : كان عليه أن يعلم أن القمر الذي يخفي ضياءه هو فأل موفق بالنسبة لجيش يريد أن يتقهقر (١)

---

(١) بلوتارخوس : نيقياس ٢٣ . توكيديديس ٦ و ٧ . ديودوروس ١٢ و ١٣ .

الفصل الثامن عشر

هيمنة الدولة. لم يعرف القدماء الحرية الفردية

أسست المدينة ديانة ونظمت كنيسة. ومن هنا قوتها، ومن هنا أيضاً هيمنتها وسلطانها المطلق الذي كان لها على أعضائها. فلم يكن من المستطاع أن توجد الحرية الفردية في مجتمع قائم على مثل هذه المبادئ. كان المواطن خاضعاً للمدينة في كل شيء وبدون أدنى تحفظ، كان لها بأكمله. وكانت كل من الديانة التي ولدت الدولة، والدولة التي ترعى الديانة، تسند إحداهما الأخرى وهما شيء واحد، وكانت هاتان السلطتان المتحدتان والممتزجتان تؤلفان سلطة تكاد تكون فوق سلطة البشر يجمع لها الروح والجسد على سواء.

لم يكن في الرجل شيء ما مستقل. فكان جسمه للدولة ووقفاً على الدفاع عنها؛ كانت الخدمة العسكرية واجبة عليه في روما حتى السنة السادسة والأربعين من عمره، وفي أثينا واسبرطة طول حياته (1). وكانت ثروته تحت تصرف الدولة دائماً، فإذا احتاجت المدينة للمال فإنها كانت تستطيع أن تأمر النساء بتسليمها جواهرهن، والدائنين أن يتركوا لها ديونهم، ومالكي أشجار الزيتون أن يتنازلوا لها مجاناً عن الزيت الذي عصروه (2).

لم تكن حياة الخاصة بمنجاة من هذه الهيمنة من جانب الدولة. فكان الكثير من المدن الإغريقية يحرم على الإنسان أن يبقى أعزب (3) ولم تكن اسبرطة تقتصر

(1) ثوكيديدس 1: 105؛ بلوتارخوس: فوكيون 24؛ بوسانياس 1: 26؛ اكسينوفون: هيلينيات 6: 4، 16.

(2) أرسطو، الاقتصاديات 2. يذكر المؤلف أمثلة عن بيزانطة وأثينا ولمبساك وهراقليا البونطية وخيوس وكلازوميناي وإفسوس.

(3) Pollux, III, 48 Ἦσαν καὶ ἀγαμίου δίκαι πολλαχοῦ καὶ ὀψιγαμίου καὶ κακογαμίου ἐν Λακεδαίμονι (I, VIII, 40: Γραφὴ ἀγαμίου؛ بلوتارخوس: ليساندروس 30. – في روما تقضي قرارات الرقباء بفرض غرامة على العزب. فاليريوس ماكسيموس 2: 9؛ أولوس جيليوس 1: 6؛ 2: 15. ويقول شيشرون أيضاً (القوانين 3: 3): Censores ... coelibes esse prohibento

على عقاب من لا يتزوج بل كانت تعاقب من يتزوج متأخراً . كان في استطاعة الدولة في أثينا أن تعرض العمل ، وفي اسبرطة البطالة (١) وكانت تباشر استبدادها حتى في أتفه الأمور . فكان القانون في لوكر (Locres) يحرم على الرجال شرب خمر خالصاً . وفي روما وفي ميليتوس وفي مرسيليا كان يحرم ذلك على النساء (٢) وكان من المعتاد بلا استثناء أن تحدد قوانين كل مدينة الملابس؛ فكان تشريع اسبرطة ينظم لباس رأس عند نساء . وتشريع أثينا يحرم عليهن أن يحملن في السفر أكثر من ثلاثة جلابيب (٣) . وكان القانون في رودس يحرم حلق اللحية . ويعاقب في بيزنطة بالغرامة من يحوز موسى ، وبالعكس كان يحتم في اسبرطة حلاقة الشارب (٤)

كانت المدينة حتى في ألا تسمح بأن يكون مواطنوها مشوهين أو ممسوخين ولذا كانت تأمر الوالد الذي يولد له ولد كهذا أن يميته . هذا القانون كان في مجموعة القديمة من قوانين اسبرطة وروما (٥) . ولا ندري إن كان قد وجد في أثينا . وإنما نعرف فقط أن أرسطو وأفلاطون قد دوناه في تشريعاتهما المثالية

في تاريخ اسبرطة شيء أعجب به بلوتارخوس وروسو (Rousseau) إعجاباً كبيراً . عانت اسبرطة هزيمة في ليكترا (Leuctra) وهلك الكثيرون من مواطنيها . وعندما وصل هذا الخبر فرض على أهل الموتى أن يظهروا بين

(١) بلوتارخوس ، ليكورغ ٢٤ ؛ بوليدوكس ٨ ، ٤٢ ؛ ثيوفراسطوس ، [illegible]

(٢) أثينايوس ١٠ : ٣٣ ؛ إيليانوس Elien قصص متنوعة ٢ : ٣٨ ؛ ثيوفراسطوس قطعة ١١٧ .

(٣) فستوس : [illegible] ؛ بوليدوكس ٧ ؛ بلوتارخوس ليكورغ ٩ ، [illegible] ج ٢ ص ٢٢١ ؛ بلوتارخوس : صولون ٢١ .

(٤) أثينايوس ١٣ ؛ بلوتارخوس ؛ [illegible] ؛ بلوتارخوس ، كليومين ٩ . [illegible]

(٥) شيشرون ، القوانين ٣ : ٨ ؛ ديونيسيوس ٢ : ١٥ ؛ بلوتارخوس ، ليكورغ ١٦ .

الجمهور بوجوه مرحة . فكانت الأم التي تعرف أن ابنها نجا من الكارثة وتوشك أن تراه تظهر الحزن وتبكي . والتي كانت تعلم أنها لن ترى ابنها كانت تظهر السرور وتطوف المعابد شاكرة للآلهة . ماذا كانت إذن سلطة الدولة ، هذه السلطة التي كانت تأمر بعكس ما توحي به العواطف الطبيعية ومع ذلك فإنها تطاع !

لم تكن الدولة تقبل أن يكون رجل ما غير مكترث بمصالحها . لم يكن للفيلسوف ، لرجل العلم ، الحق في العيش على حدة . فكان فرضاً عليه أن يصوت في المجمع وأن يكون رجل دولة في دوره . وفي وقت كانت فيه المنازعات كثيرة الحدوث لم يكن القانون الروماني يسمح للمواطن أن يبقى محايداً . بل كان عليه أن يناضل مع هذا الحزب أو ذاك . وكان القانون يحكم على من كان يريد البقاء متنحياً عن الأحزاب ، وأن يبدو هادئاً ، حكماً صارماً وهو الحرمان من حق المدينة (١) .

كانت التربية أبعد بكثير من أن تكون حرة عند الإغريق . بل على العكس ، ما من شيء كانت تتمسك الدولة بالسيادة عليه أكثر من التربية . فلم يكن للوالد في إسبرطة أي حق في تربية ولده . ويلوح أن القانون كان أقل صرامة في أثينا . ومع هذا كانت الدولة تتصرف بحيث تكون التربية مشتركة تحت إشراف أساتذة تختارهم هي . يرينا أرستوفانيس في فقرة بديعة أطفال أثينا ذاهبين إلى مدرستهم ، فهم يسيرون تحت المطر أو الثلج أو الشمس الساطعة في صفوف منتظمة وموزعين حسب أحيائهم ، ويلوح أن هؤلاء الأطفال كانوا يفهمون منذ الآن أنهم يؤدون واجباً دينياً (٢) . كانت الدولة تريد أن تدير التربية هي دون سواها ، ويخبرنا أفلاطون بالباعث على هذا التحكم (٣) . يجب ألا يكون للوالدين الخيار في إرسال أبنائهم أو عدم إرسالهم عند الأساتذة الذين اختارتهم المدينة ، إذ أن الأطفال ليسوا لوالديهم بقدر ما هم للمدينة ،

(١) بلوتارخوس : صولون ٢٠ .
(٢) أرستوفانيس : السحاب ٩٦٠ - ٩٦٥ .
(٣) أفلاطون : القوانين ٧ .

كانت الدولة تعتبر جسم كل مواطن وروحه ملكاً لها، لذلك كانت تريد أن تهيء هذا الجسم وهذه الروح بحيث تستعملهما خير استعمال. فكانت تعلمه الرياضة البدنية لأن جسم الرجل سلاح المدينة. وكان لا بد أن يكون هذا السلاح أشد ما يستطاع قوة وطواعية. وكذلك كانت تعلمه الأغاني الدينية والأناشيد، والرقصات الدينية لأن هذه المعرفة كانت لازمة لحسن القيام بالقرابين وبأعياد المدينة (١)

وكانوا يعترفون للدولة بالحق في الحيلولة دون وجود تعليم حر بجوار تعليمها. أصدرت أثينا يوماً ما قانوناً يحرم تعليم الشبان دون إذن من رجال الدولة، وآخر يحرم تعليم الفلسفة بصفة خاصة (٢).

لم تكن للإنسان الخيرة في عقائده. فقد كان عليه أن يؤمن بديانة المدينة وأن يعنو لها. كان في الاستطاعة بغض آلهة المدينة المجاورة أو احتقارهم. أما المعبودات ذات الصفة العامة الكونية مثل جوبيتر السماوي أو سيبيلا أو جونون فكان للإنسان حراً في أن يؤمن بها أو لا يؤمن. لكن كان يفرض عليه ألا يخطر بباله الشك في أرباب المدينة أو إرختيوس أو ككروپس. فقد كان ذلك إثماً كبيراً يمس الديانة والدولة في آن واحد. وكان على الدولة أن تعاقب على ذلك عقاباً صارماً. لقد أعدم سقراط من أجل هذه الجريمة (٣). وإن حرية الفكر فيما يختص بديانة المدينة كانت مجهولة جهلاً تاماً لدى القدماء. وكان لا بد من الصبر على كل قواعد العادة والمثول

(١) أرسطوفانس: السحاب ٩٦٦ - ٩٦٨. وكذلك في اسبرطه، بلوتارخوس: ليكورغ ٢١.

(٢) اكسنوفون: ذكريات، ١، ٢. ديوجينس لايرتيوس: ثيوفراسطس § 5. لم يدم هذان القانونان زمناً طويلاً، لكن ذلك لا ينقص من دلالتهما على مدى السيطرة العامة التي كانوا يعترفون بها للدولة في مادة التعليم.

(٣) كان أمر الاتهام يتضمن: Ἀδικεῖ Σωκράτης οὓς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς οὐ νομίζων (اكسنوفون، ذكريات، ١، ١). عن الـ γραφὴ ἀσεβείας انظر بلوتارخوس: بريكليس ٣٢؛ مرافعة ليسياس ضد أندوكيديس؛ بوليدوكيس ٨: ٩٠.

في كل المواكب والمشاركة في الأكلة المقدسة. كان التشريع الأثيني يفرض عقاباً على من يمتنع عن الاحتفال بعيد قومي احتفالاً دينياً (١).

فلم يكن القدماء إذن يعرفون حرية الحياة الخاصة، ولا حرية التربية، ولا الحرية الدينية. ولم تكن تحسب الشخصية البشرية إلا كشيء ضئيل جداً أمام هذه السلطة المقدسة التي تكاد تكون إلهية والتي كانوا يسمونها الدولة أو الوطن. فلم يكن للدولة كما في مجتمعنا الحديثة حق العدل نحو المواطنين فحسب، بل كانت تستطيع أن تعاقب من غير ذنب لمجرد أن مصلحتها في خطر. من الموثوق به أن أرستيديس لم يرتكب أية جريمة بل لم ترق إليه شبهة، لكن للمدينة الحق في إخراجه من أرضها لهذا الدافع الوحيد وهو أن أرستيديس قد نال بحكم فضائله نفوذاً قوياً بحيث أصبح في إمكانه أن يكون خطراً إذا شاء. وكانوا يسمون ذلك الأوستراكيسموس (ostracisme). لم يكن هذا النظام خاصاً بأثينا فقد وجد في أرغوس وميغارا وسيراقوسه، ويوحي أرسطو بأنه كان موجوداً في جميع المدن الإغريقية التي كانت فيها حكومة العامة (ديمقراطية) (٢). ولم يكن الأوستراكيسموس عقاباً، بل حيطة تتخذها المدينة قبل المواطن الذي ترتاب في أنه يستطيع أن يضايقها يوماً ما. كان من المستطاع في أثينا أن يتهم شخص وأن يحكم عليه لعدم وطنيته أي لعدم حبه للدولة. فلم يكن هناك ما يحمي حياة الإنسان ما دام الأمر متعلقاً بصالح المدينة. أصدرت روما قانوناً تسمح بمقتضاه بقتل كل شخص في نيته أن يصبح ملكاً (٣). إن الحكمة المشؤومة، وهي أن سلامة الدولة

(١) بوليدوكيس ٨، ٤٦. أولبيانوس: حاشية على ديموستينيس (ضد ميدياس).

(٢) أرسطو: السياسة ٣، ٨، ٢؛ ٥، ٢، ٥. ديودوروس ١١، ٨٧. بلوتارخوس: أرستيديس ١؛ ثيمستوكليس ٢٢. فيلوخوروس طبعة ديدو ص ٣٩٦. شارح أرسطوفانيس الفرسان ٨٥٥.

(٣) بلوتارخوس: بوبليكولا ١٢.

هي القانون الأعلى . قد صيغت في الزمن العتيق (١) . فكانوا يرون أن الحق والعدل والأخلاق كل هذا يجب أن يتنحى أمام صالح الوطن

إنه لضلال قد بين جميع الضلالات البشرية أن يعتقد البعض أن الإنسان في المدن القديمة كان يتمتع بالحرية . لم يكن لديه حتى فكرة عنها . لم يكن يعتقد أن في الاستطاعة وجود حق مقابل المدينة وآلهتها سرى وشيكاً أن الحكومة غيرت شكلها مراراً عديدة . لكن طبيعة الدولة بقيت كما هي تقريباً ولم ينتقص من سيطرتها العامة شيء . كانت الحكومة تسمى حكومة الملكية . أو حكومة الصفوة (أرستوقراطية). أو حكومة العامة (ديموقراطية) على التوالي لكن ما من واحدة من هذه الثورات وهبت الناس الحرية الحقيقية الحرية الفردية وما كانوا يسمونه الحرية إن هو أن يكون للمرء حقوق سياسية، وأن يصوت، وأن يُعيّن رجال الدولة. وحقه في أن يكون أرخوناً . لكن الإنسان لم يكن بذلك أقل عبودية للدولة كان القدماء ، وعلى الأخص الإغريق ، يبالغون دائماً في أهمية المجتمع وحقوقه . ويرجع ذلك بلا ريب إلى الصفة المقدسة والدينية التي خلعها المجتمع على نفسه في الأصل .

---

(١) سيسرون ، القوانين ٣ : ٣ .

الكتاب الرابع
الثورات

الثورات

لم يكن في الاستطاعة أن نتصور شيئاً أصلب بنية من الأسرة في العصور القديمة ، تلك التي كانت تتضمن في ذاتها آلهتها وعبادتها وكاهنها وحاكمها . ولا شيئاً أقوى من هذه المدينة التي كانت هي أيضاً تشمل في ذاتها ديانتها وآلهتها الحامية وكهنوتها المستقل ، والتي كانت تتحكم في روح الإنسان بقدر ما كانت تتحكم في بدنه، والتي كانت أقوى بكثير من دولة اليوم ، فكانت تجمع في شخصها السلطة المزدوجة التي نراها مقسمة في أيامنا هذه بين الدولة والكنيسة . وإن كان هناك مجتمع أنشئ ليبقى فإنما هو ذلك المجتمع ، ومع ذلك فقد عانى بدوره سلسلة ثورات كشأن كل ما هو بشرى .

لا نستطيع أن نقول، بصفة عامة، في أية فترة بدأت هذه الثورات . ومن السهل أن ندرك ، في الواقع ، أن هذه الفترة لم تكن واحدة بالنسبة لمختلف المدن الإغريقية والإيطالية . والمؤكد أنه منذ القرن السابع قبل الميلاد وهذا التنظيم الاجتماعي موضع للنقاش وللهجوم في كل مكان تقريباً . وابتداء من ذلك الوقت لم يكن يتساند إلا في عناد ومزيج من المقاومة والتساهل على درجة متفاوتة من المهارة ، وظل يقاوم هكذا عدة قرون وسط المنازعات المستديمة . ثم اختفى في النهاية .

والأسباب التي أدت إلى دماره يمكن أن تقتصر على اثنين . أحدهما التغيير الذي حدث في الآراء على مر الزمن تبعاً للتطور الطبيعي في العقلية الإنسانية ، والذي محى العقائد العتيقة فانهارت معها البنية الاجتماعية التي أقامتها هذه العقائد ، والتي كانت دون سواها قادرة على تدعيمها ؛ والآخر وجود طبقة من الناس كانت موضوعة خارج نظام المدينة وكانت تتألم من ذلك ومن مصلحتها أن تدمره ، فحاربته حرباً لا هوادة فيها .

وعندما ضعفت العقائد التي تأسس عليها هذا النظام الاجتماعي وأصبحت مصالح سواد الناس متعارضة مع هذا النظام كان من المحتم أن يسقط. وما من مدينة نجت من قانون التبديل هذا. فلم تكن اسبرطة أقدر على النجاة منه من أثينا، ولا روما من بلاد الإغريق. وكما رأينا أن أهالي بلاد الإغريق وإيطاليا كانوا يؤمنون في الأصل ببعض العقائد، وأن نفس السلسلة من الأنظمة امتدت لديهم، فإننا سنرى من الآن أن جميع هذه المدن قد مرت بنفس الانقلابات.

يجب أن ندرس هذا وكيف ابتعد الناس تدريجياً عن هذا النظام العتيق، لا لينحطوا، بل على العكس ليتقدموا نحو نظام اجتماعي أوسع منه وأحسن. إذ أن كل تغيير من تغييراته قد قربهم، تحت مظهر من الفوضى، وفي بعض الأحيان من الاضطراب، من هدف لم يكونوا على علم به.

الفصل الأول

البطارقة والموالى

إننا لم نتكلم حتى الآن عن الطبقات الدنيا ولم يكن بنا أن نتكلم عنها إذ أن المقصود كان وصف النظام البدائي للمدينة ، ولم تكن الطبقات الدنيا شيئاً يؤبه له على الإطلاق في ذلك النظام . فقد تكونت المدينة كما لو لم تكن هذه الطبقات موجودة . وكان في استطاعتنا إذن ، لكي ندرسها ، أن ننتظر إلى أن نصل إلى عصر الثورات .

كان في المدينة القديمة طبقات وفروق واختلاف في الدرجات كما هو الأمر في كل مجتمع بشري . وفي أثينا يعرف التفريق الأصلي بين الـ eupatrides والوضعاء thetes . وفي إسبرطة نجد طبقة الأكفاء وطبقة الأدنياء . وفي أوبيا (Eubée) طبقة الفرسان وطبقة الشعب . وتاريخ روما مليء بالنضال بين البطارقة والسوقة ، وهو نضال نعثر عليه في جميع المدن اليونانية و اللاتينية و الأترسكية . بل في الإمكان أن نلاحظ أنه كلما صعدنا في تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا كلما ظهر التفريق عميقاً والدرجات أكثر وضوحاً ، دليل مؤكد على أن الانقسام لم يتكون على مر الزمن بل إنه كان موجوداً منذ الأصل وإنه كان معاصراً لنشأة المدن .

ومن المهم أن نبحث على أي المبادئ كان يعتمد هذا التقسيم بين الطبقات . وبذلك نستطيع أن نرى بسهولة أكثر على أي الأفكار أو أي الحاجات سينشب القتال ، وبم تطالب الطبقات الدنيا ، وباسم أي المبادئ ستدافع الطبقات العليا عن سلطانها .

رأينا آنفاً أن المدينة نشأت من تحالف الأسرات والقبائل . وقبل اليوم الذي تكونت فيه المدينة كانت الأسرة تحوي في داخلها هذا التفريق بين الطبقات .

والواقع أن الأسرة لم تكن لتتمزق من كانت ، كما كانت ديانة الموقد المنزلية ، غير قابلة للتجزئة . وكان الابن الأكبر دون سواه يخلف والده ويقبض على على الكهنوت وعلى الملك والسلطة وكان إخوته بالنسبة له كما كانوا بالنسبة لوالده . ومن جيل إلى جيل ، ومن ابن أكبر إلى ابن أكبر ، لم يكن هناك على الدوام إلا رئيس واحد للأسرة ، كان يرأس القربان ويتلو الدعاء ويقضي ويحكم وبه وحده يرجع في الأصل لقب pater (أب) ، فإنه لم يكن في الإمكان إذ ذاك تطبيق هذه الكلمة ، التي كانت تدل على السلطة لا على الأبوة ، إلا على رئيس الأسرة فكان أبناؤه وإخوته وخدمه يدعونه جميعاً هكذا

هو هو إذن في صميم تكوين الأسرة أول مبدأ لعدم المساواة كان الأكبر يمتاز فيما يختص بالعادة والإرث وبعد عدة أجيال كان يتكون بالطبع في كل من الأسرات الكبيرة فروع صغرى تضعها الديانة والعرف في مستوى أدنى بالنسبة للفرع الأكبر وتخضع لسلطانه باعتبارها تعيش تحت حمايته

وهذه الأسرة تخدم الايتركوب وبلازموس باوريته . وللأب pater، أو المولى (patron) عليهم السلطة الثلاثية سلطة السيد والقاضي والكاهن كانوا يسمونهم بأسماء تختلف باختلاف الأماكن وأكثرها معرفة هو اسم الموالي Clients والوضعاء (thètes) .

وها هي ذي طبقة ذات أخرى لم يكن الموالي تحت الرئيس الأعلى للأسرة فحسب بل تحت الفروع الصغرى أيضاً والفرق بينه وبينهم أن العضو في فرع أصغر إذا ما صعد في سلسلة أسلافه وصل دائماً إلى pater (أب) أي إلى رئيس أسرة ، إلى واحد من هؤلاء الأجداد الإلهيين الذين تدعوهم الأسرة في أدعيتها وبما أنه ينحدر من pater (أب) فقد كانوا يسمونه في اللاتينية patricius (بطريق) وعلى العكس لا يصل ابن المولى قط ، مهما صعد في سلسلة نسبه ، إلا إلى مولى أو عبد فليس في أجداده pater (أب) ومن هنا لصقت به حالة انحطاط لا يجد منها مخرجاً .

والتفريق بين هاتين الطبقتين من الناس جلي فيما يختص بالمصالح المادية فإن ملك الأسرة بأكمله للرئيس ، بيد أنه يقتسم التمتع به مع الفروع الصغرى ،

بل مع الموالي أيضاً. ولكن بينما للفرع الأصغر، على الأقل، حق مختص على الملك، في حالة ما إذا حدث أن انقرض الفرع الأكبر، فإن المولى لا يستطيع أن يصبح مالكاً إطلاقاً. والأرض التي يزرعها ما هي إلا وديعة لديه وإذا مات عادت للولي. وقد احتفظ القانون الروماني في العصور المتأخرة بأثر من هذه القاعدة القديمة فيما كانوا يسمونه *jus applicationis* (1) بل إن مال المولى ليس له. فالولي هو مالكه الحقيقي ويستطيع أن يضع يده عليه لحاجته الشخصية. ومقتضى هذه القاعدة العتيقة كان القانون الروماني ينص على أنه من واجب المولى أن يقدم بائنة لابنة الولي وأن يدفع عنه الغرامة وأن يقدم فديته أو أن يساهم في تكاليف مناصبه.

والتفريق أجلى من ذلك في الديانة. فإن سيد الأسرة (*pater*) هو الذي يستطيع دون سواه أن يقوم باحتفالات عبادة الأسرة. كان يحضرها الموالي ويقدمون القربان من أجله لكنه لم يكن يقوم بها هو ذاته لنفسه. وبقي المعبود المنزلي وسيطاً على الدوام بل إنه لم يكن يستطيع أن يقوم مقام الأسرة إذا اندثرت. فإذا حدث أن انقرضت هذه الأسرة فإن الموالي لا يواصلون العبادة بل يتفرقون. إذ أن الديانة ليست ميراثاً لهم؛ إنها ليست من دمهم، إنها لم تأت إليهم من أسلافهم الخصوصيين. إنها ديانة مستعارة، لهم حق التمتع بها وليس لهم حق الملك فيها.

ولنذكر أنه تبعاً لرأي الأجيال القديمة كان حق الإنسان في أن يكون له إله وفي الدعاء حقاً وراثياً. فالأدعية المقدسة والشعائر والكلمات الشكلية والترانيم القوية التي تجبر الآلهة على العمل، كل ذلك لم يكن لينتقل إلا مع الدم. فكان من الطبيعي إذن في كل هذه الأسرات العتيقة أن يكون الجزء الحر الصميم، الذي ينحدر حقيقة من السلف الأول، هو الحائز دون سواه للصفة الكهنوتية. فكان للبطارقة أو لنبلاء الامتياز في أن يكونوا كهنة وأن تكون لهم ديانة ملكاً خالصاً لهم. (٢)

---

(١) معناها حق الارتباط أو حق الملازمة وهو الحق الذي بمقتضاه يرث الولي من المولى. — المعرب.

شيشرون: الخطيب، ١ : ٣٩ ؛ أولوس جيليوس ٥ ، ١٣ .

(٢) ديودوروس ، ١ : ٢٨ ، بوليوكس ٨ ، ١١١ ، *Etymologicum magnum* p. 395.

ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١٠ : ٦ – ٨ ؛ ٤ : ٢ ؛ ٦ : ٤١

وهكذا كان التفريق بين الطبقات موجوداً حتى قبل الخروج من حالة الأسرة . كانت للمدينة المرحلة القديمة قد أقامت درجات . فلما تكونت المدينة فيما بعد لم يتبدل شيء من من تكوين الأسرة الداخلي . بل سبق أن بينا أن المدينة لم تكن في الأصل تجمعاً من الأفراد بل جمعاً من الفخاذ والقبائل والأسرات وأن كل من هذه الجماعات قد بقي . في هذا النوع من التحالف . كما كان من قبل . كان رؤساء هذه المجموعات الصغيرة فيما بينهم لكن كل واحد منهم بقي سيداً مطلقاً في المجتمع الصغير الذي كان رئيساً عليه من قبل . ولهذا استبقى القانون الروماني زمناً طويلا تاركاً للأب pater السلطة المطلقة على ذويه وحق محاكمة ذويه . وإذن فقد استمر في المدينة نفس التمييز بين الطبقات الذي وجد في الأسرة

لم تكن المدينة في عصرها الأول سوى اتحاد من رؤساء الأسرات . ولدينا شواهد من عصر لم يكن سواهم يستطيع فيه أن يكون مواطناً ولا نزال نستطيع رؤية أثر من هذه القاعدة في قانون قديم لأثينا يقول إنه لكي يكون الإنسان مواطناً لا بد أن يكون له إله منزلي (١) . يلاحظ أرسطو أنه في الزمن القديم كانت القاعدة في بعض المدن . أن الابن لا يكون مواطناً في حياة الأب . فإذا مات الأب تمتع الابن الأكبر وحده بالحقوق السياسية (٢) . لم يكن القانون إذن يحسب الفروع الصغرى . وبالأولى الموالي . في المدينة . لذلك يضيف أرسطو أن المواطنين الحقيقيين كانوا عندئذ عدداً ضئيلاً جداً

وتكونت الجمعية العمومية . لم يكن مجمع الشيوخ الذي كان يتداول في المصالح العامة للمدينة مكوناً . هو أيضاً . إلا من رؤساء الأسرات patres (الآباء) . ومن المسموح به ألا نصدق شيشرون عندما يقول إن رومولوس أطلق لقب آباء على الشيوخ لكي يدل على عطفهم الأبوي نحو الشعب . فقد كان من

(١) هاربوقراسيون عند لفظ Ζεὺς ἑρκεῖος نقلاً عن هيبريديس (Hypéride) وديمتريوس الفاليري .

(٢) أرسطو ، السياسة ٥ : ٥ : ٣

الطبيعي أن يحمل أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم هذا اللقب لأنهم كانوا رؤساء العشائر (gentes). وفي نفس الوقت الذي كان هؤلاء الرجال مجتمعين يمثلون فيه المدينة بقي كل منهم سيداً مطلقاً في العشيرة gens التي كانت كمملكة صغيرة له. ونرى أيضاً منذ ابتداء روما مجمعاً آخر أكثر عدداً هو مجمع الكوريات لكنه يختلف بعض الاختلاف عن مجمع الآباء (patres). وكانوا هم أيضاً لا يزالون يكونون العنصر الأساسي في هذا المجمع. وربما كان يمثل فيه كل (pater) (أب) محاطاً بأسرته. وكان أقاربه ومواليه أنفسهم حاشية له ودليلاً على قوته. هذا ولم يكن لكل أسرة في هذه المجامع غير صوت واحد (١). ويمكن أن نفرض أن الرئيس كان يأخذ رأي أقربائه بل ومواليه. لكن من المحقق أنه هو الذي كان يصوت. فضلاً عن أن القانون كان يحرم على المولى أن يكون له رأي غير رأي وليه (٢). وإذا كان الموالي ملحقين بالمدينة فربما كان ذلك عن طريق رؤسائهم البطارقة. فكانوا يساهمون في العبادة العامة ويظهرون أمام المحكمة ويدخلون المجمع ولكن في إثر أوليائهم.

يجب ألا نتصور مدينة هذه العصور القديمة كتجمع من رجال يعيشون مختلطين في نطاق سور واحد. فإن المدينة لم تكن في الأزمنة الأولى مكاناً للسكنى قط. وإنما هي المقدس الذي تقيم فيه آلهة الجماعة. وهي الحصن الذي يحميهم والذي يقدسه حضورهم. هي مركز الجمعية ومقر الملك والكهنة والمكان الذي تؤدى فيه العدالة. لكن الناس لا يعيشون فيها. فقد ظل الناس عدة أجيال بعد ذلك، وهم يعيشون خارج المدينة في أسرات منعزلة تقتسم الريف. كل من هذه الأسرات تحتل ناحيتها، حيث توجد مقدساتها المنزلية، وحيث

(١) أولوس جيليوس ١٥ : ٢٧. سنرى أن الولاء قد تبدل فيما بعد، فلن نتكلم هنا إلا عن ولاء القرون الأولى لروما.

(٢) Οὔτε ὅσιον οὔτε θέμις ψῆφον ἐναντίαν φέρειν Denys, II,10

تكون تحت سلطة أبيها pater كمجموعة لاتقبل التجزئة (١). وفي أيام معينة، عندما يكون هناك ما يتعلق بمصالح المدينة أو بلوازم العبادة المشتركة، كان رؤساء الأسرات يتوجهون إلى المدينة ويجتمعون حول الملك إما للمناقشة وإما لشهود القربان. وإذا كان المقصود حرباً جاء كل من هؤلاء الرؤساء تتبعه أسرته وخدمه (*sua manus*)، ويجتمعون حسب الأخويات أو الندوات ويكوّنون جيش المدينة تحت إمرة الملك.

(١) وصف ثوقيديدس (٢ : ١٥ ، ١٦) هذه الأخلاق القديمة التي كانت لاتزال باقية في أتيكا إلى عصره :

Τῇ κατὰ χώραν αὐτονόμῳ οἰκήσει μετεῖχον οἱ Ἀθηναῖοι ἐν τοῖς ἀγροῖς πανοικησίᾳ οἰκήσαντες

إلا فقط عند ابتداء حرب البلوبونيز هجروا *οἰκίας καὶ ἱερὰ ἃ διὰ παντὸς ἦν αὐτοῖς ἐκ τῆς κατὰ τὸ ἀρχαῖον πολιτείας πάτρια*

الفصل الثاني

السوقة (PLEBS)

يجب الآن التنويه بعنصر آخر من عناصر السكان كان في مستوى أقل من مستوى الموالي أنفسهم. وبعد أن كان عاجزاً في الأصل حصل رويداً رويداً على قوة كافية أتاحت له تحطيم النظام الاجتماعي القديم. وهذه الطبقة التي أصبحت أكثر عدداً في روما منها في أية مدينة أخرى كانت تدعى فيها **plebs** (السوقة). يجب التأمل في أصل هذه الطبقة وصفتها لإدراك الدور الذي لعبته في تاريخ المدينة والأسرة عند القدماء.

لم يكن السوقة هم الموالي. فإن مؤرخي العصور القديمة لا يخلطون بين هاتين الطبقتين. يقول تيتوس ليفيوس في موضع ما: «لم تشأ السوقة أن تساهم في انتخاب القناصل، وهكذا انتخب البطارقة ومواليهم القناصل (١)». وفي موضع آخر شكت السوقة من أن البطارقة تسود صوتها في الانتخاب بفضل أصوات مواليهم (٢). ويقرأ في ديونيسيوس الهاليكارناسي: «خرجت السوقة من روما واعتزلت فوق الأكمة المقدسة. وبقي البطارقة في البلدة وحدهم هم ومواليهم». لم تكن هذه السوقة منفصلة عن الموالي انفصالا تاما، بل خارجة مما كانوا يسمونه الشعب الروماني ودلت على الأقل في القرون الأولى كانوا يطلبون من الآلهة، في دعاء قديم كان لا يزال يكرر في عهد الحرب البونية، أن يكونوا عاطفين على الشعب

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤.

(٢) تيتوس ليفيوس ٢ : ٥٦.

(٣) ديونيسيوس ٦ : ٤٦ ؛ ٧ : ١٩ ؛ ١٠ : ٢٧.

وعلى السوقة» (١) . فلم تكن السوقة إذن مشمولة في الشعب في الأصل . كان الشعب يشمل الطارقة ومواليهم ، أما السوقة فكانت خارجة عنه

لم يلق القدماء إلا ضوءاً ضئيلاً على التكوين الأول لهذه السوقة . ومن الحق أن نفترض أن سوادها الأعظم كان يتكون من الأهالي القدماء الذين غلبوا على أمرهم وأخضعوا . بيد أنه يدهش أن نرى في تيتوس ليفيوس الذي كان يعرف الآثار القديمة أن الطارقة لم يكونوا يأخذون على السوقة أنهم من الأهالي المغلوبين على أمرهم بل كانوا يأخذون عليهم أنهم قوم لا دين لهم ولا أسرة . وهذا المأخذ ، الذي لم يكن في موضعه زمن لكينيوس ستولون (Licinius Stolon) ، والذي لم يكن معاصرو تيتوس ليفيوس يكادون يفهمونه ، لا بد أنه يرجع إلى فترة قديمة جداً ويعود بنا إلى الأزمنة الأولى للمدينة

والواقع أننا نلمح في نفس طبيعة الآراء الدينية القديمة أسباباً عدة كانت تدعو إلى تكوين طبقة دنيا . فإن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر بل كانت تولد في أسرة وتبقى حبيسة فيها . كان لابد لكل أسرة من أن تكون لنفسها عقيدتها وآلهتها وعباداتها . لكن كان من الممكن أن يحدث أنه لم يكن في ذهن بعض الأسرات من القوة ما يمكن من خلق معبود لنفسها وإنشاء عبادة واختراع نشيد الدعاء ونغمته . فكانت هذه الأسرات ، لهذا السبب وحده ، في حالة ضعة تجاه الأسرات التي كانت لها ديانة . ولا تستطيع أن تدخل معها في مجتمع . ومن

(١) Tite-Live, XXIX, 27: *Ut ea mihi populo plebique romanae (...) bene verruncent*. Ciceron, pro Murena, I: *Ut ea res mihi magistratuique meo, populo plebique romanae bene atque feliciter eveniat*.
يذكر ماكروبيوس (ساتورنال ١ ، ١٧) وحياً قديماً من الكهنة ماريوس يقول : *praetor qui jus populo plebique dabit*. أما الكتاب القدماء لم يغفلوا دائماً حساب هذا التمييز الجوهري بين الشعب *populus* وبين السوقة *plebs* فهو مثلا سهل فهمه إذا ما لاحظنا أن هذا التمييز لم يعد موجوداً عندما كانوا يكتبون . ففي عصر شيشرون كان قد مضى زمن طويل منذ أصبحت السوقة جزءاً من الشعب لكن الصيغ بقيت كآثار من عهد لم يكن الأهالي مختلطين فيه .

ومن المؤكد أنه حدث أيضاً أن بعض الأسرات التي كانت لها عبادة منزلية قد فقدتها إما عن إهمال وتسيب للشعائر وإما على إثر إحدى تلك الجرائم أو تلك الأدناس التي كانت تحرم على امرئ أن يقترب من موقده أو يواصل عبادته. وأخيراً كان يحدث أن يطرد من الأسرة بعض الموالي، الذين كانوا دائماً على عبادة السيد ولا يعرفون سواها، أو أن يهجروها طواعية. فكان ذلك تنزلاً عن الديانة. ولنضف أيضاً أن الابن المولود من زواج على غير الشعائر كان يعتبر نغلاً كالذي يولد من الزنا، ولا وجود لديانة منزلية بالنسبة له. كل أولئك رجال استبعدوا من الأسرات وموضوعون خارج العبادة يصبحون تحت صفة الرجال الذين لا موقد لهم. فكان وجود سوقة نتيجة لازمة طبيعية لنظام العيش التي تقصي كل ما عداها.

نكاد نجد هذه الطبقة في كل مدن القديمة لكنها منفصلة عن غيرها بحاجز. فقد كانت المدينة الإغريقية مزدوجة، هناك المدينة بمعناها الصحيح، πόλις، التي تقوم عادة على قمة تل، وهي التي أسست طبقاً للشعائر الدينية وتضم معبد المعبودات المدنية. وتحت سفح الأكمة مجموعة من المنازل بنيت بدون حفل ديني ومن غير حائط مقدس، ذلك هو مأوى السوقة التي لم تكن تستطيع أن تسكن المدينة المقدسة.

وفي روما، كان الفرق بين صنفي الأهلين بيّناً. فمدينة البطارقة ومواليهم هي التي أسسها رومولوس حسب الشعائر على هضبة البالاتينوس، ومسكن السوقة هو الملجأ (Asylum) وهو عبارة عن حظيرة واقعة على سفح أكمة الكابيتوليوم، وهو الذي قبل فيه الملك الأول القوم الذين لا دار لهم ولا مكان، ولم يكن في استطاعته أن يدخلهم بلدته. وفيما بعد، عندما وفدت على روما أقوام جديدة من السوقة، غرباء عن ديانة المدينة، أسكنوهم على أكمة الأفنتينوس (Aventinus) أي خارج حرم السور (pomoerium) وخارج المدينة الدينية (١).

(١) أولوس جيليوس ١٣ : ١٤ ؛ سرفيوس سيوس ١ : ٣٣ .

إن كلمة واحدة تميز هؤلاء السوقة : إنهم لا عبدة لهم ، أو على الأقل يأخذ عليهم البطارقة أنه لا ديانة لهم : «ليس لهم أسلاف» . ومعنى ذلك في ذهن خصومهم أنه ليس لهم أسلاف معترف بهم ومقبولون شرعاً ، «ليس لهم آباء» أي أنهم يبحثون عبثاً في سلسلة أجدادهم دون أن يجدوا إطلاقاً رئيساً لأسرة دينية ، pater (أب) «وليست لهم أسرة gentem non habent» أي أنه لم يكن لهم غير الأسرة الطبيعية ؛ أما تلك التي تكونها الديانة وتنظمها ، أي العصبية الحقيقية ، فإنها لم تكن لهم (١)

لم يكن الزواج المقدس موجوداً بالنسبة لهم ، إنهم لا يعرفون شعائره وحيث أنه لا موقد لهم فإن القربان الذي ينشئه الموقد محرم عليهم . لذلك كان يستطيع البطريق ، الذي لم يكن يعرف قراناً نظامياً غير الذي يربط بين الزوج والزوجة بحضور المعبود المنزلي ، أن يقول وهو يتكلم عن السوقة *Connubia promiscua habent more ferarum* (٢)

وحيث أنه لا أسرة لهم فليس لهم سلطة أبوية . من الممكن أن تكون لهم على أطفالهم السلطة التي تعطيها القوة أو العاطفة الطبيعية ، لكن لم تكن لهم تلك السلطة المقدسة التي تخلعها الديانة على الأب .

وحق الملك غير موجود بالنسبة لهم ، إذ كل ملك يجب أن يقره أو أن يقدسه الموقد والقبر والآلهة التخوم ، أي كل عناصر العبادة المنزلية . وإذا حاز السوقة أرضاً فإنه لم تكن لهذه الأرض الصفة المقدسة ، بل هي أرض مبتذلة ولا تعرف التحديد بالتخوم . لكن هل كان في استطاعته ، في الأزمنة الأولى ، حتى أن يحوز أرضاً ؟ نعرف أنه ما من أحد كان يستطيع أن يمارس حق الملك في روما إلا إذا كان مواطناً يقول الفقيه إنه لا يمكن أن يكون الإنسان مالكاً إلا بمقتضى حق الكويريين (Quirites) . لكن السوقة لم يكن يعد في البدء بين الكويريين . وعند نشأة روما كانت الأرض الرومانية (ager romanus) مقسمة

(١) لا يلاحظ وجود العصائب gentes للسوقة إلا في القرون الثلاثة الأخيرة من الجمهورية . وعندئذ أخذت السوقة تتحول فكما حصلت على حقوق البطارقة فإنها اتبعت أيضاً أخلاقهم وتشكلت بأشكالهم .

(٢) معناها : لهم زواج مُختَلَط على طريقة البهائم — المعرب

بين القبائل والبطون والفصائل gentes (١) ، لكن السوقة الذي لم يكن ينتمي لأية واحدة من هذه المجموعات ، لم يكن يدخل في القسمة حتماً . هؤلاء السوقة ، الذين لم تكن لهم ديانة ، لم يكن لهم ما يجعل الإنسان يطبع جزءاً من الأرض بطابعه ويجعله له . معروف أنهم سكنوا الأفنتيوس زمناً طويلاً وبنوا عليه بيوتاً . لكنهم في النهاية لم يحصلوا على امتلاك هذه الأرض إلا بعد ثلاثة قرون وبعد كثير من النضال (٢)

لم يكن للسوقة قانون ولا عدالة ، إذ أن القانون هو قرار من الديانة ، والإجراءات مجموعة من الشعائر . للمولى أن يتمتع بحق المدينة عن طريق وسيطه . أما فيما يختص بالسوقة فإن هذا الحق كان غير موجود . يقول مؤرخ قديم بصراحة أن السادس من ملوك روما هو أول من سن قوانين للسوقة بينما كان للبطارقة قوانينهم منذ زمن بعيد (٣) بل يبدو أن هذه القوانين قد سحبت من السوقة فيما بعد أو أن البطارقة رفضوا أن يقيموا لها حساباً لأنها لم تكن مؤسسة على الديانة . إذ أننا نرى عند المؤرخ المذكور أنه عندما أنشأوا العرفاء كان لا بد من إصدار قانون خاص يحمي حياتهم وحريتهم وقد وضع هذا القانون هكذا : وليس لأحد أن يفكر في ضرب عريف tribunus أو قتله كما يفعل في رجل من السوقة » (٤) فيبدو إذن أنه كان من الحق في ضرب السوقة أو قتله ، أو على الأقل أن هذا الجرم لم تكن يعاقب عليه شرعاً إذ أن مرتكبه نحو رجل كان يعد خارج القانون

لم يكن للسوقة حقوق سياسية . أولاً لم يكونوا مواطنين ولم يكن يستطيع أي واحد منهم أن يكون رجل دولة . ولم تكن في روما مجامع لمدة قرون غير البطون . ولم تكن السوقة تشمل في القرون الثلاثة الأولى من روما

(١) فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٥٥ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٧ .
(٢) ديونيسيوس ١٠ : ٣٢ ؛ انظر تيتوس ليفيوس ٣ : ٣ .
(٣) ديونيسيوس ٤ : ٤٣ .
(٤) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ . وعبارة Ὡς ἕνα τῶν πολλῶν وعبارة οἱ πολλοί (الجماهير) هي العبارة التي يستعملها ديونيسيوس دائماً للدلالة على السوقة

إلا البطارقة ومواليهم . بيد أن السوقة لم تكن تدخل في تكوين الجيش الذي كان موزعاً حسب السوات .

لكن ما يفرق بين السوقة والبطريق تفريقاً حقاً هو أنه لم يكن للسوقة نصيب في ديانة المدينة . فكان من المحال أن يحتل الكهنوت . بل يمكن الاعتقاد أن الدعاء كان محرماً عليه في القرون الأولى وأنه لم يكن في الاستطاعة الكشف له عن الشعائر فقد كانت حاله كما كانت في الهند حيث يجب أن يجهل السودر دائماً الصيغ المقدسة . كان أجنبياً ولذا فقد كان مجرد حضوره يدنس القرابين . إنه مقصى من جانب الآلهة . وبينه وبين البطريق كل البعد الذي تستطيع الديانة أن تضعه بين رجلين . فالسوقة شعب محتقر ومهين . تعيش نفيّ من الدين . نفي من الموقد . نفي من المجتمع . نفي من الأسرة . لا يستطيع البطريق أن يقارن هذه الحياة إلا بحياة البهائم (*more ferarum*) . ملامسة السوقة دنس . وقد سن الرجال العشرة في ألواحهم العشر الأولى أن حرموا الزواج بين الطبقتين لأن هؤلاء الرجال العشرة الأوائل كانوا جميعاً من البطارقة فلم يدر في خلد واحد منهم أن مثل هذا الزواج كان في حيز الإمكان .

نرى كم من الطبقات كانت موضوعة بعضها فوق بعض في العصر البدائي نفسه . ففي القمة كانت سراوات رؤساء الأسرات . أولئك الذين كانت اللغة الرسمية في روما تسميهم الآباء (*patres*) ويسميهم الموالي الملوك (*reges*) وكانت الأوديسة تسميهم *Βασιλεῖς* أو *Ἄνακτες* . وتحت هؤلاء الفروع الصغرى من الأسرات . وأدنى من هؤلاء الموالي . ثم أدنى منهم السوقة . أدنى بكثير ويخرجون عنهم تماماً .

إن الديانة هي التي أحدثت هذه التفرقة بين الطبقات . ففي الزمن الذي كان يعيش فيه أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود معاً في آسيا الوسطى ، كان الابن الأكبر يقوم بالدعاء . ومن هنا جاء تقدم الابن الأكبر في كل شيء . فكان الفرع الأكبر في كل أسرة هو فرع الكهنوت والسيادة . بيد أن الديانة كانت تقدر الفروع الصغرى تقديراً كبيراً فقد كانت عدة

احتفظ المحل يوماً ما بحق الفرح الأكبر المعرض وتفقد العادة كما أنها كانت تقدر الموتى بل تعبدهم أيضاً لأنه كان يشهد الأعمال الدينية لكل الموقة. الذي لم يكن له أي نصيب في العبادة. فقد كانت لا تعده شيئاً على الإطلاق وعلى ذلك استقرت المراتب.

شكل ما من الأشكال الاجتماعية. التي يتصورها الإنسان ويقرها، غير قابل للتبديل. وهذا النظام كان يحمل في ذاته جرثومة المرض والموت، ألا وهي عدم المساواة الذي لا حد له. فقد كان للكثير من الناس مصلحة في القضاء على نظام اجتماعي لم يكن لهم فيه نفع ما.

الفصل الثالث

الثورة الأولى

١ — انتزاع السلطة السياسية من الملوك

قلنا إننا تحققنا أن الملك كان في الأصل رئيس المدينة الديني والكاهن الكبير للموقد العام ، وأنه قد ضم إلى هذه سلطته الكهنوتية السلطة السياسية لأنه كان يبدو طبيعياً أن الرجل الذي يمثل ديانة المدينة يكون في نفس الوقت رئيس المجمع ، والقاضي ، ورئيس الجيش . وطبقاً لهذا المبدأ حدث أن اجتمع في يدي الملك كل ما كان في الدولة من سلطان .

ولكن رؤساء الأسرات الآباء (patres) وفوقهم رؤساء الأخويات والقبائل كانوا يكوّنون بجوار هذا الملك طبقة من السراة (أرستوقراطية) قوية جداً . لم يكن الملك ملكاً لوحده ؛ بل كان كل أب pater ملكاً مثله في عصبيته (gens) ؛ بل إنها كانت عادة عتيقة في روما أن يسمى كل من هؤلاء الأولياء الأقوياء ملكاً ، وفي أثينا كان لكل أخوية ولكل قبيلة رئيسها وبجوار ملك المدينة ملوك القبائل φυλοβασιλεῖς . حيث كانت درجات من الرؤساء ، ولهم جميعاً نفس الاختصاصات ونفس العصمة في نطاق يتفاوت في اتساعه . لم يكن ملك المدينة يمارس سلطته على أهلها كلهم ، فكان داخل الأسرة وجميع الموالي بمنجاة من فعله . وكما أنه لم يكن للملك في العهد الإقطاعي رعية غير بعض أتباع أقوياء فإنه لم يكن لملك المدينة القديمة إمرة إلا على رؤساء القبائل والعصائب (gentes) الذين كان في استطاعة كل واحد منهم أن يكون بمفرده مماثلاً له في القوة ، وإذا اجتمعوا كانوا أقوى منه بكثير . ويمكن أن نعتقد جيداً أنه لم يكن من اليسير عليه أن يفرض طاعته ؛ فكان على الرجال أن يحترموه احتراماً كبيراً لأنه كان

رئيس العبادة وحارس الموقد. ولكن لا ريب أن خضوعهم كان ضئيلاً جداً لضآلة قوته. ولم يبق الحاكمون والمحكومون أمداً طويلاً دون أن يلحظوا أنهم لم يكونوا على اتفاق على القدر الواجب من الطاعة. فقد أراد الملوك أن يكونوا أقوياء وأراد الآباء ألا يكونوا كذلك. فنشب في جميع المدن نزاع بين السراة (الأرستوقراطية) وبين الملوك.

كانت نتيجة النزاع واحدة في كل مكان، إذ غلبت الملكية على أمرها. يجب ألا نغفل أن هذه الملكية البدائية كانت مقدسة. فكان الملك هو الرجل الذي يتلو الدعاء ويقدم القربان، وأخيراً كان هو القادر بمقتضى الحق الموروث على أن يجلب للمدينة حماية الآلهة. فلم يكن في الاستطاعة إذن التفكير في الاستغناء عن ملك. كان لا بد من ملك للديانة. كان لا بد من ملك لسلامة المدينة. لذلك نرى في جميع المدن التي نعرف تاريخها في البدء أنهم لم يمسوا سلطة الملك الكهنوتية وإنما اكتفوا بأن ينتزعوا منه السلطة السياسية. لم تكن هذه الأخيرة إلا كملحق أضافه الملوك لكهنوتهم ولم تكن مقدسة ولا معصومة مثله، فكان في الاستطاعة انتزاعها من الملك دون أن يلحق بالديانة خطر.

حوفظ إذن على الملكية، ولكنها بعد أن جردت من سلطانها لم تعد إلا كهنوتاً. يقول أرسطو: «كان للملوك في الأزمنة الغابرة سلطة مطلقة في السلم والحرب، ولكن بعضهم تخلى فيما بعد عن هذه السلطة من تلقاء نفسه وانتزعت عنوة من الآخرين. ولم يترك لهؤلاء الملوك غير العناية بالقرابين». ويقول بلوتارخوس نفس الشيء: «وحيث أن الملوك بدوا متغطرسين وقساة في إمرتهم فقد انتزع معظم الإغريق السلطة منهم ولم يتركوا لهم غير العناية بالدين»(١). ويتكلم هيرودوت عن بلدة قورينه فيقول: «تركوا لباتوس (Battos) سليل الملوك، ملكية العبادة وحيازة الأراضي المقدسة. لكنهم نزعوا منه كل السلطة التي تمتع بها آباؤه».

(١) أرسطو: السياسة ٣: ٩: ٨. بلوتارخوس. مسائل رومانية ٦٣.

بعد أن اقتصرت هذه الملكية على الوظائف الدينية كما رأينا، استمرت في معظم الأحوال وراثية في الأسرة المقدسة التي وضعت الموقد فيما مضى وبدأت العبادة القومية. وفي عهد الإمبراطورية الرومانية أي بعد هذه الثورة بسبعة قرون أو ثمانية كان لا يزال في إفسوس ومرسيليا وتسبيى (Thespies) أسرات تحتفظ بلقب الملكية القديمة وشاراتها ولا تزال في يدها رئاسة الحفلات الدينية (١). أما في المدن الأخرى فإن الأسرات المقدسة كانت قد انقرضت وأصبحت الملكية انتخابية، وسنوية في العادة.

٢ — تاريخ هذه الثورة في اسبرطه

كان لاسبرطه ملوك على الدوام. بيد أن الثورة التي نتكلم عنها هنا تمت فيها كما تمت في المدن الأخرى.

يبدو أن الملوك الدوريين الأولين حكموا سادة مطلقين. لكن النزاع نشب بين الملوك والسراة (الأرستوقراطية) منذ الجيل الثالث. فكانت هناك سلسلة من النضال لمدة قرنين جعلت من اسبرطة مدينة من أكثر المدن الإغريقية اضطراباً (٢). ومعروف أن ملكاً من هؤلاء الملوك وهو والد ليكورغ مات مصاباً في فتنة داخلية (٣).

لا شيء أكثر غموضاً من تاريخ ليكورغ. فقد بدأ كاتب سيرته القديم بهذه الكلمات: «لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً إلا وهو موضع للجدل». لكن من المؤكد على الأقل أن ليكورغ قد ظهر وسط المنازعات، «في وقت كانت الحكومة تسبح فيه في اضطراب دائم» (٤). والذي يبرز بأجلى وضوح من جميع البيانات التي وصلت إلينا عنه هو أن إصلاحه قد طعن الملكية طعنة لم تقم منها إطلاقاً. يقول أرسطو: «في عهد خاريلاوس (Charilaos) أحلت

(١) استرابون ٤، ١ : ٣ . ديودوروس ٤ : ٢٩ .
(٢) توقيديديس ١ ، ١٨ . هيرودوت ١ : ٦٥ .
(٣) استرابون ٨ : ٥ . بلوتارخوس، ليكورغ ٢ .
(٤) بلوتارخوس : ليكورغ ٥ . انظر شرحه ٨ .

الملكية مكانها للسرة (الأرستوقراطية) . » (١) وقد كان حاريلاوس هذا ملكاً عندما قام ليكورغ بإصلاحه فضلاً عن أن نعرف من بلوتارخوس أن ليكورغ لم يكشف بأعداء المشروع إلا وسط فتنة اضطر أثناءها حاريلاوس خلالها أن يبحث عن ملجأ في معبد . كان ليكورغ فترة ما صاحب الأمر في إلغاء الملكية . ولكنه احترز من ذلك جداً معتبراً الملكية ضرورية والأسرة المالكة مقدسة لكنه تصرف بحيث أصبح الملوك من الآن فصاعداً خاضعين لمجلس الشيوخ في جميع الحكومة وحيث لا يكونون إلا رؤساء هذا المجلس ومنفذين لقراراته . وبعد ذلك بقرن ازداد ضعف الملكية ونزعوا منها هذه السلطة التنفيذية. وكلفوا بها حكاماً سنويين عرفوا باسم الإفور Ephore (٢)

من السهل أن نحكم من الاختصاصات التي منحت للإفورات على ضآلة السلطة التي تركت للملوك . كان الإفورات يقضون في المسائل المدنية بينما كان مجلس الشيوخ يقضي في المسائل الجنائية (٣) . كان الإفورات يعلنون الحرب بناء على إشارة مجلس الشيوخ أو يقررون نصوص معاهدات السلم ، وفي زمن الحرب كان اثنان من الإفورات يراقبان الملك ويرافقانه ، وهما اللذان كانا يحددان خطة الحملة ويديران جميع العمليات (٤) . فماذا يبقى إذن للملوك إذا ما نزع منهم القضاء والعلاقات الخارجية والعمليات الحربية؟

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ١١ ، ٢ طبعة ديدو ص ٥٨٩ . انظر أيضاً نيكولاوس في *Fragments des historiens grecs* coll. Didot t. II p. 21[illegible]

(٢) معنى الكلمة : الحارس ، الملاحظ ، الرقيب ، المراقب .

(٣) أرسطو : السياسة ٣ : ١ ، ٧ .

(٤) كسينوفون : جمهورية اللاقيدمونيين ٨ : ١ ، ١٥ ؛ الهيلينيات ٢ : ٤ ، ٣٦ ؛ ٦ ، ٤ ، ١ . كان الإفورات أيضاً على ما يقوله ... ص ١ : ٨٧ . كانوا يعزلون قواد الجند ، أكسينوفون : جمهورية اللاقيدمونيين ١ ، الهيلينيات ٦ ، ٤ : ١٧ . وكان من حقهم محاكمة القواد وحبسهم في السجن والحكم عليهم بالغرامة . هيرودوت ٩ : ٨٥ ؛ ٨٢ ؛ توقيديدس ١ : ١٣١ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ١٢ ؛ أجيس ١١ ؛ حكم (apophthégmes) اللاقيدمونيين ص ٢٢ . يسمي أرسطو منصب الإفور (السياسة ٢ ، ٦ ، ٤) ἀρχὴ κυρία τῶν μεγίστων . احتفظ الملوك ببعض اختصاصات حربية، ولكن كثيراً ما نرى الإفورات يوجهونهم في غزواتهم أو يستدعونهم إلى سبرطة . الهيلينيات ٢ : ٤ ، ١ ؛ توقيديدس ٥ : ٦٣ ؛ بلوتارخوس : أجيسيلاس ١٠ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، بوسانياس ٢٣)

يبقى لهم للكهونت. يقص هيرودوت امتيازاتهم: «إذا قدمت المدينة قرباناً فإن لهم المكان الأول في الأكلة المقدسة. وهم أول من يقدم له الطعام ويعطون وجبة مضاعفة. وهم أيضاً أول من يريق السوائل. ولهم جلود الأضاحي ويعطونهم لكل واحد منهم ضحية ينحرونها لأبولون مرتين في الشهر» (١) يقول اكسينوفون: «يقوم الملوك بالقرابين العامة ولهم خير نصيب في الأضاحي» وإذا كانوا لا يقضون في المسائل المدنية ولا في المسائل الجنائية فإنه كان يحتفظ لهم على الأقل بالحكم في بعض القضايا التي تتصل بالدين. وفي حالة الحرب يمشي أحد الملكين دائماً على رأس الجيوش ويقدم القرابين كل يوم ويستشير الآيات المنذرة وعلى مشهد من العدو ينحر الأضاحي. وعندما تكون الآيات موافقة يعطي إشارة المعركة، وعند القتال يحيط به المتكهنون الذين يبينون إرادة الآلهة، والعازفون بالمزمار الذين يسمعون الأناشيد المقدسة. يقول الإسبرطيون إن الملك هو صاحب الأمر لأن في يديه الديانة والانتصارات. لكن الإيفورات ورؤساء الحرب (polémarques) هم الذين يديرون كل حركات الجيش (٢).

إنه حق إذن أن نقول إن الملكية في إسبرطة كانت قبل كل شيء كهونة ودينية. فإن نفس الثورة التي قضت على سلطة الملك السياسية في جميع المدن قضت عليها في إسبرطة أيضاً. والسلطة في الحقيقة في يد مجلس الشيوخ الذي يديرها والإيفورات الذين ينفذونها. ويطيع الملوك الإيفورات في كل ما لا يتعلق بالديانة. بذلك استطاع هيرودوت أن يقول إن إسبرطة لا تعرف النظام الملكي، واستطاع أرسطو أن يقول إن حكومة إسبرطة حكومة سراة (أرستوقراطية) (٣).

(١) هيرودوت ٦، ٥٦ – ٥٧؛ اكسينوفون، جمهورية اللاكيدمونيين ١٤؛ أرسطو، سياسة ٣، ٩، ٢: Τὰ πρὸς τοὺς θεοὺς ἀποδέδοται βασιλεῦσι

(٢) اكسينوفون، جمهورية اللاكيدمونيين ١٣، ١٠؛ هيرودوت ٦، ٥٦.

(٣) هيرودوت ٥، ٩٢؛ أرسطو، سياسة ٥، ١٠؛ إيسوقراط، نيكوكليس (Nicocles) ٢٤؛ Plutarque, *De unius in rep. dominatione*, c. 3

٣ - نفس الثورة فى أثينا

رأينا أعلاه ماذا كانت حال الأهلين البدائية في أتيك . كان يقتسم الإقليم عدد معين من الأسرات المستقلة التي لا رابط بينها . وكانت كل واحدة منها تعد مجتمعاً صغيراً يحكمه رئيس وراثي . ثم تجمعت هذه الأسرات . ومن تجمعها نشأت المدينة الأثينية وكانوا ينسبون لثيسيوس (Thésée) أنه أتم العمل العظيم عمل الوحدة الأتيكية . لكن الأثارات تضيف أن ثيسيوس قد حطم كثيراً من المقاومة وهي تصدقها في ذلك من غير عناء . ولم تكن الفئة التي قاومته هي فئة الموالى والفقراء التي كانت موزعة على القرى والفصائل (γένη) . فقد كان أمثل بهؤلاء الناس أن يبتهجوا بتغيير كان من شأنه أن يضع فوق رؤسائهم رئيساً وأن يمنحهم مرجعاً وحماية . أما الذين آلمهم التغيير فهم رؤساء الأسرات ورؤساء القرى والقبائل ، الـ βασιλεῖς والـ φυλοβασιλεῖς . هؤلاء الذين كانت لهم السلطة العليا في عصبيتهم (γένος) أو في قبيلتهم بمقتضى الحق الوراثي . لقد دافعوا جهدهم عن استقلالهم ، ولما ضاع منهم تحسروا عليه

لقد حافظوا على الأقل على كل ما استطاعوا المحافظة عليه من سلطتهم القديمة . فبقى كل منهم الرئيس ذا الطول والحول على قبيلته أو عصبيته (γένος) . لم يستطع ثيسيوس أن يدمر سلطة أقدمي الديانة وحصنتها حصانة لا تمس . بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك . إذ بفحص الأثارات المتعلقة بتلك الفترة نرى لنا أن هؤلاء السادة الأقوياء لم يرضوا بالمشاركة في تكوين مدينة إلا بشرط أن تكون الحكومة تعددية حقيقة وأن يكون لكل منهم نصيبه فيها . حقاً لقد كان هناك ملك أعلى لكن تجرد أن كانت المصالح المشتركة تصبح في كفة ميزان كان يجب استدعاء مجلس الرؤساء ولم يكن يمكن عمل شيء هام إلا بموافقة المجلس الشبيه بمجلس شيوخ

وفي لغة الأجيال التالية ، كانت هذه الأثارات تقول على وجه التقريب : غير ثيسيوس حكومة أثينا فبعد أن كانت ملكية جعلها جمهورية . هكذا يتكلم أرسطو وإيسوقراط وديموستينس وبلوتارخوس . وتحت هذه الصورة ،

التي يشوبها شيء من الاختلاق ، أساس من الصحة. حقاً إن ثيسيوس قد وضع السلطة العليا في يد الشعب ، كما تقول الأثارة . لكن كلمة شعب (demos) التي حافظت عليها الأثارة لم يكن مدلولها في عصر ثيسيوس بالسعة التي أصبحت له في عصر ديموستينيس. فإن هذا الشعب ، وتلك الفئة السياسية ، لم تكن عندئذ سوى طبقة الصراة (الأرستوقراطية) أي مجموع رؤساء الفصائل (γένη) (١)

عندما أنشأ ثيسيوس هذا المجمع لم يكن مجدداً باختياره . هذا تكوين الوحدة الأثينية الكبيرة قد غير أحوال الحكومة بالرغم منه . فقد اجتمع ، في مدينة واحدة ، هؤلاء النبلاء ، الذين بقيت سلطتهم سليمة في الأسرات ، كونوا هيئة قوية لها حقوقها وتستطيع أن تكون لها مصالحها . فأصبح ملك صخرة ككروبس الصغيرة ملكاً على جميع أتيكا . لكنه بعد أن كان ملكاً مطلقاً في ناحيته لم يعد إلا رئيساً للدولة التعددية أي الأول بين أكفائه

لم يلبث أن ثار النزاع بين هؤلاء الصراة وبين الملكية . فقد كان النبلاء يتحسرون على السلطة الملكية الصغيرة التي مارسها كل منهم في بلدته حتى ذلك الحين ، ونسوا أن هؤلاء الكهنة المحاربين قد فقدوا هيبتهم بين أيديهم وادعوا أن سلطة العبادات المحلية قد انتقصت. إذا كان حقاً ، كما يقول توقيديديس ، أن ثيسيوس حاول أن يلغي بيوت الدولة (بريتانيون) فترى فلا عجب أن يكون الشعور الديني قد ثار عليه . ولسنا نستطيع أن نقول كم من نضال عاناه وكم من ثورة أخمدها بالخديعة أو بالقوة . أما الموثوق منه فهو أنه قد غلب في النهاية ، وطرد من أثينا ، ومات في منفى (٢)

لقد تغلب النبلاء إذن ولم يقضوا على الملكية ، لكنهم نصبوا ملكاً من اختيارهم ، مينيستيوس Menesthee ، وبعده ، فقضت أسرة ثيسيوس على الملك من جديد واحتفظت عليه ثلاثة أجيال ثم حلت محلها أسرة أخرى هي أسرة

(١) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٥ ، أرسطو ، قطعة بلوتارخوس : شرحه ؛ إيسوقراط ، هيلين ٣٥ ، ديموستينيس ضد نيايرا ٧٥ . لا ريب أن أسطورة ثيسيوس قد غمرها الرمز ، وعلى الأخص ، روح حكم عامة ديموقراطية)

(٢) بلوتارخوس : ثيسيوس ٣٥ و ٣٦ ، ديودوروس ٤ ، ٦٢

الميلانثيين Melanthides. ولا بد من أن كل تلك الفترة كانت شديدة الاضطراب، لكن ذكرى الحروب الداخلية لم تحفظ له بطريقة جلية.

يتفق موت كودروس Codrus، مع انتصار انتهاء العصر الملكي. وفي هذه المرة أيضاً لم يقضوا على الملكية، إذ أن ديانتهم كانت تحرم ذلك عليهم لكنهم جردوها من سلطتها السياسية. يقول المؤرخ بوسانياس، الذي كان متأخراً جداً عن هذه الحوادث، لكنه كان يرجع عادة للأثريات، إن الملكية قد فقدت عندئذ جزءاً كبيراً من اختصاصاتها وأصبحت تابعة.. ومعنى ذلك بلا ريب أنها أصبحت منذ ذلك الوقت خاضعة لمجلس شيوخ العشيرة. ويتفق المؤرخون المحدثون عن هذه الفترة من تاريخ أثينا من عهد الأراخنة (archontat، ولا يفوتهم أن يقولوا إن الملكية قد ألغيت في ذلك الوقت. وليس ذلك بصحيح كل الصحة. فقد تتابعت ذرية كودروس من أب لابن خلال ثلاثة عشر جيلاً كانوا يقومون بالأراخنة لكن هناك وثائق قديمة تعطيهم أيضاً لقب ملك (١). وقد ذكرنا آنفاً أن هذين اللقبين مترادفان تماماً. فكان لأثينا خلال هذه الفترة الطويلة ملوك وراثيون، لكنهم انتزعت منهم سلطتهم ولم تترك لهم غير وظائفهم الدينية. وهذا ما كان قد حدث في إسبرطة.

وفي نهاية ثلاثة قرون وجد الناس أن هذه الملكية الدينية لا تزال أقوى مما كانوا يريدون فأضعفوها وقرروا ألا يشغل نفس الرجل هذا المنصب الكهنوتي السامي إلا لمدة عشرة أعوام. هذا وقد استمروا في اعتقادهم أن الأسرة الملكية القديمة كانت دون سواها أهلاً لشغل وظائف الأراخنة (٢).

ومر حوالي الأربعين عاماً وهم على هذا الوضع. لكن الأسرة الملكية تدنست ذات يوم بجريمة من الجرائم، فادعوا أنها لن تستطيع القيام بالوظائف

(١) انظر قطع رخام باروس Paros، وقارن بوسانياس ١: ٣: ٣؛ ٤: ٥: ١٠؛ ٧: ٢: ١. أفلاطون، مينكسنس Menexene ص ٢٣٨ هـ. إيليانوس قصص متنوعة ٥، ١٣.

(٢) بوسانياس ٤: ٥: ١٠.

الكهونية (١) . وقرروا أن يحصروا الأراخنة في المستقبل من خارجها وأن يكون هذا المنصب في متناول جميع النبلاء . وبعد ذلك بأربعين سنة أخرى، ولكي يضعفوا هذه الملكية ويقسموها بين عدة أيدٍ ، جعلوها سنوية وقسموها في نفس الوقت إلى منصبين منفصلين . إلى هنا كان الأرخون في نفس الوقت ملكاً ، ففصلوا اللقبين من الآن فصاعداً ، واقتسم مختصات الملكية الدينية القديمة حاكمان ، أحدهما يسمى أرخوناً والآخر ملكاً . فكان من نصيب الأرخون مهمة السهر على دوام الأسرة ، والتصريح بالتبني أو تحريمه ، وتلقي الوصايا ، والحكم فيما يختص بالملكية العقارية ، وهذه كلها أمور تهتم الديانة بها . أما مهمة تقديم القرابين الاحتفالية والحكم في الآثام الدينية فقد احتفظوا بها للملك . وهكذا دام لقب الملك في المدينة مع القرابين والعبادة القومية ، وهو اللقب الذي كان ضرورياً للديانة . وكان الملك والأرخون ، مع رئيس الحرب والثيسموثيت (Thesmothetes) الستة ، يكملون الحكام التسعة السنويين الذين تعودوا أن يسموهم بالأراخنة التسعة من اسم الأول منهم .

حدثت الثورة التي انتزعت من الملكية سلطتها السياسية بأشكال مختلفة في جميع المدن . في أرجوس ضعفت الملكية منذ الجيل الثاني من الملوك الدوريين بحيث لم يتركوا لذرية تيمينوس (Temenos) غير اسم الملك دون أية سلطة ، هذا وقد بقيت هذه الملكية وراثية لعدة قرون (٢) . وفي قوريني جمعت ذرية باتوس الكهنوت والسلطة في يدها أولاً ، ولكن ابتداء من الجيل الرابع لم يتركوا لهم غير الكهنوت (٣) . وفي قورنثه كانت الملكية في البدء تنتقل وراثياً في أسرة الباكخيديين (Bacchiades) ، وكان من أثر الثورة أن أصبحت سنوية

(١) هيراقليديس لمبي في *Fragmenta* ج ، ص ٢٠٨ ؛ نقولا الدمشقي : القطعة ٥١ . سويداس تحت كلمة Ἱππομένης . ديودوروس : قطع الكتاب الثامن

(٢) بوسانياس ٢ : ٩

(٣) هيرودوت ٤ : ١٦١ . ديودوروس ٨ : قطع .

وذلك دون إخراجها من هذه الأسرة التي بقي أعضاؤها حائزين لها كل بمورده لمدة قرن من الزمان (١).

٤ — نفس الثورة في روما

في البدء كانت الملكية في روما كما كانت في بلاد الإغريق. كان الملك هو كاهن المدينة الأكبر. وكان في نفس الوقت القاضي الأعلى، وفي زمن الحرب كان صاحب الإمرة على المواطنين المسلحين. وكان بجواره رؤساء الأسرات، *patres*، الآباء، الذين كانوا يكونون مجلس شيوخ. لم يكن هناك إلا ملك واحد لأن الديانة كانت تنص على وحدة الكهنوت ووحدة الحكومة. لكن كان مفهوماً أنه من واجب هذا الملك أن يستشير رؤساء العائلات المتحالفة في كل أمر هام (٢).

يذكر المؤرخون منذ ذلك العصر مجمعاً للشعب. لكن يجب أن نتساءل ماذا كان يمكن أن يكون عندئذ معنى كلمة شعب *populus*. أي ماذا كانت الهيئة السياسية في عصر الملوك الأوائل. تتفق جميع الشواهد في الدلالة على أن هذا الشعب كان يجتمع في الكوريات (*Curies*). وقد كانت الكوريات هي اجتماع الفصائل (*gentes*). وكل فصيلة (*gens*) تتوجه إليها مجتمعة ولم يكن لها غير صوت واحد. ولنتصور حضور مصطفين حول الأب *pater*. وربما كانوا يُستشارون. وربما كانوا يبدون آراءهم ويساهمون في تكوين الصوت الوحيد الذي تعطيه الفصيلة *gens*. لكن لا يمكن أن يكون لهم رأي غير رأي الأب. فلم يكن مجمع الكوريات هذا سوى المدينة الشريفية مجتمعة في مواجهة الملك.

نرى من هذا أن روما وجدت في نفس الظروف التي طرأت على المدن الأخرى. كان الملك يواجه هيئة من السراة (أرستوقراطية) مكونة تكويناً قوياً جداً وتستمد قوتها من الديانة. فنجد في روما إذن نفس المنازعات التي رأيناها في بلاد الإغريق.

(١) ديودور، ٧؛ هيرودوت ٥، ٩٢؛ بوسانياس ٢، ٣، ٤. كانت فصيلة (gens) [illegible] عضو.
(٢) شيشرون، الجمهورية ٢، ٨.

تاريخ ملوك السبعة هو تاريخ هذا الشجار الطويل . أراد الأول(١) منهم أن يزيد في سلطانه وأن يتخلص من سلطة مجلس الشيوخ . فتحبب للطبقات الدنيا لكن الآباء كانوا يعادونه (٢) فهلك غيلة في اجتماع مجلس الشيوخ

وسرعان ما فكر الأسرة في إلغاء الملكية ومارس الآباء كل بدوره وظائف الملك . حقاً لقد هاجت الطبقات الدنيا فهي لا تريد أن يحكمها رؤساء الفصائل (gentes)، وطالبت بإعادة الملكية(٣) لكن الطبقة تعزّت حين قرروا جعل الملكية انتخابية منذ الآن وقرروا نظم الانتخاب في مهارة تدعو إلى الإعجاب . فمجلس الشيوخ يختار مرشحاً . ومجلس البيوت البطريقي يؤيدهما بالاختيار . وأخيراً . يقول المستخيرون البطارقة ما إذا كان المنتخب الجديد مرضياً عنه من الآلهة .

انتُخب نوما (Numa) طبقاً لهذه القواعد فكان متديناً جداً . كاهناً أكثر منه محارباً . ملاحظاً متحرجاً جداً في جميع شعائر العبادة . فكان بناء على ذلك متمسكاً جداً بالدستور الديني للأسرات والمدينة . كان ملكاً على رغبة البطارقة ومات ميتة هادئة في سريره .

يلوح أن الملكية قد اقتصرت في عهد نوما على الوظائف الدينية كما حدث في المدن الإغريقية ومن المؤكد على الأقل أن سلطة الملك الدينية كانت منفصلة عن سلطة السياسة وأن إحداهما لم تكن تستدعي الأخرى حتماً . يدل على ذلك أنه كان هناك انتخاب مزدوج لم يكن الملك بمقتضى الانتخاب الأول إلا رئيساً دينياً فقط . وإذا أريد أن يضيف السلطة السياسية *imperium* إلى هذه الوظيفة فإن الضرورة كانت تقضي بأن تمنحه له المدينة بمرسوم خاص . ويبرز هذه النقطة جلاء

(١) الملك الأول هو رومولوس مؤسس مدينته . — المعرب

(٢) Tite-Live, I, 15: *Multitudini gratior quam Patribus.*

(٣) Tite-Live, I, 17: *Fremere plebs multiplicatam servitutem, centum pro uno dominos factos; nec ultra nisi regem et ab ipsis creatum videbantur passuri.* Cicéron, *De rep.*, II, 12: *Senatus tentavit ut ipse gereret sine rege rempublicam; populus id non tulit et regem flagitare non destitit.*

مما يقوله لنا شيشرون عن الدستور القديم (١) . وبهذا يكون الكهنوت منفصلا عن السلطة . وكان في الإمكان وضعهما في يد واحدة . لكن كان لا بد لذلك من اجتماع مزدوج للحدث وانتخاب مزدوج

من الموثوق به أن الملك الثالث (٢) جمعهما في شخصه ، فكان له الكهنوت والإمرة . بل إنه كان محاربا أكثر منه كاهنا . ازدرى الديانة التي كانت مصدر قوة السراة وأراد تقاصيها . فتراه يجمع في روما جمهرة من الغرباء على الرغم من المبدأ الديني الذي كان يقصيهم . بل لقد تجاسر على العيش بينهم على أكمة كويليوس (Coelius) ونراه أيضاً يوزع على بعض السوقة بعض الأراضي التي كان إيرادها مخصصاً حتى ذلك الوقت لمواجهة مصروفات القرابين واتهمه البطارقة بإهمال الشعائر بل اتهموه بأنه بدّل فيها وغيّر ، وهو إجراء أشد خطورة . لذلك مات كما مات رومولوس . فقد أرسلت آلهة البطارقة عليه وعلى أولاده صاعقة

ثم عادت هذه الضربة للسلطة لمجلس الشيوخ الذي عين ملكاً من اختياره . تملك أنكوس (Ancus) فلما تملك تصرف كمتحرج وقضى حياته في المعابد ولم يحارب إلا أقل ما كان يستطيع . وكان عزيزاً على البطارقة فمات في سريره .

والملك الخامس هو تركوينيوس (Tar[illegible]) الذي حصل على الملك بالرغم من

(١) Ciceron De rep II 13 Quanquam populus eum curiatis co[illegible] initus regem esse iusserat tamen ipse de suo imperio curiatam legem tulit Cf ibidem II 17 Tullus Hostilius rex creatus, populum de imperio consuluit curiatim II 20 Cunctis populi suffragiis rex est creatus L. Tarquinius isque de suo imperio legem tulit
إذا كان هؤلاء الناس وهم ملوك منتخبون من قبل ، لا يزالون في حاجة إلى اقتراح قانون يمنحهم السلطة imperium فما ذلك إلا لأن السلطان والملك شيئان مختلفان. تجدر ملاحظة أن لفظ (Imperium) لم يكن يدل على الإمرة الحربية دون سواها بل كان يطلق كذلك على السلطة المدنية والسياسية . انظر بصدد هذا المعنى . تيتوس ليفيوس [illegible] شيشرون ، الجمهورية [illegible]
[illegible] تاسيتوس ، حوليات [illegible] ديونيسيوس [illegible]
(٢) الملك الثالث هو توليوس هوستيليوس (Tullus Hostilius) — المعرب

مجلس الشيوخ مستنداً إلى طبقات الدنيا . كان قليل التدين ، شديد الإلحاد . فكان لا بد من معجزة على الأقل لكي يقتنع بعلم المستخيرين وكان عدو الأسرات القديمة حتى الطارقة جدداً ، وبدل ما استطاع فى دستور المدينة الدينى القديم ، وقد مات تركوينيوس عبثة

واستولى الملك السادس على الملك خدعة ؛ بل يبدو أن مجلس الشيوخ لم يعترف به قط ملكاً شرعياً . كان يتملق الطبقات الدنيا . ويوزع عليهم الأراضى متجاهلا المبدأ العتيق فى حق التملك . وقد ذبح سرفيوس على درج مجلس الشيوخ .

اتخذ النزاع بين الملوك والسراة صورة حرب اجتماعية . استمال الملوك الشعب واتخذوا من مولى ولسوقة سنداً . وعارضوا طبقة البطارقة ، التى كانت منضمة تنظيما قوياً . فالطبقات الدنيا التى كانت منذ ذلك الوقت كثيرة العدد فى روما . وعندئذ وجد السراة أنفسهم فى خطر مزدوج ؛ لم يكن أعداؤهم أمام الملكية أسوأ ما هم فيه فكانوا يرون الطبقات التى كانوا يحتقرونها تثور من خلفهم . رأوا قيام السوقة . تلك الطبقة التى لا دين لها ولا موقد وتهدد وترتفع فوق رءوسهم فهاجموهم داخل الأسرة ذاتها ، هذه الأسرة التى أصبح تكوينها وحقها ودينها موضع نقاش وحده الخطر حولها وبذلك فقد كان الملوك فى نظر السراة أعداء ألداء يرمون فى سبيل تزويد سلطتهم إلى هدم نظم الأسرة والمدينة المقدسة .

وقد خلف سرفيوس (Servius) تركوينيوس الثانى ، وقد خيب أمل الشيوخ لدين انتخبوه ، فقد أراد أن يكون السيد de rege dominus exstitit . وقد أضر بطبقة البطارقة بقدر ما استطاع . وأطاح الرؤوس الشامخة . وتحكم دون استشارة الآباء ، وأعلن الحرب وعقد السلم دون أن يطلب موافقتهم وقد لاح أن طبقة البطارقة قد غلبت نهائياً على أمرها

وأخيراً سنحت الفرصة كان تركوينيوس بعيداً عن روما . لم يكن هو وحده ، بل الجيش أيضاً أى القوة التى تسنده وكانت المدينة فى يد البطارقة مؤقتاً وحافظ البلدة ، أى من كانت بيده السلطة المدنية فى غيبة الملك ، واحد من البطارقة وهو لوكريتيوس (Lucretius) ،

ورئيس الفرسان ، أى من بيده السلطة الحربية بعد الملك . وواحد من البطارقة وهو يونيوس Junius (١) . أحد هذين الرجلين الفتية . وكان لهما شركاء آخرون من البطارقة أحد أفراد أسرة فاليريوس Valerius وآخر يدعى تاركوينيوس كولاتينوس Torquin Collatin لم يكن روما مكان الاجتماع بل بلدة كولاتيا Collatie ، الصغيرة التى هى ملك خاص لأحد المتآمرين . هناك أظهروا للشعب جثة امرأة . وقالوا إن هذه المرأة قتلت نفسها عقاباً لنفسها عن جريمة ارتكبها أحد أبناء الملك . ثار شعب كولاتيا ، وانتقلوا إلى روما ، وحدثوا فيها نفس المشهد . فاضطربت الأفكار وخرج أنصار الملك . فضلا عن أن السلطة الشرعية فى روما فى تلك اللحظة كانت فى يد يونيوس ولوكريتيوس

حرص المتآمرون على ألا يجمعوا الشعب ، توجهوا لمجلس الشيوخ ، وقرروا الإعلان أن تاركوينيوس مخلوع وأن السلطة الملكية ملغاة . لكن قرار مجلس الشيوخ يجب أن تؤيده المدينة . وكان لوكريتيوس الحق فى استدعاء المجمع بصفته محافظ المدينة ، فاجتمعت الكوريات (curies) وهى تشاطر المتآمرين الأفكار . وقررت عزل تاركوينيوس وإنشاء قنصلين .

وبعد أن تقررت هذه النقطة الرئيسية تركوا لجمع الفرق المئينية (centuries الغاية بتعيين القناصل . ولكن ألا يجمع هذا المجمع ، الذى يصوت فيه بعض السوقة ، على ما فعله البطارقة فى مجلس الشيوخ وفى الكوريات ؟ لم يكن ذلك فى الإمكان ، إذ أن كل مجمع رومانى كان يرأسه رجل من رجال الدولة يحدد موضوع التصويت وليس فى استطاعة أحد أن يعرض للمناقشة موضوعاً آخر بل هناك ما هو أكثر من ذلك فما من أحد غير الرئيس كان له حق الكلام فى ذلك العصر . فإذا كان الأمر متعلقاً بقانون فإن الفرق المئينية لا تستطيع التصويت إلا بنعم أو بلا . أما إذا كان متعلقاً بانتخاب فإن الرئيس يقدم مرشحين وما كان أحد يستطيع التصويت إلا للمرشحين المقدمين . وفى الحالة التى نحن

---

(١) كانت أسرة يونيا (Junia) هذه أسرة عريقة . ديونيسيوس ٤ : ٦٠ . أما آل يونيوس الذين تقابلهم فى التاريخ فيما بعد فهم سوقة

بصددها كان الرئيس المعين من قبل مجلس الشيوخ هو بوكريبيوس أحد المتآمرين مبيّن أن موضوع التصويت الوحيد هو انتخاب القنصلين. وقدم اسمين للتصويت عليهما الفرق المئينية وهما بوبليوس وتركويبيوس كولاتينوس. وبالضرورة انتخب هذان الرجلان ثم صدق مجلس الشيوخ على الانتخاب. وفي الختام أيّده المستخيرون باسم الآلهة

لم تجر هذه الثورة رغم الجميع في روما فقد تحقق كثير من السوقة بالملك ولازموا مصيره ( ) ويقال هنا أن نظيراً غريباً من السابيين كان رئيساً قوياً لعصبة كثيرة العدد، وهو الرجل الأتوس أتوس كلوسوس Attus Clausus وجد الحكومة الجديدة مصيبة لوجهة نظره حيث جعله يتخذ روما مقراً له

فضلا عن أن ما حدث هو الملكية السياسية فقط. أما الملكية الدينية فكانت مقدسة ولا بد من بقائها لذلك عمدوا بتعيين ملك للكهنة يكون ملكاً للقرابين rex sacrorum. وقد حددوا كل ما يمكن تصوره من الاختصاصات كيلا يبغى هذا الملك الكاهن استغلال مكانة الكرامة التي كانت تمنحها له وظائفه ليستولي على السلطة

( ) ديونيسيوس ٥ : ٢٩ ؛ ٥٣ ، ٥٨ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٥ ؛ بعض جنوس ليفيوس هم انوفانز سكنه يلمح في عدد يعوب ٣ ، ٢ أن سطارقه أجبروا على التنازل عن بعض حقوقهم للسوقة *inservire plebi*

الفصل الرابع

السراة (الأرستقراطية) يحكمون المدينة

تمت نفس الثورة، على صور مختلفة اختلافاً ضعيفاً، في أثينا وإسبرطة وروما وأخيراً في جميع المدن التي نعرف تاريخها. كانت من عمل السراة في كل مكان. وفي كل مكان كانت نتيجتها إزالة الملكية السياسية والإبقاء على الملكية الدينية فأصبحت حكومة المدينة في يد السراة ابتداء من ذلك الوقت. وفترة يختلف طولها اختلافاً بيّناً بالنسبة للبلدان المختلفة.

كان حكم السراة قائماً على المولد وعلى الديانة معاً. والمصدر الذي اشتقت منه هو نفس هذه القواعد التي نلاحظها آنفاً في العادة المنزلية وفي القانون الخاص الملازم للمولد، أي في قانون توريث الموقد، وتمييز الابن الأكبر، وحق الدعاء. وكانت الديانة المنزلية هي سند هؤلاء السراة في الملك المطلق. وكانت تمنحهم حقوقاً تبدو مقدسة. ووفقاً للعقائد القديمة لم يكن يستطيع أن يكون مالكاً للأرض إلا من كانت له عبادة منزلية، ولا يستطيع أن يكون عضواً في المدينة إلا من كان حائزاً في ذاته على الصفة الدينية التي تخلق المواطن، ولم يكن يستطيع أن يكون كاهناً إلا من كان سليلاً لأسرة لها عبادة، ولم يكن يستطيع أن يكون حاكماً إلا من كان له الحق في تقديم القرابين. ويجب على الرجل الذي لم تكن له عبادة وراثية أن يكون موالياً لرجل آخر. وإذا لم يستسلم لذلك كان يتحتم عليه أن يبقى خارج كل مجتمع. بقي الناس أجيالاً طويلة لا يخطر ببالهم أن هذا التفريق حيف كبير، ولم تطرأ لهم فكرة إنشاء المجتمع البشري على قواعد أخرى.

منذ موت كودروس إلى صولون، كانت جميع السلطة في أثينا في يد النبلاء فكانوا وحدهم الكهنة وكانوا وحدهم الأراخنة، وهم وحدهم الذين كانوا

يقومون بالقضاء ويعرفون القوانين التي لم تكن مكتوبة والتي كانوا يتناقلون صيغها المقدسة من أب إلى ابن .

حافظت هذه الأسرات جهد استطاعتها على الصور القديمة للنظام الأبوي لم تكن تعيش مجتمعة في البلدة . واستمرت على العيش في النواحي المختلفة في أتيكا . كل أسرة على ممتلكاتها ، واسعة محاطة بخدمها العديدين . يحكمها رئيسها السيد ، وتؤدي عاداتها الوراثية مستقلة تمام الاستقلال(١) لم تكن المدينة الأثينية خلال أربعة قرون غير تحالف من رؤساء لأسرات الأقوياء هؤلاء ، الذين كانوا يجتمعون في أيام معينة للاحتفال بديانة مركزية أو للسعي وراء المصالح المشتركة

كثيراً ما لوحظ إلى أي حد كان التاريخ صامتاً فيما يختص بهذه الفترة الطويلة من وجود أثينا ومن وجود المدن الإغريقية بصفة عامة . وقد أثار الدهشة أنه لا يكاد يسجل حدثاً واحداً من عصر حكومات السراة . وهو الذي حافظ على ذكرى الكثير منها من عصر الملوك القدماء . ولا ريب أن العلة في ذلك أنه لم يحدث عندئذ إلا النزر اليسير من الأعمال ذات الأهمية العامة . فإن عودة النظام الأبوي قد أوقف الحياة القومية في كل مكان تقريباً . كان الناس يعيشون منفردين ولم يكن لهم إلا القليل من المنافع المشتركة . كان أفق كل منهم هو الرهط الصغير والضيعة الصغيرة التي كان يعيش فيها كسيد أو كخادم

وفي روما أيضاً ، كانت تعيش كل أسرة من أسر الطارقة على ممتلكاتها يحيط بها مواليها وكانوا يقصدون المدينة لأعياد العبادة العامة أو للمجامع وفي خلال السنوات التي تلت طرد الملوك كان سلطان السراة مصمماً . فلم يكن يستطيع القيام بالوظائف الكهنوتية في المدينة غير الطارقة . وكان لا بد من اختيار القناصل والأحبار والساليين saliens والفلامينيين (flamines) والمستخيرين من بين الطبقة المقدسة . وكان الطارقة وحدهم يستطيعون أن يكونوا قناصل ، وهم وحدهم يؤلفون مجلس الشيوخ . وإذا كانوا لم يقضوا على

---

(١) ثوقيديدس ، ٢ ، ١٥ - ١٦ .

مجمع العرف مشبهة centuries في كل مسوقة حق الدخول فيه ومنهم كانوا على الأقل يعتبرون مجمع الشعوب هو المجمع الوحيد الشرعي المقدس. كان العرف شبيهه في العصر حق اسحاب [illegible] [illegible] رأس أنه لم يكن باستطاعتهم [illegible] إلا على الأسماء التي كانت [illegible] متفرقة. فضلا عن أن [illegible] كانت [illegible] من [illegible] و[illegible] والمستجيرين [illegible] كل [illegible] وحدهم يقومون [illegible] ويعرفون [illegible]

لم يدم هذا النظام [illegible] في [illegible] إلا [illegible] من [illegible] على بلاد الإغريق [illegible] كانت [illegible] [illegible] الأوديسة صورة [illegible] في [illegible] من بلاد الإغريق و[illegible] أن [illegible] [illegible] [illegible] كانت [illegible] أسرات كبيرة [illegible] [illegible] وكان عدد كبير من [illegible] الأرض [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كان [illegible] و[illegible] و[illegible] وكان [illegible] على هؤلاء [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] أن [illegible] في [illegible] [illegible] كانوا [illegible] كلمة Basileus [illegible] [illegible] [illegible] و[illegible] في روما حافظوا على عادة إطلاق كلمة rex (٣) على [illegible] [illegible] [illegible] لرؤساء الأسرة هؤلاء [illegible] و[illegible] [illegible] [illegible] كان [illegible] Ithaque [illegible] [illegible] كان [illegible] عدداً كبيراً من هؤلاء ملوك.
وقد كان [illegible] في [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] لم يكن له [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] لأنه كان [illegible] للشعب و[illegible] [illegible] [illegible] Telemaque أن يكون [illegible] على [illegible] [illegible] رؤساء [illegible] [illegible] [illegible] ويأمل [illegible] [illegible] [illegible] لم يكن [illegible] [illegible] له [illegible] و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] السلاح و[illegible] لم [illegible] [illegible] الشاعر أنه كان [illegible] [illegible] [illegible] Phéniciens [illegible]

(١) [illegible] [illegible] [illegible] المعرب
(٢) = [illegible] المعرب
(٣) = [illegible] المعرب

ألكينوس (Alcinoos) هو صاحب السلطة العليا . لكننا نراه يتوجه إلى اجتماع الرؤساء . ويمكن أن نلاحظ أنه لم يكن هو الذي دعا مجلسه بل المجلس هو الذي استدعى الملك . ويصف الشاعر مجمعاً للمدينة أتى قبله وتقدمه أن يكون جامعاً للجمهور فقد اجتمع الرؤساء وحدهم بعد أن دعاهم منادٍ . كان منهم على نحو ما كان يحدث في روما للمجلس المدعو عليه (comitia calata) ، وجلسوا على مقاعد من الحجر ، وتكلم الملك ووصف سامعيه بأنهم ملوك حملة الصولجان .

وفي مدة الشاعر هيسيودوس (Hesiode) أسكرا (Ascra) الحجرية ، عند ضيعة من الناس يسميهم الشاعر الرؤساء أو الملوك وهم الذين يفصلون بين الشعب . كذلك نرى بنداروس صفة من الرؤساء عند الكادميين . ومن ثم نشيد بسلالة الإسبرتيين (Spartes) منحدرة التي يرجع إليها من مولده [illegible] ولا يمكن قراءة بنداروس دون أن نسترعي نظرنا رواج الأسرات التي كانت لا تزال تسود في الإغريق في عصر الحروب الميدية ، وغير من ذلك كم كان هؤلاء الأسراء قويين قبل ذلك بقرن أو بقرنين ، إذ أن أكثر ما تمدح به الشاعر أحدها هو عراقة نسبها . ولا بد أن نطق أن هذا النوع من المديح كان وقد [illegible] قيمة كبيرة وأن مولده كان لا يزال يتوج خير الأسمى . ونرى بنداروس الأسرات الكبيرة التي كانت تتمتع بنفوذ في في كل مدينة فيسمي في مدينة إيجين (Egine) وحدها الميدييين Midylides والثيندريين Theandrides والأوكسينيين Euxenides والبليبسيين Blepsiades والخاريين Chariades والبلخيين Balychides وفي سيرقوسة يشيد بأسرة الياميين Iamides الكهنوتية . وفي أغريجنتوم Agrigente بأسرة الإمنيين (Emmenides) . وهكذا في جميع المدن التي يجد فرصة للكلام عنها .

أما في [illegible] فهي هيئة من [illegible] الذين كانت لهم الحقوق السياسية ، قد بلغت [illegible] إلا من ١٨٠ عضواً . وأما [illegible] فقد وكانوا [illegible] (٢) وقد كان عدد موظفي [illegible] قليل من ذلك [illegible] حتى

(١) [illegible] Iliad [illegible] ٨ [illegible] ٩ ; ٥٠ .
(٢) [illegible] : [illegible] .

لم يكن سوى الفرع الأصغر من الأسرة يملك حقوق سياسية (١) وكذلك كان الأمر زمنا طويلا فى كنيد (Cnide) وإيستروس وهرقلية ومرسيليا. وفى ثيرا (Thera) كانت السلطة كلها فى يد بعض أسرات كانت تعتبر مقدسة وكذلك كان فى أبولونيا(٢) وفى إريترى Erythrées كانت توجد طبقة من الأسرة يسمونها الباسيليين (Basilides)(٣). وفى جزيرة أوبيه Eubée كانت الطبقة ذات السيادة تسمى بالفرسان (٤) وبهذا الصدد يمكن ملاحظة أن الحصان كان عند القدماء أداة للترف كما كان فى القرون الوسطى

لم تعد الملكية موجودة فى قورنثه عندما غادرتها جماعة لتؤسس سيراقوسه لذلك لم تعرف المدينة الجديدة الملكية وحكمتها طبقة أرستقراطية. وكانوا يطلقون على هذه الطبقة اسم الجيومورى géomores أى الملاك. وكانت تتكون من الأسرات التى تقاسمت يوم التأسيس أجزاء الأرض المقدسة حسب جميع الشعائر المألوفة. وقد بقيت هذه الطبقة من الأسرة عدة أجيال سيدة الحكومة المطلقة واحتفظت على لقبها، وهو الملاك، ويلوح أن فى ذلك دلالة على أنه لم يكن للطبقات الدنيا حق ملك الأرض (٥) وقد ظلت طبقة من الأسرة شبيهة بهذه سيدة فى ميليت Milet وساموس زمنا طويلا

(١) أرسطو، السياسة ٥، ٥، ٢.

(٢) أرسطو، السياسة ٣، ٩، ٨؛ ٣، ٨.

(٣) أرسطو، السياسة ٥، ٥، ٤.

(٤) Ἱπποβόται. هيرودوت ٥: ٧٧. بلوتارخوس: بركليس ٢٣. Strabon, X, 1, 8 ... τῶν ... πολιτειῶν ... Aristote Politique, IV, 3 ... Ἐπὶ τῶν ἀρχαίων χρόνων ὅσαις πόλεσιν ἐν τοῖς ἵπποις ἡ δύναμις ἦν ὀλιγαρχίαι ...

(٥) هيرودوت ٧: ١٥٥. ديودوروس ٨: ٥. ديونيسيوس ٦: ٦٢.

الفصل الخامس

الثورة الثانية - تبديل فى كيان الأسرة :

حق البكورة يختفى : العصيلة *gens* تتمزق

لقد غيرت الثورة التى قلبت النظام الملكى الشكل الخارجى للحكومة أكثر مما غيرت كيان المجتمع. ولم تكن من عمل الطبقات الدنيا التى كان من مصلحتها أن تهدم الأنظمة القديمة بل من عمل طبقة الأشراف التى كانت تريد المحافظة عليها. فهى لم تعمل إذن لتغيير نظام الأسرة القديم بل للمحافظة عليه. كثيراً ما استهوت الملوك الشهوة لرفع الطبقات الوضيعة وإضعاف العصائل *gentes*. ولهذا السبب أسقطوا الملوك. فإن الأشراف لم تقم بثورة سياسية إلا لتحول دون ثورة اجتماعية ومنزلية. إنها لم تقبض على السلطة بيديها لمجرد لذة السيادة قدر ما قبضت عليها لكى تدافع عن أنظمتها القديمة، ومبادئها العتيقة، وعبادتها المنزلية، وسلطتها الأبوية، ونظام العصيبة، وأخيراً عن جميع القانون الخاص الذى أقامته الديانة الأولى.

ولذا فقد كان هذا الجهد الكبير العام من جانب الأسرة رداً على خطر داهم لكن يلوح أنه على الرغم من جهودها، ومن انتصارها ذاته، فقد ظل خطر داهماً بدأت الأنظمة القديمة تهوى وأوشكت تغييرات خطيرة أن تتدخل فى تكوين الأسرة الداخلى.

إن نظام العصيبة القديم الذى أسسته ديانة الأسرة لم يحطم يوم انتقل الناس إلى نظام المدينة. إنهم لم يريدوا أو لم يستطيعوا التخلى عنه فوراً. وذلك لتمسك الرؤساء بالاحتفاظ بسلطتهم ولعدم وجود فكرة عند الطبقة الدنيا للتحرر فى الحال. فوفقوا بين نظام العصيبة وبين نظام المدينة. لكنهما كانا فى الواقع نظامين متضادين لا أمل فى التوفيق بينهما إلى الأبد. وكان لا بد لهما من أن يتحاربا

ذات يوم . عندما كانت الأسرة غير قابلة للقسمة وكثيرة العدد كسبت من القوة والاستقلال بحيث لم يكن هناك مفر من شعور سلطة الجماعة بالرغبة فى القضاء عليها ، بل وشدة حاجتها إلى ذلك . فإما أن تزول المدينة وإما أن تتحطم الأسرة بمضى الزمن

يمكن إدراك العشيرة القديمة ، بموقدها الوحيد ، ورئيسها المقدس ، وملكها الذى لا يقبل القسمة ، ما دامت حالة العزلة قائمة وما دام لم يوجد مجتمع آخر سواها . ولكن بمجرد أن اجتمع الناس فى مدينة ضعفت بالضرورة سلطة الرئيس القديم . إذ إنه فى نفس الوقت الذى هو فيه رئيس ذو سيادة فى بيته ، كان أيضاً عضواً فى جماعة ، وبصفته هذه تجبره بعض المصالح العامة على التضحيات ، وتأمره بعض القوانين العامة بالطاعة . وبدأت تنقص مكانته فى نظره ، وفى نظر مرؤوسيه . ومهما يكن نظام هذه الجماعة قائماً على صفة أرستقراطية فإنه لا بد من أن تحسب للضعفاء بعض الحساب . ولو لم يكن ذلك إلا بسبب كثرة عددهم . والأسرة التى تضم عدة فروع ، والتى تتوجه إلى الحرب يتبعها جمهرة من الموالى ، هذه تتمتع بسلطة فى المناقشات العامة أكثر مما للأسرة القليلة العدد ، والفقيرة للأبناء ، والقليلة الجنود . ولم تلبث هذه الطبقات الدنيا أن شعرت بأهميتها وقوتها ، وتولد فيها شعور معين بالشمم والتطلع إلى مصير خير من مصيرها . أضف إلى ذلك المنافسة بين رؤساء الأسرات وهم يتصارعون على النفوذ ويسعى كل منهم إلى إضعاف الآخرين . أضف زيادة على ذلك أنه كان يصبح لديهم تطلع للمناصب المدنية . وفى سبيل حصولهم عليها يسعون إلى كسب شعبية فيهم . وفى سبيل التقدم لها يهملون سيادتهم العائلية الصغيرة أو ينسونها . أحدثت هذه الأسباب حدوث نوعاً من التراخى فى تكوين العشيرة . فمن كانت لهم مصلحة فى المحافظة على هذا التكوين أصبحوا أقل تمسكاً به . ومن كانت لهم مصلحة فى تغييره أصبحوا أكثر جرأة وأشد قوة

فهُجرت تدريجياً قاعدة عدم التجزئة التى صنعت قوة الأسرة العتيقة وحق البكورة الذى كان شرط وحدتها . ولا ريب أنه يجب ألا ننتظر من أى كاتب من الزمن القديم أن يقدم لنا التاريخ المضبوط لهذا التغيير الكبير .

من المحتمل أنه لم يكن له تاريخ لأنه لم يتم في عام من حدث على مر الأيام أولاً في أسرة، ثم في أخرى، وشيئاً فشيئاً فيها جميعاً. ويمكن القول أنه تم دون أن يلحظه أحد.

ويمكن أن نعتقد أيضاً أن الناس لم ينتقلوا طفرة واحدة من عدم قسمة الميراث إلى القسمة المتساوية بين الإخوة. فمن المحتمل أنه كان هناك تدرج بين النظامين وربما جرت الأمور في بلاد الإغريق وفي روما كما جرت في المجتمع الهندي القديم حيث ترك القانون الديني الحرية في إعطاء أبنائه الأصغرين نصيباً من الميراث بعد أن كان ينص على عدم قسمته، ثم إنه بعد أن كان يحتم أن يكون للأكبر نصيب مضاعف على الأقل، سمح بأن تكون القسمة متساوية بل أثنى على التوصية بذلك (١).

ولكن ليس لدينا أي بيان واضح عن ذلك كله. وليست هناك غير نقطة واحدة موثوق بها وهي أن حق البكورة وعدم القسمة كانا القاعدة القديمة، ثم اختفيا فيما بعد.

لم يقع هذا التغيير في وقت واحد ولا على نمط واحد في جميع المدن. ففي بعضها حافظ القانون على عدم قسمة الميراث أمداً طويلاً بعض الشيء. وفي طيبة وفي كورنثه كان لا يزال قائماً في القرن الخامس. أما في أثينا فإنه كان لا يزال يظهر في تشريع صولون بعض التفضيل للابن الأكبر. وهناك مدن لم يختف حق البكورة منها إلا على أثر ثورة. ففي هيراكليا وكنيدا وإستروس (Istros) ومرسيليا اضطرت الفروع الصغرى إلى حمل السلاح لكي تقضي في آن واحد على سلطة الأبوة وحق الابن الأكبر (٢). ومنذ هذه اللحظة أصبحت بعض المدن الإغريقية التي لم تكن تعد حتى ذلك الوقت غير مئة من الرجال يتمتعون بالحقوق السياسية، وقد يحصى منهم خمسمائة أو ستمائة

(١) إن قسمة الميراث هي القاعدة في روما في عصر القرن الخامس، فقد كان قانون الألواح الاثني عشرة يعطي دعوى قسمة الميراث *actio familiae erciscundae*، جايوس، في الموسوعة ... ١٠.

(٢) أرسطو، السياسة، ٥، ٥، ٢ طبعة ديدو، ص ٥٧.

وأصبح كل أعضاء الأسرات الشريفة مواطنين وانفتح أمامهم باب الوصول إلى المناصب ومجلس الشيوخ.

ليس في الإمكان أن نقول في أية فترة حتى انتهت سكورة في روما ومن المحتمل أن الملوك في حومة غضب ... عملوا على ... إلغائه. لكن يبدو ... نظام العصائل gentes ... عند ابتداء الجمهورية مائة وأربعين عضواً جديداً يدخلون مجلس الشيوخ وقد خرجوا كما يقول تيتوس ليفيوس من الصفوف الأولى من فئة الفرسان (١) ونحن على علم بأن الفرق ... الأولى من الفرسان كانت تتكون من الأشراف (٢) ... يكون الذين جاءوا ... في مجلس الشيوخ ... أيضاً ... تيتوس ... يصف ... لها دلالة كبيرة ... من تلك ... بين صنفين من الشيوخ ... الذين كانوا يطلقون عليهم كلمة ... patres والأخرى كانوا يطلقون عليها كلمة conscripti (٣) ... على حد سواء ... الآباء هم رؤساء العصائل ... التي كانت لا تزال باقية ... و conscripti كانوا ... من بين الفروع الصغرى ... العصائل ... كبيرة ... في عمل بروتوس Brutus و ... إلا بشرط الحصول على حقوق مدنية وسياسية وهكذا حصلت ... على ما حصلت عليه ... الطبقة ... في ... وكبيد و...

وإذ فقد ... سكورة ... وتلك ثورة ... تغير ... المجتمع ... إلى gens ... (gens) ... الأولى وتفرقت فروع ... وأصبح ... منذ ذلك الوقت

(١) Tite-Live, II, 1. Primoribus equestris gradus lectis.

(٢) ... Histoire des chevaliers romains, livr., I, ch. 2.

(٣) Tite-Live, II, 1. Qui patres quique conscripti essent. Festus, ed. Müller, p. 41. Conscripti dicebantur qui ex equestri ordine patribus ascribebantur ... patres والـ conscripti. انظر بلوتارخوس: مسائل رومانية ٥٨.

تصبح في مثل هذه المساكن وأصبحت هذه المساكن خاصة واستقلالها *singuli singulas familias inceperunt habere* كما يقول علماء في اللغة اللاتينية تعبير قديم يبدو أنه يرجع إلى ذلك الوقت . فكانوا يقولون *familiam ducere* على انفصال من العشيرة والذهاب ليكون عائلة على حدة . كما كانوا يقولون *ducere coloniam* على ترك عشيرة الأم ليذهب ليؤسس مستعمرة في مكان بعيد منذ ذلك الوقت . أصبح للأخ الذي ينفصل هكذا عن أخيه الأكبر موقده الخاص الذي أشعله من غير شك من موقد مشترك للعشيلة . كما كانت المستعمرة تشعل موقدها من بيت نار (بريتانيون) المدينة الأم . لم تعد العشيرة تعتمد إلا نوعاً من السلطة الدينية بالنسبة للأسرات العديدة التي انفصلت عنها . وكانت لها السيادة على عدد هذه الأسرات . ولم يكن مسموحاً لهذه الأخيرة أن تنسى أنها تفرعت عن هذه العشيلة . واستمرت تحمل اسمها . وفي يوم معين كانت جميع الأسرات حول موقد مشترك لكي تمجد السلف العتيق أو المعبود الحامي . إن هذه استمرت على أن يكون لها رئيس ديني . ومن المحتمل أن الابن الأكبر قد احتفظ بالسيادة في الكهنوت مدة من الزمن طويلاً وراثياً ولكن بعد ذلك تقريباً كانت الأسرات مستقلة

كان هذا التفريق في العشيلة عواقب خطيرة . فقد ضعفت إلى الأبد تلك الأسرة الكهنوتية القديمة التي كونت مجموعة حسنة التوحيد ، شديدة التكوين ، قوية بدرجة فائقة . فهدمت هذه الثورة تغييرات أخرى وعجلت بها بسرعة .

الفصل السادس

الموالى يتحررون

١ – ماذا كان الولاء فى البدء ، وكيف تبدل

ها هى ذى ثورة أخرى لا يمكن تعيين تاريخها ، ولكن من المؤكد أنها غيرت دستور الأسرة والمجتمع ذاته . كانت الأسرة القديمة تشمل صنفين متفاوتين فى الدرجة تحت سلطة رئيس واحد : فى ناحية ، كانت الفروع الصغرى أى الأفراد الأحرار بطبيعتهم ، ومن الناحية الأخرى الخدم أو الموالى ، وهم فى درجة أحط بحكم مولدهم ولكن مشاركتهم فى العبادة المنزلية قربتهم من الرئيس . قد رأينا الطبقة الأولى من هاتين الطبقتين تخرج من حالة الضعة التى كانت عليها ، والطبقة الثانية تتطلع منذ وقت مبكر إلى التحرر . وقد نجحت فى ذلك بمضى الزمن فقد تحولت صفة الموالى وانتهى أمرها بأن اختفت تماماً .

إنه تغيير هائل لم يقصه علينا الكتاب القدماء . وهكذا حدث فى القرون الوسطى . فإن مؤرخى معاصريهم لم يخبرونا كيف تغير شكل الأرياف شيئاً فشيئاً . وفى حياة المجتمعات البشرية عدد لا بأس به من الانقلابات لا نجد تذكرها أية وثيقة . لم يلتفت إليها الكتاب لأنها تمت ببطء ، وبصورة غير محسوسة ، ومن غير نضال ظاهر ، إنها انقلابات عميقة وخفية . كانت تحرك قاع المجتمع البشرى دون أن يطفو شىء منها على سطحه ، وقد ظلت غير ملحوظة حتى من نفس الأجيال التى كانت تعمل فيها . لم يستطع التاريخ أن يدركها إلا بعد أن تمت بزمن كبير ، عندما أخذ يقارن بين فترتين فى حياة شعب ما ، ويلاحظ أن بينهما فروقاً جسيمة بحيث يصبح بديهياً أن ثورة كبيرة قد تمت فى الفترة التى تفصل إحداهما عن الأخرى .

وإذا رجعنا في ذلك إلى الصورة التي رسمها لنا الكتاب عن الولاء القديم في روما وجدنا أنه كانت تكون في الحقيقة نظاماً من أنظمة عصر ذهبي. وأي شيء أكثر إنسانية من ذلك المولى الذي يدافع عن مولاه أمام القضاء، ويعضده بماله إن كان فقيراً، ويقوم على تربية أطفاله؟ وأي شيء أكثر تأثيراً للقلوب كم يحركها ذلك المولى الذي يسند بدوره سيده وقد سقط في هوية البؤس، فيسدد عنه ديونه ويقدم كل ماله ليكون فدية له (١)؟ غير أن هذا الشعور من العاطفة لا وجود له في قوانين الشعوب القديمة. فإن عاطفة مجردة من الغرض والهوى، لم يكن بمقدور هذه القوانين إطلاقاً فيجب أن نتصور لأنفسنا فكرة أخرى عن المولى وعن الولي.

إن أولى ما نعرفه عن المولى أنه لم يكن يستطيع الانفصال عن الولي ولا اختيار ولي آخر، وأنه كان مرتبطاً بأسرة من أب لابن (٢). ولو لم نعرف غير هذا الأمر لكان كافياً لنعتقد أن حالته لم تكن حالة مستساغة. ولنضف إلى ذلك أن المولى لم يكن مالكاً للأرض، فإن الأرض للولي الذي كان أهلاً دون سواه لأن يكون مالكاً باعتباره رئيساً لعبادة منزلية وعضواً أيضاً في مدينة. فإذا كان المولى يزرع الأرض فإنه كان يعمل ذلك باسم السيد ولمنفعته. بل إنه لم يكن يملك الأشياء المنقولة، ولا المال، ولا ما يدخره. والدليل على ذلك أن الولي كان يستطيع أن يسترد منه ذلك كله لكي يدفع ديونه الخاصة أو فديته. فلم يكن له شيء ما خاصاً به. كان على الولي أن يقدم له ما يقوم بأوده هو وأطفاله، لكن كان عليه في مقابل ذلك أن يعمل لسيده. لا يمكن القول إنه كان عبداً بالمعنى الصحيح، لكن كان له سيد يتبعه ويخضع لإرادته في كل شيء. فهو مولى طول حياته وأبناؤه موالٍ من بعده.

هناك أوجه للشبه بين المولى client في العصور القديمة والمولى (serf) في القرون الوسطى. حقاً إن المبدأ الذي كان يقضي عليهما بالطاعة لم يكن واحداً. كان

(١) بلوتارخوس، رومولوس ١٣؛ ديونيسيوس ٢، ٩ - ١٠.

(٢) انظر عن هذه النقطة [illegible] بلوتارخوس في حياة ماريوس ٥. انظر شيشرون: الخطيب ١، ٣٩.

المبدأ. فيما يختص بالموالي في القرون الوسطى، هو حق المالك على الأرض و الإنسان معاً. أما فيما يختص بالموالي القدماء فإن هذا المبدأ كان هو الديانة المنزلية التي كان يرتبط بها تحت سلطة الولي الذى كان كاهنها. وفيما عدا ذلك فإن التبعية واحدة بشكل مبهم. فإن أحدهما مرتبط بوليه كما أن الآخر مرتبط بسيده. ولم يكن في استطاعة المولى القديم أن يترك عصبيته أكثر مما كان في استطاعة مولى القرون الوسطى أن يترك سيده. وكلاهما يبقى خاضعاً للسيد من أب لابن. ونجد فكرة في تيتوس ليفيوس تجعلنا نظن أنه كان محرماً عليه أن يتزوج خارج العصبية كما كان محرماً على موالي القرون الوسطى أن يتزوجوا خارج القرية (١). و موثوق منه أنه لم يكن يستطيع التعاقد على الزواج بدون إذن من وليه. كان في استطاعة الولي أن يسترد الأرض التي يزرعها المولى والمال الذى في حوزته كما أنه كان في استطاعة السيد أن يفعل ذلك مع موالي القرون الوسطى. وإذا مات المولى عاد كل ما كان يستعمله إلى الولي شرعاً كما أن تركة موالي القرون الوسطى كانت تعود إلى السيد.

لم يكن الولي سيداً فحسب بل كان قاضياً. وكان يستطيع أن يحكم على المولى بالإعدام. وهو فوق ذلك رئيس ديني. وهكذا كان المولى خاضعاً لهذه السلطة المادية والمعنوية معاً، تلك التي تستولي على جسمه وروحه معاً. حقاً إن هذه الديانة تفرض واجبات على الولي. لكنها واجبات هو وحده الحكم فيها ولا يؤاخذ إذا ما أهملها. لا يبصر المولى شيئاً يحميه؛ إنه لم يكن مواطناً من تلقاء نفسه. فإذا أراد أن يظهر أمام محكمة المدينة كان من المحتم أن يقوده وليه إليها وأن يتكلم عنه. أيستنجد بالقانون؟ إنه لا يعرف صيغه المقدسة. وإذا كان يعرفها فإن أول قانون بالنسبة له هو ألا يشهد على وليه أو يتكلم ضده. فبدون الولي لا عدالة، وضد الولي لا ملاذ له.

لم يكن المولى في روما وحدها. فقد وجد عند السابين والأتروسك وعند غيره

---

(١) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ١٩ .

جزء من « manus » الخاص بكل رئيس (١) . كان موجوداً فى العصالة الإغريقية كما كان فى عشيرة الإيطاليين حقاً يجب ألا نبحث عنه فى مدن الدورية حيث حتى نفذه عصبة فى وقت مبكر ، وحيث كان المغلوبون مرتبطين بقطعة من الأرض وليس بأسرة سيد . لكنا نجده فى أثينا وفى المدن اليونانية والأيولية تحت اسم ثيس (ثت thet) أو بيلاتيس (Pélate) (٢) ، ما دام نظام الأسرة قائماً فإن هذا الثيس لم يكن جزءاً من المدينة . فهو حبيس فى أسرة لا يستطيع الخروج منها . تحت يد سيد خاص فى ذاته طابع الوالى الرومانى وسلطته

نستطيع أن نرى أنه كانت هناك صلة بين الوالى والمولى منذ زمن مبكر ونستطيع أن نتصور من غير عناء ما كانت عليه الحياة فى هذه الأسرة حيث كانت جميع السلطة لواحد ولم يكن للآخر حق ما . حيث الطاعة التى لا حد فيها ولا أمن معها تجور العصمة التى لا عتق لها . حيث كان لخير السادة شراسته ونزواته وحيث كان لأكثر الخدم استسلاماً أحقاده وتأوهاته وسخائمه . كان أوديسيوس سيداً صالحاً . انظر أى عطف أبوى كان يبديه لإومايوس Eumée وفيلوتيوس (Philoetios . لكنه أعدم خادماً سبه دون أن يعرفه وخادمات سقطن فى السوء بسبب غيابه عنهن . إنه مسؤول أمام المدينة عن موت خطّاب (٣) أما عن موت خدمه فلا يسأله أحد حساباً

فى الحالة المعزلة التى عاشت الأسرة فيها زمناً طويلاً استطاع الولاء أن يتكون وأن يبقى . كانت ديانة المنزل عندئذ لها سلطة عالية تسيطر على النفس . والرجل الذى كان كاهناً تقتضيه الحق لورثى كان يبدو للطبقات الدنيا ككائن مقدس . كان أكثر من إنسان فقد كان الوسيط بين الله والناس . من فمه يخرج الدعاء القوى . الصيغة التى لا تقاوم والتى تجلب عطف المعبود أو غضبه كان لا بد من الاحترام والطاعة كذلك للقوة . كان الإيمان والديانة يأمران بالطاعة فكيف كان يخطر فى خاطر المولى أن يتحرر بعد ذلك ؟ إنه لا يرى أفقاً غير هذه الأسرة

(١) ... سيوس ٥ ، ٤٠ ، ٤ ، ٥ ، ... ٦ ، ٢ .
(٢) هى كلمة تعنى واحد يقوم عائلته أو أجير — المعرب
(٣) الذين تقدموا يخطبون زوجته أثناء غيابه ظناً منهم أنه لن يعود . وتصرفوا فى منزله تصرفاً يخرج عن حدود اللياقة — المعرب

التي يرتبط كل شيء بها . فيها وحدها كان يجد حياة هادئة وغذاء مضموناً ، ولو أن له فيها سيداً إلا أنه واحد فيهم مدافع عنه ، وأخيراً . فيها وحدها يجد موقداً يستطيع الاقتراب منه وآلهة يسمح له بدعائها . فهجر هذه الأسرة معناه وضع نفسه خارج كل نظام اجتماعي وكل حق ، ومعناه فقدان آلهته والتنازل عن حق الدعاء

لكن عندما نشأت المدينة ستتفتح عيون أسرات العملاء أن يرى بعضهم بعضاً ، وأن يتحدثوا وأن يتبادلوا رغباتهم وشكاواهم ، وأن يقارنوا بين السادة المختلفين ، وأن يتطلعوا إلى مصير خير من مصيرهم . ثم بدأت أبصارهم تمتد إلى ما وراء نطاق الأسرة . فرأوا أنه يوجد خارجها مجتمع وقواعد وقوانين ومدائح ومعابد وآلهة . فلم يعد الخروج من الأسرة يعد نكبة عليهم لا علاج لها . اشتدت شهوتهم يوماً فيوماً ، وبدأ الولاء حملاً يزداد ثقلاً ، وكفوا رويداً عن الإيمان بأن سلطة السيد سلطة شرعية مقدسة . ووجدت في نفوسهم عندئذ رغبة ملحة في أن يكونوا أحراراً

لا ريب أن لا نجد في تاريخ أية مدينة ذكرى ثورة عامة قامت بها هذه الطبقة . فإن كانت قد وقعت معارك مسلحة فلا بد أنها قد حصرت وأخفيت بداخل سور كل أسرة . فهناك وحدث لأكثر من جيل ، جهود عنيفة للاستقلال من جانب ، وجهاد لا هوادة فيه من جانب آخر . فجرت لذلك في كل بيت قصة طويلة كثيرة الأشجان ، يستحيل أن نرسم خطوطها اليوم . وإنما يمكن القول بأن جهود هذه الطبقة لم تكن بدون نتيجة . فإن ضرورة لا يمكن تجنبها قد أجبرت السادة بالتدريج على التنازل عن شيء من سلطتهم . فعندما تكف السلطة عن الظهور بمظهر العدل فلا بد من بعض الوقت لكي تكف عن الظهور بمظهر نفسه ثم تبدده . لكن ذلك يحدث بعض زمن وحدث يدفع السيد ، حتى لم يعد يؤمن بأن سلطته شرعية ، دفاعاً شيئاً لو يتنازل عنها ولنضف إلى ذلك أن هذه الطبقة الدنيا كانت نافعة فإن ذراعيها عندما يزرعون الأرض يحفظون ثروة السيد . وعندما

عملاء الإصلاح يكونون قوة وسط ما أصاب الأسرات. فكان من الحكمة إذن إرضاؤهم. وإذن كانت الطبقة تتحد مع الأنساب فتتسامح بالضرورة هذه الطبقة عن بعض الأمور.

يبدو مطلقاً أن حالة العميل قد تحسنت شيئاً فشيئاً. كانوا في الأصل يعيشون في بيت السيد ويزرعون معه منزلاً مشتركاً معاً. ثم عين بعد ذلك خصوصاً لكل واحد منهم نصيباً معيناً من الأرض. ولا بد من أن العميل قد وجد نفسه أكثر سعادة في هذه الحال. لا ريب أنه كان لا يزال يعمل لمصلحة السيد ولم تكن الأرض له، بل الأمثل أنه هو الذي كان للأرض. ليس هذا بالمهم، إنه يزرعها سنوات طوالا بلا انقطاع ويحبها. فقامت بينه وبينها صلة غير تلك التي خلقتها ديانة الملكية بينها وبين سيدها، صلة أخرى هي الصلة التي خلقها العمل، بل الألم ذاته، بين الإنسان الذي يعطي جهده والأرض التي تعطي ثمارها.

ثم صار تقدم آخر. لم يعد يزرع لسيده بل لنفسه فأصبح يسمح له بالمحصول بشرط أن يدفع فريضة ربما كانت في مبدأ الأمر قابلة للتغيير ولكنها أصبحت ثابتة فيما بعد. وهكذا وجد عن طريقها بعض حرية وأصبحت حياته أكثر حرية وأكثر شبهاً بنوع ما بحياة المالك. وكذلك وقد كان الأشراف يخصصون أجزاء من الأرض مزروعة لعملائهم كما لو كانوا أولادهم (١)، ونحن نقرأ في الأوديسة أن بعض السيد العطوف يعطي خادمه منزلاً وأرضاً. ويضيف يومي (Eum) أنه يعطيه زوجة مشتهاة، إلا أن هذا لا يزال غير قادر على الزواج بدون إرادة السيد، وأن السيد هو الذي يختار له صاحبته.

ولكن هذا الحقل الذي يقضي فيه حياته والذي فيه كل جهده وكل متعته، لم يكن حتى الآن ملكاً له. ذلك أن هذا العميل لا يحمل في ذاته الديانة المقدسة التي تجعل الأرض صالحة لأن تكون ملكاً لرجل. والحقل الذي يشغله لا يزال يحمل الحد المقدس، إله التخوم، الذي وضعته أسرة السيد فيما مضى. يشهد هذا الحد المقدس أن الحقل مرتبط بأسرة السيد برباط مقدس ولا يستطيع أن

(١) فستوس تحت كلمة *patres* طبعة ميلر (Müller) ص ٢٤٦

يكون مملوكاً للمولى الحر ملكاً تاماً إطلاقاً؛ في إيطاليا، كان الحقل و[illegible] الذي يشغله الـ *villicus* (١). [illegible] يحوي موقداً ولاراً عائلياً *Lar familiaris*، ولكن هذا الموقد لم يكن للمزارع بل كان للسيد (٢). وكان ذلك إقرارا في [illegible] واحد حق [illegible] في [illegible]، والخضوع الديني من جانب المولى الذي مهما كان بعيداً عن [illegible] فإنه كان لا يزال يتبع عبادته.

ثم [illegible] بعد أن أصبح [illegible] على الأرض، [illegible] وتصبح في ذلك [illegible] في أن [illegible] من هذا الحق. [illegible] أنه [illegible] حتى العمل. [illegible]

[illegible] في بلاد الإغريق [illegible] هذا [illegible] ثم [illegible] [illegible] وقعت في [illegible] [illegible] في القرون [illegible] الأرض ثم [illegible] (tardatines à merci) [illegible] [illegible] وفي [illegible] الفلاحين [illegible].

١٠٢ — إختفاء الولاء من أثينا عمل صولون

يتجلى هذا النوع من الثورات في [illegible] إحياء نظام الفصيلة (γένος) [illegible] كل منها [illegible] [illegible] التي كانت تسميهم [illegible] (١) [illegible] يبدو

بعض أنواع [illegible] villa [illegible] أو [illegible]

(٢) كاتون: الفلاحة ١٤٣، [illegible] Columelle [illegible]

(٣) هذه [illegible] ٥٩٣ ق.م [illegible] ٤٤ [illegible] ديونيسيوس هاليكارناسي [illegible] القدماء في أثينا في الموالي في روما.

أن هذا النظام كان ثقيل الوطأة على الأهلين الأثينيين إذ أنهم حفظوا له ذكرى سيئة. وعلى الشعب نفسه ... حيث بدت له الفترة السابقة كعصر ذهبي، فتهفو على الملوك ... أن نخبر أنه كان في عهد ... سعيداً حراً. وأنه كان يتمتع ... وأن عدم المساواة والألم لم يبدأ إلا منذ سقوط الملوك ... وهنا في ذلك كما حدث كثيراً للشعوب، فقد وضعت الأسرة الشعبية ... في وقت ... أحد الشعب ... نتيجة ... هؤلاء ... نوع من العبودية الذي كان قديماً قدم كيان ... أحسوا في ... الذي شعر الناس فيه لأول مرة بثقل الظلم وفهموا ما هو ... أنه من ... بين الولاء القاسية في القرن السابع. ولكن ما ... كان كل خطئهم: حافظوا على هذه ... كانت الشعوب ... تدمر ... سادة ... كان ... أسلافهم. ومع ذلك فقد كانوا ... أكثر منهم.

يبدو أن ... حتى ... سيادة هذه الطبقة، إذ أن ذلك هو الوقت الذي ... هذه الطبقة على حيازة أجزاء من الأرض بشرط واحد هو أن تدفع ... قيمته ... المحصول ( ). وهكذا كاد هؤلاء الناس أن يتحرروا ... قد أصبح لهم مأوى ولم يعودوا تحت ... يعملون في ... أكبر ويعملون لمصلحتهم

Plutarque, Solon 13. Ἐγεώργουν τοῖς πλουσίοις ἕκτα τῶν ( ) γινομένων τελοῦντες ἑκτημόριοι προσαγορευόμενοι καὶ θῆτες. Pollux, IV, 165. Ἑκτημόριοι δ' οἱ πελάται παρ' Ἀττικοῖς. Idem, VII, 151. Ἐπίμορτος γῆ ἐν Σόλωνι, ἡ ἐπὶ μέρει γεωργουμένη.

ولكن هكذا الطبيعة البشرية . كلما غاض مصير هؤلاء الناس كلما ازدادت مرارة شعورهم مما لا يزالون يلقونه من عدم المساواة ولا ريب فى أن عدم كونهم مواطنين وعدم منحهم أى نصيب فى إدارة المدينة لم يكن ليحرك نفوسهم إلا قليلا . ولكن عدم استطاعتهم أن يكونوا ملاكا للأرض التى عليها يولدون ويموتون كان أكثر إثارة لها . ونضيف أن ما كان محتملا فى ظروفهم حتى كانت سلطة [illegible] حقاً ، فهم كانوا حائزين للأرض حيازة حقيقية . إلا أنه ما من قانون صريح يضمن لهم هذه الحيازة أو الاستقلال [illegible] [illegible] فى [illegible] [illegible] المالك القديم كان يستطيع أن يضع يده من جديد على حقوقه عليها . وإنه [illegible] [illegible] المريضة المسوقة ، أو لأى سبب آخر [illegible] هؤلاء الناس [illegible] من [illegible]

وإذن فقد كانت هناك مسألة خطيرة [illegible] فى أثينا خلال أربعة أو خمسة أجيال متتالية . فلم يكن مستطاعا [illegible] أهل الطبقة [illegible] فى هذا الوضع القلق غير [illegible] مدى [illegible] بأنه [illegible] غير محسوس . وعلى هذا فقد كان بين أمرين إما أن يفقدوا هذا الوضع ولا [illegible] من [illegible] [illegible] هؤلاء القساة وإما أن [illegible] [illegible] تحريرا صريحا فيصعدوا إلى مرتبة ملاك الأرض والرجال الأحرار .

وعكس [illegible] كل ما كان هناك من جهود من جانب [illegible] [illegible] القدم ، ومقاومته من جانب [illegible] [illegible] [illegible] لم يكن حربا داخلية ، [illegible] لم تحفظ خصومات الأثينية ذكرى أى قتال بل كانت حربا منزلية فى كل قرية وفى كل منزل . [illegible] من [illegible] [illegible]

[illegible] أن [illegible] هذه الانقلابات كانت مختلفة تبعا لطبيعة الأرض فى مختلف [illegible] [illegible] فى السهل ، حيث كانت [illegible] [illegible] . وحيث كان [illegible] على الدوام [illegible] [illegible] [illegible] تقريبا على المجموعة الصغيرة التى التى كانت [illegible] على [illegible] [illegible] أهل السهل [illegible] كرى (pediens [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القديم [illegible] أولئك الذين كانوا

يجرون في عيشة شقية بائسة ويسمون الدياكريين diacriens كانوا يضمرون في سويداء قلوبهم حقداً عنيفاً مكبوتاً، ويرددون نقمة على مختلف [illegible] هم أبعد عن المدينة، وأكثر تعوداً على حياة مستقلة، وأكثر جرأة وشجاعة وهؤلاء الرجال هم على الأخص الذين كانوا يستكثرون من أن يروا على حقولهم الحدود المقدسة التي تشهد [illegible]، وأن يشعروا أن أرضهم أمة مستعبدة(١)
أما سكان النواحي المجاورة للبحر، أي البراليين (paraliens) فإن متلاك الأرض أقل إغراء لهم؛ كان منهم البحارة والتجار والصناع، وقد أصبح الكثيرون منهم أثرياء؛ ومع أن [illegible] أصبحت [illegible] ذلك لم يقتسموا مطامع الدياكريين الجامحة، ولم يكن [illegible] لكنه لم يكن منهم [illegible] تكون أحوالهم أكثر ثباتاً وحقوقهم أكثر صيانة

وصولون هو الذي [illegible] في [illegible] الصناعة وعمل [illegible] من [illegible] هذا التشريع [illegible] بالطريقة [illegible] لكن يبدو أنه كان لحركة الأشخاص [illegible] سكان [illegible] الأرض حركة قديمة [illegible] بل يمكن أن يعود [illegible] شخصية، أما بعد فإنه لا يعثر على هذه [illegible] لعدد من الناس ولا نعود نرى المستأجرين [illegible] بالحصة ولا الأرض [illegible] وأصبح [illegible] في [illegible] هذا التغيير أكبر [illegible] لا يمكن أن يقتصر على عهد صولون

حقاً [illegible] كتب [illegible] صولون لم [illegible] أكثر من تعميم التشريع [illegible] من أن [illegible](٢) ولكن يجدر أن ننظر عن قرب فيما يقوله كاتب [illegible] على هذه [illegible] عن تلك الفترة، عن صولون [illegible] في [illegible] كما [illegible] في جميع [illegible] الإغريق [illegible] نعتقد أنه كانت [illegible] عصر

Solon, edition Bach, p. 104, 1[illegible]: *[illegible]* Plutarque (١
Solon, 15: *[illegible]*
٢) فصل أرسطو إصلاح صولون «الإصلاحات» [illegible] تفصيلا واضحا في كتابه «دستور الأثينيين»، ولم يكن المؤلف يعرف هذا الكتاب إلا بالاسم فقط [illegible] أن أوراق [illegible] عثر عليها في مصر، وهي الآن من مخطوطات المتحف البريطاني [illegible]

صولون حركة في الأموال يحتمل معها أن يكون هناك عدد كبير من مقرضين ومقترضين فلا نحكم على هذه العصور بما جرى في العصور التالية . لقد كانت التجارة عندئذ ضئيلة جداً وكانت سندات الديون غير معروفة . ولا بد أن القروض كانت نادرة إلى حد ما . وعلى أي رهن كان يستطيع أن يقترض عليه الرجل الذي لم يكن مالكاً لشيء ما ؟ ليس من المألوف في أي مجتمع أن يقرض الناس أولئك الذين لا يملكون شيئاً . حقاً إنه يقال تصديقاً لمترجمي بلوتارخوس . وليس بلوتارخوس ذاته ، إن المقترض كان يرهن أرضه (1) . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه الأرض كانت ملكاً له فإنه لم يكن يستطيع أن يرهنها ، إذ أن طريقة الرهن لم تكن معروفة في ذلك الوقت . وكانت متناقضة مع طبيعة حق الملكية . هذا يجب أن نرى في هؤلاء المدينين الذين يحدثنا عنهم بلوتارخوس خدم القدماء . وفي ديونهم الفريضة السنوية التي كان يجب أن يدفعوها لسادتهم القدماء . وفي الاسترقاق الذي يجيء بعد إذا لم يدفعوا ما عليهم الولاء الشديد الذي كان يعوقهم من جانبه .

وقد ألغى صولون الفريضة ، أو الأرجح أنه خفض قيمتها إلى قدر يجعل شراءها أمراً هيناً . وأضاف بالنسبة للمستقبل أن عدم السداد لا يؤدي بالرجل إلى الاسترقاق .

بل عمل أكثر من ذلك فبفضله تمكن من استطاعة هؤلاء الموالي القدماء ، بعد أن أصبحوا واضعي اليد على الأرض ، أن يصبحوا ملاكاً إذ أن تحطيم الحدود المقدسة ، تحت المولى القديم ، لا يزال قائماً في حقولهم على الدوام . فكان لا بد من اختفاء

(1) يتكلم بلوتارخوس عن ὅροι في عهد بلوتارخوس ، وحتى قبل في عصر ديموستينس ، كان يوجد ὅροι . وفي عهد صولون كان ὅροι تعني الحد المقدس ، وما كان يستطيع أن يكون إلا terminus أحد أرباب الأسرة وصاحبه . وفي الحقبة التي جاءت بعدها [illegible] ὅροι في الحقل الذي شغله شخص ، [illegible] لكاتبه .

(2) كان الملك لا يزال للأسرة أكثر منه لشخص . ولم يصبح حق الملك حقاً فردياً إلا في عهد [illegible] وعندئذ فقط أمكن استعماله كرهن . ومع ذلك لم يدخل في التشريع الأثيني إلا بفعله بيع الوفاء بشرط الاسترداد .

هذا الشعب بتحرير الزرع وتحرير الأرض. لقد جمعه صولون. ويرى الدليل على هذا الإصلاح الكبير في بعض أبيات لصولون نفسه إذ يقول: «كان عملا غير مأمول وقد قمت به بمعونة الآلهة. وأشهد على ذلك الإلهة الأم، الأرض السوداء، التي انتزعت حدودها في أكثر من موضع. تلك الأرض التي كانت أمة، وقد أصبحت الآن حرة». وبعمله هذا قام صولون بانقلاب هائل. فقد نحى جانباً ديانة الملك القديمة التي كانت تخص الأرض في عدد صغير من الأيدي باسم الإله الثابت الذي لا يتحرك. فنزع الأرض من الديانة ليعطيها للعمل وقد محى مع سلطة النسيب على الأرض سلطته على الرجل. ونستطيع أن نقول في أبياته: «لقد حررت أولئك الذين كانوا محكومين بالاسترقاق القاسي على هذه الأرض ويرتعدون أمام سيدهم».

ومن المحتمل أن يكون ذلك التحرير هو الذي سماه معاصرو صولون باسم σεισάχθεια (نفض الحمل). ثم لاحقاً الأجيال التي تعودت الحرية، ولم تكن تريد أو تستطيع أن تعتقد أن آباءها كانوا مستعبدين، فسرت هذه الكلمة كما لو كانت تدل فقط على إلغاء الديون. لكن فيها معنى يكشف لنا عن ثورة أكبر من ذلك. ويضاف إلى ذلك ذكر هذه الجملة من أرسطو الذي يقول عن صولون دون أن يدخل في رواية عمله: «لقد أوقف استرقاق الشعب» (١).

٣ — تغير الولاء في روما

هذه الحرب بين الموالي والأولياء شغلت كذلك فترة طويلة من تاريخ روما والحق أن تيتوس ليفيوس لا يقول عنها شيئاً إذ ليس من عادته أن يلاحظ عن قرب تغير الأنظمة، فضلاً عن أن حوليات الأحبار والوثائق المشابهة التي استمد منها المؤرخون القدماء الذين قد جمعهم تيتوس ليفيوس لا يمكن أن تقص رواية هذه المنازعات المنزلية.

وهناك على الأقل أمر موثوق منه: كان هناك موالٍ منذ نشأة روما. بل لقد بقيت لنا أدلة دقيقة جداً على التبعية التي فرضها عليهم أولياؤهم. فإذا عثرنا

(١) Aristote, *Politique*. II, 9. 2: *Καὶ δουλεύοντα τὸν δῆμον παῦσαι.*

عن هؤلاء الموالى بعد ذلك بعدة قرون فإننا لا نجلهم . كان الاسم لا يزال موجوداً أما الولاء فلا يكاد ما من شيء يختلف عن موالى العهد الدانى أكثر مما يختلف هؤلاء السوقة من عصر سيميرون الذين كانوا يدعون أنفسهم موالى لرجل ثرى لكى يكون لهم الحق فى حمايته .

هناك من يشبه الموالى القدماء أكثر من هؤلاء وهو المعتق (١) فإن الرجل ، سواء فى نهاية الجمهورية أو فى العصور الأولى للروم ، لم يكن يصبح رجلاً حراً ومواطناً بمجرد خروجه من الرق بل كان يبقى خاضعاً للسيد . كانوا يسمونه فيما مضى مولى والآن يسمونه معتقاً ، فلم يتغير غير الاسم . أما السيد فحتى اسمه لم يتغير ، كانوا يسمونه فيما مضى ولياً (*Patronus*) . ولا زالوا يسمونه كذلك ويبقى المعتق ملازماً للأسرة كما كان المولى فيما مضى . ويحمل اسمها كما كان يحمل المولى القديم وهو تابع لوليه . وليس مديناً له بالجميل فحسب بل خدمة حقيقية بين السيد وحده مدة [illegible] ولاية القضاء على معتقه كما كانت له على مولاه . ويستطيع أن يسترقه جزاء جحود الجميل (٢) وبذلك يذكرنا المعتق بالمولى القديم تماماً ، فليس بينهما غير فرق واحد . كانوا فيما مضى مولى ملتصقاً بالأسرة ، والآن تنتهى حالة المعتق عند الجيل الثانى أو على الأكثر الثالث . لم تختف الولاية إذن ، كان يعطل بالإسناد فى اللحظة التى يترك الاسترقاق فيها . ولكن ما فى الأمر أنه [illegible] وهذا وحده تغيير هائل ، ومن الصعب القول فى أية فترة تم ذلك .

(١) كان المعتق يصبح مولى . [illegible] ديونيسيوس ٤ : ٢٣ .

(٢) [illegible] . فاليريوس ماكسيموس ٥ : ١ ، ٤ . سويتونيوس : كلوديوس ٢٥ . ديوكاسيوس ٥٥ . كان [illegible] هيبريديس (Hyperides) فى هاربوكراتيون [illegible] ἀποστασίου [illegible] Ἀναγκαῖον وقد عدد أفلاطون [illegible] واجبات المعتق . بيد أنه من الواضح مما فيه [illegible] فى عصر أفلاطون .

يمكن جداً تمييز مظاهر الرقى المتتابعة التى أحرزت على مصير المولى وبأى الدرجات وصل إلى حق تملك ... فى الأصل . كان رئيس العصبة يخصص له نصيباً من الأرض يزرعه (١) ثم لم يلبث أن أصبح حائزاً لهذا النصيب مدى الحياة مقابل مساهمته فى جميع المصروفات التى يتحملها سيده القديم . وفى نصوص القانون القديم القاسية ، التى تلزمه بسداد فدية مولاه وبائنة ابنته وغراماته القضائية ، ما يدل على الأقل على أنه كان يستطيع أن يكون له مال مدخر فى الوقت الذى حرر فيه هذا القانون . ثم تقدم المولى خطوة أخرى ، فنال الحق فى أن يترك لابنه ما يملكه عند موته . حقاً إن ماله لا يزال يعود إلى وليه عند انعدام الابن . ولكن هذا تقدم جديد . حصل المولى الذى لا يترك ابناً على حق الوصية . ولسنا نعرف ... . فحيناً يستولى المولى على نصف المال وحيناً تحترم إرادة الموصى احتراماً كاملاً . وعلى كل حال فإن وصيته لم تكن عديمة القيمة دائماً (٢) . وإن كان المولى لا يزال عاجزاً عن الادعاء بأنه مالك فإنه على الأقل تمتع تمتعاً واسعاً على قدر الاستطاعة .

ولا ريب فى أن ذلك لم يكن تحريراً كاملاً . ولكن ما من وثيقة تسمح لنا بأن نحدد العصر الذى انفصل فيه الموالى عن الأسر السابقة انفصالاً نهائياً . هنالك عدة نصوص فى تيتوس ليفيوس (٣) تفيد ، إذا ما أخذت على حرفيتها ، أن الموالى كانوا مواطنين منذ السنوات الأولى من الجمهورية ، وهناك شبهة كبيرة فى أنهم كانوا كذلك فى عصر سرفيوس . وربما كانوا يصوتون فى مجلس الندوات منذ ابتداء روما . لكن لا يمكن أن نستخلص من ذلك أنهم كانوا منذ ذلك الوقت محررين تماماً . إذ أنه من الممكن أن الطارقة قد وجدوا مصلحتهم فى إعطاء مواليهم حقوقاً سياسية وجعلهم يصوتون فى المجالس دون أن يوافقوا مع ذلك على إعطائهم حقوقاً مدنية أى على أن يحرروهم من سلطتهم .

(١) فستوس تحت لفظ (patres) .

(٢) قواعد جوستينيانوس ٣ ، ٧ ، ١ .

(٣) Tite-Live, II, 16: *Atti Clausi clientibus civitas data*. II, 64: *Per patres clientesque patrum consules creati*.

لا يبدو أن الانقلاب الذي جرى للموالي في روما قد تم واحدة كما في أثينا دفعة بل بعد تم ببطء كبير وعلى نهج لا يكاد يحس وبدون أن تشبه ثورة صريحة . فقد تراجعت روما أولاه شيئاً فشيئاً وتم تحول الموالي عن الولاء بتدرج غير محسوس .

قام الملك سرفيوس بإصلاح كبير لمنفعة الموالي فغير تنظيم الجيش . فقد كان الجيش قبله يسير موزعاً في قبائل وبطون وعشائر gentes ، وكان ذلك هو التوزيع الطبيعي . كان كل رئيس عشيرة gens على رأس مواليه . فقسم سرفيوس الجيش إلى فرق طبقية ، وكانت لكل واحد مرتبته طبقاً لثروته . فنتج عن ذلك أن المولى لم يعد يسير خلف مولاه ، ولم يعد يعترف به رئيساً في القتال ، وتعود على الاستقلال

وقد جرّ هذا التغيير تغييراً آخر في تكوين المجالس . كان المجلس فيما قبل ينقسم إلى بطون وعشائر gentes وإذا صوت المولى فقد كان يصوت تحت أعين مولاه . لكن عندما تقرر تقسيمهم حسب الفرق الطبقية في المجالس وفي الجيش لم يعد المولى يجد نفسه في نفس المكان الذي فيه مولاه . حقاً إن القوانين القديمة لا تزال تأمره بأن يصوت مثل مولاه ، ولكن كيف يمكن التحقق من تصويته

لقد كان كثيراً أن يخلص المولى من عين مولاه في أكثر الأوقات احتفالاً في الحياة في وقت الحرب وفي وقت التصويت . فقد أصبحت سلطة المولى منتقصة جداً وأصبح ما بقي له منها موضعاً للجدل كل يوم أكثر من سابقه . ومجرد أن ذاق المولى طعم الاستقلال أراده كاملاً فتطلع إلى الانفصال عن العشيرة والدخول في زمرة السوقة حيث يكون حراً . وكم من الفرص كانت سانحة! كان في عهد الملوك واثقاً من معونتهم إذ كان خير مقصد لهم هو إضعاف العشائر . وفي عهد الجمهورية كان يجد حماية السوقة ذاتها وحماية العرفاء . وهكذا تحرر كثير من الموالي ولم تستطع العشيرة أن تسترجعهم ثانية وفي سنة ٤٧٢ قبل الميلاد كان عدد الموالي لا يزال على شيء من الضخامة حيث كانت السوقة تشكو من أنهم كانوا يفسدون عليها أصواتهم في مجالس الفرق الطبقية ،

إلى جانب البطارقة (١) . وعندما أرادت السوقة أن تنفصل ، حوالى تلك الفترة ، استطاع البطارقة أن يكونوا جيشاً مع مواليهم (٢) ، بيد أنه يلوح أن هؤلاء الموالى لم يكونوا من الكثرة بحيث يزرعون بمفردهم أراضى البطارقة واضطر هؤلاء أن يستعينوا بذرعة من السوقة (٣) . من المحتمل أن إنشاء العرفاء قد عجل بهذه الحركة المسرعة نحو تحرير عصابة الموالى لأنهم جماعة ضد أسيادهم القدماء وجعلهم مركز السوقة أشد سناداً وأكثر أمناً . فى سنة ٣٧٢ لم يكن هناك موال واستطاع رجل مثل ماليوس أن يقود السوقة . فبقدر ما كثر الموالى حول كل ولى تقصر ما يستكونون الآن خصوماً ضد عدو واحد (٤) . وابتداء من ذلك الوقت لم نعد نرى فى روما هؤلاء الموالى القدماء ، القوم المرتبطين بالعصبية ارتباطاً وراثياً . وحل محل هؤلاء نظم ولاء من نوع جديد ، رابطة اختيارية يكاد يكون وهماً ولا يستدعى نفس الالتزامات . ولم يعودوا يميزون فى روما بين الطبقات الثلاث البطارقة والموالى والسوقة فلم يبق منها غير اثنين ، واندمج الموالى فى السوقة .

ويلوح أن آل مركلوس Marcellus كانوا فرعاً منفصلاً هكذا عن عصبية كلوديا gens Claudia . كان اسمهم كلوديوس ولكن ما داموا ليسوا بطارقة فى حين أنهم لم يكونوا جزءاً من العصبية إلا بصفتهم موالى . تحرروا فى وقت مبكر وأثروا بوسائل مجهولة ، وسمت رتبتهم أولاً إلى مناصب السوقة ، ثم إلى مناصب المدينة . وقد بدت العصبية كلوديا عدة قرون كما لو كانت قد أنست حقوقها القديمة عليهم ، بيد أنها تذكرتها يوماً ما فى زمن شيشرون على غير انتظار (٥) . فقد مات أحد عتقاء أو موالى آل ماركلوس وترك ميراثاً كان من حكم القانون أن يعود لمولى . فادعى البطارقة آل كلوديوس أنه

(١) تيتوس ليفيوس ٢ ، ٥٦ .

(٢) ديونيسيوس ٧ ، ٩ ؛ [illegible] ، ٢٧ .

(٣) Tite-Live, II, 34: *Inculti per secessionem plebis agr.*

(٤) تيتوس ليفيوس ٦ ؛ ٤٨ .

(٥) شيشرون ؛ الخطيب ، ١ ، ٣٩ .

ليس باستطاعة آل مركوس أن يكون لهم موال إذ أنهم كانوا موالى هم أنفسهم . وأن عتقاءهم ومعتوقيهم يجب أن يبقوا فى يد رئيس العصبة الطرنتية . وهو دون سواه صاحب الأهلية فى مدرسة حقوق الولاية وقد أثارت هذه القضية دهشة كبيرة فى الجمهور وحيرت الفقهاء بل إن سيسرون وجد مسألة غامضة جداً للحكم وحدثت قبل ذلك بأربعة قرون لما كانت كذلك . ولكن آل كلوديوس قضيتهم لكن فى عصر سيسرون كان حق الذى انتسبوا عليه بمقتضاه قد بلغ من القدم مرجعهم بنسوه ويمكن محكمة من أن تقضى لآل مركيلوس ثم بعد الولاء عدم وجود

الفصل السابع

ثورة ثالثة . السوقة في المدينة

١ - تاريخ عام لهذه الثورة

أدت التغييرات التي حدثت في تكوين الأسرة مع مضي الزمن إلى تغييرات أخرى في تكوين المدينة . فقد ضعفت الأسرة الأبوية والكهونة القديمة أدى انتهاء حق البكورة إلى فقدان وحدتها وعشيرتها . وأدى تحرر معظم الموالي إلى فقدان الأسرة لأكثر من رعاياها . ولم تعد رجال الطبقة الدنيا موزعين في العشائر ، بل يعيشون خارجها ، وأخذوا يكونون هيئة فيما بينهم . ومن هنا تغير مظهر المدينة فبدلا من أن تكون ، كما كانت في الماضي ، مجموعة ضئيلة الارتباط من عدد من الدويلات الصغيرة تعيش من كان هناك من أسرات أصبح الارتباط قائما بين السراة من أعضاء العشائر من ناحية وبين رجال الطبقة الدنيا من ناحية أخرى . وهكذا وجدت هيئتان كبيرتان ومجتمعان متخاصمان . ولم تعد الأمر ، كما كان في العهد الماضي ، نزاعا منعزلا في كل أسرة ، بل أصبح حربا علنية في كل مدينة . تريد إحدى الطبقتين المحافظة على كيان مدينة الدين وعلى بقاء الحكومة والكهونة كما كانت في يد الأسرات المقدسة . وتريد الأخرى أن تحطم الحواجز القديمة التي كانت تضعها خارج الشرع والدين والمجتمع السياسي .

في الشطر الأول من الحرب كانت الغلبة للسراة ولو أنهم لم يحتفظوا بها . لم يبق لهم رعاياهم القدماء وقوتهم ظلت باقية . ولكن بقيت لهم مكانة الدين . وبقيت لهم الحقوق والأملاك للأسرة ، والثروة ، وكبرياؤهم الموروثة . ولم يكن يداخلهم ريب في حقهم ، واعتقدت أنها بدفاعها عن نفسها كانت تدافع عن الدين ولم يكن للشعب غير كثرة العدد . كانت تعوقه عادة الاحترام التي لم يكن يسهل عليه التخلص

من ، فضلاً عن أنه لم يكن له رؤساء ، كان ينقصه كل مبدأ للنظام . كان في البدء جمهوراً بدون رابط أكثر مما كان هيئة حسنة [illegible] شديدة القوى . وإذا ما تذكرنا أن الناس لم يكونوا قد وجدوا مبدءاً آخر للتجمع غير ديانة الأسرات الوراثية ، وأنه لم تكن قد عرفت عناصرهم فكرة عن سلطة غير مشتقة من العبادة فإننا نفهم بسهولة أن هذه السوقة التي كانت خارج العبادة والديانة ، لم تستطع في البدء أن تكون مجتمعاً منتظماً وأنها كانت في حاجة لكثير من الزمن لكي تجد في نفسها عناصر النظام وقواعد الحكومة .

في [illegible] لم [illegible] هذه [illegible] في [illegible] . وسيلة أخرى مجربة [illegible] أن توجهها [illegible]

[illegible] التي كانت الطبقة الشعبية قد [illegible] في [illegible] الملوك [illegible] . [illegible] هذه [illegible] الملوك لكي [illegible] وشجعهم على [illegible] و[illegible] في [illegible] بعد روملوس [illegible] هوستيليوس Hostilius ، و[illegible] تاركوينوس [illegible] . و[illegible] سرفيوس [illegible] على تاركوينوس [illegible]

و[illegible] الملوك و[illegible] صاحبة السيادة . [illegible] الشعب على [illegible] على [illegible] في صورة أخرى . وفي بلاد الإغريق [illegible] رؤساء ، و[illegible] كان لا [illegible] أن [illegible] لأن [illegible] كان [illegible] فكرة [illegible] ولا يمكن أن [illegible] الأسرات [illegible] (١)

ومهما يكن [illegible] الأصلي [illegible] لم تكن [illegible] من [illegible] لم يكن من [illegible] الآلهة كما كانوا يفعلون [illegible] لم يكن [illegible] في [illegible] كانت تدل على شيء [illegible] على [illegible] على سلطة

(١) في بعض الأحيان [illegible] كانوا من [illegible] الأسرات [illegible] ٩٥

لم تفهمه الديانة . ويدل ظهور هذه الكلمة في اللغة الإغريقية على ظهور مبدأ لم تعرفه الأجيال الماضية . ألا وهو طاعة الإنسان للإنسان . إلى ذلك الحين لم يكن هناك رؤساء للدولة غير أولئك الذين كانوا رؤساء للديانة . ولم يكن يأمر في المدينة غير الذين يقيمون القربان ويدعون الآلهة . فمن أطاعهم فإنما يطيع القانون الديني ويقدم الخضوع للمعبود دون سواه . أما طاعة رجل ما ، واسطة لمعتقد هذا الرجل من قبل رجال آخرين . أي سلطة بشرية محضة في أصلها وطبيعتها ، فهذه ما كان يعهده القدماء ولم يسمعوا بها في الأذهان إلا يوم الذي أتت فيه الطبقات الدنيا بالثورة وبحثت عن حكومة جديدة

ومن ذلك مثلاً في قورنثه ، كان الشعب يتحمل سيادة البكخوسيين Bacchiades بمشقة فلما شهد كيبسيلوس (Cypselus) حقده الذي كانوا يحملونه لهم ورأى الشعب يبحث عن رئيس يقوده في تحرير نفسه عرض نفسه ليكون ذلك الرئيس وقبله الشعب ، وجعله طاغية ، وطرد البكخوسيين ، وأطاع كيبسيلوس (١) ونصبت ميليتوس (Milet) طاغية شخصاً يدعى ثراسيبولوس (Thrasybule) وأطاعت ميتيلينه (Mitylene) بيتاكوس (Pittacus) ، وساموس بوليكراتيس (Polycrate) ، ونجد طغاة في أرغوس وإبيدوروس وميغار وخالكيس (Chalcis) خلال عشرين سنة . وكان لسيكيون (Sicyone) طغاة خلال مائة وثلاثين عاماً كاملة دون انقطاع (٢) . وفي إغريق إيطاليا نجد طغاة في كومه (Cumes) وكروتون وسيباريس وفي كل مكان . وفي سرقوسة ، في سنة ٤٨٥ ، جعلت الطبقة الدنيا من نفسها سيدة البلاد وطردت طبقة الأشراف لكنها لم تستطع البقاء ولا الحكم . وبعد سنة واحدة اتخذت لها طاغية (٣)

وقد تم لهؤلاء الطغاة سياسة واحدة في كل مكان مع تفاوت في العنف فيوم طلب طاغية من قورنثه طاغية من ميليتوس بعض نصائح عن الحكومة

(١) هيرودوت ج ٥ ف ٩٢ . أرسطو ، سياسة ٥ ف [illegible] . ديودوروس ٧ ، ٢ . بوسانياس [illegible] . نقولا الدمشقي قطعة [illegible] .

(٢) هيرودوت [illegible] . أرسطو ، السياسة [illegible] ٤ ، ٥ [illegible] . بلوتارخوس ، صولون [illegible] .

(٣) هيرودوت ٧ ف ١٥٥ . ديودوروس ١١ ف ٣٨ . أرسطو [illegible] .

وكل ما أحدث به هذا الأخير أنه قطع السبيل على الطبقة التي كانت تريد ارتفاعاً عن الأخرى . تلك كانت قاعدة سلوكهم أن يطيحوا بالرؤوس العالية وأن يضربوا الثروة بالاعتماد في ذلك على الشعب

تآمرت الطبقة الرومانية أولاً لإبعاد تاركوينيوس . ثم حاولت أن تقضي طبقة ولقب أعداءها عن بوبليكولا (Publicola) وسپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) ومانليوس (Manlius) الواحد تلو الآخر . ولا يمكن أن تكون مجرد تشهير تلك التهمة التي كثيراً ما كانت توجهها الطبقة الثرية لمن تخشى نفسه شيئاً من أسماء فتنتهي من ... على رغبات سوقه

لكن لا بد لنا من أن نلاحظ حدثاً يهدد كل الشعب في بلاد الإغريق وفي روما . يبحث عن رفعة ملكية من سطوتها فإن ذلك لم يكن ويبدو تعلق حقيق بها الشعب فإنه لم يكن يحب ... كان يخص الأسرة كانت الملكية عنده وسيلة نفسه وللانتقام . لكن هذه الحكومة التي لم تخرج إلا من حق القوة ولم تعتمد فقط على أية أمور مقدسة لم يكن لها جذور في قلوب الأهلين فقد كانوا يحتملون طغيانه لدعي ... ، ثم يتركون له السلطة اعترافاً بالجميل أو بحكم الضرورة لكن بعد أن تمضي بضع سنوات وتمحى ذكرى حكم الأقلية القاسي كانوا يستطيعون إسقاط الطغاة . لم تبق هذه الحكومة عند الإغريق إطلاقاً ولم تقبلها إلا كوسيلة مؤقتة وإلى أن يجد الحزب الشعبي علاجاً خيراً منه ويشعر بالقدرة على حكم نفسه بنفسه

كبرت الطبقة الدنيا شيئاً فشيئاً وحدثت أنواع من التقدم تتم في غموض لكنها تقرر مستقبل طبقة من الناس وتغير المجتمع . فحوالي القرن السادس قبل الميلاد رأت بلاد الإغريق وإيطاليا نشأة نوع جديد من الثروة . لم تكن الأرض كافية لسد حاجات الإنسان . واتجهت الأذواق نحو الصنع والترف حتى ... أحياناً ... وعندئذ أصبحت الصناعة والتجارة شيئاً ضرورياً . فتكونت الثروة المنقولة شيئاً فشيئاً ، وسكت العملة ، وظهر النقد . وكان ظهور النقد ثورة كبيرة . فلم يكن النقد خاضعاً لنفس شروط الملك التي كانت تخضع لها الأرض . كان شيئاً بحسب تعبير الفقه *res nec mancipi* كان يمكن أن ينتقل من

يد له دون أى إجراء ديني ويصل بسوقه من غير عائق. فلم يكن فى استطاعة الطبقة التى تملك الأرض بمفردها أن تفعل شيئاً ما فى النقد

وعندئذ عرف أهل طبقة النقد شغلاً آخر غير فلاحة الأرض. فكان هناك صناع وملاحون ورؤساء صناعة وتجار. ولم يلبث أن وجد بينهم أثرياء بل هو من جدة عهده. فمن مضى لم يكن يستطيع أن يكون مستكناً غير رؤساء العشائر وحدهم. وقد هم هؤلاء الموالى المغلوبون وبعض السوقة يصبحون أثرياء ويمدون عن ترفهم ثم إن تعرف سنين كتب على رجل الشعب كان ينعم النسيب، فى كثير من المدن، وعلى الأخص فى أثينا. ورأت فيه من أعضاء هذه الطبقة الدنيا فى البؤس فى مجتمع تتحول فيه الثروة لا تنسب درجات لمن أن تقلب رأساً على عقب

ونتيجة أخرى هذا العصر هى هدمة فى الرق ودرجات فى الشعب دائمة، كما يجب أن يكون فى كل مجتمع بشرى. فعرفت بعض الأسرات. وكثرت بعض الأسماء شيئاً فشيئاً. ويكون فى الشعب نوع من الشهرة. ولم يكن فى وقت ما، فقد كانت السوقة عن أن تكون كتلة مجتمعة وبدأت تشبه هيئة منتظمة وقد مت عنها من بين قوم يستطيع أن تتخذ رؤساء دون حاجة إلى أحد أن طائع نظراً من بين الطبقة ويريد أن تسلك. وسرعان ما أصبح هؤلاء الشراء ... بين النصب فى ... عادة الثروة مكتسبة من عمل، أى شعور بقيمة شخصية. وأيقنه بحرية دائمة. وتلك الروح الحكيمة التى تنمى شروط الإصلاح وحتى ... وأذعنت ... لفيدا هذه ... فى كتب محفوظة بوجودهم فيها. وقد رغبت السوقة عن أن يكون ... مجرد ... استطاعت من أن تجد فى صميمها عناصر حكومة أحسن من ... وأخيراً أصبحت الثروة وقت ما مقياساً للتقسيم الاجتماعى كما سنرى بعد قليل

لأن هذا تغيير يجب الكلام عنه إذ أنه ساعد كثيراً على نمو الطبقة الدنيا. ألا وهو التغير الذى حدث فى فن العسكرية. ففى القرون الأولى من تاريخ المدن كانت قوة الجيوش فى الفرسان. وكان المحارب الحقيقى هو الذى يحارب على مركبة أو على جواد. أما المشاة فكانوا قليلى الغناء إذ كانوا قليلى النفع

في القتال. لذلك حتمت هذه الطبقة بسرعة التقدم في كل مكان حق القتال على ظهور الجياد (١). بل إن الأشراف صاروا في بعض المدن فقط فرساناً. و celeres من أتباع روميلوس، والفرسان الرومان (chevaliers romains) في القرون الأولى، كانوا جميعاً من الطبقة الأرستقراطية. كانت الفروسية هي السلاح النبيل عند القدماء. لكن المشاة أصبحت رويداً رويداً على شيء من الأهمية. فقد سمح التقدم في صناعة الأسلحة وشأن النظام العسكري أن تقاوم الفرسان. وبمجرد حصولها على هذه الخطوة احتلت الصف الأول في المعارك، إذ أنها كانت أخف منها وأسهل حركة. فأصبح المشاة legionnaires hoplites قوة الجيش منذ ذلك الوقت. وهؤلاء الرجال من الطبقة الدنيا. قد تعلموا أن الحرب قد غلبت على الخصوص في بلاد الإغريق، وأنه قد خسرت معارك في البحر. وكلما كان مصير المدينة بين يدي شعبها في موقفه، ولكنه في ما كان من القوة يمكن أن يدافع عن نفسها، كان من القوة يمكن أن يكتسب حقوقه وما من سلطة مشروعة. إن الحالة الاجتماعية والسياسية في أمة ما على صلة دائماً بطبيعة أسلحتها وتكوينها

وأخيراً حصلت الطبقة الدنيا على أن يكون لها هي أيضاً ديانة. ويحق لنا أن نقدر أنه كان في قلب أولئك الرجال هذا الإحساس الديني الذي لا ينفصل عن طبيعتنا والذي يجعلنا في حاجة إلى العبادة والصلاة. لذلك كانوا يألمون من رؤيتهم أنفسهم مبعدين عن الديانة طبقاً للمبدأ العتيق الذي يقضي على أن كل إله يتبع أسرة واحدة وأن حق الدعاء لا ينتقل إلا مع الدم. فعملوا على أن تكون لهم عبادة أيضاً

يستحيل أن ندخل هنا في تفاصيل الجهود التي بذلوها والوسائل التي تصوروها والصعوبات أو الموارد التي عرضت لهم. فقد ظل ذلك العمل فردياً مدة طويلة، ولذلك بقي زمناً طويلاً سراً في صدر كل فرد. فلا نستطيع أن نبصر غير

(١) لاحظ أرسطو أن تاريخ المدن القديمة ... في الزمن الذي كان فيه الفرسان هم السلاح السائد، كانت تخضع السلطة في يد أقلية من السراة. السياسة ٤، ٣، ٢.

نشأوا في بعض الأحيان [illegible] كانت إحدى أسرات السوقة تضع نفسها موقتاً، إما لأنها تعسرت على [illegible] من دينها وإما لأنها حصلت على [illegible] من جهة أخرى، فأصبحت لها عبادتها ومعابدها وأعيادها الخاصة وكهنوتها على نحو الأسر الأرستقراطية. وفي بعض الأحيان كانت السوقة أن تدخل [illegible] المدينة دون أن تكون لها عبادة معينة [illegible] ومن كان [illegible] لا موقف هذا. ومثال ذلك [illegible] عبد [illegible] الآلهة كويرينوس (Quirinus) [illegible] الطبقة [illegible] من [illegible] الأخيرة [illegible] روما [illegible] لأفيستوس [illegible] سرفي وقد [illegible] سوقة [illegible] على بلاد الإغريق [illegible] من [illegible] وهي [illegible] لا تسمى [illegible] ولا [illegible] وأخيراً [illegible] سوقة [illegible] أشبه مقدسة [illegible] [illegible] وهكذا [illegible] في كل حي [illegible] الجمهور [illegible] وكذلك [illegible] (Proserpina) [illegible] في [illegible] وفي [illegible] (٢) فكانت هذه هي [illegible] ([illegible]) [illegible] كانت سوقة لها [illegible] جمهور [illegible] [illegible] فأصبح [illegible] [illegible] [illegible] كثير في [illegible] كانت [illegible] فيه [illegible] لا [illegible]

[illegible] الطبقة [illegible] من [illegible] وعندما أصبح في [illegible] وكهنة، وعندما أصبح لها كل ما يعطي الإنسان الإحساس بقيمته وقوته، وأخيراً، عندما أخرجت الطبقة العليا على حسابها

(١) [illegible] : اللغة اللاتينية [illegible]

(٢) [illegible] ، أفلاطون [illegible] ، هاربوقراسيون ، تحت كلمة 'Εορτα

شيئاً ما . وعندئذ أصبح من المستحيل إقصاؤها خارج الحياة الاجتماعية والسياسية ولم تستطع المدينة أن تبقى موصدة الأبواب أمامها زمناً أطول من ذلك

كان دخول هذه الطبقة الدنيا في المدينة ثورة ملأت تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا من القرن السابع إلى القرن الخامس . جاءت جهود الشعب النصر في كل مكان . لكنها لم تحرزه بنفس الطريقة ولا بنفس الوسائل في كل مكان

هنا ، ثار الشعب بمجرد شعوره بالقوة . فامتشق سلاحه في يده واقتحم أبواب المدينة التي كان محرماً عليه أن يسكن فيها وبعد ما أصبح سيداً طرد الكبراء ، واحتل منازلهم أو اكتفى بتقرير المساواة في الحقوق . وهو ما حدث في سيراقوسه وإريثراي (Erythrées) وميليتوس

وهناك على العكس ، استعمل الشعب وسائل أقل عنفاً وأجبر الكبراء على التنازل عن بعض الأمور من غير قتال مسلح بل فقط بالقوة المعنوية التي وهبها له تقدمه الأخير . وعندئذ عينوا مشرعاً وبدلوا الدستور . وذلك ما حدث في أثينا

وفي أمكنة أخرى وصلت الطبقة الدنيا إلى هدفها على درجات من غير اضطراب أو انقلاب . فمن ذلك في كومه (Cumes) ، كان عدد أعضاء المدينة محدوداً جداً في البدء فازداد أول مرة بقبول أفراد الشعب الذين كان لهم من الثروة ما يسمح بتغذية جواد . ثم رفعوا بعد ذلك عدد المواطنين إلى الألف وفي النهاية وصلوا تدريجياً إلى حكم العامة (الديمقراطية) (١)

وفي بعض البلدان كان قبول الشعب بين المواطنين من عمل الملوك . كذلك كان في روما وفي بلاد أخرى . كان من عمل طغاة الشعبيين ، وهو ما عمل في كورنثه وسيقيون وأرغوس . وعندما نحيت طبقة الملوك من جديد كانت في العادة على درجة من الحكمة حيث تركت للطبقة الدنيا لقب المواطن الذي

(١) هيراقليدس في *Fragments des hist. grecs* coll. Didot, t. II, p. 217

وهبة لها المال والعقد . وفي ثيوغنيس ما يدل على هجرة إلى مدينة تحفظهم ضد الطغاة . لا تحرير الطبقات . ومن الأمور في الإمكان أن نعدد جميع الصور المختلفة التي تمت عقب هذه الثورة الكبيرة . كانت النتيجة واحدة في كل مكان . فقدت الطبقة [illegible] إلى [illegible] وأصبحت جزءاً من الهيئة السياسية .

يعطينا الشاعر ثيوغنيس فكرة على شيء من الجلاء عن هذه الثورة وعن عواقبها . يخبرنا أنه في موطنه في ميغارا نوعان من الناس : يسمى أحدهما طبقة الصالحين ἀγαθοί ، وهو في الواقع الاسم الذي أطلقته على نفسها في معظم المدن الإغريقية . ويسمى الآخر طبقة الطالحين κακοί ، وهو أيضاً الاسم الذي تعودوا أن يطلقوه على الطبقة الدنيا . وهذه الطبقة الأخيرة يصف لنا الشاعر حالتها القديمة : لم تكن فيما مضى تعرف المحاكم ولا القوانين . ولعل هذا ما يكفي ليدل على أنه لم يكن لها حق المدنية . بل لم يكن مسموحاً لهؤلاء الناس أن يقتربوا من المدينة ، وكانوا يعيشون في خارجها كالوحوش . ولم يكونوا يشهدون الأكلات الدينية ، ولم يكن لهم حق التزوج من أسرات الصالحين .

ولكن كم تغير كل هذا ! انقلبت المراتب ، ووضع الطالحون فوق الصالحين ، واختلت العدالة ، ولم تعد القوانين القديمة ، وحلت مكانها قوانين غريبة في جدتها . وأصبحت الثروة المطمح الوحيد للرغبات لأنها تهب القوة . ويتزوج الرجل النبيل بنت الغني من السوقة ، والتزوج يحدث اختلاط الأصول .

عبثاً حاول ثيوغنيس وهو من سلالة أسرة من السراة أن يقاوم تيار الأمور . حكم عليه بالنفي وجرد من أملاكه فلم يبق له غير شعره للاحتجاج والقتال . ولكنه إن كان لا يرجو النصر فإنه لا يشك ، على الأقل ، في عدالة قضيته ، تقبل الهزيمة لكنه حافظ على شعوره بحقه . وفي نظره أن الثورة التي حدثت هي ضرر خلقي بل جريمة . وباعتباره ابن السراة كان يبدو له أن هذه الثورة لا تجد نصيراً في العدالة ولا الآلهة وأنها إضرار بالدين . يقول : «هجر الآلهة

الأرض ، ولا يخلفهم أحد . احتى عصر الرحال الأتقياء ، لم يعد أحد يعنى بالخالدين » .

إن هذه التحسرات لا تجدى ، وهو يعرف ذلك جيداً فإذا تأوه هكذا فإنما تأوهه كواجب من واجبات الشعر ، لأنه تغنى « بالأثارة المقدسة » عن القدماء ومن واجبه أن يخلدها . لكن عبثاً يحاول . فإن الأثارة نفسها تؤذن بالذبول وسوف ينسى أبناء النبلاء نبلهم ، وعما قريب نراهم جميعاً متحدين بأسرات السوقة عن طريق الزواج ، سيشربون فى أعيادهم ويأكلون على موائدهم » . وعما قريب يفقدون حماساتهم . فى عصر ثيوغنيس كان التحسر هو كل ما بقى للسراة الإغريق ، وسوف يختفى هذا التحسر بدوره .

والواقع أن النبلاء لم يعودوا بعد ثيوغنيس إلا مجرد ذكرى . استمرت الأسرات الكبيرة تحافظ فى ورع على العبادة المنزلية وذكرى الأسلاف لكن ذلك كان كل شىء . لا زال هناك أشخاص يلهون بتعداد أجدادهم ، لكنهم كانوا يضحكون من هؤلاء الناس (1) ولقد حافظوا على عادة الكتابة على بعض القبور أن المتوفى من أصل نبيل . لكن لم يبذل أى مسعى لإقامة نظام قد هوى إلى الأبد . يقول إيسوقراط وهو محق فى قوله : إن الأسرات الكبيرة ، فى أثينا ، فى عصره ، لم تعد موجودة إلا فى قبورها .

وهكذا تبدلت المدينة القديمة على درجات . كانت فى الأصل جمعاً من حوالى المائة من رؤساء الأسرات . وفيما بعد ازداد عدد مواطنيها لأن الفروع الصغرى حصلت على المساواة . وبعد ذلك جاء الموالى المحررون والسوقة وكل هذا الجمهور الذى بقى قروناً خارج الجماعة الدينية والسياسية بل أحياناً خارج سور المدينة المقدس . فاستطاعوا تخطى الحواجز التى وضعت فى طريقهم ونفذوا إلى المدينة ، وسرعان ما أصبحوا أصحاب السيادة فيها .

(1) [illegible]

٢ - تاريخ هذه الثورة فى أثينا

حكم النبلاء أثينا خلال أربعة قرون بعد سقوط الملكية. والتاريخ صامت فيما يختص بعهد السيادة الأرستقراطية. ولا نعلم عنه إلا شيئاً واحداً هو أن كانت تعيسة عند الطبقات الدنيا وأن الشعب بذل جهوده للخروج من هذا النظام.

حوالى سنة ٦١٢ أعطى القحط الشديد الذى كانوا يرونه عاماً، والآيات المؤكدة التى كانت تنبىء عن ثورة قريبة، شجع أحد النبلاء ويدعى كيلون (Cylon) ففكر فى قلب الحكومة القائمة وإقامة نفسه طاغية. لكن هبة الأزمة قضت على مشروع قبل مولده. غير أن عمله هذا جر بعده شراً جسيماً، فقد انتهك النبلاء كل موارد دينهم. عبثاً قالوا إن الآلهة كانت ناقمة وإن الأشباح كانت تظهر. عبثاً طهروا المدينة من جميع جرائم الشعب وقدموا ضحيتين أحدهما للعنف والآخر للوقاحة لكى يهدئوا هذين المعبودين اللذين أثار عودهم الحنث الاضطراب فى النفوس (١). لم يجد ذلك شيئاً. ولم يلطف شعور التعساء أن أحضروا من كريت إبيمنيدس (Epiménide) الورع، وهو شخص خفى الأسرار كانوا يقولون إنه ابن إحدى الإلهات، وجعلوه يقوم بمجموعة من الاحتفالات التكفيرية؛ كانوا يأملون بالتأثير بهذه الطريقة على خيال الشعب، أن يحيوا الديانة وبالتالى أن يقووا السراة. لكن الشعب لم يتأثر. لم يعد لديانة النبلاء هيبة فى نفسه، فاستمر يطالب بإصلاحات.

وقد استمرت المعارضة اللدود من جانب فقراء الجبل والمعارضة المعتدلة من جانب أثرياء الشاطئ، ستة عشر عاماً فى حرب عنيفة مع النبلاء. وفى النهاية اتفق كل من كان ذا حكمة فى الأحزاب الثلاثة على أن يكلوا إلى صولون العناية بإنهاء هذه المنازعات وليعمل على تجنب مصائب أكبر منها. وكان من حظ صولون النادر أنه كان ينتمى فى آن واحد إلى النبلاء من حيث مولده وإلى التجار بحكم مشاغل شبابه. ونرى من شعره أنه كان رجلاً متحرراً من نزعات طائفته تحرراً تاماً. وقد كان يحكم روح مصلحة متأصل فيه. وميله

(١) بلوتارخوس: صولون ١٢. ديوجينيس لايرتيوس ١: ١١٠. شيشرون: القوانين ٢: ١١. أثينايوس ١٣: ٧٦.

للثروة والترف ، وجعله للهو ، بعيداً عن نساء القدماء بعداً كبيراً ومتميا بين أثينا الحديثة .

قد رأينا أن صولون بدأ بتحرير الأرض من سيادة القديمة التي كانت لديهم الأسر النبيلة عليها فحطم أغلال الولاء . وقد جر مثل هذا التغيير في الحالة الاجتماعية تغييراً آخر في النظام السياسي . كان لا بد من الآن فصاعداً أن يكون للطبقات الدنيا ، كما يقول صولون ذاته ، مجناً للدفاع عن حريتهم المستحدثة . هذا المجن هو الحقوق السياسية .

لا ريب يعيبنا شيء الكثير لكي يكون دستور صولون معروفاً لنا تماماً ، لكنه يبدو على الأقل أن جميع الأثينيين قد أصبحوا منذ الآن جزءاً من مجمع الشعب وأن مجلس الشيوخ لم يعد مكوناً من النبلاء دون سواهم . بل يبدو أنه أصبح من المستطاع أن يعين الأراخنة من خارج الطبقة الكهنوتية القديمة . قلبت هذه التجديدات المبكرة كل القواعد القديمة للمدينة . فأصوات الانتخاب ومناصب الدولة والكهنوت وإدارة المجتمع ، كل ذلك كان يتحتم على النسيب أن يقتسمه مع رجال الطبقة الدنيا . لم يحسب الدستور الجديد حساباً ما لحقوق المولد . كانت لا تزال هناك طوائف ولكنها لم تكن تتميز إلا بالثراء . عندئذ انتهت سيادة النسب فلم يعد النسب شيئاً ما لم يكن إلا إذا كان ثرياً ، كانت قيمته في ثرائه لا في مولده . من ثم استطاع الشاعر أن يقول : « من أية أرومة هذا الرجل ؟ ثري ، أولئك هم اليوم النبلاء » (٢) .

كان للنظام الذي تأسس على ذلك النحو نوعان من الأعداء : النبلاء الذين كانوا يتحسرون على امتيازاتهم المفقودة ، والفقراء الذين ظلوا يتألمون من انعدام المساواة .

لم يكد صولون يتم عمله حتى بدأ الاضطراب ، يقول بلوتارخوس : « بدا الفقر متطهراً للأعداء الألداء للأثرياء » . لعل الحكومة الجديدة كانت تسوءهم

(١) عن الطبقات الأربع الجديدة وعن أسمائها Timemata أنظر بلوتارخوس ، صولون ١٨ ؛ أرسطو ، اقتبسه هاربوقراسيون تحت لفظ Thetes ؛ بوليدوكس ٨ : ١٣٠ .
(٢) أوريبيديس ؛ عبقيات ألكسيس (Alexis) في أثينيوس ٤ : ٤٩ .

بقدر ما كانت تسوؤهم حكومة السادة هذا وعندما رأوا أن السادة لا زالوا يستطيعون أن يكونوا أرباباً وشيوخاً، توهم الكثيرون أن الثورة لم تكتمل. حفظ صولون على الأوضاع الجمهورية، لكن الشعب كان يحس حقداً لا تدبر فيه ضد أوضاع هذه الحكومة التى لم ير منها خلال أربعة قرون غير تمتع الشراة فاقتدى بالكثير من المدن الإغريقية وأراد طاغية

كان پيسيسترابيس (Pisistrate) من سلالة السادة لكنه كان يهدف إلى غرض من المطامع الشخصية. فوعد الفقراء باقتسام الأراضى وضمهم إليه. وفى يوم من الأيام ظهر فى المجمع وادعى أنه جرح وطلب أن يعطى له حرس. وقد هم رجال الطبقات الأولى أن يردوا عليه وأن يرفعوا الستار عن الكذب لكن الجموع كانت مستعدة للانسياق لمناصرة پيسيسترابيس. وعندما رأى الأثرياء ذلك، فروا هاربين فى غير نظام. وبذلك كان أحد الأعمال الأولى للمجمع الشعبى منذ حدوثه هو مساعدة رجل على أن يكون سيداً للوطن (١)

هذا ولا يجوز أن حكم پيسيسترابيس قد أتى بأى عائق يحول دون تطور أثينا بل على العكس كان أهم أثر له أنه وضع الإصلاح الاجتماعى والسياسى الكبير الذى تم أخيراً، ووقاه من كل ركس (٢).

لم يبد الشعب رغباً قط فى استعادة حريته، فقد قبل إبعاد الأعضاء الأثرياء پيسيستراتيس مرتين. واستعاد السلطة مرتين، وتملك ابنه الأكبر فى أثينا من بعده. وكان لا بد من تدخل جيش اسپرطى فى أتيكا لوضع حد لسيادة الأسرة (٣)

(١) عن الارتباط بين پيسيستراتيس والطبقات الدنيا انظر هيرودوت ١: ٥٩؛ بلوتارخوس، صولون ٢٩، ٣٠؛ أرسطو، السياسة ٥: ٤: ٤؛ ضعه ديودور ص ٥٧١

(٢) يؤكد هيرودوت (١: ٥٩) وتوقيديديس (٦: ٥٤) أن پيسيستراتيس حافظ على الدستور والقوانين القائمة أى دستور صولون وقوانينه.

(٣) هيرودوت ٥: ٦٣ - ٦٥؛ ٦: ١٢٣؛ توقيديديس ١: ٢٠؛ ٦: ٥٤ - ٥٩. يرى عدد من المؤرخين بوضوح حتى أن الذى قلب الحكم فعلاً هم الألكميونيون وليس هارموديوس وأرستوجيتون. وقد حورت الأسطورة لأسباب وطنية.

وفي حقبة لاحقة سقطت أسرة بيزيستراتوس لكي تسترد امتيازاتها ، فلم يعجزها النجاح فحسب ، بل بهذه الطبقة أشد ضربة تحملتها حتى الآن على يد كليستينس (Clisthenes) ، وهو من سلالة هذه الطبقة لكنه من أسرة كانت هذه الطبقة تحتقرها . ومنذ ذلك بدأت منذ ثلاثة أجيال . فقد وجدت كذلك وسيلة ليجردها إلى الأبد من شيء هام من قوتها (١) .

عندما غير صولون الدستور ، سبق أن جمع النظام الذي لقدم المجتمع الأثيني قائماً ، وبقي الأهالي موزعين على مائتين أو ثلاثمائة عصبة ، في اثنتي عشرة أخوية ، في أربع قبائل ، وكان لا يزال في كل من هذه المجموعات ، كما كان في المدة السابقة ، عادة وراثية وكاهن من النساء ورئيس هو نفسه الكاهن ، كل ذلك كان نفذ ما مضى يصعب زواله ، ومن هنا كانت تستمر الأعراف والسنن والقواعد والفوارق التي سادت في الحالة الاجتماعية لقديمة هذه الإطارات القديمة وهي تحافظ بموروثها على المدينة ، أي على سطوة الأسر الكبيرة . وكان في كل إطار منها طبقات من الناس ، فمن ناحية ، النساء اللاتي يحوزون الكهنوت والسلطة بالوراثة ، ومن ناحية أخرى من هم أدنى منهم حالاً ، أولئك الذين لم يعودوا موالي ولا عبيداً ، لكن كانت تستبقيهم الديانة تحت سلطة السيد . عبثاً يقول قانون صولون إن جميع الأثينيين أحرار ، فإن الديانة القديمة كانت تمسك بالإنسان عند خروجه من مجمع الذي صوت فيه حربه وتقول له أنت مرتبط بأحد النبلاء عن طريق العبادة ، يجب عليك أن تحترمه وأن تبجله وأن تخضع له ، جعلك صولون حراً باعترافه عضواً في المدينة . لكنك باعترافك عضواً في قبيلة تضم أحد النبلاء ، وباعترافه عضواً في أخوية يرأسك سيد أيضاً . وحتى في الأسرة ، في الفصيلة (gens) التي ولد فيها أسلافك ، والتي لا تستطيع الخروج منها ، تجد سلطة أحد النبلاء مرة أخرى . ما الفائدة من أن قانون سياسي قد جعل

(١) يعطينا هيرودوت (ه ، [illegible] و ٦٩) فكرة حية جداً عن نضال كليستينس ضد إيساغوراس وحلفائه من الطبقات العليا . انظر بلوتارخ (c.232.) [illegible]

من هذا الرجل مواطناً إذا كانت للديانة والأخلاق متمسكة بجمعه مولى؟ حقاً إن كثيراً من الرجال وجدوا أنفسهم بعد عدة أجيال خارج هذه الطبقات، سواء لأنهم أتوا من بلاد أجنبية أو لأنهم تخلصوا من العصبة أو من القبيلة ليكونوا أحراراً. لكن هؤلاء الرجال كانوا يتألمون من طريق آخر، فقد وجدوا أنفسهم بحكم وضعهم خارج القبائل في حالة ضعة معنوية تجاه الرجال الآخرين وعلق باستقلالهم نوع من العار.

ولذا فقد كان هناك، بعد إصلاح صولون السياسي، إصلاح آخر يتعين القيام به في دائرة الدين. فقام به كليستينيس بإحلال عشر قبائل جديدة، مقسمة إلى عدد معين من الأحياء، demes، محل القبائل الأربع الدينية القديمة(1).

هذه القبائل، وهذه الأحياء، تشبه في ظاهرها القبائل القديمة والعصائر (gentes). فكان في كل واحدة من هذه الدوائر عبادة وكاهن، وقاض واجتماعات للاحتفالات الدينية ومجمع للمداولة في المصالح المشتركة(2). لكن المجموعات الجديدة كانت تختلف عن القديمة في نقطتين جوهريتين. أولاً وزع جميع الناس الأحرار في أثينا، حتى أولئك الذين لم يكونوا في القبائل القديمة والعصائر، في الإطارات التي شكلها كليستينيس(3). إصلاح كبير منح الدين لمن كانت لا تزال تنقصه. وأدخل في جماعة دينية من كانوا مقصيين عن كل جماعة من قبل. ثانياً، وزع الناس في القبائل والأحياء لا حسب مولدهم كما كانوا في الماضي بل حسب مسكنهم. ولم يكن للمولد في ذلك أي وزن. كان الناس متساوين فيها ولم يعودوا يعرفون الامتيازات. والعبادة التي كانت تجمع العصبة الجديدة أو الحي الجديد لم تعد هي العبادة الوراثية لأسرة قديمة. لم يعودوا يجتمعون حول موقد سيد. ولم تعد العصبة أو الحي يمجد سلفاً قديماً باعتباره السلف الإلهي. بل أصبح للقبائل أبطال جدد تحمل أسماءهم وقد اختاروهم من بين

(1) هيرودوت، ٥، ٦٦، ٦٩.

(2) أيسخينيس ضد كتسيفون، ٣٠. ديموسثينيس ضد أوبوبيديس. بوليوكس، ٨، ١٩، ٩٥، ١٠٧.

(3) أرسطو، السياسة ٣، ١، ١٠. شرح أيسخينيس ضد ديدو ص ٥١١.

شخصيات الزمن العتيق لدى حفظ الشعب لهم ذكرى صالحة ، أما الأحياء فقد انحدرت منزلتهم بحيث صار حارس السور ومنظف الأبهاء أكثر منهم جاهاً ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك مبرر لكى يكون الكهنوت وراثياً فى الحى كما كان فى العصبية ، ولا مبرر أيضاً لكى يكون الكاهن نسيباً على الدوام . وأصبح منصب الكاهن والرئيس فى المجموعات الجديدة سنوياً وأصبح فى استطاعة كل عضو أن يشغله بدوره

كان هذا الإصلاح هو الخاتمة التى أدت إلى قلب حكم سراة النسب وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هناك طبقة دينية . لم تعد هناك امتيازات للمولد . لا فى السياسة ولا فى الدين لقد تبدل مجتمع الأثينى تبدلا كاملا (١)

هذا ولم يكن القضاء على القبائل القديمة ، واستبدال قبائل جديدة بها ، يقبل إليها جميع الرجال على قدم التساوى فيما بينهم ، حدثاً خاصاً بتاريخ أثينا فقد حدث نفس التغيير فى قوريه وسيقيون وإليس (Elis) واسبرطه . ويحتمل أن يكون كذلك فى كثير من المدن الإغريقية (٢) . لم ير أرسطو من بين جميع الوسائل الخاصة لإضعاف طبقة السراة القديمة وسيلة أنجع من هذه فيقول : « إذا ما أريد تأسيس حكم العامة (الديموقراطية) وجب أن يعمل ما عمله كليستينيس عند الأثينيين : إقامة قبائل جديدة وأخويات جديدة ، ويستبدل بقرابين الأسر الوراثية قرابين مباحة لجميع الناس . ويختلط بقدر الاستطاعة علاقات الناس فيما بينهم مع العناية بتحطيم كل جماعات السابقة (٣) .

(١) لم يختف الأخويات القديمة والعصائب أبداً . بل بقيت على العكس إلى جانب التاريخ الإغريقى ... عهد الخطباء ... ديموستينيس ... ، ضد ماكارتاتوس ١٤ ، ... ضد بيابوا ... ضد أوبوليدس ... ، ... ميراث كيرون ١٩ ، ... (Boeckh, t. I, p. 106 ... t. p. 650, Ross, Demi, p. 24; Kohler. ... 598, 599, 600) لا تزال الكتابات تذكر أعلامها وقرارتها . لكن هذه الأخويات وهذه العصائب (γένη) لم تعد سوى إطارات دينية دون أية قيمة فى النظام السياسى

(٢) هيرودوت ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ . أرسطو : السياسة ٧ : ٢ : ١١ . بوسانياس ٥ ، ٩ .

(٣) أرسطو : السياسة ٦ ، ٢ : ١١ ؛ طبعة ديدو ص ٤٩٤ ، ٥٩٥ .

وعندما يتم هذا الإصلاح فى جميع المدن يمكن القول بأن القالب القديم للمجتمع قد تحطم ، وأن هيئة اجتماعية جديدة قد أصبحت فى دور التكوين . هذا التغيير فى الهيكل الاجتماعى الذى أقامته الديانة المنزلية الوراثية ، والذى كان يظن أنه غير قابل للتحوير ، هو علامة على تهيئة نظام مدنى جديد

٣ — تاريخ هذه الثورة فى روما

كانت للسوقة فى روما أهمية كبيرة منذ وقت مبكر . فموقع المدينة بين اللاتينيين والسابينيين والأتروسكيين كان يفرض عليها حرباً مستديمة . وتتطلب الحرب أن يكون لها عدد كبير من الأهالى . لذلك رحب الملوك بجميع الغرباء واستدعوهم دون نظر إلى أصلهم . تتابعت الحروب بلا انقطاع ؛ ولما كانوا فى حاجة إلى رجال فقد كانت النتيجة المألوفة لكل انتصار هى أن ينتزعوا من المدينة المغلوبة أهلها لينقلوهم إلى روما . فماذا كان يصبح أمر هؤلاء الرجال الذين كانوا يجلبون هكذا مع الغنيمة ؟ إذا كانت بينهم أسرات كهنوتية وبطريقية سارعت البطارقة إلى ضمهم إليها . أما العامة فجزء منها كان يدخل فى ولاء الكبراء أو الملك وجزءاً يطرح بين السوقة .

كذلك كانت تدخل عناصر أخرى فى تكوين هذه الطبقة . تدفق كثير من الأجانب على روما كما يحدث فى مكان يجعله مركزه صالحاً للتجارة ؛ ووجد المغضوب عليهم من بلاد السابينيين ومن إتروريا واللاتيوم ملاذاً فيها . كل أولئك كانوا يدخلون فى السوقة . ومن ثم فمن كان يستطيع التخلص من الفصيلة كان يصبح سوقياً . والبطريق الذى يصاهر من هو أدنى من طبقته ، أو الذى يرتكب إحدى هذه المخالفات التى تجلب سقوط الحقوق ، كان يهوى إلى الطبقة الدنيا . وكل نغل كانت تصده ديانة الأسرات الطاهرة ويطرح فى السوقة .

لهذه الأسباب مجتمعة كانت تزداد السوقة عدداً . وقد زاد النزاع الناشب بين البطارقة والملوك فى أهميتها . وشعرت الملكية والسوقة منذ وقت مبكر أن عدوهما واحد . كان مطمع الملوك هو التخلص من مبادئ الحكم القديمة التى كانت

تقدمهم في مزاولة سلطتهم . ومطمع السوقة هو تحطيم الحواجز القديمة التي كانت تقصيهم من الجماعة الدينية والسياسية . فقام بينهما تحالف ثابت ؛ حمى الملوك السوقة ، وعضدت السوقة الملوك .

تضع الآثار والشواهد العتيقة الخطوات الأولى في تقدم السوقة في عهد سرفيوس . ويدل الحقد الذى احتفظ به البطريقة لهذا الملك دلالة كافية عما كانت عليه سياسته . كان أول إصلاح له هو إعطاء الأراضي للسوقة . حقاً إنها لم تكن من الأراضي الرومانية ager Romanus بل من الأراضي المستولى عليها من العدو ؛ إلا أن هذا لا ينقص من أنه كان من التجديد الخطير أن يمنح بذلك حق الملك على الأرض لأسرات كانت لا تستطيع إلى ذلك اليوم أن تزرع سوى أرض الآخرين (١)

والأخطر من هذا أنه وضع قوانين للسوقة الذين لم تكن لهم قوانين حتى الآن . وكان معظم هذه القوانين خاصاً بالالتزامات التي يستطيع السوقة أن يتعاقد عليها مع البطريق . فكان هذا بداية شرع مشترك بين الطبقتين ، وبالنسبة للسوقة بداية المساواة (٢)

ثم إن هذا الملك أقام تقسيماً جديداً في المدينة . كون أربع قبائل جديدة وزعت فيها الأهالي كافة حسب المسكن ، دون أن يهدم القبائل الثلاث القديمة حيث كانت الأسرات البطريقية والموالي موزعين طبقاً لمولدهم . سبق أن رأينا هذا الإصلاح في أثينا وقلنا ما كانت عليه آثاره . فقد كانت هي بذاتها في روما . فإن السوقة التي لم تكن داخلة في القبائل القديمة قد قبلت في القبائل الجديدة (٣)
هذا الجمهور الذي لم يكن مستقراً ، والذي كان نوعاً من الرحل لا يربطه بالمدينة أي رابط ، هذا الجمهور أصبحت له من الآن أقسامه الثابتة ونظامه المنسق . وتكوين هذه القبائل التي تختلط فيها الطبقتان هو الدلالة الصحيحة على دخول السوقة في المدينة . وكان لكل قبيلة موقد

(١) تيتوس ليفيوس ، ١ ، ٤٧ ؛ ديونيسيوس ، ٤ ، ١٣ . سبق أن قسم الملوك السابقون الأراضي المستولى عليها من العدو . لكن ليس من الموثوق به أنهم ضموا السوقة في تقسيمه .

(٢) ديونيسيوس ، ٤ ، ١٣ ؛ ٤ ، ٤٣ .

(٣) شرحه ٤ ، ٢٦ .

وقرابين ، وأقام سرفيوس آلهة لاريس Lares في كل تقاطع للشوارع في المدينة وفي كل دائرة في الريف فكانت آلهة للذين لم تكن لهم آلهة حتى موعد وكان للسوقة يجتمعون للأعياد الدينية الخاصة بحيهم وقريتهم (compitalia, paganalia) كما كان الشريف يجتمع به بين أقربائه ومواليه فقد أصبحت للسوقة ديانة

وفي الوقت نفسه وقع تغيير كبير في الاحتفال المقدس بالتطهير فقد أخذ الشعب مرتباً حسب الطبقات مع إحصاء من لا تقبلهم الطبقات ، بل مثل في الكتيبة المقسمة حسب الأعمار من أهل روما . جميع أولئك الذين كانت تتكون منهم الكتائب الجديدة وأول مرة اجتمع الناس كلهم دون تمييز بين الطارقة والموالي والسوقة . وطاف الملك بهذا الجمع الخليط وهو يدفع الأضحية بين يديه وينشد النشيد للاحتفال . وعند انتهاء الاحتفال وجد الجميع أنفسهم مواطنين على قدم المساواة

لم يكن يميز في ومن قبل سرفيوس إلا نوعان من الناس الطبقة الكهنوتية من البطارقة ، ومعهم مواليهم ، وطبقة السوقة . ولم يكن يعرف أي تمييز آخر غير الذي أقامته الديانة موروثة وقد حدد سرفيوس تقسيماً جديداً وهو ذلك التقسيم الذي يقوم على الثروة فقسم أهل روما إلى قسمين كبيرين كان في إحداهما أولئك الذين لا يملكون شيئاً ما . وفي الأخرى أولئك الذين يملكون شيئاً وتنقسم الأولى ذاتها إلى خمس طبقات وزع الناس عليها طبقاً لمقدار ثروتهم (١) وبذلك أدخل سرفيوس في المجتمع الروماني مبدأ جديداً كل الجدة فقد أصبحت الثروة منذ الآن تحدد مراتب الناس كما كانت الديانة من قبل .

(١) يعد ما جعل الكتاب القدماء في العدد ست طبقات . والحق أنه لم يوجد سوى خمس . شيشرون ، الجمهورية ٢ : ٢٢ ؛ أولوس جيليوس ، ١٠ : ٢٨ . فكان الفرسان من جهة ، والمعفيون من جهة أخرى ، خارج الطبقات . هذا ويجدر أن نلاحظ أنه لم يكن للفظ classes في اللغة معنى شبيه بمعنى لفظ classe طبقة في اللغة الفرنسية ، بل كان معناه فرقة من الجيش ، الاتيوس بيكتور في أولوس جيليوس ١٠ : ١٥ ؛ شرحه ١ : ١١ ؛ فستوس طبعة ميلر (Müller) ص ١٨٩ و ٢٢٥ . وفي ذلك دليل على أن التوزيع الذي قرره سرفيوس كان حربياً أكثر منه سياسياً .

طبق سرفيوس هذا التقسيم للشعب الروماني على الخدمة العسكرية فقبله كانت السوقة لا تدعى للانخراط في صفوف الجيش النظامي (legion)، ولكن لما جعل سرفيوس منهم ملاكاً ودافعي ضرائب، استطاع أن يجعل منها جنوداً نظاميين أيضاً. ولم يعد الجيش مكوناً من الأشراف من وحدات العشائر دون سواهم، إذ انضم إليه جميع الرجال الأحرار، وعلى الأخص كل من يملك شيئاً ولم يستمر مقتصراً على غير المعفيين (assidui, locupletes) وبعد مرتبة الطبقة التي هي التي تحدد سلاح كل جندي ومكانه في معركة كل جيش. فالأغنى مالاً، ممن أمكنهم شراء عدة الحرب من الطبقة الأولى، كانت كاملة السلاح، ومن صفين ثابتين. للذين كانوا في الطبقة الأولى درع وخوذة وسيف. وكانت تتكون الصفوف الثلاثة من الجنود، وكانت الطبقات الرابعة والخامسة مسلحتين تسليحاً خفيفاً ويكونون منها المحاربين الخفاف (velites) ورماة المقلاع. وكانت كل طبقة مقسمة إلى فرق تسمى كل فرقة منها (centuria). وكانت الطبقة الأولى تكون ثمانين فرقة، والأربع الأخرى كل واحدة عشرين أو ثلاثين فرقة، ولم يجد جديداً حين جدد سرفيوس تجديداً كبيراً فيمن كان من الطبقة يحاربون دون سواهم فرق الفرسان. سمح سرفيوس لعدد معين من السوقة من أكثرهم ثراء أن يحاربوا على ظهور الجياد، وكونوا بهم ثماني عشرة فرقة منتقبة جديدة.

هذا ولم يكن من المستطاع أحد من الجيش دون مساس بالدستور السياسي في نفس الوقت شعر السوقة أن فيهم في دولة قد أصبح لهم سلاح ونظام وروحه، وكان لكل فرقة منهم مقدمها (centurion) ورايتها المقاتلة. وكانت هذه المنظمة الحربية دائمة لا يحلها سلم. حقاً إن الجنود كانوا يهجرون الصفوف عند عودتهم من القتال إذ كان يحرم عليهم دخول المدينة بهيئة جيش، لكن عند أول إشارة كانوا يتوجهون بصفوف حاملي السلاح إلى حقل مارس حيث يجد كل منهم فرقته ومقدمه ورايته. وقد حدث بعد سرفيوس توليوس بخمسة وعشرين عاماً أن فكروا في دعوة الجيش دون أن يكون ذلك لغزوة حربية، بل ليجتمع الجيش واحد صفوفه. وكل فرقة

مقدمها على رأسه وزميلها في وسطها . تكلم الحاكم واستحثهم وحثهم يصوتون (١) . صوتت أولا الفرق الثمانية الست الأسطرية وفرق الفرسان السوقة الاثنتا عشرة . ومن بعدها فرق الثمانين من الطبقة الأولى ثم الفرق الأخرى بعد ذلك . وهكذا استقر بعد زمن قصير مجمع الفرق المئينية حيث كان يشكل من كان جندياً الحق في التصويت . وحيث لا يكاد يميز السوقة من الحربي (٢)

غيرت كل هذه الإصلاحات مظهر المدينة الرومانية تغييراً فريداً . بقيت صفة الأسطارقة قائمة بعاداتها الموروثة وبيوتاتها وعبس شيوخها . تكون السوقة

(١) يصف ديونيسيوس هاليكارناسي مظهر هذا المجمع فيقول [illegible] Σωρευθὲν τὸ πλῆθος εἴσω ... [illegible] ... ὥσπερ ἐν πολέμῳ VII 59. Cf. Id. VI, 81 "Ἔχοντας τὰ ὅπλα

(٢) يقول لنا أنه مما لا يقبل الجدل أن هذا [illegible] لم يكن سوى اجتماع الجيش الروماني . والدليل على ذلك هو أولا : أن هذا الجمع [illegible] كثيراً ما سميه الكتاب اللاتينيون بالجيش . Urbanus exercitus, Varron, VI, 93. Cum comitiorum causa exercitus eductus esset, Tite-Live, XXXIX, 15. Miles ad suffragia vocatur et comitia centuriata dicuntur, Ampélius, 48. ثانياً : أن هذه [illegible] كانت تدعى [illegible] كما يدعى الجيش عند دخوله الحرب أي على صوت البوق [illegible] علمان على القلعة أحدهما أحمر لدعوة [illegible] والآخر أخضر [illegible] ثالثاً : أن هذه [illegible] في حقل مارس لأن الجيش لم يكن يستطيع أن يجتمع بداخل المدينة [illegible] رابعاً : أنها كانت [illegible] مع [illegible] سلاح [illegible] ٣٧ ، ١٢٨ [illegible] سلاح [illegible] ٤ : ٨٤ [illegible] والفرسان من ناحية أخرى [illegible] على رأسها [illegible] ورايتها [illegible] ὥσπερ ἐν πολέμῳ [illegible] ٥٩ [illegible] أن من [illegible] لم يكونوا [illegible] الجيش [illegible] في هذه [illegible] على الأقل في القرون الأولى [illegible] (Depontani [illegible] classis [illegible] centuria كانت تطلق على فرقة عسكرية [illegible] يتجمع [illegible] أنه لما كان من [illegible] أن يؤخذ في الجيش [illegible] أن يؤلفوا فرقة في هذه [illegible] .

ألفت الاستقلال، والثراء، والسلاح ؛ والمدينة لم تندمج السوقة في طبقة السراة لكنها كسرت غرورها

حقاً إن طبقة السراة أخذت بثأرها منذ عهد سرفيوس ، وربما بعد طردت تاركوينيوس ولقد عاشت السوقة مع الملكية

أخذ السراة أنفسهم في الازدياد كلما حصلت عليه طبقة السوقة في عهد الملوك فكان من أول همهم أن ينتزعوا من السوقة الأراضي التي منحها لهم سرفيوس ، ويمكن أن نلاحظ أن المبدأ الوحيد الذي تذرعوا به لسلبهم أرضهم على هذا النحو هو أنهم كانوا سوقة (١) وبذلك فقد أعاد السراة المبدأ القديم إلى سابق عهده ، ذلك الذي كان يرى أن تكون الملكية الموروثة دون سواها أساساً لحق الامتلاك . والذي لم يكن يسمح للمسكين الرحال الذي لا دين له ولا أسلاف له من ممارسة أي حق على الأرض

وقد سحبت أيضاً حقوق أخرى في عهد سرفيوس السوقة وقد كان عدم الصفات وجمع ... ممكنة لم تستقل ... كان مرجع ذلك ولا شك أن حالة الحرب لم تكن تسمح للسكان بهذه الحقوق . وربما لأنهم عرفوا كيف يحصلون هذه الحقوق ... أن تحمي الطبقة ... لم ... على ... من السوقة . تركوهم مشوقين للاحتفاظ ... من الحق أن طبقة الطارقة ... السوقة أن تكون جزءاً من المدينة لم تقسم معها حقوق سياسية ولا دينية ولا غير من شيء في مدينة ... . ولكنهم كانت قد أقصيت عن ...

يجدر ألا نتحول ... في ... وألا نظن أنهم ... حظه الاضطهاد ... ومحنتها ... فقد ... ومقلسة ، وشاعر بأنه ... عادة . ... بينهم ... حتى ... القديمة قواعده في ... كل عصر ... gens ... وعدوا أن ... لا تستطيع أن تكون شيئاً غير

(١) كاسيوس هيمنا (Hemina) في نونيوس ، الكتاب ٢ ، لفظ Plevitas

جماعة من رؤساء العشائر. لا يدخل في حسابه أنه من الإمكان أن يكون هناك نظام سياسي آخر غير ذلك الذي يقوم على العادة، وحكام آخرون غير أولئك الذين يقدمون القرابين بأنفسهم. ولا قوانين أخرى غير تلك التي أملت الديانة صيغها المقدسة. ومن كان يجب ألا يعترض عليه بأن للسوقة ديانة أيضاً منذ فترة وجيزة. وأنهم يقدمون القرابين للاريس (Lares) التي أقيمت في مفارق الطرق، لأنه كان يجيب بأنه ليس لهذه العبادة الصفة الجوهرية للديانة الحقيقية، وأنها بدعة وزائفة. وأن مواقدهم لم تكن نيراناً عتيقة. وأن هذه الآلهة اللاريس لم تكن أسلافاً حقيقيين. وكان يضيف أن السوقة باعطائهم أنفسهم عبادة عملوا ما لم يكن لهم حق فيه. وأنهم لكي يتخذوا لأنفسهم عبادة قد حرفوا جميع المبادئ. وأنهم لم يأخذوا إلا مظهر العبادة الخارجية وحذفوا منها المبدأ الجوهري وهو الوراثة. وفي النهاية، أن ما يحاكون به الديانة هو نقيض الديانة من جميع الوجوه.

الذي تشبث بفكرة أن الديانة الموروثة هي التي يجب أن تحكم الناس دون سواها يرى أنه من غير الممكن قيام حكومة من السوقة. ولم يكن يدرك أن في استطاعة السلطة الاجتماعية أن تباشر بعد وجودها على عدد من الناس بطريقة نظامية لم يكن في الاستطاعة تحت قانون مقدس عندهم. فقد كانت للديانة أرضاً مقدسة محرمة عليهم. حتى كان هذا الوقت الذي أخذوا على أنفسهم أن يحكموا السوقة. وتصرفوا حسب قواعد معينة أعطتهم فيها صحة واستقامة دائمة ولا صفة لهم ومن الديانة القديمة. لكن الديانة استعادت سلطانها بفضل الثورة التي طردت الملوك وبهذا الأمر، بحكم الضرورة، بأن طرحت جميع طبقة السوقة خارج القوى الاجتماعية.

وعندئذ أخذت طبقة البطارقة تنصب حكومة متفقة مع مبادئها هي. لكنها لم تفكر في إقامة حكومة للسوقة. ثم جاءت حركة طردهم من روما. لكنهم لم يجدوا كذلك وسيلة لجعلهم مجتمعاً منتظماً. وهكذا رؤيت في وسط روما آلاف من الأسرات تعيش خارج قوانين الإنسانية ولا نظام اجتماعي ولا منصب في الدولة. فقامت المدينة، وهي الشعب (populus) أي مجتمع البطارقة ومن يلحق به

من مواليه . قوية . منظمة . حية . وحولها يعيش جمهور السوقة الذى لم يكن شعباً ولا يكوّن هيئة . وكان القناصل ، رؤساء المدينة البطريقية ، يحافظون على النظام المادى بين هؤلاء الأفراد غير المنظمين ؛ أما السوقة فكانت تعيش ، ولعلمها وفقرها على العموم كانت تنحنى تحت قوة الهيئة البطريقية .

كانت المعضلة التى تقرر عليها مستقبل روما هى الآتية : كيف تصبح السوقة مجتمعاً نظامياً ؟

فهذه لم تكن السوقة ترى وهى تحت سيطرة مبادىء الدين الصارمة غير وسيلة واحدة لحل هذه المعضلة وهى إدخال السوقة فى نطاق العشيرة المقدسة عن طريق الولاء . ويلوح أن محاولة قد بذلت فى هذا الاتجاه . فإن مسألة الديون التى شغلت روما فى تلك الفترة لا يمكن تفسيرها إلا إذا رأينا فيها مسألة أشد خطورة هى مسألة الولاء والعبودية servage . لم يعد فى استطاعة السوقة الرومانية أن تعيش بعد أن حرمت من أرضها . وحسب البطارقة أنهم سيستطيعون فى حمايتهم عن طريق التضحية ببعض المال . اقترض رجل السوقة ، ومن ثم فهو سلم نفسه للدائن وارتبط به بعملية كان الرومان يطلقون عليها اسم نكسوم (*nexum*) وهو نوع من البيع كان يجرى *per aes et libram* (بالرطل والميزان) ، أى مع الإجراءات الاحتفالية التى كانت تستعمل فى العادة لمنح رجل حق ملك على شىء ما (1) حقاً إن السوقة كان يتخذ الضمانات ضد الاستعباد فكان يشترط بعقد من عقود الثقة (contrat fiduciaire) أن يحتفظ بحريته كرجل حر إلى يوم السداد وأنه فى ذلك اليوم يستعيد امتلاكه التام لنفسه بسداد الدين . ولكن إذا أتى ذلك اليوم ولم يوف السوقة بالدين فإنه يفقد الانتفاع بعقده ويحسب أنه قد أصبح *addictus* (2) فإنه يصير تحت رحمة الدائن الذى يأخذه فى منزله ويجعل منه خادمه . لم يكن البطريق يعتقد فى هذا

(1) فارون ، اللغة اللاتينية ، ٧ ، ١٠٥ ؛ تيتوس ليفيوس ٨ ، ٢٨ . أولوس جيليوس ٢٠ ، ١ ، فستوس تحت لفظ **Nexum**

(2) هو اللفظ الاصطلاحى للمدين الذى يوقع عليه التنفيذ البدنى عند عدم وفاء الدين . — المعرب

لكنه كان يعمل عملاً معادياً للإنسانية ، إذ أن المثل الأعلى للمجتمع في نظره هو نظام الفضيلة . لم يكن يرى شيئاً أكثر اتفاقاً مع الشرع ولا أجمل من أن يستدرج الناس إليها بأية وسيلة كانت . لو نجح في مشروعه لاختفت طبقة السوقة في وقت قصير . ولما كانت المدينة الرومانية غير مجتمع من العائلات البطريقية تقتسم جمهور الموالي :

لكن هذا الولاء كان عملاً يجزع السوقة منه . فكان يفوض البطريق المسيح بدينه والذي كان يريد أن يدخله في هذا الولاء . إذ أن الولاء كان بالنسبة له مرادفاً للرق ، وكان يرى منزل البطريق سجناً *ergastulum* . وفي أكثر من مرة كان السوقة عندما يضع البطريق يده عليه ، يلتمس سنداً من أشباهه ويثير السوقة وهو ينادي أنه رجل حر ويستشهد بالحروب التي نفذها في الغربة دفاعاً عن روما . لم يؤخذ حسب معارفه إلا أنه ثمرة سوقة . فرب قدر أن الخطر وتضعف لكن قوته إلى الخروج من هذه الحالة الشقية التي وضعه فيها مقوم الحكومة ممكنة . فأرادت أن تكون لها قوانين وحقوق

ولكن لا يتوهم أن هؤلاء الناس تمنوا في بداءة أن يشتركوا في قوانين البطارقة وحقوقهم . ربما كانوا يعتقدون كما كان يعتقد البطارقة أنفسهم أنه ليس يستطيع أن يكون هناك شيء مشترك بين الطبقتين . ما من أحد كان يفكر في مساواة المدنية والسياسية . لم يكن ارتفاع السوقة إلى مستوى البطارقة يدخل في ذهن سوقة القرون الأولى أكثر مما كان يدخل في ذهن البطريق . لم يكن هؤلاء الناس يطالبون بالمساواة في الحقوق والقوانين بل الأمثل أنهم كانوا ينفصلون في البدء انفصالاً تاماً . لم يجدوا في روما علاجاً لآلامهم ، لم يجدوا غير وسيلة للخروج من حظهم ألا وهي الابتعاد عن روما

ويؤدي المؤرخ القديم فكرتهم أداء حسناً عندما ينسب إليهم هذا الحديث « حيث أن البطارقة يريدون امتلاك المدينة دون سواهم فليتمتعوا بها وفق راحتهم بالنسبة لنا ، ليست روما شيئاً ما . ليس لنا هناك مواقد ولا قرابين ولا وطن . إننا لا نهجر غير بلدة أجنبية . لا نترك بهذا الهجر ديانة موروثة . كل أرض

صاحة ما ، حيث تجد الحرية هناك يكون وطنا ، (1) وذهبوا للإقامة على الأكمة المقدسة خارج حدود زمام روما (ager romanus) .

أمام عمل كهذا تشعب عواطف مجلس الشيوخ ، فأظهر أشد الطارقة تحمساً أن رحيل السوقة أنفع من أن تثير شجونهم مستقبل الطارقة ، منذ الآن ، وحدهم في روما مع الموالي الذين لا يزالون أوفياء لهم . إن روما ستشذون عن عظمتها المقبلة لكن الطارقة سيكونون سادة فيها . ليس لهم أن يهتموا بعد الآن بهذه السوقة التي لا يمكن أن تنطبق عليها قواعد الحكومة البلدية ، والتي كانت موضع حيرة المدينة . بل ربما كان الأوجب طردها في ذلك الوقت الذي طرد فيه الملوك ، وما دام رأيها قد استقر على الابتعاد عن الواجب تركها تنفذ رأيها والابتهاج بذلك

لكن آخرين ، أقل ولاء للمبادئ القديمة أو أكثر اهتماماً بالعظمة الرومانية ، جزعوا لرحيل السوقة ، كانت روما تفقد نصف جنودها ، فماذا يكون أمرها بين اللاتينيين والسابينيين والأتروسك وكلهم أعداؤها ؟ كان للسوقة نفعها فلماذا لا يعرفون كيف يستخدمونهم لصالح المدينة ؟ وقد تمنى هؤلاء الشيوخ أن تعود إلى المدينة هذه الآلاف من الأيدي التي كانت قوة الجيش في مقابل بضع تضحيات ربما كانوا لا يدركون كل عواقب

ومن ناحية أخرى ، لحظت السوقة بعد بضعة شهور أنها لا تستطيع أن تعيش على الأكمة المقدسة حقاً فقد كانت تحصل على الموارد المادية لوجودها لكنها كان ينقصها كل ما يكون مجتمعاً منظماً لم تكن تستطيع أن تؤسس هناك مدينة لم يكن لديها ست در (بريتانيون) موقدة مقدساً يجد فيه رجال الدولة فرصة لتقديم القرابين لم يكن باستطاعتها أن تجد أساساً للقوى الاجتماعية إذ أن القوانين الوحيدة التي كانت تخطر في بال الإنسان عندئذ كانت مشتقة من الديانة البطريقية وعلى الجملة لم تكن فيها العناصر اللازمة لإنشاء مدينة . رأت السوقة أنها أصبحت

(1) ديونيسيوس ٦ ، ٤٥ ؛ ٦ ، ٧٩ .

أكثر استقلالاً لكنهم لم يكن لهم نظام . وقد تكون تكوّن مجتمعاً أكثر انتظاماً مما كانت عليه في روما ، وأن معضلة التي كانت تهتم بها اهتماماً شديداً لم تحل بذلك . لم يكن يتحدث عن روما محدثاً أي شيء . ولم يكن عنده الحكمة المقدسة التي تستطيع أن تحدث عن القوانين والحقوق التي كانت تقدمها لهم .

وإن قد حدث أنه وإن لم يكن هناك شيء مشترك بين طبقتي السوقة والطارقة ، لأنه لم يكن في استطاعة إحداهما أن تعيش بدون الأخرى فتقربت وعقدت معاهدة تحالف . ويلوح أن هذه المعاهدة عقدت بنفس الصورة التي كانت تعقد بها المعاهدات التي تنهي حرباً بين شعبين مختلفين . والواقع أن طبقتي السوقة والطارقة لم تكونا شعباً واحداً ولا مدينة واحدة (١) لم يوافق الطارقة مقتضى هذه المعاهدة على أن تكون السوقة جزءاً من مدينة الدينية والسياسية ، بل يلوح أن السوقة لم تتصور ذلك . وإنما نصوا فقط على أن تجتمع السوقة في هيئة مجتمع وأن تكون لهم رؤساء من بينهم (٢) ذلك هو أصل منصب عرفاء السوقة Tribunat de la plebe ، وهو نظام جديد لا يشبه ما كانت تعرفه المدن من قبل في شيء .

لم يكن سلطة العريف من نفس طبيعة سلطة رجال الدولة ، ولم تنشأ من عبادة المدينة . لم يكن العريف يقوم بأي حفلة دينية ، كان ينتخب دون استخارة ولم تكن موافقة الآلهة ضرورية لتعيينه (٣) ، لم يكن له كرسي من كراسي الدولة (siege curule) ، ولا ثوب ارجواني ، ولا تاج من أوراق الشجر ، ولا أية علامة من تلك العلامات التي كانت في جميع المدن القديمة تؤهل رجال الدولة ذوي الصفة الكهنوتية لتبجيل الناس

١) تيتوس ليفيوس ٤ ، ٦ : Foedere icto cum plebe . قارن ديونيسيوس ٦ ، ٨٩ ، لسبانس صراحة . وقد حوفظ في روما زمناً طويلاً على هذا القانون الذي كان يسمى lex sacrata . وروى ديونيسيوس بعض مقتطفات منه (٦ ، ٨٩ ؛ ١٠ ، ٣٢ ؛ ١٠ ، ٤٢) ؛ انظر فستوس ص ٣١٨ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٢ ، ٣٣ : Concessum ut plebi sui magistratus essent

(٣) ديونيسيوس ١٠ ، ٤

لم يكونوا يعتبرونه بين رجال الدولة رومانيين حقيقيين (١)

هذا كانت إذن صفة سلطته . ومع ذلك كان مفهوماً أنه من الضروري أن نقضي على أذهان كل الأفراد وكل [illegible] حديثة وأن نتقبل جهد طاقة وسعة عقائد القدماء حتى [illegible] ولم يكن الناس يفهمون سلطة إلا كسلطة للكهنوت [illegible] كانوا [illegible] أن يقيموا سلطة غير مرتبطة بعبادة ، ورؤساء ليسوا كهنة ، [illegible] طرفاً معنوياً في [illegible] كانوا عند تعيين العرفاء الأولين يقومون باحتفال ديني ذي صفة خاصة (٢) [illegible] المؤرخون شعائره [illegible] بأن نتيجته هي جعل هؤلاء العرفاء الأولين مقدسين sacrosancti . [illegible] لا نجد هذا المصطلح بالمعنى [illegible] ، فإن كلمة sacrosanctus كانت تدل على شيء مخصص للآلهة في اللغة الدينية عند القدماء [illegible] كانت تنص على الأشياء المنذورة للآلهة والتي لم يكن يجوز لامرئ أن يمسها [illegible] لم يكن منصب العريف هو الذي صار مقدساً ، بل شخصه كان [illegible] (٣) هو الذي وضع في صلة مع الآلهة حتى لم يعد هذا [illegible] شيئاً دنيوياً بل شيئاً مقدساً ومنذئذ لم يعد يستطيع أي إنسان أن يصدمه دون أن يرتكب جريمة التعدي على حدود الآلهة ودون أن يلحق بنفسه دنس [illegible] ἐναγὴς εἶναι (٤)

(١) [illegible] Καίνουν ἀρχῆς μᾶλλον ἢ ἀρχήν . [illegible] تيتوس ليفيوس [illegible] أن [illegible] privatus sine [illegible] imperio sine magistratu [illegible] لم تكن كلمة magistratus تطلق في بعض الأحيان على العريف إلا من باب التوسع [illegible] منصب العريف قد [illegible] كثير [illegible] sanctissimus magistratus (النقل عن سكستيوس [illegible]) .

(٢) أغفل تيتوس ليفيوس الكلام عن هذا الاحتفال عند إنشاء منصب العرفاء لكنه يتكلم عنه عند إعادته سنة ٤٤٩ :
Ipsis quoque tribunis ut sacrosancti viderentur relatis quibusdam caerimoniis renovarunt et inviolatos eos tum religione tum lege fecerunt (III. 55)
[illegible] تدخل الديانة بنص الموضوع (٩ : ٤٧): Ἱερὰν μεγάλαις ἠσφαλισμένην ἐκ θεῶν ἀνάγκαις

(٣) [illegible] ٨٩ ἄρχοντας σώματα ἱερὰ καὶ πανάγια . شرحه Ζωναρᾶς ἱεροὺς : ٤٨ : ٩

(٤) شرحه ٨٩ : Τῷ ἄγει ἐνεχέσθαι زوناراس (Zonaras) ج ١ ص ٥٦

نقل إلينا بلوتارخوس عادة قديمة عن هذا الموضوع ، يلوح أنهم عندما كانوا يقابلون عريفاً وسط الجمهور كانت القاعدة الدينية تقضي بأن يتطهروا كما لو كانت هذه المقابلة قد دنست أجسامهم (١) . وهي سنة كان لا يزال بعض المتحنثين يلاحظونها في زمن بلوتارخوس وتعطينا فكرة عن النظرية التي كانوا ينظرون بها إلى منصب العريف قبله بخمسة قرون .

كانت هذه الصفة المقدسة تلازم جسم العريف طول مدة شغله لوظيفته . وعند ما ينتهي حينه ، كان ينقل إليه هذه الصفة . بالضبط كما كان القنصل ، عند ما ينتهي قنصل آخر ، ينقل إليه الاستخارات والحق في القيام بالشعائر المقدسة . وفي سنة ٤٤٩ كان منصب العريف شاغراً مدة عامين فكان لا بد لتنصيب عرفاء جدد من تجديد الاحتفال المقدس الذي كان قد حدث على الأكمة المقدسة .

لسنا نعرف أفكار القدماء معرفة تكاد تكون كاملة حتى نقول ما إذا كانت هذه الصفة المقدسة قد جعلت من العريف شخصاً محترماً في أعين معاصريه أو أنها على العكس كانت تجعله عرضة للعنة والمقت . وهذا الفرض الثاني أقرب إلى المعقول في الأزمنة الأولى على الأقل . أما المؤكد على كل حال فهو أن العريف كان أصبح مصوناً صيانة تامة فلم يكن ليد الغريب أن تمسه دون أن تقترف إثماً خطيراً .

وقد أيد أحد القوانين هذه الصفة وضمنها . فكان ينص على أنه ما من أحد يستطيع الاعتداء على العريف ، ولا أن يضربه ، ولا أن يقتله . وأضاف إلى ذلك أن من يسمح لنفسه بعمل من هذه الأعمال نحو العريف يصير نجساً وتصادر أمواله لمعبد سيريس Ceres ويمكن قتله دون قصاص (٢) . وينتهي بهذه الصيغة التي ساعدت كثيراً مساعدة قوية على تقدم منصب العريف في الزمن المقبل : « ليس لرجل من رجال الحكومة ولا لفرد ما أن يعمل شيئاً ضد

(١) بلوتارخوس ، مسائل رومانية ، ٨١ :
Πᾶσι νόμος ἐστὶ καθαίρεσθαι καὶ ἁγνίζεσθαι τὸ σῶμα καθάπερ μεμιασμένον
(٢) ديونيسيوس ٦ ، ٨٩ ؛ تيتوس ليفيوس ٣ ، ٥٥ .

العريف (١) » . وحلف جميع المواطنين تبعاً على الأشياء المقدسة، تعهدوا فيه بأن يلاحظوا دائماً هذا الحصن الغريب ، وتلى كل منهم صيغة دعاء استنزل به على نفسه غضب الآلهة إذا تعدى حدود هذا القانون وأضاف أن كل من يرتكب عنفاً على عريف فإنه يُعد أكبر تدنيس (٢)

وكان مبدأ العصمة من الاعتداء هذا يمتد إلى مدى يستطيع جسم العريف أن يمد إليه فعله المباشر . فإذا أساء قنصل معاملة أحد السوقة وحكم عليه بالسجن أو وضع ذلك يده عليه، ظهر العريف ووضع نفسه بينهما (intercessio) وأوقف يد القنصل . من ذا يجرؤ على أن يعمل شيئاً ضد العريف، أو يتعرض لمسه ؟

لكن العريف لم يكن يمارس هذه السلطة الفريدة إلا حيث يوجد . أما بعيداً عنه فقد كانت تساء معاملة السوقة . لم يكن له أي أثر على ما يجري بعيداً عن متناول يده وموقع نظره ومدى كلامه (٣)

لم يعطِ البطارقة حقوقاً للسوقة . وإنما قبلوا أن يكون لبعض السوقة مصانين؛ بيد أن ذلك كان كافياً ليكون هناك بعض الأمن للجميع . كان العريف بمثابة مذبح حي يرتبط به حق الاستجارة (٤)

وبطبيعة الحال أصبح العرفاء رؤساء للسوقة ، ونزعوا حق القضاء . وفي الحقيقة لم يكن لهم حق في أن يستدعوا أمامهم حتى أحد السوقة ، لكن كان في استطاعتهم القبض بالجسم (٥) وتجرد من يصبح بحق في قبضة يدهم كان عليه أن

(١) Denys, X 32 Οὔτε ἄρχοντι οὔτε ἰδιώτῃ συνεχωρεῖτο πράττειν οὐδὲν ἐναντίον δημάρχῳ

قال ديونيسيوس هذا [illegible] من [illegible] lex sacrata

(٢) Idem. XI 89 Ὡς ἕνα τῶν μεγάλων ἐναγῶν

(٣) *Tribuni antiquitus creati non juri dicundo nec causis querelisque de absentibus noscendis, sed intercessionibus faciendis quibus* PRAESENTES *fuissent, ut injuria* QUAE CORAM FIERET *arceretur.*
Aulu-Gelle, XIII, 12.

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ : *ὥσπερ βωμός*

(٥) أولوس جيليوس ١٣ : ٢٧ ، ديونيسيوس ٨ : ٨٧ ؛ ٦ : ٩٠

يطيع . بل يكفي أن يكون في الدائرة التي يسمع صوتهم فيها . فإن كلامهم هذا لم يكن يقاوم بل لا بد من الخضوع له حتى ولو كان المرء بطريقاً أو قنصلا .

لم يكن للعريف في الأزمنة الأولى أية سلطة سياسية . وحيث أنه لم يكن رجل دولة (magistrat) فإنه لم يكن في استطاعته أن يدعو البطون (curies) أو الفرق المئينية للاجتماع . لم يكن له أن يقدم أي اقتراح لمجلس الشيوخ ، بل لم يكن في فكر أحد في البدء أنه كان يستطيع المثول فيه . لم يكن هناك أي شيء مشترك بينه وبين المدينة الحقيقية أي بينه وبين المدينة البطريقية حيث لا يعترف له بأي سلطان . إنه لم يكن عريف الشعب ، بل عريف السوقة (١) .

كان هناك إذن كما كان في الماضي شعبان في روما ، الأمة والسوقة . أحدهما منظم تنظيماً قوياً ، له قوانين وحكام ومجلس شيوخ ، والآخر بقي جمهوراً لا حق له ولا قانون ولكنه كان يجد في عرفائه حماة له وقضاة .

ويمكن أن نرى في النصوص إلى أي حد كانت حرمة العرفاء ، وأية إباحة غير متوقعة أباحوها لأنفسهم . ما من شيء كان يسمح لهم بدعوة طبقة السوقة إلى الاجتماع ، ومع ذلك فقد دعوها . ما من شيء كان يدعوهم إلى مجلس الشيوخ ، جلسوا أولاً عند باب الغرفة ثم بعد في داخلها . ما من شيء كان يعطيهم الحق في محاكمة البطارقة ، لكنهم حاكموهم وحكموا عليهم . تلك كانت عاقبة هذه العصمة التي كانت تلازم شخصهم المقدس . كل سلطة كانت تسقط أمامهم . لقد تجردت البطارقة من سلاحهم يوم نطقوا مع الشعائر الاحتفالية أن كل من يمس عريفاً يصبح محرماً . فالقانون يقول لا يعمل أحد شيئاً ضد عريف . فإذا ما دعى هذا العريف السوقة إلى الاجتماع اجتمعت السوقة ، وما من أحد يستطيع أن يحل هذا الاجتماع الذي يضعه حضور العريف خارج متناول البطارقة والقوانين . إذا دخل العريف مجلس الشيوخ لم يستطع أحد أن يخرجه . وإذا قبض على قنصل فلن يستطيع أحد أن يخلصه من يديه .

(١) Tite-Live, II, 56 12. *Tribunos non populi sed plebis.*

لا شيء يقاوم جرأة عريف . وليس لأحد قوة ضد العريف اللهم إلا أن يكون عريفاً آخر .

وهكذا ، بمجرد ما أصبح للسوقة رؤساء لم تلبث أن أصبحت لها مجامع للشورى . ولم تكن هذه المجامع تشبه في شيء ما مجامع المدينة الطبقية . كانت السوقة موزعة في قبائل . وكان المسكن هو الذي يعين مكان كل واحد وليست الديانة أو الثروة . لم يكن المجتمع يبدأ بقربان ، ولم تكن الديانة تبدو فيه . لم يكونوا يعرفون الفألات . ولم يكن يستطيع صوت المتكهن أو الحبر أن يصرف الناس إلى التفرق . تلك كانت حقاً مجالس السوقة ولم يكن فيها شيء من القواعد القديمة ولا من ديانة الطارقة .

حقاً إن هذه المجامع لم تكن في بدئه تشغل نفسها بمصالح المدينة العامة : بها لم تكن تعين حكاماً ولا تصدر قوانين . لم تكن تتداول إلا في مصالح السوقة ولم تكن تعين غير رؤساء السوقة ولا تصدر إلا استفتاءات شعبية . وقد كان في روما زمناً طويلاً سلسلة مزدوجة من القرارات : فتاوى مجلس الشيوخ للطارقة والاستفتاءات الشعبية للسوقة . لم تكن السوقة خاضعة لفتاوى مجلس الشيوخ ولا الطارقة للاستفتاءات الشعبية . بل كان هناك شعبان في روما .

كاد ألا يوجد هناك شيء مشترك بين هذين الشعبين اللذين يتواجهان ويعيشان داخل نفس الجدران . لم يكن يستطيع أحد السوقة أن يكون قنصلاً للمدينة ولا يستطيع طريق أن يكون عريفاً للسوقة . لم تكن السوقة تدخل مجمع المئويات ولا الطريق مجمع القبائل (١) .

لقد كانا شعبين غريبين إلى حد أنه لم يكن بينهم لا حق زواج . يمكن القول إنه لم يكن بينهما آصرة مشتركة . فإذا تكلم الطريق باسم المدينة والقوانين ،

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٦٠ ، ديونيسيوس ٧ ، ١٦ ، فستوس تحت لفظ *Scita plebis*. من المفهوم أنا نتكلم عن الأزمنة الأولى . [illegible] الطارقة يعدون في القبائل ، لكنه لا ريب في أنهم لم يكونوا يقتنون في المجامع التي كانت تجمع بغير استخارات ولا احتفالات دينية ، والتي لم يعترفوا لها بأية قيمة شرعية زمناً طويلاً .

أجاب السوقة أنه لا يعرف هذه المدينة موروثة ولا لقوانين مستمدة منها إذا تابع الطريف بعادة المقدسة أجاب السوقة باسم الحق الطبيعي . كل منهما يرد على الآخر الاتهام بالحيف . كان كل منهما عدلاً طبقاً لمبادئه هو ، حيفاً طبقاً لمبادىء الآخر وعقائده . كان جميع ... وجميع الآباء يبدوان للسوقة امتيازات مغتصبة . وكان الطريف يرى في مجمع السوقة حشداً تأباه المدينة . وكان منصب القنصل للسوقة سلطة عسف وطغيان وكان منصب الطريف في نظر الطريف شيئاً دنساً ، شاذاً ، وعيباً بكرامة المبادىء . إنه لا يستطيع أن يفهم مثل هذا الرئيس يدعى بغير كاهناً ويدعى كي ينتخب دون استخارات . كان منصب الطريف يبدو بنظره تدنيس للمدينة . مثله مثل البدعة في الدين ؛ لقد كان عاراً على مدينة نعمة قد أخذ بطارقة . سيكون الآلهة ضدنا ضد ... سيكون عيب هذه القرحة التي تشكي أبداننا والتي يعم منها الفساد إلى جميع الهيئة الاجتماعية . كان تاريخ روما منذ عدة قرون مجرد نوع من سوء التفاهم بين هذين الشعبين . فليس كان يبدو كما لو كانا لا يتكلمان لغة واحدة . تمسكت طبقة الطارقة بإبعاد السوقة خارج الهيئة السياسية ، وصنعت السوقة لنفسها أنظمة خاصة بها . فأصبحت ثنائية الشعب الروماني كل يوم أكثر جلاء من سابقه

بيد أنه كان هناك شيء يربط بين هذين الشعبين ، ألا وهو الحرب كانت طبقة الطارقة حريصة على ألا تحرم نفسها من الجنود . تركت للسوقة لقب مواطن ، لكي تستطيع على الأقل أن تدمجهم في عداد الجند . وقد حرصوا على ألا تمتد عصمة الطريف خارج روما . وقد قرروا ألا يخرج طريف من المدينة قط . فكانت السوقة في الجيش مجرد رعية ، ولم تكن هناك سلطة مزدوجة . أمام العدو كانت روما تعود وحدة من جديد

ثم بعد طرد الملوك ، تعود ... على جمع الجيش لاستشارته في المصالح العامة أو في اختيار رجال الدولة . أصبحت هناك مجامع مختلطة تمثل فيها السوقة بجوار الطارقة ويرى في شريح جلاء أن هذه المجامع المكونة من ... الشبيبة اتخذت أهمية كانت تتزايد دائماً وأصبحت بتدرج غير محسوس ما كنا نسميه المجالس الكبرى .

والواقع أنه في الصراع الذي نشب بين مجمع الثروات ومجمع القبائل كان يبدو طبيعياً أن يصبح مجمع الفرق المئينية هيئة أرضى عند من يؤثرون مناقشة المصالح العامة فيها

لم يكن السوقة فقيراً دائماً فكثيراً ما كان ينتمي إلى أسرة أصلها من بلدة أخرى كانت فيها ثرية ومعتبرة . وقد نقلتها تقلبات الحرب إلى روما دون أن تجردها من الثروة ولا من هذا الإحساس بالكرامة الذي يصاحب الثروة في العادة. كما أن السوقة كان يستطيع في بعض الأحيان أن يثرى من عمله وعلى الأخص في زمن الملوك . عندما قسم سرفيوس الأهالي إلى فئات حسب ثروتهم ، دخل بعض السوقة في الفئة الأولى . لم يجرؤ الطارقة أو لم يستطيعوا أن يمنعوا هذا التقسيم إلى فئات . لم يكن الأمر يخلو إذن من سوقة يحاربون مع الطارقة جنباً لجنب في الصفوف الأولى ، ويصوتون معهم في الفرق المئينية الأولى .

هذه الطبقة ذات الثروة والشمم والفطنة أيضاً . والتي لا يمكن أن ترضى الهوان . ولا بد أنها كانت خطرة ، والتي كانت تخسر كثيراً إذا سقطت روما وتكسب كثيراً إذا ارتفعت ، هذه الطبقة كانت واسطة طبيعية بين الطبقتين المتعاديتين

لا يلوح أن طبقة السوقة قد شعرت بأي مضض لرؤيتها قيام فوارق الثروة في باطنها . وبعد إنشاء منصب العرفاء بستة وثلاثين عاماً رفع عدد العرفاء إلى عشرة لكي يكون هناك اثنان من كل طبقة من الطبقات الخمس . وإذن تكون السوقة قد قبلت التقسيم الذي قرره سرفيوس وتمسكت بالمحافظة عليه . وحتى الفقراء الذين لم تشملهم هذه الفئات لم تسمع منهم أية معارضة . بل تركوا من هم أكثر منهم رخاء مطالبهم ، ولم يعترضوا بأن يختار منهم عرفاء هم أيضاً

أما الطارقة فمن هذه الأهمية التي تحدثها الثروة لم يزعجهم إلا قليلا . لأنهم كانوا أثرياء بدورهم . فقد كان الطارقة أكثر حكمة أو أسعد حظاً من سراة أثينا ، الذين هووا في العدم يوم أصبحت الدرجة الاجتماعية تبعاً للثروة ، فهم لم يهملوا الزراعة ولا التجارة ولا حتى الصناعة نفسها فكان تنمية ثروتهم هو اهتمامهم الكبير على الدوام . وكان العمل والتقشف والمضاربة الحسنة من

فضلتهم دائماً هذه وقد زادوا في أملاكهم كل نصر على عدو وكل فتح جديد، لذلك لم يروا في ترك السلطة للأشراف ضرراً بيناً.

كان من عادة البطارقة وحكمتهم ألا يحتقروا ثروة حتى ولو كان من السوقة. كان الثري من السوقة يقترب منهم ويعيش معهم. وتقوم بينه وبينهم صلات عديدة من المنفعة أو الصداقة. كان السوقة يفهمهم بطريق أماني السوقة وحقوقهم بالتدريج وينتهي بطريق أن استسلم للاقتناع. ووصل تدريجياً إلى تكوين رأي عن السوقة أقل صلابة وأقل غطرسة ثم بعد ونشأ كل الثقة من حقه كما كان من قبل هذا وعندما يحدث أن يقدم مرة إلى أن يستخدم مشروع لم يستطيعوا تشجيعه في الدفاع عنه وبه أن يدافعوا عنه دفاعاً مبيناً. منذ اللحظة التي لا يؤمن فيها الطبقة المتميزة بحكم نفوذ طبقة البطارقة توشك أن تقضي على أمرها.

ويوضح أنه كان للطبقة الثرية من السوقة مصلحة في أن تحرص على طبقة السوقة التي خرجت منها والتي لا تنفصل عنها حيث إنها كانت لها مصلحة في عظمة روما فإنها كانت تتمنى نجاح البطارقة. فضلاً عن أنها كانت طموحة. وكان من المستحيل لها أن تصل بطبقتها فصلاً واضحاً بعد مستقبلها من الأبد إذ يربطها إلى الأبد بالطبقة الدنيا، بينما كان يفتح لها طريقاً لا يمكن رؤية نهايته. فكانت تجهد نفسها في توجيه أفكار السوقة وأمانيها في اتجاه آخر. فبدلاً من التشبث بتكوين طبقة منفصلة، وبدلاً من تجشم عناء في منح الشعب قوانين خاصة لن تعترف بها الطبقة الأخرى إطلاقاً، وبدلاً من العمل ببطء عن طريق الاستفتاءات الشعبية في إنشاء قوانين لاستعمالها وإعداد مجموعة قوانين لن تكون لها قيمة رسمية على الإطلاق، أوحت إليها بأن تطمع في المدينة البطريقية وأن تكون في القسم بين البطارقة وتشاركهم مناصبهم. وعندئذ اتجهت رغبات السوقة نحو الاتحاد الطبقي بشرط المساواة.

وبمجرد أن سلكت السوقة هذه الطريق، بدأت المطالبة بمجموعة القوانين. كانت في روما، كما في جميع المدن، قوانين مقدسة غير قابلة للتبديل، كانت

هذه القوانين مكتوبة وكانت سكهنة محفوظة على نصب، لكن هذه القوانين التي كانت جزءاً من الديانة لم تكن تنص إلا على أعضاء المدينة الدينية لم يكن للسوقة الحق في معرفتها ويمكن الاعتقاد أنه لم يكن له الحق أيضاً في الاستناد إليها. وجدت هذه القوانين للعشائر (curies) وللعصائب (gentes) وللطارقة ومواليهم بكيانهم موحد لغيرهم. لم تكن تعرف حق سلطة من لم يكن له معبد مقدس (sacra)، لم تكن تمنح حق التقاضي من لا دين له. وهذه صفة دينية خاصة في القانون هي التي أرادت طبقة السوقة أن تمحوها. فلم تقتصر على طلب تحرير القوانين كتابة وجعلها علانية بل طلبت أن تكون هذه القوانين تنص على السوقة وعليها هي بالسواء.

يلوح أن الطارقة أرادوا في بدء الأمر أن يكون تحرير هذه القوانين على يد بعض السوقة فأجاب الطارقة إنه من الحق أن الطارقة كانوا يجهلون ما هو القانون. ولو كان الأمر غير ذلك لما أمكن مثل هذه الفكرة. قال الطارقة إنه لمن المستحيل استحالة تامة أن يصدر السوقة قوانين. أنتم الذين لا سحارات لكم، أنتم الذين لا تقومون بأعمال دينية، أية صلة بينكم وبين الأشياء المقدسة التي يجب أن يعد القانون من بينها (٢)؟ وإذن فقد كان دعاء السوقة يبدو للطارقة إثماً وشيئاً ممسوخاً. لذلك ذكرت الحوليات المقدسة، التي رجع إليها تيتوس ليفيوس وديونيسيوس في ذلك الموضع من تاريخهم، عجائب مفزعة: سماء تلتهب، وأشباح تسبح في الهواء، وأمطار من دماء (٣). لكن الأعجوبة الحقيقية هي أن بعض السوقة قد خطرت ببالهم فكرة سن القوانين. لقد بدت

(١) أما عن وجود تشريع مكتوب من جمع الرجال العشرة فهو ما تشهد به عدة نصوص: ديونيسيوس ١٠ : ١ : ٣ : ٣٦ ؛ شيشرون : الجمهورية ٢ : ٣٦ ؛ يومبونيوس في الخلاصة (الديجست) ١ : ٢ ، ٢ ، و شرح هذه القوانين معلقة مع ثورة في بليبوس ٤ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٢ ؛ وسرفيوس ؛ ad Eclogas IV, 43; ad Georg., III, 387 ومصوص في مواضع متعددة.

(٢) تيتوس ليفيوس ٣ : ٣ . ديونيسيوس ١٠ ، ٤

(٣) يوليوس أبسكوينس Obsequens ، ١٦ .

الجمهورية معلقة ثماني سنوات بين الطبقتين اللتين كانت كل واحدة منهما تدهش لتشبث الأخرى. ثم وجد الفريقان حلا وسطاً فقبلوا، وما دمتم لا تريدون أن يكتب القانون أحد السوقة فسنختار الشارعين من الطبقتين. ومن هنا نفهم أنهم سمحوا بالكثير، لكنه كان قليلا إذا قرناه بصرامة المبادئ التي تنطوي عليها الديانة الطريقية. فرد مجلس الشيوخ بأنه لا يعترض مطلقاً على تحرير مجموعة قوانين، لكن هذه المجموعة لا يمكن أن يحررها إلا البطارقة. وانتهوا بإيجاد وسيلة للتوفيق بين مصالح السوقة وبين الضرورة الدينية التي كانت تطالب بها طبقة البطارقة. فقرروا أن يكون الشارعون جميعاً من البطارقة لكن مجموعة قوانينهم ستعرض قبل إقرارها وسيضعها على أعين الجمهور وتخضع للموافقة المدنية من جانب جميع الطبقات.

ليس هذا بالوقت الذي نحلل فيه مجموعة قوانين جماعة الرجال العشرة. وإنما يكفي أن نلاحظ منذ الآن أن عمل المشترعين قد عرض أولا في ساحة المدينة وناقشه جميع المواطنين في حرية، ثم قبلته بعد ذلك الجمعية المئوية أي المجمع الذي تمتزج فيه الطبقتان. فكان ذلك تجديداً خطيراً. لقد أصبح نص القانون ينطبق على الجميع ما دامت قد أقرته جميع الطبقات. وإنا لا نجد فيما بقي لنا من هذه المجموعة كلمة واحدة تنص على عدم المساواة بين السوقة والبطارقة سواء فيما يختص بحق الملك أو العقود أو الالتزامات أو الإجراءات. فمنذ هذه اللحظة مثل السوقة أمام المحكمة نفسها التي يمثل أمامها البطريق وتصرف كما يتصرف، وحوكم بمقتضى القانون الذي يحاكم به هذا. ولا يمكن أن تحدث ثورة أبعد مدى من هذه؛ فقد تغير في روما كل شيء. العادات اليومية، والأخلاق، وإحساسات الإنسان نحو الإنسان، وفكرة الكرامة الشخصية، ومبدأ الحق.

وكانت قد بقيت بضعة قوانين فعينوا عشرة رجال آخرين من بينهم ثلاثة من السوقة. وبعد أن أعلن بكل هذا العنف أن الحق في تحرير القوانين وقف على الطبقة، بلغت السرعة في تقدم الأمر أنه لم ينقض عام واحد حتى قبلوا سوقة بين المشترعين.

كانت الأخلاق تتجه نحو المساواة . كان قانون محظور لا يمكن أن يمنعه أن يمسك بنصه . كان من الضرورى عمل قانون تحريم الزواج بين الطبقتين وإنه لدليل قاطع على أن الديانة والأخلاق لم تعود كافيتين لتحريمه . لكن الوقت لم يكد يتسع لعمل هذا القانون حتى أسقطه تصويت العامة وقد تشبث بعض الطارقة بالتدرع بالديانة وسوف يدنس دمهم ويغلب الشنار على العبادة المتوارثة فى كل أسرة ، ومن يدرى أحد من أى دم ولد . ومن الغرائب بنعم سيكون ذلك قلباً لجميع الأنظمة الإلهية والبشرية على السواء . لم يكن السوقة ليفهموا شيئاً من هذه الأدلة التى لم يكن يبدو لهم غير لغة وتحايل لا قيمة لها . فإن نقاش قواعد الإيمان أمام قوم لا دين لهم شهد عاقبته هذا ، وقد أجاب العامة فى كثير من التوفيق : إن كانت ديانتكم تتحدث حقاً مثل هذا لعمرو ما هى حجتكم مثل هذا القانون ؟ إنه لا يمنعكم فى شىء . تحتجون وستظلون أحراراً كما كنتم من قبل فى عدم المصاهرة مع أسراب السوقة . وقد سحب القانون وسرعان ما تعدد الزواج بين الطبقتين وقد كانت الرغبة فى السوقة الأثرياء من الشدة بحيث رأوا آل ليكينيوس (Licinius) . وسنقتصر فى الكلام عنهم ، يصاهرون ثلاث فصائل من البطارقة : آل فابيوس وآل كورنيليوس وآل مانليوس (١) . وعندئذ استطاعوا أن يعرفوا أن القانون هو الذى كان ، فى لحظة من اللحظات ، الحاجز الوحيد الذى كان يفصل بين الطبقتين ومنذ الآن اختلط دم البطارقة بدم السوقة .

[illegible]

ومن الطبيعى أن توجد [illegible] فى شئون [illegible] [illegible] قد حرمت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

بيد أنه كان هناك سبب قوى جداً لم تكن المصاهرة مجرد بمرة بل كانت كهنوتاً لكى يكون المرء قنصلا لم يكن يكفى أن يقدم ضمانات من الذكاء والشجاعة والنزاهة بل كان لا بد على الأخص أن يكون أهلا للقيام باحتفالات

(١) تيتوس ليفيوس [illegible]

العادة العامة . كان لا بد أن ترعى الشعائر جداً وأن ترضى الآلهة . هذا ولم تكن لغير البطارقة الصفة المقدسة التي تسمح بتلاوة الأدعية وبحب الحماية الإلهية للمدينة . لم يكن بين السوقة والديانة شيء مشترك . فكانت الديانة تحول دون أن يكون السوقة قنصلاً ، *plebeium consulem fieri* .

يمكن أن نتصور دهشة البطارقة وسخطها عند ما تقدم السوقة لأول مرة بدعواهم في أن يكونوا قناصل . لقد بدا لهم أن الديانة مهددة . وقد جهدوا أنفسهم في إفهام ذلك السوقة ، بينوا لهم أية أهمية كانت للديانة في المدينة وأنها هي التي أسست المدينة . وهي التي تهيمن على جميع الأعمال العامة . وهي التي تدير مجامع الشورى وتعطي للدولة حكامها . وأضافوا أن هذه الديانة كانت ، وفقاً للقاعدة العتيقة (*more majorum*) ، ميراث البطارقة ، وأنه لا يمكن لسواهم أن يعرف هذه الشعائر أو يمارسها . وفي الختام أن الآلهة لا تقبل قربان السوقة . اقتراح انتخاب قنصل من السوقة إنما هو رغبة في القضاء على ديانة المدينة . ستكون العبادة منذ الآن مدنسة ولن تكون المدينة في سلام مع آلهتها (١) .

عملت طبقة البطارقة بكل جهدها وبكل حيلها لإقصاء السوقة عن مناصبهم في الدولة . فكانت تدافع عن ديانتها وعن سلطتها معاً . فبمجرد أن رأت أن خطر قد حل بالقنصلية وأن السوقة يوشك أن تحصل عليها ، فصلت عنها الوظيفة الدينية التي كانت لها الأهمية العظمى بين جميع الوظائف . تلك الوظيفة التي كانت تقوم بتقدير الضرائب على المواطنين ، ووجدت أنشأت وظيفة رقباء censeurs . وفي لحظة بدا لها فيها أنه من الصعب جداً أن تقاوم أماني السوقة استبدلت بالقنصلية منصب أمراء الحربيين . هذا وقد أظهرت السوقة صبراً كبيراً ، فقد لبثت خمساً وسبعين سنة تنتظر لتحقق رغبتها . ومن الواضح أنها استعملت من الحماس في الحصول على هذه المناصب العليا أقل مما استعملته في الحصول على منصب العريف ومجموعة القوانين .

لكن إذا كانت السوقة على شيء من عدم الاكتراث فقد كان هناك سراة من السوقة لهم مطامعهم . ها هي ذي أسطورة من ذلك العصر . تروي أن فابيوس

(١) تيتوس ليفيوس ٦ ، ٤١ .

أمبستوس (Fabius Ambustus) ، وهو من أوجه الطبقة النبيلة ، إحداهما لبطريق أصبح تريبوناً حربياً (tribun militaire) والأخرى لليكينيوس ستولون (Licinius Stolon) وهو من الرجال المرموقين ولكنه كان من السوقة . وقد حدث أن كانت هذه الأخيرة عند أختها عندما كان الحجاب يصاحبون التريبون الحربي إلى منزله ويقرعون الباب بعصيهم . ولما كانت تجهل هذه العادة فقد روعت ، وعلمت من ضحك أختها واستهزائها لتبين إلى أي حد حطت مكانتها بزواجها من أحد السوقة ، بوضعها في منزل لم تدخله مظاهر التبجيل والشرف إطلاقاً . وقد أدرك والدها أسباب حزنها وواساها ووعدها بأن ترى في منزلها يوماً ما رأت في منزل أختها ، وتواطأ مع ختنه وعمل الاثنان لتحقيق الغرض . وتعلمنا هذه الأسطورة شيئين على الأقل بين بعض التفصيلات الصبيانية التي لا يمكن تصديقها ، أحدهما أن سراة السوقة تفتحت مطامعهم للصدارة وتطلعت إلى مكانتهم لشدة معاشرتها لهم ، والآخر أنه كان هناك نبلاء يشجعون طموح هؤلاء السراة عندما يتحدون معهم بأوثق الروابط ويثيرون مطامعهم .

يبدو أن ليكينيوس وسكستوس (Sextius) الذي انضم إليه ، حسبا أن السوقة لن تبذل جهوداً عظيمة لإعطائهم الحق في أن يكونوا قنصلين ، بل اعتقدا أن عليهما أن يقترحا ثلاثة قوانين في وقت واحد . فقد سبق القانون الذي كان الغرض منه تقرير ضرورة اختيار أحد القنصلين من بين السوقة قانونان ، أنقص أحدهما الديون ومنح الآخر الأراضي للشعب . ومن الحق أن الغرض من القانونين الأولين هو إثارة حماس السوقة ، وقد أثبت خطأه كان السوقة فيه ذوي بصيرة نافذة ، فأخذوا من اقتراحات ليكينيوس ما كان خاصاً بتخفيض الديون وتوزيع الأراضي وتركوا القنصلية جانباً . ولكن سكستوس رد عليهم بأن القوانين الثلاثة غير قابلة للانفصال وأن لا بد من قبولها أو رفضها معاً . وكان الدستور الروماني يبيح مثل هذا الإجراء ، ويمكن أن نعتقد أن السوقة كانوا يؤثرون أن يقبلوا الكل على أن يفقدوا الكل .

ولكنه لا يكفي أن تريد السوقة بصدد قوانين ... بل كان لا بد في ذلك

العهد. من أن يدعو مجلس الشيوخ [illegible] بعد ذلك (١) وقد امتنع عن ذلك [illegible] . وفي [illegible] حدث حادث [illegible] ليقينيوس [illegible] (٢) [illegible] وأصبحت الحروب الدامية [illegible] مجلس الشيوخ [illegible] . [illegible] إلى المناصب الأخرى [illegible] الحزم (faisceaux) . وقضى [illegible] مجلس الشيوخ . [illegible]

[illegible] للكهنوت [illegible] الكهنوتية [illegible]

[illegible] (لاريس) . [illegible]

كان هناك [illegible] . فقد نشأت الطائفة بالدفاع عن أن الصفة الكهنوتية واحق في عبادة المعبود ووراثيته ، وحرص للسوقة الديانة والكهنوت من قاعدة

(١) تيتوس ليفيوس ٤ : ٦ ؟

(٢) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤٢ .

للميراث القديمة. وكانت تدعي أن كل رجل أهل لتلاوة الدعاء، وما دام المرء مواطناً فقد كان من حقه القيام باحتفالات عبادة المدينة. ووصلت إلى هذه النتيجة وهي أن السوقة يستطيع أن يكون حبراً.

لو كانت مناصب الكهنوت مستقلة عن الإمرة والسياسية لكان من الجائز ألا ترغب فيها السوقة بمثل هذا الحماس. لكن جميع هذه الأشياء كانت ممتزجة. كان الكاهن حاكماً والحبر قاضياً. وفي استطاعة المستخير أن يفض المجامع العامة. ولم يفت السوقة أن تلاحظ أنه لن تكون لها المساواة المدنية ولا المساواة السياسية بصفة حقيقية من غير المناصب الكهنوتية ولذا طالبت باقتسام منصب الحبر بين صفتين كما طالبت باقتسام القنصلية من قبل.

وقد أصبح من الصعب الاعتراض عليها بعجزها الديني. إذ أنه منذ ستين عاماً وهم يرون السوقة يقدم القرابين بصفته قنصلاً، ويعمل الشعائر بصفته رقيباً، ويقوم بمراسيم النصر مقدسة عند انتصاره على العدو. لقد نزعت السوقة جزءاً من الوظائف الكهنوتية عن طريق منصب الندوة فلم يعد من السهل إنقاذ الباقي منها. كان الإيمان بمبدأ الوراثة الدينية متزعزعاً عند الأشراف أنفسهم. وقد استند بعضهم عبثاً على القواعد القديمة وقالوا: «سوف تتدنس العبادة وتلوث بأيد غير جديرة، ولكن الآلهة أنفسهم احذروا أن حق عبادتهم ستدنس (١)». ولا نرى أنه كان لهذه الحجج قوة عظيمة على السوقة ولا حتى أنه كان لها أثر على أغلبية الأشراف. فقد كانت الأخلاق الجديدة في صف السوقة. فتقرر أنه منذ الآن سيختار نصف عدد الأحبار والمستخيرين من بين السوقة.

كان ذلك آخر ما احتفظت به الطبقة العليا، لم يعد لها ما ترغب فيه.

(١) تيتوس ليفيوس ١٠، ٦: *Deos visuros ne sacra sua polluantur*
يبدو أن تيتوس ليفيوس كان يعتقد أن هذه الحجة لم تكن إلا حجة شكلية تستعمل لكي تحتفظ في ذلك العهد إلى ذلك الحد، ٣٠٠ سنة قبل الميلاد. غير أنه يجدر أن تكون هذه الحجة مقنعة جداً في آراء الكثيرين من معاصريه.

لقد فقد البطارقة كل شيء حتى تفوقهم الديني ولم يعد هناك ما يميزهم عن السوقة . ولم تعد طبقة البطارقة غير اسم أو ذكرى ؛ واختفت المبادىء القديمة التي قامت عليها المدينة الرومانية كما قامت عليها جميع المدن القديمة . من هذه الديانة العتيقة للوراثة . التي حكمت الناس زمناً طويلا . وأقامت فوارق بينهم ، لم يعد باقياً غير مظاهرها الخارجية . حاربها السوقة أربعة قرون . في عهد الجمهورية . وفي عهد الملوك . وتغلب عليها

(١) [illegible] تلك القوانين والامتيازات [illegible] و [illegible] التي لم تكن [illegible] أية أهمية سياسية [illegible] ، دون أن [illegible] على [illegible] ؛ وأبدت طبقة البطارقة التي [illegible] على الدوام طبقة [illegible] لكنها لم تعد طبقة متمتعة .

الفصل الثامن

تغييرات فى القانون الخاص ؛

مجموعة قوانين اللوحات الاثنى عشرة ، مجموعة قوانين صولون

ليس فى طبيعة الشرع أن يكون مطلقاً وغير قابل للتحوير ، بل إنه يتغير ويتشكل كسائر أعمال الإنسان . ولكل مجتمع شرعه الذى يتكون ويتطور معه ، ويتغير مثله ، ويتبع دائماً حركة أنظمته وعاداته وعقائده .

خضع رجال العصور القديمة للديانة كلما زادت خشونتهم وزاد سلطانها على نفوسهم . هذه الديانة هى التى منحت لهم شرعهم كما أنها هى التى منحتهم نظمهم السياسية . لكن ها هو ذا المجتمع يتبدل . فالنظام الأبوى الذى ولدته هذه الديانة الوراثية قد ذاب مع الزمن فى نظام المدينة . تمزقت الفصيلة (gens) تدريجياً وانفصل الأصغر عن الأكبر والخادم عن الرئيس ؛ وكبرت الطبقة الدنيا ؛ وتسلحت . وانتهى إلى التغلب على الشراة والاستيلاء على المساواة . وكان لا بد أن يؤدى هذا التغيير فى الحالة الاجتماعية إلى تغيير آخر فى الشرع . إذ أنه بقدر ما كانت العشائر والطبقة الممتازة متمسكين بالديانة لأسرات العريقة ، والمتعلقة بالشرع القديم ، بقدر ما كانت الطبقة الدنيا حاقدة على هذه الديانة الوراثية ، التى طالما كانت سبب ضعفهم ؛ وعلى هذا الشرع العتيق الذى أرهقهم . لم تكن تبغضه فحسب بل إنها لم تفهمه . وحيث أنها لم تكن مؤمنة بالعقائد التى قام عليها فقد بدا لها أن ذلك الشرع قائم على غير أساس ، وحينئذ ضاع . ومنذ ذلك أصبح من المتعذر بقاؤه .

إذا وضعنا أنفسنا فى الفترة التى كثرت الثورة فيها ووضعت هيئة سياسية ، وقارنا شرع هذه الفترة بالشرع القديم ظهرت تغييرات خطيرة تظهر لأول وهلة . أولها وأبرزها أن الشرع أصبح علنياً ومعروفاً للجميع . إنه لم يعد ذلك النشيد

المقدس الحق الذي كانوا ينقلونه من عصر إلى عصر بذلك الاحترام الورع . والذي كان يملكه الكهنة دون سواهم ولا يستطيع أن يعرفه غير رجال الأسرات الدينية خرج الشرع من كتب الشعائر وأسفار الكهنة ، لقد فقد سره الديني ، لقد أصبح لغة يستطيع كل فرد أن يقرأها وأن يتكلمها

وثمة في هذه المجموعات القانونية شيء أكثر من ذلك خطراً . لم تعد طبيعة القانون ومصدره كما كانا في الفترة السابقة . فقد كان القانون قبل ذلك قراراً من الديانة ، كان يعتبر وحياً أوحت به الآلهة للأسلاف . للمؤسس الإلهي . وللملوك المقدسين . ولرجال الدين الكهنة . أما في المجموعات الجديدة فإن الشارع لم يعد يتكلم باسم الآلهة . فقد تلقت لجنة رجال العشرة سلطتها من الشعب ، والشعب أيضاً هو الذي خلع على صولون حق عمل القوانين . فلم يعد الشارع يمثل التقاليد الدينية بل الإرادة الشعبية . وأصبح مبدأ القانون منذ ذلك الوقت مصلحة الناس ، وأساسه موافقة العدد الأكبر منهم .

ومن هنا نتجت أمور : أولاً لم يعد القانون يبدو صيغة غير قابلة للتغيير أو النقاش ، بل أصبح عملاً بشرياً ويعترف بأنه عرضة للتغيير . تقول اللوحات الاثنتا عشرة ، « إن ما تأمر به أصوات الشعب في النهاية هو القانون . » (١) . ولا يوجد بين النصوص التي بقيت من هذه المجموعة نص له من الأهمية أكبر مما لهذا النص ، ولا ما يدل على طابع الثورة التي تمت عندئذ في الشرع خيراً من دلالته . لم يعد القانون تقاليد مقدسة ، mos ، بل مجرد نص ، lex . وبما أن إرادة الناس هي التي سنته فإن هذه الإرادة نفسها تستطيع أن تغيره .

والنتيجة الأخرى هي هذه : إن القانون الذي كان من قبل جزءاً من الديانة ، والذي كان ، بناء على ذلك ، ميراثاً للأسرات المقدسة أصبح منذ الآن مشتركاً بين جميع المواطنين . استطاع السوقة أن يستندوا إليه وأن يتقاضوا في المحاكم وكان ما استطاعه الشريف الروماني ، لعصره ، أشد صلابة وأكثر حيلة من [illegible]

(١) تيتوس ليفيوس ٧ : ١٧ ؛ ٩ : ٣٣ ، ٣٤ .

الأثيني . أنه حدث أن يجيء عن الجمهور أشكال جرائت لدعوى . ولكن هذه الأشكال لم تلبث أن أدمجت

وهكذا تغيرت صبغة الشرع ، ولم يعد بعدئذ يستطيع أن يضم نفس القرائض التي كان يشملها في الفترة السابقة . [illegible] كانت المدينة [illegible] عنه ، [illegible] علاقات الناس بعضهم ببعض [illegible] هذه [illegible] حدث في مدينة [illegible] أخرى لم يكن [illegible] شيئاً من [illegible] العدالة ، ولا من حق الإرث شيء ، ولا من سلطة الأب [illegible] ولا من قرابة العصبة . فأوجب أن [illegible] ذلك كله

والحق أنه لا يمكن أن يكون هذا التبدل في الشرع [illegible] دفعة واحدة ، لأنه إذا كان في [illegible] في بعض الأحيان أن يغير [illegible] فإنه لا يستطيع أن يغير [illegible] وشرعه [illegible] إلا [illegible] وهو ما يدل عليه تاريخ الشرع الروماني [illegible] الشرع الأثيني

كتب الألواح الاثنى عشر [illegible] الذين [illegible] كانوا من [illegible] على [illegible] وإذن لم يكن هذا التشريع هو الشرع الروماني الأول [illegible] يصبغ الشرع البريتوري ؟ إنه مرحلة انتقال بين [illegible]

ها هي ذي أولا النقط التي [illegible] يبتعد التشريع فيها عن الشرع [illegible]

[illegible] على سلطة الأب [illegible] وحكم عليه [illegible] ومعه [illegible] لا يمكن أن يكون [illegible] شيئاً [illegible]

وفي [illegible] يتنقل ميراث [illegible] العصبة [illegible] gentiles [illegible] الأقرب عن طريق [illegible] cognati [illegible] أي الأقرب عن طريق [illegible] يعترف [illegible] فهم لا يرثون [illegible] لا ترث الأم من الابن ولا الابن من الأم (١)

(١) [illegible] De invent., I, [illegible]

وهو يحتفظ بالتحرير ونسى بالصفة والآثار التى كانت لهذه الألفاظ فى الشرع العتيق . كان الابن المحرر يفقد نصيبه فى عبادة الأسرة وينتج عن ذلك أنه كان يفقد حق الإرث

وهناك فى الألواح النصوص التى يبتعد فيها هذا التشريع عن الشرع الدينى . يعنى صراحة إمكان قسمة الميراث بين الإخوة حيث أنه منح الـ *actio familiae erciscundae* (١) .

ويقضى أن الأب لا يستطيع التصرف فى شخص ابنه أكثر من ثلاث مرات ، وأن الابن يصبح حراً بعد بيعه ثلاث مرات (٢). وذلك هو أول تخفيف أدخله الشرع الرومانى بالسلطة الأبوية

وهناك تغيير أخطر من هذا وهو الذى أعطى الإنسان حق الوصية . كان الابن قبل ذلك وارثاً لذاته ووارثاً جبرياً (sien et nécessaire) ، وعند انعدام الابن كان يرث أقرب العصبة ، وعند انعدام العصبة يعود المال إلى عصبة *gens* بحكم ذكريات الزمن الذى كانت فيه العصابة ، وهى إذ ذاك متممة الشمل ، لا تزال مالكة بوحدة تملك على [illegible] . فتركت الألواح الاثنى عشرة هذه المبادئ [illegible] جانباً ، وعدت الملك حقاً للفرد ، و[illegible] بالفضيلة كما كان من قبل ، وعرفت ثمرة ذلك حق التصرف فى أمواله بالوصية

وليس المقصود بذلك أن الوصية كانت مجهولة تماماً فى الشرع الأول . فقد كان فى استطاعة الإنسان عندئذ أن يختار موصى له خارجاً عن العصابة ولكن على شرط أن يعتمد مجلس الشعب خيرته . إذ أنه لم يكن هناك من يستطيع أن يسمح بالانحراف عن النظام الذى أقامته الديانة من مضى غير إرادة المدينة . [illegible] الشرع الجديد الوصية من هذه القاعدة العتيقة وحفظ صورة أيسر منها وهى صورة البيع الصورى . فتظاهر الإنسان ببيع ماله إلى خيره فيكون الموصى له . وفى الحقيقة أنه قد عمل بذلك وصية دون أن يكون فى حاجة للمثول أمام مجمع الشعب

(١) غايوس فى المجلس [illegible] .

(٢) أولبيانوس ، القطع [illegible] .

كان هذه الصورة من صور الوصية ميزة كبيرة في أنه كان ممنوحاً ثم للسوقة هذه السوقة التي لم يكن له . حتى بعث محتلة ، لأنه وسيلة بالوصية إذ لم تكن بينه وبين الدوت حينئذ (١) . فأصبح يستطيع من الآن أن يستعمل طريقة البيع الصوري وأن يتصرف في أمواله . وإن أخص شيء بالملاحظة في تلك الفترة من تاريخ التشريع الروماني هو ميل هذا التشريع إلى أن يمد بمودته وحمايته إلى الطبقات الدنيا وذلك بإدخال بعض صور جديدة في القواعد القديمة والإجراءات القديمة لم تستطع ، ولما تستطيع ، أن تصون بطريقها موافقة إلا على الأسرات النبيلة ، لكنها تصون القواعد الجديدة والإجراءات الجديدة يمكن تطبيقها على السوقة .

وبعض نستنتج وكاملة نفس الحرية ، فأصبحت عديدات في الزواج من النوع الذي يتصل بالزواج من حق الأسرات السوقة لم يكن الزواج المقدس . ويمكن الاعتقاد بأن الزوجة كانت تقوم عند هؤلاء على التقاء المتبادل بين الطرفين دون سواه mutuus consensus وعلى نية أن توجد عندهما affectio maritalis ولم يكونوا يعرفون أي إجراء مدني أو ديني ، وإن الأمر مع مرور الزمن بعد هذا الزواج سوقياً في الأخلاق وفي التشريع يمكن قبوله مدنياً بطريقته لم يكن يعترف به في الأصل أية قيمة . وعند كانت لذلك عواقب خطيرة ، حيث أن السلطة الزوجية والأبوة لم تكن مستمدة في نظر المطرقين إلا من الاحتفال الديني الذي تقام خلاله عادة الزواج فقد نتج عن ذلك أنه لم يكن سوقي مثل تلك السلطة لم يكن القانون يعترف به للأسرة ، ولم يكن القانون الخاص موجوداً بالنسبة له . وكان ذلك موقفاً لا تمكن أن يدوم ... بإجراء الاستعمال السوقة نتج عنها جحود بالعلاقات المدنية ... كان نتيجتها الزوج ... مع تطور ... كما كان الأمر في الوصية كان الزوج يشتري زوجته

(١) حقاً لقد كانت هذه الوصية in procinctu يمكن ... كافية عن هذا النوع من الوصية ، ولكنها ليست بالنسبة للوصية في القانون الذي عليها calatis comitus أن كل مجيء أعرق شبيهة بالنسبة لجميع الدوت

(*coemptio*)، وعندئذ تصبح معترفاً بها في الشرع كما لو كانت حرة من ملكه (*familia*)، وتصبح «في يده»، وتصبح في مرتبة البنت في نظره، تماماً كما لو كان الاحتفال الديني قد تم (١).

ليس في مقدورنا أن نؤكد أن هذا الإجراء لم يكن أقدم من الألواح الاثنتي عشرة، ولكنه من المؤكد على الأقل أن التشريع الجديد قد عرف به كإجراء شرعي، وبذلك أعطى للسرقة قانوناً خاصاً شبيهاً من حيث آثاره بقانون الصفقة، ولو أنه يختلف عنه كثيراً من حيث المبادىء.

يقابل عملية الشراء coemptio عملية المتعة (usus = الاستعمال)، إنهما صورتان من عملية واحدة، فإنه يمكن الاستحواذ على أي شيء بإحدى طريقتين على السواء: الشراء أو الاستعمال. وكان الأمر كذلك فيما يختص بالأملاك الصورية للمرأة. والاستعمال هنا هو معاشرة مدة سنة، فهي تقيم بين الزوجين نفس الصلات الشرعية التي يقيمها الشراء أو الاحتفال الديني. ولا ريب أننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف أنه لا بد من أن يسبق المعاشرة زواج، على الأقل الزواج السوقي، الذي يتم بالرضاء والمودة من الطرفين. لم يكن الشراء (*coemptio*) ولا المتعة usus يخلق الاتحاد المعنوي بين الزوجين، فلم تكن مرتبتهما إلا بعد الزواج، فهي وما كانا يقيمان غير رباط قانوني. إنهما لم يكونا صورتين من الزواج كما ادعى بعضهم بكثرة، وإنما كانا وسيلتين للحصول على السلطة الزوجية والأبوية (٢).

هذا وقد كانت للسلطة الزوجية في الأزمنة العتيقة عواقب أحد بعيد. في الفترة من التاريخ التي وصلت إلينا، أنه فوق الطاقة رأينا أن المرأة كانت خاضعة للزوج دون تحفظ. وكان يتبع من حق هذا الأخير أنه كان يستطيع التنازل

(١) غايوس ١ ...

(٢) غايوس ١، ١١١: ***Quae anno continuo NUPTA perseverabat***.
كان الشراء coemptio مثل عدد كصورة من صور الزواج بحيث كانت المرأة تستطيع أن تعقده مع شخص آخر غير زوجها كوصي مثلاً.

عنها أو بيعها (١) . ومن ناحية أخرى كانت السلطة الزوجية لا تزال تمنح آثاراً كان يجتهد العقل سوفى لتسلم عنه في فهمها . فقد كانت المرأة، وهى في يد زوجها، منفصلة عن أسرة أبيها انفصالاً مطلقاً ، ولا ترث منهم ، ولا تستبقى معها أية صلة أو قرابة في نظر القانون . كان ذلك حسب الشرع الأول عندما كانت الديانة تحرم على نفس الشخص أن يكون عضواً في عشيرتين (gentes) وأن يصلى موقدين وأن يكون وارثاً في بيتين . ولكنهم لم يعودوا يتصورون سلطة الزوجية بهذه الصرامة ، وكان من الجائز أن يكون لنفس الشخص عدة موروثات. ولكي يريد الخلاص من هذه العواقب القاسية حدث . ولو أن قانون الألواح الاثنى عشر قد قرر أن معاشرة سنة من شأنها أن تضع الزوجة تحت سلطة الرجل، فلأنه كان مضطراً أن يترك الحرية للزوجين في عدم الارتباط برباط مع هذه الدرجة من الصرامة . يكفي أن تقطع المرأة معاشرة كل سنة ، ولو بغياب ثلاث ليال، لكيلا تقوم سلطة زوجية . وحينئذ كانت المرأة تستبقى صلة شرعية بأسرتها الحقيقية وتستطيع أن ترث منها .

ويرى، دون أن تكون هناك ضرورة للدخول في تفصيل أطول من ذلك ، أن مجموعة قوانين الألواح الاثنى عشرة كانت كأنها لغد ، منذئذ ، عن الشرع الأول . فقد كان التشريع الروماني يتبدل كما تتبدل الحكومة وكما تتغير حالة الجماعة . وسيحصل تغيير جديد في التشريع وفي كل جيل تقريباً . وكلما تقدمت الطبقات الدنيا في النظام السياسي دخل تعديل جديد في قواعد الشرع . أولاً ، الزواج الذي أصبح مسموحاً به بين الأشراف والسوقة . ثم قانون پاپيريا (Papiria) الذي حرم على المدين أن يرهن نفسه للدائن . ثم الإجراءات التي تدخلت سهلة منعه أسوة شعاً كبيراً عن طريق قضايا القانون (action de la loi) ، وفي النهاية البريتور الذي استمر في السير على النهج

(١) غايوس، ١ ، ١١٨ . لا ريب في أن هذا الحد لم يكن إلا صورياً في عهد غايوس . لكن من الممكن أنه كان حقيقياً في الأصل . هذا ولم يكن الحال في الزواج مجرد الرضاء (consensus) كما كان في زواج المدنس الذي كان يقيم بين الزوجين رباطاً لا ينفصم .

الذي فتحته [illegible] (الثلاثة عشر [illegible]) [illegible] للشرع القديم شرعاً جديداً كل الجدة، شرعاً [illegible] فيه [illegible] من [illegible] الطبيعي

[illegible] ثورة [illegible] في الشرع الأثيني من المعروف أنه قد حررت في أثينا مجموعتان [illegible] من [illegible] الأولى [illegible] حررها دراكون (Dracon) والثانية حررها صولون. أما مجموعة دراكون فقد كانت [illegible] بين [illegible] على أنه في وقت [illegible] وقد حرر صولون مجموعته في نفس الوقت الذي [illegible] فيه [illegible] كان الفرق بين المجموعتين كبيراً.

[illegible] دراكون [illegible] كان [illegible] وكان [illegible] على [illegible] ولا [illegible] أكثر من [illegible] المكتوبة [illegible] هو [illegible] وأقصد [illegible] من دون خروج عن الشعائر [illegible] الأسلاف» [illegible] بذكرى [illegible] كانت تنص على [illegible] على [illegible] وأولى الاحتفالات [illegible]

[illegible] قسمة [illegible] وأخص أنها كانت من [illegible] كانت [illegible] في كل [illegible] وفي [illegible] لآلهة حرية لا [illegible] وكانت سرقة [illegible] سرقة كانت [illegible] على [illegible] الملك

وفي [illegible] في وضع [illegible] لم يكن [illegible] على حرية [illegible] الأقرب [illegible] وعصبة [illegible] (٢) ونرى [illegible] كم كانت [illegible] قوية في تلك [illegible] لم يكن [illegible] للمدينة [illegible] شؤون [illegible] للاقتصاص [illegible] كان الإنسان [illegible] أكثر من [illegible]

(١) [illegible]
(De Abstinentia) [illegible]

(٢) [illegible] (In Evergum) [illegible] ٣٧

[illegible] تشريع [illegible]
[illegible]

أما مجموعة قوانين صولون فكانت محتمة [illegible] كلها [illegible] ثورة اجتماعية كبيرة [illegible] واحدة [illegible] وبين [illegible] وبين الوضيع (ثيس thete) [illegible] والضعف على السواء (١).

[illegible] اثنى عشرة [illegible]

[illegible] (٢).

(١) [illegible] Solon ed. Boissonade, p. 105

(٢) إيسايوس: ميراث [illegible] in Boeoum, [illegible]

هناك أكثر من ذلك . إذ لم يترك وارثاً غير ابنه فإن هذه الأسرة الوحيدة لا تستطيع أن تموت وإنما تعود للتركة دائماً لأقرب العصبة . وفي هذا يسير صولون على نهج الشرع القديم ، وكل ما جد به أنه منح بنت المتوفى بالميراث يلزمه أن يورث أن يتزوج (١) .

كانت التركة عن طريق البنت مجهولة في الشرع القديم - وقد قبلها صولون في الشرع الجديد لكنه وضعها تحت مرتبة التركة عن طريق الذكور . وها هو ذا قانونه (٢) : إذا مات رجل ولم يترك وارثاً من صلبه اعتبر ميراثه لأقرب العصبة ويتزوج البنت . وإذا لم يترك ولداً فيرثه أخوه لا أخته . والأخوة الشقيق أو من الصلب وليس أخوه من الرحم . وعند عدم الإخوة أو أبناء الإخوة ينتقل الإرث إلى الأخت . وإذا لم يكن هناك إخوة ولا أخوات ولا أبناء إخوة يرثه أبناء العم وأحفادهم . وإذا لم يوجد أبناء عم (أي أقرب العصبة العصبيون) يحوز الإرث بنو أبناء الأخوات (أي الأقارب من غير العصبيين) » وهكذا نجد أن بكل الأبناء حقوق في الإرث لكنها أقل من حقوق الرجال . وبعض القوانين صريحة في هذا المبدأ : يقتضي بالذكور ودرجة الذكور أمام الإناث ودرجة الإناث » . وفي ما في مثل أن هذه التركة قد أصبحت معترفاً بها ، وأصبحت مكاناً في الشرع الجديد مؤكداً على أن الشرع الطبيعي بدأ يتكلم بصوت يكاد صريحاً في وجه صوت الديانة القديمة .

كذلك أدخل صولون في التشريع الأثيني مبدأً جديداً جداً . ألا وهو الوصية . فقد كانت الأملاك تنتقل قبله انتقالاً جبرياً لأقرب العصبة ، أو عند عدم العصبة إلى أعضاء العشيرة gennetes (gentiles) (٣) ومصدر ذلك أن الأملاك

(١) إيسايوس : خطبة [illegible] ، خطبة كيرون ٣ ؛ خطبة [illegible] ٧٤ ؛ خطبة [illegible] ٣٩ ؛ [illegible] ١٠ ، ٨ ؛ [illegible] ٥٥ .

(٢) إيسايوس : ميراث هاغنياس ١١ – ١٢ ؛ ميراث أبولودوروس ٢٠ ؛ ديموسثنيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ .

(٣) [illegible] : 'Εν τῷ γένει τοῦ τεθνηκότος ἔδει τὰ χρήματα καταμένειν

لم تكن تعتبر ملكاً فردياً بل للأسرة. لكنها في عهد صولون أخذوا يدركون حق الملك بشكل آخر. فقد جعل قانون الألواح (...) القديمة من كل ملكية ملكاً خاصاً بكل فرد. فسمح الشرع للرجل بالتصرف في ثروته، وبالتخيير من يوصى إليه بها بعده، وهو حدث حق لدى كل العصبية (...) على أملاك كل واحد من أعضائها لم يعد حق الأسرة جماعة. فقد بقي الابن الوارث الإلزامي، وإذا لم يترك سوى الابنة فكان في استطاعته أن يختار وارثه إلا بشرط أن يتزوج هذه الوارثة بنته. وإذا لم يكن للرجل أطفال فإنه يكون حراً في الوصية كما يريد (١). كانت هذه القواعد الأخيرة جديدة كل الجدة في الشرع الأثيني. ويمكن أن نرى منها كم كانت لديهم عندئذ من آراء جديدة عن الأسرة وبأنهم قد بدأوا يعتبرونها على صفة جديدة.

كانت السلطة الأبوية ... سعة ... سيادة في الطرق، وقد ذهب الشرع ... في أثينا بين حد ... ابنه أو قتله (٢). وقد وضع صولون حدوداً لهذه السلطة تتماشى والأخلاق الجديدة (٣). ونحن نعلم الآن أنه حرم على الأب أن يبيع بنته، إلا إذا ارتكبت جريمة وحشية، ومن المحتمل أن يكون التحريم كان يحمي الابن. وقد استمرت السلطة الأبوية تزداد ضعفاً كلما فقدت الديانة القديمة سلطانها. وهو ما حدث في أثينا مبكراً عن حدوثه في روما. لذلك لم يكتف الشرع الأثيني بالقول كما قالت الألواح الاثنتا عشرة: بعد بيعه ثلاث مرات يصبح الابن حراً، بل سمح للابن عند بلوغه سناً معينة أن يتخلص من السلطة الأبوية. وعند تبدل الأخلاق تدريجياً إلى تقرير سن الابن رشداً حقيقياً ... بل قد أقره أيضاً ... معروف قانون أثيني يكلف الابن أن يعول أباه إذا أصبح عجوزاً أو عاجزاً.

(١) إيسايوس، ميراث بيروس (De Pyrrhi hered.) ٦٨؛ ديموستينس، ضد ستيفانوس ٢، ١٤؛ بلوتارخوس، صولون [illegible].

(٢) بلوتارخوس، صولون [illegible].

(٣) بلوتارخوس، صولون [illegible].

ويتضمن مثل هذا القانون بحكم الضرورة، [illegible] لابن أن يكون مالكاً، وبالتالي أن يكون محرراً من سلطة الأبوية. لم يكن هذا القانون موجوداً في روما، [illegible] الابن لم يكن [illegible] شيئاً وبقي على [illegible] تحت سلطة الأب.

ولما [illegible] كان [illegible] متفقاً مع شرع العتيق [illegible] أن يوصي [illegible] لم يكن هذا إطلاقاً ملكية حقيقية [illegible] لكنه تعد عن هذا الشرع [illegible] (١)

وكان [illegible] أخرى في هذه [illegible] حق [illegible] الأسرة [illegible] (٢)

وهكذا [illegible] فالمجتمع الجديد قد وُلد له شرع جديد [illegible] التي [illegible]

[illegible]
[illegible] *Boeckh, Corpus inscript. gr.* N°s [illegible]

(٢) [illegible] صفحة ١٨٠.

الفصل التاسع

مبدأ جديد في الحكم ، المنفعة العامة والانتخاب

كانت الثورة التي قلبت سيادة الطبقة الكهنوتية ، ورفعت الطبقة الدنيا إلى مستوى [illegible] في [illegible] نوع من التجديد الاجتماعي [illegible] محل طبقة أخرى في السلطة [illegible] ٣٠ [illegible] نحيت جانباً وأوشكت قواعد [illegible] أن تحكم [illegible]

حقاً إن [illegible] على الأشكال [illegible] كانت [illegible] في العصر [illegible] الجمهوري [illegible] الحكم في كل مكان تقريباً بأسمائهم القديمة [illegible] وهم تتغير شيء أيضاً من [illegible] ([illegible]) [illegible] ، كل [illegible] في [illegible] في [illegible] على [illegible] على الأقل

وفي الحقيقة فقد تغير كل شيء [illegible] تعد الطبقة ولا الشرع ولا العوائد ولا الأخلاق ، في [illegible] . كما كانت [illegible] في [illegible] في كل شيء [illegible]

[illegible] مبدأ [illegible] فكان لا بد من إيجاد مبدأ آخر يستطيع أن يقوم مقامه [illegible] على [illegible] في [illegible] والمبدأ الذي تأسست [illegible] حكومة [illegible] الآن هو المنفعة العامة

ويجب ملاحظة هذه العقيدة الجديدة التي ظهرت فجأة في ذهن الناس وفي التشريع. أما من قبل فإن القاعدة تقضي بأن كل شيء ينشأ منه النظام الاجتماعي لم تكن المنفعة بل الديانة. فقد كان واجب القيام بشعائر العبادة هو الرابطة الاجتماعية. ومن هذه الضرورة الدينية نشأ للبعض حق الأمر وللبعض الآخر التزام الطاعة. ومن هنا جاءت قواعد العدل والإجراءات. وقواعد المناقشات العامة. وقواعد الحرب. لم تسأل المدينة نفسها عما إذا كانت الأنظمة التي تمنحها لنفسها مفيدة. فقد أسست هذه الأنظمة لأن الديانة أرادتها هكذا. فلم تساهم المنفعة ولا الملاءمة في إقامتها. وإذا كانت الطبقة الكهنوتية قد حوربت دفاعاً عنها فإن ذلك لم يكن باسم المنفعة العامة بل باسم الآلهة القديمة.

لكن في الفترة التي ندخل فيها الآن، لم تكن الآراء تستعبد، ولم تعد الديانة تحكم. والمبدأ المنظم الذي يجب على جميع الأنظمة أن تستمد منه قوتها منذ الآن، هو المنفعة العامة، وهو الوحيد الذي يعلو على الإرادات الفردية، ويستطيع أن يجبرها على الخضوع له. إن ما يسميه اللاتينيون *rex publica* والإغريق *τὸ κοινόν* ذلك هو الذي يحل محل الديانة القديمة، ذلك هو الذي يقرر منذ الآن الأنظمة والقوانين وإليه ترجع جميع التصرفات الهامة للمدن. فلم يعودوا يتساءلون في مناقشات مجلس الشيوخ وفي الجمعيات الشعبية عما تأمر به الديانة بل عما تتطلبه المنفعة العامة، سواء في ذلك إن تناقشوا في قانون أو في أي شكل من أشكال الحكومة، في نقطة من نقط القانون الخاص أو في نظام سياسي.

ينسبون لصولون عبارة تميز النظام الجديد إلى حد لا بأس به. فقد سأله أحدهم عما إذا كان يعتقد أنه منح وطنه أحسن الدساتير فأجاب: «كلا. بل أوفقها». وقد كان شيئاً جديداً جداً ألا يطلبوا لأشكال الحكومة وللقوانين غير قيمة نسبية. أعلنت الدساتير القديمة المؤسسة على قواعد العبادة أنها معصومة من الخطأ وغير قابلة للتبديل. فكان فيها صرامة الديانة وصلابتها. فيشير صولون بهذه العبارة أنه يجب أن تتمشى الأنظمة السياسية في المستقبل مع حاجات أهل كل عصر وأخلاقهم ومصالحهم. لم يعد الأمر أمر حقيقة مطلقة. وأصبح من الواجب أن تكون قواعد الحكومة من الآن مرنة ومتغيرة. ويقولون

إن صولون كان يتمنى لو روعيت قوانينه خلال مائة عام على الأكثر (١)

ليست أوامر المنفعة العامة مطلقة ولا واضحة ولا حتمية كأوامر الديانة . يمكن دائماً أن يناقش فيها ، ولا يمكن إدراكها بعد . والطريقة التي بدت أسهل وأضمن من سواها لمعرفة ما كانت تتطلبه المنفعة العامة هي جمع الناس واستشارتهم . عُدَّت هذه الوسيلة ضرورية واستعملت كل يوم تقريباً . في الفترة السابقة كانت الاستخارات تقوم مقام المناقشات تقريباً . فكان رأى الكاهن أو الملك أو الحاكم المقدس ذا سلطان عظيم ، كانوا يصوتون قليلا ويصوتون للقيام بالإجراءات أكثر مما كانوا يصوتون لتعرف رأى كل واحد . أما الآن فإنهم كانوا يصوتون على كل شيء . كان لا بد من أخذ آراء الجميع ليتأكدوا من معرفة مصلحة الجميع . أصبح التصويت هو الوسيلة الكبرى للحكومة . أصبح منبع الأنظمة ، وقاعدة الشرع ، وقرار النافع ، بل قرار العدل . أصبح فوق الحكام ، بل فوق القوانين ، أصبح سيداً في المدينة

وتغيرت الحكومة أيضاً . لم تعد وظيفتها الجوهرية القيام بالاحتفالات الدينية قياماً منتظماً ، بل أصبحت مكونة على الأخص للمحافظة على النظام والسلم في الداخل ، وعلى الكرامة والسطوة في الخارج . وما كان في المرحلة الثانية فيما سبق انتقل إلى المرحلة الأولى . تقدمت السياسة على الديانة وأصبحت حكومة البشر شيئاً إنسانياً ، وبناء على ذلك حدث أن خلقت مناصب جديدة . أو على الأقل أن المناصب القديمة قد اتخذت صوراً جديدة . وهو ما يمكن أن نراه مما حدث في أثينا ومما حدث في روما

في أثينا ، عهد سيادة الأشراف ، كان الأرخونات كهنة قبل كل شيء . وكانت العناية بالقضاء والإدارة والحرب تقتصر على شيء قليل ويمكن أن تضاف للكهنوت بدون مضايقة . عندما أعرضت المدينة الأثينية عن الوسائل الدينية

(١) بلوتارخوس ، صولون ، ٢٥ . وطبقاً لهيرودوت (١ : ٢٩) اكتفى صولون بأن حمل الأثينيين يقسمون أن يراعوا هذه القوانين عشر سنوات .

التنفيذية للحكومة [illegible] الأرخون [illegible] كانوا يكرهون [illegible] الأسباء [illegible] كبير [illegible] الحكومة [illegible] حربين كانوا [illegible] (strateges [illegible]). ومن [illegible] حيث [illegible] حربية [illegible] إليهم [illegible] أخرى [illegible] وكل [illegible] ويمكن [illegible] نتصور [illegible] على [illegible] وصلوا تدريجاً إلى [illegible] على [illegible] كلها [illegible] ولا يكادون يعرفون [illegible] الحكومة [illegible] على [illegible] كل يوم [illegible]

وقد [illegible] هؤلاء [illegible] الذي [illegible] يكونوا [illegible] كان [illegible] يكون [illegible] (١) كان [illegible] الأمر كان على [illegible] ذلك [illegible] الحكومة [illegible] صعوبة [illegible]. ولم [illegible] لا بد من [illegible] وفي [illegible] الحرب [illegible] كم [illegible] أن يكون [illegible] الحرب. [illegible] ولكن لا [illegible]

[illegible] فحدثت

(١) ديناركوس : ضد ديموستينيس ٧١ .

فمن ناحية [illegible] حيث أصبحت [illegible] جمهورية في أيديهم . على الأقل في الشؤون [illegible] . ولكن هؤلاء [illegible] لم يكن لهم صفة الكهنوتية . [illegible] ومن ناحية أخرى لم يستطع [illegible] أن يبقى إلا [illegible] من الكهنوت شيئاً فشيئاً [illegible] فقط [illegible] على [illegible] الاحتفالات [illegible] الاحتفالات إلا إجراءات [illegible] الكهنوتية في الشخصية [illegible] يوماً إثر يوم ، و [illegible] كل يوم [illegible] ولا [illegible] ، ولكنه لم يكن [illegible] في عهد [illegible] في عصر [illegible] وصية [illegible] سنة ٤٤٣ [illegible] الفترة [illegible]

ويمكن أن نلاحظ أيضاً أنه حدث [illegible] في القرون الأولى لم يكن التصويت إلا [illegible] كما [illegible] وفي حقيقة [illegible] كل [illegible] (ereer) [illegible] ، وهو الذي [illegible] الاستخراج [illegible] على [illegible] لم يكن [illegible] إلا على المرشحين أو [illegible] لم تكن [illegible] على [illegible] الشكلية [illegible] . [illegible] هو [illegible] ولا يزال على مرشح [illegible] الحكم [illegible] لم يكن [illegible] جميع المرشحين [illegible] أن الاستخراج [illegible] على [illegible] من تشاء [illegible] لم يعودوا يستشيرون الآلهة والاستخارات إلا بشرط عدم تمييزها بين جميع المرشحين [illegible] هم الذين يختارون ..

الفصل العاشر

محاولة تكوين سراة من الأثرياء - استقرار حكم العامة . الانقلاب الرابع

لم يكن النظام الذي خلف سيادة السراة الدينية في المدن هو حكم العامة . فلقد رأينا مما حدث في أثينا وروما أن الانقلاب الذي حدث لم يكن من عمل أكثر الطبقات ضعة . حقاً إنه كانت هناك بعض بلدان ثارت فيها هذه الطبقات في البدء ، لكنها لم تستطع أن تؤسس شيئاً يبقى على الزمن ، والدليل على ذلك القلاقل الطويلة التي هوت فيها سيراقوسه وميليتوس وساموس . ولم يستقر النظام الجديد في شيء من التماسك إلا حيث وجدت فوراً طبقة ما استطاعت أن تقبض بيدها لفترة من الزمن على السلطة والسلطان المعنوي اللذين أفلتا من النبلاء والبطارقة .

فماذا عسى أن تكون هذه السراة الجديدة ؟ حيث إن الديانة الموروثة قد أبعدت ، فإنه لم يبق عنصر آخر للتمييز الاجتماعي غير الثروة . فطلب إلى الثروة أن تحدد مراتب الناس ، إذ إن الأذهان لا تقبل فوراً أن تكون المساواة مطلقة .

لذلك لم يعتقد صولون أن في استطاعته أن يُنسى الناس التفريق القديم القائم على الديانة الموروثة إلا بإقامة تقسيم جديد مؤسس على الثروة . فقسم الناس إلى أربع طبقات ومنحهم حقوقاً متفاوتة . فكان لا بد للمرء أن يكون ثرياً لكي يصل إلى المناصب العليا ، ولا بد أن يكون من إحدى الطبقتين الوسطيين ، على الأقل ، للوصول إلى مجلس الشيوخ أو المحاكم (1) .

وكذلك كان في روما . فقد سبق أن رأينا أن سرفيوس لم يحطم سلطة البطارقة إلا بتأسيس [illegible] فأنشأ اثنتي عشرة فرقة منتقاة من الفرسان المنتخبين

(1) بلوتارخوس ، صولون ، 18 ؛ أريستيديس ، 13 . أرسطوطاليس عند هيسوخيوس تحت كلمة Ἱππεῖς . بولوكس ، 8 ، 129 . هاربوكراتيون ، أبولودوروس 39
Ὡς ἔπραττον τελεῖν ἄρχειν ἐξῆν τὰς ἀρχάς.

من بين أكثر السوقة ثراء . ولكن منذ تخلي طبقة الفرسان إلى أصحاب الطبقة الثرية ، ومنذ أن السوقة الذين لم يكن لهم نصاب محدد للفرس فقد وزعوا في خمس طبقات على قدر ثروتهم . وبقي المشتغلون خارجين عن كل طبقة لم تكن لهم حقوق سياسية . وقد كانوا يمشون في الخلف تحت شبه فرق مؤكدة . على الأقل إنهم لم يكونوا يصوتون (١) . وقد حفظ الدستور الجمهوري هذا التعريف الذي أقامه ملك ولم يبدُ على السوقة بادىء الأمر أنها كانت راغبة كل الرغبة في مساواة بين طبقاتها .

بل ما نرى مثل هذا جلاء في أثينا وروما يكاد يعثر عليه في كل المدن الأخرى . ففي كومه مثلا لم تمنح حقوق سياسية ، في بادىء الأمر ، إلا لأولئك الذين كانوا يحوزون خيلا . ولكنهم منحت بعد ذلك صفة المواطن ... وربما بعد حصول الذين تتوفر فيهم من حيث رغم ثروة على نفس الحقوق . وقد رفع هذا الإجراء الأخير عدد المواطنين إلى الألف . وفي ريجيوم (Rhegium) بقيت الحكومة زمناً طويلا في أيدي الألف مواطن الأكثر ثراء . وفي ثوري (Thurii) كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لكي ينتمي الإنسان إلى الطبقة السياسية ونرى جلاء ، في أشعار تيوغنيس (Théognis) ، أن الثروة قد صارت في ميغارا بعد سقوط النبلاء ... وفي ثيبه كان يتحتم على المرء لكي يتمتع بحقوق المواطن ألا يكون صانعا أو تاجراً (٢) .

وهكذا أصبحت الحقوق السياسية ، التي كانت ملازمة للمولد في الفترة السابقة ، ملازمة للثروة وقتا ما . وقد تكونت هذه الطبقة من الأثرياء في كل المدن ولم يكن تكوينها نتيجة لتدبير مقصود بل كان نتيجة طبيعية لطبيعة البشرى

(١) تيتوس ليفيوس ، ١ ، ٤٣ ؛ ديونيسيوس ، ٤ ، ... — ولم يكن الذين لا يملكون نصابهم ... أي الأدنى ... يكونون إلا طبقة واحدة ... وعليه لم يكن لهم إلا صوت واحد من ١٩٣ ، ولا ... الطبقة ... حيث ... هذه الطبقة ... لا يعتد به .

(٢) أرسطو ، سياسة ، ٣ ، ٣ ؛ ٤ ، ... ؛ هرقليديس في Fragments des hist. gr., t. II, p. 217 et 219 ؛ تيوغنيس ، الأبيات ٨ ، ٢٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥٢٥ — ٥٢٩ .

ذاته ، ذلك الذي لا يستطيع عند خروجه من نطاق ميلاده في عدم المساواة أن يصل فوراً إلى المساواة التامة

ويلاحظ أن هذه الطبقة من الناس لم تؤسس تفوقها على ثروتها فحسب ، فقد كان من أشد عوامل [illegible] كل ممكن أن تكون الطبقة حربية ، وقد تكفلت بالدفاع عن المدن في نفس الوقت الذي كانت تحكم فيه ، وحفظت لنفسها أحسن الأسلحة وأكبر نصيب من المخاطر في الحرب [illegible] في أن نحكي بذلك الصفة [illegible] التي حلت هي عليها في جميع المدن كان الأكثر ثراء يؤلفون الفرسان (١) ، وكانت الطبقة المتوسطة [illegible] تكون منها جنود القيالق أو المشاة الثقيلة (hoplites, légionnaires) (٢) [illegible] من الخدمة العسكرية ، وعلى أكثر تقدير ، كانوا يستخدمون في [illegible] خفيفة (peltastes, velites) أو في صفوف [illegible] (٣) وهكذا كان تنظيم الجيش يتفق بدقة تامة مع تنظيم [illegible] وكانت [illegible] على قدر [illegible] وأصبحت القوة [illegible] في نفس [illegible] التي كانت [illegible] (٤)

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ... (Salluste ... [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible] (penthe ... [illegible] ... zeugites [illegible] ... وأكيفون في هاربوكراتيون تحت لفظ [illegible]).

وهكذا أتت فترة في جميع المدن التي نعرف وجهها على وجه التقريب كانت الطبقة الثرية أو على الأقل المتوسطة تحت تتولى فيها الحكومة . وكان هذا النظام السياسي مزايا كي يكون لكل نظام مزايا عندما يتفق مع أخلاق العصر ولا تعارضه العقائد . من المؤكد أن طبقة النبلاء الكهنوتية في الفترة السالفة قد أدت خدمات كبيرة ، إذ أنها هي التي أقامت القوانين لأول مرة وأسست حكومات نظامية وجعلت المجتمعات البشرية تعيش خلال عدة قرون بهدوء وكرامة . وكان للثراء للثروة ميزة أخرى ، فقد دفعت المجتمع والذكاء في اتجاه جديد . ولما كان منشؤها العمل بجميع أشكاله فقد مجدت العمل وشجعت عليه . فتح هذا النظام الجديد أكبر قيمة سياسية لأكثر الناس جهداً ، أو أكثرهم نشاطاً ، أو أكثرهم مهارة . ولذا فقد كان موفقاً لتقدم الصناعة والتجارة ، كما كان موافقاً للتقدم العقلي . إذ أن الحصول على هذه الثروة ، التي كان كل إنسان يحصل عليها ، في مقدوره ، أو يفقدها حسب كفاءته ، كان من شأنه أن يجعل التعليم أول الحاجات والذكاء أقوى دوافع الشؤون البشرية . فلا عجب إذن أن وسعت بلاد الإغريق وروما في عهد هذا النظام حدود ثقافتهما الذهنية ودفعتا حضارتهما إلى الأمام .

لم تحتفظ الطبقة الثرية بالسلطة زمناً طويلاً بقدر ما احتفظت به طبقة النبلاء الوراثية القديمة . ولم يكن لها هذه الصفة المقدسة التي كانت تجلل النسيب القديم : لم تكن تحكم بمقتضى العقائد وبإرادة الآلهة ، ولم يكن فيها ما يسيطر على الضمير ويجبر الإنسان على الخضوع . فإن الإنسان لا ينحني إلا أمام ما يعتقد أنه الحق أو ما ترينه آراؤه أنه فوقه بكثير . لقد استطاع أن يركع زمناً طويلاً أمام التفوق الديني للنسيب الذي يتلو الدعاء ويمتلك الآلهة . ولكن الثروة لم تكن ذات مهابة في نظره . فإن الحقيقة أن الثروة أكثر من سواها ، أن الثروة ليست الاحترام بل الحسد . ولم تلبث الطبقة السياسية التي تنتج عن اختلاف الثروات هدفاً يحتم على الناس أن يقضوا عليه

هذا ولم يكن في مقدور الثورة أن تقف بعد أن بدأت . فقد سقطت المبادئ القديمة ولم تعد هناك تقاليد ولا قواعد ثابتة . كان هناك شعور عام يتغلب

الأمور من شأنه أن يجعل كل دستور غير قادر على البقاء طويلا. فهو جعلت طبقة الثراة الجديدة كما جعلت الطبقة من قبل . وأراد الفقراء أن يكونوا مواطنين وجهدوا أن يحتفظوا بدورهم في الهيئة السياسية.

من تحليل البحوث في تفصيل هذا الكفاح الجديد في تاريخ المدن كلما ابتعد عن شأنها ازداد تشعباً. إنها تسير في نفس سلسلة من الثورات، لكن هذه الثورات تعرض لها مشاكل شديدة التشعب. إلا أننا نستطيع على الأقل أن نلاحظ أن الطبقة الثرية تثبت مجهودها وسادت مدة أطول في المدن التي كان أهم عنصر للثروة فيها هو امتلاك الأرض، وعلى العكس من ذلك في المدن التي كانت فيها عدة من الثروات التجارية، كأثينا، وكانوا يثرون فيها من صناعة وتجارة، فإن تعب الثروة قد أيقظ فيها جشع الطبقات الدنيا وأمانيها في وقت مبكر، فهو جعلت في هذه الثروة هجوماً مبكراً.

قوة الثروة ورد مقاومة أخص تكتب من مقاومة الثراة الإغريق، وذلك بسبب سنذكره فيما بعد. ويمكن عندما نقرأ تاريخ الإغريق نلاحظ في شيء من الدهشة كم كانت هذه الثروة الجديدة ضعيفة في دفاعها. حقاً إنها لم تكن تستطيع أن تواجه خصومها، كما فعلت الأرستقراطية الكبيرة القوية بحجة الأجداد والماضي. ولم يكن في مستطاعها أن تدعو بحجتها الأسلاف والآلهة. لم تكن هذه الطبقة لتكون في عقائدها ذات ... لم تكن مؤمنة في شرعية امتيازاتها.

حقاً لقد كانت لها قوة تتمثل في الثروة. لكن هذه القوة ذاتها تقتضي أن تحمي عنها. لا ريب أن ... في مجتمع دون نفسها تستطيع أن تبقى ربما أصحب لو استطاعت كل من ... في غيره ... استطاعت على الأقل أن تعيش في سلم مع ... لكن الحرب ... في ... ونحن ... وقد كانت حالة الحرب تكاد تكون مستمرة بين هذه المدن في بلاد الإغريق ... وكانت الخدمة العسكرية ... لكنها تقع ... على الطبقة الثرية ... التي كانت ... الأول في المعارك، وكثيراً ما كانت ... عند عودتهم من غزوة ... هالكة ضعيفة. وبالتالي ... في حالة ... مقاومة الحرب ... في تاريخ مثلاً،

فقدت الطبقة العليا جزءاً أكبر من أعضائها في حرب ضد الايابيجيين (Iapyges) وسرعان ما قامت حكومة شعبية في المدينة . وقد حدث مثل هذا في أرغوس قبل ذلك بحوالي ثلاثين عاماً إذ أن عدد المواطنين الحقيقيين قد ضعف على إثر حرب غير موفقة ضد الاسبرطيين بحيث أصبح لا مفر من منح حق المواطن لجمهرة من البيريؤيكوي (perieques) (١) وقد كانت اسبرطه شحيحة كل الشح بدم الاسبرطيين الحقيقيين حتى لا تقع في مثل هذه الورطة . أما روما فإن حروبها المستمرة تفسر ثوراتها إلى حد كبير . فقد حصدت الحرب سراتها أولا ، حيث لم يكد يبقى من الأسرات الثلثمائة التي كانت تتكون منها هذه الطبقة في عهد الملوك عشر بعد الاستيلاء على سمنيوم ثم حصدت الحرب السوقة الأهلية . تلك السوقة الثرية الشجاعة التي كانت تملأ الطبقات الخمس والتي كانت تتكون منها عامتها .

ومن آثار الحرب أن المدن كانت مضطرة اضطراراً يكاد يكون دائماً إلى تسليح الطبقات الدنيا وقد حدث حين احتاجت أثينا إلى البحرية والحروب في البحار . في أثينا . وفي جميع المدن البحرية . على الطبقة الفقيرة تلك الأهمية التي أعطتها عندما رفعت وضعها (ثيتس) إلى مرتبة المجدفين والملاحين بل والجنود . وأصبحت سلامة الوطن في أيديهم . فشعروا بحاجة المدينة إليهم وأصبحوا مقدمين . ذلك هو أصل الديموقراطية الأثينية . كانت اسبرطه تخشى الحرب . ويمكن أن نرى في ثوقيديدس تباطؤها وكرهها للدخول في القتال . وقد تركت نصيب المقاتلين منهم في حرب البيلوبونيز . ولكن كم من الجهود بذلت للانسحاب منها ! ذلك أن اسبرطه كانت مجبرة على تسليح الطبقة الأخيرة (Frouriots) والمحررين حديثاً (Neodamodes) والموثاكيس (Mothaces) واللاكونيين (Laconiens) وحتى الهيلوتس (hilotes) التابعين لها . وكانت تعلم علم اليقين أن كل حرب كانت تعرضها لثورة يقوم بها أصحاب الأسلحة

(١) أرسطو ، سياسة ٥ ، ٢ ، ٣ .

لهذه الطبقات التي كانت تضطهدها، وأنه كان يتحتم عليها عند عودة الجيش إما أن تنزل على إرادة [illegible] أو أن تجد وسيلة تسفك دمهم بدون فضيحة (١). كانت سوقة تشنع على مجلس الشيوخ في روما عندما كانت تتهمه بأنه يبحث دائماً عن حروب جديدة. ولكن مجلس الشيوخ كان أكثر مهارة من ذلك، فكان يعرف متى [illegible] هذه الحروب من [illegible] ومن [illegible] في [illegible] (١). لكنه لم يكن في استطاعته تجنب الحروب فقد كانت روما محاطة بالأعداء من كل جانب.

[illegible] الحرب قد [illegible] الثغرة التي [illegible] صفة مرآة [illegible] وحدث [illegible] مع [illegible] وأصبح من [illegible] هذا ويجب أن نعترف بأن كل [illegible] كان [illegible] حكم [illegible] كان حكم [illegible] في [illegible] في [illegible] بل كان من [illegible] طويلاً بل كان من [illegible].

[illegible] أصبح [illegible] في كل [illegible] حصوناً [illegible] في وقت [illegible] وأخيراً [illegible] أن [illegible] في أن تكون [illegible] أصبح يتحتم عليها أن تصل [illegible] وهكذا شهدت [illegible] حقيقة وقيام [illegible].

هذا وقد كان حق [illegible] له في [illegible] كان [illegible] يقتضي هذا الحق في جميع الشؤون [illegible] وينتخب [illegible] ويقرر الحرب والسلم [illegible] كان يكفي هذا التوسع في حق التصويت لكي تكون الحكومة حكومة [illegible] (ديموقراطية) حقاً.

[illegible] كان من المستطاع تجنب حكم العامة لو

(١) انظر ما يرويه [illegible] ٢ : ٨٠

أنهم يستطيعون أن يؤسسوا ما يسميه توكيديديس ὀλιγαρχία ἰσόνομος أى حكومة للبعض والحرية للجميع. لكنه لم يكن لدى الإغريق فكرة حقة عن الحرية. فقد كانت الحقوق الفردية عندهم تتعصب دائماً بعض الضمانات. ولا نعرف من توكيديديس، الذى لا يتهم حقاً بالحماس، أن الحكومات العامة أن الشعب كان. يجب سيادته لأنه عرضاً لكثير من عوارض وحكم تعسفى واستبداد عنيف منفرداً فى هذا المؤرخ أنه، كان لا بد من نظام حكم نعمة يمكن يجد الفقراء ملاذاً والأثرياء عنقاً. لم يدرك الإغريق قط كيف يوفقون بين المساواة المدنية والضمانات السياسية. فلكى لا يؤدى التعبير فى مدحة الشخصية يه فهم أنه من الضرورى أن يكون له حق الاقتراع وأن يكون قاضياً فى المحاكم وأن يستطيع أن يكون من رجال الدولة هذا ويذكر أن الدولة عند الإغريق كانت سلطة مطلقة، وأنه ما من حق فردى كان يقف أمامها. أدركنا أية سلطة عظيمة كانت تمكن فرداً حتى لأكثر الناس ضعة، فى أن تكون له حقوق سياسية، أى أن يكون عضواً فى الحكومة. ومادامت السيادة العموم كل هذه هيبة فإنه لم يكن فى استطاعة امرء أن يكون شيئاً ما إلا إذا كان عضواً فى هذه السيادة فقد كان أمنه وكرامته معلقين بذلك. أرادوا أن يحوزوا الحقوق السياسية لا ليحصلوا على حرية حقيقية بل ليحصلوا على الأقل على ما يمكن أن يقوم مقامها.

الفصل الحادى عشر

قواعد حكومة العامة (الديموقراطية). مثل من حكومة العامة الأثينية

كلما تدرجت الانقلابات فى مجراها وابتعدوا عن النظام القديم كلما أصبحت حكومة البشر أكثر صعوبة. فكان لا بد لها من قواعد أكثر دقة، ودواوين أكثر عدداً وأشد تعقيداً. وهو ما نرى مثلاً منه فى حكومة أثينا.

كان فى أثينا عدد كبير جداً من أرباب المناصب. فقد احتفظت أولاً بكل مناصب الفترة السابقة: الأرخون الذى كان يخلع اسمه على السنة ويسهر على دوام العبادات المنزلية، والملك الذى كان يقوم بالقرابين، ورئيس الحرب الذى كان يمثل كرئيس للجيش والذى كان يقضى بين الأجانب، والستة الحفظة على القوانين (Thesmothètes) الذين كان يبدو أنهم يقومون بالقضاء لكنهم فى الواقع لم يكونوا يرأسون هيئات القضاء الكبيرة. وكان هناك أيضاً الهيروبويوى ieponotoi الذين كانوا يستشيرون الوحى ويقدمون بعض القرابين، والباراكلوى (nopooitoi) الذين كانوا يصاحبون الأرخون والملك فى الاحتفالات، والعشرة المنظمون للمسابقات والألعاب (athlothètes) الذين كانوا يبقون أربع سنوات فى وظائفهم لإعداد عيد أثينا (Athéné)، وأخيراً سدنة النار وعددهم خمسون وكانوا يحتفظون على الدوام يسهرون على رعاية الموقد العام والمواظبة على الأكلات المقدسة. يرى من هذه القائمة أن أثينا قد بقيت وفية لأثارات الزمن القديم، وأن هذا العدد من الموروث لم يكن قد أكمل حتى ذلك الوقت تدمير ذلك الاحترام الخرافى. فما من أحد كان يجرؤ على ضد الأشكال القديمة للديانة القومية، لقد بقى حكم العامة متمسكاً بالعبادة التى أنشأها النساء

يأتى بعد ذلك رجال الدولة الذين أنشئوا خصيصاً لحكومة العامة. أولئك الذين لم يكونوا كهنة بل كانوا يسهرون على مصالح المدينة المادية. وفى مقدمتهم

القواد العشرة الذين كانوا يعنون بشؤون الحرب وشؤون السياسة . ثم ضابطو المدينة (astynomes) العشرة الذين كانوا يحفظون النظام في المدينة ؛ وضابطو السوق (agoranomes) العشرة الذين يسهرون على سوق البلدة وأسواق البيريوس (البيريه Pirée) ؛ والخمسة عشر المشرفون على الحبوب (sitophylaques) وهم الذين كانوا يشرفون على بيع القمح ؛ وضابطو المعايير الذين كانوا يراقبون الأوزان والمقاييس ، وخمسة بيت المال العشرة ، وضابطو حسابات العشرة ؛ والأحد عشر المكلفون بتنفيذ الأحكام . بصرف النظر عن ذلك أن معظم هذه المناصب كان يتكرر في كل واحدة من القبائل وفي كل واحد من الأحياء . فكان لأدنى مجموعة من الناس في البلد رجال وكتبة [illegible] وعشيرها [illegible] الحرى . ولا يكاد [illegible] حظوة في [illegible] دون أن يبقى واحداً من [illegible] مدونة .

كانت هذه الوظائف سنوية [illegible] على ذلك أنه كان لا يوجد من لا يستطيع أن يباشر واحدة منها في دوره . وكان أرباب المناصب ذات الصفة الكهنوتية يختارون بالقرعة . أما الذين لا يزاولون [illegible] وظائف تامة للنظام العام ، فقد كان ينتخبهم الشعب . بيد أنه كانت هناك حجة ضد تحديث القرعة أو دروب التصويت العام ، فكان كل منتخب جديد يؤدي امتحاناً أمام مجلس الشورى ، أو [illegible] من مناصبهم . وفي خلال هذه مجلس لأريوباغوس [illegible] لم يكونوا يقتصرون على [illegible] أو [illegible] بل كانوا يتحرون عن [illegible] الرجل وعن أسرته [illegible] على كل ذي منصب [illegible] (1)

قد [illegible] في الإمكان أن يكون هؤلاء [illegible] الذين كانت [illegible] أصوات [illegible] والذين كانوا [illegible] . وكانوا مسؤولين [illegible] لا غنى من [illegible] يمكن أن [illegible] توكيديديس

Dinarque, *Adv. Demosthenem*, 71 — *[illegible]* στρατηγοὺς τὴν παρὰ τοῦ δήμου [illegible] παιδοποιεῖσθαι κατὰ τοὺς νόμους καὶ γῆν ἐντὸς ὅρων κεκτῆσθαι

والكسينومون لكي نتأكد أنهم كانوا محترمين ومطاعين. وقد كان في أخلاق القدماء دائماً، حتى الأثينيين منهم، سهولة كبيرة في الخضوع للنظام. ربما كان ذلك نتيجة لعادة الطاعة التي عودتهم عليها الحكومة الكهنوتية. كانوا متعودين على احترام الدولة وكل من يمثلها على مختلف الدرجات. ولم يكن يخطر ببالهم أن يحتقروا رجل الدولة لأنهم هم الذين انتخبوه. فقد كان الانتخاب معتبراً من أقدس ينابيع السلطة (١).

وفوق رجال الدولة، الذين لم تكن لهم وظيفة غير تنفيذ القوانين، كان يوجد مجلس الشيوخ. ولم يكن المجلس إلا هيئة استشارية تشبه مجلس الدولة؛ لم يكن يعمل، ولا يضع القوانين، ولا يباشر أية سيادة. ولم يكونوا يرون بأساً في تجديده كل عام، إذ أنه لم يكن يتطلب من أعضائه ذكاء متفوقاً ولا تجربة كبيرة. كان يتكون من سدنة النار الخمسين لكل قبيلة. أولئك الذين كانوا يزاولون الوظائف المقدسة كل في دوره ويتشاورون طول العام في مصالح البلاد الدينية أو السياسية. ومن المرجح أن يكون سبب ذلك أن مجلس الشيوخ لم يكن في الأصل إلا مجمع سدنة النار، أي كهنة موقد البريتانيين، والذين احتفظوا بعادة تعيينهم بطريق القرعة. ومن الحق أن يقال إن كل اسم كان يخضع بعد القرعة للامتحان ويستبعد إذا لم يبدُ أنه يتمتع بدرجة كافية من الاحترام (٢).

وفوق مجلس الشيوخ ذاته كان يوجد مجمع الشعب، وهو السيد الحقيقي. ولكن كما أن الملك في الممالك الحسنة التكوين يخضع لقواعد تحد من هواه أو ضد أخطائه الشخصية، فقد كان لحكم العامة أيضاً قواعد يخضع لها ولا تتبدل

(١) ليس القصد أن رجال الدولة في أثينا كانوا محترمين، وعلى الأخص كانوا مرهوبين بحسب الدرجة الكافية التي كان عليها الأمر في اسبرطة أو القناصل في روما. لم يكن محتماً على كل ذي منصب في أثينا أن يقدم حسابه عند انتهاء عمله فحسب، بل كان يمكن عزله بتصويت من الشعب حتى خلال السنة التي تولى فيها (أرسطو في هاربوقراطيون تحت لفظ [illegible]؛ بوليدوكس ٨، ٨٧؛ ديموسثينيس ضد تيموثيوس). والأمثلة على مثل هذا العزل نادرة نسبياً.

(٢) ايسخينيس: ضد اكتسيفون؛ ديموسثينيس: ضد بايرا؛ ليسياس: ضد فيلون؛ هاربوقراطيون، تحت لفظ Ἐπιλαχών.

كان ينعقد المجلس بدعوة من سدنة النار أو القواد وكان يجتمع داخل سور تحدده الديانة عند الصباح يطوف الكهنة بالبنيكس (Pnyx) وهم ينحرون الأضاحي ويطلبون حماية الآلهة. ويجلس الشعب على مقاعد من الحجر ويجتمع سدنة النيران أو المقدمون (البروايدروى proedroi) الذين يرأسون المجمع على منصة مرتفعة، وعندما يجلس الجميع ينادي كاهن (κῆρυξ) قائلا « اصمتوا الصمت الديني (εὐφημία) ادعوا للآلهة والأبطال (وهي يسمى المعبودات الرئيسية للإقليم) لكي يتم كل شيء في هذا المجمع على خير وجه لمنفعة الكبرى لأثينا وسعادة المواطنين » ثم يجيب الشعب. ويردد مرة نيابة عنه. ويدعو الآلهة لكي تحمي المدينة لتحل بأي كاذب حكمة يُنصح من يصغيها نصائح سوء ومن يدعي تغيير القرارات والقوانين، أو من يكشف أسرار للعدو (1) ».

ثم يعلن المنادي بناء على أمر الرؤساء الموضوع الذي يجب على المجمع أن يعنى به. فإن ما يقدم للمجلس لا بد أن يكون مجلس الشيوخ قد ناقشه ودرسه من قبل. لم يكن للشعب ما يطلق عليه في مصطلح الحديث حق المبادأة، كان مجلس الشيوخ يعد له مشروعاً بقرار. فكان يستطيع أن يرفضه أو يقبله لكنه لم يكن يملك المناقشة في شيء آخر.

عندما يتلو المنادي مشروع القرار تفتح المناقشة ويعلن المنادي من يريد الكلام (2) ويصعد الخطباء بترتيب السن. وفي استطاعة كل فرد أن يتكلم من غير تمييز ناتج عن ثروة أو مهنة. ولكن على شرط أن يكون قد أثبت أنه متمتع بحقوق السياسية. وأنه لم يكن مديناً للدولة، وأن أخلاقه

(1) أيسخينيس: ضد تيمرخوس ٢٣، ضد كتسيفون ٢ - ٦. ديناركوس: أرسطوفانس ٤: Ὁ νόμος κελεύει εὐξάμενον τὸν κήρυκα μετ᾽ εὐφημίας : ديموستينيس أسطفانوس ٧ ... πολλήν, οὕτως ἤδη τὸ βουλευτήριον δίδοται. Ταῦθ᾽ ὑπὲρ ὑμῶν καθ᾽ ἑκάστην τὴν ἐκκλησίαν εὔχεται ὁ κῆρυξ νόμῳ προστεταγμένα انظر أرسطوفانس - الجمعيات النسوية ٥٠٧. . . . بولوكس ٨ - ١٦٠.

ضهره . وأنه متزوج زواجاً شرعياً . وأنه يملك عقاراً في أتيكا . وأنه أدى جميع واجباته نحو والديه . وأنه اشترك في جميع الحملات الحربية التي أمر بالاشتراك فيها . وأنه لم يلق ترسه في أي قتال (١)

وبعد أن يتخذ الشعب هذه الاحتياطات ضد البلاغة ، يستسلم لها استسلاماً تاماً . فلم يكن الأثينيون ، كما يقول ثوقيديدس ، يعتقدون أن الكلام ضار بالعمل ، بل كانوا يشعرون على عكس ذلك بالحاجة إلى الاستنارة . لم تعد السياسة كما كانت في العهد السابق مسألة أثرة وإيمان ، بل كان لا بد من التأمل ووزن الأمور . كانت المناقشة ضرورية ، إذ أن كل مسألة كانت على درجة ما من الغموض . والكلام وحده يستطيع أن يلقي الضوء على الحقيقة . كان الشعب الأثيني يريد أن تعرض عليه كل مسألة على جميع وجوهها المختلفة ، وأن يضع بوضوح على الموجبات والموانع . كان شديد التمسك بخطبائه ، ويقال إنه كان يثيبهم بالمال عن كل خطبة يلقونها على المنبر (٢) بل كان يفعل ما هو خير من ذلك ، كان يصغي إليهم ، إذ يجب ألا نتصور جمهوراً هادئاً منتبهاً ، بل الأمثل أن هيئة الشعب كانت على عكس ذلك ، فإن الشاعر الماجن يصوره يستمع فاغراً فاه ، ثابتاً على مقاعده الحجرية (٣) كثيراً ما يصف مؤرخون وخطباء هذه مجتمعات الشعبية ونكاد لا نرى خطيباً يقطع إطلاقاً ، كان الشعب ملقياً باله سواء كان الخطيب بريكليس أو كليون ، أيسخينيس أو ديموستينيس ، كان يصغي سواء عليه أصفقوا أم زجروه ، ويترك الخطباء يدلون بأكثر الآراء تناقضاً ، يصبر صبراً بالغاً ، وقد يهمس أحياناً لكنه لا يصرخ ولا يصخب إطلاقاً . ويستطيع الخطيب أن يصل دائماً إلى نهاية خطبته مهما قال

(١) δοκιμασία ῥητόρων أيسخينيس ، ضد تيمارخوس ٢٧-٣٢ ؛ دينارخوس : ضد ديموستينيس ٧

(٢) ذلك يفهم على الأقل من أرسطوفانيس : الزنابير ٦٩١ Φέρε τὸ συνηγορικόν, Ἐλάμβανον οἱ ῥήτορες δραχμὴν ὑπὲρ συνηγορίας وجاء في الشرح δραχμὴν ὑπὲρ τῆς πόλεως

(٣) أرسطوفانيس : الفرسان ١١١٩ .

لا نعرف شيئاً عن البلاغة في إسبرطة . ذلك أن مبادىء الحكومة لم تكن هي نفس التي كانت في أثينا ؛ فقد كانت صفة المرأة لا تزال تحكم وهنا أثرات ثابتة تعفيه من النزاع طويلا على الموجبات والموانع لكل موضوع . أما في أثينا فإن الشعب يريد أن يتعلم فلا يقرر إلا بعد مناقشة بين الطرفين ، ولا يتصرف إلا بقدر ما يقتنع أو يعتقد أنه مقتنع . ولتحريك التصويت العام كان لا بد من الكلام . فالبلاغة هي التي تحرك حكومة العامة . ويحدث أحد الخطباء عندئذ من مكر نفسه ديماغوغوى (demagogues قادة الشعب) أي قادة المدينة ، والواقع أنهم هم الذين كانوا يقودون المجلس ويوجهون كل قرار به

وقد توقعوا حالة خطيب يقدم اقتراحاً مناقضاً للقوانين القائمة . فكان لأثينا حكام خاصون تسميهم حراس القوانين . كانوا سبعة يراقبون المجلس وهم جلوس على مقاعد مرتفعة ويسمون كممثلين للقانون الذي هو فوق الشعب ذاته فإذا ما رأوا قانوناً يحرم أوقفوا الخطيب أثناء خطابه وأمروا بفض المجلس فوراً فيتفرق الشعب دون أن يكون له الحق في الذهاب للتصويت (١)

كان هناك قانون لم يطبق في الحقيقة إلا قليلا . يعاقب كل خطيب ثبت عليه أنه أشار على الشعب بمشورة سيئة . وكان هناك قانون آخر حرم وصوت بـ[illegible] على كل خطيب أشار ثلاث مرات بقرارات مناقضة للقوانين القائمة (٢)

كانت أثينا تعلم علم اليقين أن حكم العامة لا يمكن أن يقوم إلا باحترام القوانين . وكانت مهمة البحث عن التعديلات التي كان يمكن أن يكون من المصلحة إدخالها في التشريع من اختصاص حفظة القوانين (تيسموثيتى Thesmothètes بصفة خاصة . وكانت اقتراحاتهم تقدم لمجلس الشيوخ الذي كان من حقه أن يرفضها . لكنه لم يكن من حقه أن يعدل في القوانين . وفي حالة الموافقة كان مجلس الشيوخ يدعو المجمع للانعقاد ويعرض عليه مشروع حفظة القوانين

(١) بوليدوكس ٨ : ٩٤ . فيلوخوروس . قطع مجموعة ديدو ص ٣٩٧ .

(٢) أثينايوس ١٠ : ٧٣ . بوليدوكس ٨ : ٥٢ . انظر

G. Perrot, *Hist. du droit public d'Athènes*, chap. II

(الپسموثتاى) لكن لم يكن للشعب أن يقرر شيئاً ما على الفور بل كان يؤجل المناقشة إلى يوم آخر . وفي فترة الانتظار يعين خمسة خطباء مهمتهم الخاصة أن يدافعوا عن القانون القديم وأن يبرزوا ما في التجديد المقترح من عدم الملاءمة . وفي اليوم المحدد يجتمع الشعب من جديد ويسمع أولا الخطباء المكلفين بالدفاع عن القوانين القديمة . ثم المؤيدين للقوانين الجديدة . وبعد سماع الخطب لا يتخذ الشعب قراراً بل يكتفي بأن يعين لجنة من عدد كبير من الأعضاء لكنهم لا ينتخبون إلا من بين من أقسموا يمين القضاة . وتفحص هذه اللجنة الموضوع فحصاً جديداً وتستمع إلى الخطباء من جديد وتناقش وتداول . وإذا رفضت القانون المقترح فإن حكمها غير قابل للاستئناف . وإذا قبلته جمع الشعب مرة أخرى ووجب عليه في هذه المرة الثالثة أن يصوت ويعطي صوته حول الاقتراح (١)

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات فمن المستطاع أن يتخذ قرار ظالم وأن يصدر لكن القانون الجديد يظل عديم الأثر ... الأبد ... يعاقب . ويعتبر الشعب معصوماً من الخطأ كما هو الحال مع سيد حقيقي لكن كل خطيب يبقى مسؤولاً عن النصائح التي أشار بها (٢)

تلك كانت القواعد التي تخضع لها الحكومة العامة . ويجب ألا نستخلص من ذلك أنه لم يكن هناك ... مهما يكن شكل الحكومة (... حكم العامة) فقد ... حكم فيها بعض وأخرى ... بسهولة ثم من دستور قضى تماماً على ضعف الحكومة ... وكل كانت القواعد دقيقة كما أوضحت ... جميع ... الأخطار ... يمكن في حكومة حكم العامة أن يدوم إلا بمبالغة في ...

(١) انظر ... [illegible] ... De Mysteriis ... ٨٣ – ٨٤ ... [illegible]

(٢) ثوكيديدس ... ديموستينيس ... [illegible]

وإن الإنسان ليدهش أيضاً من كل العمل الذي كان يتطلبه حكم [illegible] من [illegible] لقد كانت حكومة عصبة الأخيار [illegible] كل [illegible] لأثينى حياته . يدعى يوماً إلى مجمع حيه وعليه أن يتداول في المصالح [illegible] و [illegible] هذه [illegible] ويوماً آخر يدعى إلى مجمع قبيلته . و [illegible] هو تنظيم [illegible] أو فحص مصروفات أو إصدار قرارات ، أو تعيين [illegible] [illegible] ولا بد أن يحضر [illegible] ثلاث مرات شهرياً [illegible] ولا [illegible] وهو لا [illegible] بالتصويت [illegible] لا يستطيع [illegible] ولا [illegible] أن يفكر الإنسان [illegible] الشخصية لكل [illegible]

[illegible]

(١) يعتقد أنه كان هناك [illegible] أن نخفف من هذا الرقم الأ[illegible] [illegible] وأخيراً [illegible]

ذلك العام فى المحاكم مشتغلا بسماع المترافعين وتطبيق القوانين. لم يكن هناك مواطن لا يدعى مرتين فى حياته للاشتراك فى مجلس الشيوخ المكون من خمسمائة عضو. وعندئذ يجلس كل يوم، مدة عام، من الصباح إلى المساء يتلقى بلاغات رجال الدولة ومحاسبيهم ويرد على السفراء الأجانب ويحرر التعليمات للسفراء الأثينيين ويفحص جميع المسائل التى يجب أن تعرض على الشعب. ويعد جميع القرارات. وأخيراً يستطيع أن يكون ذا منصب فى المدينة، أرخوناً، أو قائداً، أو ضابطاً للمدينة، إذا ما عينته القرعة أو الانتخاب. ومن ذلك نرى أنه كان عبئاً ثقيلاً أن يكون المرء مواطناً فى دولة ديموقراطية، وأنه كان فى ذلك ما يكاد يشغل حياة أكملها، وأنه لم يكن يبقى إلا القليل من الوقت للأعمال الشخصية والحياة المنزلية. لذلك كان أرسطو محقاً جداً عندما قال إن الرجل الذى يحتاج للعمل لكى يعيش لا يستطيع أن يكون مواطناً. ذلك ما كانت تفرضه حكومة عامة. فكان على المواطن، كالموظف العام فى أيامنا، أن يهب المدينة نفسه كامله. فكان يعطيها دمه فى الحرب ووقته فى زمن السلم. لم يكن حراً فى ترك شئون العامة جانباً لكى يعنى بشئونه عناية أكبر. بل الأمثل أن شئونه هى التى كان يتحتم عليه أن يهملها ليعمل لصالح المدينة. كان الناس يقضون حياتهم فى حكم أنفسهم. ولم يكن باستطاعة حكومة العامة أن تدوم إلا بشرط العمل المتواصل من جانب جميع مواطنيها. فإذا ما أبطأ الحماس قليلا أصبح لا بد من هلاكها أو فسادها.

الفصل الثاني عشر

أثرياء وفقراء ؛ حكم العامة (الديموقراطية) ؛ الطغاة الشعبيون

عندما أدت سلسلة الانقلابات إلى المساواة بين الناس . ولم يعد هناك مكان للقتال من أجل المبادئ والحقوق . حارب الناس بعضهم بعضاً من أجل المنافع ولم تبدأ هذه الفترة الجديدة من تاريخ المدن في وقت واحد بالنسبة لها جميعاً فقد تبعت في بعضها حكومة العامة مبكرة وجيزة جداً ؛ ولم تظهر في الأخرى ، إلا بعد عدة أجيال عرفت كيف تحكم بمسافات هدوء . لكن جميع المدن قد انحدرت في زمن مبكر أو متأخر . إلى هذه شرعت الفترة بالأسى

كلما ابتعدوا عن النظام القديم تكونت طبقة فقيرة . أما قبل ذلك . عندما كان كل رجل عضواً في عصبة . وله سيد . فإن البؤس كاد يكون مجهولاً كان الرجل يطعمه سيده إذ أنه كان على من يقدم له طاعته أن يقوم بسد كل حاجاته . لكن الانقلابات التي فككت العصبة genos غيرت ظروف الحياة البشرية أيضاً . في اليوم الذي خرج فيه الإنسان من روابط الولاء رأى ضرورات الحياة ومصاعبها تقوم في وجهه . أصبحت الحياة أكثر استقلالاً لكنها أيضاً أكثر عناء وأكثر تعرضاً للنوازل . أصبح كل امرئ معنياً منذ الآن براحته نفسه وبمتعته وعيشه . لقد أثرى هذا بسبب نشاطه أو حظه السعيد . وبقي الآخر فقيراً . إن التفاوت في الثروة لا مفر منه في كل مجتمع لا يريد أن يبقى في الحالة الأبوية أو الحالة القبلية (حالة القبيلة)

لم يقض حكم العامة على الشقاء . بل جعله . على العكس ، محسوساً أكثر من ذي قبل . وقد جعل التفاوت في الحقوق السياسية تفاوت الأحوال أكثر بروزاً .

وحيث أنه لم تكن هناك سلطة ما تعلو على الأثرياء والفقراء معاً وتستطيع أن تجبرهم على البقاء في السلم فقد كان من المأمول أن تكون المبادىء الاقتصادية وظروف العمل بحيث تجبر الطبقتين على العيش في وفاق. فكان يجب مثلاً أن تحتاج إحداهما للأخرى وألا يستطيع الثرى أن يثرى إلا بالتماس العمل من الفقير وأن يجد الفقير وسائل العيش بتقديم عمله للثرى. وعندئذ كان تفاوت الثروات يشحذ همة الرجل وذكاءه، ولا يسبب الفساد والحرب الأهلية.

لكن كثيراً من المدن كانت تنقصه الصناعة والتجارة نقصاً تاماً. فلم يكن بيدها وسيلة لزيادة مجموع الثروة عامة حيث تعطى نصيباً من الفقير دون أن تنزع شيئاً من أحد. وحيث وجدت التجارة كانت كل فوائدها تقريباً من نصيب الأثرياء بسبب سلطتهم في رأس المال. وقد وجدت الصناعة كان العبيد لأكبر من عمل من أرقاء. من المعروف أنه كان في مصر الثرى في أثينا أو في روما مصانع للنسيج والصناعة وصنع الأسلحة، وجميعهم أرقاء. حتى المهن الحرة كانت موصدة تقريباً في وجه المواطن. ففي عالم الأحياء كان الطبيب رقيقاً يعالج المرضى حسب سيده. وكان مستخدمو المصارف وكثيرون من المهندسين ومن المعماريين وصغار موظفي الدولة أرقاء. كان الرق آفة يشكو منه مجتمع الحر ذاته. فالمواطن لا يجد إلا قليلاً من الوظائف وقليلاً من العمل وسرعان ما يصير بحكم عدم الاشتغال كسولاً. وبما كان لا يرى من يعمل غير العبيد فقد احتقر العمل. وهكذا تواطأ كل شيء: العادات الاقتصادية والاستعدادات الخلقية والآراء الحديثة ليحول بين الفقير وبين الخروج من بؤسه والعيش عيشة شريفة. لم تكن الثروة والفقر منظمين بحيث يستطيعان العيش في سلام.

كان الفقير متمتعاً بالمساواة في الحقوق. لكن من المؤكد أن آلامه اليومية كانت تحمله على التفكير في أن المساواة في الثروة كانت أفضل من ذلك بكثير. هذا ولم يلبث طويلاً حتى أدرك أن في إمكانه أن يستخدم المساواة التي كانت في يده للحصول على تلك التي لم تكن في حيازته. وأنه وهو مسيطر على الأصوات يستطيع أن يكون مسيطراً على الثروة

بدأ بأن أراد العيش من حقه في التصويت فكان يتقاضى أجراً لحضور الجمع أو للقضاء في المحاكم (١). وإذا لم تكن المدينة من الثراء بحيث تستطيع القيام بمثل هذه المصروفات فإن أمام الفقير موارد أخرى. كان يبيع صوته. ولما كانت مناسبات التصويت متعددة الوقوع فقد كان في استطاعته أن يعيش. في روما كان يحدث هذا الاتجار بانتظام وفي وضح النهار. أما في أثينا فكانوا يستترون أكثر من ذلك في روما. وحيث لم يكن الفقير يحضر المحاكم، كان يبيع نفسه كشاهد. وفي أثينا كقاض. ولم يكن ذلك كله ينتزع الفقير من بؤسه بل كان يلقي به في المهانة.

هذه الوسائل المريحة لم تكن كافية فاستعمل الفقير وسائل أشد عنفاً. أعد حرباً منظمة ضد الثروة. وفي بدء كانت هذه الحرب مستترة في صور شرعية فحمّلوا الأثرياء المصروفات العامة كلها، وكلفوهم فوق طاقتهم وحملوهم يبنون سفناً من ذوات الطبقات الثلاث، وأرادوا منهم أن يعملوا أعياداً للشعب (٢). ثم أكثروا من الغرامات في الأحكام، وحكموا بمصادرة الأموال لأيسر الهفوات. أفي مقدورنا أن نقول كم من الرجال حكم عليه بالنفي لمجرد أنه كان ثرياً؟ كانت الثروة تذهب إلى بيت المال ومنه تتسرب فيما بعد لكي يتقاسمها الفقراء في صورة ثلاثة فلوس (triobole) (٣). لكن ذلك كله لم يعد كافياً إذ أن عدد الفقراء كان يزداد على الدوام

(١) Μισθὸς ἐκκλησιαστικός أرسطوفانس، مجلس النساء [illegible] وما بعدها. — Μισθὸς δικαστικός أرسطو، السياسة [illegible] ؛ أرسطوفانس، الزنابير [illegible] ؛ لوسيان [illegible].

(٢) Xenophon, Resp. Ath. I, 13: Χορηγοῦσιν οἱ πλούσιοι, χορηγεῖται δὲ ὁ δῆμος· τριηραρχοῦσι καὶ γυμνασιαρχοῦσιν οἱ πλούσιοι, ὁ δὲ δῆμος τριηραρχεῖται καὶ γυμνασιαρχεῖται. Ἀξιοῖ οὖν ἀργύριον λαμβάνειν ὁ δῆμος καὶ ᾄδων καὶ τρέχων καὶ ὀρχούμενος, ἵνα αὐτός τε ἔχῃ καὶ οἱ πλούσιοι πενέστεροι γίγνωνται قارن أرسطوفانس، الفرسان [illegible]

(٣) كان يعطى لكل أثيني يحضر الجمع ثلاثة فلوس (triobole) أي حوالي قرشين عن الجلسة الواحدة. — المعرب

وعندئذ انتهى الفقراء فى كثير من البلدان إلى استعمال حقهم فى التصويت لـكى يقرروا إلغاء الديون ، أو المصادرة بالجملة والانقلاب التام .

فى الفترات السابقة ، احترموا حق التملك لأن أساسه كان العقيدة الدينية.

طالما كان كل ميراث ملازماً لعبادة ما ، ومعتبراً غير منفصل عن الآلهة المنزلية لأسرة ما ، لم يفكر أحد فى أن له الحق فى تجريد شخص من حقله لـكن فى الفترة التى قادت إلى الانقلابات ، هجرت هذه العقائد القديمة واختفت ديانة الملك لم تعد الثروة أرضاً مقدسة مصونة لم تعد تبدو هبة من الآلهة بل هبة من المصادفة ، يود الإنسان أن يستولى عليه سالباً ممن يحوزها وهذه الرغبة ، التى كانت تبدو فيما مضى ، بدأت تلوح عملا مشروعاً لم يعودوا يرون المبدأ السامى لدى كان يقدس حق الملك . لم يكن يشعر كل فرد إلا بحاجته هو ذاته ، ويقيس حقه عليه .

سبق أن قلنا إنه كان للمدينة ، عند الإغريق على الأخص ، سلطان لا حد له ، وأن الحرية كانت مجهولة ، وأن الحق لم يكن شيئاً ما أمام إرادة الدولة وقد نتج عن ذلك أنه كان فى استطاعة أغلبية الأصوات أن تقرر مصادرة أموال الأثرياء ، وأن الإغريق لم يكونوا يرون فى ذلك خروجاً عن القانون ولا ظلماً. فإن ما قررته الدولة هو القانون . وقد كان انعدام الحرية الفردية هذا سبباً للمصائب والفتن فى بلاد الإغريق . أما روما ، التى كانت أكثر احتراماً بقليل لحق الإنسان ، فقد أصابها أقل من ذلك بؤساً

يروى پلوتارخوس أنهم قرروا فى ميغارا على أثر فتنة أن يلغى الديون وأن يرد الدائنون الأرباح التى دفعت من قبل ، وذلك علاوة على فقدان رأس المال(١)

يقول أرسطو (٢) : «عندما انتزع الحزب الشعبى السلطة فى ميغارا ، وكذلك فى بلدان أخرى ، بدأ بأن حكم على بعض الأسرات الثرية بمصادرة أموالها ، لـكنه بمجرد أن سلك ذلك الطريق لم يعد فى استطاعته أن يقف ، فكان لا بد

(١) پلوتارخوس : مسائل إغريقية ١٨ .
(٢) أرسطو : السياسة ، ٥ : ٤ ، ٣ .

من ضحية جديدة كل يوم . وفي النهاية أصبح عدد الأثرياء الذين صادروا أموالهم ونفوهم من بلادهم عظيماً بحيث يكون جيشاً » .

وفي سنة ٤١٢ أباد شعب ساموس مائتين من خصومه ، ونفى أربعمائة آخرين واقتسم أراضيهم وبيوتهم (١) » .

وفي سيراقوسه لم يكد الشعب يتخلص من طاغية ديونيسيوس حتى قرر اقتسام الأراضي والمنازل (٢)

كنا رأينا حرباً أهلية . في تلك الفترة من التاريخ الإغريقي ، رأينا الأثرياء في حرب والفقراء في حرب أخرى يريد الفقراء أن ينتزعوا الثروة ، ويريد الأثرياء أن يحتفظوا بها أو أن يستردوها . يقول مؤرخ إغريقي : إن الغرض من كل حرب أهلية هو نقل الثروة » (٣) كان كل مثير للشعب يعمل كما عمل مولپوغوراس (Molpogoras) الكيوسي (من كيوس ...) . فقد سلم للجمهور من كانت في حوزتهم أموال وقتل بعضهم ونفى البعض الآخر ووزع أملاكهم بين الفقراء . وفي مسينه (٤) ، بمجرد أن تغلب الحزب الشعبي نفى الأثرياء وقسم أراضيهم (٥)

لم يكن قط لدى الطبقات العالية عند القدماء كفاية من الذكاء ولا كفاية من المهارة لتوجيه الفقراء نحو العمل ولمساعدتهم على الخروج من بؤسهم وفساد طريق شريف . وقد حاول ذلك بعض رجال من أولي الألباب ولم ينجحوا فيه . وقد نتج عن ذلك أن الدول كانت تتقلب دائماً بين ثورتين إحداهما تسلب الأثرياء والأخرى ترد إليهم ثروتهم وقد استمر ذلك من حرب بيلوبونيز إلى استيلاء الرومان على بلاد الإغريق

كان الغني والفقير في كل مدينة ، عدوين يعيشان جنباً لجنب ، أحدهما يطمع في الثروة والآخر يرى ثروته مطموعاً فيها . ليس بينهما صلة تربطهما

(١) توسيديدس ٨ : ٢ .
(٢) بلوتارخوس . ديون ٣٧ ، ٤٨ .
(٣) بوليبوس ١٥ ، ٢١ ، ٣ . Ἵνα διαιρῶνται τὰς ἀλλήλων οὐσίας
(٤) كلما تكلم المؤلف عن مسينه في هذا الكتاب فهو يقصد مسينه التي في بلاد الإغريق وليست مسينه التي في صقلية . — المعرب .
(٥) بوليبوس ٧ ، ١ ، طبعة ديدو .

ولا خدمة ولا عمل. لا يستطيع الفقير أن يحصل على الثروة إلا بسلب الثري. ولا يستطيع الثري أن يدفع عن ثروته إلا بالشهرة وبالقوة. كان كل منهم يرمق الآخر بعين الحقد. فكانت في كل مدينة مؤامرة مزدوجة يتآمر الفقراء بدافع الجشع، والأثرياء بدافع الخوف. يقول أرسطو إن الأثرياء حلفوا فيما بينهم: «أقسم أن أكون على الدوام عدواً للشعب وأن أوقع به كل ما أستطيع من سوء». (١)

وليس من المستطاع أن نقول أي الفريقين ارتكب من القسوة والجرائم أكثر مما ارتكب الآخر. تحت الأحقاد من بين كل إحساس إنساني. كانت في ميليتوس حرب بين الأثرياء والفقراء. وقد تغلب الفقراء أولا وأجبروا الأثرياء على الفرار من المدينة. ولكنهم أسفوا فيما بعد لعدم استطاعتهم ذبحهم فأخذوا أطفالهم وجمعوهم في حظائر وسحقوهم تحت أظلاف الثيران. ثم دخل الأثرياء المدينة مرة أخرى وأصبحوا سادة من جديد. وأخذوا بدورهم أطفال الفقراء ودهنوهم بالقطران وأحرقوهم أحياء. (٢)

(١) أرسطو [illegible] ١٩.

(٢) [illegible] إنه من المألوف [illegible] حكم العامة الأثيني بأنه كان للبلاد الإغريقية [illegible] الانقلابات، [illegible] لم تر داخل جدرانها [illegible] الأثرياء والفقراء [illegible] الانقلابات [illegible] لا يستطيع أن [illegible] على أن [illegible] [illegible] حيث أنه كان يحصي في نهاية القرن الخامس [illegible] أكثر من عشرة آلاف مواطن من الملاك العقاريين مقابل [illegible] (De Lysia, 32) . ولذلك كانت أثينا [illegible] Liturgies [illegible] على طريقة [illegible] الأرض.

[illegible] حرية حكومة الطغمة عندئذ؟ [illegible] لم تكن مسؤولة تماماً عن هذه الاعتداءات وهذه الحرية . لكن كان من [illegible] لم تعد هناك [illegible] . هذا وحكومة الطغمة لا يستطيع أن تعتبر إلا بين أدق القواعد وأكثرها حظاً من المراعاة لم يعودوا يرون حكومات حقيقية بل [illegible] في يدها السلطان . لم تعد الحكم يباشر سلطة لمصلحة [illegible] بل لمصلحة حزبية ومصلحة [illegible] لم يعد الأمر [illegible] شرعية بل [illegible] . لم تعد في طاعة شيء [illegible] بل كانت [illegible] وكما يقول أفلاطون . لم تعد المدينة سوى مجموعة من [illegible] كما يقولون عن حكومة [illegible] حكومة [illegible] تكون الأغنياء في السلطة ، وحكومة [illegible] وفي الحق أن حكم الطغمة المعنى الصحيح لم يعد موجوداً

[illegible] حكم [illegible] من [illegible] حكم [illegible] وجود [illegible] الأثرياء حكم قلة [illegible] وأصبح حكم [illegible] في [illegible] جميع [illegible] الإغريقية والإيطالية [illegible] . ولم [illegible] كذلك [illegible] الأملاك [illegible] محصورة [illegible] لأخذ الحرب [illegible] ويمكن أن [illegible] بوضوح من هم الذين يريدون أن [illegible] ومن هم الذين يريدون [illegible] الأثرياء [illegible] أكثر [illegible] جمهوري [illegible] للفقراء . [illegible] الحقوق [illegible] فأصبحت [illegible] حروب [illegible] . [illegible] لا [illegible] من [illegible] حرب [illegible] دائماً . [illegible] و [illegible] لا بد من [illegible] دائماً . [illegible] أن [illegible] نظاماً [illegible] مع [illegible] في [illegible] انتصارها كم [illegible] حرب [illegible] على [illegible] أمست [illegible] .

ابتداء من هذه اللحظة غيرت الأحزاب أسماءها، فلم يعد الأمر أمر حزب الأسرة أو حزب العامة، بل حزب من أهل الحرية أو أنصار الطغيان. وتحت هذين اللقبين كانت الثروة والفقر هما اللذين يتحاربان. فالحرية معناها الحكومة التي يسود فيها الأثرياء ويدافعون عن أموالهم، والطغيان يدل على عكس ذلك تماماً.

إنه لحادث عام في تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا، ويكاد يخلو من الاستثناء، أن الطغاة يخرجون من حزب شعبي، وأن عدوهم هو حزب السراة. يقول أرسطو: « ليس للطاغية رسالة غير حماية الشعب ضد الأثرياء، إنه يبدأ دائماً قائداً للشعب، ومن جوهر الطغيان محاربة السراة ». ويقول أيضاً: « والوسيلة للوصول إلى الطغيان هي اكتساب ثقة الجمهور، وإنما يكتسب ثقته بإعلان المرء نفسه عدواً للأثرياء. هكذا فعل بيزستراتوس (Pisistrate) في أثينا، وثياجينيس (Theagene) في ميغارا، وديونيسيوس في سيراقوسة » (1).

يحارب الطاغية الأثرياء دائماً. في ميغارا ذبح ثياجينيس قطعان مواشي الأثرياء في المراعي وذبحها. وفي كورنثة نفى أسطوديتوس النبلاء وانتزع الأراضي من الأثرياء ليعطيها للفقراء. وهكذا فعل نيكوكليس في سيكيون، وأرسطوماخوس في أرغوس. ويصور لنا الكتاب كل أولئك الطغاة قساة جداً. وليس من المحتمل أنهم كانوا جميعاً كذلك بحكم طبيعتهم، بل بحكم الضرورة الملحة، حين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إعطاء الفقراء أرضاً أو أموالاً، فلم يكن في استطاعتهم أن يبقوا في الحكم إلا بقدر ما يرضون جشع الجمهور ويغذون شهواته.

كان صاحب هذه السلطة الإغريقية شخصية لا يستطيع أي شيء في أيامنا أن يصورها. إنه رجل يعيش بين رعاياه من غير وسيط ولا وزراء وينزل بهم عقابه مباشرة. لم يكن في ذلك الوضع السامي المستقل الذي يشغله ملك دولة كبيرة. وكانت فيه كل الشهوات الصغيرة التي تكون في أفراد الناس. ولم يكن خلواً من الإحساس بمنافع مصادرة. كان يدركه الغضب وتستولي عليه

(1) أرسطو، السياسة، ٨ ؛ ٢ — ٣ ؛ ٥ ، ٤ ؛ ٥ .

النزعة في الانتقام الشخصي ، كان يخاف . ويعلم أنه أعداء قريبين منه وأن الرأي العام يرضى عن الاغتيال عندما يكون القتيل طاغية ونستطيع أن نتصور ما يمكن أن يكون حكومة رجل كهذا . فيما عدا حالتين شريفتين أو ثلاث حالات تعد شاذة ، لم يحكم الطغاة الذين قاموا في جميع المدن الإغريقية في القرنين الرابع والثالث ، إلا بتملقهم أسوأ شهوات الجمهور ، وبتحطيمهم بعنف كل ما كان سامياً بحكم مولد أو الثروة أو الجدارة . كانت سلطتهم لا حد لها . وقد استطاع الإغريق أن يعرفوا إلى أي حد يسهل أن تتحول الحكومة الجمهورية إلى استبدادية عندما لا تعير الحقوق الفردية احتراماً كبيراً . أعطى القدماء للدولة سلطاناً كبيراً . فإذا ما قبض طاغية ما بيده على هذه القبضة الشاملة فإنه لم تعد تبقى للناس أي ضمانات منه ، وأصبح هو المسيطر شرعاً على حياتهم وعلى أموالهم

الفصل الثالث عشر

انقلابات اسبرطه

يجب ألا نعتقد أن اسبرطه قد عاشت عشرة قرون دون أن ترى الانقلابات بل ، على العكس ، يخبرنا توقيديديس بأنها كانت ساحة للعنف أكثر من أية مدينة إغريقية أخرى(١) حقاً إننا لا نعرف من تاريخ هذه المنازعات الداخلية إلا قليلا ، لكن مصدر ذلك أن حكومة اسبرطه جعلت من سننها وعادتها أن تحيط نفسها بأعمق الأسرار(٢) فقد أخفت معظم المنازعات التي أثارت الاضطراب فيها ومركز السياسة ، لكنا نعرف منها ، على الأقل ، ما يكفي للقول بأنه إذا كان تاريخ اسبرطه يختلف بدرجة محسوسة عن تاريخ المدن الأخرى فإن ذلك لا يمنع من أنها اجتازت بعض سلسلة من الثورات

كان الدوريون قد تكونوا في هيئة شعب عندما غزوا بيلوبونيز . أي داع دعاهم للخروج من بلادهم ؟ أغزو من شعب أجنبي أم ثورة داخلية ؟ السبب مجهول . وإنما يبدو مؤكداً أنه في تلك الفترة من وجود الشعب الدوري كان نظام القبيلة القديمة قد تحطم . فلم يعد يعبر بذلك النظام العتيق للأسرة . ولم تعد توجد آثار من نظام الأسرة ولا مقابلا من طبقة النبلاء الدينيين ولا الولاء الوراثي . لا نرى غير محاربين متساويين تحت ملك . ففي مجتمع بدأت أول ثورة اجتماعية أولى قد تمت . وإنما وهم في إقليم دوريس Doride ، وهم في الطريق لدى مجيء هذا الشعب إلى اسبرطه . وإذ قورنت الجماعة الدورية في القرن التاسع بالمجتمع الأيوني في نفس الفترة يتبين أن الأول كان أكثر تقدماً من الثاني في سلسلة التغييرات ، لقد دخل الشعب الدوري في طريق الانقلاب متأخراً . ولكن من الحق أنه اجتازه بسرعة أكبر من الثاني

(١) توقيديديس ١ : ١٨ .
(٢) شرحه ٥ : ٦٨ .

ولو أن نظام العصبة لم يعد موجوداً عند الدوريين عند وصولهم إلى اسبرطه إلا أنهم لم يكونوا قد استطاعوا عندئذ أن يتخلصوا منه تماماً بحيث لاتبقى لديهم بعض أنظمة منه، كعدم تجزئة الميراث وعدم بيعه. ولم تلبث هذه الأنظمة أن أقامت مساواة من جديد في المجتمع الاسبرطي.

تريبنا جميع الآثارات أنه في الفترة التي ظهر فيها ليكورغ كانت توجد طبقتان من الاسبرطيين وأنهما كانتا في نزاع (١). كانت الملكية تميل ميلا طبيعياً إلى التحيز لطبقة الدنيا. أما ليكورغ الذي لم يكن ملكاً فقد وضع نفسه على رأس الأحرار (٢) وأجبر الملك على أن يقتسم قسماً بقليل من سلطته. وأقام مجلس شيوخ من الأغنياء. وأخيراً، جعل الطغيان يتحول إلى مساواة، حسب تعبير أرسطو (٣).

ويجب ألا تغرنا طنطنة بعض القدماء وكثيرين من المحدثين عن حكمة أنظمة اسبرطه، وعن السعادة التي لا حد لها التي كانوا يتمتعون بها فيها، وعن المساواة الواحدة المشتركة عند كل اسبرطه. من بين جميع البلدان التي وجدت على الأرض، هي التي تحكمت فيها المساواة بأشد قسوة، والتي عرفت فيها المساواة أقل مما عرفت في سواها. يجب ألا نحكم على اقتسام الأراضي على أساس المساواة. إذا كانت هذه المساواة قد وجدت في وقت ما فمن المؤكد أنها لم تبق قائمة. إذ أنه في زمن أرسطو كان البعض يملك ممتلكات شاسعة ولم يكن للبعض الآخر شيء، أو يقرب من ألا يكون له شيء. فلا يكاد يعد في جميع لاكونيا ألف من الملاك (٤).

سنترك الهيلوتيين واللاكونيين جانباً ونقتصر على فحص المجتمع الاسبرطي نجد فيه سلماً من طبقات بعضها فوق بعض. نجد أولا النيوداموداي (Neodamodes

(١) بلوتارخوس: ليكورغ ٨.
(٢) شرحه «Τοῖς ἀρίστοις προσθέσθαι».
(٣) أرسطو: السياسة ٥: ١٠: ٣ (طبعة ديدو ص ٥٨٩).
(٤) أرسطو: السياسة ٢، ٦: ١٨، ١١؛ أنظر بلوتارخوس: أجيس ٥.

الذين يبدو أنهم ارتقوا فيما بعد إلى أحرار (١) . ثم الإبوناكتوى (Epeunactes) الذين سمح لهم أن يملأوا الفراغ الذي أحدثته الحرب بين الاسبرطيين (٢) . وفي مرتبة أعلى من هذه بقليل يظهر الموثاكيس (Mothaces) الذين يشبهون الموالي المدللين إلى حد ما فيعيشون مع أسيادهم ويختلطون به ويشتركون في مشاغله وأعماله وأعياده ويحاربون بجواره (٣) . ثم يأتي بعد ذلك طبقة النغلاء νοθοι الذين ينحدرون من اسبرطيين حقيقيين ، وتقصيهم عنهم المدينة والقانون (٤) . ثم يجيء بعد ذلك طبقة كانوا يسمونهم الأدنياء (ὑπομείονες) (٥) وربما كانوا صغار الأسرة المحرومين من الميراث . وأخيراً ، فوق كل ذلك ، تقوم طبقة الصفوة المكونة من الرجال الذين كانوا يسمون الأكفاء (ὅμοιοι) ، والواقع أن هؤلاء الناس كانوا أكفاء فيما بينهم لكنهم أعلى بكثير من البقية الأخرى . ولا نعرف عدد رجال هذه الطبقة وكل ما نعرفه فقط أنه كان محدوداً جداً وقد أحصاهم أحد أعدائهم في الميدان العام ذات يوم فلم يجد غير نحو ستين بين جمهور من ٤٠٠٠ فرد (٦) . وهؤلاء الأكفاء يساهمون دون سواهم في حكومة المدينة . يقول اكسينوفون : إن يكون الإنسان خارج هذه الطبقة معناه أنه خارج الهيئة السياسية (٧) . ويقول ديموستينيس إن الرجل الذي يدخل طبقة الأكفاء يصبح بمقتضى ذلك وحده أحد أسياد الحكومة (٨) ويقول أيضاً يسمونهم الأكفاء لأن المساواة يجب أن تسود بين أعضاء الأقلية الحاكمة .

وهؤلاء الأكفاء هم دون سواهم أصحاب حقوق المواطن الكاملة .

(١) ميرون البريني Myron de priene في أثينايوس ٦ .
(٢) ثيوبومبوس في أثينايوس ٦ .
(٣) أثينايوس ٦ ، ٢ [illegible] ، بلوتارخوس ، كليومينيس ٨ ، [illegible] ٢٠ : ٣٤ .
(٤) أرسطو ، السياسة ٨ ، ٦ ، ٥ : ١ ، اكسينوفون : هلينيكا ٥ ، ٣ ، ٩ .
(٥) اكسينوفون هلينيكا ٣ ، ٣ ، ٦ .
(٦) اكسينوفون في ... ٣ ، ٣ ، ٥ .
(٧) اكسينوفون : الجمهورية اللاكيدمونية ١٤ .
(٨) ديموستينيس : ضد ليبتينيس ١٠٧ .

ويؤلفون دون سواهم ما كان يسمى في اسبرطة الشعب أي الهيئة السياسية. ومن هذه الطبقة تخرج الشيوخ الثمانية والعشرون بطريق الانتخاب.

ويطلق على الدخول في سلك مجلس الشيوخ، في اللغة الرسمية في اسبرطة، الحصول على جائزة الفضيلة (١). ونحن لا ندري ماذا كان يجب من الكفاءة والمولد والثروة لتكوين هذه الفضيلة. ونرى جيداً أن المولد لم يكن كافياً طالما كان هناك على الأقل ما يشبه الانتخاب (٢)، ويجب الاعتقاد بأنه كان للثروة حساب كبير في بلدة «كانت حب المال إلى أقصى درجات الحب، وحيث كان كل شيء مقبولا من الأثرياء» (٣).

ومهما يكن فإن هؤلاء الشيوخ، الذين كانوا غير قابلين للعزل، كانوا يتمتعون بسلطة عظيمة جداً، إذ أن ديموستينيس يقول إنه في اليوم الذي يدخل فيه رجل إلى مجلس الشيوخ يصبح مستبداً في نظر الجمهور (٤). كان مجلس الشيوخ هذا، الذي كان الملوك مجرد أعضاء فيه، يحكم الدولة طبقاً لطريقة هيئات الأشراف المألوفة. وكان هناك حكام حوليون، يعود إليه حق انتخابهم بطريق غير مباشر، ويمارسون باسمه سلطة مطلقة. وهكذا كان لاسبرطة نظام جمهوري، بل لقد كان لها كل مظاهر حكم العامة: ملوك كهنة، ورجال دولة حوليون، ومجلس شيوخ ذو حق مشورة، ومجمع للشعب. لكن هذا الشعب لم يكن سوى جماع مئتين أو ثلاثمئة رجل.

هكذا كانت حكومة اسبرطة منذ ليكورغ، وعلى الأخص منذ تقدم الإفورات. كانت هناك فئة تتألف من بعض الأثرياء وتنوء بكلكل من حديد على الهيلوتيس وعلى اللاكونيين بل على السواد الأكبر من الاسبرطيين.

(١) Νικητήριον τῆς ἀρετῆς أو Ἆθλον ... أرسطو ٢ : ٦ : ١٥ ؛ ديموستينيس ضد ليبتينيس ١٠٧ . بلوتارخوس : ليكورغ ٢٦ .

(٢) بحسب أرسطو السياسة ٢ ، ٦ ، ١٨ هذه الطريقة في الانتخاب بالأصوات παιδαριώδης ... بلوتارخوس ليكورغ ٢٦ .

(٣) أرسطو السياسة ٢ : ٦ : ٥ ؛ ٦ : ١ .

(٤) ديموستينيس : ضد ليبتينيس ١٠٧ . بوليبيوس : حكومة اللاقيدمونيين

وقد عرفت حكم [illegible] و[illegible] . وصقلية نفسها ، وفيها كثرت [illegible] الحقة . [illegible] على سلطة خلال [illegible] لكنها ثارت [illegible] وكان عليها أن تخمد عددا كبيرا من الثورات .

ليس لنا أن نحكم عن مؤامرات [illegible] وليست كل مؤامرات الاسبرطيين معروفة لنا فقد كانت حكومة من نوع [illegible] لم يكن [illegible] أن تحاول أن تخفي حتى ذكرها [illegible] نعلم أن [illegible] كثيرون من الاسبرطيين الذين أرادوا أن [illegible] حكومتهم . وقد عرفت بلاد الإغريق من كلمة مأثورة من الشاعر تيرتيوس Tyrtée أن حربا [illegible] أثناء حروب [illegible] للحصول على اقتسام الأراضي (١) .

[illegible] أعد [illegible] لأنه [illegible] الذي عرفت كيف [illegible] لم يكن الهيلوتيس يتفقون مع [illegible] . وكان [illegible] يحتقرون [illegible] فلم يكن في إمكانهم أن [illegible] وعندما كانت [illegible] تربية الحربية [illegible] على [illegible] من قوة [illegible] مقاومة كل واحدة من [illegible]

[illegible] الهيلوت [illegible] لم تجرب أية [illegible] على [illegible] فكان كل من أراد منهم الخروج من حالة الضعة التي وضعتهم [illegible] يبحث عن نكاية لدى أهل الطبقة الدنيا . ففي خلال حرب الفرس وضع بوسانياس مشروعا لرفع [illegible] و[illegible] معا [illegible] الأقلية الحاكمة فقضى عليه الاسبرطيون باتهامه بأنه عقد صلات مع ملك الفرس . وربما كانت جريمته الحقيقية أنه فكر في تحرير الهيلوتيس (٢) . ويمكن أن نعد في التاريخ كم بلغ عدد الملوك الذين [illegible] الإيفورات [illegible] الأحكام [illegible] وقد قاله

(١) أرسطو ، السياسة [illegible]
(٢) [illegible] ، ثوكيديديس [illegible]

أرسطو — وجعل ملوك اسبرطه من أنفسهم قادة للشعب لمقاومة الإيفورات ومجلس الشيوخ (١) .

في سنة ٣٩٧ ، كادت مؤامرة تقلب حكومة الأقلية هذه . فإن شخصاً يدعى كينادون (Cinadon) ، لم يكن ينتمي إلى طبقة الأكفاء، كان رئيساً للمتآمرين ، وعندما كان يريد أن يضم رجلاً للمؤامرة كان يقوده إلى الميدان العام ويجعله يعد المواطنين . وكانوا يعدون بما فيهم الملوك والإيفورات والشيوخ حوالى السبعين وعندئذ يقول له كينادون : هؤلاء الناس هم أعداؤنا ، أما جميع بقية الذين يملأون الميدان ويزيد عددهم على أربعة الآلاف فإنهم على العكس حلفاؤنا ويضيف أنه عندما تلقى اسبرطيا في الريف اعتبره عدواً وسيداً ، أما الرجال الآخرون فإنهم جميعاً أصدقاء ، فعند هذه المرة جميع الهيلوتيس واللاكونيين والنيودامودس والهيبوميوبس Hypomeiones وكانوا شركاء لكينادون ، وذلك كما يقول المؤرخ ، لأنه كان لديهم جميعاً من الحقد على أسيادهم حيث لم يكن بينهم واحد لا يعترف بأنه يود لو أن يلتهمهم من غير طهي . لكن حكومة اسبرطه كانت حسنة الخدمة فلم يكن يخفى عليها سر . وعلم الإيفورات أن أحشاء الأضاحي كشفت لهم عن المؤامرة فلم يتركوا للمتآمرين وقتاً للعمل . ألقوا القبض عليهم وأهلكوهم سراً ، وأنقذت الأقلية الحاكمة مرة أخرى (٢) .

وبفضل هذه الحكومة تستمر الثروات في البلاد على الدوام . وقد أدت حرب البيلوبونيز والحروب التي تلتها إلى تدفق المال في اسبرطه . لكنه كان موزعاً بطريقة متفاوتة إلى درجة كبيرة ، ولم يستثمره إلا الذين كانوا أثرياء من قبل . وفي نفس الوقت احتكرت الملكية الصغيرة فتضاءل عدد الملاك ، الذي كان لا يزيد عن ألف في زمن أرسطو، إلى مائة بعده بقرن (٣) . كانت الأرض كلها في جميع البلد ، ولم تكن هناك صناعة ولا تجارة تتيحان

(١) أرسطو ، السياسة ، ٢ ، ٦ ، ١٤ .
(٢) كسنوفون ، هيلينيكا ٣ ، ٣ .
(٣) بلوتارخوس ، أجيس ٥ .

للفقير عملا ، وكان الأثرياء يزرعون أملاكهم الشاسعة بأيدى الأرقاء فى ناحية ، كان بضع رجال يمتلكون كل شىء . وفى الناحية الأخرى ، السواد الأكبر لا يملك شيئاً ما . يقدم لنا بلوتارخوس فى ترجمة حياة أغيس وفى ترجمة كليومينيس صورة للمجتمع الاسبرطى . نرى فيها حباً جامحاً للثروة . كل شىء يعتبر دونها ، لدى بضع أفراد الترف والبطر ، والرغبة فى زيادة مالهم زيادة لا حد لها ؛ وفيما عدا ذلك ، لاشىء سوى جمهور بائس ، معدم ، ليست له حقوق سياسية ، وليست له أية قيمة فى المدينة ، حسود ، حقود ، تقضى عليه مثل هذه الحالة الاجتماعية بالرغبة فى الثورة .

عندما دفعت الأقلية الحاكمة الأمور إلى أقصى حدودها الممكنة كان لا بد أن تتم الثورة وأن يحطم حكم العامة حواجزه فى النهاية بعد أن بقى زمناً طويلا معطلا محصوراً . وإن الإنسان ليحزر أيضاً أنه بعد ضغط كبير كهذا لم يكن فى استطاعة حكم العامة أن يقف عند إصلاحات سياسية بل كان لا بد أن يصل إلى الإصلاحات الاجتماعية بالضربة الأولى .

كانت ضآلة عدد الاسبرطيين الذين كانوا هكذا يحكمون (فلم يكونوا يربون على أكثر من سبعمائة من مختلف الطبقات) ، وضعف الأخلاق كنتيجة لاضطهاد طويل سبباً فى ألا تأتى الإشارة بالتغييرات من طبقات العامة . ولقد حدثت من ملك فقد حاول أغيس القيام بهذه الثورة ، التى لم يكن هناك بد من قيامها ، بوسائل مشروعة مما زاد فى صعوبات مشروعه . قدم لمجلس الشيوخ ، أى للأثرياء أنفسهم ، مشروعى قانون لإلغاء الديون ولقسمة الأراضى . ولا مجال للإفراط فى الدهشة من أن مجلس الشيوخ لم يرفض هذه الاقتراحات إذا ما اتخذ أغيس إجراءات ما لكى تقبل . لكن بعد التصويت على القوانين بقى تنفيذها . هذا وإن الإصلاحات التى من هذا القبيل تبلغ دائماً من الصعوبة حداً ما يجعل أكثر الناس جرأة يفشل فيها فلما أوقف أغيس عند حد بفعل مقاومة الإيفورات ، اضطر إلى الخروج عن الطريق الشرعى ، وأقال هؤلاء الحكام وعين سواهم بمحض سلطته ، ثم سلح أنصاره وأقام نظاماً من الإرهاب مدة عام . وفى أثناء ذلك استطاع أن يطبق القانون الخاص بالديون وأحرق جميع مستندات الدين فى ميدان عام . لكنه

لم يجد الوقت لتقسيم الأراضي . ولا ندرى إن كان أغيس قد تردد وذعر من عمله أو أن الأقلية الحاكمة قد تآمرت ضده مؤامرات ماهرة ، لكن ما حدث هو أن الشعب انفصل عنه وتركه يهوى ، فذبحه الإيفورات وأعيدت حكومة الشراة .

استأنف كليومينيس مشروعات أغيس لكن في دماء كثيرة وأمدية طويلة . بدأ بسفك دم الإيفورات وأبطل عرفاً هذا المنصب الذي كان بغيضاً عند الملوك وعند الحزب الشعبي ، ونفى الأثرياء ثم قام بالثورة بعد هذا الانقلاب فقرر قسمة الأراضي ومنح حق المدنية لأربعة آلاف من اللاكونيين . وجدير بالملاحظة أنه لا أغيس ولا كليومينيس اعترف بأنه كان يقوم بثورة ، وأن كلا منهما كان يستمد سلطانه من اسم المشرع العتيق ليكورغ ويدعى أنه يعيد اسبرطه إلى العادات القديمة . ومن المؤكد أن دستور كليومينيس كان بعيداً عنها جداً . كان الملك في الحقيقة سيداً مطلقاً ، بدلا من سلطة كانت توازن سلطته ، وكان يحكم على نمط الطغاة الذين كثروا عندئذ في معظم المدن الإغريقية . ويلوح أن شعب اسبرطه كان قليل الاهتمام بتحريات العامة ، راضياً بحصوله على الأراضي . لم يدم هذا الموقف طويلا فقد أراد كليومينيس أن ينشر نظام حكم العامة في جميع البيلوبونيز ، حيث كان أراتوس (Aratus) يعمل في تلك الفترة تماماً في إقامة نظام تجربة وسيرة الحكيمة . فاضطرب الحزب الشعبي في جميع البلدان باسم كليومينيس آملا أن يحصل ، كما حدث في اسبرطه ، على إلغاء الديون واقتسام الأراضي . وهذا هياج غير المنظور من جانب الطبقات الوضيعة هو الذي اضطر أراتوس إلى تغيير كل مشروعاته ، لقد اعتقد أنه يستطيع الاعتماد على مقدونيه ، التي كانت سياسة ملكها أنتيغونوس دوسون (Antigone Doson) في ذلك الوقت ، أن يحارب الطغاة وحزب الشعبي في كل مكان . فأدخلها في البيلوبونيز وقد هزم أنتيغونوس والأخيويون (Acthéens) كليومينيس في سيلاسيا (Sellasie) وسحقت حكم العامة الاسبرطي مرة أخرى ، وأعاد المقدونيون الحكومة القديمة (سنة ٢٢٢ قبل الميلاد)

لكنه لم يعد في استطاعة الأقلية الحاكمة أن تتساند فكانت هناك اضطرابات طويلة ، ففي سنة من السنين قتلت ثلاثة إيفورات موالين للحزب الشعبي دم رصيفهم ؛ وفي السنة التالية كان الإيفورات الخمسة من حزب الأقلية الحاكمة فانتضى الشعب السلاح وذبحهم جميعاً . لم تكن الأقلية الحاكمة تريد ملوكاً ، وأراد الشعب أن يجد ملوكاً ، وقد عينوا واحداً . واختاروه من خارج الأسرة المالكة ، وهو ما لم يرد قط في اسبرطه . وقد أقصي هذا الملك المسمى ليكورج عن العرش مرتين ، المرة الأولى أزاله الشعب لأنه رفض أن يقسم الأراضي ، والمرة الثانية أزاله الأثرياء لأنهم كانوا يتهمونه بأنه أراد أن يقسمها ولا ندري كيف انتهى أمره . لكننا نرى بعده في اسبرطه طاغية يدعى ماخانيداس (Machanidas) ، وهذا دليل مؤكد على أن الغلبة كانت للحزب الشعبي .

وقد انتصر فيلوبويمين (Philopoemen) ، الذي كان على رأس الحلف الآخي يحارب طغاة حكم العامة في كل مكان ، على ماخانيداس وقتله . وسرعان ما اتخذت حكومة العامة الاسبرطية طاغية آخر يدعى نابيس (Nabis) . وقد منح هذا الأخير حق المدينة لجميع الرجال الأحرار ، وبذلك رفع اللاكونيين أنفسهم إلى مرتبة الاسبرطيين . لقد ذهب إلى حد تحرير الهيلوتيس ، وجعل من نفسه رئيس الفقراء ضد الأثرياء طبقاً لعادة طغاة المدن الإغريقية ، « ونفى أو أهلك أولئك الذين كانت ترفعهم ثروتهم فوق الآخرين » (١)

لم تكن حكومة العامة الاسبرطية الجديدة تخلو من العظمة فقد أقام نابيس في لاكونيا نظاماً لم تر مثيله منذ زمن طويل وأخضع لاسبرطه أقسام مسينه (Messenie) وجزءاً من أركاديا والإيليس (Elide) واستولى على أرغوس وكورنثه ، وهو شيء كان بعيداً جداً عن الآثار القديمة للمدن الاسبرطية ؛ وبسط أسطوله على جميع الجزر التي تحيط بالبيلوبونيز ، ونشر سلطانه حتى بلغ إقريطش (كريت) ونشر الثورة في كل مكان . وعندما أصبح سيداً على أرغوس كان أول همه مصادرة أموال الأثرياء وإلغاء الديون وتقسيم الأراضي

(١) بوليبيوس ١٣ ، ٦ ؛ ١٦ ، ١٣ ؛ تيتوس ليفيوس ٣٢ ، ٣٨ ؛ ٣٤ ، ٢٦ ، ٢٧ .

ويمكن أن نرى في بوليبيوس كم كان الحلف الآخيوي حاقداً على هذا الطاغية من طغاة العامة . فحرّض فلامينيوس (Flaminious)، على محاربته باسم روما فانتصر عشرة آلاف لا كون السلاح علاوة على مرتزقة للدفاع عن نبيس وبعد أن هزم أراد أن يجنح للسلم . لكن الشعب رفض ذلك . إلى هذا الحد كانت قصة طاغية هي قصة حكم العامة . وقد انتزع منه فلامينيوس بعد انتصاره جزءاً من قواته لكنه تركه يحتفظ في لاكونيا . إما لأن استحالة إعادة الحكومة القديمة كانت جلية جداً . وإما لأن مصلحة روما كانت في أن يورث الحلف الآخيوي بعض عصاة وقد اغتيل نابيس . فيما بعد . بيد أحد الأيتوليين لكن موته لم يُعِدْ حكم الأقلية ، فقد ثبتت التغييرات التي أدخلها على الحالة الاجتماعية دقيقة بعده . ورفضت روما دائماً أن تعيد اسبرطة إلى حالتها القديمة .

الكتاب الخامس

نظام البلديات يختفي



الفصل الاول

عقائد جديدة – الفلسفة تغير قواعد السياسة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لقد فسدت وهرمت تلك الديانة البدائية التى كان رمزاها حجر الموقد الثابت وقبر الأسلاف ، تلك الديانة التى أنشأت الأسرة العتيقة ثم نظمت المدينة وقد ازداد الذهن البشرى قوة وخلق لنفسه عقائد جديدة . فبدأوا بتكوين فكرة الطبيعة غير المادية ، واتضحت فكرة الروح البشرية . وفى نفس الوقت تقريباً انبثقت فى الأذهان فكرة الإدراك الإلهى .

ماذا كان ظنهم عندئذ فى معبودات العصر الأول ؟ وفى هؤلاء الأموات الذين كانوا يعيشون فى القبر ؟ وهؤلاء الآلهة اللاريس (Lares) الذين كانوا بشراً ؟ وفى هؤلاء الأسلاف المقدسين الذين كان لا بد من الدأب على تغذيتهم بالأطعمة ؟ لقد أصبح مثل هذا الإيمان مستحيلا . لم تعد مثل هذه العقائد فى مستوى الروح البشرى . حقاً إن هذه المعتقدات ، مهما بلغت من خشونة ، لم يكن مما يسهل نزعه من ذهن الدهماء . وقد استمرت تهيمن عليه زمناً طويلا بعد ذلك . ولكن المفكرين من الناس تحرروا من هذه الأخطاء منذ القرن الخامس قبل الميلاد . كانوا يفهمون الموت فهماً آخر . فكان البعض يعتقد فى الفناء ، والبعض الآخر فى وجود روحى محض فى عالم من الأرواح . وفى جميع هذه الأحوال لم يعودوا يقبلون فكرة أن الميت يعيش فى القبر ويتغذى بالقرابين . كما بدأوا يكونون فكرة عالية جداً عن الشىء الإلهى بحيث لم يعد فى استطاعتهم أن يداوموا على الاعتقاد أن الأموات آلهة . بل كانوا على العكس ، يتصورون الروح البشرية ذاهبة تبحث عن ثوابها فى جنات النعيم (Champs Elysées) ، أو ذاهبة تلقى عقاباً تكفيراً عن خطيئتها . وقد أدى بهم تقدم ملحوظ إلى أنهم لم يعودوا يؤلهون من الناس إلا من كانوا يضعونهم فوق البشرية عرفاناً بجميلهم أو تملقاً لهم .

تبدلت فكرة المعبود شيئاً فشيئاً كأثر طبيعى لزيادة سعة الذهن . هذه الفكرة التى طبقها الإنسان أولا على القوة غير المنظورة التى كان يشعر بها فى نفسه ، نقلها إلى القوى التى تكبرها عما لا يقاس عليه . تلك التى كان يراها فى الطبيعة ، وذلك انتظاراً للزمن الذى يرتفع فيه إلى فكرة كائن خارج عن الطبيعة وفوق الطبيعة . عندئذ فقد الآلهة اللاريس والأبطال عبادة كل ذى فكر .

أما الموقد ، الذى يلوح أنه لم يكن له معنى إلا بقدر ما كان يلازم عبادة الموتى ، فإنه فقد مكانته كذلك . استمروا يجورون فى بيوتهم موقداً مرلياً ويحيونه ويعبدونه ويقدمون له السوائل المراقة ؛ ولكن ذلك لم يكن سوى عادة وللنها العادة ، لا يبعث الحياة فيها أى إيمان .

وقد هوى موقد البلد أو بيت النار (بريتانيون) بالتدريج فى المهانة التى هوى فيها الموقد المنزلى . لم يعودوا يفهمون ماذا يعنى . ونسوا أن نار بيت النار الحية على الدوام ، تمثل حياة لأسلاف الخالدة ، وحياة مؤسسيه ، وحياة لأبطال القوميين . تلك حياة يرعون هذه النار . ويقدمون الأكلات العامة ، ويرتلون الأناشيد القديمة ، ويحفلون الحفلات لأعضاء ورجال . لم يجرؤوا على التخلص منها . ولكنه لم يعد أحد يدرك معناها .

حتى معبودات الطبيعة التى أشركوها مع الموقد غيرت صفاتها . فبعد أن بدأت معبودات منزلية ، وبعد أن أصبحت معبودات مدنية ، استمرت فى التغيير . وانتهى الأمر أن رأى الناس أن الكائنات المختلفة التى كانوا يسمونها باسم جوبيتر يمكن ألا تكون سوى كائن واحد بذاته . وكذلك الآلهة الأخرون . وقد حار الذهن فى تعدد المعبودات وشعر بالحاجة إلى خفض عددها . أدركوا أن الآلهة لا ينتمى كل واحد منها لأسرة أو لبلدة وإنما ينتمى جميعاً للجنس البشرى وتسهر على الكون . كان الشعراء يتنقلون من بلدة إلى بلدة ويعلمون الناس بدلا من أناشيد المدينة القديمة ، أغانى جديدة لا يدور الكلام فيها على آلهة لا رئيس ولا معبودات مدنية بل تعرض فيها أساطير الآلهة العظام ، آلهة الأرض والسماء ؛ ونسى الشعب الإغريقى أناشيده المنزلية و قوميه القديمة من أجل هذا الشعر الجديد الذى لم يكن وليد الديانة بل وليد الفن والخيال الحر . وفى نفس الوقت كانت بعض المعابد الكبيرة كمعبد دلفوس ومعبد ديلوس تجذب الناس وتنسيهم العبادات المحلية . وكانت الأسرار والتعاليم التى تنطوى عليها تعودهم احتقار ديانة المدينة الجوفاء التافهة .

وهكذا تمت بهدوء وفى الخفاء ثورة فكرية لم يقاومها أحد . حتى الكهنة أنفسهم . كانت القرابين لا تزال تقدم فى الأيام المعينة كان يلوح لهم أن الديانة

سليمة، كما أنه لا يمكن أن تتغير الآراء وأن تبقى العقيدة على شرط ألا تشوب الشعائر أية شائبة. وهكذا تحولت العقائد وفقدت الديانة الموروثة والسنة كل سلطان على الأرواح دون أن تتحول الشعائر.

ثم ظهرت الفلسفة وقلبت كل قواعد السياسة القديمة. كان من المحال أن تمس بآراء الناس دون أن تمس مبادىء حكوماتهم الأساسية أيضاً. كانت عند فيثاغوروس فكرة مبهمة عن الكائن الأعلى ولذلك ازدرى العادات المحلية. وقد كان ذلك كافياً لكي ينبذ نظام الحكومة القديمة ويحاول تأسيس مجتمع جديد.

أدرك أنكساغوراس (Anaxagore) الإله الذي هو عقل Dieu Intelligence ذلك الذي يهيمن على جميع الناس وعلى جميع الكائنات. وبابتعاده عن العقائد القديمة ابتعد أيضاً عن السياسة القديمة. وحيث أنه لم يكن يعتقد في آلهة بيت البريتانيه لم يكن يقوم بكل واجباته كمواطن. كان يهرب من المجامع ولم يرد أن يكون من حكام مدينته. كان مذهبه يضر بالمدينة. فحكم عليه الأثينيون بالإعدام.

ثم جاء بعد ذلك السفسطائيون وكان لهم أثر أكبر من أثر هذين المفكرين العظيمين. كانوا قوماً متحمسين عدواً للأخطاء القديمة. وفي النضال الذي اشتبكوا فيه ضد كل ما يتعلق بالماضي، لم يحترموا أنظمة المدينة أكثر مما كانوا يحترمون أخطاء الديانة. ففحصوا القوانين التي كانت لا تزال تحكم الدولة والأسرة، وجادلوا فيها بجرأة شديدة. كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ينشرون مبادىء جديدة. لم يكونوا يعلمون تماماً عدم الاكتراث بما هو عادل أو غير عادل، بل كانوا يعلمون عدالة جديدة أقل ضيقاً وأقل صداً من القديمة، عدالة أقرب إلى الإنسانية والعقل، ويجردونها من صنع العصور الخالية. لقد كانت مهمة جريئة أثارت عاصفة من الأحقاد والضغائن. اتهموهم بأنهم قوم لا دين لهم ولا أخلاق ولا وطنية. والحق أنه لم يكن لهم رأي في جميع هذه الأمور، نظرية محددة، وكانوا يعتقدون أنهم عملوا ما فيه الكفاية بمحاربتهم

الآراء المبتذلة [illegible] كانوا يعتقدون ، كما يقول أفلاطون ، بما كان ثابتاً إلى ذلك اليوم . كانوا يضعون قاعدة السلطة الدينية وقاعدة السياسة في الضمير الإنساني ، لا في عادات الأسلاف ، لا في الأثرة التي لا تتبدل فيها . كانوا يعلمون الإغريق أنه لا يكفي لحكم دولة أن يستند الإنسان إلى سنن مدينته والقوانين [illegible] . بل كان لا بد من [illegible] والتأثير على [illegible] . [illegible] العادات [illegible] فوق [illegible] والحديث والكلام و [illegible] كانت [illegible] صف خصومهم ، وكانت لهم [illegible] و [illegible]

وعندئذ [illegible] [illegible] [illegible] لم [illegible] الإنسان [illegible] أن يعتقد في شيء دون أن يتفوق [illegible] . ولا أن يحكم دون أن يناقش في [illegible] في [illegible] الاجتماعية القديمة . [illegible] [illegible] [illegible] الحسبة أحد السفسطائيين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بينكم [illegible] [illegible] [illegible] موضعي [illegible] [illegible] [illegible] لطاعة [illegible] الإنسان . [illegible] حدود [illegible] [illegible] القديمة بالقانون والعادة . على هذا النحو [illegible] [illegible] [illegible] القديمة [illegible] . عبثاً طرد الأثينيون [illegible] [illegible] [illegible] المارقة . كانت نتيجة تعاليم السفسطائيين [illegible] [illegible] [illegible] سلطة الآلهة القوميين واستقرت عادة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

كان سقراط من مدرستهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] السفسطائيين في حق الارتياب . كان يرفض مثلهم [illegible] الأثرة ويعتقد أن قواعد السلوك [illegible] في الضمير الإنساني . وكان لا يختلف عنهم إلا في أنه كان يدرس هذا الضمير دراسة دينية ورغبة صادقة في أن يجد فيه الإلزام [illegible] [illegible] كان يضع الحق فوق العادة ، والعدل فوق [illegible] [illegible] الأخلاق من الديانة . كانوا قبله لا يدركون الواجب إلا كأمر من الآلهة [illegible] . [illegible] على أن مبدأ الواجب كائن في روح الإنسان . وفي جميع ذلك كان يحارب عادات المدينة ، أراد أم لم يرد . عبثاً كان يحيي [illegible] جميع الأعياد ويشترك في القرابين . كانت عقائده وأقواله تكذب سلوكه . كان يؤسس ديانة جديدة

هي نقيض ديانة المدينة . اتهموه بحق بأنه لم يكن يعبد الآلهة الذين كانت تعبدهم المدينة . أعدموه لأنه هاجم عادات الأسلاف وعقائدهم أو، كما كانوا يقولون، لأنه أفسد الجيل الحالي. ويمكن تفسير عدم محبة الشعب لسقراط وسخائم مواطنيه العنيفة ، إذا ما فكر في العادات الدينية لهذا المجتمع الأثيني الذي كان فيه كل هذا القدر من الكهنة ، وكان لهم فيه سلطان عظيم . لكن الثورة التي بدأها السفسطائيون والتي استأنفها سقراط ، بأكثر من الاقتصاد لم يوقفها موت شيخ هرم . فقد تحرر المجتمع الإغريقي من سلطان العقائد القديمة والأنظمة القديمة كل يوم أكثر من سابقه .

تناقش الفلاسفة بعده في حرية تامة في مبادئ المجتمع الإنساني وفي قواعده . وكتب أفلاطون وكريتون وأنتيستينيس (Antisthenes) وسوسيبوس (Speusippe) وأرسطو وثيوفراسطوس وكثيرون سواهم مؤلفات عن السياسة . بحثوا وفحصوا ؛ فأصبحت مسائل تنظيم الدولة ، والسلطة والطاعة ، والالتزامات والحقوق ، مطروحة أمام جميع الأذهان .

لا ريب أن المفكر لا يمكن أن يتخلص في سهولة ويسر من الروابط التي حلقتها به العادة . ولا ريب أن أفلاطون خضع في بعض النقاط لسلطان الآراء القديمة . فالدولة التي يتصورها لا تزال هي المدينة العتيقة . إنها ضيقة . لا ينبغي أن تضم إلا خمسة آلاف عضو . ولا تزال حكومة فيها تنظمها المبادئ القديمة . والحرية مجهولة فيها . ولم يكن الغرض الذي يهدف إليه الشارع هو كمال الإنسان بقدر ما كان أمن المجتمع وعظمته . بل كادت تخنق الأسرة ذاتها كيلا تنافس المدينة . كانت الدولة وحدها مالكة . هي وحدها حرة . هي وحدها لها إرادة . وهي وحدها لها ديانة وعقائد ، وكل من لا يفكر مثل تفكيرها يجب إعدامه . بيد أنه وسط ذلك كله ، تبزغ الآراء الجديدة . إذ يعلن أفلاطون ، كما أعلن سقراط ، وكما أعلن السفسطائيون ، أن قاعدة الأخلاق والسياسة كامنة فينا نحن أنفسنا ، وأن التقاليد ليست شيئاً ما ، وأنه يجب الرجوع إلى العقل ، وأن القوانين لا تكون عادلة إلا بقدر ما تتفق مع الطبيعة البشرية .

وهذه الآراء تعد أكثر وضوحاً من ذلك عند أرسطو ، إذ يقول « القانون هو العقل» ويعلن أنه يجب ألا نبحث عما هو متفق مع عادة الآباء بل عما هو حسن في ذاته ويضيف أنه كلما تقدم الزمن يجب تعديل الأنظمة . وهو يحتقر احترام الأسلاف جداً . إذ يقول « إن آباءنا الأوائل ، سواء ولدوا من باطن الأرض أو نجوا من طوفان ما ، كانوا يشبهون أكثر الناس اليوم عامية وأعظمهم جهلا ، كما تدل على ذلك جميع الظواهر . ومن السخف الواضح أن نتمسك برأى هؤلاء الناس». كان أرسطو ، كما كان جميع الفلاسفة، يجهل الأصل الديني للمجتمع الإنساني جهلا مطلقاً . فهو لا يتكلم عن بيوت الدار (برتانيي) ، ويجهل أن هذه العبادات المحلية كانت أساس الدولة فيقول « ليست الدولة إلا جماعة من كانوا مشتركين تحت سماء على أساس جديد تستطيع أن تقرر عنه التقريب للجماعة وفكرة الوطن »(١)

تذهب المدرسة الكلبية (école cynique) إلى أبعد من ذلك فهي تنكر الوطن ذاته كان يتباهى ديوجينيس (Diogène) بأنه ليس له حق المواطن في أي مكان، وكان قراطيس (Cratès) يقول إن وطنه هو ازدراء آراء الآخرين وكان الكلبيون يضيفون هذه الحقيقة ، التي كانت جديدة وقتذاك ، وهي أن الإنسان مواطن للعالم ، وأن الوطن ليس هو النطاق الضيق للمدينة كانوا يعتبرون الوطنية البلدية ضلالا ، ويحذفون حب المدينة من بين العواطف

كان الفلاسفة يبتعدون ، كل يوم أكثر من سابقه ، عن الشؤون العامة إما احتقاراً وإما زهداً . كان سقراط لا يزال يقوم بواجبات المواطن ؛ وحاول أفلاطون أن يعمل للدولة عن طريق إصلاحها . وكان أرسطو أقل اكتراثاً منه ، وكثر تناوله بالملاحظة ، ويجعل من الدولة موضوعاً للدراسات علمية . أما الإبيقوريون فقد طرحوا شؤون عامة جانباً فكان يقول إبيقوروس «لاتضعوا أيديكم فيها ، إلا إذا ألزمكم بذلك سلطة ما» . وأما الكلبيون فإنهم لم يريدوا حتى أن يكونوا مواطنين

(١) أرسطو ، السياسة ٢ : ٥ : ١٠ ، ٤ ، ٥ ، ٤ ، ٧ ، ٢ ، ٧ ، ٤ : ٩ ، ٤) .

عند الرواقيين إلى السياسة . كتب زينون وكليانتيس (Cleanthe) وخريسيبوس مؤلفات عدة عن حكومة الدول . لكن مذاهبهم كانت بعيدة جداً عن السياسة البلدية القديمة . وها هي ذي العبارات التي يعرفنا بها أحد القدماء بمضمون التي كانت تنطوي عليها مؤلفاتهم . وكان زينون في مؤلفه عن الحكومة يرمي إلى أن يرينا أننا لسنا سكان هذا الحي أو هذه المدينة ويفصل بعضنا عن بعض شرع خاص وقوانين مانعة بل يجب أن نرى في جميع الناس مواطنين كما لو كنا نمشي جميعاً تحت شريعة وسياسة مشتركة (١) . ومن هنا نرى أي طريق قطعت الآراء من سقراط إلى زينون . فقد كان سقراط لا يزال يعتقد أنه ملزم بعبادة آلهة الدولة بقدر ما يستطيع . ولم يفكر أفلاطون بعد في حكومة غير حكومة مدينة . أما زينون فإنه تخطى هذه الحدود الضيقة للمجتمع الإنساني وازدرى التقسيمات التي أقامتها ديانة العصور القديمة . وكما تصور إله الكون فقد كانت عنده أيضاً فكرة دولة يدخل فيها الجنس البشري كله (٢)

لكن ها هو ذا مبدأ أحدث من ذلك . فقد وسع مذهب الرواقيين المجتمع البشري ، وحرر الفرد . ولما كان يرفض ديانة المدينة ، فقد كان يرفض أيضاً استرقاق المواطن . ولم يرد بعد أن يضحي بالشخصية البشرية من أجل الدولة . كان يميز ويفصل جلياً ما يجب أن يبقى حراً من الإنسان ، وحرر الضمير على الأقل . كان يقول للإنسان إنه يجب عليه أن ينطوي على نفسه وأن يجد في ذاته الواجب والفضيلة والثواب . ولم يكن يحرم عليه أن يشتغل بنفسه بالشؤون العامة ، بل كان يدعوه إليها . لكنه كان ينبهه إلى أن يكون عمله الذي يرى أنه عمله الرئيسي هو تحسين ذاته ، وأنه مهما تكن الحكومة ، يجب أن يبقى ضميره مستقلاً . إنه لمبدأ عظيم ، تجاهلته المدينة العتيقة على الدوام لكن كان مصيره أن يكون ذات يوم قاعدة من أقدس قواعد السياسة

---

(١) بلوتارخوس ، عن حظ الإسكندر .

(٢) فكرة المدينة العالمية معبر عنها عند سنيكا ، إلى مارسيا (Ad Marciam) ، ٤ ، عن اطمئنان النفس (De tranquillitate) ، ٤ ؛ وبلوتارخوس ، عن المنفى ؛ وماركوس أوريليوس ، «باعتباري أنطونينوس ، وطني روما ؛ وباعتباري إنساناً ، وطني العالم» .

بدأوا عندئذ يدركون أن هناك واجبات أخرى غير واجباتهم نحو الدولة وفضائل أخرى غير الفضائل الوطنية. تعلقت الروح بأمور أخرى غير الوطن. كانت المدينة القديمة من السلطان والسعة بحيث جعلتها للإنسان هدف كل أعماله وجميع فضائله. كانت هي القاعدة لما هو جميل وخير. ولم تكن هناك بطولة إلا في سبيلها. لكن ها هو ذا زينون يعلم الإنسان أن هناك كرامة لا للمواطن بل للإنسان. وأنه زيادة على واجباته نحو القانون عليه واجبات نحو نفسه. وأن الفضل الأكبر ليس في العيش أو الموت في سبيل الدولة. بل في أن يكون المرء من ذوي الفضيلة وأن يرضي المعبود. فضائل فيها شيء من الأثرة. تركت الاستقلال القومي والحرية يذوبان. ولكن الإنسان قد عظم لما ضمرت الفضائل العامة في القلوب. لكن الفضائل الشخصية قد نضجت وظهرت في العالم. وكان عليها في بدء أن تناضل ضد فساد العصر. ولما جاء الاستبداد لكنها أصبحت شيئاً فشيئاً في الإنسانية. وأصبحت تقضي أن من سلطة يجب على كل حكومة أن تحسب لها حساباً وكان لا بد أن تتغير قواعد السياسة لكي تجد لها مكاناً حراً.

وهكذا تحولت عندئذ شيئاً فشيئاً. تقوضت الدولة البلدية التي أصبحت عنها المدينة. وكان لا بد أن تستعيض عنها بطريقة كي تصورها العقول، في تدرج غير محسوس. عن هذه القواعد الصارمة. وعن هذه الأشكال الضيقة التي كانت عليها الحكومة كانت هناك آراء تسمو من ذلك تدعو الناس إلى تكوين مجتمعات أوسع. كانوا مدفوعين نحو الوحدة. تلك كانت الأمنية العامة للقرنين السابقين للميلاد المسيحي. حقاً إن الثمار التي تنتجها هذه الثورات الفكرية بطيئة النضوج جداً. لكنك سوف ترى عند دراسة الفتح الروماني أن الحوادث كانت تسير في نفس الاتجاه الذي كانت تسير فيه الأفكار. وأنها كانت تتجه مثلها نحو تحطيم النظم القديمة. وأنها كانت تُعد نظماً جديدة للحكم.

الفصل الثانى

الفـــــتح الرومانى

يلوح لأول وهلة أنه من المدهش كل الدهشة أن وحدت بين الألف مدينة ، التى كانت فى بلاد الإغريق وإيطاليا ، مدينة كانت لها القدرة على إخضاع جميع المدن الأخرى . بيد أن هذا الحدث الهام يمكن تفسيره بالأسباب العادية التى تحدد سير الشؤون العامة . كان مضمون الحكمة الرومانية ، كمضمون أية حكمة أخرى ، هو الاستفادة من الظروف المواتية التى تلقاها .

يمكن أن نميز فى عمل الفتح الرومانى فترتين . إحداهما تتفق مع الزمن الذى كان لا يزال للروح المدنية القديمة قوة كبيرة فيه . وفى تلك الفترة كان على روما أن تتغلب على العدد الأكبر من العقبات . وتتفق الثانية مع الزمن الذى ضعف فيه هذا الروح لديهم ضعفاً شديداً . وعندئذ أصبح الفتح سهلاً وتم فى سرعة كبيرة .

١ — بضع كلمات عن نشأة روما وسكانها .

نشأة روما وتكوين أهلها جديران بالملاحظة وهما يفسران الطابع الخاص الذى امتازت به سياستها ، والدور الاستثنائى الذى كان ، منذ البدء ، من نصيبها بين المدن الأخرى .

كان الجنس الرومانى مختلطاً اختلاطاً غريباً . فالطبقة الأساسية منه لاتينية وأصلها من ألبا . لكن آثاراً لا يسمح لنا أى نقد برفضها ، تُرينا أن هؤلاء الألبيين أنفسهم كانوا يتكونون من نوعين من الأهالى مشتركين وليسا ممتزجين . أحدهما هو جنس الأصل ، وهم لاتينيون حقيقيون . والآخر من أصل أجنبى يقال إنه أتى من طروادة مع إينياس (Enée) ، الكاهن المؤسس ، وتدل جميع

الظاهر على أنه كان قليل العدد لكنه كان يعتد به من ناحية عتاده والأنظمة التي جلبها معه (١)

هؤلاء الأليون، وهم جنس من جنسين أسسوا روما، في موضع كانت تقوم فيه من قبل مدينة أخرى، اسمها بلانتيوم (Pallantium) وكان قد أسسها بعض الإغريق ... وقد بقي أهل بلانتيوم في مدينة جديدة، ونقلوا فيها شعائر عبادة إغريقية (٢) كما كانت توجد في المكان الذي وجد فيه الكابيتوليوم في بعض ... مدينة تسمى ساتورنيا (Saturnia) ينسب أسسها بعض الإغريق (٣)

وهكذا اشترك جميع الأجناس في روما، ووجدت ... فيها اللاتينيون والصابيون والإغريق، وسيكون فيها قريبا الصابيون والإتروسك. مثل التلال السبعة: البلاتينوس Palatinus هو مدينة لاتينية بعد أن كان بلدة إيفاندروس، والكابيتوليوس (Capitolinus) بعد أن كان مسكن أصحاب هيراقليس، أصبح مسكن الصابيين أتباع تاتيوس (Tatius)، وقد تلقى الكويريناليس (Quirinalis) اسمه من الكويريس الصابيين، ومن الإله الصابي كويرينوس، ويبدو أن الكايليوس (Caelius) كان يسكنه الإتروسك من الأصل (٤). لم تكن روما تبدو كبلدة واحدة، بل كانت تبدو كاتحاد من عدة بلدان ترتبط كل واحدة منها ... بأصلها. ومن ناحية أخرى كانت مركزا تلتقي فيه اللاتينيون والإتروسك

(١) ... روما ... فكرة ... قبل أن توجد ... من ... وقد أعطى ... قدم الرومان ... Troiugena في ... بالحرب ... (٢٥ : ١٢).

(٢) ... بلينوس ... أوفيديوس : الأعياد ١ : ٥٧٩ ... ديونيسيوس ١ : ٣١ ، ٧٩ ، ٨٩ .

(٣) ديونيسيوس ... ٤٥ ، ١ : ١٥ ... اللغة اللاتينية ٥ : ٤٢ ، ... ٨ : ٣٥٨ ... التاريخ الطبيعي ٣ : ٦٨ .

(٤) ... دائما أن ... الأصلية ، وهذا ... والآخر ... والثالث ...

والسابيليون (Sabelliens) (١) والإغريق

كان أول ملوكها لاتينوس ، و [illegible] صفةً للأسرة [illegible] و [illegible] فيما [illegible] غريق ، وكان [illegible] تروسكيا (٢)

وكان لسانها مزيجاً من أكثر العناصر تقريباً ، كانت اللاتينية تسود فيه ، لكن الأصول [illegible] كانت كثيرة [illegible] فيه [illegible] وكانت توجد أصول كلمات [illegible] أكثر مما كانت في [illegible] من [illegible] و [illegible] فلا ندري [illegible] أنه يسمى [illegible] في رأي البعض [illegible] روما كلمة [illegible] ، وفي رأي آخرين أنها كلمة إغريقية . وهناك أسماء للأعداد [illegible] لاتينية ، لكن بعض [illegible] كان [illegible] أنها تروسكية

[illegible] رومانية [illegible] كثيرة في الأصول [illegible] في عهد [illegible] لا [illegible] خمسين أسرة [illegible] أسلافهم [illegible] وأسرات أخرى [illegible] أنها من [illegible] الأركاديين [illegible] ايفندروس . [illegible] كان رجال هذه الأسرات [illegible] على [illegible] كما [illegible] (٤) كانت الأسرتان بوتتيا (Potitia) وبيناريا (Pinaria) تنحدران [illegible] أصحاب [illegible] عادة [illegible] على أصلهم (٥) أما [illegible] تولوس (Tullus) و[illegible] كوينكتيوس (Quinctius) و [illegible] سرفيليوس (Servilius) فهم من [illegible] الاستيلاء على هذه [illegible] لكثير من الأسرات [illegible] يذكر أصلها الأجنبي . وهكذا

(١) [illegible] الأسم الذي كثيراً ما يستعمل في الشعر . المعرب .

(٢) هؤلاء الملوك [illegible] على الترتيب [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible] — المعرب

(٣) Dionys. I. 85 [illegible] Τρωικοῦ [illegible] ; قارن دونيسيوس ; سرفيوس ; Ad Aen. [illegible] ١ : ٩٩ ؛ ٢٤٢ ، ١١٧ .

(٤) [illegible]

(٥) [illegible] : ٧ ، ٩ ، ٢٩ .

كان يوجد آل سولبيكيوس كاميرينوس (Sulpicius Camerinus) وآل كومينيوس أورونكوس (Cominius Auruncus) وآل سيكينيوس سابينوس (Sicinius Sabinus) وآل كلوديوس ريجيلينسيس (Claudius Regillensis) وآل أكويليوس توسكوس (Aquillius Tuscus)، وكانت أسرة نوتيا (Nautia) طروادية وآل أوريليوس (Aurelius) سابينيين. وقد جاء آل كيكيليوس (Caecilius) من برينسته (Preneste)، وجاء آل أوكتافيوس (Octavius) من ڤيليترة (Vélitres).

كان من أثر هذا الخليط المركب من أكثر شعوب تباينًا أنه كان لروما صلات أصل مع جميع الشعوب التي كانت تعرفها. كانت تستطيع أن تزعم أنها لاتينية مع اللاتينيين، وسابينية مع السابينيين، وإتروسكية مع الإتروسك، وإغريقية مع الإغريق.

وكذلك كانت عبادتها القومية تجمعًا من عدة عبادات متباينة تباينًا لا نهاية له، وكل واحدة منها تربطها بشعب من هذه الشعوب. كانت فيها عبادتا إيفاندروس وهيرقليس الإغريقيتان، وكانت تفخر بأن في حوزتها رمز طروادة الواقي. وكانت آلهة البيناتس في مدينة لاڤينيوم اللاتينية، واتخذت منذ البدء عبادة الإله كونسوس (Consus) السابينية. وقد انتقل إليها إله سابيني آخر، كويرينوس (Quirinus)، تأصلًا بلغ من شدته أن أشركته مع رومولوس مؤسسها. كما اتخذت آلهة الإتروسك، وأعيادهم، وعرافتهم، وحتى شاراتهم الكهنوتية.

في زمن لم يكن لأحد فيه حق الحضور في الأعياد الدينية لأمة ما إلا إذا كان ينتمي إلى هذه الأمة بحكم مولده، كان للرومان هذه الميزة التي لا تضارع، وهي استطاعتهم أن يساهموا في الأعياد اللاتينية، وفي الأعياد الإتروسكية، وفي الألعاب الأولمبية (١) أيضًا. وقد كانت مدينة رومة قوية عندما كانت

(١) ظفر الرومان منذ وقت مبكر [illegible] (Ségeste) [illegible] سرفيوس: ad Aen. [illegible] أهالي [illegible] سترابون [illegible].

توجد عبادة مشتركة بين بلدتين كانت كل منهما تدعى أنها قريبة الأخرى ؟ ويجب على كل منهما اعتبار الأخرى حبيبة لها ، والتطلع معها ؛ لم يكونوا يعرفون في ذلك الزمن الحقيق ارتباطاً آخر غير ما تقرره الديانة . لذلك حافظت روما بعناية عظيمة على كل ما كان يستطيع أن يقوم دليلاً على هذه القرابة العظيمة بينها وبين الأمم الأخرى فكانت تقدم للاتينيين آثارها عن رومولوس ، وللسابينيين أسطورتها عن تاربيا Tarpeia ، وتاتيوس ، واحتجت لدى الإغريق بالأناشيد القديمة التي كانت في حيازتها تمجيداً لأم إيفاندروس . وهي أناشيد لم تعد تفهمها لكنها كانت متمسكة بترتيلها . وحافظت أيضاً بأعظم عناية على ذكرى إينياس ، إذ أنه إذا كانت تستطيع أن تدعى القرابة من أهالي بيلوبونيز عن طريق إيفاندروس ، فإنها كانت قريبة عن طريق إينياس لأكثر من ثلاثين قرية منتشرة في إيطاليا وفي صقلية وفي بلاد الإغريق وتراقيا وآسيا الصغرى كانت جميعها من مؤسسات إينياس أو مستعمرات للمدن التي أسسها إينياس ولذلك كانت تشترك في العبادة مع روما . ويمكن أن نرى أي نفع جرته من هذه القرابة العتيقة في الحروب التي شنتها في صقلية ضد قرطاجة ، وفي بلاد الإغريق ضد فيليبوس .

وإذن فقد كان أهالي روما خليطاً من عدة أجناس ، وعبادتها مجموعة من عدة عبادات ، وموقدها القومي مجموعة من عدة مواقد . فكانت تكون المدينة الوحيدة التي لم تفصلها ديانتها البلدية عن جميع المدن الأخرى . كانت تمس بالقرابة جميع إيطاليا وجميع بلاد الإغريق ، لم يكن يوجد شعب لا تستطيع أن تقبله على موقدها .

٢ — توسعات روما الأولى (٧٥٣ — ٣٥٠ قبل المسيح)

أثناء القرون التي كانت الديانة البلدية قائمة فيها في كل مكان ، نظمت روما سياستها على هذه الديانة .

يقال إن أول عمل قامت به المدينة الجديدة كان انتزاع نساء سابينيات ؛ أسطورة تبدو غير معقولة إذا فكرنا في قدسية الزواج عند القدماء . ولكننا

رأينا، فيما سبق من القول، أن الديانة البلدية كانت تحرم الزواج بين أشخاص من مدن مختلفة، اللهم إلا إذا كانت بين هاتين المدينتين رابطة أصل أو عبادة مشتركة. كان لهؤلاء الرومان الأولين حق الزواج مع ألبا التي كان أصلهم منها لكنه لم يكن لهم مع جيرانهم الآخرين، السابيين. إن ما أراد رومولوس أن يستولى عليه أولا، لم يكن بضع نساء بل حق الزواج، أي الحق في عقد صلات منتظمة مع الأهالي السابيين. ولذلك كان يجب عليه أن يقيم بينهم وبينه صلة دينية، ولهذا اتخذ عبادة الإله السابيي كونسوس (Consus) واحتفل بعيده. وتضيف الآثار أنه سبى النساء أثناء هذا العيد. ولو أنه فعل ذلك لما أمكن الاحتفال بالزيجات طبقاً للشعائر، ما دام أول عمل من أعمال الزواج وألزمه كان الـ traditio in manum أي هبة الأب لابنته، وإذن كان رومولوس لا يحقق الغرض الذي كان يرمي إليه. لكن حضور السابيين وأسراتهم في الاحتفال الديني ومساهمتهم في القربان، كان يقيم بين الشعبين رباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن رفض حق الزواج (connubium). لم تكن هناك حاجة لخطف مادي، لقد عرف رئيس الرومان كيف يحصل على حق الزواج. هذا يؤكد المؤرخ ديونيسيوس، الذي كان يرجع للنصوص والأناشيد القديمة، أن السابيات تزوجن طبقاً لأكثر الشعائر احتفالا. وهو ما يؤيده بلوتارخوس وشيشرون (1). وجدير بالملاحظة أن أول مجهود من جانب الرومان كانت نتيجته إسقاط الحواجز التي كانت تضعها الديانة البلدية بينهم وبين شعب من جيرانهم. لم تصل إلينا أسطورة مماثلة بالنسبة لإتروريا، لكن يبدو من المؤكد تماماً أنه كان بين روما وبين هذا القطر نفس العلاقات التي كانت بينها

(1) ديونيسيوس ٢، ٣٠؛ بلوتارخوس: رومولوس ٤، ١٥، ١٩؛ شيشرون: الجمهورية ٢، ٧. إذا لاحظنا بانتباه روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة، والعبارات التي يستعملونها، فإننا نتعرف على جميع مميزات الزواج العتيق. لذلك نميل إلى الاعتقاد أن أسطورة اختطاف السابيات هذه، التي أضيفت على مضي الزمن قصة سبي، كانت في الأصل أسطورة الحصول على حق الزواج مع السابيين. ويلوح أن شيشرون قد فهمها على هذا النحو. *Sabinorum connubia conjunxisse. De Orat., I, 9.*

وبين اللاتيوم وبلاد السابيين. فقد كان من اللباقة ما جعلها تتحد مع جميع من كانوا يحيطون بها. وكانت متمسكة بأن يكون لها حق التزوج connubium، مع جميع المدن. ومما يدل على أنها كانت تعرف جيداً أهمية هذا، وبما أنها لم تكن تريد أن يوحد فيما بين المدن الأخرى الخاضعة لها (١).

ثم دخلت روما في سلسلة حروب طويلة. كانت الأولى مع صغار السابيين أتباع تاتيوس (Tatius) وانتهت بتحالف ديني وسياسي بين الشعبين الصغيرين (٢). ثم حاربت ألبا. ويقول المؤرخون إن روما حرصت على مهاجمة هذه المدينة مع أن روما كانت مستعمرة لها. ولعل كونها مستعمرة لها كان هو السبب الذي جعلها تحكم بأن هدمها لازم لخلاصها. إذ أنه كان لتلك عاصمة السيادة الدينية على مستعمراتها. هذا وقد كان لسيادة عندئذ من السلطان ما لا تستطيع روما معه إلا أن تكون مدينة تابعة وأن تقف مصائرها إلى الأبد ما دامت ألبا قائمة.

فلما دمرت ألبا لم تقنع روما بأنها لم تعد مستعمرة، بل رغبت أن ترفع نفسها إلى مرتبة العاصمة وترث حقوق وسيادة الدينية التي كانت تمارسها ألبا إلى ذلك اليوم، على مستعمراتها الثلاثين في اللاتيوم. وقد شنت روما حروباً طويلة لكي تحصل على رئاسة قربان أعياد اللاتينيين. وتلك كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على النوع الوحيد من السيادة والعظمة الذي كان يمكن تصوره في ذلك الزمن.

أقامت عندها معبداً لديانا Diana. وألزمت اللاتينيين بالحضور لتقديم القرابين فيه. بل اجتذبت إليه السابيين (٣). وبذلك عودت الشعبين على أن يتقاسما الأعياد والصلوات ولحوم الضحايا المقدسة تحت رئاستها. لقد جمعتهما تحت سيادتها الدينية.

(١) تيتوس ليفيوس ٩، ٤٣؛ ٢٣.
(٢) Sacris communicatis — روما الجمهورية ١، ٧.
(٣) تيتوس ليفيوس ١، ٤٥. ديونيسيوس ٤، ٤٨؛ ٤٩.

روما هي المدينة الوحيدة التي عرفت كيف تزيد عدد سكانها بالحرب ، فقد كانت ذا سياسة يجهلها كل باقي العالم الإغريقي والإيطالي ، إذ ضمت لنفسها كل من غلبتهم ، وأحضرت إليها سكان البلاد المستولى عليها ، وجعلت المغلوبين رومانا بالتدريج . وفي نفس الوقت أرسلت مستعمرين في البلاد المستولى عليها ، وبهذه الطريقة نشرت في كل مكان روما أخرى . إذ أن مستعمريها حافظوا على المشاركة الدينية مع عاصمتهم ، في نفس الوقت الذي كانوا يؤسسون فيه مدناً قائمة بذاتها من الناحية السياسية . وقد كان في ذلك خليقاً لإجبارهم على إحصاء سكانها لحسابها ، وعلى إطاعتها ، ومساعدتها في جميع حروبها .

ومن الصفات البارزة للسياسة الرومانية الجديرة بالملاحظة أنها كانت تجذب إليها جميع عبادات المدن المجاورة . كانت متمسكة بقهر الآلهة كما كانت متمسكة بقهر المدن . وضمت إليها إلهة تدعى جونون في فييس وإلهاً يدعى جوبيتر في بريسته (Preneste) وإلهة تدعى مينيرف في فاليريا (Falisques) وإلهة تدعى جونون في لانوفيوم ، وأخرى تدعى فينوس عند السامنيين ، وآلهة أخرى كثيرة لا نعرفها (١) . إذ أنه كانت العادة في روما ، كما يقول أحد القدماء (٢) ، أن تدخل عندها ديانات المدن المغلوبة ، فطوراً توزعها بين عشائرها (gentes) وطوراً تعطيها مكاناً في ديانتها العمومية .

يثني مونتيسكيو على الرومان لأنهم ، من فرط سياستهم الماهرة ، لم يفرضوا آلهتهم على الشعوب المغلوبة . ولكن ذلك مناف تماماً لأفكارهم ولأفكار القدماء جميعاً . لقد غلبت روما آلهة المغلوبين ولم تعطهم آلهتها . احتفظت بآلهتها لنفسها ، بل عملت على زيادة عددهم . كانت متمسكة بحيازة عبادات وآلهة حامية أكثر من أية مدينة أخرى .

(١) تيتوس ليفيوس ٥ ، ٢١ ، ٢٢ ؛ ٦ ، ٢٩ . أوفيديوس : الأعياد ٣ ، ٨٣٧ ، ٨٤٣ . بلوتارخوس ، مقارنات بين تاريخي الإغريق والرومان ٧٥ .

(٢) سنكيوس Cincius ، عند أرنوبيوس Arnobe ، ضد الأمم (adv. gentes ٣ ، ٣٨ .

هذا وما دامت هذه العبادات وهذه الآلهة قد انتزع معظمها من المغلوبين فقد كانت روما مشتركة بينها اشتراكاً دينياً مع جميع الشعوب. ولقد كانت روابط الأصل ، والاستيلاء على حق الزواج connubium ، ورئاسة الأعياد اللاتينية، والاستيلاء على الآلهة المغلوبة ، وما كانت تزعمه من حق في تقديم القرابين في أولمبيا ودلفوي ، وسائل تمهد بها روما لسيادتها . كما كانت . كما كان لجميع البلدان ، دينها المدنية يسوغ وضعها . ولكن كانت البلدة الوحيدة التي كانت تستخدم هذه الديانة لاتساعها بينما كانت البلاد الأخرى في عزلة بسبب ديانتها . كان من لباقة روما ، أو من حسن حظها ، أن تستخدمها لاجتذاب الكل إليها والتغلب على الجميع .

٣ — كيف حصلت روما على الإمبراطورية (٣٥٠ — ١٤٠ قبل الميلاد)

بينما كانت روما تتسع هكذا ببطء ، بالوسائل التي كانت ديانة ذلك العصر وآرائه تضعها تحت تصرفها ، جرت سلسلة من التغييرات الاجتماعية والسياسية ، في جميع المدن ، وفي روما ذاتها ، أدت في آن واحد إلى تحويل حكومة الناس وطريقتهم في التفكير . وقد تابعنا ، أعلاه ، سير هذا الانقلاب ، أما ما يجدر ملاحظته هنا فهو أنها كانت متفقة مع التطور العظيم للسلطة الرومانية ولم يكن هذان الحدثان ، اللذان وقعا في نفس الوقت ، دون أن يكون لأحدهما أثر في الآخر . فإن فتوحات روما ما كانت تسهل إلى هذا الحد لو لم يكن الروح البلدي القديم قد خمد وتبدد في كل مكان ، ويمكن الظن أيضاً بأن نظام البلدي ما كان يسقط مبكراً على هذا النحو لو لم يوجه إليه الفتح الروماني تلك الضربة القاصمة .

وفي خلال التغييرات التي حدثت في الأنظمة ، وفي الأخلاق ، وفي العقائد ، وفي الشرع ، تغيرت طبيعة الوطنية ذاتها ، وكان ذلك مما ساهم بأكبر نصيب في تقدم روما ذلك التقدم العظيم ذكرنا آنفاً ما كان عليه هذا الشعور في العصر الأول للمدن. لقد كان جزءاً من الديانة ، فكانوا يحبون الوطن لأنهم كانوا يحبون الآلهة الحماة ، إذ أنهم كانوا يجدون في الوطن بيتاً للدار ، ودراً مقدسة

وأعياداً . وأدعية . وأناشيد . ولأنه خرج بوطن لن تكون لهم آلهة ولا عبادة كانت تلك الوطنية إيماناً وتقوى . لكن عندما سحبت السيادة من الطبقة الكهنوتية اختفى هذا النوع من الوطنية مع جميع العقائد القديمة . لم يختف حب المدينة بعد . لكنه اتخذ شكلاً جديداً .

لم يعودوا يحبون الوطن من أجل ديانته وآلهته . بل أحبوه فقط من أجل قوانينه وأنظمته ومن أجل الحقوق والأمن التي يمنحها لأعضائه . انظر في الرثاء الذي أنطق به توكيديدس بريكليس . ما هي الأسباب التي تجعل الناس في أثينا [illegible] هي أن تلك المدينة تريد أن يكون الجميع متساوين أمام القانون ، وأنها تمنح الناس حريتهم . وتفتح طريق المناصب للجميع ؛ أنها تحافظ على النظام العام . وتضمن السلطة لرجال الدولة ، وتحمي الضعفاء ، وتقدم للجميع ملاهي وحفلات تستعد بها الروح ، ويختم الخطيب ذلك بقوله وهذا هو السبب الذي من أجله آثر محاربونا أن يموتوا بشجاعة على أن يسلب منهم هذا الوطن . هذا هو السبب الذي من أجله كان [illegible] على قيد الحياة على استعداد تام للتألم من أجله والتضحية بأنفسهم . وإذن فقد كانت لا تزال على الإنسان واجبات نحو مدينته . لكن هذه الواجبات لم تعد تستمد من نفس المبدأ الذي كانت تستمد منه من قبل . إنه لا يزال يعطي دمه وحياته للوطن . لكن ذلك لم يعد في سبيل الدفاع عن معبوده القومي وعن موقد آبائه ، بل للدفاع عن الأنظمة التي يتمتع بها والمزايا التي تمنحها مدينته .

هذا ولم تكن هذه الوطنية الجديدة تعطي الآثار تماماً التي كانت للوطنية في العصور القديمة ، حيث أن القلب لم يعد متعلقاً بالبيت العام (برتانيون) ولا الآلهة الحامية ولا الأرض المقدسة ، بل بالأنظمة والقوانين دون سواها . وحيث أن هذه الأنظمة والقوانين كانت تتغير على الدوام تبعاً لحدة التقلبات التي كانت عليها جميع المدن عندئذ ، فقد أصبحت الوطنية إحساساً متغيراً ، قلقاً ، يتوقف على الظروف ، وخاضعاً لنفس التقلبات

التي تخضع لها حكومة دينها . لم يعودوا يحبون الوطن إلا بقدر ما كانوا يحبون النظام السياسي الذي يسود فيه مؤقتاً . من كان يجد قوانين الوطن سيئة ، لم يعد له ما يربطه به .

وهكذا ضعفت الوطنية البلدية في النفوس وبادت . أصبح رأى كل رجل أكثر قداسة لديه من وطنه . وأصبح انتصار حزبه أعز لديه من عظمة مدينته أو مجدها . وبلغ الأمر بكل فرد . إذا لم يجد الأنظمة التي يحب في البلدة التي ولد فيها ، أن يؤثر عليها بلدة الفلانية التي يرى هذه الأنظمة قائمة فيها . بدأوا عندئذ يهاجرون في رضى كبير . ويخشون المنفى أقل مما كانوا يخشونه فيما مضى . ماذا يهم أن يقصى المرء عن بيت النار وأن يحرم من ماء التطهير ؟ لم يعودوا يفكرون في الآلهة الحامية . وتعودوا بسهولة الاستغناء عن الوطن .

ولم يعد بين ذلك وبين التسلح ضده مدى بعيد . فيتحالفون مع بلدة معادية لكي يحصلوا حزبهم على النصر في بلدتهم . خذ من أهالي أرغوس اثنين أحدهما يتمنى حكومة سراة فيؤثر اسبرطة على أرغوس . والآخر يفضل حكم العامة فيحب أثينا . لم يعد هذا ولا ذاك شديد التمسك باستقلال مدينته ولا كثير الاشمئزاز من القول إنه رعية لمدينة أخرى بشرط أن تؤيد هذه البلدة حزبه في أرغوس . نرى جلاء في توكيديدس وفي كسينوفون أن هذه الحالة هي التي كانت على النفوس هي التي ولدت حرب البيلوبونيز وجعلتها تدوم زمناً طويلاً . وفي بلاتيه كان الأثرياء من حزب ثيبه ولاقيدمون . وكان أنصار حكومة العامة من حزب أثينا . وفي كوركيرا (Corcyre) (1) ، كان الحزب الشعبي لأثينا والسراة لاسبرطة (2) . كان لأثينا حلفاء في جميع مدن البيلوبونيز . وكان لاسبرطة حلفاء في جميع المدن الأيونية . يتفق توكيديدس وكسينوفون في القول بأنه لم تكن هناك مدينة واحدة لم يكن الحزب الشعبي فيها ميالاً للأثينيين والسراة للاسبرطيين (3) . تمثل هذه الحرب جهداً عاماً

(1) هي جزيرة كورفو الآن . المعرب
(2) توكيديدس ٣ ، ٦٩ - ٧٧ ؛ ٤ ، ٤٦ - ٤٨ ؛ ٣ ، ٨٢ .
(3) توكيديدس ٣ ، ٤٧ ؛ كسينوفون هيلينيك ٦ .

قام به الإغريق ليعيشوا في كل مكان دستور واحد، مع سيادة إحدى المدن، لكن البعض يريد السيرة تحت حماية سبرطة، والبعض الآخر يتطلب حكم العامة بمعونة أثينا. وهكذا كان الأمر في عهد فيليبوس. فقد كان حزب السراة في جميع البلدان يتمنى السيادة المقدونية. وفي عهد فيلوبومين (Philopémen) انعكست الأوضاع. لكن الإحساسات ظلت كما كانت. فمن الحزب الشعبي سلطان مقدونية، وتمنى كل من كان من السراة الحلف الأخوى (ligue achéenne). وهكذا لم تعد المدينة هدف آمال الناس وعطفهم. لم يكن هناك إلا قليل من الإغريق لم يكونوا على استعداد للتضحية بالاستقلال البلدي لكي يحصلوا على النظام الذي كانوا يفضلونه.

أما من كانوا ذوي أمانة وذمة، فمن الشقاق الدائم، الذي كانوا شهوداً عليه، جعلهم يمقتون نظام المدينة. لم يكن في استطاعتهم أن يحبوا شكلاً من أشكال المجتمع يفرض عليهم أن يقتتلوا كل يوم، وكان فيه الفقير والثرى في حرب دائماً، ويشهدون فيه تبادلاً لا نهاية له بين عنف الشعب وانتقام السراة. أرادوا أن يتخلصوا من نظام نتج عظمة حقيقية لكنه لم يعد بعد ذلك يلد غير الآلام والأحقاد. بدأوا يشعرون بحاجة إلى الخروج من نطاق البلدي. والوصول إلى شكل آخر من أشكال الحكومة غير المدينة. فكر كثير من الناس على الأقل في أن يقيموا فوق المدن نوعاً من السلطة المسيطرة، تسهر على المحافظة على النظام وتجبر هذه المجتمعات الصغيرة المشاغبة على العيش في سلام. وهكذا كان فوكيون (Phocion)، وهو مواطن صالح، ينصح مواطنيه بقبول سلطة فيليبوس، ويعدهم مقابل ذلك بالوفاق والأمن.

وفي إيطاليا لم تكن الأمور تسير على غير النهج الذي سارت عليه في بلاد الإغريق. كانت بلاد اللاتيوم والسابين والإتروريا مضطربة بفعل هذه الثورات والمنازعات عينها، وحب المدينة. وكما حدث في بلاد الإغريق كان كل واحد يرتضي عن طيب خاطر سلطة أجنبية، لكي تسود آراؤه أو مصالحه في بلدته.

حالة الأذهان هذه كانت سبباً في حظ روما . فبه أيدت السراة في كل مكان ، وفي كل مكان أيضاً كانت طبقة السراة حليفة لها . لنذكر بعض الأمثلة غادرت عصبية كلوديا *gens Claudia* إقليم السابيين على أثر خلافات داخلية . وانتقلت إلى روما لأن الأنظمة الرومانية كانت تروق لها أكثر من أنظمة إقليمها . وفي نفس الفترة هاجر الكثير من الأسرات اللاتينية إلى روما لأنها لم تكن تحب نظام حكم العامة في اللاتيوم . ولأن روما كانت قد أعادت عندئذ مبدأه الطارقة (١) في أرديا (Ardea) ، كان للسراة والعامة في نزاع دفعت السوقة الفولسك إلى معونتهم . وسلم السراة مدينتهم للرومان (٢) . وكانت إتروريا مبتلاة بالشقاق . فقد قلبت فيس (Veii) حكومة السراة فيها ، وفتحها الرومان . ورفضت البلاد الإتروسكية الأخرى ، التي كانت السراة الكهونتية لا تزال سائدة فيها ، أن تنجد أهالي فيس . وتضيف الأسطورة أن الرومان في هذه الحرب خطفوا كاهنها (haruspice) من أهالي فيس ، وتسلموا وحياً بنصر هم النصر . ألا تشف هذه الأسطورة عن أن الكهنة الإتروسك قد فتحوا أبواب المدينة للرومان ؟

وفيما بعد عندما ثارت كابوا ضد روما ، لاحظوا أن الفرسان ، أي هيئة السراة ، لم يساهموا في هذه الفتنة (٣) . وفي سنة ٣١٣ سلم حزب السراة المدن أوزونا (Ausona) وسورا (Sora) ومينتورنه (Minturne) . وفسكيا (Vescia) للرومان (٤) . إذا رأينا الأتروسك يتحدون ضد روما ، فربما يرجع ذلك إلى أن الحكومة الشعبية قد استقرت عندهم . لكن مدينة واحدة هي بلدة أرّتيوم (Arretium) رفضت الدخول في هذا الاتحاد ، ذلك لأن طبقة السراة كانت سائدة في أرّتيوم (٥) . عندما كان هانيبال في إيطاليا ، كانت جميع

(١) ديونيسيوس - ٢

(٢) تيتوس ليفيوس ٤ : ٩ - ١٠ .

(٣) تيتوس ليفيوس ٨ : ١١ .

(٤) تيتوس ليفيوس ٩ : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) تيتوس ليفيوس ٩ : ٣٢ ، ١ : ٣ .

البلدان مضطربة ، لكن الأمر لم يكن متعلقاً بالاستقلال . ففي كل بلدة كان السراة لروما والسوقة للقرطاجيين (١) .

تستطيع الطريقة التي كانت تحكم روما بمقتضاها أن تفسر لنا تفضيل السراة المستمر لها . فقد تتابعت سلسلة الثورات فيها كما تتابعت في جميع البلدان ولكن بعدد أكبر . ففي سنة ٥٠٩ نجح ارنكس تحريق في روما ، وقد كانت المدن اللاتينية ظفرة قبل ذلك التاريخ . ثم قام حكم العامة ولكن مع مضي الزمن ومع كثير من الاتزان والاعتدال . وبذلك فقد كانت الحكومة الرومانية حكومة سراة زمناً أطول مما كانت عليه أية حكومة أخرى ، واستطاعت أن تكون محط آمال حزب السراة زمناً طويلا

حقاً لقد استطاع حكم العامة أن يسود في روما ولكن أساليب الحكم وما يمكن أن نسميه حين الحكومة بقيت في ذلك الوقت ، مطبوعة بطابع السراة . ففي حال الفرق المئينية كانت الأصوات موزعة حسب الثروة . ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً في حال القبائل . فمن حيث الشرع لم يكن يسمح فيها بأي تفريق ناتج عن الثروة . أما من حيث الواقع فقد كانت الطبقة الفقيرة محصورة في القبائل المدنية الأربع وهذه لم يكن لها سوى أربعة أصوات تعارض بها أصوات طبقة الملاك وهي واحد وثلاثون صوتاً . هذا ولم يكن هناك أحداً في العادة من هذه الاجتماعات . لا يتكلم فيها غير الرئيس . أو من يسمح له الرئيس بالكلام . لم يكونوا يسمعون فيها خطباً ، وكانوا قليلا ما يتناقشون فيها ، بل كان يقتصر كل شيء في أغلب الأحيان على التصويت بنعم أو بلا . وبإحصاء الأصوات ، وحيث أن هذه العملية الأخيرة معقدة جداً فإنها كانت تتطلب وقتاً طويلا وهدوءاً كبيراً . ويجب أن نضيف على هذا أن مجلس الشيوخ لم يكن يجدد كل عام كما كان في المدن الإغريقية التي يسود فيها حكم العامة من الناحية الشرعية . كان يؤلفه الرقباء كل خمس سنوات ، والواقع أن القوائم كانت شديدة التشابه

(١) تيتوس ليفيوس ٢٣ ، ٣ ، ٤ ؛ ٢٤ ، ٢ ، ٨ : *Unus velut morbus invaserat omnes Italiae civitates ut plebs ab optimatibus dissentiret senatus Romanus faveret, plebs ad Poenos rem traheret*

من فترة لأخرى من فترات السنوات الخمس . ومن الشاذ أن يحذف بعض الأعضاء ، وبذلك كان مجلس الشيوخ هيئة دائمة مدى الحياة يكاد ينتخب هو أعضاءه ، ويمكن أن نلاحظ أن الأبناء كانوا يحلون محل الآباء في العادة . فكان في الحقيقة هيئة من أقلية حاكمة .

كانت الأخلاق متشبعة بصفات المراتب أكثر من تشبع الأنظمة بها . فكان لأعضاء الشيوخ أماكن مخصصة في المسرح وكان الأثرياء يخدمون دون سواهم في سلاح الفرسان وكان الحرس الأكبر من رتب الجيش محتفظاً به لشباب الأسرات الكبيرة ، ولم يكن سقيبيو قد بلغ خمسة عشر عاماً عندما كان يقود أسطولا(٢)

ظلت سيادة الطبقة الثرية متماسكة في روما ربما أطول منها في أية بلدة أخرى ويرجع ذلك إلى سببين أحدهما أنه حدثت فتوحات كبيرة وأن المنافع كانت تذهب إلى الطبقة التي كانت ثرية من قبل . فقد دخلت في حيازتها جميع الأراضي التي انتزعت من المغلوبين واستولت على تجارة البلاد المغلوبة ، وضمت إليها الأرباح العظيمة من جباية الضرائب وإدارة الولايات وبذلك كانت هذه الأسرات تزداد ثراء من جيل إلى آخر وأصبحت مُتْخَمَة بدرجة لا نقاس عليها . وأصبحت كل واحدة منها منفصلة أمام الشعب والسبب الآخر أن الروماني ، وحتى أفقر روماني ، كان يكن احتراماً دينياً للثروة فقد احتفظت طبقة ذوي الحقيقة مدة زمن طويل . لكنه يبوح كما لو كانت قد بعثت في صورة تمجيد وخضوع إلى ذوي الثروات الكبيرة . وقد جرى العرف على أن يذهب المُستَفيد كل صباح يحيي الأثرياء ويطلب إليهم غذاء يومه .

(٢) Pline, XIV, 1, 5. *Senator censu legi, judex fieri censu, magistratum ducemque nihil magis exornare quam censum.*

إن ما نعرفه عن بوليبيوس لا نصل على العصور الأخيرة الجمهورية حسب ابن كان في روما ذاتها يجب لكي يكون الإنسان سيداً ، ويجب لكي يكون قاضياً ، بل لكي يكون صديقاً حقيقياً ! ويجدر أن يحسب هنا من القضاة بل لا بد أن يكون الإنسان ثرياً يكون عضواً لها ، يحسب أن من القضاة أن يتصف غنياً . كما

وليس المقصود أن النزاع بين الأثرياء والفقراء لم يثر في روما كما ثار في جميع المدن، بل إنه لم يبدأ إلا في عصر آل غراكخوس، أي بعد أن تم الفتح تقريباً. هذا ولم يكن هذا النزاع في روما مصحوباً دائماً بضروب العنف التي كان مصحوباً بها في كل مكان آخر. فإن الطبقة المنحطة من الشعب في روما لم تتطلع إلى الثروة بحرص شديد. وقد صادفت آل غراكخوس مساعدة لينة، ورفضت أن تعتقد أن هؤلاء المصلحين كانوا يعملون من أجلها. وهجرتهم في اللحظة الفاصلة. فإن قوانين توزيع الأراضي التي كثيراً ما قدمت كتهديد للأغنياء قد تركت الشعب دائماً في شيء من عدم الاكتراث، ولم تحركه إلا تحريكاً سطحياً. ومن ذلك نرى جيداً أنه لم يكن يتمنى امتلاك الأرض في رغبة شديدة. هذا وإذا كانوا قد عرضوا عليه تقسيم الأراضي العامة، أي أملاك الدولة، إلا أنه لم يفكر، على الأقل، في تجريد الأثرياء من أملاكهم. فقد كان يحب أن يعيش نحو الأثرياء وفي ظلهم مدفوعاً من ناحية بشعور الاحترام الموروث وشطره الآخر العادة المألوفة

وقد كان من حكمة هذه الطبقة الثرية أن فتحت في صفوفها أعلى الأسرات في سلالة العامة أو صفوفها وقد انتهى الأمر رويداً رويداً بأن دخل كل من كان حراً في تكوين الطبقة الثرية في روما. وازدادت أهمية هذه الهيئة على الدوام، وأصبحت سيدة الدولة فباشرت وحدها مناصب الدولة إذ أن شراءها كان يكلف كثيراً، وأصبحت وحدها مجلس الشيوخ إذ كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لكي يكون الإنسان شيخاً. وبذلك حدث هذا الأمر العجيب وهو تكوين طبقة من الأشراف بالرغم من القوانين التي كانت مشبعة بحكم العامة. وقد تحمل الشعب، الذي كان عظيم الصبر، أن ترتفع هذه الطبقة فوقه ولم يعارضها إطلاقاً.

وإذن فقد كانت روما، في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، المدينة التي تحكم بأشد الأنظمة تشبعاً بمبادئ الثروة بين جميع مدن إيطاليا وبلاد الإغريق. ولنلاحظ في هذه أنه إذا كان مجلس الشيوخ مضطراً في الشؤون الداخلية إلى مراعاة الجمهور، فإنه كان سيداً مطلقاً فيما يختص بالسياسة الخارجية فهو الذي

كان يستقبل السفراء ، وهو الذي يعقد المعاهدات ، ويوزع الولايات والفيالق ، ويصدق على أعمال القواد . ويحدد الشروط التي تفرض على المغلوبين ، وكلها أمور كانت في كل مكان آخر من اختصاصات مجمع الشعب . وإذن لم يكن للأجانب في علاقاتهم مع روما أي شأن بالشعب ، لم يكونوا يسمعون الحديث إلا عن مجلس الشيوخ ، وكانوا يشبعونهم من هذه الفكرة وهي أنه لم يكن للشعب أية سلطة . وذلك هو الرأي الذي أعلنه إغريقي لفلامينيوس (Flamininus) إذ قال له «في بلادكم تحكم الثروة ، وكل ما عداها خاضع لها» (١)

نتج عن ذلك أن طبقة السراة في جميع المدن شخصت بأبصارها نحو روما واعتمدت عليها ، واتخذتها حامية ، وربطت بها مصيرها . ومما ساعد أكثر من سواه على النجاح فيها أن روما لم تكن بلدة أجنبية لأحد فقد كان السابيليون واللاتينيون والإتروسك يرون فيها بلدة سابينية أو بلدة لاتينية أو بلدة إتروسكية ، وكان الإغريق يعتقدون أنهم يحسون فيها إغريقاً .

فبمجرد ما تزعمت روما بلاد الإغريق (عام ١٩٩ قبل الميلاد) استسلمت لها السراة . ولم يكد يفكر أحد عندئذ أن به الحيرة بين الاستقلال والخضوع . إذ أن المسألة لم تكن لدى سواد الناس إلا الخيار بين السراة والحزب الشعبي . وقد كان هذا الأخير في جميع البلدان في صف فيليبوس أو أنطيوخوس أو برسيوس أما الآخر فكان في صف روما . ويمكن أن نرى في بوليبيوس وفي تيتوس ليفيوس أنه إذا كانت أرجوس قد فتحت أبوابها للمقدونيين في سنة ١٩٨ ، فربما كان ذلك لأن الشعب كان مسيطراً فيها . وأن حزب الأثرياء هو الذي سلم في السنة التالية أوبوس (أوبونت Opunte) للرومان . وأن سراة الأكارنيين (Acarniens) عقدوا معاهدة تحالف مع روما . لكن هذه المعاهدة أبطلت في العام التالي لأن حكم العامة تغلب من جديد في الفترة بينهما . وأن ثيبة بقيت في تحالف مع فيليبوس عندما كان الحزب الشعبي هو الأقوى فيها ، وتقربت إلى روما بمجرد أن أصبحت طبقة السراة مسيطرة فيها ، وأن السوقة في أثينا وفي ديمترياس (Demetriade) وفي فوكيا (Phocée) كانوا معادين للرومان

(١) تيتوس ليفيوس ٣٤ ، ٣٠ .

وأن نابيس (Nabis) طاغية العامة كان في حرب معها، وأن العُصْبَة الأخيوية (ligue
achéenne) كانت منقسمة ... كانت العصبة تحت حكم السراة ، وأن
رجالاً من أمثال فيلوبومين وبوليبيوس كانوا يعملون لاستقلال القوى. لكنهم
مع هذا كانوا يؤثرون السيادة الرومانية على حكم العامة ، وأنه في العصبة
الأخيوية ذاتها أثنت ... حرب لشعبي ... وأنه ... من هذه
اللحظة كانت العصبة عدواً لروما ، وأن ديوس (Diaeus) وكريتولاوس
(Critolaos) هيا في نفس الوقت رؤساء حزب شعبي وقواد العصبة ضد
روما وأنهما حاربا ... عند سكاربي Scarphée وليكوبيترا Leucoptera .
وربما كان ذلك من أجل انتصار حكم العامة أكثر مما كان من أجل استقلال
بلاد الإغريق .

تخبرنا هذه الحوادث ... كيف حصلت روما على الإمبراطورية
دون أن تبذل جهوداً كبيرة ... كان الروح البلدي حتى شيئاً فشيئاً وأصبح
حب الاستقلال شعوراً نادراً جداً . وكانت الأفئدة منقطعة لمصالح الأحزاب
وشهواتها ... وهم لا يشعرون ... فهوى الواحد تلو الآخر من
الحواجز التي كانت تفصل البلدان عن بعضها ، ... صغيرة
قائمة بذاتها ... آمال كل فرد وأفكاره ... في جميع يطالب
وفي جميع بلاد الإغريق ... في جميع المدن ... طبقة السراة
وفي الأخرى الحزب الشعبي ... تدعو ... روما ، وهذا يصدها . ولقد
تغلبت طبقة السراة ، وحصلت روما على الإمبراطورية .

٤ — روما تحطم النظام البلدي في كل مكان

صحت أنظمة المدينة القديمة ... سلسلة من ... . كانت
منهوكة القوى . فكانت النتيجة الأولى للسيادة الرومانية هي إتمام تحطيمها
[illegible] ما يزال باقياً منها . وهو ما نستطيع أن نراه عندما نلاحظ أية حالة هوت
إليها الشعوب، كلما أخضعتها روما

يجب أولا أن نبعد عن أذهاننا كل عادات السياسة الحديثة . وألا نتصور أن الشعوب كانت تدخل الواحد تلو الآخر في الدولة الرومانية كما تنضم في أيامنا المقاطعات المستولى عليها إلى مملكة توسع حدودها بضم هؤلاء الأعضاء الجدد . لم تكن الدولة الرومانية *civitas romana* تتسع بالفتح ، فإنها لم تكن تشمل إطلاقاً غير الأسرات التي كانت تسجل في احتفال التعداد الديني . وكذلك لم تكن تتسع الأرض الرومانية *ager romanus* بل كانت تبقى محصورة في الحدود التي لا تتزحزح ، التي خطها الملوك . ولقد كان يقدس احتفال الأمبرفاليس *(Ambarvales)* كل عام . شيئان فقط كانا يتسعان عند كل فتح ألا وهما السيادة الرومانية *(imperium romanum)* الأرض التي تملكها الدولة الرومانية *(ager publicus)*

طالما كانت الجمهورية قائمة لم يكن يخطر ببال أحد أنه في استطاعة الرومان والشعوب الأخرى أن يكونوا أمة واحدة . كان في استطاعة روما أن تتقبل بينها بعض المغلوبين كلا على حدة . وأن تسكنهم داخل أسوارها وأن تحولهم رومانا على مدى الزمن . لكنه لم يكن في استطاعتها أن تتمثل شعبا أجنبيا بأكمله في شعبها ، ورقعة من الأرض في رقعتها . ولم يكن مرجع ذلك سياسة روما الخاصة . بل مبدأ كان ثابتاً في الزمن العتيق ، وهو مبدأ كانت روما تميل للابتعاد عنه أكثر من أية مدينة أخرى . لكنه لم يكن في استطاعتها أن تتحرر منه تماماً . فعندما كان يخضع شعب ما ، لم يكن يدخل في الدولة الرومانية *(in civitate)* بل في البلاد الرومانية فقط *(in imperio)* لم يكن يتحد مع روما كما تتحد اليوم المقاطعات مع عاصمة ما . لأن روما لم تعرف فيما بين الشعوب وبينها إلا نوعين من الروابط ، الخضوع *(deditio)* أو التحالف *(societas)*

كان يلوح من ذلك أنه لا بد من بقاء الأنظمة البلدية لدى المغلوبين وأنه لا بد من أن يكون العالم مجموعة شاسعة من المدن المتغالبة فيما بينها ، وعلى رأسها مدينة سيدة . إلا أن شيئاً من ذلك لم يقع فقد كان من أثر الفتح الروماني أن أحدث تبديلا حقيقياً في داخل كل بلدة .

في ناحية كان هناك الرعايا *(dediti)* وهم أولئك الذين تلوا صيغة التسليم *(deditio)* وبذلك سلموا للشعب الروماني ، أشخاصهم وأسوارهم

وأراضيهم وبيوتهم ومعابدهم وآلهتهم. فلم يتنازلوا بذلك عن حكومتهم المدنية فحسب، بل عن كل ما كان يلازمها عند القدماء، أي عن ديانتهم وعن قانونهم الخاص. وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هؤلاء الرجال يكونون فيما بينهم هيئة سياسية، ولم يعد فيهم شيء من المجتمع المنظم. وكانت بلدتهم تستطيع أن تبقى قائمة، ولكن مدينتهم ذهبت. وقد استمروا على العيش معاً، ولكنهم يعيشون من غير نظم ولا قوانين ولا رجال دولة. ولكي تحفظ النظام المادي بينهم سلطة تعسفية في يد ضابط (praefectus) ترسله روما (١).

ومن الناحية الأخرى، فالحلفاء (foederati أو socii) كانوا يعاملون معاملة أقل سوءاً. فقد اشترط في الوثيقة التي دخلوا بها تحت السيادة الرومانية أن يحتفظوا بنظامهم المدني، وأن يظلوا منتظمين في مدن. واستمروا إذن على أن يكون لهم في كل مدينة دستور خاص بهم، ومناصب دولة. وتحمل شيوخ ومجلس [illegible] (بريتانيون). وقضاة، وكانت المدينة تعتبر مستقلة. ويبدو أنه لم تكن هناك صلات أخرى مع روما غير صلة التبعية. بيد أن روما كانت تدخل هذه الصيغة majestatem populi romani comiter conservent (٢) في شروط المعاهدة التي كانت تعقدها مع الحلفاء (٣). وهذه الألفاظ تقرر تبعية مدينة حليفة نحو مدينة ذات سيادة. ولكن لما كانت مبهمة جداً، فقد نتج عنها أن مقدار هذه التبعية كان وفق هوى الأقوى دائماً. كانت هذه المدن، وهي التي كانت تسمى حرة، تتلقى الأوامر من روما وتطيع الولاة (proconsuls) وتدفع الضرائب للعشارين. وكان رجال الدولة فيها يؤدون حساباً لحاكم الولاية الذي كان يتلقى أيضاً استئناف أحكام قضاتها (٤). هذا وقد

(١) تيتوس ليفيوس، [illegible] ٣٤.
شيشرون، [illegible] (praefectura) [illegible]
(٢) شيشرون، دفاعاً عن [illegible].
(٣) معنى هذه الألفاظ [illegible] — المعرب
(٤) تيتوس ليفيوس [illegible] بلوتارخوس [illegible] ٢.
أبيانوس: الحروب الأهلية [illegible] تاسيتوس (Tacit.) [illegible] ٤٥.

كانت طبيعة النظام البلدي عند القدماء بحيث كان لا بد له من الاستقلال التام وإلا زال من الوجود. ولم يكن هناك وسط بين الإبقاء على نظم المدينة وخضوع لسلطان أجنبي. تناقض رأيين لا يثبتان معاً [illegible] جلاء. لكن لابد أنه كان يصدم جميع أهل ذلك العصر. كانت الحرية البلدية والإمبراطورية الرومانية شيئين لا يمكن التوفيق بينهما. فلم يكن في استطاعة الأولى إلا أن تكون مظهراً وادعاء كاذباً وتسلية جديرة بأن يلهى الناس بها. كانت كل واحدة من هذه المدائن ترسل كل عام وفداً إلى روما. وكانت أخص شؤونها وأدقها تنظم في مجلس الشيوخ. كان لا يزال لها رجال دولتها المنتخبون، أرخنة وقواداً، تنتخبهم هي انتخاباً حراً. لكنه لم يكن للأرخون اختصاصات غير كتابة اسمه على السجلات العامة للدلالة على السنة. ولم يعد للقائد الذي كان فيما مضى رئيس الجيش والدولة، غير عنايته بتنظيف الشوارع وتفتيش الأسواق (١)

وزالت هذه الأنظمة البلدية من الشعوب التي كانت تسمى حليفة، كما زالت من الشعوب التي كانت تسمى رعية. ولم يكن بينهما غير هذا الفرق وهو أن الأولى احتفظت بأشكاله الظاهرة. والحق أن المدينة كما عرفتها العصور العتيقة لم تعد ترى في أي مكان اللهم إلا داخل أسوار روما (٢)

هذا وعند ما حطمت روما نظام المدينة في كل مكان، لم تجعل عنه أي شيء. لم تعط نظامها للشعوب التي سلبتها أنظمتها ليكون بديلا منها. بل إنها لم تفكر في إنشاء أنظمة جديدة تخصص لاستعمالها (٣). لم تضع إطلاقاً دستوراً لشعوب إمبراطوريتها. ولم تعرف كيف تضع قواعد ثابتة لحكمها. لأن السلطة التي كانت تحكمها بمقتضاها لم تكن نظامية في شيء. حيث أن هذه الشعوب لم تكن جزءاً من دولتها ولا من مدينتها. ولهذا لم يكن لها عليها أي سلطان قانوني. كان

(١) [illegible] Boeckh, Corp. inscr., passim.

(٢) [illegible] روما [illegible] في كل مكان. لكن يجب أن نفهم أن هذا النظام البلدي في حياة الإمبراطورية لم يكن [illegible] إلا من حيث المظهر. ولم يكن له نفس أسس [illegible] ولا نفس روح [illegible] المدينة [illegible] أو الإغريقية في عصر [illegible] آخر [illegible].

رعاياها غرباء بالنسبة لها . ولذلك كان لها عليهم هذه السلطة غير النظامية وغير المحدودة التي كان يتركها الشرع المدني القديم للمواطن تجاه الأجنبي أو العدو . وعلى هذا المبدأ مضت الإدارة الرومانية زمناً طويلاً وإليك كيف كانت تسير .

كانت روما ترسل أحد مواطنيها في إقليم ما ، وتجعل من هذا الإقليم ولاية (*provincia*) لهذا الرجل ، أي التزامه ، وعمله الخاص ، وشأنه الشخصي ، وقد كان ذلك معنى كلمة *provincia* في اللغة القديمة . وفي نفس الوقت كانت تخلع السلطان (*imperium*) على هذا المواطن ، ومعنى ذلك أنها كانت تتجرد لمصلحته ولزمن معين عن السيادة التي كانت لها على الإقليم . ومن تلك اللحظة أصبح يمثل هذا المواطن في شخصه جميع حقوق الجمهورية ، وبهذه الصفة كان سيداً مطلقاً . كان يحدد رقم الضريبة ، ويباشر السلطة الحربية ، ويقضي بين الناس . ولم يكن هناك دستور يحدد صلاته بالرعايا أو الحلفاء . وعندما يجلس في محكمته كان يقضي حسب إرادته وحدها دون ما قانون يفرض عليه ، لا قانون أهل الولاية ، إذ أنه روماني ، ولا القانون الروماني ، ما دام يقضي بين أهل الولاية . ولكي تكون هناك قوانين بينه وبين الخاضعين لإدارته ، كان لا بد أن يصدرها هو ، إذ أنه هو وحده كان يستطيع أن يلزم نفسه . لذلك كان السلطان (*imperium*) الذي يخلع عليه يحوي السلطة التشريعية . ومن هنا جاء أنه كان للحكام الحق في أن يصدروا ، وقد تعودوا أن يصدروا ، عند دخولهم الولاية مجموعة من القوانين ، يسمونها مراسيمهم ، يتعهدون من الناحية الخلقية بالسير بمقتضاها . ولكن لما كان الحكام يتغيرون كل عام فإن هذه المجموعات كانت تتغير أيضاً كل عام ، بسبب أنه لم يكن للقانون مصدر غير إرادة الرجل الذي كان يخلع عليه السلطان (*imperium*) مؤقتاً . كان يطبق هذا المبدأ بصرامة ، بحيث أنه إذا أصدر الحاكم حكماً ولم ينفذ تماماً عند رحيله من الولاية فإن مجيء خلفه كان يلغي هذا الحكم إلغاء قانونياً وتبدأ الإجراءات من جديد (1)

(1) غايوس ٤ : ١٠٣ - ١٠٦ .

تلك كانت هيمنة الحاكم ... كان هو القانون الحي . أما الاستناد إلى العدالة الرومانية ضد تعسفه أو جرائمه فإنه لم يكن في استطاعة أهل الولاية إلا إذا وجدوا موطناً رومانياً يريد أن يقوم عنهم مقام المحامي (١) . إذ لم يكن لهم من تلقاء أنفسهم حق الاحتماء في قانون المدينة ولا الالتجاء إلى محاكمها ، إنهم غرباء . وكانت اللغة القانونية والرسمية تسميهم *peregrini*(٢) وكل ما يقوله القانون عن الـ *hostis* لا يزال ينطبق عليهم.

يظهر المركز القانوني لسكان الإمبراطورية جليا في كتابات الفقهاء الرومانيين يرى فيها أن الشعوب كانت تعتبر كأنها لم تكن لها قوانين خاصة بها ، وحيث حصل على القوانين الرومانية ... لا شرع لها من أى طريق كان . ففي نظر القانون الروماني لا يعتبر الفرد من أهل الولاية زوجاً ولا والداً ، أى أن القانون لا يعترف له بالسلطة الزوجية ولا بالسلطة الأبوية ، ولم يكن له أن يمتلك ، بل إن هناك استحالة مزدوجة في أن يكون مالكاً : استحالة بسبب حالته الشخصية لأنه ليس مواطناً رومانياً ، واستحالة بسبب حالة أرضه لأنها ليست أرضاً رومانية . إذ أن القانون لا يقر الملكية الكاملة إلا في حدود الأرض الرومانية *ager romanus* (٣). وقد قال الفقهاء إن أرض الولاية لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً إطلاقاً وإنه لا يمكن أن يكون للناس عليها غير الحيازة والتمتع بالمحصول ونحوه (٤) هذا ما يقولونه عن أرض الولايات في غرب شتى من البلاد كما ... صحيحاً كانت في بعض

---

(١) عن نظام الأوصياء والنواب وعن نصيبهم في سلطة الحاكم وفي الولايات، انظر شيشرون ؛ [illegible] ؛ [illegible] ؛ ديونيسيوس [illegible] ؛ تيتوس ليفيوس [illegible] ؛ [illegible] ؛ أبيانوس ، الحروب الأهلية [illegible] .

(٢) معناها الذين من الخارج ، وكانت كلمة *hostis* معناها الأصلي الذي من الخارج أو الغريب .

(٣) وكذلك ... الإيطالية *ager italicus* .

(٤) غايوس ٢ : ٧ : *In provinciali solo dominium populi romani est* ؛ انظر شيشرون ، دفاع عن فلاكوس ٣٢ .

بالأرض إلا أنه لم يكن لشخص أن يطبق عليها حق الملكية الرومانية. كما سبق وقلنا.

من المحقق إذن أنه كلما دخلت الشعوب في سلطان روما كانت تفقد دينها المدنية وحكومتها وشرعها الخاص. ومع ذلك يمكن أن نعتقد أن روما كانت تخفف بعد ذلك من حدة هذه الحالة من الوجهة العملية. إذ نرى أحياناً أنه إذا كان القانون الروماني لا يعترف للرعية بسلطة الأبوة، إلا أنهم كانوا يتركون هذه السلطة قائمة في العرف على الأقل. وقد كانوا لا يستطيعون مثل ذلك الرجل أن يدعي أنه مالك للأرض، فإنهم كانوا يتركون له حيازتها. كان يزرع أرضه ويبيعها ويوصي بها. لم يكونوا يقولون أبداً إن هذه الأرض ملك له، لكنهم كانوا يقولون [illegible] pro [illegible] ولم تكن ملكاً له [illegible] بل كانت في أمواله in bonis (١) وهكذا كانت تتصور روما طائفة من الطرق الملتوية والحيل القانونية [illegible] الرومانية [illegible] ولكن وضع قوانين للمغلوبين؛ فإنه لم تكن تستطيع [illegible] في الأحوال من حيث [illegible] كانوا يوضعون خارج الشرع، أما في الواقع فإنهم كانوا يعيشون كما لو كان لهم شرع ولكن فيما عدا ذلك تقريباً. وفي عهد التسامح هذا، كانوا يتركون جميع أنظمة المغلوبين تمحى وجميع قوانينهم حتى وكان سلطان روما (الإمبراطورية الرومانية imperium romanum) ، على الخصوص في عهدي النظام الجمهوري و[illegible] الشيوخ، يظهر بهذا المظهر عندئذ بقيت مدينة واحدة قائمة ولها أنظمة وشرع؛ أما البقية جميعها، أي الشعوب [illegible] من الأنفس فإما أنه لم يكن لها أي نوع من القوانين، [illegible] لم يكن لها على الأقل قوانين معترف بها من المدينة ذات السيادة. [illegible] عندئذ فوضى [illegible] قوانين [illegible] وعرف [illegible] المجتمع دون سواه.

ذلك كان أثر الفتح الروماني على الشعوب التي أصبحت [illegible] الأحرى [illegible] مدينة تحتوي كل شيء فيها [illegible] الحكومة،

(١) جايوس، [illegible]

وفى النهاية القانون الخاص . كل الأنظمة القديمة المتداعية منذ زمن بعيد انقلعت فى النهاية من جذورها وأبيدت لكن لم يحل أى مجتمع منظم ولا أى نظام للحكومة محل ذلك حتى فوق أنقاضه . كانت هناك فترة انقطاع بين اللحظة التى يرى الناس فيها انحلال النظام القديم واللحظة التى رأوا فيها مولد مجتمع من طراز جديد . ولم تكن الأمة هى التى خلفت المدينة أولاً . ذلك أن السلطان الرومانى (الإمبراطورية الرومانية *imperium romanum*) لم يكن بشخصية ما من أية ناحية كانت بل كان جماعة مبهمة ليس فيها نظام حقيقى إلا فى نقطة مركزية . أما البقية الأخرى فلم يكن بها إلا نظام كاذب ومؤقت . ومن ثم لم تحصل عليه إلا مقابل خضوعها . لم تصل الشعوب الخاضعة إلى تكوين نفسها فى هيئة منظمة إلا عندما حصلت بدورها على الحقوق والأنظمة التى أرادت روما أن تحتفظ بها لنفسها . وللوصول إلى ذلك كان لا بد لهذه الشعوب من دخول المدينة الرومانية . وإفساح مكان لها فيها . والاحتشاد فيها . وتحويلها هى أيضاً لكى يجعلوا من أنفسهم ومن روما هيئة واحدة . ولقد كان ذلك عملا طويلا ، عسيراً

٥ – الشعوب الخاضعة تدخل فى المدينة الرومانية على التوالى

رأينا كم كانت حالة رعية روما سيئة . وإلى أى حد كان نصيب المواطن أمنية الجميع . لم يكن لعصر بحق غرور الكبرياء وحده ، بل كان يتركز فيه أكثر المصالح المادية وأعزها على النفس . فمن لم يكن مواطناً رومانياً ، لم يكن يعتبر زوجاً ولا أباً . ولم يكن يستطيع شرعاً أن يكون مالكاً ولا وارثاً كان لقب المواطن الرومانى من الأهمية بحيث كان الإنسان بدونه يعد خارج الشرع ، وبه كان يلج المجتمع المنظم . لذلك أصبح هذا اللقب موضعاً لأشد رغبات الناس فتطلع اللاتينى والإيطالى والإغريقى ، وفيما بعد الإسبانى والغالى ، إلى أن يكونوا مواطنين رومانيين وهى الوسيلة الوحيدة لتكون للإنسان حقوق ولكى يعد شيئاً يذكر . فحصلوا جميعاً ، الواحد بعد الآخر ، وفى الترتيب الذى دخلوا فيه إمبراطورية روما على وجه التقريب . حصلوا على الدخول فى المدينة الرومانية ، ونجحوا فى ذلك بعد جهود طويلة

واندماج الشعوب في دولة إيطالية قد لا يحدث بعضها دون آخر على ما في تاريخ نحو أربعة قرون لاجتماعي تطويل . ولكي نلاحظ هذا الحدث الكبير على على جميع أوجهه متأنية يجب أن نراه وهو يبدأ في القرن الرابع قبل الميلاد

كان اللاتينيون خصوصاً . فقد فرضت روما على نصف شعوب اللاتيوم الصغيرة التي كانت تحيط بها . وجردت بعضهم من أرضه . وتركت للآخرين قليلاً من حقوقهم . وفي سنة ٣٤٠ اعتقد هؤلاء أن الفرصة كانت مواتية لهم . وأن عليهم أن يصيروا في كل شيء . وأنه محكوم عليهم أن يبذلوا دماءهم وأموالهم كل عام خدمة لروما وحدها . فثاروا وأعلن زعيمهم أنيوس (Annius) مطالبهم في مجلس شيوخ روما بهيئة صريحة : المساواة . وتكون لنا نصف القناصل ونصف أعضاء مجلس الشيوخ ويكون هناك شعب واحد وحكومة واحدة فقط *una civitas* . ويكون لنا اسم واحد وأن نسمى جميعاً رومانيين على قدم المساواة (١) . هكذا أعلن أنيوس منذ سنة ٣٤٠ الأسس التي تكونت عليها جميع شعوب الإمبراطورية الواحد تلو الآخر والتي لم تكن لتتحقق تماماً إلا بعد خمسة قرون ونصف . أما في ذلك الوقت فقد كانت مثل هذه الفكرة جديدة وغير متوقعة . وقد أغضبت الرومان لأنها شيطانية وجريئة . وتوقع أنها كانت مناقضة للديانة القديمة وحق المدن القديم . فأجاب القنصل مانليوس أنه إذا حدث أن قبل مثل هذا الاقتراح فإنه هو القنصل يقتل بسيفه أول لاتيني يأتي ليجلس في مجلس الشيوخ . ثم أدار وجهه نحو المذبح واستشهد بالإله قائلاً : « لقد سمعت يا جوبيتر هذه الكلمات الفاجرة التي خرجت من فم هذا الرجل . أتستطيع أن تسمح أيها الإله أن يأتي أجنبي يجلس في معبدك المقدس كشيخ أو كقنصل ؟ » . وهكذا عبر مانليوس عن شعور [illegible] القديم لدى كل [illegible] يميز بين [illegible] والأجنبي . فقد كان يتكلم باسم القانون الديني [illegible] لدى كل [illegible] على أنه يجب على الناس أن يكرهوا الأجنبي لأنه ملعون من آلهة المدينة . كان يبدو له من المستحيل أن يكون اللاتيني شيخاً . لأن

(١) تيتوس ليفيوس ، ٨ ، ٥ .

مكان اجتماع مجلس الشيوخ كان معبداً [illegible] ولأنه لم يكن في استطاعة آلهة الرومانية أن تجتمع في معبد [illegible] (١).

وتلت ذلك الحرب [illegible] وقد أخضعت [illegible] للاستسلام المسمى deditio أى أنهم سلموا للرومانيين بلدهم وعباداتهم وقوانينهم و[illegible] كل وضعهم قسراً. قال [illegible] في مجلس الشيوخ [illegible] روما [illegible] فإنه يتحتم تنظيم مصير اللاتينيين [illegible] نتوس [illegible] تفسيراً حلياً [illegible] تصديقه [illegible] أعطوا للاتينيين حق [illegible] الرومانية ولكن دون أن [illegible] من [illegible] حق التصويت . [illegible] المدنية . حق [illegible] ويمكن أن نلاحظ علاوة على ذلك . أن هؤلاء لم [illegible] لم يكونوا معدودين في [illegible] (Cens) [illegible] أن مجلس شيوخ كان [illegible] اللاتينيين [illegible] كان هذا اللقب [illegible] خضوعاً [illegible] محلوفة التزامات المواطن دون أن تكون لهم حقوقه [illegible]

ثم انقضت [illegible] عام [illegible] أن [illegible] اللاتينيين [illegible] حق [illegible] commubium [illegible] أو الأرجح أنها أزالت هذا المكتسب [illegible] حكومتها المدنية و[illegible]

لكن كان من [illegible] روما [illegible] مهما كان [illegible] كان [illegible] في المدينة الرومانية [illegible] كل لاتيني

(١) [illegible] أن [illegible] لأنهم [illegible] الآلهة [illegible] من [illegible] .

شغل منصباً في البلدة التي ولد فيها يصبح مواطناً رومانياً عند نهاية مأموريته (١) وفي هذه المرة كانت المنحة لمنصبه حق المدينة كاملة وفي غير تحفظ: التصويت والمناصب، والتسجيل في سجل الإحصاء، والزواج، والقانون الخاص. كل ذلك كان موجوداً فيها. أذعنت روما لاقتسام دياناتها، وحكومتها، وقوانينها مع اللاتين. وكان من الحق أن هذه المنح كانت فردية. ولم تكن موجهة للمدن بأكملها، بل لبعض الناس في كل منها. ولم تقبل روما في نطاقها إلا خير من كانوا في اللاتيوم وأكثرهم مالاً وأوفرهم اعتباراً.

وعندئذ أصبح حق المدينة هذا شيئاً ثميناً. أولاً لأنه كان كاملاً، وثانياً لأنه كان امتيازاً. وعن طريقه أصبح المرء يمثل في مجلس أقوى بلدة في إيطاليا. كان في الإمكان أن يكون قنصلاً وأن يتولى إمرة الفيالق. وكان فيه أيضاً ما يرضي مطامع أكثر تواضعاً من هذه، فبفضله أصبح في استطاعة المرء أن يصاهر أسرة رومانية، وأن يقيم في روما وأن يكون مالكاً فيها، وفي استطاعته الاتجار في روما التي أصبحت، قبل ذلك، أول سوق تجاري في العالم. وفي استطاعته الدخول في شركات التزام الضرائب، أي المساهمة في المنافع العظيمة التي كانت تجلبها جباية الضرائب أو المضاربة على أراضي الأملاك العامة ager publicus. وحيثما سكن الإنسان كان عنصراً حمايته فعالة جداً. فلم يكن في متناول سلطة الحكام المحليين، بل كان في حمى من أهواء الحكام الرومانيين أنفسهم. ولكي يصبح الإنسان مواطناً رومانياً لكي يحصل على المناصب والثروة والأمن

عندئذ أبدى اللاتينيون حرصاً في السعي وراء هذا اللقب. واستعملوا جميع الوسائل للحصول عليه. فلما أرادت روما ذات يوم أن تظهر شيئاً من الشدة اكتشفت أن ١٢٠٠٠ منهم قد حصلوا عليه خدعة (٢)

كانت روما في العادة تغمض عينيها عنهما، إذ فكرت أن سكانها يزدادون بهذه الطريقة وأنهم تعوض خسائر الحرب. ولكن المدن اللاتينية كانت تخسر. فإن أكثر

(١) أبيانوس، الحروب الأهلية، ١: ٢٦. انظر غايوس، ١: ٩٥.

(٢) تيتوس ليفيوس، ٣٩، ٣.

موظفين أو لكى يصبحوا رومانيين . وأخذت بلاد اللاتيوم يفقر وأصبحت الضريبة . التى كان يعفى منها أكثرهم ثراء باعتبارهم مواطنين رومانيين ، تزداد ثقلا ، وأصبحت الكمية المفروضة من الجنود التى كان لابد من تقديمها لروما ، تصبح كل عام أشد عسرا مما كانت عليه فى سابقه . وكلما زاد عدد أولئك الذين حصلوا على حق المدينة . كلما اشتدت حاجة الذين لم يحصلوا عليه ، وقد جاء زمن طلبت فيه البلدان اللاتينية ألا يصبح حق المدينة هذا ميزا .

كانت المدن الإيطالية ، التى خضعت منذ قرنين ، فى نفس الحالة تقريبا التى كانت عليها المدن اللاتينية . وكانت ترى أيضا أكثر أهلها ثراء يهجرونها ليصبحوا رومانيين فتفقد لنفسها حق المدينة هذا . ومما جعل مصير الرعايا أو الحلفاء أقل احتمالا فى تلك الفترة أن حكم الديمقراطية فى روما كان يثير حينئذ مسألة كبرى ، ألا وهى مسألة قوانين توزيع الأراضى . وقد كانت مبادئ جميع هذه القوانين ألا يستطيع فرد من الرعية أو الحلفاء أن يكون مالكا للأرض إلا بأمر صريح من المدينة . وأن الجزء الأكبر من الأراضى تابع للجمهورية . وقد طالب أحد الأحزاب بأن تستعيد الدولة هذه الأراضى التى كان يحتلها كلها تقريبا الإيطاليون وتقسمها بين فقراء روما . فكان الإيطاليون مهددين إذن بخراب عام . شعروا شعورا قويا بأنهم فى حاجة إلى أن تكون لهم قوانين مدنية ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يحصلوا عليها إلا إذا أصبحوا مواطنين رومانيين

وقد سميت الحرب التى نتجت عن ذلك بحرب الشركاء (guerre sociale) ؛ إذ أن حلفاء روما هم الذين حملوا السلاح كيلا يكونوا حلفاء بعد ذلك ولكى يصبحوا رومانيين . وبالرغم من انتصار روما فقد اضطرت إلى منح ما كان يطلب منها . وحصل الإيطاليون على حق المدينة فأصبحوا منذئذ رومانيين ، واستطاعوا أن يصوتوا فى الساحة العامة (forum) . أما فى حياتهم الخاصة . فقد أصبحت تحكمهم القوانين الرومانية ، واعترف بحقهم على الأرض ، وأصبح فى الاستطاعة حيازة الأرض الإيطالية حيازة تامة ، على قدم المساواة مع الأرض الرومانية . وعندئذ قام حق الإيطاليين jus italicum الذى لم يكن حق شخص

للإيطالي . ما دام الإيطالي قد أصبح رومانياً ، بل حق الأرض الإيطالية التي أصبحت قابلة للتملك كما لو كانت أرضاً رومانية (*ager romanus*) (١)

ابتداء من ذلك الوقت كونت إيطاليا بأسرها دولة واحدة لكي يتم إدخال الولايات (*provinciae*) في الوحدة الرومانية .

يجب التمييز بين ولايات الغرب وبين بلاد الإغريق . ففي الغرب كانت توجد بلاد الغال وإسبانيا التي لم تكن قبل الفتح تعرف نظام المدن الحقيقي فأشرفت روما على خلق هذا النظام عند هذه الشعوب ، إما لأنها اعتقدت استحالة حكمهم بطريقة أخرى ، وإما لأنه كان لا بد لإدماجها في الأهالي الإيطاليين شيئاً فشيئاً من جعلها تمر بنفس الطريق التي سلكها هؤلاء الأهالي . ومن هنا جاء أن الأباطرة ، بدلاً من القضاء في روما على كل حياة سياسية ، قد رعوا بعناية صور الحرية المدنية في الولايات . وهكذا نشأت مدن في بلاد الغال ، وكان لكل منها مجلس شيوخها ، وهيئة موظفيها ومناصبها الانتخابية ، بل أصبح لكل منها عبادتها المحلية وجنيّها (genius) ومعبودها المدني على نمط ما كان في بلاد الإغريق القديمة وروما القديمة . هذا وإن النظام البلدي الذي أقيم على هذا النحو ، لم يمنع الناس من الوصول إلى المدنية الرومانية ، بل على العكس أعدهم لها . وقد كانت هناك درجات بين هذه البلدان مدبرة تدبيراً ماهراً . وتبين المراتب التي كان لا بد منها لكي تقترب من روما تدريجاً وتندمج فيها في النهاية . فقد كانوا يعرفون : ١ — الحلفاء الذين كانت لهم حكومة وقوانين خاصة بهم . ولم تكن بينهم وبين المواطنين الرومانيين أية رابطة شرعية ، ٢ — المستعمرات التي كانت تتمتع بحق الرومانيين المدني

(١) وقد أصبح عندئذ في القانون من بين الأشياء (*res mancipi*) (أنظر جايوس ٢ ، ٧) . أما الحق الإيطالي (*jus italicum*) الذي يدل حسب الظاهر على أنه كان موجوداً في عصر شيشرون فإنه لم يذكر للمرة الأولى إلا في بلينوس : التاريخ الطبيعي ٣ ، ٣ ، ٢٥ ، ٢١ ، ٢٩ ، وحتى في ذلك الوقت كان ينطبق ، بالتوسع الطبيعي ، على أرض عدة بلدان واقعة وسط الولايات . انظر ... الحسبي ، الباب ٥ .

دون أن تكون لهم حقوق سياسية . ٣ – بلدان ذات الحق الإيطالى ، أى تلك التى منحتها عطف روما حق التملك التام على أراضيها كما لو كانت هذه الأراضى فى إيطاليا . ٤ – بلدان حق اللاتينى ، أى تلك التى كان يستطيع سكانها ، بمقتضى العرف القائم فى اللاتيوم فيما مضى ، أن يصبحوا مواطنين رومانيين بعد أن يشغلوا منصباً بلدياً . وقد كانت هذه الفوارق من العمق بحيث لم يكن هناك زواج ممكن ، ولا أية صلة شرعية بين شخصين من فئتين مختلفتين . لكن الإمبراطورية قد عودت أن ترتقى البلدان ، مع مضى الزمن ، ومن درجة إلى درجة ، من حالة الرعية أو الحليف إلى الحق الإيطالى ، ومن الحق الإيطالى إلى حق اللاتينى . وعندما تصل بلدة إلى هذا الحد كانت الأسر البارزة فيها تصبح رومانية الواحدة تلو الأخرى .

وكذلك بلاد الإغريق دخلت فى الدولة الرومانية أيضاً شيئاً فشيئاً . حفظت كل مدينة فى البدء بأشكال النظام البلدى ودستوره . فعندما أظهرت بلاد الإغريق عند الفتح أنها راغبة فى الاحتفاظ باستقلالها البلدى ، فقد تركت لها ، وربما تركت لها زمناً أطول مما كانت تتمنى . وبعد أجيال قليلة ، تطلعت لأن تكون رومانية ، وقد عمل الغرور ، والطمع ، والمنفعة ، فى هذا السبيل .

لم يكن لدى الإغريق نحو روما هذا الحقد الذى يحمله الناس فى العادة لسيادة أجنبى ؛ بل أعجبوا بها ، وكانوا يكنون لها الاحترام . فخصصوا لها عبادة من تلقاء أنفسهم ، وأقاموا لها معابد كما لو كانت إلهاً . وشيدت كل بلدة معبودها الحامى ، وعبدت معه الإلهة روما والإله قيصر . وخصصوا لهما أجمل الأعياد . ولم يكن للكهنة منصب أول وظيفته أعلى من الاحتفال بالأعياد أو عصبة فخامة عظيمة (١) . وهكذا تعود الناس أن يرفعوا أبصارهم إلى ما فوق مدنهم ؛ فكانوا يرون فى روما المدينة والأمة المثالية للوطن الحقيقى ، بيت الـ (بريتانيوم) جميع الشعوب . وكانت المدينة التى ولدوا فيها تبدو صغيرة ، ولم تعد مصالحها تشغل الأفكار ، ولا المناصب التى تمنحها ترضى المطامع . ولم يكن الإنسان

(١) أقام الإغريق معبداً للإلهة روما منذ سنة ١٩٥ ، أى قبل أن يفتح بلادهم . تاسيتوس (Tacite) حوليات ٤ : ٥٦ ؛ سويتونيوس ... ٤٣ ...

يحسب نفسه شيئاً ما إذا لم يكن مواطناً رومانياً. حقاً إن هذا اللقب لم يعد يجمع على الإنسان حقوقاً سياسية في عهد الأباطرة ، ولكن كانت وراءه منافع أكثر صياناً ، ما دام الرجل الذي كان يحمله كان يحصل في نفس الوقت على حق التملك الشرعي، وحق الزواج، والسلطة الأبوية، والحق المدني الروماني كله. أما القوانين التي كان يجدها كل فرد في مدينته فقد كانت قوانين متقلبة وعلى غير أساس ولم تكن قائمة إلا على مجرد التسامح. كان الرومان يزدرونها، والإغريقي ذاته لا يقدرها إلا قليلاً. فلكي تكون للإنسان قوانين ثابتة، معترفاً بها من الجميع، ومقدسة حقاً، كان لا بد له من الحصول على القوانين الرومانية.

لم نلاحظ أن بلاد الإغريق في مجموعها، ولا حتى بلدة إغريقية بمفردها، قد طلبت صراحة حق المدينة، هذا الحق المرغوب فيه. ولكن الناس عملوا على انفراد للحصول عليه، وقد استغلت روما ذلك عن طيب خاطر. حصل عليه البعض من عطف الإمبراطور، واشتراه البعض الآخر. منحوه من يهب المجتمع ثلاثة أطفال، أو من يخدم في بعض فرق الجيش، وفي بعض الأحيان كان يكفي للحصول عليه أن يبني الإنسان سفينة تجارية ذات حمولة معينة، أو أن يحمل قمحاً إلى روما. وكانت هناك وسيلة هينة عاجلة للحصول عليه وهي أن يبيع الإنسان نفسه كرقيق لمواطن روماني، إذ أن العتق بالصورة القانونية كان يؤدي إلى حق المدينة (١).

لم يكن الرجل الحائز لقب مواطن روماني عضواً في البلدة التي ولد فيها، لا من الناحية المدنية ولا من الناحية السياسية. كان يستطيع أن يستمر على السكنى فيها، ولكنه كان يعتبر فيها أجنبياً. لم يعد خاضعاً لقوانين البلدة، ولم يعد خاضعاً لأهل الحكم فيها، ولم يعد يتحمل تكاليفها المالية (٢). كان ذلك نتيجة مبدأ قديم، هو أنه لم يكن يسمح للرجل أن ينتمي إلى مدينتين في آن واحد (٣).

(١) سويتونيوس، نيرون ٢٤. بترونيوس ٥٧. سيتوس ٣. غايوس ١، ١٦، ١٧.

(٢) كان يصبح أجنبياً حتى عند أسرته إذا لم تكن حاصلة مثله على حق المدينة، ولم يكن يرث منها. بلينيوس، المديح (Panegyrique) ٣٧.

(٣) شيشرون: دفاعاً عن بالبوس ٢٨؛ دفاعاً عن أرخياس ٥؛ دفاعاً عن سكينا (Caecina) ٣٦. كورنيليوس نيبوس، أتيكوس ٣. وقد عرفت بلاد الإغريق هذا المبدأ منذ زمن بعيد، ولكن روما قد تمسكت به بإخلاص.

وقد كان يحدث بالطبع أن يوجد في كل مدينة إغريقية، بعد بضعة أجيال، عدد لا بأس به من هؤلاء، هم في عداد أكثرهم ثراء، لا يعترفون بحكومة هذه المدينة ولا بقوانينها. وهكذا بدأ النظام البلدي يتفكك، كما لو كان يعمل الموت ببطء فيه. ولقد جاء يوم كانت فيه المدينة إطاراً لا يحوي شيئاً، ولا تكاد نفوس أغنيائه تنص فيه على أحد، ولا يجد فيه قضاة المدينة من يقضون بينهم.

وفي النهاية بعد أن انقطعت ثمانية أجيال أو عشرة، وراء حق المدينة الرومانية، وبعد أن حصل عليه كل من كان ذا قيمة، ظهر عندئذ مرسوم إمبراطوري يمنحه جميع الناس الأحرار من غير تفريق.

أما الغريب هنا فهو أننا لا نستطيع أن نؤكد تاريخ هذا المرسوم ولا اسم الأمير الذي أصدره، وقد جرى مع شبهة من الحق، من أنه كاراكلا (Caracalla)، أي أمير لم يكن له قط آراء عالية، ولذلك لم ينسبوه إليه إلا باعتباره مجرد إجراء مالي. لا نعثر في التاريخ إطلاقاً على مرسوم أهم من هذا المرسوم. لقد كان محو التمييز الذي كان موجوداً منذ الفتح الروماني بين الشعب السائد والشعوب الخاضعة، بل كان محو التمييز الذي وضعته الديانة والشرع بين المدن. بيد أن مؤرخي ذلك العصر لم يلاحظوه، ولا نعرفه إلا من نصين مبهمين من نصوص الفقهاء وبيان قصير لديون كاسيوس (Dion Cassius) (١). إذا كان هذا المرسوم لم يثر اهتمام

(١) *Antoninus Pius jus romanae civitatis omnibus subjectis donavit* (Justinien, *Novelles* 78, ch. 5). *In orbe romano qui sunt, ex constitutione imperatoris Antonini cives romani effecti sunt* (Ulpien, au *Digeste*, lib. I, tit. 5-17).

هذا ويعلمنا اسبارتيانوس (Spartien) أن كاراكلا ... في الأعمال الرسمية ... ويقول ديون كاسيوس (٧٧، ٩) أن كاراكلا منح جميع سكان الإمبراطورية حق المدينة الرومانية لكي يعمم ضريبة جزء من عشرين ... في المائة على العتق وعلى الميراث التي لم يكن الـ *peregrini* يدفعونها. ولم يختف التمييز بين الغرباء واللاتين والمواطنين ... فلا زال نجده في ... وفي مجموعة ... (Code) ويبدو أنه ... ألا يصبح ... مواطنين رومانيين فوراً ... التي كانت ... على حق المدينة. نرى أيضاً من بعض القرائن أن التمييز بين الأرض الإيطالية وأرض الولايات بقي بعد ذلك زمناً طويلاً (مجموعة قوانين ٧ : ٢٥ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ١٠ : ٣٩ ؛ ...). وهكذا كانت بلدة صور في فينيقيا لا تزال بعد كاراكلا تتمتع بحق ... امتياز (ديجست، السفر الخامس، الباب ١٥ ...) ... الأباطرة ... لم يكونوا يريدون ... أنفسهم من ... التي كانت تدفعها أرض الولايات ...

المعاصرين ، ولم يلاحظه أولئك الذين كانوا يكتبون التاريخ عندئذ . ما ذلك إلا لأن التغيير ، الذي كان هو التعبير القانوني عنه ، كان قد تم منذ زمن بعيد . فقد راح التفاوت بين المواطنين وبين الرعايا يضعف في كل جيل ، وزال شيئاً فشيئاً . لقد استطاع مرسوم الإمبراطور غير ملحوظ تحت ستار إجراء مالي ، لكنه أعلن ما كان أمراً واقعاً من قبل وثبته في نطاق الشرع .

عندئذ بدأ لقب المواطن يزول من الاستعمال ، أو إذا كان لا يزال مستعملاً ، فإنه كان يستعمل للدلالة على حالة الرجل الحر كنقيض لحالة العبد . ومنذ ذلك الوقت ، كل من كان عضواً في الإمبراطورية الرومانية من أسبانيا إلى الفرات كون في الحقيقة شعباً واحداً ودولة واحدة . حتى التمييز بين المدن ، أما التفريق بين الأمم فلم يظهر إلا ظهوراً ضعيفاً . كان سكان هذه الإمبراطورية العظيمة جميعهم رومانيين على قدم المساواة . هجر الغالي اسمه كغالي وتسمى رومانياً في حماس ، وهكذا فعل الإسباني ، وسكان تراقيا أو سوريا . لم يعد هناك غير اسم واحد ، ووطن واحد ، وحكومة واحدة ، وشرع واحد .

نرى إلى أي حد تطورت المدينة الرومانية من عصر إلى عصر . لم تكن تحوي في الأصل غير البطارقة والموالي ، ثم دخلت طبقة السوقة ، ثم اللاتينيون ، ثم الإيطاليون ، وأخيراً احتوت سكان الولايات . ولم يكن الفتح كافياً لعمل هذا التغيير العظيم . كان لا بد من التبدل البطيء في الأفكار ، والتسامح من جانب الأباطرة الحكيمة ، وسعي من غير انقطاع ، واندفاع المصالح الفردية . عندئذ اختفت جميع المدن شيئاً فشيئاً ، وتمددت المدينة الرومانية ذاتها ، وهي آخر ما بقي قائماً . تغيرت أيضاً حيث أصبحت مجموعة من اثني عشر شعباً من الشعوب المتكبرة تحت رئيس واحد . وهكذا سقط النظام البلدي .

إنه لا يدخل في موضوعنا أن نقول ما هو نظام الحكومة الذي حل محل هذا النظام ، ولا أن نبحث فيما إذا كان هذا التغيير أكثر فائدة للأهالي في البدء ، أم أكثر ضرراً . يجب علينا أن نقف في اللحظة التي محيت فيها الأشكال الاجتماعية التي أقامها الزمن العتيق محواً أبدياً .

الفصل الثالث

المسيحية تغير أحوال الحكومة.

كان نصر المسيحية دليلاً على انتهاء المجتمع العتيق. ومع الديانة الجديدة ينتهي هذا التبديل الاجتماعي الذي رأيناه بدأ قبلها بستة قرون أو سبعة.

ولكي نعرف إلى أي حد تبدلت عندئذ المبادئ والقواعد الجوهرية للسياسة، يكفي أن نتذكر أن المجتمع القديم كونته ديانة قديمة. كانت عقيدتها الأولى أن كل إله يحمي أسرة أو مدينة دون سواها وأنه لا يوجد إلا من أجلها. كان ذلك عصر الآلهة المنزليين والمعبودات المدنية. ومن هذه الديانة ولد الشرع. فالعلاقات بين الناس، والتمليك، والميراث، والإجراءات، كل ذلك لم ينظم عن طريق مبادئ الإنصاف الطبيعي بل عن طريق قواعد هذه الديانة ومن أجل حاجات عبادتها. وهي أيضاً التي أقامت حكومة بين الناس: حكومة الأب في الأسرة، وحكومة الملك أو الحاكم في المدينة. جاء ذلك كله من الديانة، أي من رأي الناس عن المعبود. الديانة والشرع والحكومة فلم تكن سوى شيء واحد ذي ثلاثة مظاهر مختلفة.

حاولنا أن نلقي ضوءاً على هذا النظام الاجتماعي نفسه، الذي كانت الديانة فيه السائدة المطلقة على الحياة الخاصة والحياة العامة، الذي كانت الدولة فيه جماعة دينية، والملك حبراً، والحاكم كاهناً، والقانون صيغة مقدسة، حيث كانت الوطنية من التقوى، والنفي حرماً من الدين، حيث كانت الحرية الفردية مجهولة، وحيث كان الإنسان مستعبداً للدولة عن طريق الروح، وعن طريق الجسم، وعن طريق المال، حيث كان الحقد على الأجنبي إلزامياً، حيث كانت فكرة الحق، والواجب، والعدل، والعاطفة تقف عند حدود المدينة، حيث كان المجتمع الإنساني محدوداً بحكم الضرورة في دائرة معينة حول بيت عبادة، حيث

لم يكونوا يرون احتمالاً لتأسيس مجتمعات أوسع من تلك المجتمعات . لذلك كانت الصفات المميزة للمدن الإغريقية والإيطالية خلال الفترة الأولى من تاريخها

لكن المجتمع تبدل شيئاً فشيئاً كما رأينا . فقد تمت تغييرات في الحكومة وفي الشرع في نفس الوقت الذي تحولت فيه العقائد كما من قبل . وفي القرون الخمسة التي سبقت المسيحية ، فإن الصلة بين الديانة من ناحية ، والشرع والسياسة من ناحية أخرى ، لم تكن وثيقة مثل هذه المرحلة . فإن جهود الطبقات المضطهدة وإسقاط الطبقة الكهنوتية ، وعمل الفلاسفة ، وتقدم الفكر ، قد هزت مبادئ المجتمع البشري القديمة . وقد بذلت جهود لا تنقطع للتحرر من سلطان هذه الديانة القديمة التي لم يعد في استطاعة الإنسان أن يفكر فيها . فقد خلص الشرع والسياسة ، كما تخلصت الأخلاق ، من روابطها شيئاً فشيئاً

لكن هذا النوع من الطلاق كان نتيجة لضعف الديانة القديمة . وإذا كان الشرع والسياسة قد بدءا يستقلان بعض الشيء فما ذلك إلا لأنه لم يعد للناس عقائد . وإذا كانت الديانة لم تعد تحكم المجتمع فإنما يرجع ذلك على الأخص إلى أنه لم تعد للديانة قوة بعد . وقد جاء يوم استعادت فيه العاطفة الدينية حياتها وقوتها ، واستعادت العقيدة سلطانها على الروح . أليس يوشك أن يظهر من جديد الخلط القديم بين الحكومة والكهنوت ، بين الإيمان والقانون ؟

لم يقتصر الأمر مع المسيحية على بعث الحياة في العاطفة الدينية من جديد ، بل إنها أحدثت تعبيراً أسمى وأقل مادية . فبينما اتخذوا فيما مضى آلهة من الروح البشرية أو من القوى الطبيعية العظيمة ، إذ بهم قد صاروا يدركون الله كذات غريبة حقاً في جوهرها عن الطبيعة البشرية من ناحية ، وعن العالم من ناحية أخرى . وقد وضع الشيء الإلهي خارج الطبيعة المرئية وفوقها . لا رحمة في ذلك . فبينما كان كل رجل في الماضي يصنع إلهه ، وكان هناك من الآلهة بقدر ما كان من أسر ومدن ، إذ بالله يبدو عندئذ كذات واحدة لا حد لها ، عامة ، تبعث الحياة في العوالم وحدها ، وهي وحدها يجب أن تسد الحاجة إلى العبادة الكامنة في الإنسان . فبدلاً من أن تكون الديانة ، عند شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا ، كما كانت في الماضي ، مجرد مجموعة من العبادات ،

أي صائفة من شعائر يكررونها دون أن يروا فيها أي معنى . ووسيلة من الصيغ لم يكونوا يفهمونها في معظم الأحوال لتقادم العهد . وأثارة تنقل من عصر إلى عصر ولا تبقى صفتها مقدسة إلا من قدمها . بدلا من ذلك كله أصبحت الديانة مجموعة تعاليم وموضوعاً عقلياً معروضاً للإيمان . لم تعد خارجية . بل ستعرض على الأخص في فكر الإنسان . لم تعد مادية . بل أصبحت روحية . غيرت المسيحية طبيعة العبادة وشكلها . لم يعد الإنسان يعطي الإله المآكل والمشرب . ولم تعد الصلاة صيغة لعزيمة سحرية ، بل أصبحت عملا من أعمال الإيمان والتماساً متواضعاً . أصبحت للروح صلة أخرى بالمعبود . حلت محبة الله محل الخوف من المعبود

حدثت المسيحية مستحدثات أخرى . فإنها لم تكن الديانة المنزلية لأية أسرة ، ولا الديانة القومية لأية مدينة أو لأي جنس . لم تكن تابعة لطبقة ولا لطائفة . قد انتابت دعوتها الإنسانية جمعاء . قال يسوع المسيح لتلاميذه : « اذهبوا وعلموا جميع الشعوب » .

كان هذا المبدأ غير عادي . وغير منتظر ، حيث تردد التلاميذ الأولون فترة من الوقت . ويمكن أن نرى في أعمال الرسل أن كثيرين امتنعوا في البدء عن نشر المذهب الجديد خارج الشعب الذي نشأ فيه . فكر هؤلاء التلاميذ ، كما فكر القدماء من اليهود ، أن إله اليهود لا يريد أن يعبده غرباء . كانوا يعتقدون ، كما كان يعتقد الرومان والإغريق في الأزمنة القديمة ، أن كل جنس له إله وأن دعوة إلى هذا الإله وإلى عبادته ما هي إلا التخلي عن ملك خاص وعن حماية خاصة . وأن مثل هذه الدعوة منافية للواجب وللمصلحة معاً . لكن بطرس رد على هؤلاء التلاميذ : « لا فرق عند الله بين أهل الأمم الأخرى وبيننا » . وقد طاب للقديس بولس أن يكرر هذا المبدأ العظيم في كل مناسبة وعلى جميع الأشكال . يقول : « يفتح الله لأبناء الأمم أبواب الإيمان . هل الله إله اليهود فقط ؟ كلا إنه إله أبناء الأمم أيضاً ... إن أبناء الأمم يدعون لنفس الميراث الذي يدعى به اليهود » .

كان في ذلك كله شيء جديد جداً . إذ أنه في العصر الأول من البشرية . أدرك الإنسان المعبود باعتباره مرتبطاً بجنس من الأجناس بصفة خاصة . اعتقد اليهود في إله اليهود . والأثينيون في بلاس الأثينية . والرومان في جوبيتر الكابيتولي . كان حقاً في محرمة عبادة ما مبعداً أصلا الأجنبي عن المعابد ؛

لم يستطع من لم يكن يهودياً أن يدخل في معبد اليهود ، ومن لم يكن أثينياً فلا يدعون الحق في دعوة پلاس الأثينية . ومن الحق أن نقول إنه كان من يفكر في القرون الخمسة التي سبقت المسيحية كان يثور على هذه القيود الضيقة . علمت الفلسفة من عهد أنكساغوراس (Anaxagore) أن إله الكون يتلقى عبادة جميع الناس بلا تفريق . فتحت ديانة إيلوسيس (Eleusis) من يلتمسونها من جميع البلدان وفتحت عبادة كيبيله (Cybele) وسيرابيس (Sérapis) عبادًا من جميع الأمم بلا تفريق . وبدأ اليهود يقبلون الأجنبي في معابدهم ، وقبله الإغريق والرومان في مدنهم . وقد جاءت المسيحية بعد كل هذا التقدم في التفكير والأنظمة فقدمت لعبادة الناس جميعًا إلهًا واحدًا ، إلهًا عامًا ، إلهًا للجميع ، ليس له شعب مختار ولا يميز بين الأجناس والأسرات والمدن .

لم يعد هناك أجنبي بالنسبة لهذا الإله . لم يعد الأجنبي يدنس المعبد ولا يدنس القربان بمجرد حضوره . وفتح المعبد لكل من آمن بالله . لم يعد الكهنوت وراثيًا . لأن الديانة لم تعد ملكًا موروثًا . لم تعد العبادة سرًا مخبوءًا . لم تعد الشعائر والصلوات والتعاليم مخبأة . بل على العكس أصبح هناك منذ الآن تعليم ديني ولم يكن يعطى فحسب بل كان يعرض . ويتقدم أمام الأجنبي ، ويذهب للبحث عن أبعد الناس . كذلك حلت روح الدعوة محل قانون الإقصاء .

وكانت لذلك نتائج كبيرة بالنسبة للصلات بين الشعوب نظير ما كان لها بالنسبة لحكومة الدول .

ففي حقل الشعوب لم تعد الديانة تأمر بالبغضاء . لم تعد تفرض على المواطن أن يبغض الأجنبي ، بل على العكس جعلت من جوهرها أن تعلمه أن عليه نحو الأجنبي ونحو العدو واجبات من العدالة بل ومن العطف . وهكذا هدمت الحواجز بين الشعوب والأجناس ، واختفى الحرم (pomoerium) ، قال الرسول « المسيح حطم سور الفصل ، حائط العداوة » ، وقال أيضًا « هناك أعضاء كثيرة ، لكنهم يؤلفون جميعًا جسمًا واحدًا . ليس هناك أممي ولا يهودي ، ولا مختون ولا أغلف ، ولا أعجمي ولا سكيثي (Scythe) » كل الجنس البشري منتظم في الوحدة ، بل علم الشعوب أنهم انحدروا جميعًا من أب واحد مشترك .

مع وحدة الإله ، ظهرت وحدة الجنس البشرى للأذهان. وأصبح من الضرورة الدينية منذ ذلك الوقت أن نحرم على الإنسان كراهية الآخرين.

أما فيما يختص بحكومة الدول ، فيمكن القول بأن المسيحية قد بدلتها تبديلا جوهرياً ، وذلك تماماً لأنها لم تهتم بها . في العصور القديمة لم تكن الديانة والدولة إلا شيئاً واحداً ، كان كل شعب يعبد إلهه ، وكل إله يحكم شعبه ، كانت نفس المجموعة من القوانين تنظم العلاقات بين الناس والواجبات نحو الآلهة المدنية. كانت للديانة عندئذ الإمرة على الدولة ، وهي التي كانت تعين لها رؤساءها بطريقة القرعة وبطريق الاستخارات ، وكانت الدولة تتدخل بأمورها في نطاق الضمير ، وتعاقب كل من خرج على الشعائر وعلى عبادة المدينة. فبدلا من ذلك ، علّم يسوع المسيح أن سلطانه ليس من هذا العالم ، فقد فصل الديانة عن الحكومة ، وحيث أن الديانة لم تعد أرضية فإنها لم تعد تخلط بأمور الأرض أكثر من الحد الذي كانت تستطيعه . أضاف يسوع المسيح « أدوا لقيصر ما لقيصر وما لله لله » ، وتلك هي أول مرة يميز فيها بين الله والدولة مثل هذا الوضوح . ذلك أن قيصر في تلك الفترة كان لا يزال هو الحبر الأعظم ، أي الرئيس والأداة الرئيسية للديانة الرومانية ، كان هو حارس المعتقدات ومفسرها ، كانت في يديه العبادة والعقيدة ، وكانت شخصيته ذاته مقدسة وإلهية ، إذ أنه كانت العصمة إحدى صفات سياسة الأباطرة . فعندما أرادوا أن يتحسسوا مميزات الملكية العتيقة من جديد ، فإنهم حرصوا على سلب هذه الصفة الإلهية التي منحها أهل روما منذ القدم ملازمة لملوك الأحبار والكهنة الموسويين . ولكن ها هو ذا يسوع المسيح يحطم هذه المصاهرة التي أرادت الوثنية والإمبراطورية أن تعقداها فيما بينهما ، إنه يعلن أن الديانة لم تعد هي الدولة ، وأن طاعة قيصر لم تعد هي بذاتها طاعة الله .

أكملت المسيحية تلك العادات بحيث أطفأت بيوت النار ، وحطمت المعبودات المدنية تحطيماً نهائياً ، إنها فعلت أكثر من ذلك ، إنها لم تتخذ لنفسها السلطان الذي باشرته هذه العادات على المجتمع المدني ، بل كانت تعلم أنه لا مشاركة بين الدولة والديانة ، وتفصل كل ما كانت خلطته الأزمنة الخالية . هذا ويمكن ملاحظة أن الديانة الجديدة قد عاشت خلال ثلاثة قرون بعيدة تماماً عن كل أثر للدولة ، عرفت كيف تستغني عن حمايتها بل كيف

تجارب . فحفرت هذه الثورات الثلاث هوة بين نطاق الحكومة ونطاق الديانة ولما لم يكن في الاستطاعة محو ذكرى هذه الثورة العجيبة فقد نتج عن ذلك أن هذا التفريق أصبح حقيقة شائعة لا جدال فيها . ولم تستطع فيما بعد جهود فريق من رجال الدين

كان هذا المبدأ فياضاً بالنتائج العظيمة . فمن ناحية تحررت السياسة بصفة نهائية من القواعد الصارمة التي رسمتها الديانة القديمة . وأصبح من المستطاع حكم الناس دون حاجة إلى الخضوع لعادات مقدسة ، دون أخذ رأي الاستخارات والوحي ، دون سعي للتوفيق بين جميع الأعمال وبين العقائد وحاجات العبادة . أصبحت السياسة أكثر حرية في سيرها . فلم تعد تعرفها أية سلطة غير سلطة القانون الخلقي . ومن ناحية أخرى وإذا كانت سيادة الدولة قد ازدادت في بعض الشؤون فإن أثرها كذلك قد أصبح محدوداً أكثر من ذي قبل . فقد خرج من متناولها نصف الإنسان كاملاً . إذ أن المسيحية قد بشرت بأن الإنسان لم يعد يتبع المجتمع إلا بجزء منه . ولم يعد ملكاً له إلا بجسمه وبمصالحه المادية ، وأنه إذا كان رعية لطاغية فعليه الخضوع . وإن كان مواطناً جمهورية فعليه أن يعطي حياته من أجلها ، لكنه حر فيما يختص بروحه ، وليس ملكاً لغير الله .

سبق أن بيّنَ مذهب الرواقيين هذا الانفصال ورد الإنسان لنفسه . وأسس الحرية الداخلية . لكنّ ما كان جهد طائفة متقدمة ، جعلت منه المسيحية للأجيال القادمة قاعدة عامة لا تتزعزع فجعلت مما كان تجربة للبعض ملكاً مشاعاً للإنسانية

وإذا تذكرنا الآن ما قلناه آنفاً عن هيمنة الدولة عند القدماء ، وإذا ما فكرنا إلى أي حد كانت المدينة تباشر سلطاناً مطلقاً باسم صفتها المقدسة والديانة الملازمة لها ، رأينا أن هذا المبدأ الجديد كان المنبع الذي يمكن أن تأتي منه حرية الفرد . فإنه بمجرد ما تحررت الروح كان قد تم العمل الأصعب وأصبحت الحرية ممكنة في النظام الاجتماعي

عندئذ تبدلت الإحساسات والأخلاق كما تبدلت السياسة . ضعفت الفكرة التي كانت لديهم عن واجبات المواطن ، ولم يعد الواجب الأسمى في إعطاء

المرء وقته وقواه وحياته للدولة . لم تعد السياسة والحرب كل شيء للإنسان ، لم تعد جميع الفضائل محصورة في الوطنية . إذ أنه لم يعد للروح وطن . شعر الإنسان أن عليه التزامات أخرى غير الحياة والموت من أجل المدينة . فقد ميزت المسيحية بين الفضائل الخاصة والفضائل العامة . فخفضت هذه الأخيرة ورفعت الأولى ، ووضعت الله والأسرة والذات البشرية فوق الوطن . والقريب فوق المواطن .

وكذلك تغيرت صبغة الشرع . خضع الشرع . عند جميع الأمم القديمة ، للديانة وتلقى منها جميع قواعده . فعند الفرس والهنود ، وعند اليهود ، وعند الإغريق والإيطاليين والغاليين ، كان القانون ضمن الكتب المقدسة والآثار الدينية . هكذا فرضت كل ديانة القانون على صورتها . وكانت المسيحية هي أول ديانة لم تدّعِ أن الشرع تابع لها . عنيت بواجبات الناس ولم تعنَ بالعلاقات بين المصالح فلم تُرَ تنظم حق الملكية ولا نظام الوراثة ولا الالتزامات ولا الإجراءات . وضعت نفسها خارج القانون ، كما وضعت نفسها خارج كل شيء أرضي محض . وإذن فقد كان الشرع مستقلا . استطاع أن يتخذ قواعده من الطبيعة . من الضمير البشري ، من فكرة الحق القوية الكائنة فينا . استطاع أن يتطور بكل حرية . وأن يصلح نفسه ويحسنها دون أي عائق . وأن يتبع تقدم الأخلاق ويخضع للمصالح وللحاجات الاجتماعية لكل جيل .

ويمكن التعرف جيداً على الأثر الطيب للفكرة الجديدة في تاريخ الشرع الروماني ، خلال خمسة القرون التي سبقت انتصار المسيحية فقد عمل الشرع الروماني منذ ذلك على التخلص من الديانة ، والاقتراب من الإنصاف ، ومن الطبيعة . لكنه لم يكن يسير إلا بطرق ملتوية وحيل كانت تهتك سلطته الحقيقية وتضعفها . لم تستطع حركة إحياء الشرع ، التي بشرت بها الفلسفة الرواقية ، والتي استمرت عليها جهود الفقهاء الرومانيين عدة ، والتي رسمت خطوطها ألاعيب البريتور وحيله ، أن تنجح نجاحاً إلا بفضل الاستقلال الذي تركته الديانة الجديدة للشرع . كلما استولت المسيحية على المجتمع كلما أمكن أن نرى مجموعات القوانين الرومانية تقبل القواعد الجديدة لا بطريق ملتوية بل علانية ، وبدون أي تردد .

لقد اطرحت البنتين مترنة وأطفئت الموقد . حتى دستور الأسرة القديمة إلى الأبد . واختفت القواعد المستمدة منه فقد الأب السلطة المطلقة التي منحها له كهنوته فيما مضى . ولم يحتفظ إلا بالسلطة التي خلعتها عليه الطبيعة ذاتها لحاجة الطفل . وأصبحت المرأة التي وضعتها العبادة القديمة في مكانة دون مكانة الزوج ، مساوية له . تعدل حق الميراث في جوهره . اختفت الصبغة المقدسة من الحقوق ، ولم يعد التملك مستمداً من الدين ، بل من العمل ، وأصبحت حيازته أكثر سهولة ، وخفت محرمات الشرع القديم شيئاً

وهكذا تلاشى دستور الأسرة وشرعها تدريجياً فقد ذابت معالمه . كما تغيرت إلى الأبد قواعد حكومة المدن بمجرد أن فقدت الديانة رسميتها

يجب أن نقف في دراستنا عند هذا الحد الفاصل بين السياسة القديمة والسياسة الحديثة . لقد رويت تاريخ عقيدة . عندما سيطرت تكون المجتمع البشري ، وعندما تبدلت تعرض المجتمع لسلسلة من الانقلابات . وعندما اختفت تغير وجه المجتمع . ذلك كان دور الأمة العتيقة .

جدول تحليلي (1)

(1) [illegible] حسب [illegible] [illegible] [illegible] في الأصل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

جدول المواد

صفحة

الكتاب الثالث

المدينــــة

الكتاب الرابع

الثورات

السفر الخامس

نظام البلديات بجنتى

تصويب الأخطاء المطبعية

ملحوظة: [illegible] تصويب أهم الأخطاء المطبعية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
المترجم

[illegible]

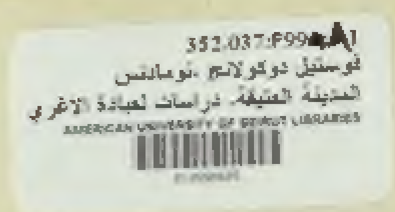
صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	٤	[illegible]	[illegible]
٣	٩	[illegible]	[illegible]
	٢	[illegible]	[illegible]
٥	٦	[illegible]	[illegible]
١٣	١٨ س ٣	[illegible]	[illegible]
	٢٢ س ١	[illegible]	[illegible]
٤		[illegible]	[illegible]
	٤	[illegible]	[illegible]
٩	٨٤ س ٣	أ	[illegible]
٢٩	٧	[illegible]	[illegible]
٣٣	٤		[illegible]
٤	٤	[illegible]	[illegible]
	٦	[illegible]	[illegible]
٥٢		[illegible]	[illegible]
٥	٣٣ س ٣	[illegible]	[illegible]
٦١	١٨ س ٣	[illegible]	[illegible]
٦٧	٤	[illegible]	[illegible]
٦٨	٨ س ١	(Theethete)	(Theetete)
٧٩	١٣	[illegible]	[illegible]
٨	٥	[illegible]	[illegible]
٨٣	٥	[illegible]	[illegible]
٨٦	٢	[illegible]	[illegible]
٨٩		[illegible]	[illegible]
٩٢	٨ س	[illegible]	[illegible]
٩٣	٢١ س ٨	[illegible]	[illegible]
٩٥	١٢	[illegible]	[illegible]

صحیفه	سطر	خطا	صواب
	١٩	eres	heres
٩٩	١٣	حمز	حمز
١٠٧	٧	إيجی	لای
١٢٢	٢٠	إبدعی	عربقی
١٣١	* ٢ س ٢	Τριακοντα ἑκαστο..	τριακοντα ἑκαστοις
١٣٨	٧	[illegible]	قانوا
١٥٤	٦	hratrie	phratrie
١٥٨	س ٣	φυλοβασιλει.	φυλοβασιλεις
١٦٢	١٧	جمهوه	جمهوره
١٦٤	٦	صوبه	صوبلا
١٧٠	٢١	[illegible]	ابوراق
١٧٣	* س ١	ارخشوس	خشوس
	س ١٠	[illegible]	[illegible]
١٩٢	* ١ س ١	[illegible]	[illegible]
١٩٤	* س ٧	[illegible]	[illegible]
١٩٨	٤	[illegible]	[illegible]
٢٠٠	٤	Pallas [illegible]	Pallas [illegible] [illegible]
٢٠٢	١٥	[illegible]	[illegible]
٢٠٤	٣	[illegible]	[illegible]
٢٠٦	٢	ال	بال
٢٠٢		[illegible]	[illegible]
٢٠٧	١	[illegible]	[illegible]
٢٢٢	١٧	[illegible]	[illegible]
٢٢٦	٤	Montesquiu	Montesquieu
٢٢٧	١٣	[illegible]	[illegible]
٢٢٨	١٦	[illegible]	[illegible]
٢٣٦	٢٢	[illegible]	[illegible]
٢٣٧	١٧	[illegible]	[illegible]
٢٣٨		[illegible]	[illegible]
٢٤٠	١	[illegible]	[illegible]
٢٤٢	٧	[illegible]	[illegible]
	٢٠	[illegible]	[illegible]
٢٤٨	* ١ س ٦	Stestmbrote	Stésimbrote

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٣	١	[illegible]	[illegible]
٢٥٤	٤	لإغريق	لإغريق
٢٦٦	٨	[illegible]	[illegible]
٢٦٧	٢	[illegible]	[illegible]
٢٨٠	١	[illegible]	ثيسيوس
	١٤	[illegible]	[illegible]
٣٠٥	٣	[illegible]	[illegible]
٣٠٩		[illegible]	[illegible]
٣٠١	٤،٦،٧،٩	[illegible]	ثيسيوس
٣٠٥	٢	Panatheneas	Panathenées
٣٠٦	٧	[illegible]	[illegible]
٣٠٨	٤	[illegible]	[illegible] او تلبست المدينة حلل ديانة وتظهر على هيئة كنيسة
٣٢٩	١٧	[illegible]	يكن
٣٣٢	١	[illegible] (patres)	الآباء (patres)
٣٣٣	١١	[illegible]	[illegible]
٣٣٨	٤	[illegible]	[illegible]
	٢١	[illegible]	[illegible]
٣٤٠	١	[illegible]	[illegible]
	٥	أرجوس	أرجوس
٣٤٦	١٥ س ٢	[illegible]	[illegible]
٣٤٩	٢٥	[illegible]	[illegible]
		[illegible]	[illegible]
٣٥٠	٧	[illegible]	[illegible]
٣٥٥	٥	[illegible]	[illegible]
٣٥٧	٩	[illegible]	[illegible]
٣٦٧	٢	[illegible]	[illegible]
	٢٤ س ٣	[illegible]	[illegible]
٣٦٩	٣	[illegible]	[illegible]
٣٧٠	١	[illegible]	[illegible]
٣٧٧		[illegible]	[illegible]

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٣٨٠	٢	موقداً ،	موقداً ،
	٩	لاعه	بلاءه
٣٩٩	١٠	واد	وسل
٤٠٣	١٨	نفوس	نفوس
٤٠٤	١٠	سمى	اسمى
٤١٦	٨ ، ص	واسسس واحسسبي	وسسبي و حسسبي
٤١٧	٩	بدي	بدى
٤٢٣	٤	حسب	حسب
٤٢٤	٩	صفه	صفه
٤٣٨	١٦	مصبحة	مصبحة
٤٤٤	١٥ س ٦	ه والأمته	والأمته
٤٥٤	٢	أنه	إنه
	٣	أن . . أن	إن . . . إن
	٨	ا	
٤٥٧	٢٥	حرب	الحرب
٤٥٨	٨	عمر	عمر
٤٦٠	١٧	مستورين	مستورين
٤٦١	٨	لأصدر	الأصدار
٤٦٢	٥	بأى	بأى
٤٦٧	٦	بعضا	بعضاً
٤٧٥	١	محنص	أمحنص
	١٩	لأرس	لأرس
٥٠١	١٣	بس	بس
٥٠٦	٤	براى	رأى
	٨	بكر	بكر
٥٠٧	٢-٣	الكبير هل هل جميع	الكبير هل جميع

مطبعة جريبيج
٢٠ شارع عدلى باشا
القاهره


352.037:F99
فوستيل دوكولانج ،نوما دنس
المدينة العتيقة، دراسات لعبادة الاغري
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

